١٩١٩
مكتبة نوبل

كارل شبتلر

روائع القصص

ترجمة

محمد جديد

روائع القصص

مكتبة نوبل

اسم المؤلف : كارل شبتلر
عنوان الكتاب : روائع القصص
ترجمة : محمد جديد
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٠

Author : Carl Spitteler
Title: World's Wonderful Stories
Translator: Muhammed Jadid
Al- Mada : P. C.
First Edition 2000

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F K A Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . . 8272 or 7366
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

إكزافَر تسْجيلْجِن

إن من يقدّر الطبيعة حقَّ قدرها يجد مرابعه المفضَّلة التي يظل يعود إليها المرة بعد المرة ، حتى وإن تعرَّف في أثناء ذلك على صور من مشاهد الطبيعة أكثر تفوّقاً .

كلاّ ، بل سوف يشوب الحبَّ في العادة بشيء من الغيرة ، وذلك أن المرء يأبى أن يشاطر أي امرئ يقع عليه مشاهدة مشهد من مشاهد الطبيعة شاهده في أكثر أحوال النفس تبايناً ، وعايشه من جراء ذلك ، إن صح التعبير ، واستحوذ عليه ، وإن المرء ليحس بالتخطيط لطريق من طرق المواصلات ، أو بناء فندق ، إحساسه باعتداء ، ويشعر ، من جرّاء ذلك ، بالجرح والإهانة .

ومن المرابع التي أُولِعْتُ بها بقعة تقع بين دير آينزيدلِن ، ومنطقة شفيتس ، وإنها لجميلة بما يكفي لتفتِن العين والقلب بجلالها ، غير أنها منعزلة بما يكفي لإفساح المجال لتأمُّلٍ واستمتاع لا يكدر صفوهما مكدِّر .

ويرحل المرء في الصباح الباكر ، على الخط الحديدي ، إلى زوريخ ، منطلقاً على حافة البحيرة الوديعة ، ثم على خط حديدي جبلي ، إلى أعالي شنديلليجي ، ويعبر الحاجز المائي إلى آينزيدلِن .

فههنا يتميّز العالم بنهاية صغيرة عالية ، موحشة ، والمسألة تعني ارتقاء ممر فوق الإيبرج ، يتطلب طاقة متنزهٍ جَلْدٍ ، متين البنيان ، تحت مرتفع ميتنْشتوك ، والطريق أبعد مما تفضي به إلى المرء ذاكرته التي تظل أبداً تقصِّر المسافات . والوقت يمضي . وربما مكث المرء سويعة فوق ما ينبغي عند الغداء وحين يكون قد وصل إلى الأعلى فوق مرتفَع الممر ، فسيغلب على الظن أن يكون حلَّ المساء .

ولكن مهما تُنْذِرْنا الساعة والشمس الآفلة ، فسوف نستريح في الأعلى ، عند الكوخ الصغير ، ساعة من الزمان ، إذ يوجد أمامنا ، بين الغابات المظلمة ، منحدر جبلي ذو عمق يبعث على الدُّوار ، مقفر الأعالي ، قد زُرِعت سفوحه بمائة من المنازل الضئيلة . وفي النقطة القصوى من أسفله جانب من بحيرة الغابات الأربع ، تحدق به متاهة حقيقية من هامات الألب التي يتداخل بعضها في بعض ، في عناد . وليس هذا «منظراً» نطل عليه ، بل هو أكثر من هذا : فهو منظر طبيعي ، وهو في الحق منظر كذلك الذي كان خيال كخيال رجل مثل ليوناردو دافنشي خليقاً أن يحلم به .

وفي الوقت الذي لا يُرى فيه إنسان على مدى ساعات من الزمان ، إذ تميل الشمس إلى المغيب ، تجر بعض الشخوص أقدامها في مشية متثاقلة ، نحو الصخرة ، إلى اليسار منا .

فما عساهم يبتغون هناك ، في الأعالي ؟ إنهم ينظرون ، من بين أشجار الصنوبر ، ويطلّون على الوادي متأمِّلين .

وإذا ترنيم شعبيّ يتردد في كل اتجاهات الريح الأربعة ، وفي أعماق سفوح المنحدر الجبلي يجيب إيقاعُ جلاجلٍ وخُوار بقر . ولم نشعر إلاّ وقد جعلت القطعان تتسلق وتزحف ، على شاكلة النمل ، نحونا ، وكانت تزداد

عدداً ، وحجماً ، عبر المراعي ، في نسق أفعواني ، على الطريق المتعرِّج ، بحذاء الأسوار من الشجر المتشابك .

ولم يكن هناك من مفر ، إذ لم يكن أمامنا إلاّ أن نشق طريقنا في وسطها .

وظلت البقرات واقفاتٍ كمن يمتثل لأمر ، وهن يحملقن فينا ، إلى أن بِتنا على بعد ذراع منهن ، ثم هربن بخطوات ثقيلة الوقع ، ينتحين جانباً ، بينما ظلت الثيران محتفظة بمواقعها ، متجهمة ، كأنما تقول إن علينا أن نخلي لها المكان .

ثم يتعرّج الطريق ، ساعات ، في زوايا حادة باتجاه الوادي ، وهو يمر بحظائر وأكواخ للرعاة ، ومنازل ريفية أنيقة ، وبمقر سيد شفيتس الذي يثير الحسد ، في الهواء الطلق .

ويخرج الغسق زاحفاً من البحيرة إلى الأعالي ، وهناك في الأعالي تلتمع النجوم ، وحول الذرى البعيدة للألب تزمجر عاصفة ، وحين نصل آخر الأمر إلى شفيتس ، نكون في ساعة متأخرة من الليل ، حالكة الظلام .

على أن البُروق والنجوم لا تتوزع على الدوام في السماء توزُّعاً يتسم بسمة السلام ، إذ يمكن أن يحدث أيضاً ، ويحدث عندئذ مباغتاً كل المباغتة على الأغلب ، أن يرى المرء نفسه معرَّضاً للعاصفة الهوجاء في منتصف الطريق إلى المرتفع .

وهذا ما حدث لي أيضاً في الصيف الماضي .

كان الليل ، والمطر الهاطل ، والبريق الباهر الذي لا يكاد ينقطع ، الناجم عن البروق الزُّرق ، يحجبان عني الطريق ، ولم أكن أتقدم إلاّ متخبِّطاً

في الظلام ، ملتمساً طريقي بقدمي . وإذا راعٍ من رعاة البقر السويسريين ، فتى ، متين البنيان ، صلب العود ، يدركني ، ويعرض عليّ ، بالطريقة الطيبة ، المخلصة المعروفة عن أهل الألب ، المعونة والمأوى . وهكذا أنفقت الليل في مسكن من مساكن الرعاة .

وهمس الفتى الطيب وهو يقودني إلى حجرة أخيه الغائب ، قائلاً : «ليست بالحجرة الراقية ، ولكن مقصدي طيب ، ولو كان عندي خير منها لقدمت ما هو خير منها» وأضاف قائلاً بشيء من الزهوّ : «وإذا كنتم تريدون قراءة شيء ما قبل النوم...» .

وسلّط الضوء ، وهو يقول هذه الكلمات ، من شمع الشحم الأبيض ، على حافة النافذة ، ووضع في يدي ثلاثة كتب كساها الغبار .

وكانت اللياقة تقتضي أن أتفحصها تفحصاً عابراً . وكانت هذه قصة سويسرية للمدارس ، وكتاب صلوات ، ومجموعة مصفرّة من عمليات الساحرات والسحر .

وحين فتحت الكتاب الأخير وقع ناظري على الجملة التالية : «... وحتى على الطريق إلى المشنقة لم يعلن استعداده للتوبة والتكفير ، ولم يلتمس الحَلّة* .

بل واصل اتهام الثالوث المقدس ، والعناية الإلهية ، وناموس الكون ، بالألفاظ المريعة ، ولم يتراجع ، حتى وهو تحت وطأة القبضات المؤلمة للجلاّد ، عن هرطقته المخيفة ، بحال من الأحوال ، بل كان يصرخ بصوت عال ، قائلاً إنه مصرّ على ذلك في تحدٍّ للإنجيل المقدس ، وأن خلق العالم

* الحَلّة : مصطلح يميد أن الرب إذا كنتَ صادقاً باعترافك فهو يحلّك من خطاياك ، أي يغفر لك

كله ناشئ عن شر مبني على الغرور وبدافع السرور بالأذى من جانب الشيطان ، والعياذ بالله» .

وباغتتني هذه الكلمات ، ففي عصور الدين كان اسم الله والقديسين تراعى حرمته حتى من قبل أكثر المجرمين دناءة . ويبدو أن الحديث كان يتناول واحداً من روّاد نزعة التشاؤم الحديثة ، وكان ذلك مما زاد في فضولي للتعرُّف على الأسباب الباعثة لهذا الأسلوب المتفرِّد في التفكير ، إذ كان لابد أن تكون هذه الأسباب ذات قوة جبّارة لكي تخترق بها السلاح الرهيب للكنيسة والعصر .

ولذلك ، فبعد أن غادر مضيفي الحجرة بعبارة تنم عن التقوى ، إذ قال : «حفظك الله!» تلمّست بداية الرواية ، حيث استخلصت من ركام الإجراءات القضائية والإعترافات المدوّنة في الملفّات ، قصة معاناة بالغة التأثير .

كان إكزافَر تْسجيلجِن ، وهذا اسم المنحرف ، فيما سلف ، من أصحاب المراكب الفقراء ، من برونن ، في شفيتس ، ينقل أهل السوق من القرى وبقاع ضفة البحيرة المقابلة وعبر البحيرة ، بالأجر ، إلى فلويلين .

وكان يتولى ، مرة في العام ، في أواخر الخريف على الأغلب ، سَوْق قطيع من أكبر قطعان الماشية ، فيعبر به نهر الجوتهارد ، إلى سوق لاويس* ، فإذا حل الشتاء ، وقلّ العمل ، دخل أيضاً في خدمة النبلاء في شفيتس بضعة شهور ، حيث كانت معاشرته تروق للناس بسبب طبيعته الهادئة المتواضعة ، وبراعته ، وحسن مظهره .

ولم تكن هموم كسب الرزق تستنفد نشاطه فحسب ، بل كانت

* لوجانو

تستنفد اهتمامه أيضاً . وعلى الرغم من أن الفتى الوسيم كان يفوق أغنى رعاة البقر في حلبة الرقص ظَفَراً بالحظوة عند الفتيات ، لم يخطر بباله مع ذلك أبداً أن صاحب مركب فقير مثله يحق له أن يتزوَّج .

وهكذا تصرَّمت فصول الشتاء وفصول الصيف ، وحين بلغ ، في العام ١٦٤١ ، سن الثلاثين ، ترك حلبة الرقص للفتيان الأحدث سناً ، إذ غدا فتى كبير السن .

وفي الخريف التالي ساق قطعانه ، كما كان مألوفاً ، إلى لاويس ، ولمّا كان قد وصل على وجه الخصوص في الوقت الذي كان يتم فيه قطاف العنب في جيورنيكو فقد أدخل قطعانه في الحظيرة ، وجعل ينظر إلى العمل بهدوء الرجل الألْبِيّ .

وكانت غانية سمراء ، حافية القدمين ، مشمَّرة الثوب ، قد غرست زهرة رمان في خصلات شعرها فوق الأذن ، تمرّ به مراراً ، في مشية حرة طليقة ، وهي تحمل السلّة الملأى ، وتلقي عليه نظرة جانبية فاحصة . وأخيراً كشفت له عن أسنانها الصغيرة البيض ، وغمزته غمزة خفيفة بمرفقها ، وصاحت قائلة ، بصوت مرتفع ، بلهجة أهل شفيتس الألمانية : «أيها الكسلان! في وسعك أن تساعدنا قليلاً بدلاً من وقوفك ههنا» .

وكان يواكب مُزاحَها ضَحِك عام وراء فروع أشجار الكرمة ، ورأى إكزافر نفسه ، من جراء ذلك مُلْزَماً بالاستجابة للطلب .

ولبث طوال الأمسية يعمل بجد ونشاط بسكين الكَرّام ، وكان إذا همَّ أن يستريح لحظة لفتت الغانية نظره إلى العنب .

وقالت تأمره : «المزيد ، المزيد!» فيشرع من جديد ، على الفور .

ولم تودعه حتى بعبارة شكر . ولابد أنه كان من العادات المألوفة في جيورنيكو الإلحاح على المسافرين لكي يعملوا عمل الكرّامين .

ولكن حين بات على مسافة مائة خطوة ، دار على عقبيه ، ودلف ببطء ، مرة أخرى وأشرقت عينا الفتاة وهي تراه يعود أدراجه ، ثم عضت على شفتيها وانتظرت .

وقال بصوت غير مطمئن : «ما اسمك ؟» .

وقالت وهي تضحك ضحكة رنّانة : «سبيرانتسا» .

وتوّلاه الآن خجل تجاوز كل الحدود . وكان يبدو أنه سأل سؤالاً غبياً ، وشعر بالندم لأنه عاد أدراجه .

والطريق إلى لاويس بعيد ، والقطعان «تسير ببطء» . وإذن فقد وجد إكزافر ، على الرغم من أنه لم يكن أقل من مفكر ، من الوقت ما يكفي ، ليفرغ من الأفكار التي كانت تخطر بباله على غير إرادة منه .

ولذلك توجّه ، بعد أن فرغ من أعماله في لاويس ، إلى حاكم الإقليم الريفي ، وهو رجل من أهل شفيتس سبق أن عمل في خدمته ، وسأله بسذاجة ، هل ينبغي له أن يتزوج فتاة يود لو يتزوجها .

وربت الحاكم الريفي على كتفه ، وقال : «الحق أني لست قسيس اعتراف ، ولو كنت مثل هذا القسيس لفكرت مرتين قبل أن أسدي النصح إلى امرئ آخر في شؤون الزواج ، ولكن ما دمتَ سألتني فأنا أجرؤ على أن أقول لك إنه لا ضير في أن يودّ المرءُ لو يتزوجُ ممن يريد .

وعلى أثر ذلك توجه إكزافر إلى رحلة العودة ، وزار صاحبته سبيرانتسا و«سوّى علاقته معها» ، واصطحبها معه ، زوجة ، عبر جبل الجوتهارد .

ولم يكن الأمر في حاجة إلى الكثير من الشكليات ، لأن دائرة الكنيسة سرّها أن تخلص من سبيرانتسا الفقيرة إلى حد التسوُّل ، ولم يكن لهما مركبة أيضاً . وكانت كل دوطة الفتاة في صرة شدّها إكزافر على ظهره .

وفتح أهل بلدة إكزافر عيونهم من الدهشة ، وهزّوا برؤوسهم حين رأوه يعود مع زوجة . أمّا أنها كانت فقيرة فقد شاؤوا أن يغفروا له ذلك بالنظر إلى فاقته ، ولكن اتخاذه غريبة كزوجة له مع انتمائها فوق ذلك إلى بلد التابعين الأذلاء ، رغم أن في وسع المرء أن يختار من بين نساء شفيتس اللواتي تجري في عروقهن دماؤها خالصة ، كان له وقع الإهانة في الكانتون السياديّ التابع للاتحاد السويسري . على أن الزواج الشاذ يجري الإحساس به في الريف في إطار نظرة أكثر صرامة مما يحدث في قصر أو بلاط .

ورأى إكزافر أن المجتمع يتحاشاه بحكم كونه «خائناً أو مفارقاً للجماعة» ، ولولا أن أولياء نعمته ، نبلاء شفيتس ، الذين كانت لهم نظرات أكثر تحرراً ، أعطوه عملاً ، لكانت عزلته خليقة أن ترغمه على الهجرة .

على أن السوء الذي لقيه من عامة الناس ، وفي دائرة الكنيسة ، وفي الحانة عوّضته عنه بالطبع السعادةُ التي كان يجدها في بيته الصغير . وكانت سبيرانتسا طلقة الأسارير في كل الأوقات ، على الرغم من اضطراب أمور بيتها ، بل على الرغم من القذارة في إدارة المنزل التي كانت تجعل الجارات يعقدن أيديهن على رؤوسهن من فرط الدهشة ، وكانت تغني وهي تعمل في المطبخ ، وفي الحديقة الصغيرة ، وتضحك إذا لم يكن في وسعها أن تفعل أو تقول شيئاً أفضل . وفي أيام الآحاد ، على الطريق إلى القداس ، كانت تسير منتصبة القامة ، بخطوات كخطوات النبلاء ، إلى جانبه ، حتى لقد كان يبدو في نظر نفسه كأنه حاكم لشفيتس ، وما كان ليرضى أن يستبدل بمكانه مكانَ أغنى رعاة البقر .

وحين أنجبت له ، في نهاية العام بنتاً أصبح سعيداً كالأطفال ، وما عاد يحفل بالدنيا كلها ، وما عاد يزور دائرة الكنيسة ، ولا الحانة ، بل لم يكن يرتاد الكنيسة إلاّ نادراً . وكان يقعد في البيت على قدر ما كانت تسمح به أعماله .

وقد عمَّد الفتاة بالطبع باسم سبيرانتسا ، إذ لم يكن يعرف اسماً أفضل منه على وجه الأرض .

وسارت الأمور على هذا المنوال ، بسعادة وسلام ، حتى شباط ١٦٤٥ .

ففي هذا الوقت ، وأثناء ثلاثاء المرفع ، استوقف صاحبته سبيرانتسا ، وهي في طريقها إلى البيت ، عائدة من الرقص في لوفيرتس ، حيث ذهبت وحدها ، بينما كان إكزافر يرعى الطفلة في أثناء ذلك ، «أشقياء الليل من أهل المجون» وأخرجوها عن طريقها ، وحين لجأت إلى الدفاع عن نفسها أردَوْها قتيلة ـ «بدافع المجون والتسلية» ، كما جاء في الملفّات .

ومنذ هذه اللحظة ــ وأنا أتابع منذ الآن ، الاتهام في أسلوبه وفي مضمونه ـ أظهر إكزافر روحاً مجانبة للروح المسيحية .

وكان يظهر كبرياءه أول الأمر بإثارته ضجة كبيرة حول عملية القتل ، بصرف النظر عن كون القتل إنما تمّ على أيدي أشقياء الليل السكارى ، على سبيل التسلية ، وبحق فتاة من إينيتبرج كانت تُستَحَل سَحْلاً . بل كان يُثْقِل على حضرات السادة وعلى دائرة الكنيسة ، على الرغم من كل الكلمات التي كانت تهدف إلى تطييب خاطره ، يُثقل عليهم بطلبات لا تنقطع ، مؤداها أنه ينبغي للمرء ، من أجل هذه القصة التي لا طائل تحتها ، أن يوجه الاتهام إلى الطبقة العزيزة ، الغالية ، المنتمية إلى الاتحاد السويسري ، وذات الجوار الودي ، وإلى الكاثوليكية ، بحكم وظيفتها ، ويشكو منها ، ويحاربها غيرَ هيّاب .

وبعد أن غلبته الأصوات مراراً في هذه المسألة ، من جانب دائرة الكنيسة ، مع استعمال التهكّم والتقريع ، قطع ما بينه وبين الناس فجأة ، وأهمل عمله ، وثيابه ، وما عاد يذهب إلى تناول القربان ، والاعتراف ، وكان يجيب معاون القسيس حين كان هذا يعترض عليه ، قائلاً إنه يطلب من الله عز وجل أن يأتي بمعجزة ، ويرد له صاحبته سبيرانتسا العزيزة إلى الحياة من جديد ، وعند ذلك يثني على فضله وقدرته على كل شيء .

وفي الوقت الذي كان فيه يزدري الكنيسة المقدسة على هذا النحو ، كان يمارس نوعاً من الولع الجنوني بطفلته يبعث على الاستياء ، إذ كان يشتري لها ، بالمال المدخر طوال السنين الثياب الباهظة ، وما لذ وطاب من المآكل ، وأنواعاً شتى من الألعاب المسلية ، حتى جعلت تروح وتجيء في كبرياء ، وكأنها طفلة عضو في المجلس البلدي في لوزان . ثم إنه لم يكن يؤدب طفلته أبداً بالعصا ، حسب التقاليد المسيحية الأصولية ، بل كان يلاطفها من الصباح إلى المساء ويناديها بأحلى الأسماء ، ويستجيب لكل رغبة من رغائبها ، كما لو كان خادماً لها لا أباها . وكانت الطفلة تتعلق به تعلّق الكلب بسيده ، وكانت تأبى أن تلعب مع أطفال آخرين بل كانت تصحب أباها في أسفاره ، إلى ستانز ولوزان ، بل حتى إلى أوري ، وإيطاليا .

وكان يسود بين كليهما تعلُّق قائم على الولع الجنوني الآثم بلغ منه أنه بات يعرف شيئاً فشيئاً كيف كان يضيف إلى إثم الهرطقة المبنية على الكبرياء والتعجرف جريمة السحر .

ولكن سحره أصبح ظاهراً لكل العيون من جراء الابتلاء الشديد الذي رمى به الله القادر على كل شيء ، في رحمته ، في عام ١٦٤٧ ، الدائرة الكنسية الخاصة ببرونن بسبب خطاياها .

وذلك أن مدير المدرسة بالتسر أخذ الأطفال ، في الصيف ذاته ، في العيد ، إلى آينزيدلِن ، عبر الإيبرج .

ولكن لمّا كان كثير من التوت الأحمر السام ينمو وراء أملاك البلدية في الغابة ، وقد ألحق بعض الأضرار بصحة فريق من الناس ، فقد حذَّر الآباء أطفالهم بكثير من الصرامة ، من الخروج عن الطريق ، وأكل التوت الأحمر ، وذكرَّوهم بوجوب التزام طاعة المدير مثلما يلتزم هؤلاء أنفسهم بالولاء والطاعة للسلطة التي تحكمهم ، بتهذيبهم وتقواهم .

ولكي يظل تعليمهم وتحذيرهم منطبعاً في ذاكرة الأطفال ، أدَّب كلٌّ منهم طفله أمام الجمهور المحتشد ، بالعصا ، كما حثوا مدير المدرسة أيضاً على تكرار التأديب ذاته من أجل الترسيخ الأفضل في الذاكرة ، وأن يكون ذلك أولاً عند المنشرة ، تحت أملاك البلدية ، ثم فوق جبل الرياح الأربع ، فوق الغابة .

إلاّ أن إكزافر تسجيلجِن لم يؤدب طفلته ، بنفسه ، بالعصا ، ولم يرض أن يحتمل أن يحذرها المدير التحذير ذاته عن طريق الفعل ، ولم يقنعها أيضاً بأسلوب حاد ، بل نظر في عينيها نظرة رقيقة ، وسألها بصوت رقيق ، هل تريد أن تكون طفلة طيبة من أطفال شفيتس أم تريد أن تكون طفلة شقية ، وذلك أن هذا كان دأبه فيما يوجه إليها من الأسئلة في كل يوم . غير أن الطفلة لم تظهر خوفاً ، ولا خضوعاً ، بل أجابت بصوت جريء قائلة إنها تريد أن تكون طفلة طيبة من أطفال شفيتس ، ولا تريد أن تمس توتاً مهما كان لونه ، فضلاً عن الأحمر ، أو تأكله .

وأثنى إكزافر على طفلته ، وضمّها إليه ، شأن الأمهات ، ولم يوجّه إليها تحذيراً آخر على الإطلاق ، حتى بات فزع كبير يستحوذ على الجمهور من نهايتها الوشيكة التعيسة المريرة .

وتغلّب الأطفال على المدير عند جبل الرياح الأربع ، فوق الغابة ، وقيّدوا يديه وقدميه بقطع من القماش .

ثم جعلوا يروحون ، ويأكلون التوت الأحمر إلى ساعة متأخرة من المساء .

ولكن حين طلع القمر ، واشتد عليهم البرد ، وأخذ السم يبعث المغص في أحشائهم ، ندموا على تمرُّدهم ، وفكّوا أغلال المدير ، وأحاطوا بركبتيه ، وجعلوا يتوسلون إليه بالدموع والأحاديث الباعثة على الرثاء ، ويلتمسون منه أن ينقذهم ، بحق رحمة المسيح ، من آلامهم المبّرحة ، ويردهم إلى دارهم .

ومات من هؤلاء الأطفال أنفسهم سبعةٌ ، ميتةً بائسة ، فمنهم من مات في الطريق ، ومنهم من مات في اليوم التالي ، في سريره ، غير أن الباقين لبثوا وقتاً طويلاً ، يعانون من آلامٍ مبرحة .

ولكن سبيرانتسا تْسَجيلجِن وحدها لم تخرج على طاعة المدير ، على الرغم من أنها لم تتلق تأديباً ولا تحذيراً ، ولم تأكل من التوت الأحمر ، ولم تشعر بألم أيضاً ، حتى لقد تجلى سحر أبيها أمام كل العيون ، ولولا تدخل حضرات السادة في شفيتس ، وشفاعتهم ، منذ تلك الأيام ، لسيق إلى العقوبة المستحقة من جراء آثامه .

ولكن لما كانت كبرياؤه تزداد من يوم إلى يوم فقد وضع الله القادر على كل شيء ، نهاية لصبره الطويل ، بأن حال دون أن تشفى معبودة قلبه ، المرتبطة بالخطيئة ، وهي الطفلة سبيرانتسا ، من رمية حجر تلقتها أثناء التسلية مع الصبية المبتهجين ، وتركها ينتابها السقم تحت وطأة الآلام المبرحة .

ولكن بدلاً من أن يتلقى إكزافر تسجيلجن العقاب بتواضع مسيحي ويستفيد منه للتكفير عن آثامه وتحسين حالته ، ازداد إصراراً وعناداً ، وتوَّج تعجرفه المتزندق ، بأنِ استقدم ، في ازدراءٍ لشفاعة الدير التي تصنع المعجزات ، وبتكاليف طائلة ، طبيبين متضلعين ، أثناء الليل ، من لوزان إلى ناون* ، رَعَيا المريضة بكل فنهما ورعايتهما ، ونظّفا القروح التي لا تندمل ، بالسكين والحديد المُتوهج ، بدقة وعناية .

غير أن سبيرانتسا أبت أن تتحمل الطبيب بأدب وتجمُّل ، بل شرعت في الصراخ العنيف ، والشكوى ، قائلة : لماذا تضطر إلى أن تعاني من هذا الألم المبرِّح ، ألَم تكن في كل الأوقات طفلة طيبة من أطفال شفيتس .

وكانت تتضرع إلى أبيها بالكلمات والنظرات تضرُّعاً بلغ من تأثيره أن كل الواقفين من حولها أجهشوا بالبكاء .

غير أنه لم يكن يقنعها ، حتى في هذا الوقت ، بأسلوب صارم ، ولم يعلن لها أيضاً أنها تحتمل الآن آلامها من حيث كونها عقاباً رحيماً ، عادلاً ، على خطاياها ، بل كان يثني عليها بالأحاديث الرقيقة ، وينحي باللائمة على الدنيا ، وعلى السماء ، وينعتها بصفة ابنة شفيتس العزيزة الطيبة .

ولكن حين لاحظت سبيرانتسا حب أبيها الجنوني طوّقت عنقه ، وأقسمت وهي ترتعد وتصيح ، أنها لا تعرف ماذا صنعت من شر حتى ترك الطبيب يعاقبها ، فليغفُ عنها ، وليصرف الطبيبين ، وليشف قروحها ، فهي تريد أن تظل طوال حياتها كلها طفلة طيبة من أطفال شفيتس ، ولا تعود أبداً إلى اقتراف شيء من العناد .

---

* ناخِن .

وظلت تتوسل وتصرخ إلى أن حانت نهايتها الحافلة بالتوبة والندم ، في الثاني عشر من كانون الثاني ١٦٤٨ .

ولكن في السابع عشر من كانون الثاني ، في يوم عيد القديسة جرترود ، حين كان صاحب الغبطة ، الأب ألويسيوس يلقي موعظة حول النص القائل : « ونظر الله إلى كل ما صنعه ، فإذا هو بالغ الحسن » (١ - موسى ، ١ ، ٣١) ، وثب إكزافر تسجيلجن ، وجعل يشتم صاحب الغبطة الأب ألويسيوس ، وسط كثير من الصرخات والبكاء ناعِتاً إياه بأنه كذّاب ، ويصف الإنجيل بأنه تعاليم خطأ وضلال ، وشرع يتفوّه بألفاظ الهرطقة الرهيبة على وجه الخصوص ، وكأنه يرى أن العالم لم يخلق من قبل الله عز وجل ، وبفضلٍ منه بل من قبل « الشيطان » والعياذ بالله ، وذلك بدافع المكر ، ليتسلى بألم البشر الأبرياء ، والحيوانات البريئة ، وتعذيبهم .

وبذلك تجلت هرطقته ظاهرة على الملأ .

غير أن الجمهور ضاق ذرعاً بكلامه ، وضربه ، وتغلب عليه ، وأسلمه إلى القضاة ، لينال ما استحق من العقاب...

وكانت الشمعة قد احترقت إلى آخرها ، واستحوذ التعب على أفكاري .

وبينما كان الرعد يهدر ، والمطر ينهمر متدفقاً من خلال فُرُجات النوافذ نمت نومة هانئة حتى ساعة متأخرة من الصباح .

ولكن حين ظهر ضوء الصباح المتألّق داخل الحجرة ، والتمعت في الأسفل ، أمام عينيّ برونن فوق البحيرة في ضوء الشمس الساطع ، وفوقها جبل ميتين العالي ، والإيبرج ، هنالك تذكّرت أنني بتُّ أحلم الليلة كلها ، بالشقي إكزافر تسجيلجِن ، وزوجه الجميلة ، والصغيرة الجميلة سبيرانتسا .

وكنا نتجول ، نحن الأربعة جميعاً ، ذاهبين من آينزيدلِن إلى شفيتس ، وكان إكزافر وزوجه يزغردان في الأعالي ، على قمة الصخور فوق الوادي . وكانت سبيرانتسا تقطف لي زهور الجَنْطيانا ، وكنت أسمّيها ابنة شفيتس الطيبة العزيزة .

وقال الراعي الذي كان في هذه اللحظة قد صعد إلى الحجرة ودخلها ، وهو يضحك : «لقد نمتم نوماً جيداً ، أجل ، أجل! إذا لم يكن المرء معتاداً على ذلك ، فسيحتاج إلى النوم بعد مسيرة طويلة كتلك التي قمتم بها بالأمس . سآتيكم بقدح من اللبن ، إذا راق لكم ذلك ، ويؤسفني أنني لا أستطيع أن أقدم لكم القهوة والشيكوريا والسكر ، وأمثال هذه الأطايب» .

«من ينبغي لي أن أشكر له كرم الضيافة ؟» .

ويقول الرجل : «إغناتس تسجيلجن» ، وحين لاحظ حركتي ، وحَدَس ، عن طريق نظرة إلى الشمعة المحترقة ، والكتاب المفتوح ، علّة هذه الحركة ، أضاف قائلاً : «إنما يرجع نسبي إلى أخ لذاك المدعو إكزافر تسجيلجن... لقد تحسنت بعض الأمور منذ ذلك الوقت . وإن كنت مثله على وجه الخصوص ، قد عقدت خطبة على واحدة من أهل تيسين ، فإن الخوف لا ينتابني من جرّاء ذلك ، فعلى الجانب الآخر من الجوتهارد يوجد بشر أيضاً ، مثلنا تماماً ، أمْ ما قولُك في هذا ؟» .

مقدِّم التحية

كانت الحجارة ترتطم مُفَرْقِعة ، كالبَرَد الكثيف ، بألواح نوافذ المنزل الذي كان مقدّمو التحية قد اجتمعوا فيه .

وعبثاً كان القس يحاول أن يهدّئ ثائرة الجمع الغاضب .

وكان خادم الشرطة الوحيد في البلدة يقعد في مطعم «النسر الذهبي» منهمكاً في لعب الورق ، وهو يحاذر في حكمة ، أن يكشف عن شخصه المتحدي ، للجمهور .

ولكن كانت تقف ، إلى جانب بيت مقدمي التحية ، في حديقة القصر ، السيدة الحاكمة مع ابنتيها الجميلتين جمال الصور ، على سور الشارع ، شاحبة من الفزع ، متماسكة مع ذلك ، وهي تحول ، بفضل وجودها ، دون أن يتمادى الغضب ، في مسار جانبي ، شارداً باتجاه أملاك الارستقراطي المحسود .

وكان يوجد بين قادة الهجوم صانع ساعات في مقتبل الشباب ، يدعى بيير غروسجان ، وكان هذا يذكي أوار الغضب بصيحات قصيرة ، وصفارته في زاوية فمه وقبعته على مؤخرة رأسه ، مبتهج النفس ، ويداه في جيبي

سرواله ، في ابتذال . ولم يكن يجهد نفسه ، في معظم الوقت ، بالعمل التخريبي . وكان حَسْبُه أن يعمد ، حين يكون القسيس قد نجح ، بعد جهد لا يوصف ، في وَقْفِ انهمار الحجارة من أحد الجوانب ، إلى البحث في بلاط الشارع ، ليختار حجراً بحجم رأس طفل ، فيقلّبه هنيهة في مُقَعَّر كفه ، ثم يقذف به آخر الأمر إلى المحلّ التالي بقوة كان يبلغ منها أن ألواح زجاج النوافذ كانت تتهاوى متبعثرة تصلْصِل .

وحشرت فتاة نفسها ، وهي تضحك ، بين صفوف المتمردين ، وألصقت نفسها به مزهُوّة ، وكانت هذه جان ـ ماري ، حبيبته .

وكانا يستمتعان معاً بالمشهد الذي كان يتفاقم ، بعينين مشرقتين . وكان يوم احتفال مثل الأيام الأخرى ، وكان يفيدهما من أجل تضارُبٍ في يوم الاثنين من عيد الفصح ، في حانة للرقص .

وأخيراً تحررت المحلات التجارية من أقفالها ومزالجها ، في أماكن عديدة ، في وقت واحد ، حتى لقد باتت ألواح الزجاج غير المحمية تنطلق بفعل الطلقات النارية إلى مكان عميق في الداخل ، فتحول المرايا ، والمقاعد وأنواعاً شتى من الأدوات ، إلى حطام وأنقاض .

وحيَّت هذا النجاح الأول صيحة نصر تصمّ الآذان . وفي مثل لمح البصر اتُّخِذ قرار باقتحام باب المنزل .

وإذا صانع الأقفال يقتحم ، مع أُجَرائه الدرج القائم أمام المنزل ، وإذا الباب ينفتح من تلقاء نفسه فجأة ، ويظهر ، في رتل منتظَم ، ثنائيّ ، مقدِّمو التحية ، يجأرون ويَدْعون .

واندهش الثائرون ، وقد أخذهم الذهول ، وتحوّل الصخب الهادر بغتة إلى هدوء لا تُسْمَع فيه نَأْمة .

وفي الاتجاه الذي انسحب إليه مقدمو التحية ، تقهقرت الكتلة البشرية في إجلال غير إراديّ ، مفسحةً مجالاً واسعاً .

ولكن كانت تَندُّ بعضُ كلمات التهكُّم شيئاً فشيئاً ، في صوت بين الارتفاع والانخفاض كلما برز واحد من أهل جيش الخلاص . ثم إن المجال الذي كان يتسع حول المنسحبين كان يزداد ضيقاً على نحو مطرد من جرّاء التدافع الخائف الوَجلِ من قبل الواقفين وراءهم . ومع مضي الوقت كانت كلمات التهكم تزداد جرأة وكثرة وكان القوم يفصلون بين أفراد من مقدمي التحية وبين النسق الإجمالي ، ويسيؤون إليهم ، وكان القادمون الجدد يتولاهم الفزع الآن ، هنيهة ، من جراء الشتائم والتهديدات قبل أن يدعوا القوم الباقين يلحقون بهم .

وفي هذه اللحظة برزت النقيبة الشابة في حُلّتها المطرزة بالذهب وخرجت صلبة القامة مثل المسطرة ، في ملامح صارمة كالبيوريتانيين ، وهي تلقي نظرة انكليزية حافلة بالازدراء على الرومان العاطفيين المستثارين ذوي الدم الحار .

وردّ القوم على تحدّيها الصامت بزمجرة غضب لا كلام فيها ، وبفيض من الشتائم الشخصية التي تضمنت كل مايقدر على أن يهين امرأة ويثير ثائرتها . وحين ردَّت النقيبة الشقراء الآن رأسها إلى الوراء وهي تعض على شفتيها في عناد ، تسلَّحت عشرات من الأيدي .

ولم يكن قد لحق بها أي أذى فعلي .

هنالك همست جان ماري في أذن عشيقها بشيء ما ، بينما كانت تنظر في الوقت ذاته نظرة حسد أنثوي إلى الانكليزية البيضاء ذات العينين الزرقاوين .

وانحنى جروسجان ، وأخفى يده وراء صُدَيْرِيّه الأخضر ، وبينما كانت النقيبة تهمّ بارتقاء درجة السلّم الأولى ، قذف بالحجر خلسة من دون أن يُسَدِّد صوب هدف معين ، إذ كان ذلك أقرب إلى أن يكون بدافع الحاجة إلى إظهار كراهيته منه إلى أن يكون بدافع الرغبة في إصابتها .

وفي الثانية ذاتها تقهقرت النقيبة ، في فزع ، أمام الكتلة التي كانت تموج مقبلة عليها فوق السلّم ، ولامس الحجر رأسها ملامسة قبل أن يسقط على الأرض في داخل المنزل .

وترنّحت ، ثم دارت على عقبيها على عجل ، في الاتجاه الذي جاء منه الحجر المقذوف ، ونظرت إلى خصمها الذي كشف عن نفسه بفزعه وذهوله بعينيها الباردتين الزرقاوين كزرقة الماء ، نظرة ثابتة ، ورفعت ذراعيها مُباركةً ، وهي تقول : «يارب ، اغفر لهم ، فإنهم لا يدرون ما يفعلون» ، ونادته باللغة الفرنسية ، بوضوح وبصوت عال ، وإن كان ذلك بِنَبْرٍ أجنبي للألفاظ . ثم توجهت وجهة جانبية ، من دون أن تحفل بالدم الذي كان ينزّ من جرحها ، ونزلت على السلم بثقة ، وانصرفت .

غير أن الجمهور الذي أفزعه مرأى الدم وأخرجه من سِكْره ، أفسح لها المجال بصمت حتى وصلت إلى محطة القطار من دون أن تتعرض لأخطار أخرى .

وفرّ بيير جروسجان ، كالمخمور ، خارجاً من المعمعة ، نحو شارع الجبل ، وهو يبعد عروسه عنه ، متجاهلاً أسئلة رفاقه .

وكان قد بلغ نقطة بعيدة بعد أن تجاوز أنقاض الحصن ، ولكن النظرة الجامدة ، والملامح المنتظمة لعدوّته ومباركتها المزهُوّة كُنَّ يُفْزِعْنَه ويحملنه على المضي قدماً بغير توقف وكان الانعكاس الصارخ لضوء الشمس على

الأرضية الكلسية البيضاء يبهر عينيه ، وقد ظهر العرق على جبينه ، بارداً ، مزعجاً .

وفي موقع بالغ العلو ، قبالة غابة الزان المظلمة التي تتوّج هامة الجبل رأى أنه يحس بالراحة . فوقف ساكناً ، ونظر حواليه وهو يسحب نَفَس المتنهد .

وكانت طبقة من السحاب سوداء مقطوعة الحَوافِّ قطعاً حاداً تتقدم نحوه ببطء في السماء .

وفي أعماق جدار السحب ، وفي الموقع الذي تبلغ فيه ذروة إظلامها ، كانت تنبعث أضواء خاطفة من دون أدنى جَلَبة .

وغشيته رعدة تبعث في النفس الصقيع . وإذا هو يلتفت بغتة نحو الوادي ، ويعدو عدو المجنون من جديد ، نازلاً عن الجبل ، نحو المدينة الصغيرة .

وكان يسبح في الفضاء ، مقبلاً نحوه من الأسفل ، في ضوء الشمس الساطع ، نَيْزَك متألّق ، يلتمع بضوء ضارب إلى الخضرة ، فوق الطريق الزراعي ، في شكل الكرة ، قاسياً ، فوق الأرض .

وكانت الكرة تطير نحوه في طيران ثابت السرعة ، وانفَتَلَت ، ودارت على نفسها وأفرغت شحنات من الشرر الناري ، وكان الغبار يدور في الأجواء أمامها دوراناً حلزونياً .

وبدلاً من أن يتحاشاها جروسجان حملق فيها كالمشدوه ، وغشيته رعدة ، وجعل يصرّ بأسنانه .

لقد أدركه الآن الغول ، وهو شيء لايُصَدّق ، ومع ذلك فلا سبيل إلى إنكاره .

وكان ثمة أزيز يُصِمّ أذنيه ، وشعر في ركبتيه كلتيهما بضربة تصل إلى أعمق الأعصاب في العظام . وكان شعور كالتنميل يسري في كل أنحاء جسده . ثم انتهى كل شيء ، وحين التفت برأسه كانت الكرة تحوم في الفضاء وراءه متجهة نحو الغابة ، حيث انفجرت بضربة مفرقعة ، مثل رمانة يدوية .

ولبث وقتاً طويلاً لا يتحرك من البقعة التي هو فيها ، إلى أن بلّله تحت وطأة قصف الرعود المتواصل مطر عاصف .

وأخذ الآن يسير مترنحاً نحو بيته ، واضطجع في فراشه وهو يُعْوِل بصوت عال ، كالطفل الذي فقد لعبته .

ولبث راقداً في فراشه أسبوعاً من دون أن يلحق به أذى . ثم إنه لم يكن يشكو من ألم ، وكان يأكل ويشرب بشجاعة ، ويتحدث حديثاً ينمّ عن التعقُّل ، غير أنه لم يكن يستطيع الوقوف ، وكان كلما تجلّت سحابة داكنة إلى حد ما ، في السماء ، أخذ في البكاء على نحو يبعث الرثاء .

وفي اليوم الثامن جعل يفكر مطرقاً ويبتسم كثيراً ، بينه وبين نفسه ، ويومئ برأسه إيماءة الإعجاب ، تجاه كل الأحاديث ، مع تعبير في العينين والوجه ينم عن السعادة والانجذاب .

وخلال الليلة التالية لَمْلَم مدخراته من الأموال والفوائد ، مع أفضل قطع ثيابه ، وحزم كل شيء في صرة ، وبعد أن ترك لصاحبتة جان ـ ماري ، رسالة وداع مطوّلة ، مزوّقة الأسلوب ، انطلق هارباً .

ومع انبثاق ضوء النهار وصل المدينة ، حيث استعلم عن مقر نقيبة مُقَدِّمي التحية . ولبث في الفندق ينتظر في صبر ، طوال أربع ساعات ، إلى أن سُمِح له بالدخول .

ولم يكد يبصر النقيبة حتى خرّ على ركبتيها ، وقبّل يدها ، وأخبرها أن الله قد نوَّر قلبه لكي يكرِّس طاقته وحياته منذ الآن لجيش الخلاص ، بشرط واحد ، وهو أن تؤكد له صفحها .

ولبثت النقيبة هنيهة تتفحص الرجل الجاثي على ركبتيه ، وصُرّته ، ثم طلبت إليه قبل كل شيء التضحية بمتاعه الدنيوي الظاهري ، ودوَّنت أيضاً ، بعد أن فتحت الصرة ، كل شيء في دفتر جيبها . وأخيراً أوعزت إليه أن يشهد في المساء الاجتماع للصلاة ، حيث تعتزم أن تقدمه لدائرة الكنيسة عَلامةً على طرق الرب التي لايُسْبَر غورها ، وتوصي بقبوله .

وبدلاً من أن يبتعد جروسجان ، تردَّد ، واحمر وجهه .

غير أن النقيبة احمّر وجهها على النحو ذاته على أثر نظرة مشوبة بالاندهاش إلى وجهه ، وإن كان ذلك على نحو أكثر سطحية ، ثم قرعت الجرس ، وبعثت في طلب أبيها ، العمدة .

وسرعان ما ظهر سيد نبيل ، لا غبار عليه ، ذو ربطة عنق لا شائبة فيها ، تبادلت معه بعض الحروف الساكنة . ومنحت في حضوره الأخ الجديد قبله مصالحة ، بصورة احتفالية ، في تفضُّل خصوصي ، علامة على صفحها الخالي من التحفُّظ .

وبعد أن سأل رئيس المحلفين المتهم بيير جروسجان هل يعترف بقتل الآنسة بيتي سميث ، نقيبة جيش الخلاص ، وأجاب هذا بالإيجاب ، أعطى الكلمة للمتهم ، وبدأ هذا بقوله : «سيدي الرئيس ، سادتي المحلفين : لقد كنت أحبها ـ كلاّ ، فكلمة الحب ليست بالكلمة الصحيحة ، إذ كانت بالقياس إليّ قديسة . وكانت إذا وبختني ، أو نظرت إليّ شَزْراً أصبحت ملعوناً ، وإذا جادت عليّ بكلمة تقدير شعرت بالانتصار وطالبت بأن أقلّد

أخطر الوظائف ، لأقدم شكري . أمّا موتها فكنت أسعى إليه سعي المؤمن المجاهز بإيمانه على الملأ . ولم أكن أتورَّع عن الحماقات تجاهها . لقد كنت مضحكاً ، غير أني كنت أضحك من صفتي هذه ، أي من كوني مضحكاً ، وأي شيء كان يعنيه رأي العالم إلى جانب حكمها ؟ وما أكثر ما فعلت وما عانيت من أجلها ـ كلا! إنما هذه من صغائر الأمور! فلنمسك عن الخوض في هذا! سادتي ، إنما أنا صانع ساعات بسيط ، وما أنا بالضليع في فنون الأسلوب المنتقى ولست بقادر على تبرير فِعْلتي بالكلمات البليغة ؛ ولكن حِسّ العدالة عندكم سيتحدث نيابة عني ، أمّا ما يعنيني فأنا لا أستطيع أن أقول سوى ما هو حق ، سادتي ، لقد وُجِد زمان كنت فيه عاملاً ليس في سلوكه ما يُلام عليه ، وكنت عاملاً ليس أفضل من أي عامل ، ولا أسوأ منه ، ولكن أرباب عملي كانوا يقولون إنهم راضون عني ، وكان الأخوان ساندوز وشركاؤهما يعطونني ، مقابل مواني الساعات التي أصنعها أعلى الأسعار على الدوام ، وكنت غنياً ، وكنت حراً ، وكان في وسعي أن أتزوّج ، إذ لم يكن ثمة شيء يحول بيني وبين ذلك ، وكانت جان ماري تحبني . وإذا هي تأتي ، أي النقيبة ، عبر طريقي . فمن أوعز لها أن تأتي ؟ أما أنا فلم أدْعُها . ولبثت زمناً طويلاً أقول إن الله عز وجل قد أرسلها إلي ، ثم أصبحت أعتقد فيما بعد أن الذي فعل هذا هو الآخر ، الموجود في الدور الأدنى من العالم . من يدري ؟ فربما لم يكن هذا هو الأول ولا الآخر . ولكن منذ اليوم الذي أرغمتني فيه على أن أجْرَحَها أصبحت أسير سلطانها . لقد كان في وسعي أن أقصّ عليكم ، ولكن فيمَ السَّرْد ؟ إنكم لتدينونني ، بلا ريب ، فأنا أرى ذلك في وجوهكم . وجملة القول إن خطيبتي تزوجت بعد أن غادرتها رجلاً آخر أسعدته ، ولا أستطيع أن أحمل ذلك منها على محمل السوء ، ولست أضن

عليه بذلك ، ولكن هذا آلمني مع ذلك . وفي وسعي أن أؤكد لكم ذلك بحق المقدسات . فلتجربوا هذا مرة ، ياسادتي المحلفين ، وبعد ذلك تستطيعون أن تتحدثوا عنه . أما أمي ، رحمها الله ـ ولست في حاجة إلى أن أحدثكم عن أمي ، فلا ريب في أنكم اطلعتم على هذا ـ والأمهات يقضين نحبهن دائماً من الهمّ ، حين يخرج الواحد مقدار شبر عن الطريق الجَدَد* . أمّا رفاقي ، المأفونون ، فما عادوا يسلّمون عليّ ، وأصبحت دائرة الكنيسة في موطني تعاملني معاملة الأشقياء . ولا أزعم أن هذا لم يكن يهمني ، غير أني صبرت عليه مزهُوّاً به ومستمتعاً ، من أجلها . غبيّ ؟ أصلحك الله! كيف استطعت أن تتخيّل أن من الممكن أن تحبك في أي وقت من الأوقات . تحبني! أجل ، لو أنني كنت قطعة نَقْدٍ عليها صورة عيسى المسيح وتوقيع البارون روتشليد! لن أقول أكثر من هذا . ولئن كان ثمة شيء آخذه على نفسي ، أو كان هناك ما يبعث على ندمي فهو ، على أقصى تقدير ، أنني كنت أتولى ، في غمرة غروري ، العمل عميلاً في خدمة محل بيع الأسهم الخاصة بالتنصير ، كما كنت أمثل أيضاً شخصية الخادم الأكول ، الماكر في المقالب المسرحية** ، إلى حد ما . أما القتل فلست أقول إنه يسرني أنني ارتكبته ، فالقتل أمر بشع . ولكن هل يعرف الإنسان ، في الأساس ، ما هو مُقْدِم عليه ، في كل لحظة ؟ لقد كنت منذ صباي حادّ المزاج . وعندما يهّز المرء بمنديل أحمر أمام عيني الثور تتّقِد عيناه . وعلى كل حال فما كان لها أن تقبّل عشيقها أمام عيني! لقد طالما حذّرتُها . وكنت أقول لها : «بيتّي ، لا تطمئني إليّ! أنا أعرف نفسي ، لا يجوز لك أن تفضلي عليَّ امرءاً آخر» أوَ كان خطأً مني أنها لم تصدقني ؟

---

* الجَدَد : الممهّد ، المستوي

** Polichinell

وهكذا وصل الأمر إلى ما وصل إليه . هذا هو على وجه التقريب ، ما كان ينبغي عليّ أن أقوله لكم ، ياسادتي المحلفين» .

وكان المحلَّفون ، بطريق المصادفة ، رجالاً مثقفين ، مفعمين بالوجدان ، ويفكرون بطريقة تنم عن العدالة والإنصاف ، ولما كانوا يحسون بتعاطف خصوصي مع صانع الساعات المضلَّل ، فقد أعلنوا ، بالإجماع ، أنه مذنب في كل النقاط ، ومن دون ظروف مخفِّفة ، لكي يثبتوا استقلال حكمهم عن تأثرهم العاطفي .

فريدلي المشاكس

قال الراعي ماتيس شاتماً وهو يقرع بقبضة يده باب حجرة الخدم : «فليخلط الشيطان الحابل بالنابل عن طريق أمثال هؤلاء الأجراء ، حين تدق الساعة الرابعة عمّا قريب في النهار الساطع المشرق ، وتغدو الشمس وراء الجبال ، ويُفترَض في المرء أن يحصد الحشيش ويجففه ، ويضطجع هؤلاء التنابلة حولنا ، فوق أكياس الهشيم وكأنها أنبل حُزَم متاع السادة!» .

وكانت الأَسِرّة تَصِرُّ ، وكان يُسْمَع تثاؤبٌ كالتنهُّد الذي ينم عن السأم ، بين التهامُس ومَطِّ البوز .

«لم يكن في وسعنا أن نحلم أن يأتي المناخ الملائم لحصاد العشب . لقد كانت السماء تمطر طول يوم الأحد بأسره مطراً دافقاً لا يحدث مثله ، ثم تنجلي طبقة الهواء العليا في الساعة العاشرة ليلاً» .

وصاح صوت هادر ينطوي على التحدي ، قائلاً : «سيكون من الأفضل على أية حال أن يظل المعلّم يوم الأحد بنفسه في البيت ، بدلاً من أن يظل نازلاً في القرية ، إلى منتصف الليل ، قابعاً في الحانات . فليس من قبيل الفن أن يظل المرء نائياً عن الآخرين ، في الأعالي ، حين يكون ما يزال في ساعة

مبكرة من الصباح ، يرتدي سروال عطلة الأمس الأسبوعية المسائي ، على ساقيه» .

وأعقب هذه الكلمات قهقهة مكبوتة .

وانطلق ا الراعي الذي كان قد سَرّح من المكان ، عائداً أدراجه بسرعة ، وأحنى رأسه قبالة ثقب المفتاح ، وصاح قائلاً : «لست في حاجة ، يافريدلي ، أن يُمْلي عليَّ أُجَرائي ما يجوز لي أن أفعل أو لا أفعل في يوم الأحد . وإذا كانت الأحوال عندي ليست على ما يرام بالدرجة الكافية ، فأرض الله واسعة ، وأنا لا أحبس أحداً بالقوة» .

وردّ عليه صوت يزعق بعناد : «ما كانت لأخشى هذا على أية حال! لقد كنت أؤدي عملي في كل الأوقات على الوجه الصحيح ، ولابدّ أن تنتهي الأمور إلى نهاية سيئة إذا لم يكن يوجد في البلد معلم يعرف الأصول» .

«في وسعك أن تلتمس لنفسك مثل هذا المعلم في الحال» .

«وهذا يلائمني أيضاً ، ولأَنْ يكون ذلك اليوم أحبُّ إليَّ من أن يكون غداً» .

وكان يُسْمَع من النهاية القصوى للممر صوت فتاة يهمس قائلاً : «أبتاه! أنت تعرف بالطبع أن فريدلي امرؤ مشاكس ، ولا يجوز للمرء أن يحمل كلامه هكذا على وجه الدقة ، مثلما يقوله هو ، ثم إنه يؤدي العمل على وجهه الصحيح .

«هلاّ عدت على الفور ، إلى سريرك ، يامارايلي ؟ في القميص ، وحافية القدمين!» .

هنالك انغلق الباب بحركة سريعة ، وكان الراعي يطرقع بقبقابه نازلاً على الدّرَج ، إلى الدهليز ، ليفتح الباب الخارجي بحركة مفاجئة .

وظهر الأُجَراء واحداً وراء الآخر ، في ظلمة الغسق البارد ، الرمادي المتَّسخ ، في الممر ، يترنّحون ويلهثون من وطأة النعاس التي تُثْقلِ رؤوسهم ، وكانوا كلما تقدَّم أحد منهم ليظهر في المقدمة ، انفتح الباب عند نهاية الدهليز قليلاً ، ثم انغلق بعد ذلك من جديد .

ولكن في داخل الحجرة كان فْريدْلي يحدث صخباً وهرجاً ومرجاً ، في وسط اللعنات والشتائم . ثم انطلق فجأة كالسهم ، خارجاً ، في جفاء ، مثل ذكر الخنزير الخارج من حرش من أحراش الأرانب ، يحمل ثوبه وقبعته ، وحقيبة معلقة على كتفيه ، وفي يده قضيب من الخشب كالوتد .

وندَّت همسة مُلِحة من نهاية الدهليز ، خارجة من شق الباب ، تقول : «فريدلي ، إنه أنا! لا تتصنَّع ، بربك ، ما ليس فيك ، وكن عاقلاً! فأنت تعرف بلا ريب ، أن أبي لا يعني ما يقول» .

أمّا فريدلي ، فبدلاً من أن يجيب ، صفق الباب صفقاً ردّه إلى قفله ، وجعل ينزل على السلّم وهو يطأ الدرجات ذات الصرير بقدميه وَطْأة المَغيظ المكظوم وهو يمس بكتفيه مَجارِف وأجراناً فيخرجها من مَشاجِبها حتى تتدحرج أمامه معربدة ، وتُبْرِق وتُرْعدِ .

وأمام المنزل أحدق به الأجراء ، مندهشين يهزّون برؤوسهم .

«ماذا ، يافريدلي ، ما نَحْسَب أنك تعتزم الرحيل! » .

«وماشأنكم بي ؟ أتراكم تحسبون أنني في حاجة إلى أن يقال لي مرتين متى ينبغي لي أن أرحل ؟» . وعلى أثر ذلك أنشأ يضغط بجسده ، بدون مقدمات ، على طول جدار المنزل ، دائراً حوله ، في تثاقل ، ولكن بعزم وتصميم .

وكانت السيدة تتابعه بخطوات قصيرة متلاحقة ، لاهثة الأنفاس ، وأدركته على الجانب الآخر من الناصية ، وشدّته من ثوبه ، وجرّته من ذراعه .

وقالت له هامسة : «بربِّك لا تكن مشاكساً على الدوام! فما هذا كله إلاّ حالة الغضب والعناد ، لأن ماتيس خسر بالأمس في لعبة الورق . وسيعود في ظهيرة الغد من جديد ، كما كان ، كثوب لُبِس على وجهه الآخر ثم أعيد إلى وجهه الصحيح » .

واندفع فريدلي اندفاعة ، ثم تابع مسيرته بصمت وعناد .

وقالت تضجُّ بالشكوى ، في أثره : «ياإلهي! فلتشرب إذاً ، قبل كل شيء ، فنجاناً من القهوة ، على الأقل! فلن يكون هناك ما يبعث على الاستعجال الشديد . ثم ماذا عن الأجر ؟ هل تراك أخذت أجورك ؟ ياإلهي ، الذي في السموات! يافريدلي ، أعتقد أنك لن ترحل من دون أن تأخذ أجورك ؟» .

«لست في حاجة إلى أجور ، فقد تلقيتها » .

وتسلّق سور الحظيرة الذي كان يحيط بالفناء ، بسهولة ، من دون أن يعتمد على مرفقيه .

وعلى الجانب الآخر من السور خطف حجرين في مثل حجم الكف ، من الأرض ، وقذف بأولهما إلى جحر الكلاب ، حتى زحف الكلب ذو اللّبدة المسترسلة ، وهو يُعْوِل من الفزع ، مربوطاً بالسلسلة ذات الصليل ، إلى آخر ركن من ناحية الخلف ، أما الآخر فطوّح به في دوران حلزوني ، راسماً به قوساً هائلاً في السماء فوق سقف المنزل ، نحو تاج شجرة الزَيْزَفون ،

حيث ارتطم ، وهو يئزّ أزيزاً ، ماراً بقمتها ، ثم بالجذع ، محدثاً بسرعته الخاطفة دوياً كدوي كتلة من الحديد ، منتقلاً ، في جَلَبته ، من غصن إلى غصن مصحوباً بتساقط لمواد متعطنة ، يتبعه حفيف الأوراق ، ومطر من قطرات الندى الثقيلة .

وعلى أثر ذلك جعل يصعد الجبل رويداً رويداً ، في اتجاه مُرتَفَع الممر الجبلي

وكانت القطعان السارحة في المراعي ترن أجراسها وجلاجلها على جانبي الدرب . واقتربت منه البقرات في فضول ، ووقفنَ قبالته ، جَوامِدَ ، كشخوصٍ من الخشب ، وجَعَلْن يحملقن فيه بنظرات ثابتة لا تَريم ، وأغرى أولاهُنَّ بيده الممدودة نحوها ، وجعل يداعب خصلات شعر جبينها ، وقرص ثنية من جلد نحرها ، وسمّى باسمها مداعِباً .

أما الثور الذي كان يحدق فيه جامداً ، بين الغضب والخوف ، فقد خطا نحوه محاذِراً ، على خط متعرِّج ، وطيَّب خاطره بصوته ، واستثاره مع ذلك في الوقت ذاته ، إذ كان يمسك ، بقبضة سريعة ، بأحد قرنيه ، ثم بالآخر ، ويرسله ، من جديد . وكان يتأمل بإعجاب كيف كانت عيناه تزدادان احمراراً على نحو مطرد ، وكيف كان الحيوان يضرب بذيله تارة ، وبظلفه الخلفي تارة أخرى ، وبرأسه حيناً آخر ، وقد ثار ثائره ، وكيف كان يلعق بلسانه ظهره شمالاً ويميناً ، ويقذف الزبد من شدقه ، بزمجرة قصيرة عالية الدويّ

ولكن حين خفض الثور الآن رأسه وهو يدمدم دمدمة مكتومة ، سدّد إليه رفسة محكمة ، مصحوبة بهتاف المستمتع ، في خاصرته جعلته يثب إلى الوراء مذهولاً ، بمقدار طول جسمه .

وعلى أثر ذلك جعل يصعد في الجبل على نحو مستمر ، بخطوات متساوية ، بطيئة ، عَطْفةً بعد عَطْفة ، يُقَطِّع الدرب ، ماراً بالينبوع ، وبمستنقع أزهار «لا تَنْسَني» ، عبر العشب الندي ، فوق البِرك ، والمراعي ، إلى تقاطع الطرق ، ومن تقاطع الطرق إلى المرتفع الشديد الميل ، من دون أن يسترد أنفاسه ، بالخطوة ذاتها ، إلى أن بلغ ذروة الممر .

وفي الأعلى ، فوق المرتفع جنح جانباً ، إلى... ، وتوجه إلى الحوض الترابي الذي يحفُّ به إكليل من أزهار الجنطيان الصُّفْر التي تنشر أضواءها حواليه كأنها الشموع المتقدة .

وكان يقوم على حافة الحوض شجرة صنوبر عملاقة وحيدة ، تحميها البلدية على أنها إشارة من إشارات المرور .

وهناك ألقى قبعته ، وقضيبه ، وحقيبته ، أمامه ، تحت شبكة الأغصان الخضر الداكنة ، وترك جسده ، بلا مبالاة ، يسقط على البساط الطري ، وقد توجه وجهه نحو الوادي ، بحيث كان يستطيع أن يمدّ بصره نحو مزرعة ماتيس في عمق ذلك الوادي ، على نحو مباشر .

وظل حيث رقد ، يسند ذقنه إلى راحة كفّه ، بينما كانت يده الأخرى تنتف العشب الذي كان يلوكه بأسنانه .

وكان يُسْمَع وراءه حفيف العشب من وقعِ خطوات خفٍ منزليّ طري ، وكانت قطع من الحجارة تدرُج في الحوض ، وقال صوت مكتوم يسأله :

«ما الأمر ، يافريدلي ؟ ، هل صرفك ماتيس من خدمته ؟» .

ولم يجب فريدلي ، ولم ينظر حواليه أيضاً ، بل كان ينتف العشب جذاذات .

واقترب منه الآخر ، ومضى قائلاً : «وأنا أيضاً ، في يوم السبت التالي . لقد قال لي : أوْوِه ـ أوْوِه ـ أويلي ـ يا أويلي ، لقد نفد صبري» ، كذلك قال بوديلي .

وأطلق كلاهما ضحكة مفتعلة ، ثم توجها معاً ، إلى الوادي ، وكان فريدلي راقداً وأُويلي واقفاً .

كان يخرج في الأسفل ، في مزرعة ماتيس ، من بيت الراعي ، الصغير مثل العلبة ، والأصفر كلوح الخشب ، قزمان زاحفان ضئيلان للغاية ، ومعهما مِحَشّات ، وشوكات ومجارف . وسار هذان مثل نملتين ، مارَّيْن بالحظيرة ، فالينبوع ، نازلين على التل إلى الوادي ، ثم غاصا في المراعي ، وظهرا في الجانب الآخر عند الجسر الصغير من جديد ، وتسلّقا وهما يزدادان ضآلة على نحو مطرد ، يميناً ، فوق الألب ، على طول حافة الحقل ، نحو البساط أمام الغابة . وهناك وضعا سُتْرَتَيْهما تحت شجرة كرز ، وعقدا منديلاً للأنف على جبهتيهما ، أحمَر ، وأزرقَ ، مثل باقة من أزهار الخشخاش وأزهار التُّرنشاه ، وتقاربا كلٌّ منهما من صاحبه ، في مربَّع ، تقارباً شديداً ، وجعلا يتلفّتان رويداً رويداً في كل الاتجاهات .

وقال فريدلي بموضوعية : «الآن يهلِّلان ، ولكن المسافة بعيدة ، ولا يستطيع المرء أن يسمع من ذلك شيئاً» .

وانحلَّ المربع ، وتوسَّع في سلسلتين طويلتين كانتا تنحنيان ثم تنهضان في إيقاع متوازن .

وقال أويلي ، بلهجة الاحترام : «الحصاد اليوم جميل ، غير أنهما متأخران قليلاً في الرابعة والنصف ، حين تكون الشمس قد باتت فوق صخرة هولدرباخ» .

وانفتل فريدلي بعنف إلى الوراء ، وصاح في وجهه قائلاً : «ماذا ؟ متأخرين ؟ بل ما زال أمامهما وقت طويل قبل أن يكونا متأخرين كثيراً ، من أجل ذلك! وما على المرء إلاّ أن يعمل بطبيعته السليمة ، ولا يعمل عمل الكسول ، مثلك . ولو كنت حاضراً هناك لوضعت حفنة العشب على الأرض أمامهما في ساعتين ـ وأي عمل يعمله هؤلاء الـ... اليوم ؟» .

«لقد نزلا ، إلى الوادي ، نحو المدينة ، إلى السوق يبيعان المواد الغذائية ، ولكن قل لي الآن بنفسك ، أليسا متأخرين ؟ ما هذا ياترى ، هذا الذي يحط على الغابة ، فكر بربك ، أهو الشمس ؟ إنه ليس قضيباً من الشمع على أية حال» .

وكانت سحابة داخنة مضيئة تمرّ فوق ذوائب الأشجار . وفي الجانب الأدنى من الغابة ، باتجاه الحصادين ، بين الألب والتوبل ، سقطت بقعة صفراء فاقعة ، ذات حدود حادة ، في المرعى النديّ ، ثم تنامت في كل الاتجاهات ، وتصاعدت على نحو مطرد الزيادة ، متوسعة ، في اتجاه الجبل ، واتحدت مع بقعة ثانية صغيرة ، وتضاعفت ، وسارت فجأة نحو الأسفل ، ونحو الأعلى إلى الجدول ، ونحو الصخرات ، ثم أسرعت كبيرة ، هادئة ، في مساحة عريضة ، طائرة ، سابحة ، نحو الغابة ، واختلج بريق من مِحَشَّة ، ثم آخر ، وبعد لحظة بات العمال يقفون في وسط شعاع الشمس الساطع .

«ما قولك في هذا الآن ، يافريدلي ؟ وأنا أيضاً أفضل أن أشاهد البقرات هنا ، في الأعالي ، وهن يمضغن ، على العمل هناك ، تحت حرارة الشمس» .

وهمهم فريدلي في غيظ ، وأعرض ببصره .

وكانت تثور من مزرعة ماتيس سحابة دخان صغيرة زرقاء ناعمة ، في

الهواء ، وكانت تمر بالينبوع عربة أطفال تترنحُ متلوِّية في مشية متعرِّجة ، نحو توبل .

وكانت العربة الصغيرة تتوقف من حين إلى آخر وكانت فتاة تعالج الغطاء ، ثم تسوق العربة قليلاً ، لتتعثر من جديد بُعَيْد ذلك . وحين باتت العربة فوق الجسر الصغير وثب نحوها من الغابة كلب أبيض ذو لبدة مسترسلة ، وكانت وثبته أولاً على الفتاة ، ثم على العجلات ، وأحاط بضع مرات بسلة العربة ، ثم تقدم إلى الأمام في مشية احتفالية ، وهو يلوّح بذيله المعقوف إلى الأعلى ، وينظر حواليه من حين إلى آخر ، صاعداً نحو تخوم الحقل . واستقبل الحصادون العربة ، ونشروا منديلاً أبيض في ظل شجرة الكرز ، ووضعوا شيئاً من العربة عليه وتمدد الكلب ذو اللبدة إلى جانبه في الشمس ، وتسلقت الفتاة شجرة الكرز .

وقال أويلي ، يسأله : «هل شربت القهوة ؟» .

«لست جائعاً» .

«ولكن أنا . ويالـه من جوع! فلتبقَ راقداً ، إلى أن أعود ، أم تراك تعتزم مواصلة السير ؟» .

«لا تسأل ، لكيلا يُكْذَب عليك» .

وولىّ أويلي ، وعاد بعد ساعة ، من جديد .

«أنت ما تزال هنا ، يافريدلي ؟ أليس كذلك ؟ أتراك نادماً ؟ أنا أدرك ذلك ، وعلى كل حال فأنت لست من عومل أسوأ معاملة من قبل ماتيس» .

«الندم ليس وارداً» .

«أو تظن أني لا ألاحظ ذلك ؟ لا بأس ، أنت في انتظار امرئ ما ؟

أستطيع أن أتصور على وجه التقريب ، من يكون هذا . أتراها تلك الموجودة هناك ، قبالة الغابة ، ذات القبعة الصفراء من القش ، وعليها غصن من شجر البتولا ؟ أجل ، وفيما يتعلق بانصرافك ، أما ما يتعلق بي فقد سوّيت المسألة مع المعلم بطريقة مختلفة ، فسأظل عنده قليلاً ـ حسناً ، هل ترى هناك الصقر مُقَرْفِصاً على شجرة ، في الأسفل ، عند الجدول ، في الهوة ذات الأحراش ؟» .

ونظر فريدلي بطرف عينيه نحو المتحدث ، ونهض ، وردّ قائلاً بلهجة التأكيد : «هذا ليس صقراً ، بل هو الطائر الخمّاش» .

«ماذا ؟» .

«إنه الخمّاش» .

«خمّاش ؟ ، هذا ؟ ما كان الخماش ليقعد القرفصاء طول عمره فوق شجرة صفصاف» .

وطار الطائر ، واشرأبت أعناق كلا الرجلين .

وحام ، من دون أن يسرع ، على ارتفاع المنزل ، فوق المراعي ، في الاتجاه المؤدي إلى الغابة ، نحو الجبل ، وكان يرى ضارباً إلى الحمرة حين يصيبه شعاع من الضوء ، غير أنه كان يبدو في الظل أسمر أو رمادياً ، أمّا الحصادون فكان يتحاشاهم ، وتسكّع على طول حافة الغابة ، مجانباً إياها هنيهة نحو الجدول ، منزلقاً داخل الأحراش في بعض الأحيان ، ثم نهض فجأة ، في قاع الجدول ، في الهول ، وأسرع بسرعة الريح فوق ذوائب الأشجار ، نحو السهل ، وقال فريدلي يسأله بلهجة عدائية :

«ما هذا الآن ؟ أهو خمّاش أم صقر ؟» .

«إنه كما قلت ، إنه صقر» .

أما فريدلي ، الذي كان يقف وراء أويلي ، فانحنى فجأة إلى الأرض ، وأمسك بقضيبه الخشبي ، وأخفاه وراء ظهره ، ونهض من جديد .

وأما الطائر الذي كان قد هبط وراء الغابة فحلّق حتى بات مثل نقطة ضئيلة ، ثم عاد أدراجه ، وانطلق فجأة كالسهم نحو صخرة الجدول المقابلة ، وتلاشى ، على طول الحجارة ، سابحاً في الهواء على ارتفاع قامة الإنسان ، بين طبقات الصخور .

هنالك ترك فريدلي القضيب الخشبي ينزلق نحو العشب ، من دون ملاحظة ، وقال يصدر حكمه : «يا أويلي ، إنه صقر حقاً» .

وردّ أويلي قائلاً : «هذا يأتي من رغبة الإنسان في المجادلة في كل شيء حين يعميه الغضب ، مثل الثور . ولا يدهشني بأدنى مقدار أنك بدأت نزاعاً مع ماتيس ، إذا لا يستطيع أن يتوافق معك حتى أكثر الناس موادعة . أما الآن فلا بدّ لي أن أسوق البهائم إلى الحظيرة رويداً رويداً ، فالذباب يتجمع عليها في خبث ، في هذا الحرّ» .

ومع هذه الكلمة ابتعد مرة ثانية .

وانتظر فريدلي ، إلى أن انعطف هذا وراء قمم هانزيورجن ، ثم استخرج من جيبه نصف رغيف من الخبز ، واحتزّ بموس الجيب الغليظ ، المثلّمَ قطعة ضخمة ، ودسها ، على رأس الموس ، كلها في فمه ، وجعل يلوكها بأسلوب متكلّف ، وحين فرغ من ذلك غرس النصل حتى قبضته مرتين في الأرض ، ثم مسحه ، وطوى الموس ، والتفت إلى الجانب الآخر ، ينظر في العشب بلا مبالاة .

وكانت نملة تجر وراءها دودة ، إذ كانت تعضُّها عضة محكمة من عينها

اليسرى ، وكانت ثانية تتشبَّث بالقسم الخلفي من الدودة ، تشل انحناءاتها ، وكانت ثالثة ، وبُعَيْد ذلك رابعة ، تتعلّقان بأقدامها وتشكلان ما يعدُّ قبقاب الفَرْملة .

وقطع فريدلي الطريق على أزواج الحشرات بعود صغير من الخشب ، وحين أبت النملات أن يدعن الدودة ، هرس الواحدة بعد الأخرى حتى متن ، بحذر ، لكيلا يصيب الدودة ، ولكن حين توجهت هذه ، بعد تحريرها ، في دفعات طويلة ، نحو حزمة من العشب ، دهسها على النحو ذاته ، قبل دغل العشب مباشرة ، ثم دفنها بالتراب ، بعناية .

وكان ينتصب بين العيدان المختلفة تلقاء وجهه عشب حافة الغابة ، منخفضاً ولكنه كبير من حيث عرضه ، له خمس أوراق ذات أقواس دائرية ، وأهداب يفضي كل ضلع فيهن ، في زوايا متماثلة ، إلى الكأس ، مثلما كان يحدث في المدرسة ، عندما كان يرسم شكلاً خماسياً . وكان الكأس مملوءاً إلى نصفه بقطرات الندى البلورية . وشيئاً فشيئاً انكمش حجم الماء إلى قطرة في مثل حجم الكرزة .

وقطع الحشيشة من عودها ، وأمالها ، إلى هذا الجانب حيناً وإلى ذلك الجانب حيناً آخر ، وجعلها منحرفة تارة ، ومعوجّة في اتجاه الريح تارة أخرى . هنالك تدحرجت القطرة كبيرة وثقيلة ، جيئة وذهاباً في الكأس المخملي ، من دون أن تبلِّله ، مثل الماء على بطة ، ومن دون أن تنقسم ، مثل الزئبق في أنبوبة ميزان الضغط الجوي .

ولبث يعبث بذلك وقتاً طويلاً إلى أن بات حجم القطرة لا يزيد عن حبة توت الأرض ، ثم رفع الورقة بعناية من الزاوية الأنسية ، من اليمين أولاً ثم من اليسار ، وبلّل الأجفان ، تبليلاً منهجياً ، وبأسلوب متحذلق .

وعلى أثر ذلك شعر بالرضى ، ثم أخذ يتثاءب مراراً ، وضغط قبعته على رأسه ، وجعل يسير القهقرى على الأرضية ، عبر طريق الممر ، بمزيد من العمق في الاتجاه الجانبي ، في ظل حاجز من الحجر . وجعل يتقلب هناك على ظهره ، ويحمي وجهه بقبعته ، وأغفى .

وحين أفاق ، ونهض معتمداً على مرفقه كان الحصادون عند الغابة قبالته قد تواروا . وفوق السطح ، في مزرعة ماتيس ، كان الدخان يتعالى في حركة دورانية من جديد ، ولكنه ما عاد أزرق ، بل بات يلتمع كالزجاج ، مثل حقل ذرة في منتصف الظهيرة القائظ .

وابتلع بِضْعاً من فتات الخبز التي كانت متبقِّية في ثنيات جيوب سرواله ، ولكن ما كان يعذبه الآن في المقام الأول إنما هو العطش . ولم يكن ينبت شيء من أشجار الكرز هنا في الأعالي ، ولم يكن يرغب في النزول إلى الينبوع في أسفل الجبل ، إذ كان القوم خليقين أن يروه من البيت فتمنى لو أن امرءاً كان لديه من العقل ما يجعله يهبط إلى الممر أو يصعد إلى هنا ، بإبريق من الخمر .

هنالك ظهرت في الأسفل ، فوق المرعى ، عند تقاطع الطرق ، قبعة صفراء من القش عليها غصن من الصفصاف ، وجعلت تتحرك حركة غير مطمئنة ، في اتجاه مختلف ، وكانت فتاة تصعد عبر المراعي ، في اتجاه السفح الشديد الانحدار ، مسرعة ، خائفة ، تظل أبداً تتوقف في الزوايا الأكثر خفاءً في المنحنى . وكان كلب أبيض ذو لبدة مسترسلة يحوم حول قدميها ، وهو يهز ذيله ، ويتشمَّم ، ويعطُس .

وزاد فريدلي من التصاقه بالجدار ، وتحرك بخفة في الاتجاه الخلفي ، حول الناصية ، ومدّ ذراعه .

وصعدت الفتاة أول الأمر إلى الحوض الذي كان قد رقد عنده في الصباح ، ووقفت ساكنة مذهولة ، تلقاء ثوبها وقبعتها ، ودارت على عقبيها مراراً ، متسائلةً ، وحاولت آخر الأمر أن تطلق تهليلة مكبوتة .

على أن فريدلي زاد من ضغط ظهره وبَسْطه في العشب ، وظل متربصاً بغير حراك .

ولكن الكلب ذا اللبدة المسترسلة شمّ الرائحة ، وأطلق عقيرته بعواء تهليليّ قصير باعث للأسى ، وجرى على خط مستقيم نحو فريدلي ، وانقض عليه ، وانهال عليه يلعق وجهه ويديه .

والتفتت الفتاة الآن ، وذعرت ، وتقدمت ، مترددة ، على طول الجدار حتى باتت منه على بعد عشر خطوات . ثم لبثت واقفة ، وأعرضت بوجهها ، ووضعت ذراعيها العاريين أحدهما على الآخر وهي تلامس ، بكل يدٍ عظماً من عظمي المرفقين .

وشرعت تقول بعد هنيهة : «فريدلي ، الحساء جاهز» .

وحين لم يحرك فريدلي ساكناً ، تجاسرت على خطوتين أخريين ، ومضت قائلة : «فريدلي ، إن أبي لم يكن جاداً ، فهو يعرف حق المعرفة أنك لم تقدم أبداً على عمل غير صحيح ، ولقد ظل طوال الصباح يتحدث في ذلك ، هناك عند كومة التبن ، وفي الغابة ، قائلاً إن الآخرين كلهم لا يستطيعون شيئاً ، وإنك أنت الوحيد الذي ما زال ينجز شيئاً في حالة الضرورة ، فتعال الآن ، آخر الأمر ، ولا تكن مشاكساً» .

وأعرض فريدلي ببصره ، وجعل ينكت بحجر صغير ، وهو صامت ، الملاط من الجدار ، ثم ردّ قائلاً ، بتجهُّم ، من دون أن يرفع بصره : «لا أستطيع ، ياماراٸلي!» .

وازدادت مارايلي قرباً منه ، وقالت تذكره بمزيد من الإلحاح : «ماذا ؟ بسبب بضع كلمات صغيرة غير مستقيمة ، تروح وتجيء! ثم إنك لست في حاجة إلى أن تلتمس منه الصفح . تصرّف ببساطة كأن لم يكن شيء ، وهذا أحب الأمور إليه هو . فتعال معي الآن فحسب ، واجلس إلى المائدة في الأسفل ، وعندما يذهبون بعد ذلك إلى التبن ، وخذ الحساب . فقد أعددته لك حاضراً» .

وصاح فريدلي قائلاً : «لا أستطيع» .

وصدرت عن مارايلي حركة كما لو أنها همت أن تدنو منه ، ولكنها ظلت مع ذلك في مكانها لا تجرؤ ، وجعلت تعبث بشفتها السفلى وهي تنظر بعينيها نظرة جانبية إلى قطعان المعلم .

وبعد برهة طويلة تنهدت تنهدة عميقة ، وقالت : «ثم إن العَجلَة السمراء التي اشتراها في الخريف باتت عَشْراء» .

وبينما كانت تقول هذا دست ذراعها حتى المرفق في جيب صديريها ، وأخرجت قطعة نقدية لمّاعة من فئة الخمس تالرات ، ووضعتها كمن يضع شيئاً بطريق المصادفة على حجر عريض من أحجار الجدار . وعلى أثر ذلك رجعت خطوة إلى الوراء ، على وجل ، أمام الحبيب .

وقالت تشرح له : «هذا الأجر لك ، من أبي» ، ثم أحنت ذراعيها فوق معدتها ، وجعلت تفكر مُطْرِقة .

هنالك نبح الكلب ذو اللبّدة غاضباً ، وأقبل أويلي يتسلق السياج . أمّا مارايلي ، التي انكمشت في فزع فأضافت تالراً آخر إلى الأول ، وولّت الأدبار هاربة إلى بطن الوادي .

ولم يكن فريدلي يحرك ساكناً في أثناء هذا كله . ولكن حين انحنى أويلي في الطريق ، لينفض الحجارة من قبقابه ، وثب في الهواء ، واقتنص بقبضة بارعة كلا القطعتين ، ورقد بسرعة في المكان القديم .

وقال أويلي وهو يتابع مارايلي المنسحبة بعينيه : «يافريدلي ، لو كنت في مكانك لعدلت عن قراري» .

وقال فريدلي بصوت مكتوم ، في سأم : «لا أستطيع» .

وحين التفت أويلي وهو مندهش ، لينظر في تعبيرات وجهه ، أضاف قائلاً : «ان لحاف المعلم الصوفي الجديد يلحق به الدنس مقابل ستة عشر فرنكاً . والسكين يحزُّ فيه حزّاً» .

وصاح أويلي وهو يرتد على عقبيه من الفزع ، وفغر فاه ، ومدّ ذراعيه أمامه ، وجعل يحملق فيه مندهشاً . ثم شد جانبي شدقيه نحو أذنه ، وغمز بعينيه ، وأجاب بحذر ، وبلهجة التوكيد ، مع نبراته الخصوصية : «إن بعضهم ليعطي الكثير إذا اكتفى الناس بإلحاق الدنس باللحاف وحده» .

ونهض فريدلي ، وجعل يبحث في قسمات وجهه ، ثم سحب جانبي شدقيه ، وفجأة أطلق كلاهما في الوقت ذاته عقيرته بضحكة رنّانة مدوّية .

ولكن سرعان ما أفاق أويلي من سكرته ، واتخذت سيماؤه ملامح الهمّ والقلق .

وغمغم قائلاً : «لو كنت في مكانك لما ظللت هنا ، في الأعالي ، وقتاً أطول مما ينبغي ، وإلاّ لأقبل المعلم مع أجرائه يصعدون الجبل إليك حين تكون أنت على السفح من الجانب الآخر» .

وهزَّ فردلي كتفيه بازدراء ، وتوهّجت عيناه .

«لا ينبغي الصعود إلاّ لواحد فحسب . وأنا لا أنتظر أحداً سواه» .

وبينما كان يقول هذا وثب نافِدَ الصبر ، وسار نحو الحوض ، وأويلي وراءه ، وقال الأخير ، وهما في الطريق ، بلهجة المودة :

« وإلى أي بقعة من العالم ينتهي بنا المطاف ؟ » .

« إلى الشيطان! » .

وبينما كانا يعبران الممّر ، سُمِعَ من الأعلى وقع أقدام فتاتين تبكيان ، في عَدْوٍ مستعجل فوق أرضية الجبل ، وكانت كبراهما التي كان طولها في مثل طول الفتاة البالغة تجرّ الصغيرة بسرعة بلغ منها أنها كادت تنكفئ على وجهها .

وقال فريدلي يسألها وهو يتفحص الفتاة الكبرى بنظرة صارمة : «ما خطبكما ، يابروفيدينتسا ؟ » .

وصاحت وقد تهدَّجت أنفاسها : «لقد عرض أحدهم عليّ قطعة من الذهب! » .

« ومن هو ؟ » .

«لست أدري ، غريب يحمل عصا من الألب» .

« وأين ؟ » .

«في الوادي ، في غابة ريت ، عند جبال الألب الكروتيّة بالضبط» .

« وفي مقابل ماذا ؟ » .

«لست أدري . كل ما في الأمر أنه غمز لي ، وأراني قطعة الذهب» .

وسدّد أويلي إلى بروفيدينتسا لكمة جعل سلال التوت البري التي كانت تحملها تنوس جيئة وذهاباً .

وصاح غاضباً : «لقد كان من الواجب أن تأخذيها بلا ريب ، أيتها

الفاقدة عقلها! فما كانت قطعة الذهب ، ما دامت هذه الدنيا قائمة ، شيئاً يخشى منه المرء على نفسه» .

وانتابت بروفيدينتسا الحيرة ، وتلعثمت نادمة ، وقالت تعتذر : «لقد كان ينظر إليَّ نظرة بالغة الغرابة» .

ولكن فريدلي صاح قائلاً بصوت هادر :

«أتُراكِ تحسبين ياذات الأنف الذي يسيل منه المخاط ، أنه كان يحوم حواليك ؟ إنما ينبغي للمرء أن يسوقك من أذنيك! وأنت المهزولة كعجلة في الثانية من عمرها ، والسمراء مثل غجرية ، وغير المسرَّحة الشعر ، وأنت فوق ذلك غير نامية الجسم ، ولا ترتدين حتى جوربين على قدميك ، وأصابعك الصغيرة يمكن للمرء أن يهشمها مثل أعواد الثقاب ، وليس لك ، في أيّ مكانٍ أبٌ ، ولا أم ، حتى إن أشد الأُجَراء فقراً وبؤساً خليق أن يشعر بالعار لو وضع مجرد ذراعه حول عنقك أمام الناس ، ثم تتخيلين أن غريباً ينظر إليك! على أن أولئك الذين هم في المدينة لديهم شيء مختلف كل الاختلاف حين يخطر هذا ببالهم! ـ أخبريني ، ماذا لديك من توت الأرض ؟ أهو ناضج ؟» .

وكان يدافعها في أثناء ذلك ، وينظر في السلال الأمامية ، ويدس يده حتى المعصم في وسط التوت الأرضي ، وينقّب فيه بأصابعه التي باعد بينها ، ثم سحب قبضة منها ، ودسها في فمه .

«هكذا إذاً! والآن دعي العويل ، وإلا صفعتك صفعة على أذنك تكون تذكاراً لي عندك» .

ونكست الفتاة رأسها في مَذَلّة ، وانسحبت لا تنبس ببنت شفة .

ثم استجوب فريدلي الفتاة الصغرى قائلاً في رغبة وفضول : «ما هذا الكتاب الذي في يدك ؟» وانتزعه من يدها ، وجعل يقلّب فيه ، ويتأمل الصور ، ونسي أن الفتاة أخذت ترتعد من الخوف .

وقال آخر الأمر يسألها بلهجة التهديد : «بكم تعطينني هذا ؟» .

وأحصى فريدلي الصور التي في الكتاب ، وقدَّر وزن الكتاب في يده ، وصوَّب نظره إلى الفضاء ، وجعل يفكّر ويقدر . ثم شرع من جديد في تأمل الصور على تردُّد ، وأخذ يتفحّص الورق ، ويعد الصفحات .

وقال بصوت أجش وهو يقطب جبينه ، وترتسم على وجهه ملامح التجهم : «هل ترضين بتالر من خمسة فرنكات» .

وأضاء نظرة الطفلة بريق سماوي واضح من الأمل والسعادة .

وقال فريدلي بلهجة آمرة ، وهو يدس التالر في كفها وعليه سيماء الأهمية والجد : «دونكِ المبلغ» .

وانطلقت الفتاة نحو أختها كالسهم ، وعلى أثر ذلك سارت الفتاتان في خطوات قصيرة خفيفة ، وقد تلاصق رأساهما ، نحو الوادي ، وكانتا كثيراً ما تنظران وراءهما في وجل ، بسعادة تجدان مشقّة في كتمانها .

أمّا فريدلي فقد احتفظ بالكتاب في يده عل نحو ينم عن التقدير ، واتجه ، بصورة احتفالية ، نحو الحوض .

وهنا اتخذ لنفسه مضجعاً حسناً ، مع صاحبه أويلي ، في ظل شجرة الصنوبر ، أمام شجرة الزان ، عل نحو احتفالي ينم عن الانسجام .

وعمدا أول الأمر إلى تهجئة العنوان ، وكلّ منهما يساعد صاحبه ، إذ كانت حروفاً أجنبيّة مزخرفة .

« أساطير ألف ليلة وليلة » .

ثم جعلا يتأملان معاً الصور المرسومة ، مرتين ، من البداية إلى النهاية . ولكن حين وضع أويلي إصبعه على صورة من الصور يستوقفه ، لكي يتأملها مدة أطول وبّخه فريدلي على تدخله توبيخاً صارماً .

« الكتاب لي ، وأنا الذي دفعت ثمنه . وما من أحد سواي يحق له أن يضع إصبعه عليه » .

ومسح ، وهو يقول هذه الكلمات ، الموضع الذي لامسه إصبع أويلي ، وحين ارتسمت الآن بقعة حمراء ناشئة عن توت الأرض اتهم أويلي ، وهو يعاتبه ، بأنه وسَّخ الكتاب .

ثم اتجها إلى النص ، بادِئَيْن بالعنوان الفرعي ، ولم ينسيا عدد الطبعات ، والمطبعة ، والناشر .

أما التمهيد فقد ودّ أويلي لو يتخطّاه ، ولكن فريدلي قال له في غلظة ، إنه هو الذي اشترى الكتاب ، ولذلك فهو يتمتع بالحق في قراءة كل شيء . هنالك أطاع أويلي بغير أخذ ولا رد .

وبعد أن بدأا في الأقاصيص ، بدا لهما وكأنهما يعيشان في أجوائها ، وكأنهما ما عادا يوجدان على مرتفع الممر هنا في الأعالي ، وأنهما في حديقة جميلة خضراء . ومع ذلك فلم تكد الأقصوصة الأولى تخلُص إلى نهايتها حتى عادا من جديد إلى مرتَفَع الممر . ثم قرأا القصة الثانية ، وعلى أثر ذلك ، الثالثة ، وهكذا دواليك ، وهما يتناوبان كلما أصاب الواحد منهما التعب .

وحين كانت القصة تتحدث ، ذات مرة ، عن أميرة كان جسمها اعتباراً من الحزام فما دونه ، من المرمر الأسود ، أمسك أويلي عن القراءة ، وصاح رافضاً :

«ولكن هذا غير حقيقي!» .

وقال فريدلي وقد ثار ثائره : «ما هو الأمر غير الحقيقي ؟ لو كان هذا غير حقيقي لما سمحت إدارة التربية بأن يباع علانية في المكتبة» ثم استدرك قائلاً بنبرة تعليمية هادئة : «ثم إنه لا بدّ للمرء أن يُدْخِل في حسبانه أيضاً أن القصة تدور أحداثها في آسيا ، حيث تسود أحوال مختلفة كل الاختلاف ، وما عسانا نعرف ، نحن الفلاحين الغبيين اللذين لم يخرجا من الكانتون* بعدُ أبداً ، فضلاً عن أن يخرجا من سويسرا ؟ ولئن يلتزم الواحد منا الصمت ، ويتعلم ، ببساطة ، خيرٌ له من أن يتشدّق بكلام حول أشياء ليس لديه أيُّ ضوء يلقي عليها ـ وأخيراً فإن الأساطير إنما جعلت ، لكي يستطيع كل امرئ أن يصدِّق منها قدرَ ما يشاء . وأمّا ما يتصل بي فأنا أعتقد بها ، وإذا كنت تأبى أن تصدقها ففي وسعك أن تعتقد فيها ما تشاء ولكن فلتقرأ الآن ، في أثناء ذلك ، بهدوء فحسب ، ومن السياق وحده يلاحظ المرء عندئذ ما هو المقصود» .

ولكن أويلي غمغم واحتج ، ولم يكن ثمة سبيل إلى إقناعه على وجه الإطلاق .

وقال فريدلي يأمره : «إذاً فاقرأ القصة التالية» .

وجعل أويلي يقرأ عن طائر الرُّخ وصخرة الماس ، والعملاق الذي توجد عينه في وسط جبينه ، منشرح الصدر ، من دون أن يحسّ بصدمة .

وكانا كلما أمْعَنا في القراءة ازدادا إعجاباً بالكتاب حتى إنهما لم يدركا كيف أمكن للفتاة أن تتخلى عن هذه الروعة مقابل تالر مؤلَّف من خمسة

---

* اسم المقاطعة السويسرية

فرنكات ، ووازنا ، بارتياح واغتباط ، ما تبقى منه مقابل ما قرأاه ، إذ كان يظل فيه أكثر مما ظَفَرا به .

ومع ذلك فقد أمره فريدلي فجأة ، وفي وسط أكثر القصص تشويقاً ، قائلاً : «أَمْسِكِ!» .

وسحب الكتاب إلى ناحيته ، وطواه ، وأخفاه بعناية في جيب ثوبه .

وعبثاً كان أويلي يتملَّقه .

وقال فريدلي مصراً على موقفه : «الكتاب كتابي» .

وعلى أثر ذلك جعلا يتأملان ذلك العالم مندهشَيْن ، وظهر كلٌّ منهما إلى ظهر صاحبه ، ويعربان عن ملاحظاتهما على ما قرأاه .

وبدأ أويلي بعد هنيهة ، قائلاً : «ربما كان من الأفضل أن يكون في بلدنا نحن أيضاً ، أقزام من البشر يسكنون الكهوف ، من أهل البِر والإحسان ، بدلاً من الأفاعي السامة المحلية» .

وردّ فريدلي بقوله : «أود لو أنّ خليفة ينطوي على سر من أسرار المسيح هبط من هذا الممرّ على ظهر حصان أبيض ، وفي كل إصبع من أصابعه حجر كريم ، في مثل حجم الجوزة» .

ثم جعلا ينظران أمامهما صامتين نظرة جامدة ، فكان أويلي ينظر إلى الصخرة ، وفريدلي إلى مرتفع الممّر .

وهمس فريدلي قائلاً : «صَهْ!» وغمز أويلي بمرفقه ، وقال : «انظر!» .

وظهر من الجانب الآخر ، فوق مرتفع الممَر ، عصا أَلْبيّة* ، ثم قبعة ،

* نسبة إلى الألب .

ووجه ، ثم الباقي شيئاً فشيئاً . ولم يكن في وسع المرء أن يميّز حق التمييز ، إلاّ في مقابل لهيب الشمس المتلظّي ، ماهيّة القادم ، حين وقف ساكناً ، والتفت إلى جانبه .

وتمتم أويلي قائلاً : «هذا ، والله ، الغريب الذي عرض على بروفيدنيتسا قطعة الذهب» .

«قد لا يكون هو الوحيد» .

«وهو يرتدي حزاماً نفيساً للساعة أيضاً» .

«وما من شك في أن الدبوس الموجود في شال العنق ليس من الزجاج أيضاً» .

«ما عساه يريد ؟» .

«يبدو أنه يريد عبور هوخْفايْد ليهبط إلى كورهاوْس . ولكن كان يترتَّب عليه أن يسلك الطريق عند جبال الألب الكروتية عبر الجدول ، بدلاً من التوجه يساراً عبر الرّيتْ . فالمسير في هذا الصيف من قبل الغرباء عبر هوخْفايْد يعد من قبيل عمل المجانين . إنهم مجانين يماثل كلٌّ منهم الآخر ، فمنهم الأحمر ، ومنهم الأخضر ومنهم الملوّن ، مثل ثلاثاء المرفع . على أن ما يدهشني إلى الأعماق هو ما يريد هؤلاء رؤيته هناك» .

«إنهم ما عادوا يعرفون مايصنعون آخر الأمر من كثرة ما افترسوا وشربوا ، وقعدوا عاطلين!» .

ودار الغريب على عقبيه مراراً ، في تردد ، وخطا بضع خطوات في اتجاهات مختلفة ، وأسند عصا الألب إلى كتفه ، واستخرج خارطة درسها بعناية ، وهو يرفع بصره من حين إلى آخر ، ويحيط ببصره عبر الوادي والسهل ، بالجبال البيض .

وارتسمت على وجه فريدلي ملامح التهكمُ : «لن تجدي هذا خارطته كثيراً ، أيضاً! إذ لا يوجد أبداً طريق يفضي من هنا إلى كورهاوس . ولابد للمرء أن يعبر المراعي والصخور ، أو يعود أدراجه عبر الألب الكروتية» .

«لو أن أحداً جاءالآن ودلَّه لظفر بمال طائل أجراً يومياً له! يافريدلي ، لديك الوقت ، وليس أمامك عمل ، ولو كنت مكانك لذهبت إليه» .

«لا بدّ أن يُطلَب ذلك مني أوّلاً على الأقل . وهذا الرجل على كل حال مزهوّ بنفسه بما يكفي ، ولا يجوز للمرء أن يفسد أخلاق هؤلاء بذلك على وجه الخصوص» .

«أنت تتحدث حديثاً ليس بأكثر براعة من بهيمة لا تَعْقِل ، فلا بد له ، قبل أن يتمكن من أن يسألك ، أن يراك أوّلاً على أية حال . وأهل المدينة عميان تماماً . إذ يضطرون إلى وضع النظارات في وَضَح النهار ، كالمرأة العجوز إذا ما أرادوا أن يميِّزوا بين بقرة وثور على بعد مائة خطوة . ولا بدّ لك على أية حال أن تعطيه إشارة ما ، فافهم ذلك» .

ومن دون أن ينتظر جواب فريدلي ، تنحنح قليلاً ، وتمخَّط .

ورفع الغريب بصره على عجل ، مثل أرنب يتَنَصَّت ، وتطلّع وهو يشد قامته نحو الاتجاه الذي أقبل منه الصوت ، ونصب واحدة من نظارتيه أمام عينه ولوَّح بيده بحركة متراخية تنم عن الزُهُوّ بالنفس .

وكان الأجيران قد انسحبا ، كلاهما ، على غير إرادة منهما حين نظر الغريب إليهما ، ولكنهما تماسكا من جديد بمجرد أن لَوَّح لهما .

وقال فريدلي وهو يضحك متهكماً : «فَلْيُلَوِّح لي هذا إلى يوم القيامة ، فما أنا كلبُه . وإذا كان يريد مني شيئاً ، ففي وسعه أن يجشّم نفسه

المشقة ، ويأتي إليّ ، ثم إنه يعد مصيبة وداهية ، وجِلْفاً ، غير متحضّر ، إذ لا يكلّف نفسه حتى مجرد رفع قبعته حين يلقى إنساناً! وإن أصغر أجير هنا ، في هذا البلد ، ليعرف على وجه أفضل ، ما يحسُن وما لا يحسُن من أصول اللياقة والتهذيب » .

« يافريدلي ، لا تكن مشاكساً! فهذا امرؤ غريب ، ومن الممكن ألاّ يعرف التقاليد السائدة في هذه البلاد » .

ولوّح الغريب بهمة أكبر ، وبمزيد من التعالي . وفجأة حرك كتفيه بصبر نافد ، ونزع زجاجة النظارة عن عينه ، ودنا منهما حالاً بخطوات خفيفة تنم عن الإعجاب والرضى ، وهو يتبختر معتّداً بنفسه ، إلى أن بات منهما على بعد عشر قامات* ، وهناك توقف متردداً ، وألقى زجاجة النظارة على عينه من جديد ، وتأمّل الأجيرين هنيهة من دون أن يحرك ساكناً ، منتصب القامة ، مثل ذكر الغزال حين يحسب أنه يرى شيئاً ما . وعلى أثر ذلك عاد أدراجه ، من دون أن ينبس ببنت شفة ، على حذر ، متمهّلاً أول الأمر ، ثم مسرِعاً .

وقال أويلي يضحك متهكماً : « بل إني لأعتقد أنه يهابُنا » ، وضحك فريدلي معه .

وحين لوّح الغريب ، على أثر الضحك ، بمزيد من الوضوح ، على انفراد ، وضع كلاهما إبهامه وإصبعه الوسطى في فمه ، وأطلقا نصف اثني عشرية من الصَّفْراتِ التي تصك المسامع . وتوجّه الغريب في تراجعه نحو الصخرة التالية .

---

* جمع القامة ، والمقصود بها قامة الإنسان

وصاح أويلي مستمتعاً : « إلى أين تريد ياصاح ؟ أعتقد أنك تريد صخرة الشيطان الشديدة الانحدار! » .

« فلتهدأ ، ولْتَقَرّ عيناً! فإنه لا يلبث أن ينزل إلينا من جديد » .

« على كل حال لن يمضي بعيداً إلى الأمام ـ وأخيراً ، يافريدلي ، سيكون هذا في صالحك ، لأنه حين يتيه وسط الجبال ، ويَدْهَمه الليل ، يهب لك المزيد ـ والله يعلم ، ان هذا المضيف السماوي المقدس ، الحالف كذباً ، والملعون ، سوف يظل يروح ويجيء متسكعاً على رأس ثور! ألا فانظر بنفسك! فليأخذني الشيطان إذا أفضى به الطريق إلى مكان آخر سوى رأس الثور! لقد وَدِدْتُ فحسب لو ظل متعلقاً بقضيب من شجر البندق ، ورأسه إلى الأسفل ، حتى تتواثب القطع الذهبية من جيبه المقلوب ، كما تتواثب صغار العنز ، إذاً لساعدته في البحث عنها » .

« كلاً ، إن ما أردته هو أن يتيه في البرج ، فلا يستطيع أن يتقدم ولا أن يتأخر ، وسأقول له عندئذ ، ببساطة ، هل تعطيني ستة عشر فرنكاً إذا ما أنزلتك ؟ أوَ تعطينيها ؟ وإلاّ ففي وسعك أن تبيت ليلتك هنا ، في الأعالي » .

« ولماذا تقول ستة عشر على وجه الخصوص ، أنا أعرف لماذا ، أليس كذلك . أوَ لا يكمن غطاء السرير عندك في معدتك ، وهو الغطاء الذي ألحقت عن طريقه العار بماتيس ؟ » .

وفي هذه الأثناء كان الغريب قد توارى في الأحراش المتناثرة بغير نظام عل الجدار السحيق الانحدار .

وقال فريدلي : « إن ما يحيّرني هو متى يعود إلى الظهور من جديد » .

« آه ، وأين عسى أن يكون ذلك سوى في نزوله عند حجارة الأنقاض ؟ ولن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً » .

«لأَنْ يهبط على حجارة الأنقاض أحبُّ إليَّ من أن تزل قدمه فوق جدار الثور السحيق الانحدار . فبعد ساعتينَ يحلّ الظلام ، وما عسى أن يستطيع رجل كهذا أن يصنع في الليل ، هناك ، حيث يلقى الواحد منا الجهد حتى في النهار» .

وبينما كان ما يزال يتكلم تدحرج الغريب وسط سحابة من الغبار والحجارة المتدحرجة ، على منحدر حجارة الأنقاض ، من دون قبعة ، ولا عصا الألب ، وأخيراً من دون أن ينقلب على عقبيه .

وقال فريدلي يحذر صاحبه ، وقد انتابه القلق : «تعال ، ياأويلي ، فمن السهل أن يكون ذلك ، لقد انكسر فيه شيء ما» .

ونظر أويلي نظرة حادة ، ثم قال وهو يبعث فيه الطمأنينة : «إن هذا لا يضيره في شيء ، وها هو ذا ينهض قائماً من جديد . وكل ما في الأمر أنه على جانب من الحماقة وقد انتابه الغيظ . انظر إليه كيف يلوّح بذراعيه . وأنا لا أحمل ذلك منه على محمل السوء ، فإن الأمر لا يكون هزلاً عندما يتدحرج المرء على حجارة الأنقاض ، ولا سيما حين يكون في مثل هذه السراويل الناعمة والحذاء الرقيق» .

وفي هذه المرة أسرع الغريب ، من دون توقف ، إلى الأجيرين ، وقد خرج عن طوره من الغضب ، يشكو بمرارة من أن الناس يَدّعون إنساناً عابراً ضلَّ طريقه ، وهو غريب في هذه البلاد ، يسير على أخطر الصخور من دون أن يحذّروه بكلمة واحدة .

وردّ فريدلي قائلاً بهدوء ورزانة : «ولكن لم يسألني إنسان» . ونهض في الوقت ذاته ، وارتدى ثوبه ، وعلق حقيبته عليه ، وطرح قبعته على رأسه ، وأمسك بعصاه .

وقال يسأله بلهجة مهذَّبة : «إلى أين تريد ، إذا سمحت ؟ ، أتريد ، على ما يبدو ، أن تجتاز المرعى العالي ، لتذهب إلى كورهاوس ؟» .

وقاطع الغريب السؤال بحركة تنبئ عن نفاد الصبر والاشمئزاز .

وقال فريدلي يهدّئ ثائره بأسلوب أبوي : «سوف تصل قبل الليل بلا ريب ، ولذلك فلا داعي لأن يتولاّك الغضب . وإنه لمن الصحيح أن هذا الطريق قد جشَّمكم بعض الجهد ، وألحق الأذى البالغ بالسراويل الناعمة ، أما القبعة وعصا الألب فسوف يتم العثور عليهما في الغد ، ولا حاجة إلى أن تتحملوا الهَّم من جراء ذلك» .

ثم عمد ، لكي يواسيه ، إلى نفض التراب عن ثيابه ، برفق ، واستخراج العيدان من شاربيه ، وختم قائلاً بمودة : «هلمَّ الآن معي ، وسأتقدمك» .

ومع هذه الكلمات خطا نحو مرتفع الممر ، في الاتجاه الذي كان الغريب قد صعد فيه أول الأمر .

ولكن هذا هزَّ برأسه علامة النفي ، على غير إرادة منه ، وعلى نحو ينم عن الازدراء ، وجعل يطرقع بلسانه مستاءً ، واستخرج خارطته ، واتخذ اتجاهاً آخر فيما بعد ، في ثقة ويقين .

وقال فريدلي يحذره بقلب طيب : «لن تصلوا من هناك طوال عمركم إلى المرعى العالي ، فمن هناك يفضي الطريق إلى عش الحمامة» .

وقال أويلي يحذره ، وهو ينهض قائماً : «ليس من المستحسن ، ياسيدي ، أن تذهبوا إلى عش الحمامة في هذه الساعة من النهار ، فقد تسقطون على الجدار السحيق ، ومن السهل للغاية أن تحدث زلة قدم!» .

وغمغم الغريب بكلام ما وهو مطرق برأسه ، ومدّ ساقيه ، وأصرّ على اتجاهه بعزم وحزم ، وخطوات ثابتة .

وتجهَّم وجه فريدلي .

« يا أويلي ، اسمغ : إن مَدَّ ساقيه لم يعجبني . والأمر يبدو على وجه الخصوص كما لو أنه أراد أن يسدد ركلة إلى كلب » .

« لست مضطراً إلى أن تفهم الأمر هكذا على وجه الدقة . فهؤلاء السادة قوم أولو سماجة . فاذهب ، وساعده ، ودُلَّه على الطريق! وإلاّ فمن الممكن أن يحدث له بعدُ شيء ما » .

« وبماذا غمغم وهو مطرق برأسه ؟ من الخير أنني لم أسمع ذلك بوضوح » .

« اذهب ، ولا تكن مشاكساً! فلو دخل في الليل لانتفض واثباً فوق الجدار ، وذلك أمر لا أشك فيه مثلما أعرف أنني واقف هنا . ولو لم يكن إحجامي بسبب حَلْب اللبن لذهبت بنفسي . ولا ريب أن المرء لا يستطيع في مواجهة المصيبة أن يقف موقف المتفرج ولا يحرك ساكناً ، وهو يرى امرءاً يمشي مشية المتسكّع بطريقة جنونية ، نحو الموت ، بدافع مجرد العناد وركوب الرأس . وسيكون هذا شيئاً من قبيل ما قلتُ آنفاً : أَوَ تعطيني ستة عشر فرنكاً إذا ساعدتك ؟ » .

ونظر فريدلي إليه نظرة تنم عن الرغبة ، وصاح بحماسة : « أتظن أنه يعطيني ستة عشر فرنكاً ؟ » .

« يالك من مجنون ، إذا كان الواحد منهم يدفع قطعة من الذهب لقاء سلة بسيطة من توت الأرض ، فهل تحسَب أنه يلقي بالاً إلى المئات أو الآلاف إذا كانت المسألة تتوقف عليها حياته ؟ » .

« الله يعلم ، أنك على حق ، وسوف تنال ما يعطيني فوق الفرنكات

الستة عشر ، مقابل نصيحتك الحسنة ، فهل تظل هنا إلى أن أعود ؟ » .

« كلاّ ، فلا بدّ لي أن أعود إلى البيت ، لأَحْلِب ، لقد أَزِفَ الوقت ، والشمس تشير إلى أن الساعة تجاوزت السادسة . ولكن سأنتظرك في المكان ذاته فيما بعد ، أو تنتظرني إذا عدتَ قبلي . ولكن لا يجوز لك أن تدعه يفوتك ، وإلاّ كان هناك في الأسفل يزعق ويَجْأر قبل أن تأتي إليه » .

وعاد أويلي إلى البيت ، ليحلب ، ولما كان المعلم قد أمره أن يَشْحَذَ مذراة التبن فقد اضطر إلى البقاء إلى أن حل الظلام .

وعلى أثر ذلك تظاهر بالرغبة في النوم ، واستخرج كيس نقوده الصغير من الفراش ، ثم تسلّل من وراء البيت إلى الغابة ، ومن هناك ، عبر الحرش ، عند حافة الغابة ، صاعداً نحو ظهر الجبل .

وفي منتصف الطريق ، على رأس رابية ، عند الغابة مباشرة ، رأى مارايلي واقفة ، وكانت ترفع ناظريها إلى شجرة الصنوبر ، وتجعل ذراعيها فوق جبينها ، بسبب الضوء الباهر .

وقال أويلي وقد بات وراءها مباشرة حتى إنها لم تجد الوقت لَتِنْسلّ إلى الغابة : « الطقس جميل في هذا المساء ، يامارايلي » .

وفزعت مارايلي ، وتماسكت مع ذلك على الفور ، وأجابت بلا مبالاة ، من دون أن تحوّل بصرها ، قائلة : « أجل ، الجو ليس حاراً كما كان في الظهيرة » .

« كيف كان العمل في حصاد التبن ؟ » .

« كان من الممكن أن يكون أفضل » .

« ماذا تفعلين هنا ، في الأعالي ؟ أتتنَزهين قليلاً ؟ » .

« أبحث عن زهر السوسن ، للطفل » .

«اعتقد أن الطفل قد بات أطول مني بنحو شبر ، وله قفا مثل قفا الثور ، وزغب لحية ناعم أشقر على جانبي أذنيه ، ولكن لو حصلتِ على السوسن الذي أخذه منك ، مرة أخرى ، فهل تدفعين فيه الكثير ؟ » .

وسحبت مارايلي مَرْيَلتها فوق عينيها ، وتوارت في الغابة .

وحين وصل إلى ظهر الجبل لم يكن فريدلي قد عاد بعد . وغمغم قائلاً لنفسه : «لولا أنه قال لي ، هو نفسه ، إنه سيعود لاعتقدت أنه لن يأتي على الإطلاق» .

وحين أدركه الملل ذهب تلقاءه قليلاً ، واقتصر أول الأمر على بضع خطوات ، ثم خطا خطوات أخرى ، وخطوات أخرى فوقها ، إلى أن بلغ الحافة ، عند عش الحمامة . ولكن الشمس كانت تبعث في عينيه حمرة بلغ منها أنه كان كلما أمعن في السير قلّ ما كان يستطيع أن يراه ، ولذلك عاد أدراجه ، ثم جعل يخطو بضع خطوات في الاتجاه المعاكس ، متمهلاً ، لأنه كان يستطيع بهذه الطريقة أن يحيط ببصره بظهر الجبل على الأقل مثلما يفعل في وضح النهار .

وبعد أن توارت الشمس تماماً وراء عش الحمامة ، سمع في الأعلى ، فوق الصخرة ، صرير الخشب ، كما لو أن حيواناً كبيراً كان يهرب ، وصاح بلهجة المؤانسة :

«أهذا أنت ، يافريدلي ؟» .

«أين تختفي ، يا أويلي ؟» .

«في الأسفل تماماً ، عند السفوح الشديدة الانحدار ألا فانزِلْ ، في أي مكان ، فسوف أعثر عليك ، وإذا لم أَرَك فسوف أسمعك» .

وعلى أثر ذلك وثب فريدلي ببضع خطوات جريئة ، من الكتل الصخرية الضخمة إلى الهُوَّة ، ومن الهوّة إلى الدَّغل ، ومن هناك ، منزلقاً ، إلى ظهر الجبل .

وصاح غاضباً : «انظر ، يا أويلي ، ما هذا ؟» .

«هلاّ تحولت إلى الاتجاه المعاكس ، فإني لا أستطيع أن أرى شيئاً من جراء حمرة الشمس» .

«والآن ؟ هذا ؟ ما هذا ؟» .

«آه ، إنهما دانقان*» ، وقال فريدلي مزمجراً ، يلهث من السخط :

«هذا ما أعطانيه الغريب ، من الأجر» ، وقال أويلي وهو يطرق برأسه :

«عُشْرَيْ فرنك لقاء ريادة الطريق ، في المساء ، في الساعة السادسة والنصف ، عبر عش الحمامة ، إنه لأجر ضئيل . لقد كنت خليقاً أن أدع كيس نقودي في البيت» .

وقال فريدلي وهو ينفخ مغيظاً محنقاً : «أي ريادة في الطريق ؟ ، إن المسألة ليست مجرد ريادة على الطريق . لقد اضطررت إلى حمله ، وحملته مثلما يُحمَل الطفل ، فوق السفح الجداريّ كله . لقد كان ركبتاه ترتعدان . وفي الأسفل ، على أجمل الطرق وأنظفها وأكثرها أناقة ، يفلت من يدي العجوز ، والله يعلم ، معقود القدمين ، على أرض مبلّطة ولو أني لم أمسك به من ذراعه لكان من الممكن أن يلمّ المرء أجزاءه ، في الصباح الباكر في القبر ، بالمجرفة» .

«ولماذا لم تقل له ، حين أمسكت به : «أعطني ستة عشر فرنكاً أو أدعك تَخِرُّ على وجهك ؟» .

---

* جمع دانِق ، وهو أصغر قطعة نقد

وقال فريدلي متضائلاً ، وقد شعر بالخجل : «لم يخطر هذا لي ببال ، وأنا في هذه السرعة ، حين كان معلَّقاً فوق الهاوية ، وهو يلهث من الفزع ، مثل السمكة على الصنارة ـ ثم خطر لي فيما بعد أنه قد فات الأوان ، ولم يكن من اللائق أن أقدم له فاتورة الحساب ، وكأنه لا يعرف من تلقاء نفسه ما ينبغي له أن يفعل» .

«إذاً فقد جنيت على نفسك بنفسك ، ببساطة . ولا يجوز للمرء أن يتصرف مع الغرباء بهذه الحساسية المفرطة ، فإنهم يحسبون على أية حال أن مما يشرِّف المرء أن يتاح له أن يَلْمَسَهم ، ولكنه يظل بخيلاً أجرب ، على الرغم من كل هذا . عُشْرا فرنك! ، بعد أن اضطرَ المرء إلى حمله على السفح الجداريّ بأكمله! ولو أنني اضطررت إلى حمل إبريق من الحليب عبر عش الحمامة لأخذت على ذلك خمسة من الفرنكات الصغيرة» .

«لم أُرِدْ الحديث عن هذا كله ، ولكن الأسلوب الذي أعطانيهُ به! ، إذ قال : «فلتأخذ هذا» وهو يمدّ يده إلى الوراء ، ويدس ذلك في يدي ، مثل صدقة . أتفهم ؟ وقال ذلك بهذه الصيغة ، ولم يقل لي : طاب مساؤك ، أو : جزاك الله خيراً ، بل لم يقل شيئاً سوى : «فلتأخذ» ، ومن خلال أنفه ، مثل مدير المدرسة في الكنيسة ولم يتجلَّ الأمر لي بهذا الوضوح على الفور . ولم يتردد صدى ما قاله في أذني إلاّ فيما بعد ، حين كان قد مضى ، وإلاّ لكنتُ وجهت إليه نوعاً آخر من تحية المساء على الطريق ـ ولكن هذا أمر في وسعك أن تتصوّره بسهولة : لقد تركته يقف في الأسفل على فلوكيجر ميتلي ، وفي وسعه الآن أن يرى هل تُراه يجد مجنوناً آخر يصحبه في الليل إلى كورهاوس مقابل عُشْرَي فرنك» .

«على فلوكيجر ميتلي ، يافريدلي ، هذا غير مستحسن ، فقد كان من الممكن أن ينزلق إلى الهُوَّة ، نحو مسقط الماء» .

«إذا انطمر في مسقط الماء فهذا ذنبه . لقد أوضحت له كثيراً ان عليه أن يلازم اليسار» .

«سواء أكان يساراً أو يميناً ، وبوضوح أو بغير وضوح : فإن الغريب شأنه كالطفل ، ولا يجوز للمرء أن يدعه وحده أبداً» .

«وعلى هذا فعليهم أن يَلْزَموا بيوتهم إذا كانوا لا يميزون اليسار من اليمين» .

«لا أعترض على هذا ، فأنا لم أدعُهم ، ولست في حاجة إليهم أيضاً ، ورأيي ببساطة ، هو هذا : إذا كان الآن يُعْوِل ويَجْأر ، وسط الماء في أسفل الهوة ، محطَّم الأعضاء ، فقد وقع إثمه على كل طائفة المؤمنين! » .

«أتُراك تحسب أنه في ذمتها ؟» .

«ومن تراه يكون غيرها ؟ أما البابا فلا ، ولسوف يكون عاراً على المقاطعة كلها ، حين يقال في عيد القنّاصة التالي إن غريباً قضى نحبه في منطقتنا ، ومات ميتة كلب لا يمت بصلة إلى أحد ، لمجرد أن القوم لم يدلّوه على الطريق ، في الظلام ، في وسط فلوكيجر ميتلي» .

«هل تأتي معي ؟» .

«فكِّر مليا ، آمل ذلك . أو لا يسعف المرء بهيمة عجماء إذا زلّت بها القدم ، فضلاً عن الإنسان . وعلى كل حال فسيكون من الأفضل أن يكون المرء معك . وأنت امرؤ مشاكس ، وأنت من يعرف ذلك على أفضل وجه . ولكن لا بدّ لي أولاً أن أغلق السياج لكيلا تخرج البهائم ماشية على الصخور في كل اتجاه . ففي هذه الأيام توجد ثيران وأبقار يضاهي غباؤها غباء الإنسان» .

وعلى أثر هذه الكلمات توارى أويلي في الغسق .

ولم يكد يبتعد حتى سمع فريدلي نشيجاً وراءه ، وإذا مارايئلي تشده من كمه في فزع .

وقالت تحذره : «عُدْ إلى البيت ، يافريدلي ، أبي يقول لك إنه آسف ، وما عليك إلاّ أن تعود ، وتتصرف كأن لم يكن شيء ، وان ثمة فرصة ستُتاح ذات مرة من جديد لتسوية هذه المسألة» .

وكانت تشده في أثناء حديثها إلى الوراء ، من ذراعه اليمنى تارة ومن اليسرى تارة أخرى ، لتحمله على المسير .

وتركها فريدلي تفعل ذلك ، صابراً ، مطاوعاً بصدره وجذعه ، حتى باتت تُديره يساراً ويميناً كما لو كان يمارس الحصاد ، غير أنه كان راسخ القدم بفخذيه ، ولم يحرك قدميه شبراً من مكانهما . وقالت مارايلي هامسة :

«أهو من جراء غطاء السرير الذي لحق به الدنس ؟ أصحيح هذا ؟ أهو من جراء غطاء السرير المُدَنَّس ؟ ولكن هذا الغطاء لا يحتاج إلى شيء . لقد وضعت غطاء سريري بدلاً منه وأخذت غطاء سريرك بدلاً من غطائي ، بحيث لا يلاحظ ذلك أبي» .

والآن ترك فريدلي الفتاة تسوقه ، على تردُّد ، ولكنه عاد إلى المعاندة فجأة ، من جديد ، بعد بضع خطوات .

«لا بد لي أولاً من الحديث مع أويلي ، فقد وعدته بذلك» .

«ولكن بعد ذلك ، بعد ذلك ، هل تأتي ؟» .

وقالت تتوسل إليه ، وقد أرضاها أنه لم يجب بالرفض ، بإلحاح : «هل أدع النافذة مفتوحة من أجلك ؟» .

وغمغم فريدلي قائلاً على سبيل التهرُّب : «هلاّ مَضَيْتِ!ٍ فأنت خليقة أن تخجلي ، لأنك ابنة واحد من السادة ، وأنت تجرين في ساعة متأخرة من الليل ، في التاسعة ، وراء أجراء الأرض في الغابة» .

وحملها هذا التعبير على الهرب . وصاحت تقول له في انصرافها ، مرة أخرى ، بصوت مكتوم : «إذاً فسأدع النافذة مفتوحة لك ، كما قلت...» .

وقال أويلي الذي جاء على حين غفلة هامساً : «ما الأمر ، يافريدلي ، هل بدا لك رأي آخر ؟ هل تدخل في هذه الليلة من النافذة ؟ ربما كان هذا هو التصرف الأكثر عقلاً» .

«إذا شئتُ ذهبت ، وإذا ذهبت فلست في حاجة إلى أن أقدم حساباً عن ذلك لأي إنسان على وجه الأرض» .

وعلى أثر ذلك ذهبا معاً ، عبر الغابة ، بهمة ونشاط ، إلى فلوكيجر ميتيلي .

وحين وصلا إلى فلوكيجر ميتيلي كان كل شيء ساكناً إلى درجة أن المرء كان خليقاً أن يحسب أنه لابد أن يسمع النجوم تئز أزيزاً وتهدر هديراً عندما تتساقط كالبَرَد ، عناقيدَ ، كالجوز الناضج . وقال فريدلي في سَأَم :

«لقد هتفت له بما يكفي من الوضوح ، وكان عليه أن يظل في مكانه ببساطة» .

«لقد خطر ببالي ، تقريباً ، أنه كان كلما أمعن المرء في الهتاف له ازداد إمعاناً في الابتعاد ـ وأخيراً فإن القمر ما عاد يمكن أن يكون بعيداً ، ولا بد أن يظهر الآن عما قريب» .

وانتظرا القمر ، ثم بحثا بعيونهما تحتهما ، وجعلا يطلقان عقيرتهما بالهتاف الصارخ المجلجل .

«الآن ما عاد ينقص شيء ، يافريدلي . لقد تدحرج إلى مكان ما في الأسفل . ولا يمكن أن يكون في أي مكان على وجه الأرض سوى في الهوّة ، باتجاه مسقط المياه» .

وكان صوت مسقط المياه يدوي بقوة مطردة الزيادة ، وكان الكهف الذي ينطلق منه الجدول في أعلاه يهدر ويُرْعِد . وكانت أضواء القمر الزُّرْق ترتسم بُقَعُ منها على الكهف الصناعي . وتوقف أويلي الذي كان يتسلق متقدماً ، فجأة ، وانحنى ، وصاح : «ها هو ذا راقد هنا! إنه هو! في الأسفل في الجدول ، فوق الحصى» . أما فريدلي ، فقد أصدر حكمه بعد أن أقبل واثباً ، قائلاً : «ما عاد هذا يحتاج إلى طبيب! انظر كيف يفتح عينيه الزجاجيتين! على أن ما يدهشني هو الكيفية التي دخل بها هذا الوادي الذي يشبه الدَّسْت ، ولو أن أحداً أراد دخوله لاحتاج من أجل ذلك إلى بذل أقصى الجهد» .

«لابد أن قدمه زلَّت فوق الهوة!» .

وبينما كانا يتطلعان هنا وهناك لمعرفة المسار الذي يحتمل أن يكون سلكه حين سقط ، كانت مِزْقة من الثياب تتعلق بغصن شجرة ، وفي الأسفل ، على لوح من الصخر كان يوجد كيس نقود قد انفتح فمه ، وكانت تتناثر حواليه ، على مسافة بعيدة قطع كثيرة من الذهب الملتمع .

وندّت عن أويلي صيحة تقول : «يا لها من مصيبة!» وكانت أنفاسه لاهثة من فرط الانفعال .

وظل فريدلي وقتاً طويلاً يحملق في الذهب الملتمع ، ثم توصل إلى قرار ، وقال حزيناً : «هنا لا يمكن الآن عمل شيء آخر ، ببساطة ، ولابد للمرء أن يجمع كل شيء ويضعه في كيس النقود من جديد ، فلا ريب أنه لا

يعود إلى أحد سواه . ولسوف يلحق العار بالمجتمع هنا كله أيضاً إذا قيل إنه قد ضاع منه سنتيم واحد » .

وجعلا يبحثان بجهد ، مع التسلّق الجريء ، عسى أن تكون بعض القطع الذهبية الأخرى قد ضاعت متفرقة .

وأخيراً قال أويلي متأكداً : «ما عاد ثمة شيء» .

ثم مسحا العرق ، بضغط يديهما ، عن جبينيهما ، ورفعا الجثة من حوض الجدول وحمل كلاهما الجثمان ، والذهب ، بحذر ، إلى فلوكيجر ميتيلي . وهناك وسَّد الميت على العشب ، بتؤدة ، وأعادا كيس نقوده الملآن ، نظيفاً ، إلى جيب ثوبه ، وقعدا عن يمينه ويساره ، وجعلا يهتفان يائسين .

«لا بد أن يسمعنا أحد آخرالأمر» .

«وسوف يلتمسه أهل فندق الحمامات المعدنية على الأرجح ، حين لا يعود إلى طعام العشاء » .

ومع ذلك فقد أصبح هتافهما أقل تواتُراً مع الزمن ، ولكن أنفاسهما باتت أعلى صوتاً ، وشيئاً فشيئاً انزلقا على العشب ، بحذاء الجثمان ، ناعِسَيْن ، منكَّسَيْ الرأس ، وقد هبط صدراهما .

ولكن كلاً منهما كان يضع ذراعه ، في نومه ، فوق جيب الثوب ، يحميه .

وأفزعهما من أحلامهما ضوء المصابيح ولَغَط الأصوات ، وكان يقف حواليهما رهط من الرجال ، وكانت سيدة شابة ، غريبة ، جميلة ، نبيلة ، مثل أميرة من كتاب الأساطير ، تلقي بنفسها على الجثة وهي تصرخ صراخاً حاداً ، وتتصرف كمن فقد عقله تماماً .

وطفق الأجيران ، وقد شعرا بالحرج البالغ ، يقسمان بغير انقطاع إنه لم يَضعِ سنتيم واحد ، إلى أن تولى رجال فندق الحمامات المعدنية سحب المرأة الجميلة ، وحملوا الجثة بعيداً ، فوق رابية فلوكيجر ، عبر غابة جانيس .

ولم ينبس أحد من الأجيرين ببنت شفة طوال الوقت الذي كانت تُرى فيه المصابيح ويُسمَع فيه صراخ التفجع الذي كانت تطلقه السيدة الشابة النبيلة .

ثم بدأ أويلي بقوله ، في لهجة الجد : «لقد عرفته هذه!» .

وبعد شيء من الصمت أجاب فريدلي بلهجة التوكيد : «لا ريب أن من المستحسن أن يكون للمرء أحد يعرفه على الأقل في هذه الدنيا ، حين يرقد على النعش» .

وقال بعد هنيهة ، إذ كانت النجوم الكثيرة في السماء تحملق فيه بنظرة غريبة :

«على أي موقع من كل هذه المواقع الموجودة هنا في الأعلى يحتمل أن تكون زلت قدمه ؟» .

وانتابت أويلي الدهشة من هذا السؤال ، ومن جراء هذه الدهشة نام مرة أخرى .

وزقزق طائر من طيور القُرْقُف زقزقة حزينة في الخشب ، وعلى أثره زقزقت قُبُرة .

وصعد أويلي إلى الأعالي وهو يرسل أنفاساً مسموعة ، وتنهّد تنهدة عميقة ، ونظر حواليه وهو يرتعد من البرد .

وكان فريدلي قد توارى عن الأنظار .

ولبث أويلي وقتاً طويلاً يطل على المكان الخالي مندهشاً ، وأخيراً غمغم قائلاً وهو مطرق برأسه : «آه! لقد مضى الآن ، بلا ريب» ، وكان كلما أمعن في التفكير في ذلك ازداد إدراكه أن مارايلي باتت الآن حرة خالية ، وأنه ما عاد ثمة شيء يعرّض كبرياءها للخطر ، الآن ، إذ لابد أن تكون مسرورة حين لم يعد يريد أن يخالطها بعدُ على الإطلاق إلاّ واحد ، سواء أكان هذا فلاحاً أو أجيراً من أجراء الأرض أو حتى مجرد أجير صغير أو فتى من العاملين في الحظيرة .

وفي الأعلى ، على ظهر الجبل ، حين كان النهار قد سطع ضوؤه ، وأشرق وجهه ، وكان هو يرى مزرعة ماتيس وسط المراعي ، تحته ، نظيفة مثل بيضة عيد الفصح المرسومة المزوّقة ، في حديقة ، وكانت تفوح رائحة العشب الجديد العائد إلى ماتيس ، خطر بباله أن من يكون حبيب مارايلي ، ابنة ماتيس فمن المستبعد أن تسوء أحواله في هذه الدنيا ، حتى لقد بدا في نظر نفسه مضحكاً أكثر مما كان في غير هذه الحال ، وظل ساكناً لا يريم لكي يتأمل هذا من الأعلى ، ويمعن النظر فيه قبل أن يعود إلى البيت .

هنالك هتف له إنسان في أذنه اليمنى بطريقة بلغ من فظاظتها أنه أوشك أن يسقط من الفزع .

«ماذا ؟ أهذا أنت يافريدلي ؟» .

«تصوّر أنني هو ، أم تراك تحسب أنني لابدّ قد تغيرت تغيُّراً هائلاً ، منذ ثلاث ساعات ، حين تغيّبت عن المكان» .

«هل تعرف أيضاً ما رأيت هذه الليلة في منامي ؟» .

«وماذا رأيت في منامك ؟ أنك تقعد في نادي «الوئام» في فينتسينس ، من الساعة السادسة ، يوم السبت ، إلى ليل الأحد ، الساعة الثانية عشرة ،

وأنت في حالة سكر قاتل ، إلى أن تخسر في القمار آخر سنتيم ؟ » .

« كلاّ ، لم أحلم بهذا ، بل حلمت بشيء آخر ، وهو أنك تطير في الهواء مثل غول ولك جناحان أسودان كالخفاش ، وعناك في الخارج ، أمام رأسك ، وأنك كنت تصرخ قائلاً بغير انقطاع : « ياأويلي ، لقد طاش سهمُنا ، لقد قتلتُه الآن . وقد أعطاني الغريب ، ولكن ليس الغريب في الحقيقة ، بل الخليفة ، في قاع الهوّة ، إشارة ، ثم أدار بيده صنبوراً عند مسقط الماء ، فجعل ينفث قطعاً من النقود الذهبية ، ولكن حين أهمّ بالنزول إلى هناك وفي يدي سطل اللبن ، تأخذ قطع النقد الذهبية في الرقص في الهواء كالمجنونة ، كسرب من البعوض في حمرة شفق المساء ، إذا ما ضرب المرء بسوطه في جمعها » .

« إنما هي أحلام عجوز في تموز » .

« وأنتَ ، بماذا حلمتَ ياترى ، يافريدلي ، حتى أتيت في هذه الساعة المبكرة ؟ » .

« ولكن لو قلت لك ذلك فسوف تعرفه ؟ إنه مماثل لما حلمتَ أنت به ، ولكن على نحو مختلف تماماً ـ ولكن ليس في الحلم كله أيضاً ذرة من الحقيقة ، وهو أنني ، قتلته ، كما ورد في الحلم . وأنت تستطيع أن تشهد على هذا بنفسك أحسن شهادة ، أو قُلْ ما أنت قائل ، بنفسك ؟ » .

« الأفضل عندي ، من أجلك ، ألاّ يكون هذا حقيقياً ، ذلك لأنه إذا كان يفترض أنه قُتِل ، فقد بات الآن في عداد الأموات ، والأمر أدعى إلى ارتياحك بهذه الطريقة . ولكن ما هي الورقة الرابحة في يدك الآن ، في الحقيقة ؟ » .

« الورقة الرابحة عندي الآن ؟ أنا ذاهب إلى البيت الآن . هذه هي الورقة الرابحة عندي الآن ، إلى ماتيس ، أو إلى مارايلي ، إذا كان هذا أدعى إلى إعجابك . انظر ، النافذة ما زالت مفتوحة » .

وعلى أثر هذه الكلمات جمع يديه عل شكل بوق أمام فمه ، وملأ ، بالامتصاص ، كلَّ صدره الهائل ، بالهواء ، ورفع نفسه على أصابع قدميه ، وأطلق صرخة في الوادي بلغ من قوتها أن صداها تردّد في كل جنباته ، حتى صخرة هولْدَرْباخ .

وعلى أثر ذلك تحرك شيء عند النافذة ، وأطلق مُغَنٍّ شعبيّ يرتعد فَزَعاً ، دامعَ العينين ، صيحة بصوت لا يكاد يسمع ، وهو يقول : « هيه! هيه! » .

ولوى فريدلي شفتيه ، سعيداً .

وقال ضاحكاً : « إنها هي ، مارايلي » .

ثم قال فجأة وقد قطّب جبينه ، وعيناه تدوران ، وهو يصرّ على أسنانه : « ولكني كنت اليوم أوّل مَنْ نهض! وسأريهم اليوم ما الحصاد! هؤلاء الحَزانى ، الأشقياء ، البائسون ، أهل الشّخير ، الذين لا يستطيعون ، بما هم عليه ، حتى أن يحصدوا أرض ميتيلي الغابة التافهة ، البائسة ، إلى النهاية ، وعددهم اثنا عشر ، من الصباح حتى المساء! ـ ولكن سأشرب أولاً قهوة خالصة . انظر كيف تغلي وتفور ، خارجة من المدخنة ، السحابة الصغيرة . إنها مارايلي . لقد وثبت البنّية المتفجرة بالحيوية من فراشها ، وركضت حافية القدمين إلى المطبخ ، لمجرد أن أحصل على القهوة بمزيد من السرعة » .

وحين فرغ من هذه الكلمات هبط ، وهو يترنّم بأنغام شعبية ذات إيقاع ، متينَ البنيان ، مرحاً ، على السفح الشديد الانحدار ، في خطوات وثابة ، نحو مزرعة ماتيس .

غابت المدينة

كان الخشب الذي ينقله تيار النهر جاهزاً ، وقَمْرة القيادة مجهزة بالفراء ، وحطب الوقود والسمك المجفَّف من أجل نصف عقد من الزمان ، وصعد كلا العاملين في نقل الخشب على الماء ، أحدهما وراء الآخر ، بخطوات ثقيلة جَعلت الماء يصطفق خارجاً من خلال الفجوات ، مُنْساحاً على الجذوع الضخمة . وكانت الأسرة الصغيرة على الشاطئ قبالة المنزل الصغير : الشيخ ركّا ، وإلى جانبه الأم مُوورا وقد تعلقت بذيل ثوبها الصغيرة ريتي ، إذ كان هؤلاء يحملقون في الإخوة المسافرين بأفواه فاغرة .

وظهر الآن أيضاً العميل الأجنبي الذي كان قد وضع نظارته في المنزل الصغير ، وتلا نص العقد للمرة الثالثة ، باللغة السويدية أولاً ، ثم باللغة الفنلندية : « يصرح الإخوة إنجن وشركاؤه ، تجار الخشب في ستوكهولم ، بأنهم اشتروا ، عن طريق عميلهم جوستاف لنديكيست ، من آبو ، مائتا قطعة من خشب التنوب ، الفتيّ ، النظيف ، طول ٢٠ قدم ، سماكة ٩ بوصة ، سعر ٦٠ مارك فنلندي ، من روباري رَكّا ، في رُتّيلا ، منطقة كووبيو ، في فنلندة ، تدفع في ستوكهولم ، في يوم وصول الخشب إلى أبناء المذكور أعلاه ، روباري ركّا ، وهما هايكي وريزّي رَكّا . التوقيع : عن

الإخوة إنجن وشركائه : جوستاف ليندكيست ـ روباري ركّا » .

وغمغم الشيخ حين انتهت القراءة ، قائلاً : « أحسنت » . وعلى أثر ذلك دسّ العميل العقد بعناية في حقيبة جلدية ، وربط الحقيبة بخيوط القنب ، أربعة أدوار ، دورين على الأقطار ودورين على المحاور ، وسلّم المجموع إلى الأكبر بين ناقِلَيْ الخشب .

ومسح هذا أولاً يديه بُصَدَيْريه الرمادي ، ثم تناول القطعة الهامة بصورة احتفالية ، ليدفنها في القمرة بين أسماك الرنجة ، وأرغفة الذرة .

وبذلك بات القوم جاهزين للرحيل ، ولكن كان يبدو كأن واحداً منهم ما زال يريد أن يقول شيئاً . ولمّا لم يجد أحدٌ منهم أحداً يفتح فاه ، فقد رفع الرجال القبعة الجلدية عن رؤوسهم ، وأداروها بين أصابعهم ، وقرؤوا أدعيتهم ، بينما كانت مُوورا تشدّ يديها حول جبهة الصغيرة ريتي ، وصاح العميل : « صحبتكم السلامة » بمجرد أن تحرك الخشب . واتكأ ناقلا الخشب على المجاذيف ، وأخذا يعملان بجد أكثر مما كانا في حاجة إليه ، وظل الآخرون واقفين على الشاطئ بغير حراك ، والشيخ في يده القبعة ، ومُوورا تضغط رأس الصغيرة ريتي على صدرها .

وانقضى نصف ساعة إلى أن وصل الفَتَيان الضخمان ، الشابان ، بالمركبة إلى الناصية الأولى ، ثم تركا المجاذيف تسير ، ومسحا عن جبينهما ، وقال أكبرهما بهدوء : « لقد غابت ريتيلا » ثم خطا ، متأنّياً ، نحو علبة ، واستخرج منها إضمامة من أوراق التبغ ، واحتزّها بسكين حزامه ، وقال بلهجة التوكيد « لقد أحسنت » ، وأصرّ على أن يضع في كف أخيه نصفها . وبعد أن ثبّت آخر الأمر حبل الصنارة في الخلف على الصارية ، جلس كلاهما للتدخين ، وتركا الخشب يقوده تيار البحر ، على مَهْل ، قريباً

من الشاطئ ، لكيلا يعترض طريق البواخر ، ولم يكن الواحد منهما أو الآخر يزحف نحو الدفّة ، على راحته ، إلاّ حين كان المركب يحتك كثيراً بالصخور ، أو يوغل أكثر مما ينبغي في أعماق البحر ، لكي يوجها المركب وجهة أفضل .

وفي الأسبوع الثاني طالعتهما مدينة على جبل ، وفوق المدينة جبل آخر ، وفوق الجبل الأعلى بحيرة . وسحب هايكي غليونه من فمه ، وقال : « كووبيو » ـ وردّ ريزّي قائلاً « إن كووبيو لجميلة » .

ثم جاء يوم عيد يوحنا المعمدان ، وبعد عيد يوحنا المعمدان جاءت شمس منتصف الليل . وكان ثمة أبراج من الخشب تنتصب عمودية على قُنَن الجبال الداخلة في البحر ، ومع غياب الشمس ، قبيل منتصف الليل ، كانت ألسنة النيران ترتفع من كل الآكام صوب السماء المشرقة إشراق النهار . وكانت تتناهى ، على البُعْد أناشيد فلاحية تعوزها البراعة حين كانت السفن تدنو من قرية ، وكانا يستطيعان ، من حين إلى آخر ، أن يميّزا كلمات « كوكو ، كوكو » . هنالك أخذت عيون الأخوين تلتمع .

وجمعا ، بقوة وعنفوان ، بضع حزم تملأ الذراع ، من حطب الوقود ، بعضها فوق بعض ، ولم يكد لسان اللهب الأحمريتراقص مرتفعاً من داخل الدخان حتى وثبا كمن أصابه مَسّ ، يدوران حوله مُقْبلَيْن عليه ومُدْبِرَيْنِ ، يغنيان ، بأعلى ما يستطيعان من صوت :

«حبيبي يناديني ، على البعدِ يناديِني ،

وعلى شاطئ بحر سايما يُسْمَع نشيج وأنين ،

وما من زورق على الشاطئ

ينقل حبيبي » .

وكان يدقّان الأرض ويعربدان حول ألسنة النار مثل رجال الإطفاء في كووبيو ، إلى أن ظهرت الشمس حوالي الساعة الواحدة ، مشرقة من السماء . هنالك رقدا يدخنان من جديد ، وما عادا ينطقان بكلمة على مدى خمسة أيام .

وكانا يَنْسابان من بحار إلى قنوات ، ومن قنوات إلى بحار ، ثم أخذت عواصف أيلول تهدر ، فأرغمتهما أن يلزما الشاطئ طوال أسابيع ، وأخيراً أصابهما الصقيع ، فعمدا الآن إلى إحاطة القمرة من الخارج بالثلج ، وأدْفأاها من الداخل ، مثلما يفعل أهل الشمال ، وكانا كلما وَخَز الدخان عيونهما حتى تسيل منهما الدموع تمدّدا منشرحين . وكان نومهما منتفخي الصدغين يقصّر عليهما الزمن الذي لم يكن قياسه ليخطر ببال أحد منهما على أية حال مع الليل العاصف الأبدي . أما المؤن فكانت قلّما تُمَسُّ في هذه الحياة التي يغلب عليها النعاس .

وذات ليلة ، بين انطلاقات العاصفة المكتومة وعواء الذئاب الباعث للأسى ، تناهت على البعد أصوات أجراس الكنائس الصادحة ، واحدة منهن عن الشمال ، وأخرى عن اليمين ، وأخيراً من كل الجهات معاً ، في غناء متواصل طويل ، مرتعد ، على النحو الذي لا تقدر عليه إلاّ الأجراس الأوروبية . وغمغم هايكي قائلاً : « يولو » ، ثم تسلسل بهدوء ، على الدرجات ، بين العلب ، وهو يرقب ريزي النائم ، على خوف من أن يستيقظ ، وجعل يلتمس الأكثر تلويناً بين مزق الثياب والخِرَق ، وكلّل رأسه بقميص ، ودسّ ذراعيه في حذاء طويل الساق . وبعد أن فرغ من هذه الاستعدادات انقض على النائم بزمجرة زلزلت كيانه . ومدّ هذا يده ، وعليه

سيماء الفزع ، إلى سكين حزامه ، إذ لم يكن يتوقع شيئاً آخر سوى أن يرى دباً . ومع ذلك فقد طفرت فجأة دمعتان على وجنتيه . وكان قد فهم : كانت لعبة طفل عيد الميلاد . وكان ريزّي يرقد الآن ، من جانبه ، على كرسي خشبي متصالب القوائم ، وهكذا تواصلت المفاجآت على نحو حافل بالتنوُّع والتبدُّل ، ما دامت الأجراس تَطِنّ . ولكن حين خفت رنين الجرس الأخير أخذا يتبادلان إضمامة التبغ والولاّعة . وكانت هذه هدية رأس السنة الجديدة .

وفي الصيف الآخر ، بعد أن كان الثلج قد ذاب ، وصلا إلى البحر ، وهناك انزلقا بين الجزر الصخرية بوداعة وسكون ، وكأن البحر بحيرة فنلندية . ولكن نتوءات الساحل الصخرية كانت تحمل ، ذات يوم ، منازل والجزر الصخرية مدافع . وكانا يريان ، مقابلهما ، على اليابسة ، كنيسة سمراء في مثل لون الشوكولاته ، لها أسقف على شكل البصلة ، بيضٌ كأنها سُكَّرٌ مذرور على الشوكولاته . وسحب هايكي غليونه من فمه ، وقال : «هلسنكي» ، وأجاب ريزي قائلاً : «إن هلسنكي لجميلة» . وأقبل زورق يحمل جنديين في حلة خضراء ، صعدا إلى المركب الذي يجر الخشب ، وجعلا يصرخان في وجهي ناقلي الخشب ، بلغة أجنبية ، وبوجه متجهِّم . وردّ هايكي قائلاً : «أنا لا أفهم هذا» . على أن الجنديين ازدادا مشاكسة ، وأخذا يصرخان بصوت أعلى ، ورد هايكي للمرة الثالثة ، قائلاً «لا أفهم» ، وكان صوته يتضاءل في كل مرة ، ثم أخلد إلى الصمت نهائياً . وأخيراً هزّ الجنديان في الثياب الخضر كتفيهما ، وانطلقا بالمركب المترنِّح الرجراج عائدين أدراجهما .

ولم يكن على الصخور البارزة من الساحل الآن ، من جديد ، منازل ، بل أشجار الصنوبر ، وصخور ومساقط مياه .

وذات يوم دافئ ، حين كانت الشمس قد أَفَلَت ، وكانت حمرة شفق المساء تجول مع حمرة شفق الصباح ، فوق البحر المضيء ، الذي لمّا يدخل في الغسق ، في مشية متوازية ، سمعا في أحد الخلجان صوت اصطفاق الماء وجَيَشانه ، مختلطاً بأصوات قرقرة خشنة . وقال هايكي هامساً : «إنه كلب البحر» ، ووضع إصبعه على فمه ، ثم جَذَّف بخفة وهدوء على قدر الإمكان ، منطلقاً في أثره وتربَّص له وعنقه ملتوٍ إلى الأمام ، ثم التفت فجأة إلى الوراء ، وارتسمت على فمه علامة ارتياح واسع النطاق بينما أشرق كل وجهه . وقال بابتسامة ساخرة : «انها فتاة» ، وحيّا كلاهما هذه الكلمة بضحكةٍ مُجَلْجِلةٍ . وكانت الفتاة المذعورة تريد أول الأمر أن تهرب من الماء ، ولكنها لم تكد تلمح وجهَيْ الريفيَّيْن الوديعَيْن ، الطيبين حتى ارتدت على عقبيها مُتَأَسِّيَة ، وشاركت في الضحك ، وتعلّقت بالمركب الناقل بذراعيها بينما كانت تغوص في الماء حتى عنقها ، حتى بات شعرها الأشقرالفاتح ، الأجعد يعوم فوق الأمواج في أشكال كأشكال النجوم ، مثل زهرة من أزهار الماء ، ثم انعقد حوار بينها وبين ريزي وسرعان ما اكتسبا ألفة بينهما جعلت الفتاة تفضي باسمها «ماريان» ، وهي تشير إلى موطنها بذراعها الذي كان يشير إلى القرية القائمة على الرابية . واستلقى ريزي متمدّداً في ارتياح بالغ ، على طوله ، ومرفقاه قائمان ، وذقنه في يديه والغليون الداخِن في فمه . وهكذا كان يدخن في عيون ماريان . وفي هذه الأثناء كان الأخ الأكبر يحرص على بقاء المركب الناقل ساكناً لكيلا تتعرض الصداقة للانقطاع ومع ذلك فحين أعدّ عدته شيئاً فشيئاً ليثبّت المركب بربطه بشجرة ، بصورة مختَلَسة ألقت ماريان بنفسها في اتجاه خلفي ، في الماء ، هاربة ، فسكبت على ريزّي المتسلّي ، بدلاً من الوداع ، موجة كبرى ، حتى جعل المطر الهاطل كالجدول يفيض من شعره على عينيه ، وسمع ضحكة أخرى بينما كان الماء

يحجب بصره ، ثم كان جيشانٌ جامح للماء وأخيراً تلاطُمٌ للماء وتقاطُر ، مثلما يحدث حين يصعد إلى البرّ دب قطبي عريض الأخمصين . وحين عادت إليه المقدرة على الرؤية الواضحة من جديد كانت ماريان قد توارت . وقال هايكي متهكماً «ما عاد للفتاة وجود» ، ورد ريزي قائلاً : «إنها لجميلة» ، وكان في أثناء ذلك ينبه أخاه ، بقلب طيب ، وهو يضحك ، إلى ثيابه المخضلّة بالماء ، وغليونه الذي انطفأ . وفي الأيام التالية كان أخو ريزي يقول متهكماً وهو يبتسم ابتسامة الرضى : «الفتاة» ، كلما أبى غليون ريزي أن يشتعل على الفور .

ثم أقبلت عاصفة المطر من جديد ، وبعدها الثلج ، وأصابهما الصقيع مرة ثانية . ولكن أكبرهما كان كثير التردُّد على البّر ، حيث كان يمكث فيه أياماً بطولها من حين إلى آخر . وكان إذا عاد بعد ذلك أعاد تجهيز القمرة الجديدة التي كان يعمل فيها منذ الخريف ، بهمة عالية . وأخيراً ، في عشية عيد الميلاد ، ظهر ومعه فتاتان غريبتان ، وقِسّ . وحين رآهما ريزّي تمَعّر وجهه من الغضب ، وقال : «كلا» ، ثم انسحب إلى النهاية القصوى للمركب الناقل ، وهو يدير ظهره للقادم ، ودفع هايكي بإحدى الفتاتين ، من الوراء ، نحو أخيه ، وحاول أن يحمل هذا بأصوات لا ألفاظ فيها ، على قبولها . وكرر ريزي قوله «كلاّ» ، وظل على ذلك . ووضع القس نهاية للخطبة بموعظة معقولة ، وتسللت الفتاة المرفوضة ، حزينة ، إلى البر . ولكن هايكي أوعز إلى القس أن يبارك زواجه من الفتاة الأخرى ، ثم تلقى القس سمكة سلمون مدخنة هدية له ، فدسّها في الحذاء الأيمن ، ذي الساق الطويلة . أما هايكي فانسحب مع لوسيكا ، زوجته الشابة ، إلى القمرة الجديدة .

وفي الصيف الثالث رأوا الكثير من مئات السفن مغمورة ، وقد التصق

بعضها ببعض ، في محلول ملح البارود ، وكلها كبيرة في مثل حجم جبل الفيبيغووري* ، عليها صَوارٍ في مثل ارتفاع برج كنيسة كووبيو . وكان وراء السفن عدد لا يصدَّق من المدن المتناثرة على الجزر والجبال . وسحب هايكي الغليون من فمه ، وقال : «ستوكهولم» وأجاب ريزي قائلاً : «إنها لجميلة» . ولكن حين مدّت لوسيكا رأسها من القمرة لتتأمل ستوكهولم ، صاح هايكي قائلاً بصوت غاضب : «الشيطان» ، وتوارى الرأس من جديد على الفور ، وأقبل جنديان في حلة زرقاء ، في زورق يترنّح بهما ، وصعدا إلى المركب الناقل ، وجعلا يثرثران ثرثرة ودية بلغة أجنبية ، ولكن بسرعة ، مثل جَرْي عجلات الطاحونة على الأخشاب الطافية . وردّ هايكي ثلاث مرات قائلاً : «لا أفهم هذا» ، وبعد المرة الثالثة أخلد إلى الصمت . هنالك أخذ الجنديان في الحلة الزرقاء ، في الضحك آخر الأمر ، وانسحبا عائدين أدراجهما . ولكن قائدي المركب الناقل وجّهاه ، جانباً ، حيث رأيا الجذوع الخشبية منصوبة في أزقة طويلة ، على ارتفاع بيت ، عند الشاطئ ، إلى أن باتت الزوارق الواقفة أمامها تسد الطريق ، وحشرت الأمواج مركبهما شيئاً فشيئاً في الزحام على نحو لا يمكن معه تحريكه . واستخرجا الآن الحقيبة من بين أسماك الرنجة ، وقطّعا الحبال بالسكين ، واستخرجا العقد ، ووقفا في مقدمة المركب ، وكلٌّ منهما يمسك بطرفين من الورق بيديه ، متشبثاً بهما ، لكيلا ينزلقا إلى الماء ، ولبثا ساعة من الزمان واقفين في صبر ، تهزُّهما صدمة موجة هوجاء من حين إلى آخر ، عندما وذات مرة طوَّحت بهما دفعة قاسية في اتجاهات مختلفة ، أحدثت في الورق تمزُّقاً عميقاً على الرغم من سماكته . وعلمّهما ذلك أن يتخذا تدبيراً احتياطياً ،

* جبل في فنلندة .

وهو أن يمسكا بالعقد بطريقة التناوب ، ولكن بحيث يرقب الأخ المتوقّف عن العمل يد الآخر بنظر ثاقب . وفي الساعة الثانية زحف رجل بدين ، ، في معطف فنلندي رمادي ، نازلاً إليهما متأنياً على زورق ، وسألهما بلغتهما ، عما يرغبان . وكان للرجل لحية هلالية ، وكان لصوته وقع خشن ومُجَلْجِلٍ ، كأصوات الناس في كووبيو . وبدلاً من الجواب أعطياه العقد ، فدسَّه هذا في جيبه ، ببساطة ، وتسلّق ، يحمله ، فوق الزوارق ، نحو الشاطئ . ولبثا طوال ساعتين لا يريان منه شيئاً ، ومع ذلك عاد هذا في الساعة الثالثة ، يصحبه واحد من السادة النبلاء وجندي في حلة زرقاء . وظل الآخران واقفين على غطاء الزورق ، بينما زحف الشيخ من جديد نازلاً إلى المركب الناقل لإعطاء الجواب إلى قائدَيْ المركب اللذين رفعا قبعتيهما الآن حيال السيد النبيل بأدب ، من دون أن يحنيا قامتهما آخر الأمر ، ولو بأدنى مقدار . وقال الشيخ وهو يرد إليهما الأوراق : «لا يوجد اسم Ingen» . ولكي يبرهن على ذلك أشار إلى حاشية على الهامش ، وهو يقرأ بصوت عال : «لا يوجد اسم Ingen» وأكد السيد النبيل قائلاً ، من الزورق : وباللغة السويدية : «Ingen finds inte» . وفي هذه الأثناء قام الأخوان ركّا بتهجئة الحاشية وراءه ، إذ كانا يعرفان القراءة أكثر مما يعرفان الحديث ، وحين تطابقت الكتابة مع الكلمات ، أومأا برأسَيْهما إيماءة الموافقة ، وقال الواحد منهما بعد الآخر : «لا بأس» . وانصرف الغريبان بعد إبداء بعض الملاحظات المنطوية على الرثاء لحالهما ، وجاء بدلاً منهما عدد من التجار الذين قدَّموا عروضاً شتى ، وجعلوا يتصايحون بعضهم على بعض ، مع إيماءات عنيفة . وجعل قائدا المركب يستمعان وهما ينظران نظرة تنطوي على الوَجَل والإجفال ، ومع ذلك فحين أخذ الجمع يتنامى على نحو متواصل ، والجَلَبة والصخب يزدادان قوة على نحو مطرد قالا فجأة : «كلاّ» ، وقعدا على الأرض ، وما عادا يحفلان

بالأحاديث التي كانت تتطاير نحوهما . ولكنهما دفعا ، في الصباح التالي ، بالمركب إلى البحر من جديد . وفي هذه المناسبة تلقت لوسيكا التي أرادت بعناد أن تخرج لكي تشتري شيئاً غير ذي فائدة ، في «توكُهولْما» ، كثيراً من الشتائم التي تقول لها : «أيتها الشيطانة» حتى ظلت شهوراً بطولها لا تنبس ببنت شفة .

وفي وقت غير بعيد من هذا ، في الشهر الثاني من رحلة العودة ، وربما كان ذلك في نهاية أيلول ، إذ كانت الليالي قد باتت أطول ، أيقظ هايكي أخاه في ساعة مبكرة من الصباح ، ونظر إليه نظرة ماكرة ، وأذناه ترتعشان . ونهض ريزّي ، وأصاخ السمع . وكانت نَهْنَهة طفل تتناهى ، متهدِّجةً ، من المسكن الآخر . وقال الأب «واحد ، وكان قد قال في الصيف التالي : «اثنان» .

ونشب النزاع الأول بين الصخور الناتئة من الساحل عند هلسنكي ، غير بعيد عن الموقع الذي لقيا فيه ماريان ، بعد رحلة دامت أربع سنوات . وذلك أن هايكي كان قد استطلع ممراً أقصر . ولكن ريزي لم يكن يريد على الإطلاق أن يتحمّل التخلّي عن الطريق السابق ، وازدادت حمرة الوجوه ، وباتت تسمع على نحو مطرد الزيادة ، على سبيل السباب ، كلمات «الشيطان» التي أخذت تتردد بين الأخوين مهددة بالويل والثبور ، إلى أن استل ريزي آخر الأمر السكين من نطاقه . هنالك وقفت لوسيكا بينهما ، وتراجع هايكي . وهكذا وصلا من جديد إلى حيث كانت تستحمّ ماريان . وهنا رغب ريزّي في التوقُّف . وكان هناك غلام صغير يصطاد السمك على الشاطئ . وقال ريزّي يسأله : «أين ماريان ؟» وكان جوابه الفظّ : «لا أتذكّر» . وكرر ريزي سؤاله : «أين ماريان ؟» ورد الآخر مرة ثانية بقوله :

«لا أتذكّر» . وكرر ريزي للمرة الثالثة قوله : «أين ماريان ؟» ، هنالك رمى الغلام الصنارة بعيداً ، وأسرع بقدميه الحافيتين ، على خط مستقيم ، عبر الحرش ، والأشجار ، ليصل إلى القرية من خلال الغابة ذات الأشجار الهزيلة . وسرعان ما ظهر ومعه بعض الفلاحين ، وسألهم ريزي : «أين ماريان ؟» ودوّى صوتهم كصوت الجوقة : «لقد رحلت ماريان عن هذه الدنيا» . فاستأنفا المسير بالمركب الناقل . ولكن في العيد التالي ليوحنا المعمدان رفض ريزي أن يرقص ، وأبى أن يلعب في «يولو» لعبة طفل عيد الميلاد .

وذات صباح بارد من أيام الخريف ، وكان المطر يهطل غزيراً كأفواه القِرب ، وصلا إلى رتّيلا . وحين أبصر هايكي منزل أبيه الصغير الذي كان الدخان يتصاعد إلى الأعالي من بابه في سحائب لا نظام لها ، وسط المطر ، رفع قبعته عن رأسه ووقف في المقدمة . أمّا لوسيكا فظلت متوارية مع أطفالها الأربعة وراء القمرة . وكان ريزي يستند إلى دفة القيادة . وأخيراً سمع صوت اصطخاب الماء من جراء المركب المقترب ، وأقبل ركّا الشيخ على عجل ، وإن كان ذلك يُجْهدِه ، إذ كان يعرج ، إلى الشاطئ . ولكن سروره تحوّل أثناء ذلك فجأة إلى عبارة «شيطان» تنضح بالغضب حين وقع بصره على جذوع التّنوب التي عادت من دون أن تباع . وقال هايكي يشرح له المسألة وهو يناوله العقد : «لا يوجد اسم إنجن» . ثم صدرت عن حنجرته غرغرة خشنة . ثم ظهرت لوسيكا مع أطفالها . وكان التقديم مقتضباً وواضحاً : لوسيكا ، روباري ، هايكي ، ريزي ، رانزي . وأجاب الشيخ قائلاً : «خيراً» . ولكن ريزي لم يفارق بعد دفة القيادة ، وكان ينظر في الماء ، متكدّراً إلى درجة تتجاوز الحدود .

وكان أخوه يرى أنه لابدّ له أن يعذُرَه . وقال لأبيه : «ماريان» ، فسأله

هذا : «أين ماريان ؟» ، وردّ هايكي قائلاً : «لقد قضت نحبها» . ولفت نظره الآن أن أمه لم تكن حاضرة ، فسأله : «وأين أمي ؟» ، فقطّب الشيخ جبينه تقطيباً شديداً ، وقال : «لقد قضت نحبها» . وبعد هنيهة عاد هايكي يسأله : «وأين ريتي ؟» . هنالك أخذ الشيخ ينشج ، قائلاً : «لقد قضت نحبها» .

وفي هذه اللحظة سمعوا صوت جسم ثقيل سقط في الماء ، وراء المركب ، وحين التفتوا إلى الوراء كان ريزّي قد اختفى ، فأسرعوا ، وهم يطلقون أصواتاً رهيبة ، وينقّبون بالقضبان والمجاذيف ، هنا وهناك ، في البحر . وبعد ربع ساعة رمى هايكي مجذافه وترك ذراعيه يسقطان . وقال بصوت متكدر : «لقد قضى ريزي نحبه» . وقال الشيخ وهو يصرّ على أسنانه : «ياللشيطان» .

قصف آبو

قصة مأخوذة عن حدث
تاريخي في العصر الحديث

قصف آبو

قصة مأخوذة عن حدث

تاريخي في العصر الحديث

إن كل امرئ يعرف أن الأنهار الكبرى تستطيع أن تحمل سفناً بحرية هائلة في مناطق بعيدة عن مصبِّها . ولكنْ من أراد أن يرى أمثال هذه العمائر المَهولة تسير في جدول صغير باتجاه البر ، فلا بدّ له أن يجشّم نفسه مشقة السفر إلى آبو . وما من شك في أن الجدول المقصود له اسم ، وهو أمر يستحقه ، وهو يستحق ذلك في الحقيقة على الأقل عندما يُنْطَق هذا الاسم بلكنة عائدة إلى بلاد الجنوب ، إذ يكون له جَرْس مستعذب ، وهو اسم «أوْرا» . ولا يبلغ عرض نهر الأورا عرضَ شارع في بلدة ألمانية صغيرة ، غير أنه يتسم بعمق يُحْسَد عليه ، كما يتميز فوق ذلك بتبدُّله الهادئ أثناء جريانه داخل العاصمة الفلندية القديمة ، إذ يزدان بمصاطب مدرَّجة ضخمة من المرمر الفنلندي الحقيقي يحتشد عليها الراغبون في الشراء في ساعة السوق ، بينما يغطي الباعة وجه الماء كله بزوارقهم . أمّا الجسر فيتَّخذ معبراً لمواكب المتنزِّهين . وتقوم عن اليمين وعن الشمال المنازلُ الخشبية التي لا يجوز أن تعَد متواضعة على الرغم من بؤسها ، إذ تستحق اسم مدينة . وفي نقطة أبعد إلى حد ما ، في الخارج ، ولكن مع بقائها داخل جدول المدينة ترسو مراكب المسافرين الكبيرة الذاهبة إلى ستوكهولم . والبحر حافل

بالنتوءات الصخرية البارزة من الساحل ، كما يظل حافلاً بالغابات العائمة ، مسيرة كثير من الساعات ، وتعدّ هذه بحيرة شاطئية عملاقة تمتد على ثلث الطريق إلى ستوكهولم . وعلى الجانب المقابل ، باتجاه البر ، حيث ينطلق نهر الأورا ، يبصر المرء على رابية غير عالية ، أقدم كنائس فنلندا ، وهي كنيسة كانت قائمة هنا حين كانت ستوكهولم ما تزال قرية صغيرة للصيادين .

وفي أيام حرب القرم ، حين كانت السفن الحربية الانكليزية تهدد أمْن الخلجان الفنلندية والـ ... ... ، عُهِد إلى حاكم آبو ، الجنرال بارابان بارابانوفيتش ستوبيينكين ، بحامية روسية ، قوتها فَوْجان ، كما كان القوم في بطرسبورج يعتقدون ، ولكنها كانت مع ذلك في الحقيقة كتيبة ونصف كتيبة ، على رأسهما عقيد غائب في هلسنكي ، كان يتولى القيادة بدلاً منه بالْفان بالْفانوفيتش ، وكان فائق البراعة في لعب الورق ، وكان إلى جانب ذلك فارساً كاملاً ، على الرغم من كسله الشديد ، وكان فيما عدا ذلك ، فضلاً عن غبائه الذي يضرب به المثل ، خالياً من أية صفات حربية بارزة .

وكانت الخدمة التي بنى عليها نظام خفر السواحل ، تدع الكثير من الوقت من أجل الملل الذي لا يستغني عنه كل روسيّ ، وهو الملل الذي يعرف بأنه أوجده الخالق صراحة ليستطيع المرء أن يطرده بلعب الورق . وهكذا تأسس المنتدى الاجتماعي ، هذا الفندق الكبير الذي لا يمكن تجنُّبه في كل المدن الفنلندية ، ليتحوّل شيئاً فشيئاً إلى مقر عام للحامية الروسية ، حيث كان يوجد ، فضلاً عن الضباط ، الحاكم أيضاً ، مع زوجته ، وهم الذين كانوا ، منذ خمس سنوات ، يلعنون المعقِل الذي يبعث على الأسى ، بعد

كل المناطق السيبريّة التي تخطر على البال ، وذلك لأن المرء كان يطمئن في سيبريا إلى لعبة الورق الرباعية الأشخاص على الأقل ، ويضاف إلى ذلك الأعداد القليلة من الكتبة والموظفين المدنيين الذين تُركوا يعملون في هذا المكان المقفر .

وهنا كان يُمارَس لعب الورق في قاعة المنتدى ، من الساعة الواحدة ظهراً إلى ساعة متأخرة من المساء «لكيلا يضيع الوقت الثمين» كما كان يقول الحاكم على سبيل التندُّر ، وكانوا يشربون شراباً ليس بالسيئ ، بل كانوا يشربون البَنْش السويدي الذي لم تتوسَّع كراهية الروس للسويديين والإنكليز لتصل إليه ، وكان يُمارَس الحديث في السياسة أثناء خلط الأوراق ، أي أنهم كانوا يغدِقون الشتائم على الدول الكبرى والصغرى في أوروبا ويلمِّحون تلميحات لاذعة موجهة للحكومة القيصرية في بطرسبرج . وكانت زوجة الحاكم تسمح لنفسها بالاستماع إلى صغار الضباط الذين يراوِدونها عن نفسها في فترات الاستراحة ، أو حين لا يكون في يدها إلاّ القليل من الأوراق الرابحة ، ولم يكن الحاكم يحفل بذلك ، وكأنه أمر لا يعنيه البتّة .

وكان الجنود في هذه الأثناء يلهون هنا وهناك ، في الحانات والمطاعم ، ويشربون مع الفنلنديين أنخاب الأخوة ، أو يمارسون العبث في السوق ، حيث كانوا يُحاولون ممازحة البائعات بمجون مثلما يفعلون مع العواهر من بنات الفلاحين الروس ، ولكنهم كانوا يتلقون ، بدلاً من الأجوبة الماكرة ، مجرد نعير غاضب ، مهذَّب .

وهكذا كان واقع الأمور حين وثب على بلاط الشارع ذات صباح ، حين كان السوق قد امتلأ ، قوزاقيّ من خفر السواحل ، يحني جذعه إلى الأمام .

وصاح بملء حنجرته «انتباه!» ، إذ كانت حوافر الحيوان الصغير الجامح لا يُسْمَع معها إلاّ صوت مكتوم كان صداه يضيع في وسط اللغط العام .

وسأله بعض الجند : «ما وراءك ؟» .

وكان الجواب المقتضب العابر : «القصف» ، وعلى أثره كان قد أصبح فوق الجسر .

وباتت هذه الكلمة تتناقلها الأفواه : «القصف» و« ...... » ، وكان الجند يتصايحون بها فيما بينهم ، وكان الفنلنديون الأكثر ذكاء ، الذين لم يكونوا يفهمون نهايات الكلمة في الحقيقة ، بل يفهمون جذر الكلمة «قنبلة» ، يترجمونها بقولهم : «قنابل» و« ...... » .

وفي مثل لمح البصر تحوَّل جمهور السوق المسالم إلى كتلة متذمرة تنعر وتفحّ فحيحاً وتزعق ، مظهرها كسرب من الزنانير ، وتسمع لها أصوات مثل قطيع من الذئاب ينقضّ على حصان . أمّا النساء فلم يكنَّ يزعقن مثل نساء البشر الآخرين ، بل كانت تصدر عنهن أصوات عميقة ، رهيبة ، وأما الرجال فكانوا يصرون على أسنانهم وهم يقولون : «قاتل الله الشيطان» .

ودوّت الآن زوبعة من قرع الطبول ، ونفخ في الأبواق مزعج متواصل ، وعلى أثر ذلك ابتعد الجنود مسرعين .

وكانوا يصيحون وهم يعدون ، قائلين : «الله رحيم ، فقد بعث إلينا الآن شيئاً ، لكي نعمل» .

وظهر على الجسر ، في الأعلى ، الحاكم بارابان بارابانوڤيتش ، وسط أربعة من القوزاق على صهوات الخيل ، متألقاً في حُلَّة كاملة ، عل نحو لم

يسبق للناس أن رأوه عليه أبداً : إذ كان يعتمر خوذة مُذَهَّبة عليها ريش أبيض ضارب إلى الحمرة ، وقد ازدانت حلته الخضراء برقعتين ثقيلتين مذهّبتين من النسيج المقصَّب على كتفيه ، وبمخزون من الأوسمة الملتمعة ، وانعقد فوق هذا شريط ورديّ عرضه ست بوصات ، في وضع مائل ، يمتد من فوق الكتف إلى سيفه ، وكانت السراويل حُمْراً متوهجة ، في إشارة تدل من بعيد على رتبة الجنرال . غير أنه كان راجلاً ، لأنه كان قد باع حصانه الأسود للعمدة بالفان بالفانوفيتش ، مما عاد عليه ، فضلاً عن قيمة البيع الكبيرة ، بمزية تتمثل في أنه كان يستطيع الانتفاع بالمال الذي كانت الحكومة ترصده له سنوياً من أجل حصانين لركوبه ، إلى جانب أجيرٍ ، وشوفان ، لأغراض مُجْدية . وحين رأى الجمهور مظهره الذي يفرض المهابة أخلد إلى الصمت ، وأصغى حاسر الرأس . وألقى الحاكم كلمة ، ذكَّر الحاضرين فيها ، بصوت مُدَوٍّ ، بواجب الولاء الذي تدين به الرعية ، وبسعادتهم وازدهار أحوالهم ، منذ أن تحرَّروا من السويديين ، وعن طيب القلب الأبوي الذي يتميّز به القيصر نيكولاي باڤلوڤيتش ، الدّمِث ، الذي أنزل الفنلنديين مكانة خاصة من قلبه ، وأنه قال ذات مرة في الموكب ، في فيبورج ، بفمه وبلسانه ، «ضِعِفَيْن» . ثم انتقل إلى أوصاف العدو ، فتحدث عن الوثنية والعادات الفظيعة عند الإنكليز ، وكيف أنهم لا يحترمون القانون الدولي ولا العهود ولا المواثيق ، وصوَّر لهم المصير الفظيع الذي ينتظر نساءهم وأطفالهم ، إذا صعد العدو من الكهوف المظلمة في السفن إلى ساحل فنلندة المقدّس . وفي النهاية ذكَّرهم بوجوب المقاومة حتى بالسكين ، ودعا الشباب إلى المساعدة الطوعية ، وأعلن ـ وكان صوته عند الكلمات أضعف ـ استعداده لتقبل التبرُّعات الطوعية في هيكل الوطن ، أي على مكتبه .

وانطلقت عقيرة القوزاق بعبارات الابتهاج والاستحسان ، التي هتفوا بها بأقصى طاقات أجسادهم ، حين انتهت الكلمة ، وانبعثت من الجماهير غمغمة تشير إلى التأييد ، وتوارى الحاكم من جديد ، وتجمعت المجموعات حول العمدة والصيدلاني ، شيئاً فشيئاً تجمّع الشباب وخرجوا إلى المرتفع المطل على المدينة ، لاستلام الأسلحة ، والتدرُّب على معالجتها .

وحين كان الحاكم يصعد سلم قصره الخشبي ، إذ عاد إلى البيت ، وجد باب المطبخ مفتوحاً . وعلى الفور طامَن وقع أقدامه ، ونظر فيه كمن ينظر بطريق المصادفة . كانت أجافيا ، الطباخة الصغيرة ، المزوّقة ، السمراء ، ذات العيون اللوزية الجميلة التي يمتاز بها الروس الصغار ، مشغولة بعملها حول الموقد ، وكان يقف على مسافة منها فنلندي شاب ذو شعر غليظ كالكتان .

وصرخ الجنرال في وجهه قائلاً : «ماذا تصنع هنا ؟ وما اسمك ؟» .

وكان الجواب المقتضب ، والمتواضع مع ذلك : «تولّيلا» .

«أيها الكسلان! لأنْ تدافع عن وطنك أيضاً خير لك من التسكُّع هنا وهناك ، في المطبخ ، فلتذهب ، بحق الشيطان! والله معك» .

وزايل الفنلندي مكانه ، على تردُّد ، وهو يدير القبعة في يده ، وقد أحسّ بالحرج . غير أن أجافيا شعرت بالحاجة إلى استعمال لسانها .

«اسمح لي أن أقول لك ، يا صاحب السعادة ، ان الوطن شيء صغير ، ياصاحب السعادة! ولكن هذا الفنلندي هنا هو زوجي» .

وقال الحاكم في صوت كالغمغمة : «يالك من غبيّة ، أأنت مجنونة ؟ تتزوجين فنلندياً ؟» .

ونظرت أجافيا إلى الرجل الغاضب نظرة ماكرة ، وعيناها تلتمعان ، ثم ردّت وهي تضحك في مرح ، قائلة : «أتراك تحسده ، ياصاحب السعادة ؟» وحين أوشك الحاكم أن يثور ثائره ، أضافت قائلة على عجل ، وقد عقدت يديها فوق ركبتها : «ألا ما أجملك اليوم ، يا صاحب السعادة! وما أحسن ما تلائمك الحلة العظيمة!» ثم تولاّها الفزع فجأة وقالت هامسة على عجل : «لقد أقبلت سيدتي!» فغادر هذا المطبخ على الفور .

غير أن أجافيا طوّقت الفنلندي الآن ، إذ كان ما يزال واقفاً هنا بغير حراك ، مثل القديس الكسندر نيفسكي في كنيسة اسحق ، بذراعيها ، بحرارة ، وقبّلته بضع قبلات حارة لم يجرؤ هذا على الردّ بمثلها .

وكان الحاكم يرقد على الأريكة ويدخن .

وصاحت به زوجته بصوتها الممطوط الذي تشيع فيه أبداً نغمة الشكوى : «هل سمعت النبأ المزعج ؟» .

«وماذا وراءكِ ، يا ترى ؟ إنما تظل هناك دائماً مسألة هل تصل رصاصات الانكليز إلى هذا المدى» .

«أي انكليز! وماذا يعنيني من الإنكليز! الإنكليز أمة صغيرة! كان الله معهم! ولكن ألا تعرف أن أجافيا تريد أن تتزوج ، وأنها أبلغتني برغبتها في ترك الخدمة ؟» .

«غير ممكن!» .

«ها أنت ذا رأيت الفتى الطويل الأهبل ، الفنلندي ، في المطبخ ، وما من داعٍ لأن تتظاهربغير ما أنت عليه ، فلقد لاحظت حقاً أنه يسرُّك النظر إلى أجافيا ، وهذا أمر طبيعي أيضاً ، فهي جميلة ، وهي تعرف ذلك . ولكن

هذا كله مسألة ثانوية . وعلى كل حال فلست بتاركةٍ أجافيا على أية حال . ففي هذا الملاذ الفنلندي البائس تعد هي الوحيدة التي تعرف كيف يُطبخ حساء السمك . وماذا يمكن أن تجديني أجمل سمكات السلمون من دون حساء السمك ؟ فهلاّ أسديت إليّ المعروف الوحيد ، بدلاً من موقفك هذا اللامبالي ، فالمسألة تخصُّك» .

«يا الهي ، ما من شيء أسهل من هذا : لا تسدِّدي لها الأجر كله! آمل أن تكوني محتفظة به ؟ » .

«لا خطر من هذه الناحية! وأنت لا تعني بالطبع أنني يمكن أن أكون على مثل هذا الجانب من الغباء ، وأعطيها الأجر كله! إن لها عندي أجر أربعة أشهر . ولكن صاحبها غني . وفرن الآجر الكبير الجديد ، في الأعلى ، على الشاطئ ، وراء المدينة ، يعود إليه . ألا تستطيع أن تحول بينها وبين الذهاب ؟ » .

وتنهّد بارابان بارابانوڤيتش .

« نحن لا نقيم هنا في روسيا . والفنلنديون ألمان ، فهم لا يؤمنون بإله ، ولا يحترمون شريعة! وعلى هذا الطريق لا يمكن عمل شيء » .

«الطريق الذي تريدينه مسألة تعود إليك» .

وفي هذه اللحظة ظهر قوزاقيّ تحت قنطرة الباب الذي كان مفتوحاً ، حسب التقاليد الروسية .

وقال الحاكم بمجرد أن رآه : «فلتذهب إلى الشيطان» .

وردّ القوزاقيّ قائلاً بأدب : « سمعاً وطاعة » ، ولكنه ظل واقفاً .

« فلتذهب إلى الشيطان! ـ ألا تفهمني ؟ » .

«سمعاً وطاعة . ولكن سامحني ، ياصاحب السعادة ، فإن بالفان بالفانوڤيتش أرسلني إليك ، وهو يقول إنه لا وجود لبنادق في الثكنة» .

«لا بد أن الوغد قد باعها ، فلتذهب به إلى الشيطان!» .

«سمعاً وطاعة ، ياصاحب السعادة ، غير أننا لا نستطيع أن نجد رصاصاً» .

«إذاً فاحشوا البنادق بالزبدة والخيار المخلّل» .

«سمعاً وطاعة ، ياصاحب السعادة ، ولكن ما عاد لدينا بعدُ إلاّ القليل من البارود» .

«وماذا يعنيني من هذا كله ؟ هذه مسؤولية العمدة . فلتذهب! ألا تطيع ؟» .

«سمعاً وطاعة» .

وقال الجنرال وهو يتنهد ، جالساً عند النافذة : «هذه عصابة» .

وحين رآه الجمهور ، في الخارج ، في الميدان ، أنزل قبعاته ، وصاح : «مرحى!» .

وقالت زوجة الحاكم تؤيد وجهته ، بصوتها ذي الطبقة العالية ، العميق ، ذي الجرس الحسن ، والشاكي أبداً : «كل امرئ يأخذ ما يستطيع أن يأخذه ، فمن أجل ذلك وُجِدَت للناس الدولةُ والحكومة . ولم يُعيّن عمدةٌ عبثاً ، ولدية خزينة يديرها . ولكن لا بدّ للمرء على أية حال أن يكون متواضعاً ، وأن يحرص على أن ينال الآخرون أيضاً شيئاً ما . وقبل كل شيء لا يجوز أن يعاني الوطن من جراء ذلك . أرجو أن تكون قد كتبت إلى بطرسبرج تطلب سيجارات ، كلاّ ؟ ههنا يتوقف كل شيء بلا ريب . فما عاد

لديّ سوى علبة صغيرة وجيدة! وما عسانا نصنع هنا ، بحق الإله ، إذا لم يعد لدينا سيجارات ؟ ـ ولكن إذا عدنا إلى موضوع أجافيا ، فما رأيك فيه ؟ » .

وهزّ الجنرال كتفيه حائراً . وأضافت هي قائلة :

« سأناديها » ، وصفقت بيديها .

وظهرت أجافيا على الفور ، عند العتبة .

وقالت تسألها بأدب : « هل طلبتني ، ياسيدتي ؟ » .

« أجل ، لأقول لك ، للمرة الأخيرة ، إنني لن أسمح لك بالزواج أبداً » .

وانحنت أجافيا .

« اسمحي لي ، ياسيدتي ، أن أقول لك إن هذا غير ذي بال ، أعني ما تسمحين به أو لا تسمحين . وإذا كانت هذه إرادة الله فسوف أتزوج ، إذا سمحت . عفواً لسؤالي ، هل ينبغي لي أن أُحَضِّر الدجاجة الهندية بالصلصة السويدية ، مثلما فعلت في المرة الأخيرة ؟ » .

« وا أسفاه عليك ، أيتها المجنونة! كيف تستطيعين أن تسألي سؤالاً بهذا القدر من الغباء ؟ ومن يطبخ طائراً برياً في صلصة روسية! ولكن تعالي إليّ ، وقولي لي بصراحة ، هل لديك ما تشكين منه ، من جانبي ، حتى حملك هذا على الرغبة في الزواج ؟ » .

« معاذ الله ياسيدتي! أأنا أشكو منك ؟ وأنت السيدة الرحيمة ، الطيبة ، العزيزة! أنت التي أهديتني في عيد الفصح ثوباً جديداً ، وياله من ثوب! إني لأخجل من ارتدائه ، إذ يبدو بالغ الروعة . أوَ أشكو أنا منكِ أنت ؟ ولو فعلت ذلك إذاً لكنتُ ناكرةً للجميل أكثر من تَتَريّ! » .

وفي أثناء هذه الكلمات أسرعتَ إلى ربة القصر وقبّلت يدها مراراً .

« إذاً فلماذا تريدين الزواج ؟ لن تفسري لي ذلك بالطبع بأنك مغرمة بهذا الفنلندي البليد ؟ وأنت فتاة على هذا الجانب من الجمال! وفي وسعك أن تظفري من الرجال بمَنْ لا أعلم بعد . ألم يتقدم إليك زعيم القوزاق ياتُرى بعرض زواج ؟ وأستاذي في البيانو من هلسنكي رجل مولع بك أيضاً . وما عليك إلاّ أن تختاري ، أليس كذلك ، يابارابان بارابانوفيتش ؟ ـ وأنت فوق هذا من صغر السن بحيث لا يحملك أمر الزواج على الاستعجال على الإطلاق . ولتنتظري إلى أن يتم نقل زوجي إلى بطرسبرج ، وهناك سأختار لك زوجاً يحق لك أن تفخري به » .

وتنهدت أجافيا .

« إني لأعلم ، ياسيدتي ، أنك تريدين لي الخير ، وأني لست إلاّ فتاة ساذجة تستحق التوبيخ . أمّا صاحبي تولّيلا فلابد للمرء أن يسلّم له بأنه غبي مثل حيوان الرنّة* . أتظنين أنه أهل لأن ينطق بجملة واحدة منسجمة مع سياق الحديث ؟ أتعتقدين أنه يقول لي في أي وقت من الأوقات كم أنا جميلة ، أو كم ينسجم ثوبي على جسدي ؟ لا شيء ، ببساطة وكل ما يستطيعه أن يفتح شدقه ، ويحملق فيّ ساعات طوالاً ، وكأنني من السكر ، وكأن براندي عنب الذئب يجري في شراييني بدلاً من الدم ، ولكن انظري ، ياسيدتي ، لست أدري لماذا : انه في شرخ الشباب ، وهو وحيد تماماً ، من دون أب ، ولا أم ، ولا إخوة ، وحيد في هذه الدنيا ، مثل طائر مغرِّد سقط من العش ، وهو يحبني ، أقول لك ، يحبني ، ويحبني ، ياسيدتي ، حبّاً لا يصدّق ، مثل كلب ، ببساطة ، ولا شي بعد ذلك . ولذلك لابد أن يسرَّني الظفر به أيضاً . وما الذي يمكن عمله ههنا ؟ » .

---

* نوع من الأيائل .

« إذاً فلا مانع لديَّ أن تتزوجيه . ولكن ليس من الضروري أبداً أن يحدث هذا على الفور ، ولا ضرورة أيضاً لخروجك من خدمتي من جراء هذا » .

« ياإلهي! ، أنت لا تعرفين الفنلنديين ياسيدتي! إنهم ليسوا طيبين مثل ذوي العقيدة الصحيحة . بل هم قوم أولو غيرة! أولو غيرة تبلغ أن المرء يتولاه الخوف كل الخوف ، على أنه يأبى الانتظار أكثر من هذا ، وإلاّ لما سبَّبتُ لك الحرج . ولكن عفوك ياسيدتي ، فلا بدّ لي من الذهاب إلى المطبخ ، فسمكة السلمون في المقلاة » .

« ياإلهي ، أتقولين هذا لي الآن فحسب ؟ وأنت واقفة هنا وتثرثرين بالهذر الذي لا طائل تحته البتة! أسرعي! وأسفا عليك! أسْرَعَ من هذا! » .

وحين وصلت أجافيا إلى الباب التفتت إلى الوراء مرة أخرى ، وقالت : « أتسمحين لي ، ياسيدتي ، بعد الطعام ، بنزهة مع تولّيلا ، قليلاً ؟ » .

« وكيف يخطر هذا ببالك ؟ فاليوم ليس يوم عطلة » .

« إنهم يقولون جميعاً إن اليوم يوم احتفال كبير . فالانكليز يقومون بالقصف! ويقولون إن ذلك ممتع للغاية! » .

« لا مانع لديّ! الله معك! ولكن حاذري لئلا تصيبك قنبلة » .

وردّت أجافيا بانحناءة تنمّ عن السرور ، قائلة : « شكراً » .

وغمغم الجنرال قائلاً بلهجة المشاكس : « لن يحدث ضرر كبير » .

وكررت أجافيا قولها وهي تبتسم : « شكراً » ، بينما كانت تنحني للحاكم ، وكانت على وشك الخروج بسرعة ، حين عادت أدراجها مرة أخرى ، وهي تقول في حرج ، وبصوت غير واثق : « عفواً ، ياسيدتي ، هل تتفضلين عليّ بمنحي قدراً ضئيلاً من أجري ؟ » .

وتجهم وجه زوجة الجنرال ، وقالت في استياء :

« كم تحتاجين ؟ » .

« هل ترين أن روبلاً واحداً ليس بالقليل ؟ » .

ولم لا يكون غير قليل! روبلاً! وأنت على شيء من الجنون! وماذا تريدين أن تصنعي ، بالله عليك ، بروبل ؟ هذا غير ضروري بلا ريب ، وإن أربعين كوبيكاً ستكفيك تماماً » .

وظلت مع ذلك واقفة ، متباطئة ، غير راغبة ، لا تريد أن تجشّم نفسها مشقة العناية بمنضدة الكتابة .

وصاح الحاكم قائلاً : « أعطي هذه الغبية روبلاً ، ولتذهب لتتفقد سمكة السلمون » .

« يا إلهي ، لقد أحسنتَ إذْ ذكَّرتَني ، أجل ، أسرعي إلى المطبخ! » .

ومد الحاكم يده إلى الفتاة بالروبل . وقبّلت هذه يده مرتين شاكرة ، كما قبلت يد زوجه ، ثم وثبت بالروبل ، وعيناها تشع ببريق السعادة ، إلى المطبخ ، حيث كان أهل الدار يسمعونها على الفور تغني أغنية « الحُلّة الحمراء » .

وغمغم الجنرال قائلاً : « إن ذهاب الفتاة لخسارة » ، وقالت زوجة الجنرال مؤيِّدة له :

« إن أمرها ليبعث الأسى في نفسي ، فسوف تضيع ، ولكن ما هي حقيقة الأمر مع الإنكليز ؟ أَوَلا يَحْسُنُ بك أن تنظر قليلاً في هذه المسألة ؟ » .

« هذا ما كان ينقصني! إنها مسؤولية العمدة . وأنا هنا في وظيفتي! » .

وسمع القوم في المكان جلبة غير مألوفة لم تلبث أن هدأت على الفور حين فتح الحاكم النافذة . وصاح بصوته العسكري المهيب :

ماذا في الأمر ؟

ورد أحد الجنود ، وهو يضع يده على خوذته : «لقد جاؤوا بإنكليزي يحمل الراية البيضاء ، ياصاحب السعادة» .

«فلتقل له إنني مشغول ، ودعه ينتظر في الشارع» .

«سمعاً وطاعة ، ياصاحب السعادة» .

ولكن بعد برهة ظهر ضابط تحت الباب ، وقال : «ياصاحب السعادة ، المطر يهطل» .

«ليس هذا ذنبي» .

«أقصد ، ألا ينبغي لنا إيواء حامل الراية البيضاء تحت سقف ؟»

«وفيم ذلك ؟ يستطيع الإنكليز أن يعدّوا نزول مطر الرب عليهم نعمة منه ولن يضرّهم . ثم إنهم يحبون الماء . وأخيراً فأي نوع من الفتيان هذا ؟» .

«ضابط بحرية ، ياصاحب السعادة» .

«ألا ترى ؟ ألم أقل لك ؟ دعه واقفاً بلا حرج» .

وما هي إلاّ هنيهة ويظهر ضابط ثان ؟

«ياصاحب السعادة ، الجمهور يزداد عدداً ، ويزداد غضباً على نحو مطرد ، ونحن نخشى أن يُلْحِقوا بحامل الراية البيضاء ما لا يُستَحَب» .

«لن يكون في ذلك ضرر أيضاً ، اذهب بحق الإله!» .

ولم يكد الضابط يتوارى حتى ندم الحاكم على كلمته غير المتروّية .

وصاح بالضابط المنصرف قائلاً : «رويدك! أدخل هذا الوغد إلى حجرة الاستقبال عندي ، فأنا أريد أن أعرف ماذا يبتغي مني ، وهل كل ما يأتي به هؤلاء المنافقون إلا كذب وافتراء» .

وبعد بضع دقائق كانت تُسمَع خطوات قادم يتلمّس طريقه ، في الطابق الأرضي . على أن الحاكم الذي ترك القادم ينتظره بعض الوقت ، رضي أن يجشّم نفسه مشقة الاستقبال ، فنزل في خطوة الجماعة العسكرية المسلّحة ، على الدرج ، من دون ضابط يصحبه ، بل كان يتقدمه رقيب فحسب .

وقال الجنرال بلهجة الحاكم المسيطر : «ماذا تريدون ، ياكلاب ؟» .

وأدى الجنود التحية بإجلال ومودة ، وبدأ الرقيب بقوله ، بتواضع :

«نود أن نرجو من سعادتكم التفضّل علينا» .

«بماذا ؟» ، وردّ ذاك بقوله ، متملّقاً :

«بالسماح لنا بشيء من القتل» .

«تقتلون مَنْ ؟» .

وكان الجواب بلهجة تنطوي على الدعابة : «الإنكليزي فحسب» .

وخنقت لكمة بقبضة يده المقطعَ الصوتي الأخير للمتحدّث .

وصاح الجنرال وقد اعتراه الشحوب من فرط الغضب : «أو يقتل الروسيُّ حاملَ راية بيضاء ؟ وهل نحن تتار ، أم ألمان ، أم أتراك ؟ أوَ لَسْنا مؤمنين ذوي عقيدة صحيحة ؟ سوف أكتم أنفاس كلّ من يسبّب ألماً

للإنكليزي أو يسيء إليه بمجرد سباب ، وسأقلته رمياً بالرصاص ، أسمعتم ؟ » .

« سمعاً وطاعة » .

وعند ذلك ، عطفوا يميناً ، ولكن الرقيب تخلّف عنهم ، وتوجه نحو المرتفع مباشرة ، بينما كان كل جسده يرتعد فَرَقاً .

« ياصاحب السعادة ، استميح عفوك ، لقد كنت أعتقد أنني أخدم الرب والقيصر حين أطهِّر العالم من إنكليزي . لقد قالوا لي إن الإنكليز يقتلون الأطفال الصغار ، وأنا نفسي لديَّ أطفال » .

« ما يفعله الإنكليز سيعاقبهم الرب عليه ، ولكن الروسي لديه عقيدة ، وهو لا يقتل أحداً ليس لديه ما يدافع به عن نفسه ، ولا يقتل حامل راية بيضاء ، أتفهم ذلك ؟ » .

« أفهم ، وأطيع ، عفوك ، ياصاحب السعادة » .

« فلتذهب إلى الشيطان! » .

ووضع الرقيب يده على جبينه وهو يتنفس الصعداء من فرط سعادته وامتنانه للمعلومات الكريمة ، وسار منصرفاً وعيناه مشرقتان ، غير أن الحاكم ذهب لاستقبال حامل الراية البيضاء .

وحين ظهر الحاكم بعد نصف ساعة من جديد صاح بزوجته قائلاً في غضب : « هل تعرفين ، يابيلاجيا إيفانوفنا ماذا يريد هذا الفتى ؟ إنه يقول إنَّ علينا أن نختار منزلاً للقصف! » .

« إما أن يكون مجنوناً ، وإما أنه ينصب لك شَرَكاً ، وكيف يُفْتَرَض أن يميِّزوا البيت على البُعْد ؟ » .

«عن طريق راية حمراء يأمرنا بنصبها عليه ، وأنا أعتقد أنه جادّ في هذه المسألة ، وأنت تعلمين أن المرء يمكنه أن يصدق أن الإنكليز هم أحرى الناس باقتراف أكثر الأعمال انطواءً على الجنون» .

وبعد أن لبثا هنيهة يتهكّمان على الإنكليز أشرق وجه زوجة الحاكم فجأة ، وقالت :

«خطرت ببالي فكرة : دعه يقصف الكنيسة اللوثرية ، فسيكون هذا عملاً نافعاً ومُرْضياً للرب في الوقت ذاته» .

«إنها لفكرة» .

ولكن الجنرال عاد بعد هنيهة بجواب يقول : «إنهم يرفضون أن يطلقوا النار على كنيسة ، هؤلاء المنافقون!» .

«هل تعرف ماذا ، ياحبيبي ، أعطهم قصرنا ، ليقصفوه! فسوف تعوّضنا الدولة عنه ، ولا نخسر من جراء ذلك شيئاً . ذلك لأنه مهما يكن هناك من مآخذ يمكن للمرء أن يأخذها على الحكومة فلا بدّ له أن يسلّم لها بأنها تدفع بسخاء . ويبقى أمامها مهلة للانتقال» .

«وهذه فكرة ، من جديد» .

ولكنه عاد بعد هنيهة غاضباً ، وقال :

«ألا ترين من أيّ نوع هؤلاء الأوغاد ؟ إنهم يزعمون أن هذا سيكون بالغ الخطورة ، فالقصر ملاصق للمنازل ، ومن الممكن أن تطير قنبلة بجوار البيوت . ولذلك ينبغي لنا أن نبحث عن بيت منعزل» .

«الآن أتاني وحي : أعطهم كوخ فرن الآجر ، وعندئذ يخسر تولّيلا ثروته ولا يستطيع أن يتزوج أجافيا» .

«هذه الفكرة أوحت إليكِ بها السيدة العذراء في قازان» .

وحين عاد أدراجه بعد برهة كان يفرك يديه .

«لا بأس! يقولون إن هذا سيحدث في العاشرة مساءً» .

وتوقف المطر عند العصر ، وبدّد شعاع الشمس الدافئ السحاب . وفكرت أجافيا الآن في استعمال إجازتها ، لكي تشاهد مع زوجها القصف . أمّا أن هذا القصف لن يبدأ إلاّ في المساء ، وأنه سوف يستهدف بيت أعز الناس عليها ، فذلك ما لم تكن تعرف عنه شيئاً بالطبع ، شأنها في ذلك شأن سائر سكان المدينة ، إذ ظل هذا سراً من أسرار الدولة ، وكان جزءاً من السياسة العليا . وكان في خزانتها ثوبان كل منهما يغري عينيها . أما الأول فكان حُلّتها الحمراء ذات الزي الخاص بالروس الصغار ، وكان يبدو جميلاً عليها ، ولم يكن يمكن أن يثور شك في هذا الصدد ، ولقد طالما قيل لها ذلك بما فيه الكفاية ، ولكن الآخر ، وهو هدية زوجة الحاكم ، ذا اللون الأزرق الباهت ، كان يبدو أكثر نبالة ، ولقد لبسته زوجة الحاكم نفسها في الحفلة الراقصة ، وهل ثمة حاجة إلى برهان أفضل من ذلك ؟ ثم إنه له ذيل! له ذيل! وحين تخرج للنزهة فسوف يمد العمدة بالفان بالفانوڤيتش ذراعه إليها ، ويخاطبها بلقب «مدام» . ويحظى الذيل بالقول الفصل . وفي اعتداد بالنفس يضاهي ما يكون عند الأطفال دخلت المطبخ بثوبها الذي يُسمَع له حفيف ، لتتلقى إطراء حبيبها . أما توليّلا فخلع قبعته من جراء شعوره بالحرج ، وتراجع خطوة إلى الوراء .

وقالت أجافيا تهمس متلطفة ، وهي تقبّله : «لا تخف مني ، فسوف أظل بالنسبة إليك ، مع ذلك ، صاحبتك الصغيرة أجافيا» .

ثم خرجا إلى الشارع ، وذراعها في ذراعه . وكانت أجافيا التي كانت

تظل أبداً تحرك المظلة الشمسية يمنة ويسرة ، وكأنها مهواة ، تستمتع بإشباع رغبتها في لفت الأنظار . أما الفنلنديون فكانوا يتحاشونهما في وجل وتهيُّب ، وأما الجنود فكانوا يضعون أيديهم على جباههم ، وحتى الضباط والموظفون كانوا يرتضون لأنفسهم تحية يلقونها عليها بمحض إرادتهم إلى حد ما ، بعد أن يتأملوا مرافقها تأمُّل المتهكِّم . وكان الذيل يؤدي الخدمة المنشودة . ولم يكن ينقصها بعدُ إلاّ شيء واحد من أجل اكتمال النبالة ، ألا وهو السيجارة ، ولكن كان معها روبل ، وكان ثمة حانة ليست بالبعيدة . وفي خفة حركة مثل وحيد القرن الصغير أسرعت بهدوء ترتقي الدرجات الثلاث المعروفة لديها جيداً ، إلى الحانة ، تاركة صاحبها واقفاً حيث كان ، واشترت لنفسها علبة صغيرة من سجاير «لافيرْم» ، ثم خرجت من جديد ، تلفها سحابة من الدخان ، وهي تسعل بصوت مرتفع ، وتمدّ يدها بالسيجارة بعيداً عنها ، وهي بين إصبعيها . وكانت تفرغ من قطعة من السيجارة في كل نصف دقيقة ، وتلتمس النار على أثر ذلك من أول مارٍّ بها ، وأحبُّ ما يكون ذلك إليها أن يكون موظفاً ، وكان هذا ينحني بأدب وظُرف ، ويضع يده على قبعته ، ويقدم إليها ما طلبت .

وسلكت ، على غير إرادة منها ، الطريق إلى الميناء . وهناك كان كل شيء في حركة متناهية العنفوان ، لأن السفينة الحربية الانكليزية كانت قد وصلت إلى المنطقة الواقعة بين النتوءات الصخرية البارزة من الشاطئ ، وكانت مرئية على مسافة غير مفرطة البعد ، وألقت مراسيها على نحو ينمّ عن التهديد ، بل كان في وسع المرء أن يميّز رَتْلَيْ المدافع ، وكانت الأشرعة المنتفخة تفوق في ارتفاعها ارتفاع أشجار التنوب في الجزر .

وصاحت أجافيا ، وهي تصفّق بيديها مستمتعة : «ما أجمل هذا ، يا له

من عيد! غير أن هذه الموافقة الجمالية لم تَرُق للجمهور الذي كانت تصدر عنه صيحات تهديد جامحة . وقالت أجافيا وهي تضحك ، وتهدّئ الخواطر : «هلاّ أسديتم إليّ معروفاً فالانكليز يوجد لديهم مدافع بالطبع ، أمّا أن يوجد لديهم بارود ورصاص فوق ذلك أيضاً ، فذلك هو السؤال الكبير! صدقوني ، وانظروا ، فأنا أحسَب أن الأمور ستسير لديهم بلا ريب مثلما سارت لدى الآخرين أيضاً . ففي البداية ، عندما ينطلقون من ديارهم ، هنالك يكون في حوزتهم كل شيء ، ولكن انكلترا بعيدة ، والحياة على السفينة مملة . فاليوم يبيع الأميرال رصاصة ، وغدا يبيع القبطان رصاصة ، من أجل قبعة نسائية أو مِشدّ ، أو زوج من الأحذية برقبة ورباط ، ويقايض البحارة على البارود بالنَّشوق والسيجارات ـ بالطبع ، وما عساهم يصنعون بالبارود ؟ كما أنهم يحتاجون إلى البراندي أيضاً ، هؤلاء الفقراء! ، ما داموا انكليزاً ، وليسوا بأهل عقيدة صحيحة! انظروا ، إنهم يبيعون ، على الدوام ، حفنة في كل يوم ، ولكن عندما تنصرم السنة ، أتفهمون ـ ويؤون أوان إطلاق النار ماذا يكون قد تبقى عندئذ لهؤلاء المساكين من البارود والرصاص ؟ لا شيء ، لا شيء ، ببساطة ، ويكون قد قضي الأمر!» .

وأعطى هذا للفنلنديين بصيصاً من الأمل ، حتى لقد أخذوا يغمغمون بين أسنانهم ، وقد هدأت ثائرتهم . غير أن بعض النفوس الغاضبة لم يكن في وسعها مع ذلك أن تحتمل منظر ذلك الغول الخشبي الذي جاء ليقصف مدينة آبو ، على وجه الإطلاق ، وركب هؤلاء باخرة ساحلية صغيرة ، وسط صياح التهليل من قبل مواطنيهم ، للهجوم في البحر . وظهرت على السفينة الانكليزية علامات بالرايات والأعلام المثلثة ، وفجأة انبعث ضوء أحمر ساطع من جانب السفينة تغشاه سحائب زُرْق رمادية ، ثم دويّ رعد ليس بالحاد ولكنه قوي .

وصاح الفنلنديون على الشاطئ : «قنبلة» ، وانكبوا على الأرض ، يكاد بعضهم يقتل بعضاً وهم يولولون ، وقد اختلط بعضهم ببعض .

وحين لم يحدث شيء بعد ذلك تنفسّوا الصعداء ، وتساءلوا عن القتلى ، ولكن لم يكن هناك حتى مجرد جريح ، كما لم يكن هناك رصاصة تُرى أو تُسْمَع .

وصاحت أجافيا بلهجة المنتصر : «ماذا قلت لكم! ها أنتم هؤلاء ترون الآن أنني كنت على حق! ليس لديهم رصاص» .

وتولى أحد السعاة الراكبين الذي كان يجري في المدينة مثل الزوبعة ، وضع نهاية لنزعات الهجوم ، بحظر صارم . وقالت أجافيا لصاحبها تجامله :

«تعال ياحبيبي ، هنا ما عاد ثمة شيء ، وسنذهب ، بحذاء الشاطئ إلى القوزاق ، فهناك نرى أشياء ممتعة تحدث ، وعند القوزاق تجد الأعياد دائماً» .

وفي الطريق ، في حارة هنريك التي كانت تمتد ، من دون أن تلاحظها العين ، على نحو مماثل للقرية ، نحو الأرض الزراعية ، كانت أجافيا تقوم بأعمال غير ذات نفع ، إذ كانت تدس أنفها الصغير من خلال مصاريع النوافذ المفتوحة ، فتعابث كبار السن ، وتداعب الأطفال برقة ، تارة ، وتجرّر ذيل حُلةِ الحفلة الراقصة الأزرق الرقيق ، في وسط الشارع ، منتصبة القامة في خيلاء كخيلاء الطاووس ، وتلقي إلى الرجال المارّين بها بتلك النظرات اللاهبة من جانب عينيها ، التي كانت قد أخذتها عن المطربات الفرنسيات في المنتدى الاجتماعي ، على افتراض أن تتمكن بذلك من الأخذ بحظّها من فن الحياة المتناهي في الرقة ، في المدينة الكبرى . أما تولّيلا فكان يسير إلى جانبها ، في إجلال ، مرتضياً لنفسه كل شيء .

وفي ظاهر المدينة ، رأيا العمدة بلفان بلفانوفيتش ، على أرض مُعْشَوْشِبة ، وهو يتفحّص المشاة . وكان هذا الرجل الطيب الذي صُرِف عن لعبة الورق بطريقة مفاجئة أفزعته ، وحملته رسالة من الحاكم على أن يحلّ كالرعد ، إذ هدّدته الرسالة بالمحكمة العسكرية بتهمة اختلاس الأسلحة ، قد فارقه عقله تماماً ، ولكي يستعيد عقله كان يعدو عَدْوَ الخَبَب بغير انقطاع حول القوة الضئيلة ، يشتم الجند ، ويتهم الضباط بلهجة تفجُّع ، في تلميحات مواربة ، وكان يصدر عنه في أثناء ذلك وفي كل اتجاه ، أكثر اللعنات إثارة للفزع ، حتى إن الانسان الساموييدي* نفسه لو سمعها لتولاّه الفزع منها . وكان الضباط في أثناء هذه العاصفة الكاسحة من الغضب يدخنون لُفافاتهم غير عابئين . أمّا الجنود فكانوا يقفون في وضعية انتصاب القامة ، هادئين . وكان من لا يملك بندقية منهم ينفذ ، ببندقية خيالية ، في وجه جاره المسلَّح ، كل التدريبات طبقاً للتعليمات . ومن حين إلى آخر كان بلفان بلفانوفيتش ينبهر نَفَسُه ، ثم ركب ذاهباً إلى مرتفع من الأرض صغير كانت تتربع عليه الآنسة تيتي والآنسة فيفي ، نجمتا المنتدى الاجتماعي ، إذ كانتا تشرِّفان عملية الفحص بحضورهما . وأمام هاتين تنفّس الصعداء ، ومسح بمنديل جيبه العرق عن جبينه ، وشكا بمرارة من قدره الذي قضى عليه أن يتولّى قيادة مثل هذه العصابة «الروسية البربرية الفظة» بدلاً من أن يجعل منه ، قائداً لنابليون الثالث ، كما يتلاءم مع مواهبه ، وكان يظهر حماسة بالغة لهذا الرجل . وبعد أن أوعز بتقديم زجاجة من كونياك فيبور الأصيل ، حسر عن رأسه ، وانحنى بظرف ، وركب المهمازين على خاصرتي الحصان الأسود ، وشرع في تفجير عاصفة غضبه من جديد .

---

* نسبة إلى شعب منغولي سبيري ـ «المترجم» .

وكانت أجافيا ، المزهوة بشعورها بأبهة ثوبها الحريري ، تتنزّه ماشية ببطء أمام القوات ، على طول الجبهة ، تجر زوجها وراءها . وكانت تنفّذ موكبها الاستعراضي الخاص . وبعد أن فرغت من موكبها ، ووجدت كل شيء على ما يرام ، قعدت إلى جانب فيفي وتيتي ، وجعلت شغلها الشاغل الآن أن تفوق الباريسيات من باربانت في تألُّقها ، وأن تبعث الغيظ في نفوس الحاسدات ، ولم يبق وضع بالغ السمة المسرحية ، ولا لفتة عُنُق بالغة الرشاقة لم تجرِّبْهما . ولما كان المخلوق الأنثوي المثاليُّ الحسن سوف يستحيل عليه ، حتى مع بذل أصدق الجهود ، على وجه الإطلاق ، ألاّ يبدو محظوظاً متمتعاً بالكثير من المزايا ، فقد وصلت إلى مقصدها حيال مطربات الحديقة المتقاعدات من دون امتياز . وقد أدى هذا الآن إلى تبجح متناوب وهزٍّ للكتفين ، مثلما يحدث حين تتصارع ثلاث من الدجاجات الهندية على ديك . على أن عدم فهم كلا الفريقين لأحاديث الآخرين لم يخدم السلام ، إذ كان كل فريق يزعق بما يعبّر عن رأيه الكامل ، ولكن الخصم كان يخمّن هذا الرأي من لغة تعابير الوجه .

وضحكت أجافيا قائلة بسرور ، وهي تعبِّر بكلتا يديها ، بحرارة : «انظرا ، إن ما يغيظكما إنما هو مجرد الحسد ، لأنني الآن سيدة محترمة ، ولأنني أدخن «لافيرم» ، ولأن لي زوجاً ، زوجاً شاباً ، جميلاً ، غنياً ، زوجاً يطيعني ، ويحمل عني فرائي المصنوع من فرو الضأن ، ويهديني الزبيب في يوم الأحد ، كيساً كاملاً ، ويجرّ لي الحطب في كل يوم إلى المطبخ ، أليس كذلك ، أنتما تودّان لو كان هذا لكما ؟ ولكن عبثاً تجشِّمان نفسيكما المشقة ، لأنه مخلص لي ، ويحبني ، أقول لكما : يحبني ، مثل بارون ، وكأننا متزوجان منذ خمسين عاماً ولنا أحفاد ، يحبني مثل إلياس اللوّام ، وإن كان في الوقت ذاته غير مؤمن» .

وفي هذه اللحظة وثب بلفان بلفانوڤيتش نحوهما ، في تهيُّب غير محدَّد ، وقد اجتذبه الثوب ذو الحواشي والثنيات ، على الطراز الباريسي الذي كان يضيء من بعيد . وانحنت أجافيا انحناءة شديدة ، بدقة وإتقان ، ثم غمزت بعينها غمزة ماكرة ، وجعلت تثرثر معه بألفة الرفاق : «هل تعرفني ، يابلفان بلفانوڤيتش ؟ هل أعجبتك ؟ ـ ولكن مالي أراك غاضباً هكذا ؟ فاليوم يوم عيد! ولا ينبغي لك أن تدع هذا يؤثر في نفسك إذا كان بارابان بارابانوڤيتش قال لك كلاماً غير ودي ، فإنه لا يقصد من ورائه إلى قصد سيئ ، وأنا أعرفه على وجه الدقة ، فهو في أعماقه سيد طيب النفس ، وإن كان يتكلم في بعض الأحيان بخشونة . وهو يدخل المطبخ عليّ في كل يوم ، ويثرثر ، ويلعب معي في كثير من الأحيان ساعاتٍ طوالاً ، مثل الأطفال ، وليس في نفسه أدنى قدر من الكبرياء : فهو يمسك بي من العنق ويقبلني مثل الجندي البسيط تماماً ، ويقعد فوق الموقد مثل صرصور ، وإذا دَلَقْتُ الماء عليه لم يحمل ذلك مني على محمل السوء . وهو يحسن الغناء ، أقول لك ، يحسن الغناء ، وقد لا تصدق ، مثل قوزاقيّ ولا عيب فيه سوى أنه على جانب من الغيرة . ولكن لا ينبغي أن تحمل ذلك منه على محمل السوء ، بلا ريب ، فإنه السيد في البلد» .

وكانت أسارير العمدة تنبسط وتنفرج في الواقع ، وكان بصره يشرق بينما كان يتابع الحركات اللعوب التي كانت تقوم بها الفتاة الظريفة . ومع ذلك فحين قدم لها زجاجة من براندي الذرة وبدا عليه أنه يهم بالنزول عن جواده دافعته بقوة مُدَّعيةً أنها مشغولة .

«استميح عفوك ، يابلفان بلفانوڤيتش ، فليس لديّ وقت ، ولابد لي أن أقدِّم زوجي للقوزاق ، فما زالوا لا يعرفونه ، وهناك موسيقا ، وممن الممكن

بلا ريب أن ينتهي الأمر إلى الرقص . أما ما يتعلق بالإنكليز فلا تخافوا منهم أدنى خوف ، إذ ليس لديهم رصاص ، وأنا أعرف ذلك . والناس جميعاً في البلد يقولون هذا ، وفي وسعك أن تسأل عندما تريد ، وهم لا يعرفون على الإطلاق كيف يتحركون ، إذ حرمهم الله من الأرجل» .

وهنا انحنت ، وسارت تتهادى في زينتها ، بعد أن لوّحت للكتيبة بمنديلها مودّعة . وولت مسرعة غير عابئة ، مسرورةً بالنصر الذي أحرزته على فيفي وتيتي .

ولكن حين لاحظت أن تولّيلا قد امتقع وجهه من الغيرة ، أخذت تذكّره برقة ، ولكن بإلحاح وتوكيد ، قائلة : «انظر ، ياتولّيلا ، ياحبيبي ، أنت غبيّ مثل حيوان الرنّة . ولا تَحْمِلَنَّ ذلك مني على محمل السوء . وعلى كل حال فليس في وسع المرء أن يؤاخذك ، ما دمت غير ذي عقيدة صحيحة ، ولذلك فأنت لا تعرف ما يليق وما لا يليق . وأوّلُ ذلك : عندما يسير المرء مع سيدة لا يَنْسَلُّ وراءها ، بل يضع إحدى يديه على كتفها ـ هكذا! ثم يسير بإيقاع منتظم ورؤوس أصابع قدميه موجهة نحو الخارج على نحو جميل ـ هكذا ـ ولا ينظر إلى الأرض ، بل ينظر في الدائرة المحيطة به ، ليتأكد من أن الآخرين يرونه أيضاً . ثم إن الناس يقولون لي : «الصغيرة اللذيذة» ، بالفرنسية* ، وهذا تعبير نبيل . قُلْها أنت ، بالفرنسية : أحسنت ، لا بأس . أنت لست بالرجل الأخرق كما تبدو ، ولكن لا بد للمرء أن يربّيك قليلاً . وهمست في أذنه قائلة بمزيد من الرقة : «وهل تعرف أننا عندما نكون قد تزوجنا سأكون لك زوجة طيبة محبوبة ، ولا أتشاجر معك أبداً ، وسنقعد النهار كله معاً ، في الأرجوحة ، ذراعي في ذراعك ، ندخن اللُّفافات . وفي

---

* Mignon

المساء ندعو القوزاق إلينا ليعزفوا لنا على الأكورديون . وفي يوم الأحد أشتري لك شموع الشمع العسلي من الكاهن . لكي يصلي من أجلك ، لكيلا تدخل النار » .

وشيناً فشيناً ، ومن جرّاء غياب البشر ، ورؤية المنظر الطبيعي الذي يذكّر بالموطن ، تشجَّع تولّيلا أيضاً ، وانحلت عقدة لسانه ، وأصبح أول الأمر يتحدث بمقاطع صوتية أحادية ، ثم انطلق لسانه ، وجعل يخاطبها بأسماء شتى على سبيل الدعابة ، فهي تارة سمكة سلمون ، وهي « كرة الزبدة » تارة أخرى ، وجعل يصوِّر لها كيف جهّز لها منزله الجديد ، عند فرن الآجر ، بالأثاث الجديد المتألّق ، وأنه لا ينقصها شيء ، وهناك أسِرَّة عريضة جميلة ومطبخ واسع يدخله ضوء النهار . وعند هذا الوصف أشرقت عيناه وجعل ذراعاه اللذان أُفعِما بالروح من جراء ذكرى العمل ، ينفذان بعض الحركات غير البارعة . وكانت أجافيا تصغي وهي في ذروة السرور وتومئ برأسها من حين إلى آخر . وفجأة توقفت عن المسير . وقالت تسأله بحماسة مفاجئة :

« ولكن السكر ، آمل ألاّ تكون نسيت السكر للشاي ؟ ـ فنحن أغنياء ، ولذا فنحن نستطيع أن نملأ الفنجان كله ، إلى أعلاه ، ولا نحتاج إلى الاقتصار على مجرد حشر قطعة صغيرة بين الأسنان لنرشف الشاي من خلالها ، شأن الفلاحين وأصحاب الحوانيت . وعندما يرزقنا الرب أولاداً فلابد أن يدرس الأولاد دراسة البارونات ، مثل الألمان ، أما البنات فيجب أن يصبحن سيدات من المستوى الرفيع ، العالي ، لكي يسأل القيصر ، حين يجيء إلى فنلندة : « من هؤلاء القوم ؟ » فأجيبه أنا : « هؤلاء أولادي ، ياصاحب الجلالة ، أولادي! » .

وفي غمرة أمثال هذه الأحاديث وصلا إلى أول موقع حراسة للقوزاق .

وسألت أجافيا الفتى الطويل الشعر الذي كان راقداً على الأرض ، متمدداً على طوله إلى جانب جواده ، قائلة : «ماذا تصنع هنا أيها الكسلان! لماذا لم تذهب للرقص ؟ » .

وأجاب الرجل بلهجة المتكدِّر : «لا رقصَ اليوم ، فاليوم يوجد الإنكليز» .

«الانكليز قوم لا يُؤبَه لهم ، وما الذي يبعث لديّ القلق منهم ، فأنا غنية ، وقد حصلت على روبل ، وسوف أنفقه . أين إخوانك ؟ » .

وقذف القوزاقي ذراعه في الاتجاه المؤدي إلى رأس من البر يمتد في البحر ، في الهواء ، وتحاشى الخطر ، من دون أن يضم ساقيه . وأثار ثوب أجافيا الرسمي في معسكر القوزاق الدهشة والإعجاب المنطوي على الإجلال ، حتى لقد انتفض الراقصون الذين كانوا يألفونها وأصدقاء شرابها ، عن الأرض واقفين ، يحيونها تحية رسمية ، بانحناءة ، وارتضت هذا لنفسها ، بتلطُّف ، ومع ذلك فقد غمغمت أثناء خطواتها القصيرة ، وهي تمر بهم ، بكلام تشجيعي لهذا وذاك ، أو بكلمة مزاح تتسم برفع الكلفة .

وبدأت بقولها : «ماذا تصنعون هنا في الحقيقة ، أيها الإخوة ؟» ، بينما كانت تقعد على العشب ، بدون تكّلف ، وقد توارى نصفها من جراء اضطراب نظام ثوبها ذي الحواشي والأهداب ، والذيل ، مثل الدجاجة في العش .

«ماذا نصنع ، ياأجافيا ؟ ماذا نصنع ؟ وما عسانا نصنعُ ؟ أما أنا فأرى أننا نفعل ما نفعله في العادة ، كما تشاء إرادة الرب . أمّا في الضحى فلا

شيء ـ وأما بعد الظهر فلا أدري ماذا . وما عسانا أن نصنع غير ذلك ؟ ولكن أنتِ ، ما وراءك من جديد ؟» .

«ما ورائي من جديد ؟ أنا ؟ وأي جديد تريدون أن آتيكم به . إنما آتيكم بعيد ـ وها هو ذا!» .

وهنا دست يدها في جيبها ، وتركت قطعة نقد نحاسية تقفز على الأرض ، فترامى القوزاق عليها متحمسين ، يتضاربون ، وأومأت أجافيا برأسها إيماءة الاستحسان وقد سرتها هذه المسرحية ، ثم مدت يدها إلى جيبها وعليها سيماء الاحتفال المتناهي في جدّيته ، مرة ثانية ، ثم ثالثة ، ورابعة ، وهكذا دواليك ، إلى أن تخلّصت من آخر كوبيك . وبعد لحظات وردت ثلاث زجاجات من البراندي ، وقدحان قديمان ، غليظان ، يعلوهما الغبار ، يموجان بكل ألوان قزحية العين . وأشارت أجافيا إلى عريسها ليقعد إلى جانبهم ، وتكلمت بجدية كبيرة قائلة :

«اسمحوا لي ، أيها الإخوة أن أقدم لكم عريسي : إنه رجل طيب ، ومخلص ، وغني ، وسواء أضحكتم أم لم تضحكوا فهذا حق مثلما أنني قاعدة هنا بينكم ، وهو لا يسكر أبداً ، حتى ولا في يوم الأحد ، بل حتى ولا في عيد الفصح ، وهو بالغ التهذيب والنبل» .

وجعل القوزاق يتأملون الرجل الذي لم يسكر أبداً ، باحترام غير إرادي ، على حين كانت وقفته الفنلندية غير البارعة تستثير ولعهم بالتهكّم .

واستدركت أجافيا قائلة بلهجة التوكيد : «لا تمسّوه ، أقول لكم ، وإن كان مجرد فنلندي ، لأنه يحبني ، وهو لي» .

ثم قدّمت كأساً بأسلوب المرأة اللعوب ، إلى تولّيلا ، مع نظرات

مُوَلّهة ، وصبت الباقي كله ، جرعة واحدة ، في حُلقومها ، وبعد قرع الكؤوس بالأصابع ، أوعزت بصب قدح مرة أخرى ، وناولته للقوزاقي الأول وعليها سيماء الأهمية .

« في صحتك ، أيها الأخ! » .

وانحنى هذا انحناءة شديدة ، حتى انسدلت حضلات شعره على وجهه ، وأجاب بأدب متكلف : « وفي صحتك ، ياأجافيا ، سامحيني ياأجافيا لعدم تقيُّدي بالقواعد والأصول » .

وسارت الأمور على هذا المنوال على مدى الرتل كله .

وقال صوت غاضب في وسط الجمع دخل كالقرقرة : « ما هذا ؟ » كان زعيم القوزاق يتفحص الشارب بنظرة متجهمة .

وتردّد صوت في جوقة يقول بإيقاعات تنطوي على التملّق والرجاء : « ماذا يعني سؤالك عن هذا ، أيها الكريم الأصل ، وما عسى أن يكون هذا ؟ إنه عيد إلى حد ما » .

واندفع قدحان إلى شفتيه يدعوانه ، وفي الوقت ذاته أشارت أجافيا إلى الهتمان* بحركة من يدها تنطوي على الاستخفاف ، تدعوه إلى القعود على العشب .

« لا تتحرَّج ، ياسيدي الكريم الأصل! ففي المكان متّسع ـ أو » وأضافت قائلة وهي تنظر إليه نظرات ماكرة : « لعل جواري غير مستحب لديك ؟ » .

ولم يقاوم الهتمان إغراء ثوب الرقص الباريسي ، وانفجرت أساريره ،

* لقب الزعيم القوزاقي .

وشرعت عينه القوزاقية المشرقة بالمرح تبرق بنظرات جريئة ، وأخيراً قعد على سجيته إلى جانب أجافيا الجميلة ، بينما كانت زمجرة مُرْعِدَة من الاستحسان المتهيِّب تثني على قراره .

وقدمت أجافيا إليه القدح مصحوبة بنظرة ولهى ، ودسَّت لفافة في فمها ، ودست لفافة مثلها بين شفتيه ، وهي تبتسم ابتسامة كانت خليقة أن تشعل اللهيب في كل القوزاق من نهر الدون إلى القوقاز . ثم لَفَّت ذراعها حول جسده ، وهمست قائلة : « شيئاً من الرقص ، ياكريم الأصل » .

وهز الهتّمان برأسه ، في تجهُّم ، ولفظ اللفافة بعيداً عنه .

وردّ قائلاً بخشونة : « كلاّ ، هذا ممنوع اليوم » .

« ولكن لماذا ؟ » .

« هكذا » ، وصاحت أجافيا غاضبة ، وهي تبتعد عن الهتمان :

« آه ، عرفت لماذا لا تريدون أن تسمحوا بالرقص! عرفت! إنه لا شيء سوى الإنكليز لقد فهمت ، فهمت! أنتم تخشون منهم ، ياكريم الأصل ، هذا مماثل بدقة كاملة لموقف بلفان بلفانوفيتش! وأسفاه عليكم! أسْدوا إليَّ معروفاً ـ أتخافون من الإنكليز! بخٍ ، بخٍ ، بخٍ ، الإنكليز ذوو عظمة كبيرة! ـ فأنتم إذاً تعتقدون ، هنا في المعسكر أيضاً بالقصف ؟ اسمحوا لي أن أقول لكم ، أيها الإخوة أنني أجدكم مضحكين . القصف! إنكم لا تعرفون! غير أني أعرف! وأريد أن أقول ذلك لكم ، أنا ، أجافيا » .

وبعد هذه الكلمات التمهيدية أصلحت جلستّها ، واتخذت وضعاً مختاراً ، وألقت كلمة بصوت عال ، ولسان طلق ، إذ كانت على يقين ، وواثقة من النصر .

«انظروا ، أيها الإخوة ، ستكون المسألة على النحو التالي : أنتم تعرفون القرم ، هناك في الأسفل ، بعيداً ، بعيداً ، بعيداً ؟ والأبعد من القرم البحر ، والأبعد من البحر القوقاز ، والأبعد من القوقاز أوروبا ، أي التتار ، الأتراك والقسطنطينية ، وباريس وستوكهولم ، وكل شيء . وتعرفون نابون ليونوڤيتش ، القيصر الألماني في باريس ؟ ويفجينيا نابونليونوڤنا ، زوجته ، كما يقولون» .

وقاطعها تولّيلا مصححاً بصوت كالهدير ، قائلاً : «هناك تقع أوروبا» ، وقذف بذراعه ناحية الغرب .

وقالت أجافيا تأمره برفق ولكن بلهجة التوكيد والحزم : «عليك أن تلزم الصمت ، وانتبه ، وتعلَّم! ـ إذاً ، ما أردت أن أقوله ، أيها الإخوة ، انظروا ، أيها الإخوة ، أنتم تعلمون أن أوروبا تنطوي على الشر ، وهي لا تؤمن بالرب ، ولا تريد أن يعيش المسيحيون ، ومن أجل ذلك تمدّ يد العون إلى الأتراك . ولكنها لمّا كانت روسيا جزيرة...» .

وغمغم تولّيلا قائلاً باستياء : «روسيا ليست جزيرة» .

«إذا لم تخلد إلى الهدوء والسكينة آخر الأمر ، ياحبيبي فسيُطلَب إليك الانصراف ، لقد قلنا لك الزم الصمت! هل تفهم ؟»

وقالت الجوقة مؤكّدة ومهدِّدة : الزم الصمت!

«أسفي عليكم ، أيها الإخوة! روسيا ليست جزيرة! ، كما يدَّعي ، ليست جزيرة! ولماذا لا تكون جزيرة ؟ وكيف لا تكون جزيرة ؟ ولكن لا ريب أن لك عينين ، ياتولّيلا! والآن ، ما هذا الذي يوجد هناك ، بين النتوءات الصخرية عند الساحل ، ما هذا إذاً . أنا أعتقد أنه البحر ، بلا

يب ، وإلاّ فما عساه يكون ؟ وعلى أية حال فهذا ليس حساءً ، ولا حبراً!
وسفينة الإنكليز ، ماذا تحسبها ، ياتولّيلا ، أتراها جاءت على الخط الحديدي
من موسكو إلى بطرسبرج ، أم على ظهر عربة بلدية تجرها ثلاثة خيول ؟ وفي
هلسنكي يوجد البحر أيضاً ، لقد رأيته بنفسي ، وفي فيبورج أيضاً ، وفي
أرشانجيلسك ، كما يقولون ، يوجد البحر من جديد ، وفي نوفايا سيمليا
يوجد البحر ، وكلهم يقول ذلك ، وعند استراخان ، وعند كامشاتكا ، وفي كل
مكان ، في كل مكان! ولذلك يضطر ألمان أوروبا إلى بناء السفن ، هؤلاء
المساكين ، عندما يريدون أن يهاجموا روسيا ، يبنون سفناً كبيرة كبيرة ،
وكثيرة كثيرة ، ولكن هذا كله لا يجديهم شيئاً ، ولا بمقدار ملء فم ، ولا
بمقدار قدح من خمر ، ولا قطرة . ذلك لأن الرب والقيصر صديقان . والرب
خير الماكرين ، وليس لديكم تصوُّر عن هذا على الإطلاق . وكيف ينبغي لي أن
أشرح لكم ذلك . لقد وجدتها . انظروا ، أيها الإخوة ، أتعرفون ؟ تصوَّروا
تترياً . أو ليس التتري بالقادر على أن يمكر بثلاثة من القوزاق! والقوزاقي
يمكر بستة من الروس ، والروسي يمكر باثني عشر من الألمان والإنكليز .
ولكن الملاك الواحد يعد أدهى وأشد مكراً من مائة من التتار الأشد مكراً .
ولكن الملائكة يوجدون بكثرة ، بكثير من الملايين ، وهم أكثر عدداً من كل
المخلوقات ، صغيرها وكبيرها ، فهل فهمتم ذلك الآن ؟ هل تبيَّن لكم الآن ،
آخر الأمر ، أن الألمان والأوروبيين لابد أن يهلكوا جميعاً ، هؤلاء المساكين ،
لأنهم يمدون يد العون إلى الكفار ؟ » .

وتجرأ واحد من القوزاق على الاعتراض بقوله : « ولكن يقولون ان
الأحوال ليست على ما يرام هناك في القرم » .

وقال الهتّمان متذمّراً : « بل أحوالهم سيئة » .

وضحكت أجافيا بملء حنجرتها ، وصفقت بيديها ، وقالت :

«ما أشد غباءكم في الحقيقة ، ياإخوتي ، اسمحوا لي أن أقول لكم ذلك ، وأرجو عفوكم ، ولا تحملوا ذلك مني على محمل السوء . أتراكم لا تفهمون شيئاً على الإطلاق ؟ بالطبع ، هذا أمر يستطيع المرء أن يلمسه لمس اليد ، إذا ما كان لكم الرب بالمرصاد . لقد قلت لكم إنه يمكر بالماكرين . ولتنظروا كيف يدبّر الأمر : فهو يستدرجهم جميعاً إلى سيباستوبول ، ويزدادون ، ويزدادون على نحو مطرد ، حتى لا يبقى منهم في البيوت آخر الأمر أحد سوى النساء والأطفال ، فإذا اجتمعوا جميعاً أطبق عليهم ، وقُضي الأمر! ـ أتعرفون ماذا أعتقد ؟» وغمغمت بذلك وهي تلقي نظرة جانبية مختلسة على البحر . «فيما يتعلق بالسفينة الحربية التي ترونها هناك ، هذه هي المرة الأخيرة . لقد سمح لهم الرب بالإفلات من الشرك ، وفي غمرة خوفهم من الروس ساروا بالسفينة من القرم ، ليدوروا بها حول روسيا ، وساروا ، وساروا ، وساروا ، بغير انقطاع ، ولا توقف ، ليلاً ونهاراً ، إلى أن بلغوا آبو . وهذا واقع الحال . على وجه الدقة . أعطوني شيئاً من البراندي ، رجاءً ، أيها الإخوة ، إذا سمحتم» .

وكان جزاء التعليم السياسي غمغمة استحسان . أمّا الهَتْمان الذي أسكره الحديث الظريف ذو الجرس المستعذب فقد أراد أن يلف ذراعه حول أجافيا .

وقالت أجافيا ، تدافعه ، هامسة ، ولكن بجدّ ، مع تقطيب جبينها : «كلاّ ، ياكريم الأصل ، هذا ممنوع ، إذ يجب عليك أن تعلم أن عريسي لا يؤمن بالله ، وهو يشعر بالغيرة . والحق إنه لا يقول أقلَّ كلام ، ولكن ما هي إلا هنيهة حتى يراه المرء وقد استلّ سكّينه . حقاً . بالله . إنها كلمة شرف . فلنخرج في نزهة ، ياكريم الأصل!» .

وهنا نهضت قائمة باحتفالية ومهابة ، وتركت الثوب الحريري يُسْمع حفيفه حولها ، وتعاظمت ، ومالت بعنقها جانباً مثل إوزّة عاشقة ، وجعلت تلوِّح بذراعيها الممدودين جيئة وذهاباً كالمجذافين ، وتسير مختالة نحو البحر ، وتتولاها الدهشة من كل ما تقع عليه عيناها ، إذ كان اليوم يوم عيد ، ومن ذلك أزهار الأقحوان القليلة وسط العشب ، والحصباء الملتمعة على الشاطئ ، والسفينة المعادية إلى جانب النتوء الصخري الممتد من الشاطئ . وكانت فيما بين ذلك تداعب خيول القوزاق الخشنة الصغيرة برقة مفرطة .

وصاحت وقد سرَّها ، فجأة ، أن تنظر إلى ما حولها ، قائلة : «ولكن هل تعلمون ، أيها الإخوة ، دعونا نلعب قليلاً مع الإنكليز! فلنجعل الخيول عند الشاطئ ، ولنجعل مؤخراتها نحو الإنكليز ، لكي يغتاظوا» .

على أن القوزاق الذين يبدون الاستعداد لكل نزوة في كل وقت لم يلبثوا أن حوّلوا هذه الخاطرة إلى فعل ، ببساطة ، فساقوا الخيول الذكية وسط كلمات الدعابة والتمطُّق الودي بالألسنة على الساحل ، وصفّوها في رتل ، ورؤوسها باتجاه اليابسة ، وجعلوا يقرصونها في آذانها حتى أخذت ترفس برجليها رفساً عالياً .

وقالت أجافيا تثني عليهم بجدّ : «أحسنتم ، أيها الفتيان! مرحى ، أيها الإخوة! أنتم أبطال! أبطال ، ببساطة! ولا شيء بعد ذلك!» .

أما الهتّمان ، الذي لم تفارق عيناه أجافيا الجميلة منذ وقت طويل ، فقد تسلل الآن متقدماً نحوها ، وغمزها بمرفقه غمزة تنطوي على الألفة ، وهمس قائلاً لها : «هل نرقص ؟ ماذا ؟ أجافيا ؟ هل نرقص ؟» .

وقلّصت أجافيا زاوية فمها بقوة ، وقالت : «كلا! ، شكراً» .

«ولكن لِمَ لا ؟» .

«لا أحب ذلك . أنا متعبة» .

وصاح القوزاق : «هذه حماقات! أسرعي ، ياأجافيا! تعالي إلى الرقص!» .

وأدارت أجافيا لهم ظهرها في ازدراء ، كبارونة ، وفي ملل ، كأنها ملكة ، بينما كان القوزاق يشكِّلون دائرة حولها ، غير مبالين أدنى مبالاة برفضها ، وأخرجوا جهاز أكورديون .

وكان توليلا قد ظل في أثناء هذا كله يقف جانباً ، منسيّاً ومنبوذاً ، ينظر إلى الأرض متكدِّر النفس . والآن وثبت أجافيا نحوه كالغزال .

«إياك أن تستاءَ مني ، ياحبيبي! ولا تحزن ، بربّك ، ياروحي! إنما هو شيء من الاستمتاع ولا داعي لأن يحزن المرء من جرّائه ، شيء من الرقص ، ولا شيء بعده ، وأنا أحبك مع ذلك ، بلا ريب . ثم إننا سنتزوج . ألا تريد ؟ ولكن تعال إلى الصف الأول ، لكي تستطيع أن ترى وتُعْجَب برقصي ، وافتح عينيك ، لأنك سترى شيئاً له شأنه» .

وبعد أن طبعت على وجهه بعض القبلات على عجل ، وعلى نحو مختلس ، حشرته بين الجنود .

وصدحت الهارمونكا بائتلاف أنغام خفيضة ، وتعلقت أنظار القوزاق بحذائها في حملقة ثابتة ، دونما تعبير ، مثلما يقتضي ذلك يوم العيد ، وشرعوا في واحدة من أغاني الشكوى التي لا توصف ، والتي لا نهاية لها ، بمقاطع موسيقية سريعة فيها حماسة وتأثُّر ، وهي أغنية تتخذ هناك في الأسفل ، على نهر الدنيبر ، رمزاً للهتاف البشري . أمّا الهَتْمان ، الذي كان قد وضع حُقَّ الزبدة الأسود بجرأة فوق أذنه اليسرى ، وهو يقرض الحزام

بأسنانه على سبيل المداعبة ، فقد أخذ أجافيا تحت ذراعه ، على الطريقة الفرنسية ، وجعل يسير معها مختالاً ، في وسط الدائرة ، ثم أرسلها مع انحناءة من عصر لويس الرابع عشر ، ثم أظهر لها أفضل فنونه ، وهو يحوم حولها كالمجنون ، فكان يقعد على الأرض القرفصاء حيناً ، ويقذف بساقيه الداخلين في الحذاء ذي الساق الطويل في كل الاتجاهات حيناً آخر ، ويقفز إلى الأعالى مثل شيطان يخرج من علبة ، حيناً ، وينقضّ عليها حيناً آخر ، في خطوات رقصة الكانكان* ، والسيف في يمناه ، وكأنه يريد أن يقفز فوق جدار أو يعتلي حصناً . وكان العرق في أثناء هذا العمل يتصبّب على جبينه ، وقد ظل شعره الطويل ملتصقاً بوجهه . أمّا أجافيا فكانت تتلوى وتدور كالأفعى ، وهي تلوِّح بمنديلها في الهواء ، لتبلغ رشاقة سيدة نبيلة ، وكان كل شيء نبيلاً واحتفالياً ، وكانت تبعث النظرات التي تنم عن الإعجاب بالنفس حواليها ، من الأمام وعن الجانبين ، وإلى الوراء ، إلى أن انتصر الإيقاع الجنوني للأغنية التي كان صراخها لا يتوقف ، على تظاهرها بالتواضع ، فأخذت ترقص رقصة الكانكان ، مثل الشبح الشرير الخرافي ، بخطوات عملاقة ، بحذاء مطبخها ، حتى لقد كان هبوب الهواء المنبعث من الثوب الغَزّاوي يهدِّد المغنين بانقطاع أنفاسهم ، وكانت كلما مرت في عَدْوِها الخاطف بتولّيلا ، أرسلت إليه نظرة حب ثاقبة خاطفة .

أما تولّيلا ، فقد كان ، على الرغم من كونه في الأساس مزهواً زهواً ليس بالقليل ، بفنون عروسه وانتصاراتها ، ينقل بصره من قوزاقي إلى آخر في سوء ظن ، ويقول لنفسه مطرقاً ، من حين إلى آخر ، بصوت بين الارتفاع والانخفاض : «هذه لي» .

---

* رقصة غير محتشمة ، فرنسية الأصل .

وفي المساء ، حوالي الساعة العاشرة ، أي حين كان ضوء النهار ما يزال ساطعاً ، سارت السفينة الحربية بكامل أشرعتها بين النتوءات الصخرية ، واستقرت على مرمى من المرساة ، واستحوذ على المواطنين لدى مرآها انفعال هائل ، ولم يكن هؤلاء قد اطلعوا على شيء من الاتفاق بين الحاكم والإنكليز . وكانت الشوارع تعج بالبشر الذين كانوا مثل كتل النمل ، وكان الرجال القادرون على الدفاع مسلحين بالسكاكين والمِحَشّات ، والصنارات ومضاريب الدّراس ، وقد أسرعوا ، تحدوهم روح القتال ، إمّا إلى الميناء ، وإما إلى شمال المدينة وجنوبها ، إلى الشاطئ ، وهم يطلقون لعنات حادة . أما القسم الأكثر خوفاً من السكان فقد اختبأ في الأقبية أو في الكنائس ، وعمدت بعض النساء ذوات القلب الجريء إلى جمع المياه في القدور والدلاء والسطول ليكُنَّ مجهزات من أجل أضرار الحريق ، إذ لم يكن في آبو مصلحة للإطفاء في تلك الأيام . وكانت وفود الفنلنديين والسويديين تتناوب على الحاكم لتوصي بهذه القاعدة تارة وبتلك القاعدة تارة أخرى ، غير أن كلا القسين اللوثريين ، مع العمدة ، وضعا نصب عينيه القيمة التي لا تُعَوَّض لحياة ثلاثين ألفاً من البشر سيكون عليه أن يقدم الحساب عنهم في يوم الحساب ، والتمسوا تسليم المدينة ، مع تأكيدهم الحماسيّ لتعلُّقها الذي لا يتزعزع بالقيصر . وكان الحاكم يقدم مقابل كل هذه الالتماسات الجواب ذاته دائماً : «أحسنتم ، أيها الأصدقاء! كلامٌ ممتاز . الوطن يشكر لكم . وأخيراً فهذا الأمر يعنيني ، ولذلك لا تكلفوا أنفسكم مزيداً من الجهد » . ولكن حين همّ القِسان والعمدة بإحضار المرضعات والأطفال القاصرين نفد صبره فجأة .

«إن قصري ليس مدرسة للقابلات ، وأنا أقول لكم ، إذا كنتم تريدون أن تقدموا عروض أطفال ففي وسعكم أن تقدموا هذه الكوميديا في المنتدى

لاجتماعي ، أو في الكنيسة ، أو أينما تشاؤون . وكفى هذا . هلاّ تسلّقتم ظهري ، إذا شئتم ، فإن ذلك يشرّفني ، ياسادتي » .

وكان قد أوعز بتقسيم القوات أقساماً ، وجعل بين السريّة والسرية مسافة طويلة ، ومعظمها في جنوبي المدينة ، باتجاه اليابسة ، في منطقة القصر ، وجعلها أبعد ما يمكن أن تكون عن معمل الآجر ، لكيلا تشكل إزعاجاً ، ولم ينصب سوى بطارية لأربعة مدافع بالقرب من معمل الآجُرّ ، محافظة على المظاهر . وتوجه هو نفسه ، مع زوجته ، يرافقه بلفان بلفانوڤيتش ، والأركان العامة ، ونصف سرية من الحرس الفنلندي ، نحو هدف القصف ، وهو تلٌّ في شمالي المدينة كان يقوم عليه منزل تولّيلا ومأواه ، في إطلال شديد الانحدار على البحر ، في موقع مطابق على وجه الدقة للموقع الذي يتألّق فيه الآن « فندق المحيط » بأعمدته المرمرية المنقوشة ، من خشب اللاريس ، في بريق زائف . واتخذوا موقعاً لهم في سفح التل ، في منخفض من الأرض . وكانوا هناك بعيدين إلى حد ما ، ومحميّين ، بينما كانوا يستطيعون في الوقت ذاته أن يراقبوا السفينة وأن يراقبوا الراية التي أوعز الحاكم بنصبها على سقف معمل الآجر ، لكيلا يخطئ العدو الهدف . وكان بلفان بلفانوڤيتش ، الذي تظل تعذبه الرؤى المتصلة بالمحكمة العسكرية ، يقعد القرفصاء على حصانه الأسود العالي ويرسل نظرات خالية من الأفكار ، وكان يبدو أن الخوذة تضغط جبهته المنخفضة فتزيدها انخفاضاً ، ولم تعد عليه كل جهوده للدخول مع الحاكم في حوار قائم على روح الزمالة إلاّ بمجرد ارتسام ملامح الازدراء على وجه الحاكم ، وتعليقاته المنطوية على الاستهانة . وكان يحاول ذلك الآن مع زوجة الحاكم التي أعدّ لها لباقته النسائية غير البارعة ، التي كان يمارسها حتى الآن مع المغنيات في المقاهي والخادمات في المسابح ، كان يستجمعها بأقصى جهده .

وشرع قائلاً : «أرجوك ، يابيلاجيا إيفانوفنا ، أنتِ هنا معرَّضة للرصاص . ألا يروق لك أن أصحبك إلى مسافة أبعد ، تجاه المدينة ؟ وسوف أضع سرية تحت تصرفك من أجل أَمْنِك» .

وكان جوابها غير الودي : «كلاّ ، شكراً ، فأنا أحب الرصاص» .

«في هذه الحالة سوف أكون في خدمتك ، هل أصحبك لصعود التل ؟» .

«كلاّ ، فعلى التل يوجد تيّار من الهواء» .

«يوجد تيار ؟ آمل ألاّ تكون صحتك في حالة سيئة ، يابيلاجيا إيفانوفنا ؟» .

«ياإلهي الذي في السموات! أي إنسان متطفّل هذا! ـ أنا أشعر بآلام في صدري» .

«في أيهما ، إذا جاز سؤالي ، في الأيسر ، أم في الأيمن ؟» .

وقالت زوجة الحاكم في صوت هامس كالصفير ، غاضبة : «غبيّ!» .

غير أنه لم يُمْسِك .

«سوف يصيب ساقيك الناعمين المخمليين التعب ، يابيلاجيا إيفانوفنا ، من جرّاء الوقوف ههنا أبداً . هل يمكن أن أقدم لك حصاني ؟» .

وتأملت زوجة الجنرال الحيوان الجميل ، الناريّ ، على غير إرادة منها ، بإعجاب . وكان بلفان بلفانوڤيتش قد استعد للخدمة ، إذ وثب واقفاً على قدميه ، واستحثها على امتطاء الحصان .

وقال مترفِّقاً وهو يقدم إليها الرِّكاب : «تفضَّلي!» .

وألقت بيلاجيا إيفانوفنا نظرة على ثوبها ـ ولم يكن ثوب ركوب ـ ونظرة ثانية على القوات ، وترددت .

وحَدَس بلفان بلفانوڤيتش هواجسها .

وقال بهذه المناسبة يأمر قواته : «الضباط وراءالجبهة!» .

وبعد أن تأكدت أن الأمر سوف يُطاع ، ألقت بنفسها برشاقة على السرج ، بأسلوب فروسي ، على طريقة الرجال ، وتحوّل موقفها الكسول فجأة إلى رشاقة أمازونيّة* جريئة . وأشرقت عيناها . أما الحصان الأسود الذي سُرَّ بالحمل الخفيف كما سَرّه الإمساك الليّن ، والواثق ، بالعنان ، فقد أخذ يمشي مشية الراقص ، ويزفر بصوت مسموع ، ويهزّ بذيله .

وقالت زوجة الحاكم وهي تهز برأسها هزة المتفضّل ، شاكرة للعمدة «لا بأس!» .

وتنفّس هذا الصعداء ، وهو يلهث ويزفر ، إذ شعر بالخوف يتوارى .

وغمغم قائلاً ، يواسي نفسه : «ها أنتِذي! الحمد لله! الآن يغدو كل شيء على ما يرام! زوجة جنرال ، شابة ، وناعمة ، ونظيفة ، هذه الوسيلة المثلى ضد محكمة عسكرية» .

وأطلقت الفرقاطة صاروخاً في الهواء ، ثم ثانياً ، وثالثاً .

وصاح العمدة بصوت مُجَلْجِل ، وبغير مبالاة : «لقد بدأت» .

وخرجت من الكوّة الأولى للسفينة ، من اليسار ، في الصف الأعلى ، سحابة صغيرة زرقاء متكسِّرة ، وانبعث شيء بصوت مدوٍّ كالصفير في حرش أشجار البَتولا ، في الأسفل ، عند الجدول ، وراء فرن الآجر ، محطِّماً لأغصان ، وانفجرت على البُعْد طلقة ذات صوت مكتوم .

* نسبة إلى النساء الأمازونيات ، القويات ، المسترجلات ، ذوات النزعة الحربية .

«المترجم»

وعلّق مدفعيّ قائلاً بهدوء : «لقد أخطأت الهدف!» .

وأعقبت سحابة ثانية من الدخان السحابة الأولى ، من الكوة المجاورة في السفينة . وتراقصت على سطح البحر رصاصة كالكرة تتواثب ارتفاعاً وانخفاضاً ، ناثِرةً حواليها زبداً ورذاذاً ، وجنح الجنود إلى العبث .

وقال الضابط متحدثاً بلهجة المتفوّق ، حديثَ الجدّ : «ولكن انتبهوا الآن ، أيها الإخوة! الآن تأتي على الوجه الصحيح!» .

وانفجرت الرمانة الثالثة بالفعل أمام المنزل مباشرة ، فنثرت على الطريق قطعاً من المرج المعتنى به ، والطين ، إلى أن وصلت إلى المنخفض ، وقذفت في وجوه الواقفين هناك بالتراب والأوساخ . واستُقْبِل هذا الحدث المزعج بضحك ينم عن الابتهاج ، وانتهز العمدة الفرصة لتنظيف ثوب زوجة الجنرال ، وجعل ينفضه وينفخ عنه الغبار بهمة ونشاط . وقالت هذه تؤكد له ، بمودة : «لا بأس ، لا ضير في ذلك! لا تكلّف نفسك جهداً ، يابلفان بلفانوڤيتش ، فهو ثوب قديم تماماً ، وأنت تدرك بالطبع أن المرء لا يلبس من أجل القصف مثلما يلبس لحفلة راقصة ، على الرغم من أنني أرى أن الرمانة الجميلة النظيفة الحسنة الإعداد ، والتي تنفجر في مكانها الصحيح أكثر تسلية من بعض الرقصات البولونية الطويلة ذات المفرقعات» .

أما الرصاصة الرابعة فأصابت صارية الإشارة على السطح ، وكسرتها ، حتى ترنَّحت الراية وسقطت .

وصاح الجنود : «مرحى! إنه لبطل ، إنه لفتى أيمّا فتى! إنه لضابط! هذه الرمانه! إنها لقادرة!» .

وخرج واحد من الحرس الفنلندي من طابوره ، في وجل ، وأدى التحية

بوضع يده على الخوذة ، وقال للعمدة متلعثماً : « أرجو أن تسمحوا لي بإعادة نصب الراية! » .

وزمجر هذا قائلاً : « غبي! الزم الصمت ، والسكون! » .

وتسلل جندي المشاة ، وهو يشعر بالأسف العميق ، عائداً إلى صفه ، وكأنما رُفِض له طلب إجازة .

ولكن السفينة كلها أخذ يُغَشّيها الآن دخان داكن بلغ من ظلمته أنه لم يعد يبرز من السحابة سوى الصارية الرئيسة . وانبعثت فرقعة وأزيز وعَصْف كالجحيم في معمل الآجر ، وكان بَرَدٌ كثيف من الحجارة ، والشظايا ، والأعواد المهشمة ، ودويّ هائل ، طويل الأمد ـ ومن كل تركيبة الأسطح ـ يُسَعِّران ألسنة اللهيب الساطعة ويرفعانها عالياً . واستحوذ على الجند صياح غضب عارم ، وقبل أن يلاحظ ذلك أحد ويتمكن من مقاومته ، زحف الحرس زحفاً عاصفاً نحو التلّ ، وقد انفرط عقد نظامهم ، من دون نظام ، ولا أمر ، ووراءهم العمدة يطلق اللعنات الرهيبة بأسرع ما يمكن أن تسمح به بدانته التي لا يستهان بها .

« هلاّ عدتم أدراجكم ؟ ياقطعان الماشية! ماذا تلتمسون هناك! أما الخمر فلا وجود له هناك . أم تراكم تحسبون أن الإنكليز يقعدون فوق رصاصاتهم مثل البارون فون مُنْشهاوزن*! إذاً فسوف تنتظرون طويلاً بغير طائل . إن هؤلاء قوم جبناء ، لا يطلقون النار إلاّ عندما يعرفون أنهم في مأمن! » .

---

* كارل فريدريش فون منشهاوزن (١٧٢٠ ـ ١٧٩٧) ، كتب أقاصيص فكاهية تتضمن مغامرات لا تصدّق ، ترجمت إلى الإنكليزية جزئياً

« المترجم »

وأكمل الحاكم كلامه قائلاً بجفاف : «أي عندما يعلمون أن العدو باع الرصاص» .

وكان الحاكم قد تلقى من الأعمال ما يكفيه آخر الأمر ، بالقدر ذاته ، إذ أسرعت القوات قادمة من القصر ، خلافاً للأوامر ، إذ اجتذبها دوي المدافع اجتذاباً لا يُقاوَم ، واقتضى الأمر وقتاً طويلاً إلى أن عاد كل شيء إلى الانسجام في نظامه من جديد ، ودوّت في الأسماع بعض اللعنات من قبل الضباط ، متفرقة ، على سبيل الاحتياط ، للحيلولة دون تكرار انفراط عقد النظام .

وكانت كل المدافع المنصوبة في أحد جانبي السفينة تنطلق بعد مدافع الجانب الآخر ، في تتابع سريع ، حتى أخذت ألسنة اللهيب المستعر تتدافع من كل الشقوق والنوافذ خلال وقت قصير ، وتعبر الأسطح لتتحد في عمود واحد من اللهيب ، وكانت سحابة عملاقة من الدخان تتحول إلى هذا الجانب حيناً وإلى ذلك الجانب حيناً آخر ، تبعاً لوجهة هبوب الرياح . ودار حصان زوجة الجنرال على عقبيه ، ووقف على قائمتيه مقاوماً ، وجعل يرفس كلما أزّت الرمانات ، أو بلغت رائحة سحائب الدخان مناخيره . وتجرأ بلفان بلفانوفيتش ، الذي كان يمسك بالأعنة إمساكاً محكماً ، ويجتهد دائماً في أن يجعل نفسه خفيف الظل ، على نكتة ، إذ لاحظ كيف كانت زوجة الحاكم تمتص الدخان وبخار البارود بشغف .

وقال وهو يبتسم في ارتياح : «لقد أرسل إليك القصف» .

وراق لبيلاجيا إيفانوفنا أن تجد النكتة موافقة لذوقها .

«ما الذي حدث لك اليوم ، يابلفان بلفانوفيتش ؟ أأنت مريض ؟ لقد شغلت بالي ، وإذا ظل هذا يسير على هذا المنوال فثمة خوف من أن تغدو

آخر الأمر ظريفاً بعد . ولابد لك أن تتعهد هذا بالرعاية ، يابلفان بلفانوڤيتش ، فهذا شيء لا يجوز للمرء أن يدعه ينقطع» .

«أرجو أن أحظى بعطفك ، يابيلاجيا إيفانوفنا ، أرجوك وألحّ في الرجاء! ولتكوني لي طبيباً! فما كنت لأجد طبيباً أرقّ ولا أنظف منك في كل أرجاء روسيا» .

«دَعْ عنك التودُّد إلى النساء! وأسْدِ إليّ هذا المعروف! فأنت قليل البراعة مثل ضابط بحرية . أوَ تحسبني من الغباء بحيث أستطيع أن أشفي امرءاً آخر من روح شريرة ؟» .

وترك بلفان بلفانوڤيتش فمه فاغراً . أما زوجة الجنرال التي أحدق بها الخطر من جراء المجون المفاجئ ، على النحو الذي يعد من خصوصيات الروس ، فقد صاحت به تأمره فجأة : «دَعْ عنان الجواد!» .

وحين امتثل العمدة للأمر وثبت وثبة خبب مديدة نحو التل ، وسط خط النار ، أمام المبنى المحترق . وكافأها على شجاعتها تهليل الجنود العاصف ، وكان العمدة الذي يجري وراءها وهو يعرج بهمة ونشاط ، يحاول عبثاً أن يناشدها العودة .

وقال الحاكم يلفت نظره : «دعها تجري كما تشاء ، هذه المجنونة ، وإذا كانت تريد أن تصاب ، على الإطلاق ، فهذا شأنها» .

وهكذا تمسكت بيلاجيا إيفانوفنا بإرادتها . وما من شك في أن الصمود على التل أمر ما كان الجواد ليسمح لها به . ولما كان قد طار شعاعاً من خوفه من الموت فقد انتصب واقفاً يحملها ، على قائمتيه الخلفيتين ، ومشى بها القهقرى إلى أن دنا من اللهيب حتى مسّ الوَهَج

خصلات شعرها فأحرق جانباً منها ، وبات الشرر يمطر مؤخرة الحصان بوابل منه فدار هذا على أثر ذلك بضع مرات ضمن دائرة دوراناً حلزونياً ، وفي عَدْو خاطف نحو التل ، هارباً بغير توقف ، إلى أعماق المدينة ، وفوق الجسر ، بينما كانت زوجة الحاكم تحاول عبثاً ، بضغط خاطف السرعة على العنان يساراً تارة ويميناً تارة أخرى .

وصاحت بزوجها وهي تمر به بسرعة خاطفة ، قائلة بصوت مختنق : «ما أروع هذا! وما أَلَذَّه! وياله من جواد رائع!» .

وبعد بضع دقائق عادت أدراجها من المدينة ، وهي تعبرها من طريق جانبي ، وترغم الحيوان الخائف الذي ترتعد كل أوصاله ، ويرسل الأبخرَة ويغشيه الزبد الأبيض ، خطوة فخطوة ، في خط متعرِّج ، على الشريط الأخضر الفاصل بين الحقول . وبدأت في الأعلى لعبة النحلة الدوّارة من جديد ، وبعد لحظات قلائل عادت من جديد تنزل على الجبل .

وسأل النقيب في سلاح المدفعية : «ولكن نحن ، نحن يابلفان بلفانوڤيتش ، ألن نرمي أيضاً ؟» .

«نرمي ؟ أرجوك ، وبِمَ نرمي ؟ لا يوجد رصاص» .

وغمغم النقيب قائلاً وهو مطرق برأسه ، في تجهُّم : «كما هو الحال في القرم ، على وجه الدقة! اسأل الله أن يهيئ لروسيا مشنقة!» .

ثم أعلن لجماعته قائلاً : «صبراً أيها الإخوة! فقد حظر الله الرصاص» .

وترك كل من هؤلاء ذراعيه يتدليان ، وهو مطرق برأسه في حزن .

ولم يكن بدٌّ من عمل شيء في هذه الأثناء ، تحيةً للقصف . ولذلك فحين سقطت على الأرض رمّانة أخطأت الهدف ، ذات مرة ، بالقرب من

البطارية ، بجهاز إشعال له صوت كالصفير ، صاح أحد ضباط الصف ، وهو فتى مرح حديث السن ، من منطقة كييف ، وهو مهرِّج الحامية ، قائلاً : «ماذا تريد هنا ، ياحبيبي ؟ وما الذي يدفع بك الى الاندفاع بهذه السرعة ، وهذه الرغبة ؟ ومثلُك مَنْ يمكن أن أحتاج إليه على وجه الخصوص ؟ فلديَّ لفافاتُ تبغ ، ولكن ليس معي أعواد ثقاب ، مع الأسف! أيها الإخوة! اليوم عيد! وعدوُنا يهدي إلينا أعواد الثقاب!» .

وهنا ركض مسرعاً نحو الرمانة ، وعبثاً كان الضباط يصيحون به على البعد ، لينقذوه وقد استنفدوا كل قاموس الشتائم الروسي الغني وقال يطيِّب خاطرهم بأدب :

«لا يهمّ! لا يضير أبداً في شيء! أيها الإخوة! الرب رحيم» ، ومدَّ لفافته نحو الغول الذي يفحّ فحيحاً ، على راحته ، وعاد أدراجه راضياً ، وهو يتصرف كما لو كان يدخن وينفث الدخان . وسمعت قعقعة ضعيفة صادِمة ، ثم انبعثت حزمة من الضوء ضئيلة ، حمراء ، وزرقاء ، تبرق في كل الاتجاهات ـ وألقى ضابط الصف برأسه إلى الوراء ، وأمسك بظهره بكلتا يديه ، وأطلق صرخة تبعث على التفجُّع ، ثم خرّ على الأرض من جهة الظهر ، متقلِّبا ، متلوياً كغصن كرمة .

وأسرع إليه الضباط وهم يطلقون اللعنات . ولكن بعض الرفاق أمسكوا به من ذراعيه وساقيه ، كيفما اتفق ، من دون أن يحفلوا بآلامه ، وبذلك واسَوْه على طريقتهم .

وصاح به أحدهم : «لا تصرخ هكذا بربك ، أيها الكلب! فقد يظن المرء الظنون بما يمكن أن يكون حدث! فمجرد جندي يزيد أو ينقص في هذه الدنيا أمر لا يُعَوَّل عليه . والقيصر ما زال لديه من هؤلاء ما يكفيه» .

وقال آخر : «والآن ماذا ؟ أيها الأخ ؟ ماذا ؟ إنما هو موت ، ولا شيء بعد ذلك . وما الشيء الكبير في ذلك ؟ فلمثل هذا كنا جنوداً» .

وهكذا حملوه إلى المدينة .

وكان المبنى قد احترق حتى أساسه تقريباً . وسكت الرصاص ، وإذا فلاح شاب في ثياب فنلندية رمادية ، يُقْبل من شارع نيكولاي ، وكلا ذراعيه محمَّل بالحجارة ، وقد تشوَّه محيّاه ، يغلي بالسخط والنكير ، ويطلق من حين إلى آخر عبارة تنم عن غيظه وحنقه ، إذ يقول من بين أسنانه «أولاد الأبالسة!» ، ووراءه سيدة صغيرة السن في حلة رقص حريرية زرقاء قد اتسخ ذيلها وتمزَّق ، وانحل شعرها في خصلات فوضوية تتطاير فوق كتفيها ، وبات جوربها ووشاح صدرها في فوضى كاملة ، وهي تتشبث بثوب الفتى ، وتحاول اللحاق به بشقّ النفس في عَدْوِ الخبب ، ويكاد الفتى الغاضب يجرُّها جرّاً .

«هلاّ انتظرت بربِّك ، ياحبيبي! مالك تعدو هكذا عَدْوَ الظَّليم*» ، كذلك كانت أجافيا تخاطبه لاهثة الأنفاس وهي تبكي وتشتم . «ياإلهي الذي في السموات! توقَّفْ قليلاً بربِّك!» .

ولكن تولّيلا حين رأى مُلْكَه المدمَّر كان لا يزداد عَدْوُه إلاّ سرعة ، وهو يرفع حجراً أثناء عدوه ، من حين إلى آخر .

وقال الحاكم بلهجة الآمر : «أي فتى هذا ؟ وماذا يريد ؟» . واعترض طريقه بعض حملة الحراب . وقالت أجافيا وهي تبكي ، وتمسك بعريسها ،

---

* ذكر النعام .

وتلقي الحجارة عن يديه بقوة ، مترفّقة ، واحدة بعد أخرى ، على الأرض :

«ويلاه ، ياسيدي! ياصاحب السعادة! بارابان بارابانوڤيتش! أنت لا تعرف ، هذا المسكين! ذو الحظ المنكود! هذا منزله ، الذي أحرقه العدو . منزله! وكنا نريد أن نتزوج في الأسبوع القادم ، فما العمل الآن ؟ ماذا نصنع ؟» .

وسرت في صفوف الجند غمغمة تعبّر عن الأسى ، ولعنات تنم عن عمق المشاعر ، يستنزلونها على الألمان ، والأتراك ، والإنكليز ، بسبب قسوتهم البهيمية ، بصوت مرتفع .

على أن الحاكم الذي كان يشعر بشيء من الحرج بادئ ذي بدء ، لم يلبث أن استعاد رباطة جأشه ، وفي إشارة تمثيلية تنم عن التعاطف ، توجهت أولاً نحو المبنى الداخن ، ثم إلى تولّيلا ، أخذ يَصِم فعلة العدو الشنعاء الدنيئة التي تستخف بالإنسانية وبالقانون الدولي ، ثم أخذ يعالج تولّيلا .

وصاح بالجند قائلاً : «انظروا إليه ، أيها الإخوة! انظروا إليه ، هذا الفنلندي الفتى البسيط ، المتواضع ، في ثيابه الرثة ، بلا ثقافة ، ولا إيمان ، ولا وظيفة ، ولا مركز ، ومع ذلك فهو يمكن أن يُتَّخذ مثالاً يُحتذى لبعض من يتيهون ، في خيلائهم ، بالمكانة ، والثروة . انظروا إليه ، هذا البطل ، كيف يضحّي ، بلا تذمُّر ، مسروراً ، وبملء إرادته ، بأعز ما يملك ، من أجل القيصر والوطن! انظروا كيف يشعّ وعياً بأنه أنقذ ، عن طريق خسارة ملكه ، المدينة من الهلاك!» .

وبخطوة عسكرية ، تقدّم من الضحية التعيسة ، وربّت على كتفه برقة ، واستأنف كلمته قائلاً بصوت رقيق متأثِّر : «ما اسمك ، أيها الرجل الطيب ؟

لا تخجل من اسمك لأنك حولته إلى اسم من أسماء الشرف في روسيا!» .

وترك تولّيلا الحجارة الأخيرة تسقط من يده ، وأخلد إلى الصمت هنيهة ، وهو ينظر إلى ما حوله في سوء ظن ، ليرى ألا يسخر القوم منه ، وأخيراً نطق باسمه بصوت مزمجر ، وبجهد مفاجئ ، ورفع الجنرال صوته من جديد بكلمة متعاطفة .

وصاح قائلاً : «ياتولّيلا! ياتولّيلا! تقبَّل من فمي اعتراف قيصرك! تولّيلا! إن روسيا المقدسة تهب لك شكرها ومباركتها! ياتولّيلا ، فلتمض على هذا الطريق الذي سلكته! وثابر أيضاً على طريقتك المثلى في التفكير ، القائمة على روح التضحية ، وسيكون في وسع فنلندة أن تفخر بأنها أنجبتك ، وولدتك ، وأرضعتك وربَّتْك . ياتولّيلا! أما المنزل الذي دمّره العدو فسوف تجده مرة أخرى في قلبك ، أجمل ، وأكبر مما لو كان قائماً في شكل كتلة جسدية مادية ملموسة . والفضيلة وفعل الخير ثروة أَنْفَس من الذهب والعقار . لقد فقدت معمل آجر ـ وربحت معبداً للوعي ، وأصبح المكان الذي كان يقوم فيه موقدك من قبل ، يتربَّع فيه الآن هيكل الوطن! ـ أُفّ ، إني أكاد أختنق! يالها من طويلة ، هذه الخطبة! يالها من كلمة غبيّة! ـ كفى ، لسوف يقتلني هذا الوغد بعد!» .

ثم فَكَّ أحد أوسمته الأربعة والعشرين عن صدره ، وعلّق تلك الوسيلة التي لا تنفع ولا تضر ، على ثوب تولّيلا .

وصاح الجنود : «مرحى!» ودوّى قرع الطبول .

ولكن تولّيلا كان ينظر ، متكدِّراً ، إلى زينته تارة ، وإلى منزله المدمَّر ، تارة أخرى .

وقالت أجافيا تجامله وتلاطفه ، وهي تمسك بذراعه وتفك قبضته التي ما زالت تمسك بحجر في تشنج : «لا تبك ، ولا تغضب! ياحبيبي الحلو! فقد أصبحت تملك ميدالية . وها هم أولاء رجال الدرك يحيّونك عندما تمر بهم ، ومن حقك أن تكون في الصف الأول في الاستعراض . وفي أسبوع ثلاثاء المرفع ، عندما تكون راقداً على الأرض ، سكران ، يقول رجال الدرك بعضهم لبعض : «لا تمسّوه ، فإنه أخ للقيصر» ، فتستطيع أن تظل راقداً ، بغير مكدّر ، إلى الصباح الآخر . وهل تعلم أن القيصر حين يعلم أن العدو دمَّر منزلاً لك سيأمر ببناء منزل جديد لك من المرمر والذهب وحجر اللازورد ، مثل كنيسة اسحق ، فهو غني جداً ، وإن المرء ليتولاه الخوف حين يفكر في مدى ثروته ، وسوف يهديك القيصر أرجوحة ، وقبعة يحفّ بها ريش الطاووس ، وحماماً له فرن عال يتسلق المرء إليه ، وشاياً وسكّر القند ، وقطة كبيرة صفراء من نوع الأنجورا ، وستغدو باروناً ، وضابطاً كبيراً تستطيع أن تعاملهم جميعاً باستخفاف وازدراء ، وأن تبعث بهم إلى سيبريا إذا راق لك ذلك ، عن طريق موسكو وعلى خط مستقيم» .

وسأله الجنرال : «ولكن هل تعمل أجيراً في بيتي ، ما رأيك ياتولّيلا ، في أن تصبح أجيراً في بيتي ؟ » .

وأخلد تولّيلا إلى الصمت .

وردت أجافيا قائلة بدلاً منه : «أجل بالطبع! بالطبع! وهذا يعني إلى أن يتم بناء المنزل الذي سيبنيه له القيصر» .

وضحك بارابان بارابانوفيتش ضحكة تنم عن الازدراء .

«أيتها الغبية ، القيصر لديه من الهموم ما هو أكبر كثيراً من أن يبني منازل لصاحب طباخة» .

« ولماذا ، يا صاحب السعادة ؟ ـ ولكنه سوف يعطيه المال على الأقل ، تعويضاً له » .

« أعتقد أنك مجنونة . إذا حلت المصيبة فلا حيلة فيها ، وإلاّ فلماذا وجدت الحرب ؟ ـ أسرعي الآن ، وأعدّي الشاي في البيت لسيدتك ، لأن الجو بارد » .

وكانت أجافيا مذهولة ، ولكن طبيعتها المتسمة بالخفة والطيش كانت لا تدع للألم سبيلاً إلى الظهور .

وقالت لعريسها تواسيه ، وهي تعود به معها إلى البيت . ثمة شيء وأحد أنت تعرفه ، ياحبيبي ، منذ الآن فصاعداً ستقيم معي ، في المطبخ ، وتنام فوق الموقد! وسوف أوقد لك ناراً عظيمة ، لكي ترقد في جو دافئ . وفي المساء نلعب بالورق ، ونغني إلى منتصف الليل أغنية حديقة الخضار : (أجاروت ، أجاروت ، توريليلي ، توريليلا!) وسيكون ذلك ممتعاً ، أقول لك ، سيكون متعة حقيقية ، وسيكون عيد ، ونزهة! » .

وفي الطريق أدركهما العمدة بلفان بلفانوڤيتش كليهما ، ودفع الفنلندي بخشونة عسكرية فأزاحه جانباً ، ببساطة ، وهمّ بأن يتأبط ذراع أجافيا ولكن أجافيا قاومته بإصرار .

« لا تتجاسر على هذا ، يابلفان بلفانوڤيتش ، لأن الحاكم غيور » وأضافت إلى ذلك قولها وهي تبتسم بمكر : « وربما غارت زوجة الحاكم أيضاً » .

وتنهّد بلفان بلفانوڤيتش ، وأخذت صورة المحكمة العسكرية تلوح لمخيلته من جديد . وكانت أجافيا على حق . وكان موضعه في الفترة التالية

إلى جانب زوجة الجنرال . وأسعده أنه لم يُلاحَظ ، ولذلك أسرع يبتعد من جديد ليحتل موقعه .

ولكن الحاكم وزوجته كانا في طريق العودة إلى البيت أيضاً ، وهما يتنازعان في ألفة زوجية .

وقالت زوجة الجنرال متنهدة بصوتها ذي الجرس الساحر ، الجهوري الرنّان : «غبي! غبيّ ببساطة ، ولا شيء بعد ذلك! كيف يمكن لإنسان أن يبلغ من الغباء ما يجعله يدخل صاحب طباخته في خدمته ؟» .

«ولماذا ؟ ولكن سيظل من اللائق على كل حال ، ألاّ ندع ابن الكلب يرقد في الشوارع بعد أن أحرقوا منزله» .

«ما يليق وما لا يليق مسألة تافهة ، ولكن لا يجوز لصاحب طباختي أن يدخل مطبخي ، ببساطة . سوف يدفعها ذلك إلى الشرود ، وسوف تفسد كل حساء . ولو كان عندك مثقال ذرة من العقل البشري السليم فحسب ، لأدركت أن هذا مناقض لمصلحتك أنت ، عندما يظل صاحب أجافيا يحوم حولها على الدوام» .

«صبراً ، ياروحي ، صبراً ، ولا تغضبي! ومن قال إنه سيبقى ؟ إنها مجرد بداية ، لكي يكون هناك خُلُق ، ولكي يرى الناس أن لدينا قلوباً أيضاً . وسينشأ في الغد باعث لطرد هذا الوغد ، فالله رحيم» .

وفي غمرة هذه الأحاديث دخلا إلى مدخل القصر .

وفي الصباح التالي كانت السفينة الحربية قد غادرت موقعها التهديديّ ، وانسحبت من جديد إلى ما وراء النتوءات الصخرية ، ونجم عن ذلك انفعال بهيج هائل في مدينة آبو ، ذلك لأنه إذا لم يكن كل الخطر قد زال ـ إذ كان

من الممكن أن يبدأ القصف في المساء من جديد ـ فقد تبيَّن للقوم مع ذلك أن ثمة قاعدة مبنية على التروّي في سلوك العدو تحمي من المفاجآت غير المستحبة ، وأن هناك وعداً ضمنياً بتجنّب السكان ، وإلاّ ففيم الصواريخ التحذيرية قبل أن ينطلق الرصاص ؟ لم يكن هذا هو حبّ القتل والإحراق الوحشي البربري الذي يتجرّد من كل إنسانية ، والذي وُصِف هؤلاء به . أمّا أن تقف السفينة في موضع أمام المرساة ، حيث كان في وسع القوم أن يحرقوا المدينة كلها بنَزَقهم ، ليكتفوا في النهاية بمعمل آجر في موقع منعزل ، فقد كشف هذا عن التعمّد ، بل كشف في الحقيقة عن التعمد المنطوي على مقصد حسن . أو كانَ العدو يريد مجرد الإشارة إلى قوته بصورة رمزية ، أم كانت المسألة تتعلق بنزوة جنونية أصيلة ، أي انكليزية حقيقية ؟ هذه هي المسألة التي كان الجدل يحتدم حولها الآن ، ولكن ما عاد الجدل يدور في إطار من الشعور بالمرارة ، بل كان مقترناً بالشعور بالرضى ، بل بالتقدير والاحترام . وكان الفضول المتصل بالكيفية التي سينفذ بها الفصل في المراحل اللاحقة يخالطه فوق ذلك سرور معيّن مع الشك ، لأن شيئاً من التغيير في ذلك الموقع الساحلي المنعزل ما كان ليسفر عن ضرر .

وفي هذه الأثناء كان الحاكم يمثّل مع زوجته مشهداً حول إخراج تولّيلا الذي لا نفع له من المنزل ، الأمر الذي لم يكن صعباً ، لأن الحاكم كان على حق : الله رحيم . ومن أجل هذه الغاية عرفت بيلاجيا إيفانوفنا كيف تفاتحه بأنماط من الشكوى يمكن أن يفهم منها أن الذي يتعرّض للطرد ليس تولّيلا ، بل هي ذاتها . وبكت أجافيا في هذه المناسبة حتى سالت دموعها أنهاراً ، مثلما تبكي القطط على قبر بيتر باولينشين الأشعث* ، وقالت إنها

* شخصية أسطورية في كتاب للأطفال فيه قصص وأشعار وصور لهاينرش هوفمن . «المترجم»

كانت خليقة أن تلحق بعريسها لولا أنْ ردَّها الحرص على أجرها السنوي ، إذ كان هذا الأجر يعني الآن كل ثروة العاشقَيْن . وفي هذه الأثناء لم يصمد حزنها طويلاً بالنظر إلى صحتها الجيدة وفُتُوّتها وثقتها بالله المقترنة بالطيش والمجون ، واعتيادها مواساة الآخرين . وما من شك في أنها كانت تنشج مع توليلا بسبب السباق عندما كانت ترافقه في النزول على السلالم ، ولكن قلما كان هذا يوجد في الشارع ، وهكذا كانت تبتسم له في مرح ، لكي توعز إليه أن يزورها في مساء اليوم ذاته سراً ، وهي تؤكد له أنها ستحفظ له لقيمات طيبة ، وستحافظ على حرارة وعاء الشاي ، ثم تدس في فمه ، بكفها الصغير الناعم البض ، على عجل ، حفنة كاملة من السكر .

ثم تقول له : «والآن قَبِّلني ، ياحبيبي! مرة أخرى! وأخرى!» .

ثم تقدم له أكثر انحناءاتها احتفالية ، وتصعد الدرج وثّابة كالفتاة اللعوب ، وهي تقهقه وتضحك .

وكان توليلا يقلِّب بصره في الشارع من جانبيه ، ثم يقف حائراً . وهنالك انفتحت فوقه نافذة .

وقال الحاكم بصوت مزمجر : «إلى الشيطان» وأوصد النافذة في الحال بصوت مجلجل .

وسار توليلا سير المترنح ، إلى القس .

وقال بصوت خفيض ، وهو يدير قبعته بين إبهاميه : «ياأبانا ، أعطني وظيفة» . وأحس القس الذي كان يعرف مصيبة توليلا التي لم يكن يستحقها ، بالرثاء لحاله وقال : «أي وظيفة تفضل ؟» .

«لا أدري» .

« ما الذي تستطيعه ، وماذا تعرف ؟ » .

« لا شيء » .

« ولكنك تستطيع القراءة والكتابة ، حقاً ؟ » .

« أجل » .

« والألمانية ؟ » .

« قليلاً » .

« والروسية ؟ » .

« قليلاً » .

« وماذا غير هذا ؟ » .

« لا شيء » .

« لا شيء أبداً ؟ » .

« أعرف ما يتعلمونه في المدارس ، في العادة » .

ولبث القس يختبره قليلاً ببعض الأسئلة ، ثم ربّت على كتفه بمودة .

« أنت فتى طيب ، ياتولّيلا! لقد تعلّمت فأحسنتَ التعلُّم ، شأن الفنلندي الأصيل . فارفع رأسك الآن شامخاً ، مثلما رفعه جوستاف ڤازا في مجلس نواب فيستيراز ، وأنشد لي النشيد السادس عشر من كتاب التراتيل ، بأعلى ما تقدر عليه من صوت ، وآمل أن تكون حفظت كتاب التراتيل عن ظهر قلب ؟ » .

وأجاب تولّيلا قائلاً : « أجل » .

ثم وقف منتصب القامة ، وأبعد يديه عن جسمه مع تقويسهما ، ونظر

إلى القس نظرة الجامد المتصلّب ، وأخذ في الإنشاد بصوت جهوري اهتزّت له الجدران .

وقال القس بعد الفراغ من عدد من الشطرات : «طيِّب! هل تريد أن تشغل في دائرة كنيستي وظيفة قائد الموسيقا الكنسيّة ؟» .

«أجل» .

«إذاً فليبارك هذا العليُّ القدير . وسوف نقيم صباح اليوم قداساً ، شكراً للرب على خلاص المدينة من أيدي الأعداء ، وسوف ننشد النشيد السادس عشر» .

وبعد نصف ساعة كان تولّيلا يتنزه في ثياب الجوقة السود وراء أبيه القس ماشياً إلى الكنيسة .

وكانت بيلاجيا إيفانوفنا التي سرّها أنها احتفظت بأجافيا في خدمتها ، وانبعث منها النشاط من جراء المتاعب التي لقيتها في ليلة ساهرة على صهوة جواد ـ إذ كانت أمثال هذه الليالي أيسر احتمالاً عندها من الأكل والنوم ـ تلتمس زوجها في مكتبه لتلقي عليه موعظة وجيزة على سبيل التمرين .

«أرجوك ، قل لي بربِّك ، ماذا يعني هذا ؟ أهذه حياة ؟ الآن ، بعد أن سار كل شي على ما يرام ، تستطيع حقاً أن تجود على زوجتك ببضع لحظات أيضاً» .

«لا يمكن ، ياحبيبتي ، لا يمكن على الإطلاق ، فإن الأعمال الكثيرة التي يترتب عليّ القيام بها لتبعث على الفزع» .

«حماقات! هذه أمور تستطيع أن تحيلها على امرئ آخر . فالحاكم لا يكون لديه أبداً ما يعمله» .

«ولكن بحق السماء ، فكرِّي ، بربك ، ياحبيبتي ، لا بدّ لي من السفر

إلى بطرسبرج لتقديم تقرير عن القصف . وأنت لا تعترضين على هذا فيما أعتقد ، عندما أتلقى تعويضاً عن الخسائر التي عانينا منها ، أم ماذا ؟ وهناك أمل في أن يفضي ذلك إلى مكافأة وترقية . وعلى كل حال فالمحاولة لا ضرر فيها » .

«لقد كان ينبغي لك أن تقول لي هذا على الفور ، ياصديقي! هذا شيء مختلف كل الاختلاف . بالطبع ، بالطبع ، يجب عليك أن تطالب بتعويض ، وبحق الإله لا تكن متواضعاً مثلما كنت في المرات الأخيرة ، فهذه غلطتك الكبرى . ومن عساه يشكر لك ؟ الوَقْواق! وأنت تعرف طبيعة القوم في بطرسبرج . إذا كان الموظف لا يرغب في المال رغبة لا تنقطع حتى لا يعودون يميّزون رؤوسهم من أقدامهم قالوا عنه إنه لم ينجز شيئاً . إذاً فلتقرع هذا الباب بقوة مدوِّية ، ويضاف إلى ذلك صفر صغير جميل ، نظيف ، مدوَّر ، مرتَّب . ولا تتحرَّج ، وإلاّ فمن أجل أي شيء وجدت الدولة ؟ فإن فرن الآجر في حد ذاته تبلغ قيمته مائتا ألف روبل على الأقل ، وفوق ذلك استهلاك الأسلحة والذخيرة ، والتعويض على الضحايا ، وتحسين الرواتب للضباط وضباط الصف الذين أظهروا تميُّزهم ، والحصون التي يجب أن ننشئها إتقاءً لهجوم مماثل ، والخوف الذي تحملته ، والذي لابد لي أن أخضع سنين طوالاً للعلاج من جرائه ، وهكذا دواليك... ومن دون الخيول لا يمكن أن تستقيم أمورنا على المدى البعيد أيضاً . ولا بد للمرء أن يُشرِّف المنصب الذي يتولاه ، وهذا أمر يوافق مصلحة القيصر مثلما يوافقنا » .

« ولكن الخيول ، ياعزيزتي الغالية ، تكلف أموالاً ، يابيلاجيا إيفانوفنا! وهذا يعني استئجار حوذي ، وشراء الشعير والتبن ، والحظيرة ما عادت على ما يرام ، ولابد من إصلاحها » .

«أسفي عليك ، يابارابان بارابانوڤيتش ، أنت ما زلت طفلاً . ومن عساه يقول إنه لابد لنا أن نحتفظ بالخيول ؟ هذا ما كان ينقصنا . ولمن ؟ من أجل السويديات القليلات ، اللواتي يخرجن في ثياب كثياب الطباخات ؟ أم من أجل آباء الكنيسة اللوثريين ؟ أشكرك على هذا . إن الشيء الوحيد الذي يمكن احتماله في هذا الوكر الألماني الملعون هو أن المرء يستطيع أن يحقق أشكالاً من الوفر على الأقل . إن بلفان بلفانوڤيتش وحده سوف يشتري منك الخيول ، فهو يحتاج إليها حاجة ملحة . ففي الأسبوع الأخير فحسب كتب من جديد إلى بطرسبرج ، من أجل ذلك . وأخيراً ، هل تعرف ، بمناسبة حديثنا عن بلفان بلفانوڤيتش ، ياحبيبي ، إنه يظل في أساسه فتى طيب القلب ، بلا ريب ، على الرغم من خشونته وكونه غير مثقف ، إلى حد ما : ولن يبلغ بك الغباء ، على ما أرى ، أن ترفع دعوى ضده ، بسبب عدد من التصرفات الشاذة التافهة ؟» .

«لا خطر ، ياروحي العزيزة ، هذا أمر لا يخطر ببالي . وما يعني هؤلاء من أهل بطرسبرج ؟ سوف أغسل مخه قليلاً ، هذا كل شيء!» .

وحين فرغ الحاكم من تقريره ، وأرسله مع المساعد ، جعل يفرك يديه ، وقال وهو يطرق برأسه ، متهكما : «الإنكليز قوم أغبياء . لقد قصفونا بالروبلات ، ألا يروق لكم ، ياسادتي أن تعودوا إلى القصف من جديد ؟ أنا في خدمتكم! هيّا تفضلوا ، فسوف تكون لكم بذلك أيادٍ عليّ!» ثم سار ، مزهواً بنفسه ، خالي البال ، إلى مسكن العمدة ، وشتم هذا الذي كان ما يزال يغط في نوم عميق ، حتى أفاق ، وحدثه بصوت مكتوم ، زمناً طويلاً ، بلهجة المتوعِّد ، إلى أن أسلس هذا قياده وبات ليِّنا مطواعاً ، مثل قفاز حفلة الرقص ، ووعده بالأيمان المغلَّظة ألاّ يجنح أبداً في حياته من جديد إلى السرقة وحده لحِسابه الخاص .

وختم العمدة توكيده بقوله : «ولكن لفافات التبغ ، ياصاحب السعادة ، هل تسمح لي أن أقدم لك اللفافات ؟» .

وقال الحاكم مندهشاً : «اللُّفافات ؟ ولماذا اللُّفافات ؟ ومن أين اللفافات ؟» .

وقال العمدة وهو يبتسم ابتسامة الرضى : «أصلية! من تِنْكادو ، من لائحة أسعار نيڤسكي . تلقيتها أمس عن طريق ساعي بريد راكب : أتريد ناراً ، ياباراباان بارانوڤيتش ؟ أتريد ناراً ؟ ها هي ذي! ـ أرجو أن تشرفني! ومن أجل بيلاجيا إيفانوفنا أوعزت بإرسال ألفي قطعة من اللفافات ، المحشوة المدكوكة ، من (لافيرم) ، الثقيلة ، بعد ظهر اليوم . وإذا سمحتم فسوف يسرني أن أسلمها هذه اللفافات بنفسي» .

«يالك من فارس يستحق المحبة ، في أعماقه ، يابلفان بلفانوڤيتش . نبيهٌ دائماً ، شهم على الدوام . إن زوجتي لتشتاق إلى اللفافات منذ زمن طويل . تصوَّرْ ، أرجوك ، أنت لا تصدق ، ما عاد لديها بعدُ سوى ثمانين قطعة . وفي حالة الحرب ، من أين ينبغي للمرء أن يدبر ، في حالة الاستعجال ، لفافات جديدة ؟ ولدينا الكثير مما نتحدث عنه ، فهذه الحرب تظل بلا ريب ، في كثير من الأحيان ، مسألة مزعجة حقاً . لقد شرفتني ، يابلفان بلفانوڤيتش! ـ إلى اللقاء!» .

وحين عاد الحاكم إلى قصره ، فاجأه أن رأى جمهوراً من الناس أمامه .

وسأل أحد الجنود قائلاً : «ماذا ، أيها الأخ ؟» .

«إنه حامل راية بيضاء ، إنكليزي ، ياصاحب السعادة» .

«وكيف هذا ، أتعود الحكاية من جديد ؟» .

«بالضبط ، ياصاحب السعادة ، كما تقول ، ستعود الحكاية من جديد ، على ما يبدو ، وهذا يعني ، عندما تأمر بذلك ، ياصاحب السعادة» .

وأسرع الجنرال إلى دخول قصره وهو يضحك ، وصاح بحامل الراية البيضاء يناديه على البعد : «أهو قصف ثانٍ ؟ أنا في خدمتكم» .

وردّ الإنكليزي ، بعد تحية قصيرة ، متصلّبة ، بلهجة لا مبالية ، قائلاً : «كلاّ ، ياصاحب السعادة ، فسوف نستأنف رحلتنا اليوم . وقد أتيت لتقدير الأضرار ، والتعويض» .

واعتقد بارابان بارابانوفيتش لدى الوهلة الأولى أنه لم يسمع على الوجه الصحيح . ولكن لما كانت لديه على الدوام أذنان صاغيتان للدفع من قبل الآخرين ، وإحساس متيقظ ، فقد انسجم بعبقرية حقيقية ، وبسرعة البرق ، مع الموقف الجديد ، وشرع على الفور برفع مبلغ التعويض .

«هذا المُزاح يكلّفكم ستمائة ألف روبل ، ياسادتي ، ولا كوبيك أقل من ذلك . وتستطيعون أن تعدّوا هذا الثمن هدية . فقد كان معمل آجر فخماً ، جديداً كل الجدة ، أنشئ قبل أربعة أشهر فحسب ، ومعه مسكن ، ومخزن ، وحديقة ، وأثاث جديد لمّاع ، كان علبة مجوهرات حقيقية ، أقول لكم ، ستمائة ألف روبل ، في كفيّ ، أو نوعز بنسف سفنكم في الهواء . ولابد لكم أن تعلموا أنكم أصبحتم في مصيدة فئران . فلدينا على الصخور الناتئة على الساحل بطاريات مموّهة تحيط بكم ، وقاع البحر كله جاهز للنسف» .

ولكن الإنكليزيّ أصر على تقدير الأضرار بنفسه ، فعصبوا عينيه ، وقادوه على نحو متواصل بإيعازات للجهات المختلفة ، إلى موضع الحريق ، ومع كل خطوة كان الضرر يزداد .

وقال حامل الراية البيضاء بهدوء : «أربعمائة ألف روبل» بعد أن تفحص الأنقاض .

وقوبل المبلغ بتحية تنم عن الدهشة ، بل الإعجاب ، إذ تجاوز هذا المبلغ ستة أضعاف الخسارة . ولكن الحاكم استشهد ، وهو يصطنع كل الحركات واللفتات الدالّة على اليأس ، بكل قديسي الدنيا والآخرة في الأورال ، على أنه يُسْرَق سرقة تدعو إلى الرثاء ، وأخيراً ، عندما تأهب حامل الراية البيضاء للانسحاب ، تنهد قائلاً : «أنت تدخل في حسابك طيب القلب الروسي ، ياسيدي! فأنت تعرف أن الروسي طفل يجوز للمرء أن يقدم له كل شيء . ولكن أنت على حق ، إذ أننا لن نتحرر من هذه النقيصة كل التحرر أبداً ، وإن كنا نعاني ، من جراء ذلك ، الغبن من جانب أوروبا في كثير من الأحيان . فأعطني ، باسم الله ، ومن أجل خاطر السلام ، إذا لم يكن من الممكن أن يكون المبلغ غير هذا» .

وقال الإنكليزي : «أين المالك ؟» .

وشحب وجه الحاكم شحوب الأموات .

وقال الحاكم وهو يصرّ على أسنانه : «ولماذا تريد المالك ، أتراك تحسب أنني أريد أن أختلس المبلغ ؟» .

وأصر حامل الراية البيضاء على رغبته ، وظل طوال نصف ساعة واقفاً برزانة وصبر ، وقفة الحارس ، إلى أن تم العثور على تولّيلا في الكنيسة ، وجيء به إلى المكان في ثياب الجوقة . وطلب الإنكليزي الآن ، فوق ذلك ، العمدة ليكون شاهداً ، وحين تقدم هذا ، اضطر إلى العودة إلى بيته ، لأنه نسي أن يرتدي وشاحه ، ثم إنه علّق الوشاح على الكتف الأيسر بدلاً من الأيمن . وكان التوتر يزداد زيادة مطردة ، وكان ما أثار ريبة المواطنين

احتمال أن تكون هذه المماطلات مجرد ذريعة لرفض الدفع آخر الأمر ، وإذا حامل الراية البيضاء ينطق بكلمته المنتظرة : «كل شيء على ما يرام ، وبدون مقدمات ، فتح حقيبة رسائله المحشوّة بأوراق النقد .

وقال الحاكم وهو ينفخ مغيظاً محنقاً : «أعتقد أنك مجنون . لا يمكن أبداً أن تدفع لابن الكلب هذا ، مقابل كوخه الخشبي البائس ، التافه ، العَفِن ، أربعمائة ألف روبل بتمامها وكمالها! فهذا الفتى يسرقك بأشد الطرق إثارة للغيظ ، ولا يساوي كوخه أربعين ألفاً ، ولا عشرين ألفاً ، ولا عشرة آلاف . فلتعطِ هذا الوغد بقشيشاً ورفسة في ظهره ، والله معه» .

ولم يلتفت الإنكليزي أدنى التفاتة إلى غضب الجنرال ، بل عدّ لتولّيلا النقود وسلمه إياها في يده ، وطلب من العمدة أن يحرر له إيصالاً بذلك ، وعلى أثر ذلك أعلن أن مهمته انتهت ، وأشار إلى القوم أن يعصبوا عينيه ، وسار معصوب العينين ، إلى الميناء ، مصحوباً بجمع من الناس هائل يتنامى على نحو مطرد ، وكان هؤلاء يحملون قبعاتهم في أيديهم .

وبعد الظهر ، وبينما كانت الفرقاطة ترفع مراسيها لتقلع إلى بيورنبورج ، كان نصف اثني عشرية من قوارب الصيادين التي تحمل الرايات البيض يسير متأرجحاً بين النتوءات الصخرية البارزة من الشاطئ . وكان يسمح لركابه بالدخول إلى سطح المركب ، فرادى مع مراعاة كل الإجراءات الاحتياطية ، والحذلقات . وكان هؤلاء فلاحين فنلنديين طيبين ، غير مسلحين ، يفتقرون إلى اللباقة ، لا يعرفون ما ينبغي لهم أن يقولوا ، وهم يديرون القبعات في أيديهم . وأخيراً شرع كبيرهم قائلاً : «أيها العمدة ، نحن نقيم في النتوء الصخري الثاني ، هناك ، قبالة مصب النهر ، والحياة صعبة في هذه الأيام ، ياحضرة الملازم! ولا نستطيع أن نبيع لستوكهولم

بسبب الحرب ، وفي فنلندة لا توجد نقود ، وهكذا فكرنا ، ياحضرة القبطان ، لأننا جميعاً لوثريون ، ياحضرة الجنرال ، قليلاً ـ أنت تعرف ، القنبلة ، القنابل الكثيرة ، قصف قريتنا ، ياحضرة الأميرال ، إذا تفضلتم ، فنرجو » .

وكان مضمون كلام سائر الوافدين مماثلاً لهذا . وكان يحدث لهؤلاء شيء مماثل لهذا على كل الطريق إلى بيونبورج . ولكن كان يوجد أمام بيورنبورج ، خارج نطاق النتوءات الصخرية ، أسطول كامل على أهبة الاستعداد ، مما حمل الإنكليز على أن يسرعوا ، وقد تولاّهم الفزع من الحماسة الطاغية للقصف ، إلى الانعطاف نحو الجنوب ، على أمل أن يَلْقوا في هلسنكي سكاناً يمكن التفاهم معهم بصورة أسهل ، ويتسمون بقدر أقل من العداوة .

وربما كان قد انصرم نحو ثلاثة أسابيع على وجه التقريب بعد انسحاب الإنكليز ، حين تركت أجافيا مكان خدمتها ، بسبب الزواج ، على الرغم من كل رجاء ووعيد ، متنازلة عن أجرها ، الذي تلقته آخر الأمر ، فيما بعد بدافع الرحمة ، وإذا أحداثٌ تحدث ذات صباح في مكتب الحاكم ، على نحو رهيب . كان بارابان بارابانوفيتش وبلفان بلفانوفيتش يقعدان في وسط الحجرة ، شاحبين ، مثل خاطئين مسكينين ، ما يفتأان يسعلان التماساً للهواء ، ولكلماتٍ يجدان فيها مخرجاً . ولكن كان شاب رقيق نبيل ، في حلة مدنية فائقة الأناقة ، يدخن لفافة ، وكان يقوم من حين إلى آخر بحركة يقلِّب بها يده في استرخاء ، وينظر من فوق كتفه في اتجاه نصف خلفي ، ويوجه ، بصوت رقيق حاد ، سؤالاً إلى الأول أوالآخر ، أو إلى كليهما في الوقت ذاته .

« في الثاني من حزيران ، ياسادتي ، أرسلنا إليكم ، بناءً على طلبكم ،

ثلاثة آلاف بندقية ، ترى هل يزعجكما أن تخبراني ماذا حدث لهذه البنادق ؟ » .

وطفق الجنرال والعمدة يسعلان عبثاً ، في التماس لعذر أوحجة .

«لا بأس . فهمت . أشكركما ، لا تكلفا نفسَيْكما جهداً بعد هذا ، ولكن ربما كنتما تريدان الآن ، إذا تفضلتما ، أن تدليا بمعلومات ، إذا كنت لا أكلّفكما قدراً مفرطاً من الجهد ، عن مسألة لماذا لم يتم الشروع بعد في إنشاء الحصون لحماية الساحل ، وهو ما تلقيتم من أجله الأموال والمواد منذ عامين ؟» .

وقال بلفان بلفانوڤيتش ، لفيودور جريجوروڤيتش ، لاهثَ الأنفاس ، بغضب مصطنع : «لماذا لم يتم الشروع في الإنشاء! في وسعك أن ترى القبر هناك عند القصر ، تستطيع أن تراهُ بأم عينيك ، يافيودور جريجوروڤيتش . أرجوك ، كلّف نفسك بعض الجهد ، وسوف أريك هذا » .

ومع هذه الكلمات نهض قائماً .

« لا ضرورة لهذا البتة ، يابلفان بلفانوڤيتش! لا أريد أن أسبب لك الإزعاج . أرجوك ، اجلس من جديد . أنا لا أشك أدنى شك في حقيقة أقوالك . القبر يوجد عند القصر ، وأنت تقول هذا ، ولذلك أصدقه ، بل أصدقه أكثر من تصديقي أنه قائم هنا منذ ستة وعشرين عاماً ، وقد دُفِعت تكاليفه من قبلنا خمس مرات ، كما أستطيع أن أثبت لك ذلك من أوراقي ، إذا كلفت نفسك جهداً ، للتأكد من ذلك» .

ومضى الحوار على هذا المنوال ، ساعات طوالاً ، طوالاً بلا نهاية ، طوال فترة ما قبل الظهر . وعبثاً كان الضابطان التعيسان يتطلعان نحو الباب ، لعل فارساً يدخل . وكان الشاب الرهيب قد أدار المفتاح في القفل

من الداخل . وأخيراً ، في الواحدة والنصف ، أشعل فيودور جريجوروفيتش لفافة جديدة ، وأغلق حقيبته بعناية ، ونهض قائماً ، وانحنى للتحية ، وقال بابتسامة مجاملة : «لا بأس ، ياسادتي ، أشكركم ، لقد انتهينا! اغفرا لي أنني اضطررت إلى إجهادكما كل هذا الوقت ، واسمحا لي الآن أن أسألكما في الختام ، أليس من الممكن بالقياس إليكما أن تصحباني ، بعد الإفطارعلى الفور ، إلى بطرسبرج ؟ فالناس هناك أبعد من هنا كثيراً عن الارتياح ، وفي وزارة الحربية يمكن أداء الأعمال بسهولة أكبر» .

وترنّح كلا المذنبين ، اللذين كانا قد نهضا أيضاً ، عند هذا الجواب حتى لقد اضطرا إلى الإمساك بمسند الكرسي ، وفقدا كرامتهما في مواجهة العقوبة التي تتهددهما .

وقال بلفان بلفانوفيتش يتملقه : «أرجوك ، يافيودور جريجوروفيتش!» وتقدم من الموظف المكلّف بالتحقيق ، ثم قال : «ماذا تجني من هذا في النهاية ، عندما يخفّضون رتبتنا ، وينقلوننا ؟ وأنت نفسك تخدم الدولة ، وكيف ستغدو حالة وطننا المسكين إذا أراد الواحد منا أن يبلغ عن الآخرين ؟» .

وهزَّ الموظف كتفيه آسفاً ، من دون أن ترتسم على وجهه ملامح موقف ما .

وتكلم بارابان بشيء من التأثر يخالط صوته العسكري المتسم بالزهوّ ، قائلاً : «لقد كنت أنت أيضاً في باريس ، كما يجب عليَّ أن استنتج من أناقة لغتك ، وثيابك ، وتعرف ، من جراء ذلك ، أصول اللياقة في معاملة النساء . وإنّ لي ، يافيودور جريجوروفيتش ، زوجة سيقتلها الهم من جرّاء عاري» .

وانحنى جريجوروفيتش ، وقال : «إن وظيفتي لتبعث على الألم ، إذ ترغمني على أن أجرّ الهموم على سيدة ، ولكن واجبي يأمرني ، وضميري» .

وهنا استشاط العمدة غضباً على نحو مفاجىء ، وزمجرقائلاً : «الواجب ، والضمير ؟ الواجب والضمير ؟ وأسفاً عليك ، وأنت تزعم أنك روسي ، يافيودور جريجورفيتش ؟ هلاّ أسديت إليّ هذا المعروف الوحيد ، وتركت النفاق للألمان والإنكليز!» .

وشحب وجه فيودور جريجوروفيتش ، وارتعشت شفتاه ، وقال وهو يلقي على العمدة نظرة ثاقبة نفّاذة ، واخزة ، كنظرة الذئب ، بلهجة المتحكّم المسيطر : «ما من شك ، يابلفان بلفانوفيتش ، بل من الممكن جداً ، أن يوجد بين الروس أيضاً واجب وضمير ، وما كل الناس بلصوص ونصابّين ، وإن كانت دولتنا تعجّ بأمثال هؤلاء مثلما يعجّ المستنقع بالسمندر . أمّا ما يتعلّق بي فأرجو أن تشرّفني بأن تصدّق أنني سأسهم بالقسط الواجب عليَّ من أجل تنظيف المستنقع ، وفي وسعك أن تعوّل على ذلك ، يابلفان بلفانوفيتش ، وإن ترتّب عليَّ أن أبعث بالجنرالات ، والعقداء ، والعُمَد ، أفواجاً أفواجاً ، إلى سيبيريا!» .

وهمّ الحاكم أن يهدئ ثائرته بأن يقول : «لا تغضب ، بربّك ، يافيودور جريجوروفيتش بسبب كلمة متهوِّرة» .

ولكن ذاك الرجل كان واقفاً لدى الباب ، وأدار المفتاح بيد مرتعشة ، من دون أن يجود على الضباط إلاّ بإحناءة رأس قصيرة ، تنم عن الازدراء ، مودّعاً . وحين فتح الباب ، أصابته الدهشة ، وظل واقفاً بلا حراك ، بينما كانت تغشى وجهه الشاحب العصبي ، المختلج ، حمرة داكنة .

وذلك أن زوجة الحاكم كانت تقف وراء الباب ، في ثوب من المخمل الأسود ، جميلةً كالملاك ، مُغْوِيةً مثل بولونية ، ونبيلة مثل روسية . وكانت ابتسامة تنم عن اللباقة تنساب على كل شخصها ، بينما كانت تحيي الضيف الماكر ، ومثلما لاحظت وقع المفاجأة التي أحدثها جمالها ، وجدت على الفور أكثر الأنغام براعة في سِجِلِّ صوتها .

« كم يسرّني أن أحظى بهذا الشرف آخر الأمر! أتعلمون ، ياسادتي ، أنني أنتظر على الباب منذ ساعة ، مثل محظية للسلطان ، لكي يتاح لي شرف دعوتكم جميعاً ، إلى طعام الإفطار . أمّا اللباقة في معاملة النساء فلا تتصفون بها ، وهذا أمر لابدّ لكم من التسليم به بأنفسكم ، إذ لم تحسّوا في قلوبكم بقربي منكم . ومن هذا يلاحظ المرء كيف يكون الواحد من الناس متزوجاً ، وكيف يكون متقدماً في العمر . سيدي أنا مدينة لك بالشكر ، إذ لا بد أنك سلَّيت زوجي تسلية ممتازة حتى لقد نسي إفطاره كل النسيان ، وهو أمر لا يحدث له على مدى السنة كلها في الأحوال العادية . هل يمكن أن أرجوك أن تعيرني ذراعك ، وتذهب بي إلى حجرة الطعام ؟ أنا أرتعد بالطبع . وما عساك تظن بي ، فأنا لا أكاد أجرؤ على أن أعترف لك بذلك ، ومنذ أن غدت أجافيا غير مخلصة لي ما عاد لديَّ من طباخة سوى فنلندية غبيّة . ولذلك لا أستطيع أن أقدّم لك على الإفطار سوى سمك السلمون ، والشواء ، وشيء من لحم الصيد . ويابلفان بلفانوڤيتش ، معك لا أحتاج إلى التكلف ، فأنت صديق العائلة العزيز القديم ، وسوف تأكل معنا على أية حال ، على شرف الضيف النادر » .

ودافع فيودور جريجوروڤيتش الذي أصابه سحر المُغْوِيَة في قلبه ، عن نفسه بشجاعة . وأجاب متلعثماً ، ولكن بحزم وتصميم ، قائلاً : «سيدتي ،

لابدّ لي من حرمان نفسي من متعة قبول دعوتك الكريمة ، على الرغم من أن هذا يُثقِل عليَّ ، فأنا لست وحدي ، إذ وصل معي ضابطان ، رفيقان من بطرسبرج ، في الوقت ذاتة ، إلى هنا ، وهما في انتظاري في المقهى » .

واستجمعت زوجة الجنرال كل قدرتها على الاستيعاب .

وقالت شاكية : « لكم يؤسفني هذا ، ولكن اسمح لي ، ما اسمك ؟ » .

« فيودور جريجوروڤيتش » .

« لكم يؤسفني هذا ، يافيودور جريجوروڤيتش! ومع ذلك فأنا لا أريد بالطبع أن أبيح لنفسي التأثير على إرادتك ، كما لا يحق لي أن ألزِمَك ما دمت مضطراً ، مع الأسف ، إلى الاستغناء عن صحبة زوجي على الإفطار ، ولديه اليوم أعمال ملحّة في القصر ، يبقى معها حتى ساعة متأخرة من المساء . أما بلفان بلفانوڤيتش فأنا أعرفه ، إذ لا تلين له قناة أبداً ، بقبول دعوة ، مهما ألحّ عليه الناس في ذلك . غير أن تسلية سيدة ، ولا سيما إن كانت من الريف ، لا تبعث ، بالقياس إلى سيد شاب من بطرسبرج ، كما يحق لي أن أظنَّ به ، إلاّ القليل من الاهتمام بالاكتفاء بمثلها » .

وكان فيودور جريجوروڤيتش ما زال يبلي بلاء حسناً في المقاومة ، على الرغم من صمته وشحوبه الذي يضاهي شحوب الأموات ، واختلاجِ شفتيه ومع ذلك فقد استغل الجنرال تردُّده في هذه الأثناء .

وقال بصراحة ، وبأسلوب طبيعي ، وبكامل شهامة رب البيت : « إذاً فإلى مساء اليوم! هل يمكن أن آمُلَ أن تعذرني على غيابي حتى ذلك الوقت ؟ » ، ولم يشعر إلاّ وقد توارى .

وانبثق في الجانب السفلي من محيّا بلفان بلفانوڤيتش ، على نحو

غامض ، إحساس داخلي بأنّ من المفترض أن يتحقق إنقاذه ، إلاّ أنّ تصوّر سمك السلمون ، ولحم الصيد أثار صراعاً حاداً في سريرته ، واحتاج الأمر إلى نظرات لا لبس فها من قبل زوجة الحاكم إلى أن قرّر تفادي الذهاب .

وقال آخر الأمر بصوت مجلجل ، مودعاً : «هذا يشرّفني» ، وأضاف أثناء ذلك ، مشيراً إلى أنه ليس الأكثر غباءً ، مع غمزة ماكرة من عينيه : «أتمنى لك إفطاراً شهياً ، يافيودور جريجوروڤيتش!» .

ونهض هذا قائماً بسرعة ، كمن لدغه عقرب ، ولكن بيلاجيا إيفانوفنا هدأت ثائرته على الفور ، بلباقة .

وقالت ترجوه وهي تضع إحدى يديها على ذراعه : «لا تسخط عليه يافيودور جريجوروڤيتش ، فإنه جندي فظ غير مثقف ، وإذا كان المرء يشعر بالإهانة من جراء عدم رقته فأنا على يقين من هذا . والآن ، هل تسمح لي أن أجْزِيّك فوق هذا مقابل افتقاره إلى الدبلوماسية ؟ وما الذي تقدر عليه امرأة مسكينة مهجورة ؟ تعال يافيودور جريجوروڤيتش ، فإني أُسَرُّ سرور الأطفال بأن أسمع منك أخبار بطرسبرج والبلاط ، لا ريب أنك تسافر كثيراً في أرجاء الدنيا الواسعة» .

وقام فيودور جريجوروڤيتش بحركة لتحرير ذراعه ، وأمسك خطوة . وإذا هو يقبل فجأة يد زوجه الجنرال قبلة عاصفة ، من دون أن يعرف هو نفسه لماذا ولأي سبب ، وابتسمت له زوجة الجنرال تبدي استحسانها ، ببساطة .

وقالت : «ها نحن أولاء نرى رجل المجتمع الأصيل ، الشهم في معاملة النساء! أنت تعرف كيف يكون الإيقاع الحسن ، يافيودور جريجوروڤيتش ، أعتقد أننا سوف يفهم كل منّا صاحبه! ياإلهي! هنا في هذا الكوخ البائس لا

تتعرض المرأة للتدليل بألوان اللباقة في معاملتها ـ كلاّ ، أنت أولاً ، فأنا هنا في منزلي ، ـ والآن عندما تأمر فحسب...» .

وبُعَيْد ذلك تلقى الحاكم الجنرال بارابان بارا بانوڤيتش ستوبيينكين ، لدفاعه البطولي عن مدينة آبو ، وسام ألكسندر نيڤسكي ، مع منحه معاشاً تقديرياً سنوياً قدره عشرة آلاف روبل ، من دون مساس بتسميته فريقاً في الجيش ، ونقله إلى واحدة من أكثر حكومات الجنوب الروسي إدراراً للمكاسب ، حيث أتيحت لبيلاجيا إيفانوفنا الفرصة لطلب ثلاث من الطباخات الروسيات بدلاً من واحدة ، وطلب تحضير الدجاج البري بالحساء السويدي . أمّا بلفان بلفانوڤيتش فقد رقِّي ، بالنظر إلى امتيازه الشخصي أثناء القصف إلى رتبة عقيد .

أما توليّلا فقد بنى في ربع السنة التالية معملاً لتقطير الخمور ، كبيراً بما يكفي ليروي ظمأ فنلندة كلها ، بالقرب من ڤيبورج ، إذ كانت أجافيا تريد على وجه الإطلاق أن تسكن على الحدود الروسية ، لكي تستطيع ركوب العربة في الشتاء فوق جبال بطرسبرج «السويسرية» . وفي الخريف ، حين تم الفراغ من إنشاء المؤسسة التي كانت فاتحة خير ، أقاما حفلة زفاف متألقة في منتدى آبو الاجتماعي ، تمّ فيها التهام كميات هائلة من اللوز ، والزبيب ، والبندق ، والنوجا ، وكعكة الخوخ وسُكّر القَنْد . وكان بلفان بلفانوڤيتش والعمدة عرابَيْ العروسين ، وكانت الفرقة الموسيقية للكتيبة تعزف أثناء المأدبة ، وبعد تناول الوجبة ظهر كل قوزاق الحامية ضيوفاً ، يرقصون في الشارع ، ويصخبون ويشربون ، إلى أن رقدوا أكواماً أكواماً على الأرض أمام الأبواب ، مثلما يكون في الفردوس .

وقالت أجافيا وهي تبتسم ابتسام الرضى وقد سَعِدت روحها ، حين

نزلت إلى الشارع في المساء ، وتاج العروس ذو الوميض على رأسها ، فوق أكوام السكارى على أرض الشارع ، متوجهة إلى العربة : «ماذا قلت لك ، قلت لك : الله رحيم . بالأمس قصف ، واليوم زفاف ولوز . وهذا يعني أنه إله أرثوذوكسي ، روسي ، طيّب . أتسمع ؟ ـ هل تعرف ياحبيبي أنك الآن سيدغني عظيم ، ليس تابعاً لأحد سوى القيصر . ومنذ الآن فصاعداً يجب عليك ، عندما أقول : أتسمع ، أن تجيب دائماً : «أطيع مثلما يفعل السيد المثقف» .

وغمغم تولّيلا قائلاً : «أطيع» .

ثم ركبا العربة ذات العجلتين ، وجعلا يسيران بها وهي تصرّ في مثل عَدْو الخبب ، باتجاه البّر ، في رحلة الزفاف ، إلى تامِرْفورس* .

وصاحت أجافيا مهلّلة بينما كانت العربة القاسية تطوّح بها ذات اليمين وذات الشمال مثل التبن في ساحة الدّراس ، حتى لقد كانت عظامها تطقطق ، مثلما يكون الحال في جُرْن بالضبط! : «ما أمتع هذا وما ألذّه!» .

أما قس آبو الذي عيّنه تولّيلا عندما كان في أشد ساعات المحنة ، رئيساً للجوقة الموسيقية في الكنيسة فقد أوعز تولّيلا بتعيينه مفتشاً لمعامل البراندي في منطقة فيبورج عرفاناً بالجميل ، إذ كان تولّيلا قد اكتسب من جراء ثروته ، خلال وقت قصير ، نفوذاً كبيراً لدى الإدارة المحلية .

ولكن حتى هذه الأيام يقول السويديون في آبو عندما يرون إنساناً تلوح عليه مظاهر الثروة فجأة : «هذا فتى الألوف! انظروا إلى هذا! ياللعجب! إما أنه ورث عن عمه ، شيطان ڤيكسيو ، وإما أنه تعرّض للقصف!» .

---

* الاسم السويدي لمدينة تامربيري على بحيرة ناسي جارفي .

الملازم كونْراد

الملازم كونْراد

ملاحظة تمهيدية للمؤلف

أنا أفهم «التصوير» عل أنه شكل فني خاص من أشكال القصص النثري ، له هدف خصوصي وقواعد أسلوبية خصوصية تخدم هذه الهدف بحكم كونها وسائل تفضي إليه . أما الهدف فهو معايشة الحدث بأكثر الطرق التي يمكن تصوُّرها عمقاً وحرارة ، وأما الوسائل إليه فهي وحدة الشخصية ، ووحدة المنظور ، واطّراد التقدم الزمني ، أي تلك القواعد التي نعيش بموجبها في الواقع .

وبمزيد من الشرح : يتم تقدم الشخصية الرئيسة على الفور مع الجملة الأولى ، ولا تُتْرَك أبداً منذ هذه الجملة فصاعداً . ثم إنه لا يتم الحديث إلاّ عمّا تحس به تلك الشخصية أو تعيه وتدركه ، ويتم هذا أيضاً بالطريقة التي تنعكس من خلال وعيها وإحساسها . وأخيراً فإن الحدث تتم مواكبته ساعة فساعة ، في نقل أمين عن الحياة ، بحيث لا يبيح القصاص لنفسه أن يتخطى أية فترة زمنية على أنها غير ذات أهمية فيما يدّعي . وينتج عن القاعدة الأخيرة ، مرة أخرى ، ضرورة ترك الحدث ليحدث وينتهي خلال ساعات قلائل .

ومن البدهي أنه ليس كل مادة تتلاءم مع «التصوير» ، بل على النقيض إذ لا يتلاءم معه سوى النوع الوحيد من المواد ، وهي المواد المكثّفة التي تشكل وحدة متكاملة (أي «المسرحية») ، بصرف النظر عن الشذرات (Fragment) ، ومع التحفظ فيما يتعلق بالأخطاء . بل لا يتلاءم من بين هذه سوى تلك التي تسمح بتقديم مجمل الموضوعات الهامة قبل الحسم مباشرة . وعندئذ تتم ملامسة الخيط الأساس للأحداث قبيل الحدث وتتم حياكته تبعاً للإرادة التي تمليها الحقيقة . فإذا ثبت ، في حالة المواد الغامضة («التراجيدية») ، مع وجود العدد الكبير من الشخوص ، بعد موت الشخصية الرئيسة ، أن هناك ضرورة لملحق ختامي ، لترك الحدث ينتهي إلى غايته من جميع الجوانب ، عند ذلك يتم إعداد الملحق الختامي من منظور شخصية رئيسة ثانية ظلت على قيد الحياة بعد وفاة الأولى ، وفقاً للقواعد ذاتها .

كان كونراد ريبَرْ ، الملازم الشاب ، من قصر «الطاووس» ، في هيرليسدورف ، يتجول في الحظيرة ، وهو يمرّ بالخيول التي كانت أعناقها تشرئبّ لدى وصوله ، وتُعَدِّل وقفتها في شيء من الجُلَبة . ولكن ليسي الحمراء ، في أقصى الخلف ، في الركن ، نظرت حواليها في ثقة ، ورفعت ذيلها ، وباعدت بين فخذيها .

وقال الملازم : «ما الأمر ياليسي ، قولي ماذا تريدين أن تَشْكي إليّ ؟ أتفضلين أيضاً ممارسة عَدْوِ الخبب في ميدان التمارين في فراوينفيلد ، في الخامسة من صباح الغد الباكر ، عندما تدوي الأبواق في الآذان ، واستعراض النوافذ في يوم الأحد قبل الظهر ، وفي المساء الآنسة الجميلة التي تداعب عُرْفَك ، وتهب لك قطعة صغيرة من السكر ، ولي قبلة صغيرة ، بدلاً من نقل

السماد إلى الأرض الزراعية عندنا ، والتوبيخ والوجوه الكالحة طوال النهار! إلى اليسار ، إلى اليمين ، انحني ، تمَطْمَطي ، ولابد من السباب على كل الأحوال . فإذا توقف السباب بدأ التنهُّد . ولكن ما رأيك ، ياليسي ؟ ألا ترين أنت أيضاً ، عندما تتجاوز المسألة حدها فهذا أمر لا يطاق ، وعندما يطول أكثر مما ينبغي فلا بد أن تكون له نهاية ، هكذا ، أو هكذا ، ووراءه ، أو من أجله ، طوعاً أو كرهاً » .

ومع هذه الكلمات ضرب بكفه المنبسط ظهر الفرس حتى تمايلت من فرط انسجامها .

ولما كان الحصان المبرقش والحصان المسمى بالطير المائي يكشر كلٌّ منهما لصاحبه عن أسنانه في تنافس على العلف ، صارخين من فرط الكراهية ، فقد رفع سوطه عن النافذة ، وضربهما به بضع ضربات مدوِّية على بطنهما ، حتى وثبا مختلجين مثلما يفعل السمك النهري عند العاصفة .

وقال بلهجة الآمر : «السلام ، باسم الثالوث الشيطاني المقدس! أوَ لابدّ من الشجار في هذا المنزل النَّكِد حتى بالقياس إلى البهائم ذوات الأربع» .

وبعد أن وضع ، فيما بعد ، على ركبتيها قمّاطة ، احتياطاً لما بعد ، ظل واقفاً ، رافعاً يده استعداداً للضرب ، إلى أن هدأت حدة الثورة ، وبات يُسْمع صوت الأكل والقضم بملء الشدقين ، متوازناً متجانساً ، من كل المعالف . ثم اندفع بخطاً غير مسموعة نحو مشكاة النافذة ، وعلق السوط على المسمار ، واحتفظ مع ذلك بالقبضة في يده التي لم يسحبها خلسة إلاّ بعد وقت طويل . ثم لبث بغير حراك مستنداً إلى حافة النافذة .

واختلج قضيب من الضوء أبيض في الزوايا الميتة من خلال باب

الحظيرة ، فأفزع طائري سنونو هربا بسرعة البرق من خلال شق الباب . واستقرت يدٌ واهِنة على سلسلة القفل . وسأل صوت نسائي من الخارج ينم عن الألفة : «أهذا أنت ياكونراد ؟» ، ثم قالت راجيةً بإلحاح : «افتح ياكونراد ، فأنا آنا ، أختك» .

وردّ قائلاً بلهجة حاسمة : «باب الحظيرة يظل مغلقاً ، وفي مقابل ذلك يكون باب مستودع الأعلاف الصغير مفتوحاً» . وبعد بضع ثوان كانت الأخت قادمة تتلمس طريقها بحذر ، إذ حجبت الرؤية عنها ظلمة الحظيرة ، بين الجدار والبالوعة ، وهي تجمع أطراف ثيابها بيدها .

وتلقاها بالتحية قائلاً : «طاب يومك» ، ليدُلَّها على الطريق ، وقالت بلهجة الشاتم المُمازح : «مالك تختبئ طوال فترة الضحى الطويلة ، فلا يراك إنسان ؟» .

«ولكني موجود في طريق كل عابر» .

«الأمر سيّان . ولكن في يوم الاستقبال الذي يمكن أن يأتي فيه كل قطار بنصف مائة من الضيوف ، يفترض في رب المنزل أن يكون في المنزل ، لا في الحظيرة»

«ومن ربّ المنزل ؟ أنا رب المنزل ؟ لكأنّه لا يوجد امرؤ ، من القبو إلى السقيفة يملك حق الكلام فيه بدرجة أقل مني! إنما أنا كبش الفداء : المرمى الذي تتوجه نحوه سهام المزاج المتكدِّر عند كل امرئ من الناس! رب منزل! أنا رب المنزل!» .

وأقبلت عليه ، تهدّئ ثائرته ، وقالت تجامله : «ينبغي لك أن تتذرّع بمزيد من الصبر مع أبيك ، ياكونراد» .

وإذا هو يستشيط غضباً ، ويقول : «لو لم أتذرَّع بالصبر ، بالصبر الكثير ، والكثير جداً ، كما تقولين ، أما كنت قد غادرت البيت منذ وقت طويل ؟ وكيف يكون ذلك ؟ فالمسألة لا تدور آخر الأمر حول الصبر أو عدم الصبر فحسب . أنا امرؤ في الرابعة والعشرين ، يحق لي الإدلاء بصوتي في الانتخابات ، وعسكريٌّ ، بل ضابط ، وفضلاً عن ذلك آمر في الإطفاء . ورفاقي يتمتعون بحريتهم ، وإرادتهم ، وعملهم المستقل ، بل تقلّد بعضهم وظيفة ، ولهم أسرة . أمّا أنا فإن أبي الشيخ يسومني الخَسْف والهوان ، كأنني ولد . على أنَّ من لا مكانة له في بيته لا قيمة له في مجتمعه أيضاً . هذا هو ما يغيظني ، وهذا هو ما لا أجد لنفسي عزاءً عنه» .

وأخلدت إلى الصمت هنيهة ، وقد أسبلت جفنيها ، بينما كانت تدندن ، كالشاردة بأجراس أحد طقوم الخيل . وأخيراً ردّت عليه ، بعد تردد طويل ، بصوت بين الارتفاع والانخفاض قائلة : «ومن تراه يعرف إلى متى يظل على قيد الحياة» .

ورفع كونراد طرفه ، في تأثر ، مثلما فعل في تلك الأيام ، عندما سمع ، في مدرسة المجندين ، أول مرة ، الصفير الشيطاني لصاروخ ناسف . ثم قطب جبينه ، وقال : «اسمعي ياآنا ، لولا أنني أفهم الأمور حق الفهم وأتمكن منها ، شأن الخبير ، مثلك ، عن طريق الوسائط ، لما سمحت لنفسي أبداً بمثل هذه الفكرة الدنيئة ، كما تعلمين ، حتى ولا في الحلم» .

وأطرقت برأسها ، ونظرت من خلال النافذة نظرة جامدة ، من فوق أسطح منازل القرية ذات الآجر الأحمر ، إلى هناك حيث يشدو الوقواق ، من مرتفع غير مرئي في الغابة بصوت بالغ الارتفاع والحرارة وكأنه يريد من وراء غنائه أن يزيد في زرقة السماء . ثم ألقت بنفسها فجأة ، وهي تنشج نشيجاً

ينم عن بؤسها وشقائها ، على حافة النافذة المكسوة بالغبار ، وهي تخفي رأسها بين ذراعيها اللذين كانت الدموع تنساب عليهما ، وكانت دموعاً مُخوِلة* ، ناضجة ، من دموع عيد ميلادها ، قد تجمعت في الليالي الساكنة ، وأسفرت عن قلب كتوم .

وكثيراً ما تولته الدهشة ، وهو في حالة بين الرثاء والعبادة ، وكأنما يخطو فوق فتحة ينبوع ، فرأى من خلال شقوق الألواح شيئاً حيّاً يتحرك في الأسفل ، في ظلمة الماء . وانحنى ، في مشاركة وجدانية ، وداعب رأسها مواسياً ، وقال يهدّئ ثائرتها : « آنا » وانطلقت تقول : « أتحسب أنك وحدك الذي تحمل الهموم الثقال ؟ » .

« ما الأمر ؟ هلاّ أفضيت بهمومك هذه إلى طبيبك ؟ » .

« أما أبي فأفضي بها إليه ، وأما أمي فلا » ، وقال متجهماً :

« أنا لي الأب ، ولك الأم » .

غير أنها وثبت على عجل ، إذ علت أصوات من الخارج ، ونفضت الهمّ عن قلبها ، وقالت تسأله بروح جديد وهي تمسح عينيها وتسوّي ثوبها : « هل يُلاحَظ شيء من ذلك عليّ » ، ثم قالت تحذره بأسلوب المتفوِّق : « إذاً فتعال الآن ، فهذا وقت الطعام ، فنحن سنأكل اليوم قبل الموعد بساعة ، وهمست له في ألفة حميمة : سيأكل أبوك أكلاً خصوصياً ، وقد مدَدْتُ له المائدة في حجرة الجلوس وأمك لن تنزل على الأرجح إلى المائدة » .

وقال يسألها مهموماً : « ولماذا ، آمل ألاّ تكون مريضة ؟ » .

« كلاّ ، مجرد صداع شقيقة ، من الانفعال والخوف » .

---

* تزيد على الحول عمراً .

« الخوف ؟ » .

« أجل ، ولاسيما مما يمكن أن يوجد من أعمال يجب القيام بها ، أنت تعرف بالطبع » .

وتنفس الصعداء ، وقد سُرِّيَ عنه ، وقال : « إذاً يستطيع المرء على هذا النحو أن يتناول غداءه بسلام ولو مرة على الأقل ، بصفة استثنائية » .

« لا ريب ـ هذا يعني ، أن العمة موجودة في الحقيقة للمساعدة » .

وقال منقّباً في سوء ظن : « وأي عمة ؟ » .

وردّت بجواب لا يكاد يُسمع : « كلتاهما » وقالت معترفة بصوت خفيض : « عمّة الزبيب ، والعمة الساحرة » .

وقال ساخراً : « ولماذا لا تأتون على الفور بمدجنة كاملة ؟ » .

وقالت تعتذر : « لمدة نصف يوم فحسب . وصلت منذ ساعة ، وسترتحل في المساء . وهذا شيء يمكن تحمله فيما أتصور! » . وصبّت على ذلك ثلاث قطرات ضئيلة من الفكاهة بطريقة ذكية ، لكي يستطيع أن يهضم اللقمة عل نحو أفضل ، قائلة : « وددتُ لو استطعت أن تراهما ، كيف كانتا تتقدمان معاً ، وذراع كل منهما في ذراع الأخرى ، تحت مظلة مطر من عصر ما قبل التاريخ ، تترنّحان شأن العصر القديم العزيز ، في مرح وانطلاق مثل أرانب عيد الفصح ذات الحَوَل الواحد ، وقد انتقدتا أبانا ، فتصور ذلك في نفسك! وهما الآن تتشاجران في المطبخ ، غاديتين رائحتين ، مع حسن النية ، بالطبع » .

وحملته على الابتسام بالفعل ، لا بسبب فكاهية الصورة ، إذ كان قليل الحساسية تجاه الفكاهة من حيث كونه إنساناً جُبل طبعه على الإرادة ، بل

بسبب ما في حديثها من المودة ، إذ كان ثمة سبع من سنوات الطفولة تحييه من خلال تقطيبات جبينها . واعترض كلامها بقوله ، بأسلوب ليِّن مطاوع وقد تغير مزاجه بعض التغير : «لو أن العمة الساحرة لم يكن لها مثل هذا اللسان الفظيع . فعندما أسمعها تتحدث يخيّل إليّ كأنها تَخَيَّرت كل القاذورات اللغوية في الكانتون من الشارع العمومي» .

«إن مقاصدها طيبة بالطبع ، وطبخها من الدرجة الأولى» .

«لا أعترض على هذا ، ولكنها تحتاج إلى كمامة على فمها بحكم القانون ، بناء على قرار المجلس الاستشاري في جلسته الاستثنائية الاحتفالية» .

وكانت أخته تنظر إلى الصعوبات والتعقيدات على أنها شيء لا لزوم له ، وتنازلت عن معارضته ، فأمسكت بأطراف ثيابها ، ونزلت على الدرج على رؤوس أصابع قدميها خارجة في حذر . وختمت حديثها قائلة من دون أن تنظر إليه : «إذاً فستأتي الآن إلى الطعام» وترك باب مستودع الأعلاف الصغير مفتوحاً . فهل كان ينبغي له أن يذهب حقاً ؟ وهل يترتب عليه ذلك على وجه الإطلاق ؟ أيغادر غياهب السجن المأمونة ليدخل عالم الكراهية والشجار ؟ ومع ذلك فقد كان الباب الصغير المفتوح يذكره على الدوام بصوت أخته ، أما الشهية فكان يحس بها ، إذا أراد أن يعترف اعترافاً صادقاً ، وتبعها ، وإن كان متردداً ، على غير إرادة منه ، وقال متنهداً ، مطرقاً برأسه مكشراً : «أنْ يكون المرء سيداً وصاحب الأمر! وأنْ يحق له أن يأمر ، ويعاقب ، ويكافئ ، وأن يعرف الاحترام ، وأن يتمتع بالسلام ، وألاّ يضطر إلى تقبل ضروب اللوم ـ وإن كان ذلك على مدى ساعة واحدة فحسب ـ أو نصف ساعة!» .

وفي الخارج ، في ميدان القرية الفسيح ، وفي ضوء شمس الضحى الساطع ، كانت تتجاذب أطراف الحديث جماعات من الفلاحين في ثياب عطلة الأسبوع المصقولة ، وكتاب التراتيل الكنسية في أيديهم . وحملقوا فيه من دون أن يحركوا ساكناً . وصاح كونراد وهو يمرّ بهم ، في لهجة الأنس إلى الناس : «إنها أجواب قطاف الكرز الرائعة» ولم يتلق جواباً ، فقطّب جبينه . «لتكن مثل عامة الناس ، ولتتواضع ، ولتكن ودوداً ، متلّطفاً ، وسوف يجازونك على هذا على الفور» .

وعلى ناصية قصر «الطاووس» ، قبالة الشرفة الأرضية ، كان البواب والحوذي بينيدكت يتضاربان في غمرة الضحكات المجلجلة ، أما البواب فقد بادر ، وقبعته مائلة على قفاه ، إلى قذف ساقه تجاه بينيدكت فحاول هذا أن يمسك بها . ولدى رؤية السيد الشاب تنحى الحوذي جانباً وأدى التحية . ولكن البواب فكّر في الأمر بطريقة أخرى ، بعد أن مدّ يده إلى قبعته على غير إرادة منه ، فتركها على رأسه ، وتابع اللعبة الخشنة .

وحدجه الملازم بنظرة حادة ، ثم انعطف ليدخل المنزل من الباب الجانبي الصغير إلى جانب المطبخ .

وقبل العتبة توقف عند نداء ينم عن الغضب . وذلك أن ريش حمام كان يتناثر هنا وهناك ، كما كانت بعض قطرات الدم الحمر المتشكلة على صورة نجوم تلطّخ الدرجة العليا .

«هل أرغمت حمامة مسكينة بريئة ، مرة أخرى ، هنا ، على التخلي عن حياتها الفتيّة ، لكي يدغدغ أي ذوّاق مدلّل حلقومه المتبلّد بلقمة هزيلة!» .

وقبل أن يدخل سحب ، وهو ينظر حواليه ، نفساً طويلاً من الهواء الطلق ، وغمغم قائلاً لنفسه «تشجّعْ!» بينما كان الاشمئزاز يثير الرعدة في أوصاله .

ثم خطا بهدوء فوق العتبة إلى المدخل حيث أصاخ السمع في ريبة مثلما يفعل المرء في أرض عدو . ولم يكن ثمة شيء يثير الشبهات على مقربة منه . فحواليه فراغ ، والسكون في الحجرات . وإذاً فقد كان الوبال نائماً في مكان ما ، في مخبأ ناءٍ ، تحت ورقة من أوراق الهشيم . ولم يكن يتناهى إلى أذنه سوى صوت شجار العمتين من المطبخ ، من بُعد كثير التعرُّج والزوايا .

ولكن إذا كان هذا يعني شجاراً «قائماً على حسن النية» فكيف يكون «الشجار القائم على سوء النية» إذاً ؟ إنها مبارزة ثنائية ، وكأن قطتين مبلّلتين عقد ذيلاهما ، وضربتا بالسياط حتى دخلتا قفصاً للقرود .

وجعل يمتّع ناظريه بتلك الحفلة الموسيقية ، مسروراً ، إذ حظي بسعادة من يتعرّض للعقوبة والتأديب ، عندما يشتبك المشرفون على تأديبه بعضهم مع بعض ، وقال : «فلنَرَ الآن من ستكون المعلّمة ؟ العمة الساحرة أم عمة الزبيب ؟» وجعل سبّابتَيْه تتصارعان وقد رفع يديه ، في محاكاة للتمساح والشيطان في مسرح العرائس .

وعل أثر ذلك انفتح باب المطبخ بسرعة ، وجعلت الهاربة والمُطاردة تعدوان عدواً راقصاً في الممّر . أما النص الإيضاحي لتلك المسرحية فقد قدّمه صوت العمة الساحرة التي كانت تقول : «انصرفي! اهربي! اقفزي ، انطلقي!» .

وجاء التهديد المقابل في لهجة باكية ، مثل نبي رُجم بالحجارة ، يقول : «انتظري بكل هدوء ، إلى أن يغدو الفتى كونراد سيداً ، فيطردك من المنزل مثلما تطردينني اليوم» .

وقال كونراد داعياً : «آمين ، فليحدث ذلك يارب!» وتوجه إلى حجرة الطعام .

وكانت ما تزال خالية من أي إنسان . وقال في نفسه : مزيج من برودة الربيع ودفء حمام أشعة الشمس «الصيف المفاجئ» ـ وجعل يدخل الحجرة النظيفة المريحة ويخرج منها . وكان يجد في كل مكان حوله نقاءً ينم عن المودة . وعلى الموائد التي مُدّ عليها الخوان كانت تأتلق الكؤوس وزجاجات الماء ، مثل شموس تابعة . وكان ثمة مائدة صغيرة للأسرة ، ومائدة طويلة ، منفصلة عنها بعض الانفصال ، للخادمات القائمات على خدمة الضيوف ، وكلتاهما مزدانتان بباقات الليلك ، وكانت الملاعق والسكاكين والأشواك مرتَّبة بنظام كأنما تم بالاستعانة بعصا القياس .

هنالك غلبت عليه موجة نبض من الولع بالحياة حتى لقد أخذ يصفر بلحن زحف عسكري مرح ، وهو مطرق برأسه . وبينما كان يمر في أثناء ذلك بحجرة الجلوس اختلجت أوصاله ، وأخلد إلى الصمت ، وتسلل خلسة إلى أقرب نافذة . وكان قد طالعه شخص والده من خلال الفرجة المنفتحة في الباب الذي كان ثلاثة أرباعه مغلقاً فحسب ، وكان والده يجلس في هذه الحجرة على كرسي ذي مساند ، وكان ذلك مدة لحظة فحسب ، ولكنها أصابته كأنها لكمة . ولاحت في مخيلته الآن الصورة الكريهة ، التي جَسَّمها خياله ، في خطوط عريضة هائلة ، عملاقة ، سوداء . وفي أثناء ذلك تحوَّل شيء ما في نفسه إلى وجهة معاكسة تزيد من حدة المشاعر المعادية ، على السطح ، وكان ينظر إلى الشرفة الأرضية نظرة جامدة وقد اشتد نبضه ، وهو يضغط جبينه على لوح زجاج النافذة .

وبينما كان مستغرقاً في أفكار ليس لها وجهة معينة لمعت في ذاكرته على نحو مفاجئ الكلمة المتهوِّرة الصادرة عن أخته : «ومن يدري إلى متى يظل على قيد الحياة!» . ومهما كان يطرد هذه الكلمة بعنف فقد كانت تعود

من جديد ، وتقفز بغير انقطاع إلى أذنه ، ولم يكن ذلك ، بلا ريب ، في صورة رغبة وأمل ـ فَلْيَخْسأ ذلك الأمل! ـ بل كان ذلك ، ببساطة ، في صورة سؤال . وأخيراً لماذا يفترض ، في الأساس ، أن يجيب عنه ؟ وتنامى في سريرته فضول لا سبيل إلى كبته ، حتى لقد استرق خطوة جانبية إلى الوراء ، عند النافذة إلى أن وصلت نظرته إلى أبيه فمرّت به مروراً ، من خلال شق الباب المُوارَب ، فأصابت الجانب الأيمن من الجسم والرأس أيضاً ، تبعاً لما كان يصدر عن ذاك من حركات . وأخذ الآن يرقبه بأنفاس محتبسة كما لم يرقبه من قبل أبداً ، بنظرة الجاسوس المتربِّصة التي تستطلع نقاط الضعف عند العدو . وجعل يفحصه بالتفصيل ، من الأعلى إلى الأسفل ليُجْمِلَ حسابه في نهاية الأمر : كان المحيّا المفزع ، أملس ، لا لحية فيه ، ملوّناً ببقع بنية باعثة للرعدة ، ثم لاحظ العينين الرهيبتين اللتين تشوبهما الحمرة في أسفلهما ، واللتين تحاكيان عيون الكلب الدانماركي الكبير ، والجسد المترهّل الذي كان يموج مع الأنفاس اللاهثة في اتجاه جانبي ، مثل صدر امرأة ، والساقين غير المتناسقين اللذين تحفّ بهما الكتل ، والمحشورين في طيات من الفراء على الرغم من دفء الصيف ، وقام باستعراض خاطف لعدد سنوات عمره : أربع وستون في الخريف . وكان كلما التقت نظرته بطريق المصادفة بنظرة أبيه خطف نظرته وقد امتقع وجهه ، بينما كان والده يبصق بصاقاً صاخباً ، مُغَرْغِراً .

وقالت أخته تهمس في أذنه : «أيها الرجل الصغير ، بم تفكر ؟» .

هنالك انتفض مذعوراً مثل فتاة مصابة بفقر الدم توقف قلبها .

أما هي فقد جعلت تحاكي بيديها المفعمتين بالروح حركةً أمام جبينه ، كأنها تمسحه وتجففه ، مثل فنان السحر عندما يريد أن يحمل شيئاً على أن

يتوارى . وهمست قائلة : « .... » ثم رفعت سبابتها متوّعدة : « فلتكن لطيفاً » ، أيها الرجل الصغير ، فإذا كنت لطيفاً ، ولكن لطيفاً جداً ، للغاية ، أريتُك شيئاً جميلاً » وكانت تقول هذا وكأنها كانت تخفي وراء ظهرها هدية .

وقال سألها بشرود ، وما زال متكدّراً من الفزع « ماذا ؟ » .

وأشارت ، مازِحةً ، إلى المنظر الطبيعي ، حتى لامست إصبعها أنفه ، وقالت : « ومثال ذلك أزهار التفاح المبقّعة بالأحمر الورديّ ، هناك في الأسفل ، أليست جميلة ؟ » .

وعلى أثر ذلك هرعت ، مسرورة ، إلى المائدة ، وأغلقت ، في طريقها ، باب حجرة الجلوس من دون أن تلفت النظر ، وأقبلت على تأمين الملاعق والسكاكين والشوكات ، ثم وضعت سكين الجاتو ، للخدم ، وللسادة ، وبينما كان هو يتوجه ببصره نحو الخارج في معاندة متجهّمة ، أخذت هي تغني وراء ظهره ، أغنية قصيرة ، عن العمل ، فتدندن بصوت خافت حيناً ، وبتوكيد شديد حيناً آخر ، حسبما يقتضي النصّ ، أو تبعاً لإرادتها .

« هل تعرف ماذا يقول الوقواق في غنائه ، في الربيع ؟
ما من إنسان يعرف ما يحمله إليه الصيف .
والصيف الذي يغفو وراء جبل جِتْسلِيس
كثيراً ما يأتي مختلفاً ، ومعاكساً .
ومع ذلك فمنه ما يأتي جميلاً من جديد ، فجأة
حين لا يتوقعه أحد ، ولا يَأْمُله .

كانون الثاني ، وشباط
بَرَكة الله في العام .
وفي آذار ونيسان
توجد العواصف ، كما يشاء أن تكون .
وفي أيار ، الثلج
يسبب الألم لحجرة التفاح
فإذا كان شهر آب
فلتحمل طوعاً ، ما يجب حمله .
وفي الخريف يطول الليل
إلى أن يحل الشتاء
وتمسّ الحاجة إلى الكانون
إذ تموت الأزهار الصغيرة
الأزهار الصغيرة ، التي لم تألف الصقيع
الذي لا يُبْقي إلاّ على حبيبي الغالي ، الوحيد » .

ولكنها كانت تضع بدلاً من كلمة « الوحيد » كلمة « كونراد » بينما كانت ترسل في كل مرة إلى أخيها ، عند هذا الاسم ، نظرة صادرة من أعماق قلبها ، مغتبطة بالسعادة ، غير عابئة بأن يلاحظ هو ذلك أو لا يلاحظ .

والآن دقَّ الجرس للطعام ، وبعد فترة الانتظار التي تفرضها اللياقة ، أقبلت الخادمات يدخلن الحجرة في شيء من الصخب ، زرافات ووحداناً . وعند دخولهن حيّت كل منهن السيد الشاب بتحية تتمنى له فيها « يوماً طيباً » من قلبها ، لا بدافع التهيُّب ، بل بروح الرفيقات وروح الألفة ، وكان

يشكر لهن في كل مرة بصوت مرتفع ، ولكن من دون أن يلتفت ، وكانت دندنة ظريفة ، هامسة ، مُثرثِرة ، مترنِّمة ، من أصوات الفتيات تموج وراءه جيئة وذهاباً . ومع مضي الزمن اندسَّ في يديه اللتين كان يعقدهما وراء ظهره ، عود زهرة ، ولما كان مصراع إحدى النوافذ يعكس الصور فقد عرف الفاعلة . وقال : «جوزفين ، هذا شيء يحدسه المرء من المجون» .

ثم أحاطتْ بوجهة يدُ منهن ، فقال : «مثلُ دقّةِ المركب هذه لا تكون إلاّ لبريجيت» .

وأعلنت صيحة تنم عن التذمُّر قائلة : «غُشَ!» فهو يرانا في النافذة ، وعلى الأثر تفرَّق السرب . وفي مقابل ذلك ظهرت أخته الآن إلى جانبه ، وقالت تسأله فاحصة :

«وما قولُك في هذا الآن ؟» .

«في ماذا ؟» .

«هلاّ فتحت ناظريك أيها القليل الفطنة!» .

«والتفت ، في استرخاء ، وحين سرح بصره في جمع الفتيات الملوَّن البهيج مثل صباح يوم من أيام حزيران في الحديقة ، اكتشف بين الخادمات واحدة جديدة ، فارعة القوام ، مهيبة الطلعة ، منتصبة القامة كالسهم ، في أغنى زي من أزياء برْن* ، إذ كان مزيجاً من الفضة والمخمل والحرير ، فيه صُدْرَة مَقبَّبة ومُقَواة ، ومشَدّ كالدرع وقفازان جزئيّان مَوشّيان بالقصب ، وكل شيء دقيق حتى في التفاصيل ، مثلما يكون ذلك في صورة من صور الأزياء للأجانب ، في واجهة من واجهات محالّ عرض الملاءات .

---

* عاصمة سويسرا .

«من أي علبة سحرية أخرجتِ هذه ؟» ، وكان يدلي بهذا التعليق مستحسِناً ، ولكن بغير مبالاة .

وضحكت قائلة : «أليس كذلك ، ألم أَعِدك بأن أريك شيئاً جميلاً ؟... ولكن لا شيء هنا من العلب السحرية ، أيها الإنسان المائع! ياحبيبي ، هذه ليست للهزل واللعب ، أتسمع ؟ بل للتأمُّل والنظر فحسب . ولابد من التعامل معها بحذر وعناية ، لاحظ ذلك جيداً ، لأن هذه ابنة رئيس ، نفيسة ، لا تحتمل الخشونة ، وذات كبرياء . وأخيراً فأنا لا أخاف عليها ، لأن لها ثلاث صفوف من الإبر على لسانها مثل سمكة الكُرْكي ـ بل أنا أكثر خوفاً عليك أنت ـ والويل لقلبك! ياكونراد المسكين!» . وحين فرغت من هذه الكلمات ابتعدت عنه ، منتصرة ، تغني في مقطوعات ثمانيّة ، تنم عن البهجة والاغتباط .

ولكنه ظل يتابع الفتاة القادمة من بِرْن بعينيه . وحين استحوذ عليه ، بصورة مفاجئة اعتداد بالنفس ينطوي على المجون والاستخفاف ، عمد إلى سلوك المناورة تجاهها في ولع بالهجوم .

وقال فجأة ، وهو يتقدم منها ، على حين غِرّة ، ويدنو منها حتى أوشك جبينه أن يلامس جبينها ، لكي تتراجع أمامه : «إذاً أنت بيبيل أم ماريان على الأرجح» .

ولكنها صمدت له بعناد ، وقد قلّصت حاجبيها ، وردت بخشونة ، من دون أن تتراجع أمامه شبراً واحداً ، قائلة : «لست بيبيل ، ولا ماريان ، بل كاتري» .

وقال يتابع تنقيبه : «من لانجاوْ أم من زيجناوْ ؟» .

وصاحت بحّدة : «لو كنت مكانك لتركت الحَزْر والتخمين إذا لم أكن متمكّنةً منه على نحو أفضل من هذا . أنا من ميلْشْدورف» .

«ميلشدورْف ؟ من ميلشدورف ؟ وأين ميلشدورف بالله عليك ؟ وأخيراً من أي بقعة فيها ؟ من المنشرة أم من المطحنة ؟ لابد أنك تعرفين ، أن ميلشدورف كبيرة» .

«الآن يصدر عنك سخف ، لأن ميلشدورف صغيرة ، ثم إنها ليس فيها منشرة ولا مطحنة على الإطلاق . وأخيراً فإذا كنت توّاقاً إلى العجائب إلى هذا الحد ، فليس هذا سراً ، ومن حق المرء أن يحيط به علماً : في تاوبِنْهوف موطني» .

«في تاوبنهوف ؟ ياللعجب ، في تاوبنهوف . إذاً في تاوبنهوف ، ما من حمامة تائهة ، حقاً ، في تلك القرية» . وقال وهو يتفحصها من رأسها إلى قدميها ، جيئة وذهاباً : «هل يوجد لدى أبيك ، الرئيس مزيد من أمثال هذه الطيور العملاقة النظيفة ، البيض ، بهذا الشموخ ؟» .

وأشرق محيّاها بزهو ينم عن الابتهاج : «نحن ستة من الإخوة والأخوات ، وكل منا أكثر شموخاً من الآخر ، على أن أكبرنا ، هانز ، أطول منك بعدُ بمقدار نصف رأسٍ آدمي» .

وضيّق كونراد إحدى عينيه متشكّكاً .

وعلّقت على ذلك قائلة بغضب : «من كان مخبول العينين فهو حرّ في أن يغمز ما شاء أن يغمز . أمّا أنا فأقول ما أعرف ، وما هو حقيقة . أخونا هانز ينظر على راحته من فوق رأسي . ومن هنا تستطيع بنفسك أن تحسُب ، إذا كنت تعلمت الحساب» .

وقال : «أو أقيس ؟» .

«فليكن» .

ومدَّ كلاهما قامته ، في تحدٍّ ، واقفين على رؤوس أصابع القدمين ، بين الجد والهزل .

وقالت جوزفين موِّبخة : «ليس هكذا ، بل على الطبيعة ، الظهر للظهر ، كما جرت العادة» وهنا تجاسرت فأدارت ظهر كلٍّ منهما للآخر ، ودفعتهما نحو الجدار ، ودفعت كلاً منهما إلى ظهر الآخر ، وقالت آمِرةً : «عليّ بكرسي ذي مسند ، ومسطرة ، وقلم رصاص! بسرعة!» .

ولكن آنا قاطعت اللعبة ، وقالت تذكِّرهم : «إلى الحساء!» وكان صوتها مترنِّماً ، داعياً ، وهي تلقي نظرة الحنان الأموميّ على الزوجين . وقالت الفتيات يكررن كلامها بمرح ، وهن يبالغن في النبرة الجاذبة في محاكاتها ، وهرعت الجمهرة من الفتيات إلى مائدة الخدم في حماسة ، ومعهن كاتري ، الأمر الذي أثار دهشة كونراد مثلما يتعجب المرء لأمر غير لائق .

وقال في نفسه ، هل ينبغي له أن يتجاسر على نقلها إلى مائدة الأسرة ؟

ولكنها كانت قد نشرت منديل المائدة على حضنها ، بمهابة ووقار ، وضحكت له على البعد ، وقد أضحكتها دهشته ، وقالت تؤكد له : «جلستي هنا ممتازة» .

وبينما كان يتوجه ، متردداً نحو مكانه ، أصابته لَكْزَةٌ في أضلاعه ، وكانت لَكْزة عظيمة حقاً . وقال صوت قصير الأنفاس يُعَنِّفه : «وأنا جديرة بالتحية ، بالطبع ، أليس كذلك ؟ الواحدة منا يتجاهلها الناس ، بالطبع ؟ لا ريب أنك لا تنتظر امرأة ذات لسان طويل ذَرِب ، فأنا لست إلاّ أورسولا

العجوز ، أو «العمة الساحرة» ، وهو الاسم الذي عمَّدتني به ، في الأيام البعيدة ، أما زلت تذكر ؟ عندما كنت تقول إنني حيثما حللت تنزل من بعدي مصيبة ، دائماً ، لأنك ، أنت نفسك ، كنت تُقْدِم على حماقة ما في كل مرة وكنت تلقى جزاءك على ذلك بالعصا : ففي إحدى المرات تَسلَّقت على السطح ، وألحقت الضرر بآجُرِّه ، وفي مرة أخرى شوَّهت وجهك بالمساحيق ، وفي مرة ثالثة أطلقت العنان للخيل ترتع في حديقة هايني ، وهكذا دواليك ، مايُدريني . ولكن هكذا شأن البشر ، عندما يكون المرء قد ارتكب حماقة ما ، ويترتَّب عليه أن يتحمّل ما جناه هو على نفسه...» .

وقال وهو يقف صَبَّ الحساء : «طاب نهارك ، أيتها العمة ، لقد أتيحت لي هذه المتعة اليوم آخر الأمر ، وإن كان ذلك على البعد . كلّ احترامي ، هذا أمر لابدّ للمرء أن يسلِّم لك به : فأنت عمة شجاعة ، أنتِ القديس جورج بذاته ، إلاّ أنك تهربين من البيت ، هكذا ، فجأة ، وبدون مقدمات ؟ واحد ، اثنان ، ثلاثة ؟ وعمة الزبيب المسكينة ؟ ماذا ؟

وأرسلت نظرة ماكرة في الهواء ، إلى عنوان عمة الزبيب ، وأطبقت فكَّيْها ، مثل كلب الَدكْس* حين يكون قد ابتلع جرذاً ، وقالت بصوت كالبوق : «لا يمكن أن يحكم في البيت إلاّ واحد ، لا اثنان» .

وأحنى رأسه بصورة رسمية ، وقال : «أقدِّم طاعتي القصوى للحاكمة الوحيدة في المنزل» ، ثم مدّ يده إليها بالطبع ، للتحية .

ولكنها سحبت يديها كلتيهما ، ووثبت إلى الوراء ، وقالت : «لا يترتَّب عليك ذلك ، إذا كنت لا تحبه . فأنا لا أريد إرغامك» .

---

* كلب ألماني صغير ، طويل قصير القوائم .

وردّ قائلاً : «وأنا لا أريد إرغامك أيضاً ، وتركها تقفز ، وقعد ، وقال : «آنا ، هل تأتي الوالدة للطعام ؟» .

«أعتقد أنها آتية ، وهي ترتدي ثيابها الآن» .

«وأنت ، ألا تشاركيننا ؟» .

«كلاّ ، سأخدم أبي» .

وقال متأوّهاً :

«ويلاه!» .

وأحدث الحساء الذي يتصاعد منه البخار ارتياحاً ، وأثار الرغبة في الحديث .

وقال كونراد وهو يتوجه نحو العمة ، ويستخرج زهرة ويقرّبها من أنفه : «ولكن من أين تأتي كل باقات الليلك الرائعة ؟» .

ولم يصدر جواب .

وقال يصدر حكمه بعد هنيهة : «إنه حساء رائع ، كل احترامي لمن طبخه» .

ونظرت إليه العمة نظرة الشامتة ، بصورة جانبية ، ودمدمت متذمرة وهي مطرقة ، وأخيراً ردّت بقولها : «أليس كذلك ، لو كنت تعرف ، لعرفت أنني أنا التي طبخته ، فهل رأيته رديئاً ؟» .

وبعد شيء من التربُّص حاول ذلك مرة ثالثة ، فقال : «الطقس اليوم رائع ، ما من سحابة صغيرة في السماء» .

وزعقت العمة قائلة : «أجل ، سيكون الطقس جميلاً حقاً عندما يكون البشر على ما يرام» .

والآن طفح الكيل ، فقَسَر نفسه ، وكبت رغبته في الحديث ، وصرف بصره عامداً عن العمة ذات المزاج المعتلّ . وبذلك وجد قبالته الخادمات ، بطريق المصادفة .

وإذا هو منظر ممتع لذيذ . كلاّ ، لقد كنّ في الواقع يبدون ظريفات بدرجة هائلة ، في ثيابهن الصيفية الخفيفة الجديدة التي كانت أكثر القفزات في الألوان استحالة تتمثل فيها ، من دون أن يطغى بعضها على بعض . ولم يكن المرء يعرف "فعل لمن يعطي درجة الامتياز ، أيعطيها لبرتا ذات الشعر الكستنائي المتموّج الناعم كالحرير ، الذي يلفّه وشاح صغير مخطط بخطوط في لون خضرة البحر ـ أوَ لم يكن على حق في إيثاره لونَ خضرة البحر ؟ ـ أم يعطيها لهيلينا الشفّافة ذات الشعر الأشقر الذي يضاهي لون الشعير ـ والثوب المزيّن بالشرائط الوردية ، كخروف صغير في ألبوم يسوقه ملاك من حبله ـ أم لجوزفين ذات الشعر الأحمر الجَعْد ـ ولكن هل يلبس المرء الأسود في الصيف ؟ أمّا هذا فيجب على جوزفين نفسها أن تعرفه أكثر ممن عداها ، على أنه كان يلائمها ملاءمة جيدة على نحو ماكر . ولكن بريجيت وحدها ، لم يكن لها بدٌّ من أن تأتي بثوب عمل بنّي غليظ ، وهي المخلوقة الضخمة الكسولة ، كالماموت . وفيما بين هؤلاء كانت تتربّع على العرش كاتري ، مشدودة القامة ، ثابتة في كمالها المتسم بالجلال ، وفي زيّها الأسود والأبيض الذي يمثل رمز الأسرة ، والذي يكاد المرء يسميه «الحلة الرسمية» . وقد كان يحسن بالمرء أن يناولها ، بدلاً من السكين والشوكة ، درعاً ورمحاً ، إذاً لكانت هي الهلفيتية* الأكثر كمالاً على وجه عملة فضية من فئة التّالَر (المؤلف من خمسة فرنكات) ، أو الشخصية الرمزية

---

* نسبة إلى العرق الهلفيتي الذي ينحدر منه السويسريون .

المجنَّحة على ورقة الإعلان في معرض إقليمي . إنها الزراعة والنشاط الشعبي ، أو شيء من هذا القبيل . أو لم يكن المرء ينظر حواليه ، على غير إرادة منه ، إلى لهيب الألب عندما كان يراها ؟

وهكذا كان يسلي بصره . وكانت الفتيات يخالِسْن النظرات إليه ، من جانبهن ، وهكذا نشأ لعب مرح بالعيون من هذا الجانب أو ذاك ، بالغمز والإيماء . وكان لسانه يغريه بالكلام ، ومجونه يغريه بالإقدام .

وشرع قائلاً وهو يرفع القدح : «في صحتك ، يابريجيت ، هل جربت ذات مرة الخمر الخالية من النيكوتين ؟» .

واحتجت بريجيت قائلة وهي تقرقر بازدراء وتمسح شفتيها باشمئزاز : «آه ، ويلاه ، خمر خالية من النيكوتين ، هذا يمكن أن يكون مثل قولنا : عسل خال من السكر» ، وكانت تنظر في أثناء ذلك حواليها لترى هل يتذوق الحضور حواليها ملح نكتتها .

وحين انهال الآن عليها ضحك تهكُّم مصحوب بألوان من التعليم المتعب - إذ كانت تأبى أن تفهم شيئاً على وجه الإطلاق - توجه نحو جوزفين التي كانت تجتهد في إقناع بريجيت أيما اجتهاد ، وكأنها تريد أن تحوِّلها إلى دين الإسلام .

«أنت ، ياجوزفين ، لمّا كان يبدو عليك أنك ترين نفسك ذكية فوق الحدود ، هل تستطيعين أن تحلّي اللغز التالي ؟ من يأخذ ماذا ، وبم يأخذ ؟» .

وفكرت جوزفين بأقصى طاقتها... «من يأخذ ، ماذا ، وبِمَ يأخذ ؟» وكررت العبارة وهي تغمغم ، وتمعن النظر في سقف الحجرة . وفجأة قالت في ثقة : «السيد ريبر يأخذ واحدة فحسب ، بكثير من المال» .

وقال كونراد يثني عليها : «جيد جداً ، ولكن هذا غير صحيح مع الأسف ، بل الصحيح : انتباه : هو الذي يأخذ نهاية له ، مصحوبة بالفزع »

وكانت تمثيلية إيمائية كبيرة ذات جوقة ، للرثاء ، كانت تندب رحيل روحه بتمثيل تعبيري بالإيماءات واللفتات .

ولكن لسان كاتري كان أكثر انطلاقاً من إيمائها ، وقالت باستياء : «هذا واحد من ميدان التدريب» .

«لا بأس ، إذاً فسوف أنتظركن مع كانتون بِرْن الذي تنتمين إليه . غير أني لا أخشى إلاّ شيئاً واحداً : وهو أن من الممكن أن يكون هذا مفرطاً في العلوّ بالقياس إليكن ، إذ نجتاز الآن أعلى المراحل في التدريب والتعليم ، في اتجاه صعودي عمودي . فأي وردة تزدهر في كانتون برن أحسن ازدهار ؟» .

وقالت هيلينا مترنمة ، بسرعة : «زهرة الحب» .

وقالت كاتري مصحِّحة ، في لهجة الإعجاب بالنفس ، وهي تباهي بوعيها العرقيّ وتزدهي به إلى حد بعيد : «زهرة الصراحة التي لا لفّ فيها ولا دوران ، وزهرة النقاء» .

أما كونراد ، الذي استثاره خيلاؤها الكانتونيّ ، فقد سلَّط عليها نظرة مفعمة بسخرية لا تحفُّظ فيها . وقال متهكمًا : «زهرة الصراحة التي لا لفّ فيها ولا دوران ؟ لا لفّ فيها ولا دوران : أي أنها ليست وردة متسلِّقة على أية حال . و«الصراحة» ، بمعنى الانفتاح ، أي أنها ليست برعماً . كلاّ ، ليست وردة كذا ، أو كذا ، بل وردة فحسب ببساطة : إنها «نخر الفوسفور - Phosphor - Nekrose »*

* يلاحظ هنا استخدام التشابه اللفظي بن كلمة وردة Rose والشطر الأخير كلمة نَخَر : Nekrose .

وأقرت عاصفة من الاستحسان لفتة المكر الصغيرة ، بينما كانت كاتري التي تعرضت للإذلال تبعث إليه بنظرة غاضبة خاطفة ، وقد احمر وجهها حتى غدا كالجمان من فرط الخجل والغضب .

غير أن جوزفين أعلنت عدم موافقتها على الحديث إجمالاً وعلى وجه الإطلاق . وقالت معاتبةً : «ماذا جرى اليوم لسيدنا ومعلمنا الصارم حتى أخذ يطرح علينا ألغازاً تتصل بالمقابر ، بعناد : نهاية مصحوبة بالفزع ، نخر ، باحث في النخر ، ويلاه ، قد يعتقد المرء حقاً أنكم تريدون أن تكتبوا وصيتكم ـ بل أريد الآن أن أطرح عليكم لغزاً ـ انتباه! هدوء! انتبهوا! أرهفوا آذانكم : ماالذي يمشي على ساقين ، وليس بطائر ، ولماذا ؟» .

وقالت برتا ، خالية البال : «بينيدكت ، الحوذي»

وارتسمت على وجه جوزفين سيماء معلمة المدرسة ، وقالت : «أنت غير منطقية ، يابرتا ، أولاً : لأن بينيدكت لا يمشي ، بل يتعثّر ، وثانياً : لأنه إذا لم يكن من الطير فليس من الممكن بلا ريب ، أن يكون رجلاً ، وإلاّ لم يكن ديكاً ، وثالثاً : لن يكون من الممكن أن يسأل المرء في حالة بينيدكت : لماذا ؟ ، إذ يكفي أن ينظر المرء إليه ليعرف لماذا ، بل هذا هو بريجيت ، لأنها وزة» .

أما بريجيت فقد قطبت جبينها ليكون ذلك بمثابة إشعار باستلام الرسالة ، وصفرت في وجه جوزفين ، ومدّت لها لسانها ، ونعقت .

ولكن العمة ما عادت تحتمل الآن هذه الفكاهات غير المجدية ، وكثيراً ما صدرت عنها أمارات الاستياء الصاخبة ، فقرقرت ، وهمهمت ، وسعلت ، وحكّت الأرض بقدمها ، وأزاحت الكرسي ، وقذفت بالملاعق والأطباق ، والآن عيل صبرها ، فصاحت في وجه كونراد القاعد قبالتها ، بخشونة ،

وبصوت متوعِّد كأنما يصدر عن مرجل متفجِّر ، قائلة : « ولكن منذ متى ما عاد البواب يجلس إلى المائدة . أجل ، أنا أفهم ذلك ، فهذا ما عاد نبيلاً بما يكفي في نظر السيد الملازم » .

وردّ كونراد قائلاً بهدوء : « لا علاقة لهذه المسألة بالنبل أو عدم النبل ، بل لأن البواب جلف وقح أعتزم أن أتحدث إليه بكلمات قلائل بعد هذا » .

ومضت تقول وهي تتنهّد ، وعيناها تدوران مثل شهيدة : « لست أدري ، ولكنك أصبحت ، منذ الخدمة العسكرية الملعونة مثل قفاز مقلوب على قفاه » .

وردّ قائلاً : « لو كان هذا لكان مكسباً خالصاً ، على أن القفاز لم يتمتع أبداً بسعادة الظفر باستحسانك » .

وقالت تُقَرْقِر : « على الإطلاق ، وفيم هذه العسكرية البليدة التي لا نفع فيها ؟ إذا كانت الشعوب تريد المحافظة على السلام ، وإذا كان أمراء أوروبا في طموحهم الذي لا يشبع أبداً ، إلى البلدان... » .

وقاطعها كونراد قائلاً : « الآن ، ياشعوب أوروبا وأمراءها ، أطبقوا أفواهكم ، فالعمة ذات المقام الرفيع ، أورسولا فون هو تسليسبول ، تقرأ عليكم النص » .

وأدت الضحكات من جانب مائدة الخادمات إلى دعم محاولة صرف العمة عن الحديث . وباتت العمة الآن تواجه ذلك الذي ينغّص عليها وجودها .

ومضى تناول الوجبة الآن في جو من الصمت والملل ، مع مصائد كلامية

عنيفة ، وفترات توقُّف لا نهاية لها ، ولا تطاق . أما في الخارج فكان طائر يصفر بغير انقطاع ، في المروج ، لحناً مزدوجاً للتهليل ، كالغطيط ، قائلاً : «توي تو» كأنه لا يستطيع أن يتحدث عن سعادته بأيّار بما فيه الكفاية .

أما الطباخة ، وهي ليزبيت العجوز المخلصة ، فظلت ، بعد أن وضعت الخضار ، عند العمة ، متعلقة بها ، تصفر ، وترسل نظرات خبيثة إلى الفتاة القادمة من برن .

وكانت العمة تحبس الهواء وراء شفتيها بإغلاقهما ، وقالت تزعق بصوت بالغ الارتفاع : «لكل بهيمة متعتها» وكانت تنظر بطرف عينها إلى كاتري ، وقالت : «يبدو أن هناك ضيوفاً يحبون هذا» .

وقال كونراد يسألها مهّدداً : «ماذا ؟» .

وكان جوابها : «عندما تخرج خادمة بما يصدم ، مثل خروف يخرجون به للحصول على جائزة ، وتعرض ذراعيها عاريين ، بحيث يشعر المرء من جراء ذلك بالغثيان ، وتفتح عينيها بغير حياء مثل امرأة لا أدري ماذا يسمونها» .

وجعل كونراد يبحث عن توبيخ مشحون بالتوابل اللاذعة ، ولكن كاتري ما لبثت أن ثارت ثائرتها في انفعال شديد ، وقذفتها بصوت حاد ، قائلة : «الزي الذي أرتديه زيّ محترم من أزياء الأقاليم ، ولا يمكن أن يشعر بالصدمة من الأذرع العارية إلاّ فاجر فاقد الحياء عفى عليه الزمن ، على أبعد تقدير ، أو عجوز حسودة كمُفْزِعات الطير . وإذا كنت أفتح عينيّ ، فإنما يحدث هذا لأنني لا أعرف لماذا احتاج إلى إغماضهما ، وفي حضرة من . وأخيراً إذا كنت أقف هنا عائقاً في طريق أحد فليس عليه إلاّ الإبلاغ بذلك ، فأنا لم أفرض نفسي ، بل لست هنا إلاّ لأن الآنسة آناريبر زارتني شخصياً في

حمام الاستشفاء ، وطلبت مني بألوان الرجاء والتوسُّل أن آتي للمساعدة» .

وقال كونراد بلهجة التوكيد : «كاتري ، إذا كنتِ مطلوبة من قبل أختي ، فهذا يعادل أن تكوني مطلوبة من قبل أبي وأمي . ولذلك ألتمس منك ، باسمك ، أن تظلي مهذَّبة ، وألاّ تدعي أية إساءات من قبل أناس لم يُدْعَوْا إلى ذلك ، تضللك» .

هنالك قعدت مطمئنة ، وقالت : «إذا كان الأمر كذلك فلا بأس فيه ، فأنت السيد ، وأنا أعتمد على كلمتك ، وما يقوله الآخرون فلا تزيد قيمته عندي على جعجعة طاحونة» .

ومع ذلك فلم تستطع العمة أن تتغلب على هزيمتها . وبعد حالات متواترة من الاحتدام والتحفُّز انفجرت في وجه كونراد ، قائلة : «يبدو أنك أنت أيضاً من هؤلاء الكثيرين ، إذْ لا يحتاج الأمر إلاّ إلى زوج من الخدود الحمر كالآجرّ حتى تدور عيناك ، وتقع في الغرام ، شأن الدجاج أمام خنفساء . أمّا القيمة الباطنية ، والفضيلة ، فلا يسأل عنهما أحد بالطبع» .

وهنا استشاط كونراد غضباً ، وردّ قائلاً : «وأنتِ ، أنتِ من هؤلاء الكثيرين الذين يقولون إن فضيلة المرأة يبرهن عليها وجود تضخم في الغدة الدرقية» .

وأنبأته عاصفة الضحك المطلقة العنان التي أعقبت هذا القول ، وعينا العمة المخضلّتان ، أن إصابته كانت أدقَّ من تسديده ، وودّ لو يستطيع أن يسحب كلمته القاسية . والحق أنه لم يقدِّر أن العمة نفسها مصابة بتضخّم في العنق ، وبات تهوُّره يسبب له الألم المرير ، وجعل يبحث جاداً عن وسيلة لإصلاح ذلك ، وكانت في هذه الأثناء قد استخرجت منديل العطاس ، وبينما كانت تمسح عينيها ، قالت متلعثمة : «اسكت ياكونراد ، اسكت . لقد مرَّ

زمان لم أكن فيه قبيحة إلى هذا الحد في نظرك ، أنا وغدتي الدرقية » .

وقال بحرارة : « هذا الزمان ما زال بعيداً كل البعد عن أن ينقضي ، وأنتِ ما زلت حتى الآن أيضاً ، غير قبيحة في نظري » .

ولكنها تابعت شكواها ، من دون أن تعرِّج على هذا المَعْبَر ، معبرة عن آلام تضحيتها ، قائلة : « لقد كانت أياماً جميلة ، عندما كنتَ طفلاً صغيراً بعد » .

« ياعمتي العزيزة ، ياأفضل العمات ، ما عسايَ أفعل إذا ما عدتُ طفلاً صغيراً ؟ وأخيراً فأنت تنظرين إلى المسألة في هذا الصدد مثلما تنظر أمي تماماً : فأنتم تظلون أبداً تمثلون ذلك لي ، وتواجهونني به وكأنه خيانة . فلتذهبوا إلى الشيطان ، فأنا لا أستطيع ، بلا ريب ، من أجل الظفر بإعجابكم ، أن أظل أحوم حواليكم وزجاجة الرضاعة في فمي . أم ماذا تطلبون مني ، في الحقيقة ، ياترى ؟ » .

ولكنها تابعت غزل خيط حكايتها الكئيب ، قائلة وهي تتنهّد كمن يصدر حكم الإدانة : « ياإلهي ، ما أكثر ما قعدت في حضني » .

على أن هذا اللغو الذي لم يكن يتوقف ، والذي ينم عن الغباء وعدم الإنصاف ما لبث أن استفزه من جديد . وردّ قائلاً باستياء :

« إذا كان هذا كل ما ينقصنا ففي وسعنا أن نزيل أسباب الشكوى ، وأعني أنه إذا كانت رغبتك الجدّية بالفعل ، أن أقعد في حضنك » .

وفي هذه المرة لم يصدر ضحك عن الفتيات اللواتي كن يطرقن برؤوسهن ، بدلاً من ذلك ، في شعور بالحرج ، وحين نظر حواليه متعجباً ، باحثاً عن السبب رأى إلى جانبه أمه جالسة إلى المائدة ، في شحوب المرضى ، واهنة ، تلفُّ رأسها بالمناديل .

وشحب وجهه ، ثم تشجَّع ، وقال يسألها باهتمام وبصوت خفيض : «طاب نهارك ياأمي ، كيف حالك ؟» .

وكان جوابها اختلاجة ألم حول شفتيها الخاليتين من الدم ، ونظرة تنطق بالاتهام .

وكرر قوله بلهجة تنم عن رقة الإحساس : «سألتك كيف حالك» .

وانبعثت من فيها نفحة من نَفَس لا يكاد يسمع ، وهي معرضة بوجهها : «حالي كما يمكن أن يكون»

وردّ قائلاً : «يمكن أن يكون على صور مختلفة ، ولكني أود لو عرفت كيف هو الآن ، في الوقت الحاضر» وكان صوته يرتعد ، إذْ كان شيء فيه يتذمَّر ، وكان يكبته بجهد بالغ .

وكثيراً ما كان يجثم الصمت على وجبة الطعام ، على أنه لم يكن هذه المرة صمت السِآمة ، بل صمت التوجُّس والقلق ، وكل ما في الأمر أن الأم والعمة كانتا تتبادلان من حين إلى آخر تعيلقات مقتضبة ، مع استبعاد الآخرين ، وكأنهما كانتا تتناولان الطعام وحدهما .

وهمست الأم وهي تقطب عضلات جبينها في ألم ، وتسحب المناديل فوق أذنها ، في خوف ، بأصابعها الناحلة الشاحبة المتألِّمة ، قائلة : «لكم تُصَدِّع رأسي الهموم» .

وقالت العمة تستدرك ، موافِقةً : «لقد عاثت الشحارير فساداً أيضاً في هوتسلسبول منذ الساعة الرابعة صباحاً» .

وعض كونراد على شفتيه ، وجعل يحملق بعينين مندهشتين في سقف الحجرة . وقال يكرر بصورة آلية : «عاثت الشحارير فساداً ، الشحارير التي

عاثت فساداً . شحرورة وتعيث فساداً» ثم استحوذ عليه فجأة ضحك لا يكبح جماحه ، هزّ كل جسمه .

هنالك تناولت العمة منديل عطاسها من جديد . أما أمه فقد جعلت تتفحص ابنها بنظرة طويلة تنم عن الهمّ واليأس .

وقطعت هذه النظرة ضحكته ، وظهر في وجهه بدلاً منها سخط متجهّم في قلبه .

ولبث يكظم غيظه وقتاً غير قليل ، ولكن حين ما عاد ينبعث صوت أبداً ، لا من هذه المائدة ، ولا من تلك ، علا زَبَدُه .

وقال وهو يصر على أسنانه ، ويلقي بالسكين والشوكة بعيداً :

«إن المرء لخليق أن يحسب أنه يجلس إلى مأدبة جنائزية» .

وعلقت أمه قائلة ، تؤدِّبه : «ليس كل امرئ مطبوعاً على الضحك والتهريج بصورة دائمة ، مثلك» .

وعلى أثر هذا التوبيخ فقد السيطرة على نفسه تماماً .

وأخذ يصيح بصوت رنان في الحجرة ، مثل القسيس في الكنيسة ، قائلاً : «وأنا بدوري أقول ، إن هذا ليس من الحق ، ولا يسمح به ، وهو شطط لا يمكن الصفح عنه ، عندما نكون قد جُنِّبْنا المصائب ، ولا يكون لدينا شيء هام نشكو منه ، ولا ينقصنا شيء جدّي ، وكلنا على قيد الحياة ، متمتعين بالصحة إلى هذا الحد ، ولا هموم لدينا ، ولدينا من الطعام ما يكفي ـ ونتصرّف وكأن الموت قد نزل بساحتنا . هذا أمر لا يصحّ ، وهو كفران بالنعمة ، وهو يعني عدم استحقاق الرعاية التي يُسْبغُها القدر!» .

وهنا كانت آنا وراءه ، ولم يعرف كيف جاءت ، وجعلت تهز ذراعه بعنف ، وقالت توبخه بصوت مكتوم : «هل فقدت صوابك ؟» .

وصاح بصوت أعلى : « كلاّ ، لم أفقد صوابي ، بل أقول حقيقة معقولة جدية ، وأقولها مرة أخرى : ان امتلاك السعادة ، ووضع قناع الشقاء ، بدافع مجرد الولع بالتفجُّع ، وإضفاء الأهمية على الألم ، أمر ليس بالصحيح ، وهو تجديف وتطاول ، وهو يعني استدعاء المصيبة عن قصد وتصميم » .

ونهضت أمه الآن ، وهي تستند بيديها إلى المائدة ، وتوجهت إلى الباب لتخرج وهي تترنّح .

غير أن العمة رأت أن عليها أن تكون وريثة همّها ، وترجمت هذا إلى أسلوبها في التأفف والتبرم ، إذ كانت ترمي بسهام نظرتها الشزراء كل بادرة تنطوي على سرور ، ولما كانت الفتيات اللواتي زايلهن الخجل شيئاً فشيئاً قد أخذن يثرثرن فقد نبحت فيهن قائلة : «سدّوا أفواهكن! » وحين عمدت اليزابيت بعد ذلك إلى نقل قطعة هائلة من الشواء إلى مائدة الخدم لوّحت بيديها في فزع ، وقالت تبارك نفسها : «نعوذ بالله في السماء ، ما هذا الشواء الفظيع من لحم العجل! في أيامي كان الخدم يسرون سروراً فائقاً إذا ما وجدت قطعة صغيرة هزيلة من اللحم في الحساء » .

وانتفضت الخادمات من مقاعدهن ، وكأن قنبلة سقطت عليهن ، ودفعن بالأطباق جانباً ، وقد علتهن حمرة قانية من الغضب ، وهن ينفخن ويَصْفِرْن ، في جموح . وقالت بريجيت في صوت مجلجل : « إذا كنتن نادمات ، وتبخلن بذلك علينا ، فافترسوا بأنفسكم ، فلن نلمس شيئاً منه» .

وعند هذه اللحظة انفجرت مرارة العمة ، وقالت في صوت كالزعيق : «اقعدن القرفصاء » وأكدت أمرها عن طريق المثل ، إذ رفعت جذعها عن الكرسي ، وهبطت على الأرض بقوة ، وفي الوقت ذاته ضربت على المائدة بقبضة السكين كأنها تضرب بمطرقة .

وامتثلت الفتيات للأمر على غير إرادة منهن ، على الرغم من ترَدُّدهن وغمغمتهن ، أما الشواء فلم يَمْسَسْنَه ، بل وضعن أيديهن تحت المريلة في تمرُّد .

هناك سارت العمة تعرُج نحوهن ، وأمسكت بأطباق الشواء ، ودفعت بها إليهن وقالت وهي تنفخ من الغيظ : «فلتأكلن ما دام قد جيء به! قبل أن يبرُد » .

واتجهت نحوها نظرات ماكرة من وجوه متوقدة ، كاللهيب . أما جوزفين فانطلق لسانها يصفر باللعنات ، وأما بريجيت فكشرت عن أسنانها ، وأما هيلين وبرتا فبكين من الغيظ ، ولم تحرِّك أيٌّ منهن ساكناً ، سوى كاتري التي ظلت قاعدة على راحتها بصورة مطلقة ، وقالت بجفاف : «أما أنا ، فآكل بغير حرج » .

وطاش سهم العمة . أما الضرب فقد نظرت فيه ، على أنها لم تكن تستطيع أن تعامل به الآنسات ذوات النمو والبنية القوية ، كما أنها لم تتعوّد أن تضرب مخلوقاً حياً . ومع ذلك فقد كان هذا يبدو لها أنه هو الورقة الوحيدة في يدها ، إذ لم تكن تجد وسيلة أخرى . ووقفت ههنا ، عاجزة ، حائرة ، وكان التفجُّع يكدِّر نظراتها التي يتطاير منها الشرر في مكر ، مثل أفعى ولَّت أيام بأسها فهي ترى سمَّها غير ذي مفعول لأول مرة ، وكم مارست التربية في قصر «الطاووس» في غابر الأيام! فعندما كان يراد تدريب خادم على الانضباط ، أو عندما كانت طباخة تأبى أن تمتثل للأمر ، وعندما كان القوم يتوقعون حضور عدد زائد من الضيوف ، كانوا يعمدون على جناح السرعة إلى استدعاء العمة أورسولا فون هوتسليسبول ، والآن تضطر إلى احتمال الرفض الصريح من هؤلاء البنات ذوات المخاط! على أنها كانت

تعرف مظاهر الوهن المرتبطة بتقدم السن ، وكانت تتغلب عليها ببطولة . غير أنها شعرت الآن أول مرة ببؤس الشيخوخة ، وحين اتجهت آخر الأمر إلى مكانها من جديد وهي تعرج ، كان هذا هو الانسحاب بعد معركة خاسرة حاسمة . وأحست بذلك : فقد ولت أيام سلطتها ، ولما كانت لا تستطيع أن تحتمل هذه الحقيقة فقد تاقت إلى الرحيل ، الرحيل إلى ديارها ، وكلما عجلت بذلك كان ذلك خيراً لها ، إلى قطّاتها الثلاث ، وإلى قهوتها المصنوعة من الشيكوريا ، وإلى فتاتها اليتيمة الطيّعة .

واستقبلها كونراد بعتاب أحسن إعداده ، فلم يكن بالمفرط في الحدة ، ولم يكن بالمفرط في اللين ، بل كان بارداً ومتّزناً ، إذ قال : «أيتها العمة ، إن قرابتنا لتشرفني ، وأقدم لك كل الشكر لمعونتك المتسمة بروح الإيثار ، أمّا أن تُرْبِكي لنا أكثر الخادمات كفاءة وتجربة ، وإقداماً ، هكذا ، بلا مقدمات ، من دون أدنى سبب أو باعث ، فهذا يستبعد أن يكون رأي والدَيّ! » .

وقالت والكلمات تتدافع من فمها كالحجارة : « إليك عني! إليك عني! اذهب ، وعلِّقهن على رقبتك ، وتمطّقْ بهن ، إلى أن تفرغ منهن ، من خادماتك العزيزات الغاليات . اذهب! ماذا تنتظر ؟ لا أمانعك . أنا أخلي لك الميدان ، فقد أصبحت عنصراً لا لزوم له منذ عهد بعيد ، منذ أن بات حضرة السيد الملازم يتقلد الأمور هنا في المنزل ، كما يبدو » .

وقال : «أنا لا أطلب بحال من الأحوال أن تخلي الميدان ، بل نحن على النقيض من ذلك ، شاكرون لك أنك تأتين بخبرتك ، ونعرف كيف نقدر مساندتك القيّمة ، غير أنني لا أرى أن هناك ضرورة لطعنك في الخادمات من أجل ذلك ، وإهانتهن » .

ولكنها أصرّت على خاطرتها بعناد ، وقالت : «بل سأذهب ، سأذهب ، ولا حاجة بك إلى الاجتهاد في ذلك . ها أنذا ذاهبة . وعمّا قليل تكون حقيبة سفري الصغيرة محزومة» .

ومضت بالفعل ، مترنحة ، إلى الباب . وعند ذلك تولاه الخوف فجأة ، وهو الرجل البالغ سن الرشد ، والقوي ، والمعتد بنفسه ، والمواطن الذي يحق له الإدلاء بصوته في الانتخابات ، والجندي ، من العمة الضئيلة ، المحدودبة الظهر ، المتداعية البنيان ، وكان خوفاً رهيباً ، مفزعاً ، مثل تلميذ مدرسة مسكين عندما يتأهب المعلم لعرض أوجه تقصيره على والديه .

ونهض واقفاً ، ولحق بها في وجل ، وقال يتوسل إليها في مذلة : «أيتها العمة» .

وقالت متذمرة : «ماذا ، بريك! أقُرون بط ، وأجنحة قواقع! لقد قال أولي هانزياكوب في يوم الأحد : أين يوم السبت ؟» وظلت تدرج خارجة من الحجرة بغير توقف ، مسرعة ، بلا روية ولا تفكير ، وكأنما كان هناك من يلاحقها .

غير أن الفتيات وَدَّعنها وداعاً سيئاً : «رحلة سعيدة! لا عودة بعدها أبداً!» ـ أيتها الساحرة الماكرة» ـ «خلّصينا من كل شر» ، مع المزيد من أمثال هذا .

ولكن كونراد زجرهن عن هذا بحركة قصيرة من يده ، إذ كان يحبها مع ذلك على الرغم من كل شيء ، هذه العمة الساحرة ، لأنها كانت طيبة معه للغاية في الأيام السالفة .

وكان مزلاج الباب ما يزال يرتعد وتعلّقت كل العيون بالجدار الذي

توارت العمة وراءه . وإذا الشخصية العملاقة المهولة ، شخصية صاحب قصر الطاووس الشيخ ، بخطوات ذات عنفوان كخطوات الفيل ، ولم يكن ذلك من حجرة الجلوس ، بل من الجهة المقابلة ، من الشرفة الأرضية ، وزمجر قائلاً ، وهو يتفحص الخادمات بنظرة رهيبة : «فلتأكلن ، ولْتَشْربْنَ ، ولتتشاجرن ، ولتغازلن . هذه أمور تعرفنها ، أما خدمة الضيوف فذلك ما لا تفكر فيه واحدة منكن» .

وتطايرت الفتيات ، مثل قطع من الدجاج ، أفزعه كلب ، في هرب جامح ، من المائدة إلى أقرب الأبواب .

ولكن الشيخ قطع عليهن الطريق برجله ، وأراد من أجل ذلك ، أن يضرب الأرض بعَقِبه بحكم العادة ، ليؤكد بقوة على إرادته ، ولكنه لم ينفذ ذلك إلاّ بصورة جزئية إذ كانت ساقه تؤلمه حين يطأ بها الأرض بقوة . وقال وهو يصدُّهن : «هذه المرة سوف أتولى الخدمة بنفسي» ، وكان يعض على شفتيه من الألم ، ومضى قائلاً : «بعد أن قبلت الطلب . ولكن لتحرصن على أن تَكُنَّ في مكانكن في المستقبل» .

هنالك انسحبن متذمرات ، دونما جلبة ، بينما كان الجاتو اللذيذ يدور وراء ظهورهن على المائدة المتروكة . أما كاتري فقد بدا لها في المسألة وجه آخر ، بعد أن كانت قد نهضت مع الأخريات ، فعادت أدراجها ، وجعلت تروح وتجيء في الحجرة بخطوات كخطوات اللقلق .

وأقبل الشيخ عليها ، وقال في صوت كالقرقرة : «يبدو أنك ترين نفسك أكثر نبلاً بمريلتك البَلاطيّة* وأصابعك المدلّلة» .

* نسبة إلى البلاط ، أي قصر الملك أو الدوق .

وأشارت من خلال النافذة وهي تقول : «تسع خادمات وراء فلاحة ضئيلة واحدة ناحلة ، شحيحة ، هذا أكثر مما يكفي» وحين حدجها بنظرة مرعبة نفضت يديها تلقاء عينيه وهي تضحك .

«ياسيد ريبر ، إذا كنت رجلاً لا شأن له ولا قيمة فأنت لا تخيفني بحال من الأحوال ، إذ أن لي في البيت أباً تعدّ أنت في مقابله طفلاً لا حول له ولا قوة» . وتأمّلها زمناً طويلاً ، وكان يزداد طمأنينة وحُلُماً ، ثمم غمغم بكلمات شتى غير مفهومة ، وأخيراً قطّب جبينه مستحسناً ، وابتعد وفي يده زجاجة خمر ، وبين أصابعه كأس ، بخطى متثاقلة ، نحو الشرفة الأرضية .

أما كونراد فكان ما يزال قاعداً حيث كان يقعد . وفي جانب منعزل ، على مسافة معينة جلست كاتري إلى نافذة ، وجعلت توقِّع بأصابعها على حافة النافذة مثلما يوقِّع من يقرع بالطبل . وانضمت إليهما آنا ، وجعلت تشتم أخاها بصوت خفيض ، وبلهجة تنم عن الحزن .

وقالت تشكو بكآبة : «كونراد ، أيها الانسان الماكر ، الماكر ، ماذا صنعت يداك من جديد! وفوق هذا كله تقعد العمة مع أمك وتحرِّضها ، وتريد العودة إلى بيتها بالقوة ، وهي تقول إنك طردتها» .

وردّ كونراد قائلاً : «إنما تقول زوراً وبهتاناً» .

وقالت كاتري تدعم قوله : «إنها تكذب» .

وقالت آنا آسفةً : «والحمامة المسكينة ، التي أوعزت أمك بتحضيرها لك على وجه الخصوص» .

«أي حمامة ؟ لي أنا ؟ من أمي ؟ وأين تكون ؟» .

وأشارت إلى طبق أمامه ، وقالت : «أجل ، لقد فات الأوان ، وباتت باردة» .

وردّ قائلاً وهو متكدّر : «لقد كانت أمامي أمور أخرى أعالجها في وقت وجبة الطعام ، سوى الانتباه إلى الطعام ، وعلى أثر ذلك أدنى الحمامة الصغيرة وشرع يأكلها بدافع من ضميره ، إرضاءً لأمه ، من دون أن يتذوّق ما كان يبتلع .

وكانت آنا في هذه الأثناء تروح وتجيء مع كاتري في الحجرة ، شأن رفيقتين ، ويد كل منهما في يد الأخرى ، وذراع إحداهما ملتفة على ورك الأخرى ، مثل الأطفال عندما يلعبون لعبة خطوة الضباط . وكانتا كلّما مرّتا بكونراد تبادلتا نظرات مختلسة ، وتهامستا وقهقهتا بمرح وانطلاق . وأخيراً توقفتا ، وتبادلتا القبل .

وقالت آنا تمازحها : «أليس كذلك ، ألاّ تودين أن تجاري الأخريات» وكانت تلعق شفتيها في مكر ، ثم تقدمت منه ، واستندت إلى كتفه ، وتمتمتْ في أذنه قائلة : «ألا تحسّ بذلك ؟ أوَ يؤلم ؟ إنه لا يضر ، ويلائمك . على أنك كثيراً ما تسبب الألم للآخرين أيضاً ـ ولكن ينبغي أن تفهم هذا جيداً ، ليس من أجل الزواج!» .

وأجاب بصوت عال : «هذا أمر لا يفكر فيه إنسان ، ولا في الحلم ، ولكن إذا افترضنا هذه الحالة ، فلِمَ لا ؟» .

وأغلقت فمه ، وانحنت على كتفه الآخر ، وقالت تصفر في أذنه : «ليس لها قلب» وعلى أثر هذه الكلمة أسرعت إلى الخروج .

وحين باتت لدى الباب التفتت إلى الوراء ، وصاحت قائلة : «الآن يفترض أن أكون في المطبخ ، وفي القبو ، وأن أطعم أبي ، وأن أهدّئ ثائرة العمة ، وأصالح أمي ، وليس لي ، بلا ريب ، سوى ساقين فحسب ، ويا ليت أحداً يجود على أمي بكلمة طيبة على الأقل!» .

وبذلك بقي كونراد وكاتري وحدهما مراراً ، وكانا هذه المرة صامتين ، في حرج ، من دون أن يعلم كلٌّ منهما ماذا يصنع بنفسه ، ومع الآخر . ولكن هذا لم يدم سوى لحظة قصيرة ، إذ لم يلبث الشيخ أن عاد وفي يده زجاجة الخمر الفارغة التي وضعها على العمود . ثم استدار إلى الوراء وتأمّل ابنه ، وقال : «لقد تحسنت صحتك اليوم ، فيما يبدو لي ، على هذه المائدة . ولكن لن يضيرك في شيء أيضاً أن تساعد في إخلاء قاعة الرقص ، بدلاً من البقاء إلى الأبد جالساً إلى المائدة وكأنك مُسَمَّر على الكرسي» .

«أُخْلي قاعة الرقص ، وأنىَّ لي أن أعلم أنْ سيكونُ اليومَ رقص ، إذا لم يكن هناك أحد يجشّم نفسه مشقة إبلاغي بذلك ؟» .

«وهل يفترض أن تتوقف المسألة ، بالنسبة لحضرة السيد الملازم صاحب الأمر ، على التصريح المسبق ؟ فمن البدهي أَنْ سيكونُ اليومَ رقصٌ ، مثل كل عام ، أم لديك اعتراض على هذا ؟» .

«ما كنت لأجرؤ على ذلك أبداً» .

وتقدم منه أبوه ، وقال : «لا تجرؤ أبداً ؟ فلتجرؤ ، فما من أحد يفترسك» .

وغادرت كاتري الحجرة من دون أن تلفت الأنظار .

وقال الأب يلتمس منه بمزيد من الإلحاح : «هلاّ تحدثت ، بربك ، تحدَّثْ إذا كان لديك شيء معقول تقوله» .

«لابدّ للمرء أن يعرف ما يريد . فإما أن يريد إدارة المزرعة ، وإما أن يريد دار الضيافة» .

عند ذلك رفع الوالد صوته أكثر مما كان ، وجعله أقوى : «لقد كانت

الأمور تدار حتى الآن ، على هذا النحو دائماً ، وأنا لا أفكر في تغييرها من أجل خاطرك . أما فيما بعد ، عندما أكون راقداً تحت التراب ، وتبدو لك إدارتي للمزرعة غير نبيلة بما يكفي ، ففي وسعك أن تتصرف فيها كما تشاء . ولكن إلى أن يحين ذلك الوقت أظل أنا السيد والمعلم » .

واعتقد الوالد أنه قد فرغ من ابنه بهذه الكلمات . ولكن كونراد علّق قائلاً بعد نظرة عابرة إلى السماء : « ومن عساه يرقص ، على وجه الإطلاق ، مع هذا الطقس الجميل ؟! » .

« هذا أمر تمّ تدبيره . عندما لا نكون مفرطين في التصوُّرات ، شأن الفضوليين من الشباب ، فسوف نظل نعرف كيف ندبّر أمورنا على أية حال . لقد وعد الفاجنجيّون بالمجيء ، وذلك بكتاب خطي ، لكي تعلم ذلك فحسب ، وفوق ذلك ، هؤلاء الذين هم بالُعدْوَة العليا والذين هم بالُعدْوَة الدنيا » .

هنالك رفع كونراد رأسه وفتح عينيه من الدهشة ، وسأل في قلق : « أوَ ندعو كلا الفريقين معاً ؟ وفي اليوم ذاته ؟ » ، وترك السكين يتراقص على المائدة ، على سبيل العبث .

وقال صاحب قصر الطاووس مهدّداً : « ليس هناك داع على الإطلاق لأن يتخذ وجهك سيماء التفوُّق هذه ، فما زلنا من البراعة والذكاء ، بالطبع أيضاً ، بما يكفي لنعلم أن هذين الفريقين لا ينسجمان ، وأن أحدهما محافظ ، والآخر متحرر . وأنه لم يخطر ببال أحد أن يدعوهما في وقت واحد . وفي وسعك أن تحسن الظن بطاقة التفكير عندي إلى هذا المدى أيضاً على أية حال ، وإن لم أكن ملازماً ، بل مجرد رقيب . لقد سألنا أول الأمر بالطبع الفاجنجيين من أهل الُعدْوَة العليا ، فاعتذروا ، ثم وعد أهل العدوة

الدنيا منهم بالمجيء ، وبالأمس وعد أهل العُدْوَة العليا ، في وقت لاحق ، بالمجيء أيضاً وهذا ما حدث» .

ولم يحر كونراد جواباً ، بل أخذ يعبث بالسكين ، محملقاً في سقف الحجرة .

«يبدو أن فهم هذا مسألة صعبة بالنسبة إلى عقلك ، ولذلك لا تعرف كلمة لتجيب بها» .

ورد كونراد قائلاً :

«كلاّ ، بل أفهم حق الفهم : هذا التدبير سوف يفضي إلى تضارب ينطوي على سفك الدماء» .

«لن يقطع أحد منهم رأس الآخر!» .

«المعركة هي المعركة ، سواء أكانت بالسيوف والحراب ، أم كانت بالهراوات وقبضات الأيدي ، ولكن المرء لا يستطيع أن يتنبأ بما تنتهي به الموقعة ، لأن الكراهية لا تحسب لشيء حساباً ، والسلاح ليس له ضمير - وأخيراً ، وبصرف النظر عن أن التضارب بين الفلاحين في قاعة الرقص يمكن أن يكون ملائماً لذوق ضيوفك ، ولاسيما ذوق الضيوف القادمين من المدينة ، وفيهم النساء والأطفال ، فأنا أودّ أن أعرب عن ارتيابي الشديد فيه» .

وصاح الشيخ بصبر نافد : «وأنا سأظل هنا أيضاً . ولئن كنت عرفت حتى الآن كيف أحقق النظام فسوف أعرف ذلك اليوم أيضاً ، أم تراك بِتَّ تحسبني عاجزاً كل العجز ؟ أنا ما زلت ، والحمد لله ، متمتعاً بكافة أعضاء جسمي ، لكي أحافظ على سلطتي ، وذلك في الحقيقة من الداخل ، ومن الخارج عل حد سواء» .

«إلى أن تتلقى لكمة» .

«لقد سبق أن تغلبت على أناس أشد بأساً من الفاجنجيين» .

«أنا أسلّم بذلك . ولكن الفاجنجيين خبثهم أكثر من قوتهم ، أعني أنهم جبناء ، وهذا يعني أنهم غادرون ، مجاوزون للحدود ، يضربون ضربات غادرة» .

وعيل صبر صاحب قصر «الطاووس» الآن ، وقال مزبداً :

«أتراني أقف الآن بين يدي المدعي العام ، حتى اضطر إلى الخضوع لاستجوابك كأنني متهم ؟ الخلاصة أنني قررت أنْ سيكون هناك رقص ، ولذلك سيكون هناك رقص ، سواء سمحتَ بذلك أم لم تسمح به . وهذا يبدو لي واضحاً وبسيطاً ، أم تراك لم تفهمه بعد ؟» .

«لقد فهمته كل الفهم» .

«لا بأس ، إذاً فالتزم الصمت ، وأغلق فمك!» .

«لا حاجة بك إلى أن تقول لي هذا ، بهذا الأسلوب الفظ بعد أن طالبتني أنت بالحديث» .

«آمل ألاّ أحتاج بعد إلى كتاب تقريظ وثناء لكي أتحدث إلى السيد الملازم . هل انتهيت أخيراً ، أم ما زال لديك شيء تعلّق به ؟» .

وكان هو أيضاً يغلي بالغيظ ، وردّ قائلاً : «لا بأس ، ما دمنا قد دخلنا في هذا ، فليكن ، ولكن لدي ملاحظة أخرى في هذا الصدد . وذلك أنني أريد أن ألاحظ أنني كنت أودّ لو خاطبتني في حضور الآخرين بلهجة أكثر لياقة هذا ما أريد ملاحظته» .

«في حضور الآخريـن ؟ أوَ كان خطأً مني أنني لا يسعدني الحظ برؤية طلعتك التي تحسد عليها إلاّ حيث توجد امرأة أو فتاة بالقرب منك ؟» .

وقال وقد استشاط غضباً ، بصوت جامح : «أبتاه ، أبتاه! فكِّرْ فيما أنت فاعل! أَسِباب وشَتْم! أنا لا أسمح لأحد بشتمي!» .

«سباب وشتم ؟ أوَ ليست هذه هي الحقيقة بأدق التعبير ؟ أوَ لم أصادف الفتاة القادمة من بِرْن منذ هنيهة ، وأنتما معاً في حجرة واحدة ؟» .

وندَّت عن كونراد عبارة تقول بصوت بين الارتفاع والانخفاض : «الولد سرّ أبيه» .

«ماذا قلت ؟ ماذا تعني ؟ قل ذلك بصوت عال إذا كانت لديك الجرأة ؟ أليس كذلك ، أنت لا تجرؤ على ذلك ؟» .

«كلاّ ، بل أجرؤ ، أنا أعني ، فيما يتعلق بوجودنا في حجرة واحدة ، أن كل شيء يتوقف على مسألة كيف ، ومتى ، ومع مَنْ» ، وكان في أثناء ذلك ينظر إلى والده في عينيه نظرة ذات معنى .

وقال هذا بصوت لاهث مخنوق : «ماذا تقصد بذلك ؟» ، واحمرّ وجهه حمرة داكنة .

«أقصد أنه يجوز لكل فتاة ، معي أنا ، أن تبقى في حجرة واحدة ، من دون خوف» .

وترنَّح صاحب قصر «الطاووس» الآن بخطوة ثقيلة على الأرض بلغ منها أن الأرض اهتزت ، منتقلاً إلى المائدة التي كانت تفصل بين كليهما .

وقال يسأله : «ولكن مع مَنْ لا يجوز للفتاة ذلك ، ياتُرى ؟ هلاّ عبَّرت عما في نفسك بمزيد من الوضوح» .

«وبتعبير أوضح : إذا حكمنا على المسألة من حيث الظاهر فربما كنت تفضل أن تكون أنت مع كاتري في حجرة واحدة ، وحدكما» .

وسحب الوالد نفساً عميقاً ، ثم انفجر ، بصوت مرعد ، وعيناه تدوران : «يقولون إن في مدينة تون* حارة ـ أتفهم ، نوافذها تطل على نهر الآرِه** ـ أتفهم ؟ وفي تلك الحارة منزل صغير ـ أتفهم ؟ وثمة ثلاثة من مواطئ الأقدام يُفْضين إلى ذلك المنزل ـ أو يكفي هذا ؟ أم يجب عليّ أن أوضحه لك بمزيد من الدقة ؟» .

وانتفض كونراد عن كرسيه ، وقال : «وفي برن يوجد جسر صغير ، أتفهم ؟ ووراء الجسر الصغير جزيرة صغيرة ، أتفهم ؟ وفي الجزيرة الصغيرة يوجد على السكين الموجود على نافذة ، تاريخ منقوش عليه ، وإلى جانب التاريخ اسم رقيب في الجيش صارم رهيب ، أتفهم ؟ والاسم يبدأ بحرف (ر ، وينتهي بحرف (ر) . هل يكفي هذا ؟ أم ترغب في شيء أكثر تفصيلاً ؟» .

ولبثا يتراشقان بهذا الكلام ، أحدهما في وجه الآخر ، وهما مُكبّان على المائدة ، يرتجفان من الغضب ، وكان يكمّل الحديث العدائي نظرات مفعمة بالكراهية ، ولكن حين ارتفعت الآن من الخارج ، أو من الممر ، أصواتُ مصافحاتٍ مفعمة بالحيوية ونداءات استحسان مكتومة من أصوات نسائية تسجل انتصار كونراد ، انعطف الشيخ فجأة نحو حجرة الجلوس ، من دون كلمة ختام تهديدية ، في صمت رهيب . غير أن كونراد الذي عاد إلى صوابه في اللحظة ذاتها ، ظل واقفاً وقد تولاّه فزع عميق . ماذا صنعت يداه الآن!

هو الذي لم يسبق له أبداً ، على قدر ما تمتد ذاكرته ، أن عارض

---

* مدينة في سويسرا .

** نهر في وسط سويسرا وشمالها .

والده ، فضلاً عن أن يتصدى لإرادته ، أثار عناده الآن ، ووقف له موقف رجل في مواجهة رجل ، والعدو في مواجهة العدو ، وكشف له في هذا الموقف عن اشمئزازه المختزن المتجمّع ، مع اقتران ذلك بنظرات ولهجات ما عاد يمكن الصفح عنها ، على أنه لم يكن يقصد إلى ذلك ، بل أفلتت هذه الكلمات من لسانه في غمرة حرارة التذمُّر ، غير أن ذلك حدث الآن على كل حال . وكان يرى الآن بقلب متهيِّب موجة رهيبة من الوبال تزحف عليه حتى بات يرى الحالة التي كان فيها قبل هذا ، والتي كانت تبدو له شيئاً لا يحتمل ، وكأنها لعصر قديم جميل في مقابل هذه الآن ، وما عاد يجرؤ أبداً على تصوُّر ذلك مجرد تصوُّر .

وهنا ، في غمرة المحنة ، وثب وثبة يائسة إلى المستقبل ، فرأى الشيخ وقد أثرت فيه هذه الضربة ، يحشرج على سرير الموت ، ورأى نفسه واقفاً إلى جانبه ، وقد هزَّه الموقف ، حزيناً ، صافحاً ، وهذه الصورة ما عادت تثير اشمئزازه الآن ، بل أخذ يستدعيها في شوق وخشوع ، لا بدافع الكراهية ، بل بدافع كرب القلب الناجم عن اليأس ، من حيث كون هذا هو المخرج الوحيد للتصالح ، ومن حيث كونه الملاك الحارس للوقاية مما هو أدهى وأمرّ .

وقالت كاتري تنبهه ، وقد ظهرت على العتبة : «ألا تفضل أن تخرج أيضاً إلى الهواء الطلق قليلاً ، ياسيد ريبر ، بدلاً من البقاء في الحجرة ذات الهواء المحتبس ؟

وأجاب شارداً ، وهمّ أن يتبعها ، قائلاً : «ولم لا ؟» ، ولكنه غيرّ رأيه في الطريق ، وصاح بها قائلاً : «اسبقيني ، وسآتي فيما بعد» ، وعاد أدراجه ، وصعد ، في الاتجاه المقابل ، نحو الطابق العلوي ، إلى حجرة نوم

الوالدة . وفكر في أن يتقدم إليها بكلمة طيبة وهو يتذكر تحذير أخته .

وكان والده في هذه اللحظة يخرج ، في بيت السلالم ، من حجرة الجلوس ، واصطدم كل منهما بالآخر وهما يسيران في اتجاهين متعاكسين ، مثل دُبّيْن ، فانطلق الوالد كالسهم عائداً إلى الحجرة ، وتابع ابنه صعوده على السلّم ، بهدوء ، دونما توقّف .

وكانت حجرة نوم الوالدة غارقة في ظلام دامس إذ كانت تلفُّها الستائر الكثيفة .

واستقبله صوت كالزعيق ينبعث من الظلمة ، يقول : «انظري ، ها هو ذا! نفسُه» وكان صوت العمة ، واقترنت الجملة بضحكة قبيحة بدت له ساخرة . وبينما كان يتلمس طريقه بذراعيه وهو يخطو نحو السرير وقع متعثراً بكرسي كان في طريقه ، وفي سقوطه تلقى ضربة مؤثرة إذ اصطدم بالدُرج الملحق بالسرير ، بينما تحطم شيء ما فُخّاري على الأرض فأحدث جلبة مدوّية متعددة الجوانب ، لا نهاية لها .

وقال صوت الأم في توجُّع وأنين : «إنه لا يستطيع ، أبداً ، سوى أن يلحق الأذى ، والوبال ، هذا المغضوب» .

هنالك استدار إلى الوراء بعنف ، وغادر الحجرة ، ونزل على السلالم من جديد ، وقال وهو يصرّ على أسنانه : «هذا ما لم أستحقُّه! «مغضوب» : ان المرء لا يكون مغضوباً عندما يكون صادقاً ، نشيطاً ، ذا صفحة بيضاء! ، على الرغم من أن من الممكن أن تكون له أخطاؤه وعيوبه أيضاً ، مثل كل امرئ آخر» ، وظلت هذه الكلمة منغرسة في لسانه مثلما ينغرس خطاف الصنّارة في جسدها ، تعاوده المرة بعد الأخرى ، وقال في نفسه : «إن من له ميدالية إنقاذ موضوعة في دُرْجه ، ومن قدّمه رئيسه العقيد أمام الجبهة

المحتشدة أنموذجاً يحتذى للضابط ، لا يمكن أن يكون مغضوباً . أما المغضوبون فهم أولئك الذين يقعدون في الملهى ، أو في السجن ، تبعاً لظروفهم » .

وتوقف تحت السلّم وراء حرش الرمان ، وجعل ينظر من خلال النافذة . وكان الخدم على الشرفة الأرضية يُخْلون قاعة الرقص . وإلى جانبهم قعدت كاتري ، كمن لا يعنيها الأمر ، إلى منضدة في ظل شجرة دِفْلى ، وجعلت قدميها ينوسان كالبندول . ولكن فكره لم يكن يتابع ما تراه عيناه ، بل كان مشغولاً بغضبه ، حتى لقد كان يكوِّر قبضته من حين إلى آخر . وقال يغمغم متجهماً : « الملازم في سلاح المدفعية لا يمكن أن يعده المرء مغضوباً » وقال بعد هنيهة : « من يدري ، كم من أمّ تود لو كان ابنها في مثل الحال التي أنا فيها » . وعلى أثر ذلك ظل ملتصقاً بالنافذة ، لا لأنه أراد البقاء هنا بل لأنه لم يكن له بدٌّ أن يكون في مكانٍ ما ، وما كان ثمة مكان آخر يلائمة أكثر من هذا .

وكانت العمة في أثناء ذلك يُسْمَع وقع أقدامها وهي تنزل على السلالم وعليها القبعة والوشاح ، وفي يدها حقيبة من الجلد .

وصاحت بصوت كصوت الغراب حين لاحظته ، قائلة : « ها أنذا ذاهبة الآن ، فهل رضيت ؟ » .

وتغلب على ما نفسه ، وقال : « كلاّ ، أنا لست راضياً ، بل على النقيض ، وسوف يسرني أن تظلي ههنا ، أنا لم أقصد سوءاً بما قلت » وقالت بلهجة السباب :

« ياالهي ، لكم أنا مغفّلة ، بالله عليك لا تُوارِب ، ودع اللفّ والدوران فلسنا اليوم في ليلة ثلاثاء المرفع . وأنت لا تنظر عيناك بعدُ إلاّ إلى دميتك » . « ... ؟ » ، وماذا يعني هذا بالألمانية الفصحى ؟ » .

أو فلنقل... ، أو أي اسم يروق لك أكثر مما عداه ، فأنا لا أعرف ، مع الأسف ، كيف أعبّر عما في نفسي بأسلوب المثقفين مثلما يفعل السيد الملازم . وأخيراً فبالقياس إلى تلك الهَبْلاء الوضيعة يوجد في هذه التسمية من التقدير ما يكفي» .

«ومن هي التي تطلقين عليها هذه التسمية ؟» .

«ومن تكون سواها ؟ هي تلك التي يبدو أنْ ليس لك في الدنيا سواها ، تلك التي تكاد عيناك تخرجان من مِحْجَرَيهما وأنت ترمقها ، الفتاة القادمة من برن ، المتكبرة ، المتبجّحة ، بالعبارة المختصرة . ألا ترى كيف تشرق عيناك ، وكيف تبتسم ابتسامة الرضى عندما يذكر المرء مجرد اسمها . لا تفتح عينيك بربك هكذا ، وكأنك تريد أن تبتلعني ، مثلما ابتلع الذئب الفتاة الصغيرة ذات القبعة الحمراء* . هَوِّنْ عليك ، فأنا ذاهبة ، وسأغدو ، وأقفز ، فأنا خائفة ، واستغفر الله لأنني تجاسرت على النطق باسمها الشريف بفمي العجوز الأَدْرَد** . الوداع! فسوف تستطيع أن تحوم حواليها وتتزلّف إليها في جوّ أبعد كثيراً عن تكدير الصفو ، عندما أغادرك . ولكن لا تكن قاسياً كثيراً ، ولا تدع انتظارها يطول ، فهي تتململ من نفاد الصبر ، فالوداع إذاً! واستغفر الله . وآمل ألاّ تحدث مصيبة هذه المرة بسبب وجود العمة الساحرة ، ولو حدثت لكنت لها مستحقاً في الحقيقة . إذاً وداعاً ، فربما كانت هذه آخر مرة تراني فيها» .

وهنالك تركها تذهب .

---

* إشارة إلى ما ورد في إحدى أقاصيص الأخوين جريم ـ «المترجم» .

** الخالي من الأسنان .

ولكنها التفتت إلى الوراء بعد بضع خطوات وقالت : «لقد جئتك في الحقيقة بهدية تذكارية أيضاً ، وهي عند أمك ، وستعطيك إياها غداً ، إذا عدت إلى التهذيب من جديد ، وأخيراً ففي وسعك أن تسبب لي من الألم على قدر ما تشاء ، فأنا أظل بالقياس إليك ، بلا ريب ، عمتك الساحرة العجوز ، القبيحة ، التي كانت تهزُّك في مهد حضنها في الأيام الغابرة ، أمازلت تذكر ؟ وداعاً ، ياكونراد ، وداعاً مع ذلك!» .

وعلى أثر ذلك انصرفت .

أما هو فقد توجه إلى كاتري ، في الشرفة الأرضية .

وشرع في الحديث قائلاً بلهجة المتكدّر : «ألديكِ إذاً أب ماكر مثل أبي ؟» .

«أبوك من خشب ، أما أبي فمن حجر» .

وعلق قائلاً : «لست أفهم أبداً كيف يمكن أن يحس امرؤٌ بالحاجة إلى أن يكدِّر صفو حياة أقرب الناس إليه» .

وهزّت كتفيها ، وقالت : «من يدري كيف سيكون تصرُّفنا عندما نشيخ . فأنت مثلاً ، لا يبدو لي أنك من أكثر الناس لطفاً ورقة» .

«لماذا ؟ أتراك تعتقدين أن هذا يرتبط بالسن ؟» .

«سؤال ساذج ، سواء أكان ذلك يرتبط بالسن أم بالوَهْن ، فالأمر سيّان . أم تراك تعتقد أن أباك كان على هذه الصورة طوال حياته ؟ وأنه لم يضع قطُّ زهرات السوسن على قبعته ، وأطلق صرخات فرح وتهليل ؟ أنا لا أستطيع أن أقدم إجابة سوى أن هذا الشيخ يعاني من عقدة ما ، تؤرقه على الدوام ، فيغدو صفراوي المزاج ولا يمكن أن تصدر عنه كلمة طيبة تجاه أي إنسان ، وإن أراد ذلك وتمنّاه» .

واستغرق كونراد في تأملاته ، ثم قال : «من الغريب أن هذا لم يخطر لي ببال قط ، على أنني أشعر أنك لو كنتِ معي دائماً لاحتملت بعض الأمور بسهولة أكبر» وحين احمّر وجهها قليلاً على أثر هذه الكلمة صحّح كلامه بهذه المناسبة ، قائلاً : «عفواً ، أنا لم أقصد إلى هذا» ثم إنه احمّر وجهه في أثناء ذلك أكثر منها .

وقالت تهدئه : «وأنا لم أفهم كلامك على تلك الصورة على الإطلاق ، أيضاً» .

ثم توقف الحديث .

واقتربت آنا ، وقالت بلا مبالاة وهي تمدّ يدها : «مفتاح الحظيرة يطلبه بينيدكت» وبعد أن استلمت المفتاح علقت بصورة عابرة ، قائلة : «من الأفضل لكما أن تتجنّبا البقاء معاً كل هذا الوقت ، فقد يلفت ذلك الأنظار» .

وردّ كونراد بقوله : «وماذا لو حدث ذلك ؟» ، أعني إذا لم تشعر كاتري بالملل» .

وضحكت كاتري بازدراء ، وقالت : «أنا ؟ أنا لا يضيرني شيء ما دمت لا أقترف سوءاً ، ولكن لا أُفرط في ذلك بالقدر الذي يلغط به الناس» .

وردّت آنا ، قائلة بحدة : «ياللعجب ، هل وصل الأمر بينكما إلى هذا المدى ؟ في هذه الحالة لا أبيح لنفسي بالطبع الحق في التدخُّل» وتركت الزوجين وعليها سيماء التحسُّس ، وكأنما أصابها ظلم .

غير أن كونراد حاول أن يعيد وصل ما انقطع من حبل الحديث . وشرع يقول كيفما اتفق : «أرجو ألاّ تكوني قد ساءتك إساءات عمتي أو بلغت من نفسك ؟» .

وضحكت كاتري ، وقالت : «وكيف تبلغ من نفسي ؟ إن أمثال هذه الأمور لا تبلغ حتى بشرتي ، فضلاً عن أن تبلغ من نفسي . ياإلهي ، لقد سبق أن تحمّلت في موطني أشياء أخرى ، من أبي . على أن الذين يؤلمون المرء هم أهله فحسب . وإن ملعقة حساء كاملة ، مترعة بالسم لا تحرق الجوف مثلما تحرقه قطرة واحدة في موطنه . ومن أجل ذلك فارقتهم ، وخرجت بعيداً عنهم ، خرجت من النار . ومنذ أن غادرتهم تحسنت حالتي ، وإن كان ما ينثره الناس عليّ ليس وروداً خالصة ، عندما أضطر إلى كسب المال بنفسي ، فرنكاً فرنكاً ، بينما كان اسمي في قريتي كاتري الغنية ، وكنت الأولى ، وكنت ابنة الرئيس» .

وكانت تتحدث هذا بلهجة أقرب إلى لهجة من يخاطب نفسه ، ويمارس تأملاته فيها ، ولكن كونراد كان يشاطرها مشاعرها حتى لقد أخلد إلى الصمت ، وقد خيمّت عليه السكينة شأن المتعبِّد بعد أن فرغت من حديثها . وجادت عليه في مقابل ذلك ، من جانبها ، بشيء من الاهتمام . وبدا صوتها ، لأول مرة ، بعيداً عن الاتّسام بسمة البرود الشديد الكامل ، بل بات قريباً من الحديث الودّي ، حين وجهت الكلام إليه الآن ، على سبيل النصح ، بلهجة المتفضِّل قائلة : «ينبغي لك أيضاً أن ترتحل قليلاً ، ياسيد ريبر ، وإن كان ذلك ، فيما أرى ، مدة يوم واحد أو نصف يوم ، فاللصوق الدائم بالبيت ليس أمراً طبيعياً بالقياس إلى رجل في سن الشباب ، وهذا يعكّر دمك ، ومن أجل ذلك أصبحت متوفّز الأعصاب ، فظّاً . فلتعتمر قبعتك ، ولتحمل عصاك ، ولتخرج إلى أجواء الربيع النقية» .

وكان كونراد يرسل ناظريه في المدى البعيد ، في شوق ، وإذا هو يقول مع تنهُّدة عميقة : «مثلاً ، مع اتحاد الضباط إلى الجبل العالي ؟ في

قطار الساعة الواحدة والثلث ؟ » وهنا أخرج ساعته من جيبه ، ونظر فيها زمناً طويلاً ، إذ نسي نفسه وهو يحدق في الميناء .

« أجل ، أو تقضي سويعة ، ببساطة ، في أقرب قرية ، لمجرد أن تطالعك وجوه جديدة ، وتستقبل انطباعات جديدة » .

وعاد ينظر من جديد في الأفق المستدير حواليه ، ثم نكس رأسه ، ودسّ ساعته في جيبه . وغمغم وهو منكسر النفس قائلاً : « لا أستطيع ، لا يجوز لي ، فأنا عن ذلك ، اليوم ، أعجز مني عنه في أي يوم آخر » .

« ولماذا ؟ » .

وقال مستاءً : « لماذا ؟ لا أحسب أنك بطيئة الفهم ، في العادة ، لماذا ؟ لأن اليوم يوم أحد ، ولأن بيتنا سيكون بعد الظهر حافلاً بالضيوف ، ولأنهم سيرقصون في المساء ، وباختصار ، لأنني لا أستطيع . أم تراك تحسبين أننا حشدنا اثنَيْ عِشْرِيّة من الخادمات عبثاً ؟ » .

« وهل من الأفضل أن تتشاجر مع أبيك وأمك ومع العمة ، ومع من لا أدري بعدُ ممن حولك ؟ لن يكون ثمة عمل هائل في « الطاووس » في هرليسدورف . والأجواء تنذر بالسوء ، صدقني ، ياسيد ريبر ، أنا أفهم مثل هذه النُّذُر ، وقد تعلمتها وأنا صغيرة » .

وقال متهكماً : « أو تؤمنين بالخرافات ؟ » .

ورفضت المجادلة في ذلك ، وردّت قائلة بحزم : « لا أعرف هذا ، وأخيراً فإن كل امرئ يؤمن بالخرافات بدرجة تقل أو تكثر ، فمن قائل انه رأى ريشة الديك الحمراء التي تشير إلى الموت ، على مقربة منه ، أو بوز الشقاء الأسود . أو ما قولك عندما يرى المرء أخاه يخرج في الصباح إلى

الغابة سليماً معافى ، بنشاطه ونضارته ، ثم يحملونه في وقت الغداء على المحفّة ، وكان قد هتف صائحاً لأخته عند خروجه : « كاتري ، لم يسبق لي في حياتي كلها أن كنت سعيداً سعادتي في هذا اليوم ، وأعني أنني أرى نفسي في السماء » . وهتف أبوه في أثره ، قائلاً : « إما أن تعود قبل الحادية عشرة إلى البيت ، أيها الجيفة ، أو لا تعود أبداً » . ما قولك في هذا ؟ أوَ يمكن أن يغدو المرء هنا مؤمناً بالخرافات أم لا ؟ لقد عاد إلى البيت بالطبع ، قبل الحادية عشرة ، ... المسكين ، بأربع دقائق على وجه الدقة ، ولكن ميتاً ، لا جيفة ، بل جثة ، ولكن ، لكي نعود إلى موضوعنا ، مؤمنة بالخرافات أو غير مؤمنة بالخرافات ، تستطيع الآن أن تفسّر ذلك كما تشاء . ولكن الأمور تنذر بالسوء اليوم في «الطاووس» ، وثمة نذر تشير إلى عاصفة ، وفي الأجواء حرب» .

«آه ، أما ما يتعلق بهذا فالحرب ماثلة في الأجواء عندنا دائماً» .

وردت قائلة : «هذا صحيح ، ولكن ليس مجرد هذا . إنه شيء كأنما يستحضره المرء استحضاراً ، أو يَدّهِن بمروخ . وكلٌ منكم يقول شيئاً مختلفاً عمّا يودّ لو يقول ، وما من أحد من الناس جميعاً يقصد بالآخر سوءاً ، وكل أمرئ يغرس في قلب الآخر أظافره المدبَّبة . وهذا أليس يبرهن على أن الشيطان ، أو شيئاً مشابهاً له يقعد على سقف البيت ، أم لا ؟» .

وارتسمت ابتسامة على شفتيه أول الأمر ، ثم اكتسب سيماء الجد شيئاً فشيئاً وبدا الأمر ثقيلاً وصعباً ، ولبث زمناً طويلاً يفكر مطرقاً ، ناظراً إلى قدميه ، وهو ينقب بمقدّم حذائه في الحصى ، ثم سأل بصوت مكتوم ، من دون أن يرفع رأسه : «ما العمل إذاً ؟» .

«الرحيل ، الرحيل ، اخرج من دائرة الشيطان» .

ونظر إليها فجأة ، وقال يدعوها : «هل تأتين معي ؟» .

وصاحت باستياء وهي تبتعد وتعنفه : «ياسيد ريبر ، أنت تهذر الآن هذراً» .

واضطر كونراد مرات عديدة إلى أن يتنحى جانباً خلال هذا الحديث ، لكيلا يصطدم بالمناضد التي كانت الخادمات ينقلنها من قاعة الرقص ، وهو يمازحهن ليسرّي عن نفسه ، غير منتبه ولا مبالٍ . ودأبت الخادمات على توجيه الأوامر وهن يضحكن قائلات : «مكان لسبعة أنفار ، سيجيء نصف نفر ، ولم يكن لكل امرئ بدٌّ من التنحيّ جانباً ، من دون تمييز ولم يشعر بالاستياء من ذلك أول الأمر ، إذ كان الحوار يستغرق انتباهه ولكن هذا بات يحدث له الآن على نحو يجاوز الحدّ ، وحين لاحظ آخر الأمر البواب وهو يقذف بريجيت بالحصى حدجه بنظرة حادّة .

وقال يأمره بخشونة : «أيها البواب ، احمل هذا الكرسي هنا إلى حجرة الطعام» . وحين لم يجد طاعة ولا جواباً ، شدّد لهجته قائلاً : «أفهمت عني أم لا ؟» .

وقال البواب متشدّقاً : «ليس في الأمر ما يوجب هذا الاستعجال الفائق» وتناول حفنة من الحصى من الأرض مجدّداً .

هنالك انقض عليه كونراد كالريح العاصفة ، قائلاً : «عندما آمرك بشيء فهو مستعجل دائماً» وأمسك به بأصابع قاسية من صيوان أذنه ، وكأنه يمسكه بكمّاشة وشده بلا مبالاة إلى الكرسي ، حتى ترنحت القبعة التيّاهة ساقطة عن رأسه وقال : «أتحسب أني سأعلمك الاستعجال ؟ أتحسب أني أنا الذي ينجز ذلك ؟» .

وأطاع البواب الأمر الآن وهو يبكي وينوح . ولكنه حين وصل إلى الباب ألقى بالكرسي ، وأخذ يصرخ ويصخب ، والتفت إلى سيد الدار وهو يقطب جبينه ، قبل أن يتوارى هذا .

وصاحت كاتري وهي مسرورة تصفق بيديها : «أحسنت ، مثل أخينا هانز بالضبط» وكانت الخادمات في أثناء ذلك يحملقن في كونراد ، في وجل ، وكأنهن يرينه أول مرة ، ولبثن هنيهة واقفات كمن وقع تحت تأثير سحر أُحْكِمَت عقدته ، ثم تفرَّقن هاربات ، إلى أن عُدْنَ أدراجهن شيئاً فشيئاً ، وقد أخذهن الفضول ، يتظاهرن بعمل شيء ما ، في شيء من النفاق ، وكُنَّ في أثناء ذلك ينظرن إلى المنزل متربِّصات على خوف ، حيناً ، وينظرن إلى كونراد نظرات مختلسة حيناً آخر . وكانت كل فتاة تضطر إلى أن تمرّ به ، تتفاداه بالمسير في قوس كبير بعيداً عنه .

وقالت كاتري تحذره ، خالية البال : «ولكن الآن تعض على أسنانك ، ياسيد ريبر ؛ فقد يكون في انتظارك عاصفة مرعدة» .

ولم يكن يبدو على المسألة في البداية كما لو أن النبوءة سوف تتحقق ، حتى لقد استجمعت الفتيات جرأتهن شيئاً فشيئاً ، ونفضن عن أنفسهن الخوف وحوّلن التجربة إلى جانبها الهزلي .

«كان يستحق ذلك ، وسوف يستعجل في المرة القادمة أكثر من ذلك» .

ورفعت جوزفين قبعة البواب عن الأرض ونفضت عنها الغبار ، ونصبتها على رأسها مثل علامة نصر ، وجعلت تسير بها كمن يسير في استعراض جيئة وذهاباً .

وإذا نافذة حجرة الجلوس تنفتح بعنف ، ويظهر فيها رأس الوالد ،

متجهاً نحو كونراد ، وصاح قائلاً : «يبدو أنك ترغب في أن يلاحقك المرء بالعصا مثل طفل صغير» .

وانتفض قائماً ، واستدار على عقبيه ، وصرخ قائلاً بصوت تردّدت أصداؤه فوق كل أسطح المنازل : «فليحاول هذا ولو إنسان واحد في العالم كله» .

وإذا الستائر تتحرك في حجرة نوم الأم ، وأحدث هذا في نفسه فعل المعجزة ، حتى لقد كبح جماح نفسه في الحال . أما أبوه الذي كان قد انتظر من جانبه تحدّياً ، وكان انتظاره عبثاً ، فسحب رأسه آخر الأمر رويداً رويداً ، نحو الداخل ، وانطبقت النافذة في صخب ، ثم عاد كل شيء إلى السكون من جديد .

ولكن كاتري تقدمت من كونراد وقالت تقنعه : «ياسيد ريبر ، أكرر عليك القول بجدّ ، للمرة الثالثة : اهرب!» .

وقال وهو يصر على أسنانه : «الآن ما عاد ثمة مهرب . الآن على وجه الخصوص تزداد استحالة الهرب . الهرب ؟ كلاّ ، فليس الهرب من شيمتي» .

وقالت له هيلين ، وهي تمرّ به ، على تكتُّم ، «ياسيد ريبر ، الحوذي يبلغك ، لعلك تعرف أنت أيضاً ، أنه مضطر إلى أن يشدّ الفرس ليسي إلى العربة من أجل المستشار الإداري السيد لاوترباخ ؟ ولكنه يرجوكم بحق الإله ألاّ تكشفوا أنه هو الذي كشف لكم عن ذلك» .

وانتفض غاضباً ، وقال : «ماذا ؟ الفرس ليسي ، اعتقد أنك تتحدثين وأنت محمومة . لم يجرؤ حتى الآن أحد على التصرف في ليسي من دون موافقتي الصريحة» .

وردت قائلة بصوت مكتوم : «إذاً فانظر في المسألة بنفسك ، وهي واقفة أمام المنزل ، تهز برأسها وتحك الأرض بقدميها» ، وصاح وعيناه تدوران :

«أودّ أن أتحقق من هذا أولاً بأم عيني قبل أن أصدقه» ونهض مسرعاً ، في عناد وتصميم .

وكان ذلك صحيحاً ، إذ كانت تقف هنا فرسه الصغير ، بلحمها ودمها بين خشبتي عريش العربة ، أمام العربة ذات الحصان الواحد ، في بشاشة وانشراح صدر ، تحك الأرض بقدميها ، وتلوك اللجام حتى أخذ الزبد يتناثر من شدقها ، وكانت تحملق فيه بغير حياء ، هذه التي لا وفاء عندها ، وكأن كل شيء صحيح وعلى ما يرام .

وقال متقصّياً : «يابينيدكت ، من أمرك أن تشد ليسي إلى العربة ؟» .

«أبوك ، صاحب قصر الطاووس ، نفسه» .

«لا بأس ، إذاً فعليك بفكّ الفرس من جديد ، وأَسْرِجْها ، فأنا أريد الخروج عليها» .

«أبوك سيدي ، وأنت سيدي ، كذلك ، وليس عليَّ سوى أن أطيع ، ببساطة ، فإذا أُمِرْت أن أشدَّ شدَدْت ، وإذا أمرت أن أَفُكَّ من جديد فككت ، ولكن ليكن هذا مفهوماً حق الفهم : أنا لا أتحمل المسؤولية ، وسوف أحيل المسألة عليك» .

«هذا أمر بدهي . إذاً أنا ذاهب الآن لكي ألبس المهاميز وسروال الركوب ، ولْتَعْمَل على أن تكون مُسْرَجة عندما أعود» .

«سيكون هذا على ما يرام خلال أمد قصير ـ إذا لم تعترض ذلك عقبة ما» .

ونظر كونراد في عينيه نظرة حادة ، وقال يفهمه بلهجة التوكيد

والإلحاح : «عندما أكون أمرت بشيء فلن تنشأ عقبة تحول دونه . الفرس ليسي فرسي . فأنا الذي اشتريتها ، من مدخراتي على مدى السنين الطوال ، ولذلك يحق لي التصرف فيها ، ولا يحق ذلك لأحد سواي» ثم أخذ يداعب فرسه ، بحكم العادة ، فيقمط أنفه ، ثم توجه إلى المنزل .

وفي مدخل المنزل وقف في طريقه أبوه ، بجسده الضخم الذي كاد يلامس الجدار من الجهتين .

وقال كونراد ، ملتمساً بلهجة مهذبة : «استميح عفوك ياأبي ، ولكن تفضل بالسماح لي بالمرور ، ثم حشر نفسه على حذر ، ليمرّ به .

وحين مرّ به قال الشيخ ... : «إلى أين ؟» .

«سأخرج على ظهر الفرس!» ، وزمجر وراءه قائلاً :

«لن تركبها!» .

وقال وهو يسرع إلى صعود السلّم : «سأخرج عليها» ، وانتهى إلى حجرة السقيفة في الطابق الثاني ، وأوصد الباب ، وارتدى ثيابه على راحته ، من دون أن يسرع أدنى إسراع . فلبس سروالاً جلدياً مختصراً ، وحذاءً يغطي بطة الساق وعليه مهاميز ، وسترة قصيرة ضيقة من الحرير ، وربطة عنق زرقاء داكنة عقدها مزمومة بأسلوب فني فحوّلها بذلك إلى شريط سائب . ثم فحص نفسه في المرآة بصورة عابرة ليرى هل استقام حاله ، وما عاد ينقصه شيء ، ولا يؤخذ عليه شيء ، وبَرَم شاربه الصغير لكي يبدو للناس دونما تهيُّب ، وسار مختالاً وهو ينشد أغنية رنانة ، عند العتبة . ذلك لأن أبهة الفروسية النظيفة الأنيقة بعثت في نفسه جرأة الجسد وحب الاستمتاع بالحياة .

وعند باب السقيفة تلقته أخته بألوان المجاملة والرجاء . وقالت تتوسَّل إليه : «ياكونراد ، لا تدفع بالأمور إلى حدها الأقصى . دَعْ ذلك من أجل خاطري . ماذا يضيرك ، إذا خرجت عليها اليوم ، أو في مرة أخرى ؟» .

وردّ قائلاً بحدة : «إن ما يدهشني ، على النقيض من ذلك أن أطّلع على ذلك من أحد غيرك ، عندما يأخذ القوم مني الفرس ليسي ، من وراء ظهري . أم تراك تحتملين هذا الذي يصنعه والدي الآن أيضاً ؟» وعندما كان يتكلم نحّاها جانباً ، بيد رفيقة ، على عجل .

وقالت تعترض عليه وتلومه : «والسيد المستشار الإداري الذي ينتظر ليسي ، التي وُعِد بها!» .

«وُعِد بها ؟ المسألة تتوقف على من وَعَد . أما أنا فلم أعِدْ . وأخيراً فإن الحصان الأشهب ، أو المبرقش ، أو الأدهم ، يؤدي كل منهم هذه الخدمة بالقدر ذاته بالضبط . ولا يحتاج القوم إلى أن يختاروا ليسي ، فرسي أنا على وجه الخصوص بدافع مجرد المكر» .

وردت قائلة وقد شعرت بالإهانة : «هكذا إذاً! لو أن كاتري سألتك ذلك لسلّمت لها به على الفور!» ثم صاحت به من ورائه :

«والقفازان ، القفازان ، أنت لن تخرج ، بلا ريب ، من دون القفازين!» .

وفي الطابق الأوسط كانت الأم ترتعد عند باب حجرة النوم ، وقالت في نَفَس ضعيف : «أتريد أن تقضي عليّ وتجعلني تحت التراب في النهاية ؟» .

وردّ قائلاً في برود وهو يخطو ماراً بها : «كلاّ ، بل أريد أن أعيش أنا قليلاً بعد أن جئت إلى هذه الدنيا وقُضِيَ الأمر ، ولم يكن ذلك ذنبي ، وهذا

يعني ، بشرط أن يكون المرء ما زال قادراً على أن يعيش على وجه الإطلاق إذا كان الناس يزهّدونه في كل متعة من متع الحياة ، ويفسدون عليه كل بهجة من مباهجها ، وكل ضحكة ، وكل حركة حرة طليقة ، ويدمغون كل كلمة بريئة بأنها جريمة» .

وفي طريقه إلى حجرة الهاتف الصغيرة ، حيث كان قد علّق سوط الركوب سمع أباه وقد ثارت ثائرته ، في حجرة الجلوس ، وكان يقول : «سوف أقتله ، سوف أرديه قتيلاً مثلما يقتلون الكلب المسعور» .

وصاح كونراد قائلاً : «هذا خليق أن يتيح للمدعي العام شغلاً يشتغل به» .

وعلى الرغم من أنه كان يعرف أن أباه لم يستطع سماع الكلمة فقد أتاح له الهتاف بها مع ذلك شيئاً من الرضى والارتياح .

وحين خرج إلى الساحة بعد تسليم سوط الركوب ، والمهاميز تَصِلُّ في قدميه ، نحو ليسي التي كانت تقف جاهزة والحوذي يمسك بزمامها وقد أسرجها وألجمها ، كانت تجري وراءه خطوات مرتبكة ، متثاقلة ، وكان ظل يسبقه ، وكان يسمع نَفَساً مُجْهَداً كالحشرجة ، وفي نظرة جانبية سريعة عرف والده ، وكان مسلحاً بسوط ، ولكنه كان معكوساً ، إذ كانت قبضته نحو الأعلى ، وقبضة أبيه تمسك بمنتصف العصا .

هنالك جعل يتفحص الأعنّة والرِّكاب ، بتكلُّف متعمَّد ، ويفحص اللجام ، ويختبر بيده المبسوطة التي مدَّها نحو الأسفل ، حزام السَّرْج ، ويلاحظ مع هذا كله كل حركة تصدر عن والده ، وقال : «شُدَّ حزام السرج درجة واحدة ، يابينيدكت ، فإنه غير محكم»

وبينما كان الحوذي يستجيب للطلب ، كان هو يحادث ليسي حديثاً

ودياً ، وكانت هذه ترهف أذنيها بانتباه ، ثم تردُّهما على أثر ذلك إلى ما كانا عليه واحداً بعد الآخر .

وكان بعض الناس قد تجمعوا في الساحة ليتأمَّلوا الحيوان الصغير المزوّق ، بطاقمه المزيَّن ، ولكن كان ينبعث من داخل المنزل توسُّل مكبوت من أصوات نسائية متفجِّعة .

«أبتاه! لا تجنِ على نفسك! فكِّر في الرب ، وفي المسيح! » .

«ياكونراد ، كيف تستطيع أن تتحمل مسؤولية هذا تجاهنا وتجاه ضميرك! » .

وكانت شخوص حائرة ، تتشابك أيديها في خوف لا معنى له ، تهرع إلى الأمام وإلى الوراء ، في غير تصميم ، وفي تطلُّع مشوب بالوجل ، إلى الدخول فيما بين الوالد وولده ، وعلى أثر ذلك انتاب ليسي الاضطراب ، وأخذت تتراقص ، وبدت عليها سيماء الرغبة في رفع رجليها ، والضرب بقوائمها في هذا الاتجاه أو ذاك .

وقال الحوذي في محنته وهو يمط بوزه ، إذ ما عاد يتحكم في الحيوانة الصغيرة : «هلاّ ابتعدتم عن الفرس ، بحق الشيطان ، أيها الجمهور النسائي الملعون» .

وفي اللحظة التي تأهب فيها كونراد لاستلام الأعنّة من الحوذي وضع الشيخ نفسه بساقيه المتباعدتين في موضع أكثر استحكاماً ، ورفع ذراعه الطويلة استعداداً للضرب بعصا السوط ، ودوّت أصوات نصف مكبوتة ، من الفزع ، وانتاب الفرس الصغيرة الفزع فوثبت وثبة مفاجئة في نصف قوس على محورها ، وجعل الحوذي الذي كان يثبت قدميه مثل جذع الشجرة في

الأرض ، يستنزل اللعنة على كل ما في التقويم من أسماء . أمّا كونراد فقد وجه نظرة عدائية ثاقبة إلى عيني أبيه المتوقّدتين بالغضب .

هنالك تقدمت كاتري بهدوء ، في خطوات طويلة ، ووضعت يدها على ذراع سيد قصر «الطاووس» وقالت له برزانة ، وبلهجة توكيد عالية : «ياسيد ريبر ، هذا الجواد لا يحتمل السوط ، فهو على كل الأحوال ناريّ بما فيه الكفاية ، والأفضل أن آخذ السوط أنا» وأخذت من يده السوط ، برفق ، ببساطة وثقة ، وكأن هذا أمر بدهي .

غير أن الشيخ كان يبلغ من ذهوله أنّ هذا حدث قبل أن يقرر هل يصبر على ذلك أم يقاوم .

وفي هذه الأثناء كان كونراد قد وثب على السرج برشاقة وخفة ، على الرغم من ضخامته ، وركب الآن ، وهو يقدم إلى كاتري تحية عسكرية مع ابتسامة ودية ، وهو يخطو مبتعداً على نحو مطرد .

ولكنه سمع وراءه صياح أخته المتذمّر ، إذ قالت : «تبدو الأمور تماماً كما لو أن كاتري هي الحاكمة في قصر الطاووس» .

وانعطف خارجاً إلى القرية ، دونما خطة ، يتابع الدرب ، نازلاً على تخم الحقول ، خلال شارع أشجار الكرز ، نحو الخط الحديدي ، حيث وجد معبر الخطوط مقفلاً .

وقال عامل المزلقان وهو يدمدم في مودة : «في وسعك أن تعبر على راحتك بعدُ ، ورفع الحواجز ، ولكن كونراد استبقه ، في الجانب الآخر من القضبان ، إذ وثب بالفرس في رشاقة ، فوق الحواجز الخشبية ، في اندفاعة مؤلفة من مرحلتين ، إلى الأعلى فجأة ، ثم إلى الأسفل ، متحكماً في الوثبة ، كابحاً جماحها .

ثم تابع اندفاعه ، بين المحطة وإدارة مقصف المحطة . وألقى عليه من الاتجاه الأيمن ، ناظرُ المحطة ، تحية مزاجية ردّ هو عليها بالأسلوب ذاته ، إذ قال : «رحلة سعيدة ياسيدي آمر البطارية» ، فأجابه كونراد :

«أتمنى لك الكثير من البهجة والسرور يامدير المؤسسة» .

وكانت صاحبة المقصف تقف قبالته ، في الناحية اليسرى ، أمام المقصف ، وهي القائمة على تقديم الشراب ، وطفل صغير على ذراعها كان يحملق فيه مندهشاً بعينين ذَوَاتَيْ أبعاد فائقة .

وقالت وهي تضحك للطفل ناظرة في عينيه ، وكانت تهزّه مثلما يهز المرء كيساً من التِّبْن لتنبه فكره : «أرأيتها ، أرأيت الفرس ، كيف وثب بها فوق الحاجز ، السيد صاحب قصر «الطاووس» ؟» .

وقال الطفل الصغير وهو يُتَأْتئ منتفضاً : «هو . هو» ثم أطلق صرخة هائجة معاندة ، لأن صاحبة المقصف كانت تفترس وجهه من فرط سعادتها . ولكن وراء سياج الحديقة ، تحت شجرة الكستناء المزهرة ، كانت تتسكّع جوكوندا التي يسمونها ابنة أخت صاحبة المقصف ، بخصلات شعرها المشعَّث التي لا نهاية لها ، ولا طريق ، تائهة كالغابة البكر ، فيما يدل على البلاهة . وفتحت عينيها حتى أصبحتا مثل عجلة المحراث ، ولم تصدر عنها مع ذلك حركة ، سوى أنها قضمت أظافرها . وكانت ترتدي في هذا اليوم ثوباً أحمر وهاجاً كالنار ، للزينة ، ولكنه كان ثوباً لا شكل له ولا حزام ، بالطبع ، كما كان شأنها دائماً ، بل كان فضفاضاً مثل ثوب النوم ، ولم يكن ينقصها لكي تستكمل صورة الشريدة سوى القدمين الحافيتين .

وتجنّب ، عن قصد ، توجيه التحية إلى الأولى أو إلى الأخرى ، بل واصل اندفاعه معرضاً ببصره . وأخيراً ، حين وصل من الأمام إلى الطريق الزراعي

الذي أفضى إليه طريقه ، غمز فرسه من أجل عَدْوٍ خَبَب ، في الاتجاه المؤدي إلى حمام الاستشفاء . ومالبث أن قصرَّ الأعنة أثناء ذلك ، لأن أفكاره ظلّت عالقة بالبيت ، وكانت هذه الأفكار تشده إلى البيت كأنَّ لها خطاطيف طويلة . ثم لماذا كان يسير متمهِّلاً إلى الأمام ؟ ، ما دام لا يقصد إلى أية جهة معينة ، وبعد أن أثبت أنه هو وحده صاحب الحق في التصرف بالفرس ، تحقق غرضه . ولكن كانت المسألة الرئيسة تتمثل في أن الخطر الذي كان ينتظره في البيت كان يجتذبه . وكان يحس بهذا : فالرجل الحق لا يؤجل المصاعب إلى المستقبل ، ولا يتحاشى الكفاح ، بل يتصدى له ، فاستدار على عقبيه ، وعثر على الطريق الذي خلّفه وراءه ، من جديد ، مسرعاً حتى لقد بلغ معبر الخط الحديدي مرة أخرى خلال دقائق قليلة . وفي هذه المرة كان ثمة قطار قد دخل منذ هنيهة ، وكان قطار ثانٍ ، على مسافة لا تحيط بها العين يقف على جانب الوادي في انتظار إشارة الدخول . هنالك اعتصم بقدر غير قليل من الصبر ، وأرخى الأعنة ، وانتظر أمام الحاجز ، حيث كانت ليسي تتشمَّم بمناخيرها المبتسِمة ناظرة في فضول إلى نوافذ العربة ، وكأنها تريد أن تقول : «هل يستطيع أحد منكم أن يعيرني منديل جيب ؟» .
وكانت عربة من عربات الدرجة الثانية ، وكانت وجوه أصابها الملل توجه أنظارها إلى الخارج ، نحوه ، صامتة ، متجهّمة ، كأنما توشك أن تنبح في اللحظة التالية . كلاّ ، إذا نظرنا من وجهة محايدة تماماً فقد كان وجه ليسي وجهاً أكثر إنسانية بدرجة حاسمة . وإلى جانب هذه ، كان يُسْمع من الدرجة الثالثة صخبُ ضربِ أقدامٍ بالأرض ، وزمجرة ، وموسيقا نحاسية ، وكانت رؤوس تنحني خارجة من النوافذ ، وداخلة ، مع حركات عنيفة ، زائدة عن الحد ، غير ذات هدف ، وكانت أسراب من الناس تنطلق كالسهم صاعدة على الدرج ونازلة ، فينشأ عنها أشكال من الصدام . ولكن كانت كل الأنظار

تتعلق به شيئاً فشيئاً ، هو الفارس السامق الوحيد ، لتندهش من الظاهرة الجديدة البالغ عمرها عشرة آلاف عام ، وهي أن مخلوقاً يمشي على ساقين يقعد على ذي أربع . ولمّا لم يكن من طبعه أن يدع نفسه عرضة للمسافرين الفارغين يحملقون فيه كأنه أعجوبة تُعْرَض في السوق السنوي ، فقد لوى عنان فرسه ، وجعل مؤخرتها موجهة نحو العربة .

وناداه صوت معروف من آخر العربات ، يقول : « كونراد ، هل تكون في البيت حوالي الساعة السادسة من مساء اليوم ؟ » .

وكان هذا لويْتولف ، الملازم في فوج إطفاء ڤالديسهوف . وكانت خوذته الفضية ذات الشعر الكثيف الأحمر الأرجواني تلتمع من مسافة بعيدة ، وظهرت إلى جانبه خوذات نحاسية كبيرة العدد .

وقال كونراد يسأله : « ولماذا ؟ » .

« سنقوم بنزهة إلى روبيستال ، على شرف عملية فحص أجهزة الرش ، ونفكر في أن نعرِّج في طريق عودتنا على « الطاووس » .

وأجاب بالإيجاب بعد شيء من التردد ، إذ لم يكن لديه سبب معقول للرد بالنفي . ثم إنه كان يفضل معاشرة أهل ڤالديسهوف ، من حيث كونهم أناساً طيبين ذوي مروءة ، مخلصين لواجباتهم ، على وجه الخصوص .

وكان يلوح من الشطر الأمامي للقطار ، قريباً من القاطرة ، منديل جيب يلوِّح به امرؤ بغير انقطاع ، إلى أن تبيّن له أن الراية الصغيرة الخفاقة قد يكون هو المقصود بها ، وحين تقدم نحوها عرف عمته .

وصاحت تهتف له بصوت لاهث إلى أقصى الحدود : « وداعاً ياكونراد! افرح وامرح! وحسِّن نفسك! ـ أنت تتميّز تميُّزاً حَسَناً على فرسك ـ أجل ،

كوب الخيل ، والحياة العسكرية ، وأمثال هذه الفنون التي لا تطعم خبزاً ، ذه الأمور لابد للمرء أن يعترف لك بها ، فأنت تعرفها بحذافيرها ، وفي نابل ذلك يعد المحراث والعمل به في الأرض وضيعاً في نظرك ، وقذراً ؟ » .

وكانت العمة تبدو له على البعد عزيزة وأليفة ، حتى لقد أثر هذا في سه وكأنه شعر أنه في بيته تماماً ، ولمّا كان القطار آخذاً في التحرك ببعض جهد ، فقد ردّ عليها وهو يلوِّح بيده قائلاً : «عودي قريباً ، فأنا في تظارك» .

وقالت تزعق : «الانتظار يسبب الصداع!» .

وكان القطار قد أخذ يتحرك في هذه الأثناء ، وختم قائلاً : «إذاً فسوف تين ، فقد وعدتني» .

وقالت تجأر بأقصى طاقة جسدها : «سوف نرى عندما يحل الظلام» صاحت بأقصى جهد لها ، وهي تخرج جذعها من النافذة وتنحني : «انتبه ن ، لئلا تنزل مصيبة من جديد ، هذه المرة» .

ثم ما عاد صوتها يصل . وباتا الآن يلوِّح كل منهما لصاحبه ماداما ستطيعان أن يميّز كلٌّ منهما الآخر ، وحتى هنيهةً بعد ذلك ، في مراعاة لاتجاه فحسب . وشيئاً فشيئاً توارت العمة مع القطار المبتعد بسرعة ، في تربة التي غامت أمام الأنظار مخلّفة وراءها بريقاً ودياً ، مثل نجمة صغيرة رف المرء اسمها .

ولكن طول احتماله ما كان ليكفي الآن لينتظر أيضاً قطاراً آخر ، في بر ، إذ كان هذا القطار زحف زحفاً وئيداً ، عن قصد ، وكان يبدو عليه أنه يريد أن يستقر إلى الأبد أمام المحطة . ولذلك توجه بعيداً عن القضبان حديدية بضعة أمتار ليُخالِس الزمنَ عن طريق الحركة .

وفجأة أمسكت به جوكوندا ذات العينين الكبيرتين التي كان قد رآها هنا مثل بخار الطعام المتبّل في العَرْض ، حين وصل إلى جانب حديقة المقصف الصغيرة ، لدى رؤية باقات أزهار الكستناء الحمر على شجرة الحياة* الضاربة إلى السمرة . وكان القوم يتجنبون إدارة شؤون المحطة ، بسبب جوكوندا ، ولم يكن هو يفعل أقل من ذلك ، مثل أي امرئ آخر . ولكن في هذا اليوم كان يستحوذ عليه العناد ، حتى بات ما كان يبدو له محظوراً أولى بالإقدام عليه مما عداه .

وعلى هذا فقد عرّج على الحانة مُعْتزِماً أن يتخذ من ذلك وسيلة يتخلص بها ، بخشونة ، من كلٍّ من يجعل من هذا مأخذاً عليه فيما بعد . فوثب عن الفرس ، وسلّمه إلى الأجير الذي كان يمشي نحوه متعثّراً ، وقال يأمره : «أدخل الفرس إلى الحظيرة ، ولا تسلّمه إلى إنسان آخر ، كائناً ما كان ، أفهمت ؟» .

وأقبلت صاحبة الحانة تبتسم ابتسامة الرضى ، في خطوات قصيرة ، مفرطة في إظهار ألوان السرور في الترحيب به ، بادئة بالحديث المستفيض عن الشرف الذي لم تكن تؤمّله .

وقال يقاطعها : «وهكذا دواليك ، إلى آخر المعزوفة!» .

وقالت تعنّف جوكوندا ، وهي مسرورة ، في مدخل المنزل : «ياجوكوندا ، هيّا احزري من يشرّفنا الآن بزيارته! ـ سوف تفتح هذه عيناها إلى آخر مدى! لو علمتَ فحسب كيف تنظر إليك خلسة ، كلما مررت على صهوة جوادك! هذه المسكينة التعيسة ، وكأن ثمة تلاؤماً بين ابن سيد «الطاووس» المزهوّ بنفسه ، وجوكوندا المزدراة عند المحطة! جوكوندا!

* نوع من السرو

جوكوندا! أين أذناك ؟! » . وكانت في بعض الأحيان ترفع الطفل الصغير الذي كان يتعلق بردائها ، عن الأرض ، وأضافت قائلة لولدها على سبيل التحية له : «ألا ترى ، هذا هو الآن السيد الجميل ، الذي وثب بالفرس فوق الحاجز الخشبي . تأمَّله بدقة ، فمن يعلم كم يمضي من الزمن إلى أن يتيح لك الحظ مرة أخرى أن تراه عن كثب ـ اسمه كونراد مثل اسمك» .

وقال متفضلاً على سبيل المؤانسة : «إنه طفل صغير جميل ، ما أروع عينيه المخمليتين! إلى من ينتمي ؟ فهو يكاد يشبه جوكوندا إلى حد ما» .

وارتسمت على وجه صاحبة الحانة سيماء الخبث ، وهي تحس بالحرج ، في مكر ومرح ، وقالت آخر الأمر وهي تنفجر بالضحك : «من المؤسف أنه يشبهها أكثر مما ينبغي» .

وفي هذه الأثناء كانت جوكوندا قد تفضلت بالتقدُّم إليه ، بنفسها ، في ليونة وثِقَل ، وقد ارتسمت على وجهها سيماء الخادمة المستعدة للخدمة ، ولكنها لم تكد تتبيّن ابن صاحب قصر «الطاووس» حتى تسمَّرت في مكانها وقد فغرت فاها ، وسالت دمعتان كبيرتان على وجنتيها .

وقالت صاحبة الحانة توبخها : «هلاّ تصرفت بلياقة ، أيتها السُمَانة البليدة ، سلِّمي على السيد ريبر ، واذهبي به إلى الحديقة الصغيرة ، ودُلّيه على الطريق» .

وأشرقت جوكوندا الآن بكل مساحة وجهها الطيب ، وتقدمته إلى الحديقة الصغيرة ، وهي لا تفتأ تنظر إلى ما حولها ، لترى هل يتبعها هو أيضاً ، بلحمه ودمه ، ولمّا كانت دموع جديدة تنهمر على نحو متواصل فقد مسحت بذراعها فمها وأنفها . وقالت تعتذر إليه : «أرجو ألآ تؤاخذني ، ياسيد ريبر ، فأنا مخلوقة ساذجة إلى حد لا يُصدَّق . هل تريد أن تجلس في

الكوخ الصغير ؟ أم في العريشة ؟ أم ربما هناك في الركن ، تحت شجرة الكستناء ؟ » . وعمدت في أثناء ذلك إلى طرد دجاجة كانت تتنزه فوق إحدى المناضد ، بالتصفيق بيديها .

واختار الوسط الخالي ، حيث كانت شجرة الكستناء ما تزال تمد ظلالها إلى حد ما ، وحيث كان قصر الطاووس يظل تلقاء عينيه في الوقت ذاته ، وكان هذا يطل من الرابية كحصن في أحد الاستحكامات .

وقالت جوكوندا تسأله في غبطة وسعادة : «أتريد شراباً أحمر أم أبيض ، أحمر ، على الأرجح » .

وحين أومأ بالموافقة ، بلا مبالاة ، غادرته مسرعة ، تحدوها روح الخدمة .

أمّا هو فقد نشر أطرافه ، وجعل يسرِّح بصره فيما حوله : كان ثمة عدد من الروّاد ، يبلغ عددهم سبع أو ثمانية تقريباً ، يقعدون القرفصاء في الحديقة الصغيرة في ملل . وكان روّاد جدد يتوافدون ، من باب الحديقة الصغير حيناً ، ومن مدخل المنزل حيناً آخر . وكان خط السكة الحديد خالياً . وبموجب ذلك كان لابد أن يكون القطار الثاني قد خرج أيضاً في وسط هذه المدة . وكان حشد من جمهور المدينة وجمهور الريف يموج بعضه في بعض ، في جموع كثيفة ، صاعداً إلى تخم الحقول ، نحو قصر الطاووس ، وكان يبدو أنه نزل من القطارين كليهما . وكان معظمهم يتجهون يساراً ، نحو شارع الكرز ، وكان آخرون يسيرون عبر المرج ، على طريق المشاة ، وكان أفراد قلائل يسيرون على اليمين أيضاً ، في طريق العربات ، على طول الكرم . وكان فيهم فرقة موسيقية تحمل آلاتها المحفوظة في علب مغلّفة بالقماش الأخضر بعناية ، تحت الأذرع .

والحق أنه لم يكن من الممكن تصوُّر إطلالة أفضل من هذه على قصر الطاووس . إذ كان هذا ماثلاً أمامه كما لو كان موضوعاً على طبق ، في مظهر ينم عن الجلال ، على مرتفع بارز ، مهيب في نطاقه البعيد المدى : فإلى اليسار منزل الضيوف ، وفي الوسط الشرفة الأرضية المسوَّرة ، بما فيها من أشجار السنط الصغيرة المدوَّرة كالكرة في صفوف منتظمة ، وكانت هذه ما تزال قليلة الخضرة في هذا الفصل من السنة ، ووراء الشرفة الأرضية توجد قاعة الرقص ، وكان يوجد أخيراً ، على اليمين ، حيث ينتهي جدار الشرفة الأرضية ، مخزن الحطب ، وساحة لعب الكيجل . وكان المكان الطلق بينهما تعبره السنونو طولاً وعرضاً ، صاعدة ونازلة ، كالأحجار المتساقطة ، وكانت تسبح في الأعالي ، في قبة السماء ، نُدَفٌ خفيفة من السحائب .

غير أنه لم يكن يرى هذا كله إلاّ رؤية عابرة لأنه لم يكن يستطيع أن يتجاهل رؤيته أو يغض النظر عنها ، إذ كان بصره يلتمس شيئاً آخر هناك في الأعلى ، كان يلتمس امرءاً تتوجه إليه كراهيته . ولمّا كان البصر لا يصل إليه ـ إذ كانت المسافة مفرطة في البعد ـ فقد وصل إليه بأفكاره .

وإذاً فقد كان شيخ اللؤم يريد أن يضربه بالفعل ، بعصا السوط ، على رأسه!

وعند هذه الذكرى ضربت قبضته المائدة بعنف حتى ترنَّحت ، وأعادها إلى موضعها من جديد وقد شعر بالخجل . وقال مصحِّحاً : كلاّ ، إنه ما كان لسانه ليزِّل بحق الأب ، على الرغم من كل شيء ، إذ كان ما زال يعرف نفسه حق المعرفة ، على أية حال ـ بالطبع ، في حالة الدفاع الاضطراري ، وفي حالة الغضب المفاجئ ، عندما كان تأثير الشتيمة يستعر في النفس والجرح يلسع! ـ ومن أجل ماذا ؟ من أجل ماذا بربك ؟ وماذا اقترفت يداه ياترى ؟ فليأت إنسان واحد ليقول له ماذا جنت يداه!

ودارت عيناه ، وتقلصت أصابعه وهو يرسل نظرة الصقر إلى منزل 'ضياف . ولبث هنيهة من الزمن مطرقاً شارد الفكر ، وقال وهو يصرّ على سنانه فجأة : «مجرم!» وجعل يكرر هذه الكلمة المرة بعد المرة ، كأنما مكره وَقْعُها الدموي ، وكان يكررها أول الأمر على وقفات طويلة ، ثم على نفات أقصر . وأخيراً ، في المرة السادسة ، انطلقت كل الأفكار من عقالها ، كان يطرح أباه في القبر وكأنما يفعل ذلك بخنجر ، في رغبة لاهبة ، لا حسب لشيء حساباً ـ وعلى أثر ذلك تنهّد وقد سُرِّيَ عنه . ياله من خلاص! ـا عاد ثمة شجار ، ولا تبرُّم . فهو الآن سيد في المنزل وفي منزل الأضياف ي الحقل محترم ومبجَّل ، ومقدَّر ، يُخشى بأسُه . وما عاد ثمة أحد يجرؤ ، ـذ الآن على توجيه توبيخ إليه . وسوف يأمر بما يروق له ، وما يأمر به سوف يحدث!

وأخذت نظراته الآن تستحوذ في رغبة وطمع ، على أملاك والده ، قطعة لعة ، وفداناً فداناً ، وشجرة فشجرة ، هاتفاً مهلّلاً ، مكشّراً ، كالصقر الذي شِب مخالبه التي تُخدِق بالقُبّرة .

ولكنَّ تأمُّلَ الرابية التي تتفجّر بالألوان نقله شيئاً فشيئاً إلى التَّفَكُّر ، ثم لـه التفكُّر إلى الأحلام . ولاحت لعينيه صورة : سرادق احتفالي ، في سفل ، عند الرابية ، في المرعى ، يُحْجَز لكل رجل بطاريته ، من ضباط جنود ، وعلى مستوى ممتاز ، مع أطعمة منتقاة لم يشهد أحد في البلاد لها ، مع فرقة كونستانس الموسيقية ومفاجآت للضباط على مائدة الفاكهة حلوى ، وهدايا للجنود يفترض أن تظل بالقياس إلى كل فرد منهم ذكرى وم طول حياته . وظلت هذه الصورة ماثلة وقتاً طويلاً ، واضحة صافية . ثم ذت تترنح وتهتزّ ، وظهرت أخرى : في المكان الذي أُعِدَّت فيه الآن قاعة

الرقص القديمة القبيحة بنى منزلاً صغيراً ، إلاّ أنه جد متواضع ، في كسوة من الألواح الخشبية ، بلا أسلوب معماري ، ولا شرفة ، ولا حمام ، ولا تدفئة مركزية ، ولكنه مؤنس مريح ، فيه غُرُفات تبعث على البهجة ، ترتفع ثلاثة أمتار على الأقل ، ومطبخ فسيح يسطع فيه ضوء النهار ، وخزائن في الجدار ، بالقدر المناسب ، وعريشة عريضة ، مريحة ، لكي يستطع المرء أن يأكل في الهواء الطلق . وكان البناؤون يقفون على الهياكل الخشبية ، من الإيطاليين أو الفرنسيين البارعين ، من تيسين* الدنيا ، يغنون كالقبُّرات ، من الصباح إلى المساء ، وكان المصورون يعملون في الأسفل في أدراج النوافذ الخضر ، من الألمان الصيادين ، من الشمال في مخمل الصيادين والقبعات ذات الإطار العريض المتدلي ـ وخيِّل إليه أنه يشم رائحة الألوان . وكانت آنا تنظر إليه من فوق كتفه اليسرى ، والطبيب من فوق كتفه اليمنى . ودمدم الطبيب قائلاً بلهجة المتفوق الذي يعرف كل شيء : « أي شيء هذا الذي تبنيه هنا في الحقيقة ؟ . ذلك لأنه لم يكن موهوباً على وجه الخصوص على الرغم من تقديره لعلمه وأنه لم يكن لديه أدنى اعتراض على صهر المستقبل ، وقد كان الدكتور خليقاً أن يعترف هو نفسه بهذا لولا أنه كان على جانب من المحدودية . وأجابت أخته إجابة من عيونها الذكية الجميلة ، قائلة : « إنه شيء غير عمليّ على أية حال » . والمرء يعد دائماً غير عملي في نظر النساء . أمّا هو فقد أخرج ، برزانة ، وثيقة من جيبه ، وسلّمها لكليهما . وإذا دموع الفرح تنهمر من عيون الأخت في فمها الفاغر ، حتى إنها لم تكن قادرة على أن تشكر له على الفور . وكان الطبيب ما يفتأ يضغط على يده ، قائلاً : « ولكن ياكونراد ، ياكونراد ؟ أين يذهب بك التفكير ؟ فما كنّا لنقبل هذا منك أبداً » .

* كانتون في أقصى جنوب سويسرا

وكان جُعَل أيار يتدحرج رأساً على عقب فوق المنضدة ، متقلّباً متخبّطاً ، لكي ينهض قائماً على قوائمه ، وبعد أن قضى عليه ، بدافع من ضميره ، وفي كراهية منه لذلك ، على حد سواء ، تابعت أفكاره مسارها من جديد . وقال في نفسه إنه كان من المؤسف تقريباً ، من وجهة نظر معينة ، أن تقفز كاتري إلى هذا المشهد . وقد كان في وسعه بلا ريب أن يعرف هل يحس أبوه الشيخ أن الهجوم عليه يثقل على ضميره . والحق أن هذا كان إنجازاً له شأنه ، إذا نظر إليه في حدّ ذاته ، بهذا القدر من الهدوء والبساطة ، وبهذه الثقة التي تنبئ عن التفوّق ، في مواجهة الجبار المجنون ، الذي كان مؤهلاً لكل شيء وقادراً عليه ، بينما كانت الأخت والأم تنظران وهما تتوسلان توسُّل العاجز الذي لا حول له ، مكتوفتي الأيدي . ثم أيُّ لهجة تلك التي كانت تنطق بها! وصوتها على وجه الإطلاق! والحق إنه لا يعد في الحقيقة ذلك الصوت الذي يسمونه الصوت المتعاطف ، على الرغم من أن اللهجة كانت تقع مع الأذن موقع الرضى إلى أقصى الحدود : قاسية وباردة ، وكأن المرء يستل سيفاً من غمد مخملي . وفي هذه الأثناء كان الصوت الذي عاد على المرء بالإنقاذ في ساعة المحنة ، يمتاز بنواة خصوصية! وخُيِّل إليه كأنه دخل في تلك اللحظة مع كاتري في علاقة قربى ، وكانت في الحقيقة قربى حميمة ، أو لم تكن علاقة قربى ، وما الأقرباء ؟ إنهم أولئك البشر الذين ينغصّون على المرء حياته ، ويرون لأنفسهم حقاً عليه يرتبط بالبرهان على المحبة . والصداقة أحرى بذلك . فلماذا ، بحق الشيطان ، لا ينبغي للمرء أن يعقد أواصر الصداقة مع من يناسبه ومن يُحْسِن إليه ، على نحو مفاجئ ؟ فالصداقة ليست ، بلا ريب ، نبيذ تفاح طازج لا ينضج إلاّ شيئاً فشيئاً! وفجأة ابتسم وهو مطرق يفكر وكأنه وقع على شيء لذيذ المذاق ، وذلك أنه خطر بباله أن كاتري عذراء عزباء وهو

فتى مؤهَّل للزواج ، الأمر الذي كانت تنشأ عنه إمكانات مغرية كان يسترسل فيها حالماً .

وظهرت جوكوندا تحمل الخمر ، وتتهم نفسها بأسلوب الشتم التجديفيّ ، وتعتذر في هذه المناسبة عن التقصير الذي يستوجب العقوبة ، في نَفَس واحد ، بينما كانت تصبّ له بهمة فائقة . وقبل أن تغادره مسرعة من جديد لفَّت ذراعها حول وجهه على عجل لتعزِّيه ، كأنما تقدم إليه قطعة من الحلوى .

ولكنه أزاح عن وجهه اللحم الغريب ، في اشمئزاز ، ومضى في أحلامه الجميلة لا يلوي على شيء ، إذ لم يكن قد سمح لهذا التشويش أن يوقظه من أحلامه إلاّ بصورة سطحية . ومن الطبيعي أنه إذا أراد هو ، ووافقت هي ، مثلاً ، فسوف يصب ، هو التنين العجوز ، على هذا ، النارَ وألسنةَ اللهب ، وهذا أمر لم يكن يتطرّق إليه أدنى شك . ولو حدث هذا لكان أفضل ، وسيكون هذا عندئذ من باب أولى! وهنا وصل من جديد إلى النقطة التي كان يعود أدراجه عندها ، ضمن حلقة مفرغة : فقد وصل إليه ، إلى ذلك الذي لا يمكن تجنُّبه ، ولا يطاق ، إلى عدو طبيعته وخصوصيته ، وعدوّ رغائبه ومخططاته وآماله ، إلى العدو في كل شيء وعدو كل شيء ، في كل مكان ، وزمان .

واستحوذ عليه الحنق من جديد ، وتشنَّجت يده ، ولكن حول قدح الخمر هذه المرة ، وهو القدح الذي أفرغه بجرعة واحدة ، على الرغم من كونه خمراً حامضاً حديث العهد ممزوجاً بالماء ، وعلى أثر ذلك تحول الحنق إلى غضب ، ودفعه الغضب إلى الشرب من جديد . وسرعان ما تشوّش فكره ، وكان دُوارٌ يخدِّره ، حتى ما عاد يحس ، من جرائه ، إلاّ بالدم

يضرب صدغيه كالمطارق ، مع اقتران ذلك بالرغبة العارمة في الإقدام على أي شيء متسم بالعنف ، وتفضيل العنف العاجل على الآجل ، وكان الأحبُّ إليه أن يكون ذلك فوراً .

وكانت جلبة تتسم بالخشونة تدوي في مدخل المنزل ، تخالطها هتافات تهاليل احتفالية ، وأقبل الأجير ، مثل حامل المشعل ، منفعلاً ، واثباً حول الناصية ، وقال وعليه سيماء الجد : «لقد أقبل الفاجنجيون أهل ڤاجنجن الدنيا» .

وصاحت صاحبة المقصف بصوت يصك المسامع وهي تقفز من السرور : «أسرعي ياجوكوندا! الزجاجات والأقداح ، على قدر ما يوجد منها!» .

ولكن كان قد فات الآوان ، إذ كانت الحديقة الصغيرة قد غزاها رهط من شعب فظ غليظ ألقى بنفسه كالعاصفة ، على الكراسي ، محتلاً كل مكان صغير في مثل لمح البصر ، وكان سائرهم يروح ويجيء هنا وهناك كالزوبعة ، صاخباً في طلب الخدمة ، راغباً في الخمر ، وجُرَّت الكراسي مثلما تُجَرُّ الغنائم من الحجرات ، ورُفِعت على الرؤوس ، وأخذوا يتناقلون زجاجات الخمر بطريقة الرتل ، وأسلوب نجاري أسطح المنازل ، من يد إلى يد ، وكل شيء بأقصى قدر ممكن من الجَلَبة ، ولكن في سلام ووئام . وقال صوت بلهجة المنتصر : «اليوم نأخذ بخناق الفاجنجيين أهل فاجنجن العليا!» ، وقال صوت آخر ، ساخراً : «من الصعب أن يدوم الرقص في قصر الطاووس اليوم إلى منتصف الليل» . ودوّى ضحك يعبّر عن الاستحسان ، وجعلت قبضات الأيدي تتكوّر من باب التبجُّح والغطرسة ، ويُشار إلى العضلات المشدودة ، ويُهَزُّ بالعصيّ . ولكن رهطاً من النساء يظهر فيما بعد ، على استحياء ، فيزيد في نطاق المعمعة ، وكان ثمة رهط من العذارى

المتبرّجات تبرجاً احتفالياً ، على صدورهن غير الناهدة باقات من الأزهار البرية . وكن يدفعن بأنفسهن ، على وجل ، في الثغرات الموجودة بين جمهور الرجال ، سعيدات في غمرة اللطمات والركلات . ولم يكن ثمة خدمة تقدر على التغلغل وسط الدغل البشري . وكانت صاحبة المقصف أو جوكوندا ، كلما تجرأتا على الظهور أصابهما من الملامسات المحسوسة ما يحملهما على اللجوء إلى الهرب بأسرع ما يمكنهما . وكُنَّ في أثناء ذلك يُكْثِرن من الضرب بقبضاتهن ، سواء في ذلك أولاهما أم الأخرى ، وسط الزعيق والسباب المستنكِر ، مع اتّسام الوجه آخر الأمر بأقصى علائم السرور في الدنيا . وكُنَّ يَبْرَأْنَ من المرض على ما يبدو للعين في جحيم التحرُّشات .

ولم يجد كونراد وقتاً لينسحب قبل هذا الهيجان البشري العاصف . ورأى نفسه نتيجة لذلك مسمَّراً في مكانه حتى ما عاد أمامه سوى أن حشر نفسه في أضيق مجال ممكن . والحق أنه كان يحتمل هذا مستسلماً ، مثلما يتحمل المرء حدثاً من حوادث الطبيعة ، ولكن مع تكدُّر مزاجه إلى أقصى الحدود . وفجأة انتفض ، وأصاخ السمع . وذلك أن كلمات «قصر الطاووس» ، و«الخادمات» و«يداعب» ، كانت قد مَسَّته . وحين التفت برأسه بعد ذلك طالعه رجل فظ طويل ذو شدق مائل كسمك الشبوط ، وأذنين نافرتين ، زَلِق مثل دود الخرطون كان يتوقَّع منه شيئاً ما . وكان هذا في الواقع يقلِّب عينيه الشهوانيتين وهو يصفر ، وهمَّ كونراد أن يعرض ببصره في اشمئزاز حين اعتقد أنه يسمعه قائلاً يقول : «آنا الجميلة ، في قصر الطاووس» ، كلاّ ، بل قالها مرة أخرى ، حقاً ، بكل وضوح ، هذا الحقير : «آنا الجميلة في قصر الطاووس» .

وقال كونراد بلهجة آمرة ، وقد استشاط غضباً ، وعلى نحو بلغ من خشونته وإهانته أنه تعجب هو نفسه من ذلك : كانت لهجة بمثابة صفعة : «أنتم هناك ، لا تذكروا على لسانكم القذر اسم أختي» .

وعاد دود الخرطون أدراجه ، متردداً ، ولم يكن متعجباً بوجه خاص ، وجعل يتأمل الخصم زمناً طويلاً بنظرة متربِّصة ، ثم ردّ عليه بصوت واهن ، قائلاً : «ولكن اختك لا تذكر بسوء على الإطلاق ، ولا بأدنى قدر منه ، بل على النقيض» .

وحَسِب كونراد أن المسألة انتهت عند هذا الحد . ولكن الآخر ما عادت نظرته الغادرة تفارقه ، وقال هامساً : «يحق للمرء أن يذكر حتى اسم الرب ، وعلى ذلك يباح ذكر اسم الآنسة ريبر أيضاً . وأخيراً فهي إنسانة مثلنا ، أم ما عساها تكون غير ذلك ؟» .

وكان ما يفتأ يعود إلى الشروع في الكلام وكونراد معرض عنه في ازدراء ، ولكنه كان يصغي في نفسه ، مثل النمر الذي يستثار ويظل مسيطراً على نفسه إلى حين .

«ليس من الضروري أن يكون الفم قذراً لأنه يأكل الخبز الأسود بدلاً من الخبز الأبيض . فهناك أفواه تفترس الدجاج وهي مع ذلك قذرة» . ومضى قائلاً : «إذا كان المرء غنياً ، له في الحظيرة فرس ، وفي الخزانة حلة عسكرية ، فليس من الضروري أن يخاطب الناس ، من أجل ذلك ، بمثل هذه اللهجة المتكبرة ، وكأنه يرفسهم رفساً كما يفعل المرء برأس من الماشية التي لا تعقل» ثم قال بعد هنيهة ، من جديد : «ثم إن السيد الملازم لا يصدر أوامره بهذا الصوت المرتفع دائماً . ففي البيت ، في قصر الطاووس ، عندما يكون ، أمام والده ، يتحدث بصوت أكثر ليونة ... ، هذا إذا تجرأ على الكلام على وجه الإطلاق» .

ودوّت تصفيرة جهنمية من خلال الأصابع ، على سبيل الإنذار ، وتردّد صوت يقول : «الڤاجنجيّوْن أهل ڤاجنجن العليا!» في مثل صيحة إعلان النفير .

وزمجرت عشرات من الأصوات من حناجر ذات صوت أجش من جراء الخمر ، تقول : « أين ؟ » .

وزعقت أصوات أخرى تقول : « إلى الخارج! » وعبرت السور قوة القرية بكامل أعدادها مثل قطيع من الأيائل ، لتلاحظ العدو . وكانت تسوي بالأرض كل ما كان يقف في طريقها غير عابئة بشيء ، بما في ذلك المناضد والأدوات ، والكراسي ، مع الشاربين القاعدين عليها ، كائنين من كانوا .

وكان كونراد يتماسك ما دام يتلقى صدمات بمجرد المصادفة فحسب ، وعندما جعلوا يطؤون قدميه ألقى بأولهم ، بلا تردد ، فوق الكومة ، مدافعاً عن نفسه ، الأمر الذي لم يحمله هؤلاء أيضاً على محمل السوء ، بل كانوا ينتشلون أنفسهم من جديد ، غير مبالين ، وكأنما زلت قدمهم بكرسي ، وكان أقصى ما يحدث له أن يلوّح له الواحد منهم أو الآخر بقبضة يده ، بل أن واحداً منهم اعتذر إليه ، قائلاً : « ياإلهي ، استغفر الله! ياسيدي» وكان يقول ذلك متلعثماً ، برزانة ، وبتحية بليدة .

ولكن لكمة أصابته في ظهره مع ذلك بحدة ، وبقوة تعبير وإفصاح ، بلغ منها أنه أحسّ بالتعمُّد فيها ، وحين انتفض بسرعة البرق يلتفت حواليه ، فاجأ وراءه دودة الخرطون الذي ما عاد لديه مهلة لكي يضفي على وجهه سيماء البراءة ، بل بادر إلى الهرب إذ شعر أنه ضُبِط متلبِّساً ، متوارياً في غمرة الزحام ، وقد عقد ذراعيه فوق رأسه حماية له مثلما يفعل تلاميذ المدرسة . وطار وراءه ، وسط كومة البشر التي قسمها بعنف ، وأدركه عند

باب الحديقة الصغير ، فأمسك بخناقه ، وقذف به ، برفسة من قدمه ، إلى الشارع ، ولم يكن الرفس من عادته في الأحوال العادية . ولكن هذا استحوذ عليه في هذه المرة وكأنه وحي أو إلهام! هذا الرجل لم يكن له بدٌّ من أن يعامَل برفسة ، انتقاماً لشرف أخته ، وإكراماً للشّدْق المائل . وأحس بعد ذلك على الفور بارتياح وسرور منعش مستعذَب ، حتى لقد بات في وسعه أن يشاهد زحف جيوش الفلاحين المعادية ، بهدوء ، شأن المتفرِّج .

وكان الفاجنجيّون من أهل فاجنجن الدنيا قد باتوا ، جميعاً ، في الخارج ، في الشارع ، وفي أثرهم رهطُ النساء اللواتي كان فريق منهن يحذِّر وفريق يتعلق بالرجال في حب للمغامرة ينطوي على الفضول . وكانوا جميعاً ، بلا استثناء يكنون الاحترام الفائق للفتى المتجبِّر . وعقد هؤلاء أول الأمر مجلساً حربياً . «عندما تدق الساعة السادسة نباشر القتال ، لا قبلها ولا بعدها» . وكان هذا هو القول الذي كان يسري بين الصفوف ، ثم جعلوا العذارى في الوسط ، وعقدوا أطرافهم ، ثم ضغطوا القبعات حتى غطّت جباههم ، وتابعوا سيرهم برؤوس منكّسة ، نحو القرية ، وعليهم سيماء المنافقين . وأقبل تجاههم ، على مسافة بعيدة ، من جهة جانبية ، في حقل الذرة إلى اليسار من شارع الكرز أهل قرية الفاجنجيين أهل فاجنجن العليا ، مع نسائهم ، في حالة المتظاهرين بالورع ، على النحو ذاته ، وكانت كلٌّ من الكتلتين ترقب الأخرى في حرص على ألاّ تتسع المسافة بينهما ولا تقصُر . وكان أحد الرؤوس يبرز مارقاً من مؤخرة الجيش ، مثل ديك يريد أن يصيح ، ويرسل ، على عجل ، إلى العدو صيحة التحدي للنزال ، بصوت حاد مرتفع ، ثم يتوارى بسرعة وسط الكتلة البشرية . وهكذا كانت القوتان تزحفان رويداً رويداً ، نحو تخم الحقول ، تجاه قصر الطاووس .

وانتصر كونراد ، إذ كانت الجوزة تتضمن ، بالقياس إليه نواة حلوة . ألم ينصح والده ، عن قصد حسن ، بالعدول عن حفلة الرقص ؟ وأي جزاء لقي مقابل نصيحته الطيبة ؟ حسناً ، فلينظر إذاً كيف تكون العاقبة . واستقرت رغبة شيطانية في قلبه ، هي الرغبة في أن يرى الدماء تسيل ، رغبة النبي الذي تساء معاملته .

وحين توجه من جديد ، عبر الحديقة الصغيرة التي أقفرت وباتت قاعاً صفصفاً ، حيث كان سقط المتاع والقطع المحطّمة تتناثر هنا وهناك ، إلى مكانه ، تلقته جوكوندا وهي تتنهد ، وألقت بنفسها على كرسي إلى جانبه ، منهكة القوى . ويالهذا المظهر الذي ظهرت به! منكوشة الشعر ، ممزّقة الثياب ، قد أُهْرِيق عليها الخمر ، وتدلّت شفتاها ، وغاب بريق عينيها ، والعرق يتصبب من جبينها .

كانت هذه إذاً جوكوندا المُغْوِيَة التي كانت الشائعات تصوِّرها في صورة الخطيئة القاتلة المجسّدة! ألا إنها لخطيئة قاتلة تدعو إلى الرثاء! إن أقل ما يتوقعه المرء من خطيئة قاتلة ـ أليس كذلك ؟ ـ هو ، بلا ريب ، أن تكون باعثة للشهوة . ويلاه ، لكم تركت كل ذراع مُعَجَّرة من أذرع الفاجنجيين تروح بها وتجيء! وما من شك في أن القوم كانوا يعرفون على أية حال أنها لم تكن بالسيدة الطاهرة المُطَهَّرة . غير أن المعرفة والمشاهدة بأم العين ، تختلف أحياناً . وكان من الثابت أنْ ليس له مُقامٌ في هذا المكان . أي عاهر حمله على التوجُّه إلى هذه المباءة بملء إرادته ؟

ونظر إلى قبعته فإذا هي مضغوطة ، متكسِّرة ، يعلوها الغبار ، وقال يأمرها وقد استشاط غضباً : «عليَّ بفرشاة!» .

ونظرت إليه جوكوندا مذهولة ، وتسلّلت في استخذاء ، إلى المنزل ، وجاءت بالفرشاة .

ونظَّف قبعته وثوبه من دون أن تجرؤ عل أن تتولى العمل بدلاً منه ، وكان يتصرف بحزم وصرامة بالغة . وأخيراً قالت بصوت متلعثم ذليل : «هَوِّنْ عليك ياسيد ريبر! ولا تحمِلْ عليَّ! أرجو صفحك ألف مرة . ولكن لماذا لم يكن لك بدٌّ أن تختار يوم أحد على وجه الخصوص ؟ ففي الأسبوع من الأيام ما يكفي ، ياإلهي ، حيث كان في وسعنا أن نقعد معاً ساعات طوالاً من دون أن يكدِّر صفونا أحد ـ ماذا يجب عليّ أن أفعل فحسب لكي لا تنقم عليّ ؟» .

وقال يسألها ببرود وهو يهمّ بالنهوض : «كم يبلغ حسابي ؟» .

وإذا هي تلقي بنفسها عليه تتفجع بصوت عال ، وتشده إلى الأرض ، قائلة : «كلاّ ، كلاّ ، كلاّ» وجعلت تولول بصوت يدعو إلى الرثاء ، وهي تتشبث به يائسة ، وتقول : «كلاّ ، الآن لا تذهب وتغادرني مرة أخرى ، الآن حيث نخلو وحدنا أخيراً ، الآن حيث أصل إليك أول مرة في حياتي» .

وكان صوتها ينبئ عن محنة قلب حقيقية ، كما تشي بذلك عيناها وسيماء وجهها ، حتى لقد رقّ قلبه لها . وأخيراً فإنه سيأتي إلى المنزل مبكراً بما يكفي من أجل ما ينتظره هناك من مشاهد حلوة .

وعلى هذا فقد جنح إلى الاستراحة .

هنالك أشرقت في عينيها الطيبتين نجمتان صغيرتان تنبئان عن امتنانها ، فقعدت إلى جانبه ، ووضعت مع ذلك يدها على ذراعه ، في سوء ظن منها ، وكأنها كانت تخشى أن يفلت منها فجأة مثل كلب صيد أطلقه صاحبه أول مرة ولمّا يثق به ، ولكي تصرف عنه أفكار الوداع أغرقته بالثرثرة . وكان ذلك أول الأمر بمخزونها من الأقوال المأثورة ، ثم بالحديث

الأصولي ، شيئاً شيئاً ، حين أدركت أنه لا ينطوي على سوء قصد ، وكان حديثها صادراً عن أعماق نفسها .

وكان أول ما رمته به قولها : «الطقس اليوم جميل ، وفيه خُضْرة ، فالعشب عالٍ وطريٌ نديّ على نحو يندر أن يكون في أيار ، وقد تحسن حال أشجار الكرز في الأسبوع الأخير أيضاً ، إذا لم يفسد المطر كل شيء من جديد ...... من كل جانب والدنيا تَدْلَهِمُّ من البشر ، المقبلين على قصر الطاووس! أجل ، أنتم أغنياء ، وأنتم سعداء ، والحياة تبتسم لكم . ولكن كيف يتفق آخر الأمر ألاّ تكون في البيت في مثل هذا اليوم ؟ هل واجهتك متاعب إلى حد ما مع والدك ؟ يقال إنه مستاء منك . وأنا لا أستطيع أن أفهم كيف تطاوع المرء نفسه أن يحمل في قلبه غِلاً لك ، على أن هذا يأتي لصالحي ، فما كنت لأجرؤ على أن آمل أن تأتي إلينا في أي وقت من الأوقات ، رجل مزهوٌّ بنفسه مثلك ، إلى أناس أدنياء » ومع ذلك تكدَّرت عيناها دفعة واحدة ، ونظرت إليه نظرة حافلة باللوم ، وكأنه سرق منها شيئاً ، وقالت : «هذه القادمة من برن صديقة لأختك ، بلا ريب ، هذه التي جاءت اليوم للمساعدة ؟ إنها جميلة ، هذا صحيح ، بل جميلة جداً ، ومثل هذه الجميلة لا يوجد في هذه البلاد سوى أختك على أبعد تقدير ، ثم إن لها ثياباً فاخرة ، أتراها غنية ؟ ولكن إذا كانت غنية فما بالها تعمل في الخدمة ؟ ويقال إنها تعمل في العادة في الصيف في حمام الاستشفاء ، سيدة بوفيه . وهذا شيء أستطيع أن أفهمه . فمثل هذا الطائر الفردوسي يجتذب كل الرجال بالطبع . ويقال إنها تدع صاحب الحمام يراودها عن نفسها ، وهذا طبيعي فهو أرمل منذ عامين ، ولكن المأمول ألاّ تقبل بهذا ، بلا ريب! فما أكثر ما لقي هذا من الصَدّ على الرغم من كل ثروته . ياللفظاعة ، وأخيراً فمهما كانت جميلة ، فإنني لو كنت رجلاً وكان الخيار لي لوجدت أختك

أجمل منها بعد ، وذلك أنه ليس كل شيء يتوقف على القياس والقاعدة ، بل يتوقف أيضاً على «التعبير» مثلما يقولون عندنا ، ففي عينيها شيء بالغ الجمال ، وفمها ، أنا اضطر دائماً إلى التفكير فيك عندما أراها ، وأي شيء في هذا ، فيه يُعْرَف أنها أختك» .

وأمسكت عن الحديث وأخلدت إلى الصمت . وبعد هنيهة مضت قائلة مع تنهدة ضئيلة : «أنا أستطيع أن أفهم أنك تريد مجرد فتاة صالحة مستقيمة ، وأنه ما من فتاة ترفضك ، وأنت من هذا على يقين ـ وكم من فتاة تود لو تدخل قصر «الطاووس» ، إلى إدارة المنزل الأميري! » .

وأعرضت عنه في حساسية ، ونظرت إلى الأرض متجهّمة وقد عقدت ذراعيها ولكنها نظرت إليه مرة واحدة من جديد ، نظرة المودة وقالت : «على كل حال فأنا أريد أن أكون شاكرة لأنك أتيت على وجه الإطلاق . ليتك عرفت كم ينعشني هذا ، كم ينعشني ، لا أستطيع أن أصف لك كم ينعشني هذا ، ولكن ألا تخجل من قعودك إلى جانب جوكوندا هكذا ، علانية ، وفي وضح النهار ؟ » .

واحمر وجهه ، وكانا في الواقع يجلسان كما لو كانا في واجهة عرض ، غير أن الخوف من الناس لم يكن نقطة ضعفه . وبعد قدر يسير من النظر تقدم منها حتى ازداد قرباً إلى حد ما .

هنالك أشرق وجهها مثل صباح من أيام الصيف .

وقالت برقة : «لكم يسرُّني هذا ، إنه ليسرني في أعمق أعماق روحي أنك لا تخجل من جرائي» وكان كل واحد من المّارة ينعش بصرها .

وعلى أثر ذلك ما عادت تقول شيئاً ، بل نصبت مرفقيها ، كليهما ، على

المنضدة ، وجعلت رأسها بين يديها ، وجعلت تنظر في وجهه بعينيها الكبيرتين كعيني الغزال ، نظرة ثابتة لا تريم ، لتتذوّق حضوره تذوُّقاً عميقاً .

وشرع هو أيضاً يتذكر دياره وهو في مكانه الصغير ، وانتابت أعضاءه التي ثقل عليها الخمر إلى حد ما ، حالة من التبلُّد ، ووهنت إرادته ، وكانت المخلوقة الساذجة إلى جانبه ، التي كان الحب يفيض عليه من قلبها المخلص بدفقات دافئة مثل أشعة شمس آذار ، ينعشه أيضاً عل الرغم من كل شيء ، بل كان ينعشه كثيراً ، إذا أراد الاعتراف الصريح . ياإلهي ، لقد كانوا ينظرون إليه نظرة مختلفة ، في البيت ، أبوه وأمه . ولكي يعوِّضها عن قسوته الأصلية ناولها يده بقلب طيب .

وأمسكت بهذه اليد في لهفة وجعلت تداعبها بغير انقطاع ، متمسِّحة بها بوجنتيها ، إذ أسعدها أن يباح لها ملامسته ، مثلما يحب الكلب أن يتمسّح بسيده .

ولبثا على هذه الحال اعتباراً من هذه اللحظة ، كل منهما تلقاء الآخر ـ صامتَيْن راضيَيْن ، ناسيَيْن ، ناقِهَيْن ، أما هي فتتقلب في نعيم النظر إليه ، وأما هو فكان يقيم في هيكل قلبه حفلاً بين يديْ صورة كاتري التي كانت تضيء في ذاكرته بهدوء ووضوح ، لا يعوقها عن ذلك حضور جوكوندا .

وكانت الطبيعة تقوم بدورها في تهدئة الاضطراب ودرء القلق . وكان فنّ الربيع الذي يزدهي ويتألّق من دون أن يبهر البصر ، قد انطلق من إساره بعد موسم المطر الطويل بقوة خصوصية وفي كل مكان كان يتفجر الفيض المُختَبَس الذي لم تكن نفحات لهيبه وظلاله على حد سواء ، تجتذب سوى الآخرين . وكان المرء يشم هذا وهو ينمو . وكانت سحابة من سحائب الطقس الجميل ، بيضاء كالتلج ، تسبح في الأعالي ، وهي تمرّ بهما ،

لتحمل الشمس بعيداً ، كأنها جزيرة ، تحجب قرص الشمس ولا تأذن إلاّ لإكليل من الأشعة يلتمع كالبرق على حوافّها . وكانا يقعدان الآن كأنما تحت مظلة أو تحت ثريا يغشيها نسيج شفاف ملوّن ، وجملة القول : تحت شيء كبير ، عال ، لطيف ، يجمع بينهما ويباركهما ، ولم يكن حكم الشمس على جوكوندا في مثل صرامة حكم الناس ، على مايبدو .

وانتشرت بضع عشرات من القطرات الفضية نازلة من السحابة على مسافات متباعدة ، كأنما عبرت من خلال منخل . وعلى الرغم من أنها تبخرت في اللحظة ذاتها حتى إنها لم تكد تبلغ الأرض ، فقد استقبلهَا كل الشحارير في الوادي بسمفونية المفتون الهائم . ونظرت جوكوندا إلى ما حولها نظرة الرضى والإعجاب وقالت : «لقد بات في وسع المرء أن يدرس عما قريب» .

وقال الأجير الذي كان يرفع المخلفات مع صاحبة الحانة ، يبلغ كونراد : «ياسيد ريبر ، لقد فقدت مهاميزك!» .

وتبيّن أن هذا صحيح ، فقد ضاع المهماز الأيمن ، ويبدو أن الفلاحين أتلفوه بالوطء بالأقدام ، أما الأيسر فقد ضغط حتى انحرف وأتلف أكثر من نصفه ، فتدلى مسترخياً فوق الكعب ، وانحنى كونراد ليقوِّمه تقويماً كاملاً ، ولكن جوكوندا استبقته ، فانزلقت مثل ابن عرس تحت المنضدة ، أو بالأحرى ، مثل المَرْموط* ، إذ كانت أكثر بدانة من ابن عرس .

وقالت تدافعه تحت المنضدة : «دَعْ عنك هذا ، فهذا اختصاصي ، فإنما جئت إلى هذه الدنيا لخدمتك» .

---

* نوع من القوارض .

وبدفعة واحدة حرَّرت المهماز ، ولكن انفتح في كُلْوَة يدها جرح قبيح شَرَخها فأخذ الدم يَنْبَجِس منها ، وثارت ثائرته ، إذ تولاه الفزع ، وأمسك بذراعها ، غير أنها أفلتت منه وهي تضحك ، وقالت مازحة : «آه ، هذا ليس بشيء على الإطلاق ، وهو يُشْفى في يومين ، إذا ما كان دم المرء سليماً فحسب!» وحين ظل يحملق في الجرح مهموماً أشارت إلى كرسيه ، لكي يقعد ، فأطاع ، وإن كان متردداً . وعلى أثر ذلك عاد كل شيء إلى حالته السابقة ، سوى أنها كانت تتأمل اليد المصابة من حين إلى آخر بافتتان باطني ، وكأنما كانت تريد أن تصيح قائلة : «هذا أخذته منك ، هدية ، للذكرى ، حين لا تعود هنا» ، وأنه كان في بعض الأحيان يرسل إليها نظرة تنبئ عن الأسف حيث كان وجهها يشرق بالسعادة المتجددة في كل مرة ، في يسرٍ واستمتاع .

كان بينيدكت ، الحوذي في المنزل ، في قصر الطاووس ، ينظر من فوق السور ، وهو يتنحنح .

وقال كونراد يسأله مستاءً : «ماذا حدث ، مرة أخرى ؟» .

وقال بينيدكت وهو يسعل سعالاً خفيفاً ، في همس : «لقد طلبوا مني أن التمس منك أن تتفضل بترك ليسي للسيد المستشار الإداري ، اليوم بصورة استثنائية ، إذا تكرَّمت ، وقالوا إنه سأل عنها ثلاث مرات بالهاتف ، وأنهم وعدوه بذلك في الحقيقة ، إن صح التعبير ، وإن كان ذلك بغير حق» .

وقال كونراد : «عندما يتحدث الناس معي بلهجة مهذبة ، ويسألونني ، وعندما يلتمسون مني ذلك بأسلوب مهذب ، يختلف الأمر . من أرسلك ؟» .

«أختك ، الآنسة ريبر» .

«إذن فخذ الفرس ، وهي في الحظيرة ، ولكن ينبغي أن يسير رويداً رويداً ، المستشار الإداري ، لئلاّ تتصبب ليسي عرقاً» .

«سأركبها بنفسي» .

«إذاً فهذا أفضل» .

ولكن بينيدكت لم يتحرك من مكانه ، ثم قال وهو يغالب الضحك : «وتقول لك أختك شيئاً آخر أيضاً ، وهو : أمِنَ الضروري على وجه الإطلاق أن تقعد مع جوكوندا على الكرسي الممتاز ، لكي يُعْجَبَ العالم كله بك ، أم تراكم لا تفضلون الانسحاب إلى قاعة من القاعات» .

وردّ قائلاً بجفاف : «ليس هذا ضرورياً على الإطلاق ، ولكنه مستعذَب ، وأخيراً فهذا المكان يتميز بأنه يقطع الطريق على التذرُّع بأننا نفعل شيئاً سرّياً في الخفاء . فقل هذا لأختي ، وبلِّغها تحيتي الودية فوق ذلك ـ كيف تسير الأمور في قصر الطاووس ؟ هناك كثير من الضيوف في الشرفة الأرضية ، على ما يبدو ؟» .

«إنها تعج بالبشر! والقوم يفتقدونك افتقاداً شديداً في كل النواحي ، أجل ، ولكي لا أنسى ، أبوك يقول ، هنا وهناك ، إنه لن يكلفك حياتك على الأرجح ، أن تعود إلى الدار وتساعد بعض المساعدة في الإشراف ، وذلك أنه لم يفترس إنساناً حتى هذا التاريخ ، وهو لا ينوي هذا اليوم أيضاً . وأن هناك مكاناً كافياً لاثنين»

«أوَ قال ، هو ، هذا ؟ أبي ؟ لك ؟ هذا يبدو لطيفاً على وجه التقرب ، وأنا أقصد من الوجهة النسبية ، أي بالقياس إليه ، هو» .

«لقد قال هذا لي ، مثلما أنني أقف ههنا . لقد ردّته الجديدة ، القادمة

من برن ، كاتري أو تلك التي لا أدري ما اسمها ، إلى صوابه ، ولبثت جالسة إليه طوال ربع ساعة ، تقذف في وجهه بكل شتيمة وتشنيع ، حتى لقد بات الواحد منا يودّ لو يتوارى في جُحْرٍ من فرط خوفه ، ولكنه ارتضى لنفسه أن يحدث له كل هذا صابراً مثل تلميذ مدرسة يوبخه معلمه . ولم يكن يزيد على أن يغمغم وهو مطرق برأسه ، من حين إلى آخر ، عندما كانت اللهجة الخشنة تزداد زيادة مفرطة ، إلى أن تفضل بالوعد بإصدار كلمة طيبة بحقك » .

« وهل يفترض الآن ، فيما يبدو ، أن تكون الكلمة الطيبة هي تأكيده أنه لا ينوي افتراسي ؟ » .

وضحك بينيدكت بملء شدقيه ، وقال : « أجل ، إن والدك لا يجود بالكلمة الطيبة بمكيال القمح! بل يغالب نفسه بجهد بالغ ، على ما يبدو ، لينطق بالكلمة الطيبة ، أكثر مما يفعل اتحاد الفقراء حين يجود بليرة ذهبية إسبانية ، بل يكاد المرء يحسبه يختنق من جرائها » .

وأطرق كونراد يفكر ، وخيل إليه أنه لبث أطول وقت بعيداً عن البيت ، ولابّد أن يكون حدث في غيابه ، أثناء ذلك ، عدد هائل من الأمور البالغة الأهمية التي كان يود سماع خبرها ، وقال : « هل تعرف ، بطريق المصادفة ، شيئاً عن الوالدة ، وكيف حالها ؟ أما زالت في حجرة النوم ؟ » .

لقد بعثوا بها إلى القرية ، إلى جدتك ، لكي تخرج من هذا المأزق ، حيث تنفعل دونما جدوى ، وتشكل عائقاً للآخرين ، وقد ألحّت البِرْنِيَّة على ذلك .

« كانت هذه خاطرة ذكية من كاتري . عندما يحدث شيء معقول فلابد أن تكون كاتري هي التي نصحت به » .

وضحك الحوذي مستحسناً ، وقال : «أجل ، هذه فتاة ذات حزم وعزم . هل أقول أيضاً ما كلفتني به ؟ أنا لا أتحمل مسؤولية عن ذلك ، وإنما أنقل ببساطة ما كلفني به كلُّ واحد منهم . فمنهم من يقول هذه الكلمة ، ومنهم يقول غيرها . إنها تقول لك إنه ينبغي لك أن تمرح وتبتهج ، وألاّ تعود في وقت مبكر ، فالأمور تسير سيراً حسناً للغاية من دونك ، بل أفضل كثيراً مما لو كنت حاضراً ، والآن ينبغي لك أن تعرف بنفسك ما يترتب عليك عمله ، وهذا لا يعنيني في شيء ، وأنا لا أتدخل في ذلك . وعلى هذا فما قولك الآن ، في الحقيقة ؟ وماذا أقول لهم في البيت ؟ هل تأتي أم لا تأتي ؟ » .

وقال كونراد ، متهّرباً : «سوف آتي عندما يحين الوقت» .

«وسأذهب الآن ، وآخذ الفرس ، أليس كذلك ؟ » .

وقال يكرر قولها متكدِّراً ، في نفسه ، بعد انسحاب الحوذي : «هذا صحيح ، لا تعد إلى البيت في وقت مبكّر ، أجل ، ألا يهمها شخصياً على الإطلاق أن أعود ، ومتى أعود ؟ » وعضّ على شفتيه وقد شعر بالجرح .

وحين رفع الطرف من جديد واجهته نظرات جوكوندا المنكسرة ، المهيضة الجناح ، وغمغمت قائلة بنفس منكسرة : «وعلى هذا فسوف تعود الآن إلى البيت ؟ » .

وتولته الدهشة . من تراه تحدث عن العودة إلى البيت ؟ كانت تسبب له الألم ، وقال يواسيها : « كلاّ ، بل سأبقى بعدُ قليلاً » .

غير أنها هزت برأسها في حزن ، وقالت تكرر متكدِّرة : «سوف تذهب الآن . أنا أحس بذلك ، ثم لا تعود بعد ذلك أبداً ، أبداً إليّ . كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة» .

«ما من أحد يستطيع أن يعلم بصورة مسبقة عن شيء أنه كان المرة الأخيرة» .

«كلاّ ، بل يستطيع المرء أن يعلمه بصورة مسبقة . أنا أعرف أنها كانت المرة الأولى والأخيرة وإلاّ لما كنت أتيت إليّ بمجرد الخطأ ، وبدافع مجرد العناد وحب المعارضة ، من جراء وجود المتاعب في البيت بطريق المصادفة . لقد عرفت هذا الآن ، لأني سمعته» .

ثم عادت إلى الليونة فجأة ، وقالت ترجوه متوسِّلة : «لا تحمل شعوري بالألم عندما تغادرني ، على محمل السوء! وأنا أشكر لك أيضاً ـ إذاً فستبقى هنيهة أخرى ، ضئيلة ، ضئيلة ؟» .

وبقي كونراد ، ولكن بجسده فحسب . كانت على حق . كان ثمة شيء في البيت يقتضي وجوده ، وكان ثمة شيء ما ، متعدد الجوانب ، ما عاد يدع له مجالاً للراحة ، وكانَ من ذلك الفضولُ إلى معرفة ما يحدث في البيت ، والحياة المحتدمة في الشرفة الأرضية ، قبالة عينيه ، والحاجة إلى المشاركة والمساعدة ، والرغبة في الاحتكاك بكاتري من جديد . وكان هذا ، مع أشياء أخرى من هذا القبيل ، مما كان لا يدخل في نطاق وعيه بصورة كاملة ، يعتمل في نفسه بينما كانت جوكوندا تلاحظ كل واحدة من ملامح وجهه وقد تولاها الخوف .

ولتصغِ ، فالآن انطلقت في الأعلى ، في قصر الطاووس ، في الضوء الساطع بعد الظهيرة ، الرقصة الأولى ، وهي رقصة البولكا البوهيمية الحافلة بالحركة والانفعال ، ولكنها ما زالت من غير قناعة ، واهنة ، لا سرور فيها ولا بهجة ، تتردد في القاعة الخاوية ، وشرعت جوكوندا في الترنُّم على الفور بصوت أَخَنّ ، وبصورة آلية ، بدافع الهوان وضعف الشخصية ، على شاكلة

العواهر اللواتي لا عقل لهن ، حتى لقد استطاع أن يسبر بنفسه غورّ غبائها الذي كان لا يعرف منه بعدُ إلاّ ما سمع عنه سماعاً .

وكان قد ورد الحديقة الصغيرة من جديد عدد من الناس الذي توجهت أنظارهم ، لدى أول لمسة لأوتار الكمنجة ، بأجمعهم ، نحو النوافذ التي كان الطنين يأتي منها . وتوقفت من جراء ذلك الأحاديث ، وما عاد يسمع إلاّ الجمل المتقطعة ، بنبرة مكتومة ، وكأنما كان القوم يخشون أن ينتقصوا من شأن الموسيقا ، إلى أن انبعث الحديث من جديد ، شيئاً فشيئاً ، مع تقدم الوقت وتكرار الإيقاع ، غير أن الأفكار ظلت مرتبطة بأرضية قاعة الرقص ، بحيث كان كل حديث يتجه ، على حبل طويل ، نحو قصر الطاووس ، مثلما يفعل الحصان في مدرسة الفروسية .

وقال صوت فلاحي متأنٍّ بلهجة المعلِّم الواعظ : «عندما يفكر المرء ، ويقارن ، بين ما كان عليه حال قصر الطاووس قبل عشرين ، أو ثلاثين عاماً ، قبل أن يؤول إلى الشيخ ريبر ، وبين حاله الآن! وكل شيء بصورة تلقائية ، من دون مساندة ، ولا مال ، لا شيء سوى يدين نشيطتين ، وعقل متيقظ ونفس صادقة ، إذ كان يتم كسب الفدان إثر الفدان ، ففي هذا العام حقل ، وبعد عام مرعى ، من المدخرات ، تبعاً لمواتاة ظروف العمل ، وكانت المزرعة تكبُر شيئاً فشيئاً» .

«وهل يعود إليها البساط الأخضر الموجود تحت الشرفة الأرضية أيضاً ؟»

«كل شيء ، من الأعلى إلى الأسفل ، ومن الشرفة الأرضية إلى الخط الحديدي وتخم الحقول ، والمرعى ، ومعه قطعة من الكرم أيضاً» .

«وما بال صاحبة قصر الطاووس ، في الحقيقة ؟ هل كانت على هذه الحال دائماً ؟» .

«صاحبة قصر الطاووس ؟ السيدة ريبر ؟ صاحبة قصر الطاووس ، مدام فون هرليسدورف ؟ أقول لك إنها كانت في أيامي أكثر السيدات ظرفاً وخفة دم وأكثرهم استمتاعاً بالحياة في كل الإقليم ، وكانت ودودة على الدوام ، مرحة ، في تمام الصحة والعافية ، ونشيطة عاملة! أجل ، إن الشيخ ليدين لهذه بالكثير» .

«تحب الاستمتاع بالحياة ؟ من هذه ؟ السيدة ريبر ، صاحبة قصر الطاووس ؟ تحب الاستمتاع بالحياة ؟ ماذا دهاها إذاً ؟» .

«ويلاه ، لقد أصبحت كئيبة ، منذ أن كان ابنها في المهد ، واسمه كونراد ، على ما أظن . وقد عولجت أول الأمر في مستشفى ، وحين تحسنت بعض التحسُّن طفقوا ينقلونها بضع سنين ، من حمام إلى آخر ، والآن تعيش ، على قدر ما أعلم ، الأيام والسنين في البيت ، غير أن الكآبة ما زالت على حالها ، فهي تتنهد طوال اليوم وتختلق لنفسها الهموم حيال كل أمر تافه ، وتحوِّل حياتها وحياة من يحيطون بها إلى عذاب ، ولا تظل تتحدث أبداً إلاّ عن الموت ، ياإلهي ، لو أن أحداً تنبأ لامرئ بمثل هذا ، قبل ثلاثين عاماً! أهكذا يمكن للإنسان أن يتغيّر! ومن حسن الحظ أن الشيخ يصبر عليها كل هذا الصبر ، مثل هذا الرجل الجبار ، كما اعتاد أن يكون ، وإنه لمن المؤثر على وجه الخصوص أن يرى المرء مدى رقته في معاملتها ، مع أنه ، هو الآخر ، طاعن في السن ومريض» .

وشحب وجه كونراد وهو غارق في أفكار جدّية ، بينما كان يستند إلى شيء أمامه لكيلا تفوته كلمة . وأثار هذا غيرة جوكوندا . وقالت تقترح عليه : «أفلا نلتمس مكاناً آخر لا يكدِّر صفونا فيه مكدِّر ؟» .

وأمرها ، وهو مستاء ، بيده ، أن تلتزم بالصمت . ومضى الصوت الثاني قائلاً من جديد : «والفتى ، الابن ، ماذا يقال عنه ؟ هل يؤخذ عليه شيء ما ؟» .

«لا يُعَرف حتى الآن حق المعرفة ما يمكن أن ينتهي إليه . أما خدمته العسكرية فلا يُسْمَع عنها إلا الخير ، فالناس جميعاً يحبونه سواء في ذلك رؤساؤه ومرؤوسوه . ولكن في البيت...» .

والآن خرجت جوكوندا عن طورها وانفجرت قائلة بغيظ مطلق العنان : «هلاّ سكتُّم ، بربكم ، أيها السخفاء ، أتراكم لا ترون أنه هو نفسه قاعد هنا ؟» .

هنالك خيّم سكون إجباري ناجم عن الشعور بالحرج ، في الحديقة الصغيرة .

وغمغمت جوكوندا قائلة : «الآن يستطيع المرء من جديد أن يفهم ما يقول على الأقل» .

ولكن كونراد ما عاد يسمعهم ، واستحوذ عليه نفاد صبر مؤلم ، يحمله على العودة إلى البيت ، والانطلاق إليه قبل كل شيء .

وقال وهو ينهض واقفاً في الوقت ذاته ، مراعياً لشعورها : «يجب عليّ أن أنطلق الآن أيضاً ، فما هو حسابي ، ياجوكوندا ؟» .

وزمّت شفتيها ، وألقت نظرة معادية على كيس النقود الذي أخرجه .

وردت قائلة بجدّ ، وبلهجة توحي بوجود لغز : «ما زال لدي شيء هام يجب أن أفضي به إليك ، ولكن يجب أن تقعد أولاً» .

وعلى أثر ذلك ، وبعد أن عاد إلى القعود ، على مضض ، اتجهت إليه بوجهها ، وبعينيها العملاقتين اللتين كانتا تحملقان فيه حملقة المُهَدِّد ، مثل فوهة مدفع هائل مزدوج السبطانة ، يكمن في داخله نار وكبريت ، وبينما كان يحاول أن يحدس ، وهو متأثر ، ما يعنيه هذا ، دفعت أحد ساقيها فوق ساقه بمكر ، وقالت هامسة : «فَلْتَبِتْ عندي هذا المساء»

وفار دمه ، ولكنه غالب نفسه بقوة ، وأعرض ببصره ، وأومأ إيماءة لرفض .

وقالت بصوت هامس كالصفير : « ولكني أريد أن تبقى ، أريد ذلك ببساطة » وازدادت التصاقاً به ، فأخذ يكافح للتخلص منها ، وهمت حواسه ن تخونه في هذا الكفاح . هنالك فكر في كلمة الإيجاب التي أعطاها لفوج لإطفاء ، ودفعها عن نفسه في سرعة البرق بذراعيه كليهما ، بفظاظة ، إذ لم يكن يعرف طريقة أخرى للتخلص منها .

هنالك غيّرت موقفها في مثل لمح البصر ، فنهضت بهدوء ، واتخذت سيماء البراءة ، كأن لم يحدث شيء ، وقالت بلهجة صاحبة المحلّ ، وفي قفزة مذهلة تجاوزت كل الاضطراب والبلبلة التي أحدثتها ، بلهجة باردة : « فرنك وأربعون قرشاً »

فدفع لها ذلك ، وأضاف إليه منحة مناسبة شكرته عليها بتواضع ، ثم خرجا من المكان معاً ، في سرعة بالغة ، إذ كان يشعر بجو رطب خانق ، وكان يتلهف على الخلاص . وما من شك في أنه لو كان في وسعه أن يحسّ حساساً داخلياً بما لم يكن له بدٌّ أن يتعرّض له من هفوات جوكوندا لما عرّج على المحطة أبداً . وحين وصل إلى المنزل داهمته مرة أخرى ، غير عابئة بالحاضرين ، وقالت : « تعال في المساء ، حين يحلّ الظلام ، بين لعاشرة والحادية عشرة ، بعد القطار الأخير ، في الغد ، مثلاً » .

ولكنه هز رأسه بالرفض مرة أخرى .

هنالك تخلت عن كل أمل ، واستسلمت ، وقالت باستياء ويأس : « إذاً انتهز كل فرصة ، كل الفرص مرفوضة ؟ إذاً فلابدّ لي أن أدعك تذهب حقاً ؟ على كل حال لقد سرني هذا من أعماق القلب ، من أعماق قلبي ، وسوف

أتغذى بذلك وقتاً طويلاً ، طويلاً ، أسابيع ، وشهوراً ، وربما أكثر من ذلك» ، وهنا أمسكت بكلتا يديها يده اليمنى وضغطت عليها برقة ، ولكن بإحكام ، على قلبها ، ثم لم تُرْسِلها بعد ذلك ، وهكذا مَشَيا عبر مدخل المنزل ، مشية غير مريحة ، لأن كلاً منهما كان يعوق الآخر ، إلى ما وراء الباب .

وقال يحييها : «وداعاً ياجوكوندا» ولم تحر جواباً ، ولم ترسل يده أيضاً .

وقال يكرر تحيته ، راجياً ، في شيء من الاستثارة : «وداعاً ، دعيني ، وإلاّ فسوف أضطر إلى إيلامك ، فكري في جرحك» .

ولكن كان كأنما يحاول الاعتراض على بهيمة لا تعقل ، حتى لقد وصل الأمر في النهاية إلى وضع أقرب ما يكون إلى الصراع ، بينه ، إذ كان ينزع إلى تحرير يده من تشبُّثها بها ، وبينها ، هي التي كانت تريد أن تصده عن الذهاب بجهد اليائس ، وحين حرر نفسه آخر الأمر بدفعة غير متوقعة ، انطلقت في جهة جانبية وقد شعرت بالإهانة وتوارت في الدهليز ، ولم تعد إلى الظهور من جديد أيضاً على الرغم من أنه لبث بعض الوقت أمام الحانة ، إكراماً لخاطرها .

وهكذا مضى ، منفعلاً ، يشعر بالصدمة . كان فيه شيء ليس على ما يرام فقد كان من ناحية أولى ، مسروراً بإفلاته من ألوان الإغراء هذه المؤلمة المرتبطة بالمتعة ، على نحو موَّفق ، ولكنه كان ، من ناحية أخرى ، يؤلمه بلا ريب أيضاً ، أن ينسحب تاركاً هذه المخلوقة العجيبة ذات القلب الوفيّ المخلص ، وسط ألوان من التزلُّف والتودد تنطوي على مكر ودهاء ، انسحاب الهارب ، والمشاحِن تقريباً . فلتكن ما تشاء أن تكون ، ولكنها تحبه على

أية حال ، على طريقتها . وكان الربيع البعيد ، الرائق ، حواليه ، يبدو له الآن خالياً من السحر ، ولا قلب له ، إن صح التعبير ، إلى حد ما ، حتى لقد أوشك أن يندم على انتصاره .

والحق أنه تردّد حين وصل إلى الخط الحديدي بينما كان ينظر بعينيه إلى الوراء نظرةً مخالِسة ، ليرى لعلها كانت واقفة عند باب المنزل .

ولم تكن واقفة هناك ، وكان قد أعطى كلمته ، كما قلنا ، لأهل ڤالديسهوف .

هنالك استجمع قواه ، وتسلل ، منكسر النفس ، فوق القضبان ، وكأنه فقد شيئاً ثميناً .

وعلى الجانب الآخر من القضبان ظهرت جوكوندا في الماضي ، وتقدم قصر الطاووس من المستقبل إلى الحاضر .

غير أنه كان يحمل معه مكسباً من المقصف ، بلا ريب : ألا وهو تصميمه على أن يجود ، من جانبه ، على أبيه بكلمة ودية جزاءً له على ما أسدى إلى أمه من جميل ، وما يحتمل أن يسديه من بعد .

واختار الدرب الذي يعبر البساط الأخضر بغية الاختصار ، ثم أخذت خطواته تتباطأ في منتصف الطريق ليتأخر في الوصول ، لئلا يحسب القوم أنه جاء على عجل ليضع نفسه تحت الطلب .

وحين رأى العشب على جانب الطريق موطوءاً قطَّب جبينه وغمغم قائلاً : « لابدّ أن الدرب هنا يفضي إلى سور من الشجيرات » .

وأخيراً وصل على الرغم من كل تردُّده ، وخلافاً لإرادته تقريباً .

وكان رهط من راكبي الدراجات ذوي الملابس التي توحي باستعدادهم

للمغامرة ، والذين خدمتهم كاتري ، قد تقدموا على المرج تحت الحاجز الجداري ، حيث أطلقوا من هناك هتافات صادحة تنبئ عن سرورهم ، ليلفتوا إليهم الانتباه .

وخيّل إليه ، على نحو غريب ، يكاد يكون غير معقول ، أنه كان يرى كاتري من جديد ، من بين كل الناس ، أوّلَ مَنْ يرى وكان قد افترض ، بطريقة ساذجة أنها ستكون آخر من يظهر ، شأن الممثلة الرئيسة في المسرحية . ومرّ بالمجموعة وهو يومئ برأسه إيماءة خفيفة ، متابعاً طريقه إلى نهاية الجدار . ولكن حدث له في أثناء ذلك أنه رأى أباه في مواجهته ، إذ كان هذا يطل ، بطريق المصادفة ، من فوق السور الجداري الواقي على مسافة لا تكاد تبلغ عشرة أمتار على الخط المباشر . ورماه الشيخ بنظرة جانبية حانقة مثل البومة عند الظهيرة . هنالك عاوده إحساسه من جديد بالضربة العدائية المعتادة ، وهي نوع من صدمة الارتداد مثلما يحدث في حالة المدفع الثقيل ، وإذا نيته المحمودة تتلاشى دفعة واحدة . فما كان هذا ليستقيم ، ما كان ليستقيم ببساطة .

وعلى هذا فقد عاد أدراجه ، وسار قريباً من راكبي الدراجات ، منتصب القامة ومن دون أن يستند إلى شيء ، تحت شجرة كمثرى قوية ، ومن هناك أومأ بذقنه إلى الفتاة القادمة من برن .

وأسرعت إليه بروح المستعد للخدمة ، وقالت تحييه : «لم تَجُدْ على نفسك بإجازة طويلة ، ياسيد ريبر» .

ولم يتوقف طويلاً عند هذه الملاحظة ، وقال مستهلاً كلامه بأسلوب احتفالي وفي شيء من الارتباك : «ياكاتري ، نحن جميعاً مدينون لك بالشكر الجزيل» .

«علامَ ؟» .

«اليوم ، في الصباح ، أنت تعلمين بالطبع - بيني وبين أبي - لا تتظاهري بأنك لا تعرفين شيئاً! - مسألة السوط - لقد أنقذتنا من مصيبة فادحة كانت محتملة» .

وقالت وهي تضحك بلا مبالاة : «ياللعجب ؟ أهذه هي المسألة ؟ ما من شك في أنها لم تكن ملحمة ريفية من ملاحم «الأسرة السويسرية» .

«الحق أنني أعجبت بجرأتك» .

وضحكت من جديد ، وقالت : «لابد للمرء أن يتعامل مع الرجال مثلما يتعامل مع الكلاب العقورة ، وليس عليه سوى ألاّ يكشف عن خوف منهم» .

غير أنه ظل متسماً بسمة الجد ، وردّ قائلاً : «في وسعك أن تهّوني من شأن عملك ، ولكني أنظر إليك منذ تلك اللحظة على أنك الروح الطيب الذي يلازمني» .

وقالت تمازحه متهرّبة : «هذه تسمية لم يسمِّني بها أحد حتى الآن» ، ولكن كان يبدو أن كلمته سرّتها .

وأقبلت هيلين تسعى كالسابحة في الهواء ، وقالت : «ياكاتري ، الآنسة ريبر تقول لك إن عليك أن تذهبي إلى قاعة الرقص ، لأن جوزفين تخدم اعتباراً من الآن في المرج» .

ونظر كلٌّ منهما إلى الآخر في دهشة واستغراب .

وسأل كلاهما في وقت واحد تقريباً ، مثل جوادي عربة ، إذ يسبق أحدهما الآخر بمقدار شبر على أقصى تقدير .

وهزت هيلين كتفها ، «هكذا أُمِرت ، ولا أعرف أكثر من هذا» ولكن عينيها المتوقدتين من الحماسة كانتا تبرقان في سرور بالأذى . وكان هذا ما يظهره كل منهما للآخر ، في تفاهم مشترك ، وفي نظرة مزدوجة حافلة بالتعبير ، تقول : «أنا أفهم هذا ، وأنت ؟» ـ «وأنا أيضاً» ـ «ولكن لا ينبغي أن يُوَفِّقوا في التفريق بيننا ، أليس كذلك» ـ بل على النقيض ، فنحن الآن أكثر تعلُّقا ، أحدنا بالآخر» . وهكذا زاد أمر الفصل من الوحدة بينهما ، وكأنهما لبثا شتاءً طويلاً يرقصان في كل أعراس الإقليم ، معاً . وعلى أثر ذلك توجهت كاتري ، مسرورة ، إلى قاعة الرقص .

وترددت هيلين مع ذلك ، وكأن شيئاً ما خطر ببالها فيما بعد ، وقالت في شيء من النفاق : «أكانت هذه عروسك ، ياسيد ريبر ، الآنسة التي كنت تقعد معها في حديقة المحطة ؟» .

ولكنه كان مستعداً لذلك ، فقال : «أمّا من تكون تلك فهذا أمر لا يعنيك في شيء ، وأمّا من تكونين أنتِ ، فسأقول لك ذلك! خادمة متوسطة تماماً . أجل ، فلتنظري فيَّ ما شئتِ أن تنظري ، فهذه حقيقتك . وإنما يعرف الناس الخادمة الجيدة بأن لها ثلاثة أزواج من العيون وزوجين من الآذان . فهناك يصيح امرؤ يطلب الخردل ، وعلى بعد أقل من خطوتين يلوِّح لك أحدهم بإشارة يائسة ، كمن يشرف على الغرق ، وأنت لا تلاحظين من ذلك شيئاً» .

وردت قائلة باستياء : «هذا لا يعنيني ، فأنا أخدم في الطابق العلوي ، لا في السفلي» .

«تستطيعين ، وأنت سعيدة ، أن تقولي أنني لست أنا الذي يسيّر الأمور في القصر ، بل الوالد ، في هذه الأثناء . ذلك لأنني حين أكون أنا

المعلم ، وتبرر خادمة موقفها بأنها تخدم في مكان آخر ، أعطيها أجرها وأصرفها » .

وتسللت مبتعدة عنه في ذهول .

وقال يعدّ عليهن : « كانت هذه الأولى » .

وأقبلت الآن جوزفين ، في خطوات قصيرة متقاربة ، في جسارة وفضول ، وكانت عيناها تلتمعان من المكر والشقاوة ، ولكن حين لاحظت السحنة المقلوبة عند هيلين رأت أن في الأمر ما يدعو إلى الريبة ، وألقت سلاحها بأسرع ما استطاعت ، ودسّت نفسها لتمرُق من جانب كونراد ، ذاهبة إلى مكان عملها من دون أن تنفذ مكرها النسائي الصغير .

وقال في نفسه : « فأين الثانية إذاً ؟ » ولبث ينتظر ، ولكنه كان ينتظر عبثاً ، في هذه الأثناء على الأقل .

وكانت الأحداث تجري فوقه ، في الجانب الآخر من تاج جدار الشرفة الأرضية ، مثلما يحدث في مشهد شعبي في المسرح ، مسرح فج ممتلئ بالبشر . وكان جمع من الرؤوس ، المعتمرة والحاسرة ، وذات اللحية ، والحليقة ، والمذكرة والمؤنثة ، تنظر من فوق مقدمة المسرح ، وكأنما هي رؤوس قطعت وعرضت للبيع ، وكانت كلها ، من دون فرق ، سواء أكانت من أهل المدينة أم من أهل القرى ، ترتسم عليها سيماء الأهمية لكي تعد ذات شأن وخطر ، ولم يكن ينقصها لكي تعد من ذوات العته الكامل سوى جوقة الصيادين . وعلى الرغم من أنهم كانوا يبدون صامتين كان يرتفع من وسطهم دوي كأنما يصدر عن مائة من الأصوات التي تَلْغَط ، وكانت الخادمات ينطلقن كالسهام بين صفوفهم ، في تذمر واستياء ، طولاً وعرضاً ، تطاردهن نظرات الشيخ الفظة الغليظة الذي كان يهمس في آذانهن بكلمة توبيخ معيبة

يختلس فرصتها فيما بين ابتسامتين حلوتين للضيوف ، عندما كان يدنو منهن ، وهو الأمر الذي لم يكن يحدث بالطبع إلاّ خلال التقابل في الممرات ، وكان بعضهن يمسحن عيونهن على عجل قبل أن يكتسبن مودة راقصي الباليه من جديد ، وكانت الأخريات يدمدمن بكلام في أنفسهن ، غاضبات . وكانت هيلين ترسل في كل مرة ، عند مرورها العابر ، نظرة حسد نحو جوزفين بسبب أهل الدراجات . أمّا آنا التي كانت تتحكم في النظام في وسط الزحام برزانة وتدبُّر ، فكانت كثيراً ما تنظر إليه ، في الأسفل ، غير أنها كانت تتظاهر بأنها لم تتبيَّنْه . وكان يقعد القرفصاء إلى جانبها صاحبها الطبيب في حلة رسمية زرقاء ، وهو يحملق فيها بنظرة ثابتة لا تتحول ـ وكانت كل النظرات تتعلق بنوافذ قاعة الرقص ، خالية من التعبير وخاملة ، كلّما بدأت موسيقا الرقص مع المزامير التي تصرّ صريراً ، زاعقةً ، تسعُل . وكانت سيدات المدينة يسدُدْن آذانهن عند ارتفاع دوّي الأبواق .

ونادى أهل الدراجات معارفهم يسألونهم هل يفضلون النزول إلى البساط الأخضر ، بحركات ولفتات فيها إفراط ومبالغة ، قائلين إن القعود على العشب الندي أكثر إمتاعاً ، وإن المرء سيكون أقل تعرضاً للإزعاج من جراء الموسيقا الراقصة الفلاحية .

ولبّى أولئك القوم الدعوة في صخب ، واندفعت على الفور كتلة أخرى من الشرفة الأرضية لتستقر في الأسفل ، وكأن ذلك كان مثالاً يحتذى ، واقتفى آخرون أثر هؤلاء من جديد حتى لقد تحوّل الانتقال إلى هجرة رسمية ، ولم يكن هناك بدٌّ من جَرِّ منضدة بعد الأخرى مع عشرات من الكراسي ، ومنضدة ثانية ، وعلى أثرها طلب خادمة ثالثة ، هي جوزفين ، للمساعدة .

على أن الإخلال بالقواعد المتداولة لترتيب الأماكن ، مع ما ترتَّب عليه من الفوضى والحوادث العارضة ، كما درجت العادة أن يحدث من الأمور غير المتوقعة ، والحيرة والارتباك الناجمين عن ذلك ، أدى إلى شيوع جوّ إجازات الفتيان ، حتى لقد ودع القوم احتفاليّتهم الجنائزية الثقيلة ، وأقبلوا على الاستمتاع والابتهاج بحرية . وبينما كان أهل الريف يمارسون هذا عن طريق الشراب الأقوى ، كان أهل المدينة المتعبون من الحجرات أكثر إقبالاً على هبات الطبيعة . وكان الينبوع غير الظاهر هو أكثر ما كان يشغل أبناء المدينة الصغار والكبار ، وكأن هذا كان إكسير الشباب ، إذ وقف هؤلاء حول الماء الجاري في شوق ، يفكرون ويحلمون ، ونشأ من الكثير من الصور الكثيرة المتخيّلة التي كان يتم تركيبها هنا في الربيع من قبل القلوب والآمال ، مدينة كاملة من الخيال .

وهكذا وصل كونراد ، من دون إسهام منه ، إلى ذروة السيطرة على الحفلة . وتكوَّن معسكران ، معسكر أعلى كان الوالد يتولاه ومعسكر أدنى تابع لابنه . هناك استقر أهل السن المتقدمة ، الأكثر ميلاً إلى الراحة ، وهنا الشباب الصاخب . ولكن لما كان القادمون الجدد يعرِّجون على العشب مُؤْثِرين له ، بغية التغيير والتميُّز من ناحية ، ولأن حياةً أكثر حركة ونشاطاً كانت تلوح هناك ، فقد كان المعسكر الأدنى يتضخم على نحو ثابت ، بينما كان المعسكر الأعلى يضمُر ، وقال كونراد في نفسه « كأن ذلك إرهاصة » .

وكان الشيخ يرقب تزايد الفريق المقابل بعين الغيرة والحسد ، وكانت عيناه تدوران عند كل تغيير جديد في المكان ، ويقول مزمجراً : « يكاد المرء يحسب أن الجالس في الأسفل يشرب خمراً أفضل مما يشرب في الأعلى ، مع أن كليهما مأخوذ من البرميل ذاته » .

وصاح كونراد قائلاً : «ما من أحد يأتي إليكم ، ولا أستطيع أن أردّ أحداً بالقوة ، ليعود » .

ومع هذا كله لم يكن أحد منهما يفسد على الآخر ضيوفه : إذ كان كلاهما أكثر من ذلك حنكة وذكاءً ، بل كانا ، على النقيض من ذلك ، يتعاونان ، ويسوق كل منهما إلى يد الآخر ما لديه . ومع مضيّ الزمن ، حين أخذ المكان في الأسفل يقل عدده شيئاً فشيئاً ، عاد المكان الأعلى إلى الامتلاء من جديد ، حتى تحقق في النهاية توازن متناسق .

وحين كانا يقومان بعمل واحد بصورة مشتركة على هذا النحو ، وكلٌّ في موقعه ، كان تعارض المشاعر والقلوب ، الباطني يتراجع إلى الخلفية ، إلى إشعار آخر ، وكان نوع من احترام كل منهما للآخر يحظى بالغَلَبة . وبعد أن أرسل الشيخ نظرة فاحصة إلى البساط الأخضر قال في نفسه ، وهو يقطب جبينه ، كلمات غير مفهومة ، الأمر الذي يفيد عنده الرضى . أمّا كونراد فلم يكن له بدٌّ أن يسلّم ، من جانبه ، أن نظرات أبيه الرهيبة حافظت على نظام أنموذجي .

وهنا تحرك ضميره ، وقال آمراً : «جوزفين ، جوزفين ، هلاّ تفضلت بالذهاب إلى أبي ، ولتقولي له إنه سينشب اليوم في المساء عراك في قاعة الرقص ، وأنا أعرف ذلك على وجه اليقين ، تماماً» .

وذهبت جوزفين ، وعادت أدراجها .

«بماذا أجاب ؟ » .

«لا شيء ، سوى أنه شخر» .

«إذاً فاذهبي مرة أخرى ، والتمسي منه بإلحاح ، ألاّ يستخف

بتحذيري ، وقولي له إن هناك مسألة مدبَّرة في الخفاء ، وقد سمعت ذلك من الفاجنجيين بنفسي » .

وذهبت جوزفين وعادت أدراجها مرتين .

وقالت إنه قال أنْ لا بأس في الأمر ، وإنه قد فهم منذ المرة الأولى ، وأنْ لا حاجة إلى أن يقال له ذلك مرتين ، ما دام ، بحمد الله ، ليس بالأصم ولا الغبيّ » .

« إذاً حسبنا هذا! انتهينا! لا أقول له ذلك مرة ثالثة » .

ولكن مسؤوليته أقلقته من جديد ، وقال يرجوها : « ياجوزفين ، قولي لأبي إنه يؤلمني حقاً أن أعود إلى ذلك مرة ثالثة ، ولكن هذه المسألة لا تدع لي ، بحق الإله ، راحة ولا سكينة ، ففي الساعة السادسة سينشب العراك ، وأنا أرى وجوب تأمين بضع عشرات من الفتيان الأشدّاء » .

وعادت جوزفين هذه المرة وهي تنشج بصوت عال ، قائلة : « أبوك وحش فظيع ، أنا لا أسمح أن أعامَل هذه المعاملة! » .

« وماذا قال ؟ » .

« قال إنني إنسانة قليلة الحياء ، دنيئة! » .

« لا تستحقين هذا على الإطلاق ، أنت آخر من يستحق ذلك ، فتقبلي اعتذاري ، بدلاً من اعتذاره . هذا يؤسفني ، ولكني أقصد ماذا قال جواباً على ما قلت ؟ » .

وانفجرت بعنف وهي تنقل قوله : « قولي له : لا تحمل نفسك همَّ المسألة قبل أوانها ، وهو يعرف بنفسه ما يترتَّب عليه ، ولا يحتاج إلى معلم . وأخيراً فإذا كنت رعديداً إلى هذا المدى ففي وسعك أن تختبئ تحت تنورة جوكوندا » .

«وأسفاه!» وكان كونراد يقول ذلك وهو يصرّ على أسنانه ويكوِّر قبضتيه ، ثم جعل يضرب الأرض بقدميه في غضب ، وقال : «فليأخذني الموت والشيطان إذا حركت ساكناً مساء هذا اليوم» وأتاح له هذا القسم السلام مع نفسه من جديد ، ولكنه كان سلاماً متجهماً . وفي هذه الأثناء كانت كاتري في الأعلى توشوش في أذن آنا وقد احمرّ وجهها حتى بات كزهرة الخشخاش قائلة وهي تقذف بذراعيها : «ما عدت أخدم في قاعة الرقص» .

وكان يبدو أن آنا تسألها : «ولماذا ؟» لأن سؤالها الخافت ما كان يمكن أن يسمع من الأسفل .

وقالت كاتري بصوت عاصف : «لا لشيء!» ثم ندَّ عنها صوت يقول : «لأنهم خنازير!» .

ورفع صاحب قصر الطاووس ، الذي كان يقف جانباً ، كتفيه في ازدراء ، أما هيلين التي كانت تدبر الأمور بالقرب منهما فزمَّت شفتيها متهكِّمة ، وجعلت آنا تستعرض الفتاة القادمة من برن بنظرها ، في سوء ظن ، من الأعلى إلى الأسفل ، وردت عليها قائلة على سبيل التعرض ، بصوت مرتفع ، وبطيء ، لكي يسمع ذلك أخوها : «لابد أن يكون هناك سبب آخر ، وما من شك في أنك تفضلين الخدمة في مكان آخر» وكانت تطرِف بعينيها في أثناء ذلك إلى الأسفل ، نحوه .

وتدخل كونراد قائلاً وهو يظهر عند الجدار : «لا تستطيعين أن ترغميها» ، وردت عليه قائلة بصوت مستثار : «إذاً كيف ينبغي لي أن أتكهّن بما ترفضه أخرى ، فلتتولَّ أنت إذاً الخدمة في قاعة الرقص!» .

وأصبح الآن مستاءً .

وصاح قائلاً : «أنا أخدم في قاعة الرقص على أقصى تقدير بالعصا ، أو بالسوط» .

ومع هذه الكلمة غير المتروية تقدم الشيخ منه ، نحو الجدار كثيراً ، مشحوناً بالغضب وقد سرى الدم في عينيه .

وكانت الخادمات قد تقدمن من جانبهن قريباً منه ، ليتلقفوا المفاوضة التي تعنيهن جميعاً ، والتفتت أنظار الضيوف إلى ذلك ، فنهض أقربهم في فضول لكيلا يفوتهم حرف من الكلام المتبادل . وكان في الجو ما ينذر بتصادم ، بل لو فتح الشيخ فاه لكان هناك العار والشنار ، إذ كان في وسع المرء أن يقرأ في عينيه ما كان يغلي ويفور تحت لسانه على وجه التقريب . وفي الوقت ذاته كان يسمع صوت اضطراب في قاعة الرقص من جراء نقص الخدمة . وجملة القول إن الموقف التهب .

وقالت جوزفين بلهجة الشتيمة والرفض : «ولماذا وجدت بريجيت حتى ما عاد أحد يفكر فيها ؟ فهي تغدو نداً للقديس أنطونيوس شخصياً ، مع خنزيره ، إذا اقتضى الأمر» .

ولم تكد بريجيت تسمع الأصوات المألوفة لاسمها حتى أدركت على الفور أنها هي المقصودة بذلك ، لأنها كانت تعرف كيف تربط ببراعة بين إسمها وشخصها .

وقالت وهي تصخب ، هائجة مستثارة : «ماذا ؟» واستغرق الأمر حيناً من الزمن إلى أن أفهمها القوم موضوع الحديث ، ثم هزت كتفيها في شعور بالتفوُّق .

وقالت مستنكرة : «الفاجنجيون أناس طيبون مثل الناس الآخرين»

وكانت تقول ذلك مُرفَقاً بنظرة إلى كاتري تنطوي على التعريض «ومن أجل ذلك فهم بعيدون عن أن يكونوا خنازير إذ أتيح لهم بطريق المصادفة ساقان بدلاً من أربعة ، مثل بعض الآخرين» . وبدون مقدمات صعدت الدرجات الأربع في السلم القصير إلى قاعة الرقص بهمة ونشاط .

وهكذا انحلَّت العقدة ، وتبدّل الالتهاب ، إذ عاد كلٌّ إلى مكانه بسلام ، على مضض إلى حد ما ، لأن المرء إذا أثار الديك وشدّ أوتار أعصابه يغدو تخفيف توتره متعباً أكثر من إطلاق العنان له .

غير أن كاتري أدّت لكونراد ، على البُعْد ، تحية متسمة بالهزل والدعابة ، شكراً له على مساندته . وكانت كلما أفضى بها عملها إلى مكان موازٍ للدار أعطته إشارة تعبِّر عن التفاهم لا تلفت الأنظار ، بالنظرة أو اللفتة ، أو ببساطة عن طريق التَنَحْنُح الذي كانت تعرف كيف تحوِّله إلى تقبيل يد مختلَس ، ضئيل ، يتسم بالوَجَل عن طريق يدها الممدودة إلى الأمام للتمويه .

وقال كونراد في صوت ملهوف : «يا آنا ، نحن نحتاج إلى رابعة» .

هنالك صاحت آنا بصوت حاد ، في الاتجاه الخلفي : «كاتري ، أخي يطلبك في شوق» .

وظهرت كاتري ، بوجه اللقاء المشرق ، وعلى أثرها الأخت ، ولكن بخطو وإيقاع مختلفين ، وتقدمت هذه من أخيها متبرِّمة ، معرضة ببصرها ، وقالت توبخه : «لا يحسن بالمرء أن يذهب إلى المقصف ويقعد فيه إلى جانب جوكوندا» .

وثارت ثائرة كونراد ، وردّ قائلاً : «ومن الخير لك أيضاً أن تنتبهي

لنفسك بدلاً من أن تلعبي معي دور بستالوتسي* . فهذا الطبيب السكران يلفُّك بعينيه بطريقة لابد أن يلاحظها حتى الأعمى ، وما دمتما غير مخطوبين علانية فلابدّ لكما من المحافظة على الأصول واللياقة ، وأن يكون سلوككما أقلَّ لفتاً للأنظار . لا تحملي ذلك مني على محمل السوء » .

وبلعت آنا ريقها وأخلذت إلى الصمت .

وصاحت كاتري قائلة : «ماذا! إن الفتى الناشىء غير المتزوج مسموحٌ له بكل شيء » .

والتفتت آنا نحوها ، وكأنما لسعها دبّور ، وقالت ساخرة : «إنها لمبادئ ظريفة ، حقاً ، هذه التي تسود في بيتكم» .

وشمخت كاتري بأنفها ، وقالت في خفة وحضور بديهة : «سوف يكون مقامنا في ديارنا مماثلاً بالضبط لما هو عندكم في هذه البلاد ، لا أكثر ولا أقل» .

وأحسّت آنا بغصّة تحملها على الردّ بمطعن مماثل ، غير أنها لم تعثر عليه ، هنالك نَخَرَت بأنفها كما لو كانت تشم رائحة مثيرة للاشمئزاز ، وانسحبت من الميدان بحماسة وهي تنشر في كل حركة من حركاتها سحابة من المرارة .

وغمغم كونراد قائلاً : «بَخٍ ، بَخٍ ، الآن تبدأ مهزلة النساء أيضاً!» .

ولم يكن يخطر له ببال أن يتدخل ، ولا من بعيد ، لأن الرجل الذكي لا يغمس إصبعه في مشاحنات النساء ، وهذا ماتعلّمه منذ نعومة أظفاره ، على أنه الحكمة المُثلى التي يتفق عليها الناس جميعاً من دون فرق بين طبقة وأخرى أو فريق وآخر .

---

* Pestalozzi من أشهر علماء التربية في أوروبا

ولكن حين همت كاتري أن تدنو منه في ألفة ، كأنما تسير في موكب النصر ، نأى عنها ووجَّه إليها توبيخاً .

وقال يعاتبها : «كان ينبغي لك على أية حال أن تقابلي أختي بلهجة أكثر تهذيباً» .

هنالك انطلقت كالسهم ، تنفخ مغيظة محنقة ، مثل ذكرالخنزير إذا أصيب بطلق ناري ، ولكنه ناداها بلهجة آمرة ، لتعود ، ثلاث مرات ، وكانت لهجة التهديد تزداد في كل مرة إلى أن عادت إليه مستكينة في النهاية .

وقال : «لقد التزمتِ اليوم بالخدمة عندنا ، والنتيجة التي تترتب على هذا أنك لا تدينين لنا بالطاعة فحسب ، بل بولاء المرؤوس لرئيسه ، وبالتواضع ، تجاهي وتجاه أختي . وغداً تستطيعين أن تعودي إلى الخشونة من جديد إذا شئت» .

ولما كانت تفور وتغلي من الغيظ ، وكأن الأرض تستعر ناراً تحت قدميها ، فقد أمسكها وقتاً أطول عن قصد ، وشرع قائلاً : «ما أردت أن أسألك عنه بالمناسبة : أنت كنتِ إذاً تخدمين في قاعة الرقص ، فماذا كان انطباعك هناك ؟» .

«أنهم خنازير» .

وأجاب قائلاً وهو لا يكاد يقدر على كبت الضحك : «أجل ، لقد سمعنا بهذا . ولكن أقصد هل لاحظت ــ كيف أعبر عن ذلك ؟ ــ أشياء من قبيل المؤامرة المعادية ؟» .

«اللهم فلتدعهم يأكل بعضهم بعضاً!» .

«صلاة أكلة لحوم البشر!» .

ونظرت إليه في وقاحة وغرور ، وقالت بنظرة حادة ، بارعة : «لابد أنك رفعت أنت أيضاً في بعض الأحيان ، دعاءً إلى السماء لا يوجد مثله في الصلاة الربانية*» .

هنالك أحمرُّ وجهه وانبعثت فيه الحرارة ، واستحوذ عليه الجدّ وأطرق يفكر .

وقال يأذن لها وهو شارد : «في وسعك الآن أن تذهبي ، وذهبت . غير أنه لم يكن راضياً بنجاحه هذا ، إذ كان يريد أن يهزمها مثلما يهزم اللاعب خصمه بالبيدق في الشطرنج ، أما الآن فقد كان ... . وكان حسابه السريّ : رَكِّعْها ، وانْتَهِ بها إلى الخسارة في اللعبة ، وسوف تحبك ، وكانت الآن ، بدلاً من ذلك ، غير راكعة ، أمّا هو فقد كان يحس ما دام يتابعها ببصره بإعجاب ، على الرغم من جموحها وصعوبة مراسها ، كان يحس بأنه يحبّها» . وما من شك في أن هذا الحب ، الذي كان أقل حيوية إلى حد ما ـ وكان هذا مؤكَّداً ـ أتيح له أن يكون غير ذي ضرر ، بل أن يكون أقل حيوية إلى حد بعيد . أما البلورتان الصغيرتان القاسيتان ، الزرقاوان زرقة شاحبة ، اللتان كانتا تؤديان مهمة العينين عندها فكان يودّ لو كانتا على غير هذه الصورة أيضاً لو كان الأمر موقوفاً على الرغبة . كانتا عينين فيهما من البرود والصَّحْوِ كأن المرء يرى حوض الينبوع الخشبي من خلال مائه النقيّ الصافي .

غير أنها كانت قد باتت كأنها بِضْعةٌ منه ، منذ صباح هذا اليوم ، ولئن كانت شديدة البرود فقد كان هذا سبباً أقوى يحمله على أن يبعث إليها بحزمة من الأشعة من قلبه ليبعث فيها الدفء . وأخيراً فما عسى أن تضيرها

---

* هي الدعاء المعروف الذي يستهل بقولهم : «أبانا الذي في السموات أعطنا خبزنا كفاف يومنا...» . «المترجم»

النقائص والعيوب ؟ فإن المرء يمكن أن يحب نقائصه هو بلا ريب أليس كذلك ، فلماذا لا يحب نقائص الآخرين الذين ينتمون إليه ؟

وأخيراً فقد كان يتمتع بصحبة تعجبه وترضيه . وكانت كاتري تلفت الأنظار حيثما ذهبت ، فكان الحديث ينقطع ، وتتوقف اللقمة في منتصف طريقها إلى الفم ، وكان القوم يحملقون فيها لا ينبسون ببنت شفة . ولم يكن اكتمال الشكل في قوامها وفي محيّاها قد لفت نظره بدرجة فائقة إلى هذا الحد قبل ظهر اليوم ، ففي المنزل ، بين الخادمات ، كانت قد وقعت منه ، ببساطة ، موقع الرضا ، أمّا الآن فقد منحه المقياس ارتفاع درجة الإعجاب وعمومه .

وكان الرجال المعتدّون بأنفسهم ، أولو الشأن والخطر ، مثل مدير الغاز ڤينيجر ، يحمّرون خجلاً إذا مسَّهم ذراعها وهي تمرّ بهم مسرعة . أمّا الغنادير المفرطون في التألّق ، مثل الفتى فون ديرهايدن ، المستجدّ ، الذي كان يبعث السأمة في الناس بابتسامته الصفراء الساخرة ، وساقاه تحت كرسيّ الجار ، فكانوا يغضون الطرف في حيرة وارتباك ويعتدلون في جلستهم على عجل . وإذا أفلت من يديها شيء انحنى القوم حواليْها يتسابقون ليلتقطوه ، كما يفعلون بين يدي سيدة نبيلة .

إنه السؤدد ، وياله من سؤدد ينتهي بصاحبته إلى السيادة في قصر الطاووس! وياله من عش مبارك لأنجال أولي وجنات مورَّدة ، يندفعون في وجل وذعر ، ويحبون المشاكسة ويطرحون نصف اثني عشرية أرضاً ، أو العواهر الصغيرات المكتنزات ذوات القامة المنتصبة كالسهم ، والغدائر التي تصل إلى باطن الركبة ، وفي وجه كل واحدة منهن نُقْرتان صغيرتان واحدة في الذقن وواحدة في الوجنة اليمنى ، أو ما هو أفضل من ذلك بعد ، وهو أن تجتمع كلتا السلالتين .

وكانت ، والله يعلم ، بارعة ، ويالها من خدمة تلك التي كانت تخدم بها! وفي هذا الصدد ما كانت حتى العمة الساحرة المعتلة المزاج ، النوّاحة ، لتستطيع أن تضن عليها بالإقرار بهذا . وكانت رابطة الجأش ومعتدة بنفسها في أشد المواقف حرجاً ، كجندي مدَّرب في معمعة النار ، ولم يكن فيها شيء من التراكض العاصف هنا وهناك بلا عقل ولا وعي ، كذلك الذي يكون عند الآخرين ، إذ يتفجعون ويوبّخون ، كأن امرءاً سرق منهم صغارهم . وكان ما يقدّره على وجه الخصوص كل التقدير أنها كانت تخدم خدمة بعيدة عن التحيُّز كل البعد ، لا مثل جوزفين الحساسة التي كانت تظل متعلقة بكل لاعب جمباز مكتنز باللحم ، أو مثل هيلين المثالية التي كانت تنسى السماع والرؤية إذا شرعت جوقة من الرجال في الترنُّم بأغنية ، بأصوات ثخينة عميقة ذات حفيف وهفيف ، وأصوات صادحة كأنها تنذر بعاصفة ، أو مثل بريجيت البليدة التي لم تكن تطيق كبار السن وتتبرم بهم كما يتبرم المرء بالموت ، حتى لقد كانت تنفح في وجه الموظف العمومي ، معتلة المزاج ، وكأنها كانت مهمومة من جراء عرض للزواج من جانبه . كانت كاتري تخدم كل الناس على السواء ، سواء أكان المخدوم كبيراً أو صغيراً ، جميلاً أو دميماً ، نبيلاً أو وضيعاً ، كما لم تكن تلوي شفتيها بجسارة واستهتار عندما يطلب أحدهم مجرد ماء محلى بالسكر ، وكان التكليف والتنفيذ هما كل شيء عندها ، وكان الناس عندها لا يثيرون اهتمامها ، بل كانت قليلة الاهتمام بهم إلى حد مفرط . ذلك لأنها كانت تسلك تجاه الضيوف سلوك المزهوّة بنفسها ، والمختالة ، إذا لم نقل المهينة ، كلاّ لم تكن مُهينة في الحقيقة ، ذلك لأن الواحد من هؤلاء إذا شكا منها وطلب إليه أن يمثل أمام ولي الأمر ليناقّش الحساب لم يعرف شيئاً محدداً يورده ، ولكن كيف ينبغي لي أن أقول في وصف هذا ؟ إنه سلوك رافض ، عدائي ، أجل ، عدائي .

وكانت تتلقى الطلب بوجه كوجه كبير الملائكة الذي يصغي إلى رجاء من واحد من بني البشر الوضعاء المدنَّسين بالخطيئة ، وكانت تقدّم الشراب والطعام تقديم المنعم المتفضِّل ، وكأنها تسدي نعمة غير مستحقة . والويل لمن يجرؤ على أدنى قدر من المراودة عن النفس ، سواء أكان ذلك بالكلام أم بسيماء الوجه! إذ كانت تعامل هذا ، منذ الآن فصاعداً ، بتقزُّز ، وكأنه صرصار تفوح منه رائحة كريهة ، كما تغدو بعد ذلك غير ممكنة المصالحة عل وجه الإطلاق ، لا بالكلام الحلو ، ولا بالأعطيات ، إلاّ أنها كانت تكبت كلمة الشتيمة التي كانت تحوم على رأس لسانها ما دامت تخدم ، بمغالبةٍ للنفس لا تزل بها قدم .

وإذا شاء أن يعترف بصراحة فإن جفاءها ونَفْرَتها لم يكونا يسوءانه على وجه الإطلاق ، إذ كان يحلّ مع هذا روح من التحفُّظ المنطوي على أقصى قدر من الجلال ، الذي كان يطبع كل محيط تحلُّ فيه بطابع النبالة .

وبينما كان يتابع ملاحظاته على هذا النحو غمز مرفق غريب مرفقه ، وسمع قائلاً يقول : « ياسيد ريبر ، أنائم أنت ؟ أم تراك تدرس خطة حربية ؟ » ونظر حواليه فإذا هي كاتري نفسها ، إذ ابتعدت مسرعة وهي تضحك .

وغمغم قائلاً : « إنهن النساء الملعونات ، أوَليس الأمر كما لو أنهن يقرأن كل أفكار المرء على جبينه ؟ » .

وأقبل البواب في خطوات متثاقلة ، على خط متعرج ، مثل صخرة منقولة وهو يصدم الضيوف في طريقه بعنف وفظاظة ، من دون أن يعتذر ، لا عن قصد ، بل عن جلافة أصيلة جُبِل عليها ، وقال : « ياسيد ريبر ، يقول لك أبوك إن العقيد أليجري فون موند ريزيو سأل عنك ثلاث مرات ، ويلتمس

منك أن تطل بطلعتك التي تحسَد عليها ، أخيراً ، كما يقول أبوك ، أم تراك تتخيل أن السيد العقيد يجب عليه أن يجري وراءك ولسانه يتدلى مثل كلب من كلاب الصيد » .

وتردد وارتاب ؛ أما مطلب الشيخ الذي لا يراعي حرمة فقد كان خليقاً أن يقابله بالامتعاض والاشمئزاز ، بحكم البداهة ، وأما العقيد ألليجري الذي برهن له على الدوام على محبة وحَدَبٍ أبوي فقد كان يريد بصورة قطعية أن يقدّم له آيات التقدير والتبجيل .

وقال يسأله : «وهل والدي حاضر معه ؟» .

وكان الجواب : «أجل» .

وغمغم قائلاً بتجهم وهو ينهض : «سآتي» .

وصاحت كاتري من ورائه في تهكّم ، ولكن بمقصد جدّي ، قائلة : «تصرف بحكمة ، وتماسَكْ ، لئلاّ تفرِّط فيما وصلت إليه ، لأنني لن آتي مرة ثانية ، في وضح النهار ، لأقوم بدور «الشبح الطيب»» .

وقال يمازحها بروح الفكاهة اليائسة : «فلتَدعي لي بالتوفيق» .

وحين وصل إلى الشرفة الأرضية رأى بين الجمهور مائدة تزدحم عليها الحلل والسيوف اللماعة ، وكانت تنتصب فوق ذلك سماء معكَّرة ، قوسٌ كبير من الأفكار ذات العنفوان يمتد من جنيف إلى شافهاوْزِن ، ومن بازل إلى شياسّو .

وبينما كان على هذه الصورة ، يتوه ، مشرق العينين ، بطلاقة ، وقامة مشدودة منتصبة ، نحو مائدة الضباط أقبل العقيد نحوه بخطوات طويلة ثابتة ، وبحيوية ظاهرة ، بادئاً بكلمة ترحيب وسرور قوية حارة ، وعانقه

وربّت على كتفيه . ولمّا لم يكن يعرف سائر الضباط فقد تمّ إجراء تقديم وتعارف رسمّي ، وتبادل القوم التحية العسكرية ، وعلى أثر ذلك مصافحة طيبة بسيطة ، واتخذ كونراد مكانه إلى جانب العقيد بموجب إشارته الصريحة .

وكان صاحب القصر قد تنحى في أثناء ذلك جانباً ، ولكن العقيد طلب إليه ، في لفتة ذات مظهر ودي حارّ ، البقاء في مكانه ، وضحك قائلاً : «ماذا ، أيها الشيخ الكبير القهرمان ، ماذا يمكن أن يعني أن تهرب مثل مجند عاجز خاف من البارود ؟ أتراك لا ترضى بالحضور في جَمْعِنا ؟ بالطبع ، يحق لك أن تختال علينا ما دام ابنك مثل هذا الفتى الرائع! فإن قلبي ينشرح عندما أراه» . وعند هذه الكلمة ضرب براحة كفة على ركبة كونراد مثلما يفعل العمّ المولع بابن أخيه . وجعل الشيخ الذي تولاه الخجل من جراء الثناء المتحمّس على الولد الذي يُرمى بالمعايب ، يعطس ويقرقر ، وأخيراً جعل يجرِّر نفسه نحوهم مع ذلك .

«مالكم يحملق كلٌّ منكم في وجه صاحبه مثل كلبي الدُّكس* اللذين يتقاتلان على عظم ؟» . وقال العقيد يأمرهما : «انهضا ، تقدما إلى الأمام! وليقف كل منكما إلى جانب الآخر» .

ولكن هذا لم يجدِ فتيلاً ، ولم يكن لهما بدّ أن يقفا متجاورين ، بسلام ، وأن يكبت كل منهما اشمئزازه ، ويبسط جبينه ، حتى لقد كانا يتجنبان حدوث تلامس ، غير أنهما كانا يوجهان أنظارهما إلى جهات مختلفة .

وكان العقيد يقارن بين كليهما ، في سرور وإعجاب ، واتجه نحو رفاقه

* كلب ألماني صغير قصير القوائم .

قائلاً : «والآن ما رأيكم ؟ لو كان عندنا بضع فرق من هذه السلالة ؟ ياإلهي ، هذا خليق أن يؤدي إلى قوة أيّما قوة! ماذا ؟ ما رأيكم ؟ ههنا يصدق المرء كيف يقذفون بالخيل مع راكبيها ، رأساً على عقب ، السويسريون من الجيل القديم! » .

وهنا أخذ يوجه حديثه نحو الشيخ على وجه الخصوص ، قائلاً : «أجل ، ياعزيزي الغالي ، الأبناء ، الأبناء ، الأبناء! هؤلاء هم مستقبلنا ، وهم الذين يحفرون قبورنا » .

ومع هذه الكلمات أخذ القبعة ذات الحوافّ المذهَّبة عن رأسه ، وجعل يمسح ، مسروراً ، بيده ، على جمجمته البيضاء .

أما صاحب القصر فتغيّر لونه ، على أثر التذكير بالموت ، من الأزرق إلى البنفسجي ، وأما كونراد فقد أحس بالرثاء لوالده ، ولم يكن في وسعه أن يحسّ بشيء غير هذا .

واعترض بقوله : «أما الدفن ، ياسيدي العقيد فما زال هناك متسع من الزمن سواء بالقياس إليك أم بالقياس إلى والدي» .

وقال العقيد : « كل آت قريب ، وكلنا صائر إلى ذلك! ففي مثل عمرنا ، ياعزيزي ، لابد لكل امرئ أن يكون مستعداً في كل ساعة لأن يلقي السلاح! أليس كذلك ، ياسيد قصر الطاووس ؟ ــ على أن المسألة الرئيسة هي أن يكون للمرء في هذه الدنيا من يغمض عينيه ، ويحفظ له ذكرى طيبة ، وسدَّ نقاط ضعف الشيخوخة بالحب العارف للجميل ، والولاء » .

وجاء دور الشعور بالخجل على الولد ، فاحمرّ خجلاً ، ونكّس رأسه ، وأخلد إلى الصمت .

ولكن أباه استبقه قائلاً وهو يغمغم متهرباً : «ليس بيننا بالطبع سوى حالات يسيرة من سوء التفاهم .

وهكذا حاول كلاهما أن ينقذ مظهر السلام تجاه الجهات الخارجية ، من أجل شرف العائلة وسمعتها . غير أن هذا الموقف لم يكن من الممكن الثبات عليه على المدى الطويل . فكان هناك ، من ناحية أولى ، العقيد الذي كان يجمع بينهما ببساطته ، وكان هناك ، من ناحية أخرى ، جهودهما المتشنِّجة من أجل تفادي التلامس بينهما ، أو أن ينظر أحدهما إلى الآخر ، ومن حولهما الضباط الذين كانوا يرقبونهما ، ومن أجل ذلك أخذا يتطلّعان ، في ضيق وقلق ، إلى حدث عارض يخلِّصهما .

واكتشفه كونراد ، فقال ملتمساً بأدب : «عفواً ، ياسيدي العقيد ، فأنا أرى فوج الإطفاء من ڤالديسهوفن قادماً ، في عشرين رجلاً ، وأنا بحكم كوني نقيب الإطفاء في هرليسدورف...» .

وقال العقيد وهو يأذن له : «هذا مفهوم ، هذا مفهوم ، ياعزيزي ، وعلى كل حال فلابدّ لنا أن نستعد لطريق العودة ، فقد أُسرجت الخيل منذ زمن طويل ، ولكننا تمهّلنا من أجلكما فحسب وأضاف قائلاً وهو يضحك ، مشيراً إلى قاعة الرقص حيث كان قد بدأ صخب جهنميّ : «وهذا القداس لا يعود إلى حارس الفردوس أيضاً» .

وأعقب ذلك وداع قصير مع صليل المهاميز ، وقرع الكعوب وتصادمها ، وانطلق الضباط ، وتمهّل الأب ، وتأهب كونراد لاستقبال أصحابه رجال الإطفاء ، الذين كانوا قد عرّجوا على البساط الأخضر إذ أغرتهم رؤية كاتري ذات الفخامة والأُبّهة .

ومع ذلك فقد لحقت به آنا وأدركته ، بسرعة المشغول بعمل وعليها

سيماء من ينطوي على سرٍّ ما ، وأعلنت إليه بلهجة المولع بالثرثرة : «آنسة رائعة الحسن تقف في مدخل المنزل ، مع أمها وتسأل عنك ، وقد تعرفتا عليك في فراوِنْفيلد ، في حفلة راقصة ، وتقولان إنهما تأخرتا في رحلتهما ، مع الأسف ، ولابدّ لهما من الذهاب إلى القطار ، ولولا هذا لما اضطرتا إلى طلب حضورك ، خلافاً لأصول اللياقة ، في الدهليز ، ولكنهما ما كانتا ليحتمل قلباهما أن تمرّا بقصر الطاووس هكذا من دون تحية عابرة على الأقل ، وهما تأملان أن تعذرهما» .

وطاف بوجه كونراد شعاع من السرور ، وصاح قائلاً بحرارة : «آه ، عرفت!» وهمَّ أن ينطلق مع أخته لتحية المرأتين .

وإذا هو يلاحظ كاتري على الجانب الآخر من الجدار الصغير ، على مسافة لا تكاد تبلغ ثلاثة أمتار ، منتصبة القامة كعمود وقد وجهت عينيها اللتين تقدحان بالشرر مُتَوَعِّدة ، وما من شك في أنها شاركت في سماع نبأ الأخت وحدست ما كان عرضة للخطر .

ومضت آنا قائلة وهي توشك أن تأخذه معها : «أكاد أعتقد أنهما تدخلان في حسابهما إلى حد ما أنك ستصحبهما إلى المحطة» .

غير أنه ظل في مكانه لا يريم ، والحق أنه كان يسره أن يذهب إلى المرأتين وأن يذهب معهما إلى المحطة ـ إذ انبعثت في خاطره عينان مشرقتان صافيتان جميلتان ـ ولكن ملامح كاتري الصارمة كانت تقول له : «الآن يتبيّن الأمر ، الآن بات الأمر في يدك ، وسيكون قراري تبعاً لقرارك» .

وبينما كان يتشكك ويرتاب ، بين الخوف والشهوات حدثت في الداخل جلبة مثلما يكون ذلك في السوق السنوي عندما يحترق معرض للوحوش .

هنالك اجتمع إلى الخوف الخجل . فيالموقفه الآن ، أمام الذوق الانتقائي لمُراقِبته المرهفة الحس التي تعرفت عليه فعرفت فيه الضابط اللائق! وذلك من حيث كونه ، ببساطة ، صاحب بيت فلاح ، فلاح على نحو واضح ، جلي ، وإلاّ فلا شيء . أما الثوب الآخر ، ثوب العسكرية الفروسية فقد تميّز في مقابل ذلك إذ بدا كأنه ثوب تنكُّر مؤقت ، وسرت في وجهه حمرة ساخنة مؤلمة .

كلاّ ، ليس من شأن المرء في قصر الطاووس ، في هرليسدورف أن يصحب آنسة حسنة التربية ، رقيقة الحسِ ، إلى بيتها ، فقد كانت بالقياس إليه أطيب من ذلك ، وأغلى ، ولما كان الضباط قد مضوا الآن لتوّهم فقد أوّل فقدانُ شجاعته هذا على أنه توكيد لمهانته . لقد كان فلاحاً ، وفلاحاً سيبقى ، وكان من الواجب أن ينسجم مع هذه الحقيقة واختار ما اختار بسرعة ، كشأنه دائماً ، فقال في حسم : «يؤسفني هذا ، ولكن لابدّ لي أن أكون في استقبال أصحابي القادمين من ڤالديسهوف» .

واعترضت أخته قائلة بحدة وبصوت مرتفع : «سوف تلقي عليهما تحية المساء على الأقل ، بسرعة ، وبحكم البداهة .

وهزّ رأسه بالنفي ، وابتعد عنها بخطوات سريعة ، وكأنه يخشى أن يكون هذا مثيراً للفزع عنده ، وعلى غير إرادة منه جعل يمشي مشية أكثر استرخاءً مما كان شأنه في العادة . وصاحت به من ورائه ، متذمرة : «ولكن هذا سوء أدب صارخ ، وإهانة» ولكنه أوصد أذنيه .

وكانت كاتري تنتظره عند ركن الجدار . وكانت عينها تبرق بخبث ، وما زالت تنطوي على شيء من العداء ، في صدىً منعكس عن الغيرة التي عانت منها . وقالت توبخه توبيخاً معكوساً ، ينطوي على التظاهر والنفاق :

«لماذا ياترى لم تذهب لتسلّم على الآنسة القادمة من المدينة ؟ » .

وقال في نفسه : «ألا إن نفس الإنسان لهي شيء معقّد » . وذلك أنه وجد على السطح حيرة وارتباكاً بما يكفي ليتعجب من هذا الكذب الأنثوي الذي ينطق به لسان كاتري ، إذ كان يرى أن الخشونة هي الضمان للأصالة والصدق ، بينما كان يحس في الوقت ذاته ، في داخله ، بأن صدره مفعم بالحرارة ، من دون تحفظ ولا انتقاص . وأجاب قائلاً بلهجة مرتعشة إذ كانت ضرورة الاختيار قد استحوذت عليه : «لأنني أفضل الحديث مع ملاكي الطيب» .

هنالك منحته نظرة مودة مشرقة ، وعلقت ببساطة قائلة : «أشكرك» ولبثت هنيهة بعد ذلك واقفة أمامه ، مطرقة تفكر ، وتظل ترفع الطرف ناظرة إليه من حين إلى آخر ، نظرة موزّعة بين الاختبار وبين الحب ، وحين غادرته لامست يده ملامسة مختلَسة .

ولم تكد تمضي حتى كانت الآنسة مع أمها تمران على مقربة بالغة منه وهما تمشيان الهُوَيْنى ، نحو الكرم ، تصحبهما آنا ، وعلى الرغم من أنه كان يدير ظهره لهن بالمصادفة فقد أصابه مع ذلك البريق غير المحدد لقوامها اللدن وخطوتها الخفيفة ، إصابة عابرة ، وأصابه في الوقت ذاته بالانطباع الملوّن الناشئ عن ثيابها المشرقة البهيجة ، ولكن مع ليونة وخُفوت ، مثل ... ...

على أن ما تبقى أكمل ذكرياته المستثارة . وأرغم نفسه على البقاء في تلك البقعة ، وجعل يحاذر أن يتحرك لئلاً يراها ، وحين بات على يقين كامل من أنها أصبحت على مسافة بعيدة منه ، هنالك فحسب تنفس الصعداء مع شعور كان يرتقي به من جراء تخلّيه عن شيء ما كان ينبغي ، ولا يجوز له أن يسمح لنفسه بحق فيه .

وأخيراً حين رأى آنا تعود أدراجها وحيدة ، دنا من أصحابه القادمين من ڤالديسهوف .

واستقبلوه بألفة تنطوي على التقدير والإجلال ، والحق أنهم كانوا يتعالون ولكنهم كانوا في الوقت ذاته يمدّون أيديهم نحوه ويقدمون الكؤوس للترحيب ، وردّ على بعضهم ، وصافح كلاً منهم وهو حريص على ألاّ يتخطى واحداً منهم ، ولكن حين وصل الدور إلى الرقيب في سلاح الفرسان كانت حريته قد انتهت ، لأن هذا صادره لوحده بمودته القلبية العنيفة ، وما عاد يرسله ، فجعل يعانقه ويشده إلى صدره ، ويقرع على ظهره ، ويظل يعاود الهجمة عليه من جديد من دون أن يشبع وهو يحك في هذه الأثناء بوجهه لحيته السوداء كالزفت ، وهي لحية نجار كانت تمتد من وجنتيه إلى الحجاب الحاجز . وكان ما يفتأ يقول بلهجة كالقرقرة : « كونراد » بينما كان يَلْفِت مقلتيه الجامحتين مثلما يفعل الدب الأمريكي الأشهب .

وأخيراً خلّصه لويتولْف ، الملازم الإطفائي ، بطريقة لم تخلُ من الجهد ، من جبّار الصداقة . وقال : « أية حبيبة سرّية لك كانت تقعد اليوم بعد الظهر في القطار ، حتى لقد نسيت السماع والرؤية ؟ لقد كنا نناديك ونحن نمرّ بك حتى كادت تنفجر رئاتنا ، ولكن كان عليك أن توجه عينيك وانتباهك ، فيما يبدو ، إلى شيء هام » .

وقال كونراد يُغْلِمه ، وقد تسلّلت ابتسامة طيبة إلى قلبه وفمه حين تذكر العمة الساحرة : « الحبيبة السرية شعرها أبيض ، وهي في الثانية والسبعين » .

وكان لويتولف قد تعلّق بذراعيه في هذه الأثناء ، وعَطَفه الآن معه في نصف التفاتة إلى الوراء ، وصاح قائلاً بإعجاب مع غمز بعينيه : « أيُّ حشد لا إنساني هذا الذي يوجد الآن في « الطاووس »!

وقال كونراد يستدرك عليه ويحوّل موضوع الحديث : «ويالها من أمسية رائعة!» .

ومضى لويتولف قائلاً وهو يهز ذراع كونراد : «يالك من صاحب حظ عندما يحل وقت الوراثة!» وكان يصفر بشفتيه في أثناء ذلك .

وقال كونراد مدافعاً وقد شعر بالإهانة حقاً : «خسئت!» .

وردّ الملازم الإطفائي ، بسرعة ، لا يلوي على شيء ، قائلاً : «الوراثة ليست بالخطيئة . وما عاد أمام أبيك الشيخ سوى أيام قلائل ، حسبما تشير الظواهر ـ فهل تراك دبَّرت لنفسك أيضاً آنسة حلوة جذابة ؟» ولما كانت كاتري تمر بهم في هذه الأثناء على وجه الدقة ، محمَّلة بالقوارير والكؤوس ، فقد صدم صديقته بكتفه ، وقال هامساً : «أتراها هذه هي التي تريد ؟» .

وفكر كونراد ، وكان يبدو له أن السؤال غير لائق ، وأن الجواب عليه صعب ، وقال أخيراً في استياء : «أنا نفسي ما زلت متردداً» .

وقال القادم من ڤالديسهوف : «أما إنها لجميلة جمالاً ملعوناً ، جمالاً لا يحتمل مسؤولية ، بل جمالاً مستحيلاً ، ولكن هل تتمتع بقدر من الثقافة ؟» .

«أنا لا أتمتع بذلك ، أيضاً» .

«أنتَ ، ولا ثقافة ؟ ضابط مدفعية ، وطالب صناعة سابق ، ومع الجوائز الأولى دائماً! هذا عبث صبياني! ـ إذاً فهل هي تلك التي مرّت ، ما دمت تتجاهل هذا النقص الرئيس ـ لقد كنت أشتبه ، لحظة ، في فتاة أخرى ، فتاة تلائمك أكثر منها ، وكانت تنظر إليك على نحو يلفت الأنظار ، ولكن لما كنت تصر على أن تدير ظهرك لها فإن تكهناتي تتجه إلى تلك» . ثم قال

وهو يصغي إلى الزمجرة الوحشية في قاعة الرقص : «أيُّ جمع منسجم غريب وقع اختيارك عليه هنا ؟ هل يفترض في هؤلاء أن يقدموا جوقة إلهة الثأر من «أورفيوس» ؟ إنهم يغنون مثل الصقور الضخمة المخصية» .

وقال الرقيب في سلاح المدفعية : «أو مثل كلاب البحر السائرة في نومها ، وفي الوقت الذي بات فيه كلٌّ منهم على يقين أنه قدَّم ، في استباق للأمر ، تشبيهاً جديداً مستمداً من حديقة الحيوان ، كانوا يصغون مستمتعين إلى الصخب الذي يبعث الرعدة في النفوس .

وقال قائل يَحْزِر : «إذا حكمنا تبعاً للأصوات الرفيعة المبحوحة فمن المفروض أن يعتقد على وجه التقريب أن هؤلاء هم الفاجنجيون .

وحين أومأ كونراد بالإيجاب طَرح سؤال : «الفاجنجيون أهل فاجنجن العليا أم أهل فاجنجن الدنيا ؟» .

وقال كونراد معترفاً وهو متكدر : «كلا الفريقين» .

ونظر الملازم الإطفائي إليه في قلق ، وقال : «الفاجنجيون أهل فاجنجن الدنيا ، وأهل فاجنجن العليا معاً ؟ بعد ثمانيةِ أيام من الانتخابات ؟ هذا أمر يمكن أن يفضي إلى عاقبة غير سليمة» .

وقال كونراد مؤكِّداً : «هذا ممكن بلا ريب» .

ولكن الرقيب في سلاح الفرسان أمسك بذراعه بإحكام ، وقال يشرح : «والآن ، إذا انتهت الأمور إلى ذلك ، إذا افترضنا هذا ، فأنت تعرف أنك تستطيع أن تعتمد علينا» ولكي يضفي التأكيد على وعده أعقب كلامه ببضع لطمات على الكليتين .

وقالت الجماعة مؤكِّدة : «هذا أمر بدهي!» .

وفي هذه اللحظة سمع صوت وقع حوافر خيل تقرع الأرض ، وحين نظر حواليه نحو جهة الجلبة لاحظ أصحابه الضباط ، والعقيد أَلْليجري في المقدمة ، كأنهم كتلة واحدة ، منحدرين إلى شارع الكرز الصغير ، في رتل ثلاثي ، ثلاثة كلٌّ منهم وراء الآخر ، في خطوة الخبب ، بخفة وحيوية ، وأرسل طرفه وراءهم معجَباً ، ينظر إليهم نظرة العارف الخبير . وكانت الخيول تحني أعناقها ، فعل المتقن البارع ، وراء الأعِنّة ، مجتمعات ، والعنق والظهر في خطوط متموِّجة ظريفة ، وكان الفرسان يجلسون بحيث يشغلون القليل من ظهر الجواد ، مشدودي القامة ، وكانوا يخلّفون وراءهم زوجاً من الأشجار إثر زوج مع وقع حوافر الخيل الذي يشبه وجيب القلوب ، إذ كانت الحوافر تدقّ الدرب اليابس كالمطارق ، بصوت كصوت الخشب له وقع الألحان ، بينما كان سيف من السيوف تنعكس عليه أشعة شمس المساء ، فيشرق فجأة ، مثلما ترسل المرآة الباهرة حزمة من اللهيب .

وقال كونراد : « إن أبي أَلْليجري لينطوي على نفس مخلصة وفيّة ، وهو بريء كالأطفال » . أوَ كانت هذه خاطرة جريئة منه أن يؤلّف بينه وبين أبيه من دون أن يكون لديه أدنى إحساس داخلي بمدى سوء العلاقة بينهما! ياله من وضع مستحيل! وحاول جاهداً أن يجد هذا الوضع ، بعد حدوثه ، مرحاً لطيفاً ، ومع ذلك فقد كان ينبعث فيه التأثر من الأعماق ، فقد كان وقوفه زمناً طويلاً بسلام إلى جانب الوالد ، من دون أن يعاني منه سوءاً ، وأن يساند كلٌّ منهما الآخر ، وأن يَغذُر كلٌّ منهما الآخر ، وأن يكون كلٌّ منهما مُغَطىً أمام الغريب ـ حدثاً لم يُسْمَع بمثله ، وما من شك أن هذا لم يحدث إلاّ لأن الضرورة ألجأتهما إليه ، باتجاه الخارج ، ومن أجل الناس ، وعلى الرغم من ذلك أثرَّ ذلك فيه ، وقد كان من الممكن ، تقريباً ، أن يحبّ والده من أجل ذلك ، ومع ذلك فما أقلّ ما كان الأمر يقتضيه ليتمكن من ذلك بالفعل! سلوك

ودّي إلى حد ما ، ولهجة لا تستفزه بخشونتها ، ومخاطبة لا تهينه ، ولا أكثر من ذلك . فهل يفترض أن يكون هذا صعباً صعوبة لا نهاية لها ؟

وتنهّد تنهدة عميقة ، واكفهرّ وجهه . وعلى كل حال فقد رأى الآن بارقة من أمل ضئيلة باهتة ، إذ ما عاد يبدو له منذ الآن فصاعداً ، أن من المستحيل كل الاستحالة أن يستقيم كل شيء بعد بحيث يمكن احتماله ، حتى من دون معونة الموت الباعثة للفزع . أي ببساطة ، عن طريق سلطان العقل ، مع إضافة من بقية ضئيلة ، مجهرية ، من الفضيلة .

وقالت كاتري تسأله إذ كانت جديّته المنطوية على الألغاز قد بعثت في نفسها الاضطراب : «ماذا ألَمَّ بك ياسيد ريبر ، فقد غدوت حزيناً كل الحزن دفعة واحدة» .

«وهز كونراد برأسه ، وردّ قائلاً باكتئاب : «لست حزيناً ، بل سعيداً فحسب» .

وقال الملازم الإطفائي يتهكم عليه : «إيهٍ ياكونراد ، ماذا دهاك ، أنا أكاد أعتقد أنك تنظم الشعر ؟» هنالك شعر بالخجل وانضم إلى رفاقه .

ولكن عند هذا التلفُّت رأى تحته في الوادي الضباط مصطفين في نظام عسكري أمام امرئ ما ، على مسافة تدل على التقدير والاحترام ، ويَدُ كل منهم عند قبعته ، مثلما يحدث عند الاستعداد لنقد المناورة ، وتبيَّن في هذا المرء آنِستَه ، ومُراقِصَته .

وأصابه هذا المنظر كأنه زُباني دبّور في عينيه ، حتى لقد عاد أدراجه بسرعة وهو يعض على ألمه .

وكان الصخب الناجم عن الثَمَل في القاعة قد انتقل انتقال المُتَلَكِّئ من

فترات الاستراحة إلى الرقصات ، فشلَّ الموسيقا ، وسرعان ما أسكتها أيضاً ، لا بقوة الأصوات ، بل بشدة التنافر بينها الذي ثبّط كل إيقاع شيئاً فشيئاً . وبدلاً من الأزواج الذين يتمايلون إلى هذه الجهة أو تلك كانت تترنحّ الآن كتل تعربد وتزعق في مساحة الصورة ، وكانت هذه الكتل تشير بقبضاتها من خلال النوافذ لكي تُسَعِّر جَراءَتها الآخذة في الارتعاش والوَهْن ، أو تعابث الجمهور ، أو تتحدى الناس جميعاً بقولها : «هيّا ؛ اخرجوا» . وبعد أن استمتع الموكب هنيهة من الزمان طاب له أن يحدث تغييراً : وإذا الصور الحية تتوارى ، ويحل محلها ، من الداخل غير المرئيّ قطع من الطعام تأتي طائرة : فمن حوافّ الجبن ، إلى دهن فخذ الخنزير ، إلى الأطراف المدبَّبة من القديد ، وكان ذلك في البداية بمقادير زهيدة ، كأنما لتكون بمثابة الإشارة ، غير أنها أصبحت بعد ذلك مثل مطر المَنّ ، وأخيراً أصبحت تَصِلُ مع الأطباق التي كانت تتحطم على الأرض في صليل مِرْنان .

وكانت صيحات مستنكرة ، شاكية أو غاضبة ، تحتج على مثل هذه المؤونة القذرة ، وكان القوم يهربون بوجه عام من مجال القذائف اللصوقة ، وعلى أثر ذلك انطلق الشيخ بهمة ، غاضباً مستنكراً بيديه ، نحو القاعة ، ولكن من دون جدوى ولا فائدة .

وفجأة توقّف الصخب والزمجرة ، وعلى أثر خليط هائل ، بابليّ* بعضه فوق بعض من الأصوات المُنَقْنِقة ، ارتفع صوت مناوشة كلامية تخالطه لعنات كالنباح ، وتلا ذلك دويّ من وقع أقدام تضرب الأرض ، ولاحظ القوم من خلال إحدى النوافذ كتلة من الأجساد تترنّح وسط سحابة بخار من الأنفاس والعرق ، وكانت أذرع تنتفض في الهواء ملوِّحة بقبضاتها ثم تُرَدُّ عن هدفها

* نسبة إلى برج بابل الذي اجتمعت فيه ، كما يقال ، أقوام من أمم الأرض «المترجم»

فتقاوم بعناد لترجع ، إلى أن وصلت آخر الأمر إلى رأس العدو المنشود الذي انهالت عليه ضرباً في عزم وتصميم ، وتم ذلك آخر الأمر من دون أي أثر خصوصي على ما كان يظهر . ولكن كان يبدو لكونراد أن من بواعث الدهشة البالغة أية علامة مميزة يمكن بها في هذا الجمع المختلط تمييز الفرد ذي العقل المتحرر من العقل المحافظ ـ وكانت كتلة البشر تروح وتجيء ، وتعود أدراجها ، وتمكث ، وتتراكم ، وتعلو كالبرج ، وفي الوقت ذاته انفرج الباب ليفتح الهوة السحيقة السوداء التي كانت آنساتٌ زاعقات يهربن منها ، رافعات أيديهن في الهواء كأنما يتسلّقن شيئاً ، ويجأرن بالشكوى . ومع ذلك فلم يكدن يخرجن حتى عُدْنَ يدخلن من جديد وهن يزدن الجلبة بصراخهن .

وقال كونراد لأبيه ساخراً : «ها أنتذا تنال نصيبك المحتوم!» .

وقال هذا وهو يفحّ فحيحاً : «لا تكلف نفسك جهداً بأي حال من الأحوال» وكان قد خرج عن طوره من الغيظ إذ تجرؤ الحقيقة على إظهار أنه على غير الحق ، وقال : «لا تدع أدنى شيء يكدِّر صفوك مع صاحبتك جوكوندا» .

هنالك وضع كونراد يديه في سرواله ، منشرح الصدر ، آيةً على عدم اهتمامه .

وقال الرقيب في سلاح الفرسان مازحاً : «هنا لا تصلح الأمور إلاّ بمضخة الحريق على أن يدخل لسان اللهب الكامل في القلب» ، وضحك ضحكة رنانة للصورة الذهنية الممتعة .

وردّ كونراد قائلاً : «أشكرك على التطويف ، الإطفائية فوق السد الترابي ، وفي كتلة الأخشاب حجر القدّاحة» .

وعلق لويتولف قائلاً : «إن سنك لم ينضج لمثل هذا الموقف ، فهو يفقد صوابه تماماً ، ومهما يَرُحْ ويجئ ، راقصاً ، طائر العقل ، من نافذة إلى أخرى ، فهذا لا يهم هؤلاء ولا بمقدار لسعة برغوث» .

وأومأ كونراد موافقاً ، وقال : «سوف يسرني حقاً أن يصاب غروره المبنيّ على اعتقاده بقوته وجبروته اللذين لا حد لهما بضربة موجعة» .

«هنالك لن يبقى أمامك شيء آخر سوى أن تتبوأ مكانه» .

«لابدّ له أن يلتمس هو ذلك مني أولاً ، فهو مدين لي بهذه الترضية» .

«كما تقول ، ولكي تعلم ذلك فحسب . نحن تحت التصرّف . وحين يؤون الأوان أعطنا إشارة ـ وقال يأمر فرقته بثقة ارفعوا الخوذة! واخلعوا الحُلّة وشمروا أكمام القميص! » . وفي هذه اللحظة أسرع إليه من هنا وهناك ، فتيان مستعدون للكفاح ، لدعم الإطفاء ، وفلاحون شباب من القرية ، ومن ضيوف هؤلاء وأولئك ، حتى لقد رأى كونراد نفسه على رأس قوة كفاح منتقاة ، كانت متريِّثة إلى حين في الحقيقة ، ولكنها كانت تكبح جماح نفاد صبرها على التدخل إلاّ بمشقة .

وكان أكثر القوم فضولاً قد انتصبوا ثابتين على المناضد ليتمكنوا من الرؤية الأفضل من وراء الجدار الصغير ، وكانوا يستمتعون بالمسرحية صامتين ، إلاّ كاتري التي كانت تصدر حكمها على الملأ مثل الحَكَم . وقالت شاكية بازدراء : «ياإلهي ، أي قوم فلاحين سفهاء! لا صوت لهم ، ولا نخاع في عظمهم ، ولا عضلات وما من واحد في القرية حولنا يرحم ياإلهي! لو كان أخونا هانز هنا! إذاً لَكَنَس القاعة كنساً!» وضحكت أثناء ذلك ضحكة عالية ، من فرط سرورها .

وقال كونراد يقرِّعها : «اخرسي!» وأضاف بعد فترة توقُّف ، وهو يقطِّب جبينه ، بلهجة التوكيد : «هنا ، في هذا البلد أناس يَصلُحون لمثلِ ما يصلُح له أخوك هانز ، وربما أكثر!» .

وكان الجمهور في الشرفة الأرضية أيضاً يتابع سير الاشتباك بأعصاب متوترة ، بينما كان يتراجع على كلا الجانبين بسبب الاقتراب الوشيك ، منه ، على سبيل الحذر ، حتى لقد ظلت البقعة الوسطى خالية . وكان ما يشدُّهم إلى المكان الخطر ، في المقام الأول ، هو الأمل في جرعة صغيرة من التلذُّذ بالأذى ، ولم يكن هذا عندهم بالقليل المفرط في قلته ، كما لم يكن بالكثير المفرط . ولكن حين تابعت الَجلبَة المخربِّة سيرها من دون حسم ظاهر ، على وتيرة ثابتة تجلى السأم خلال وقت قصير ، ومع السأم الغضب : فقال واحد من أرباب الأسر : الرحيل! » وكان يحيط به نساء شوامخ بأنوفهن ، ودوّى الصياح مثل النار في الهشيم : «الرحيل ، الرحيل!» .

وقال الشيخ مُرْعِداً : «فلتظلوا قاعدين ، وإلاّ فلماذا أوتيتم المِقْعَدة ؟» وكان قد خرج عن طوره من جراء الخسارة الوشيكة ، وبينما كانت الخادمات يجرين هنا وهناك كمن طار عقله ، ليناشدن الهاربين البقاء ، بدا على وجهه أنه يهمّ أن يتسلق السلّم الصغير المُفْضي إلى قاعة الرقص ، ولكنه مُنِع من ذلك من قبل آنا والطبيب ، بالإقناع تارة وبالشدة اللطيفة تارة أخرى .

وكان معظم الضيوف قد أظهروا اللين ، وظلوا قاعدين في الحقيقة ، وقبعاتهم على رؤوسهم ، جاهزين للانسحاب النهائي ، وكانوا قد سدّدوا الحساب عن الشراب إلى حين ، أيضاً ، ومع ذلك فلم يُخْلوا الشرفة الأرضية ، ولم يكونوا يبذلون جهداً على عجل إلاّ عندما كانت أرض قاعة الرقص تَئطُّ

أطيطاً رهيباً بدرجة أعلى ، وعندما كانت الجدران المترنحة تميل ميلاً غير طبيعي على الإطلاق .

وفجأة فرغت قاعة الرقص من كل جمهور النساء اللواتي كنَّ يبتعدن عنها ، مسرعاتٍ ، مبهورات الأنفاس من الخوف ، وكأنَّ الذئب يعدو في أثرهن . وانطلقت وراءهن مباشرة موجة داهمة من المقاتلين ، ينزلون على الدرج الصغير ، بعضهم فوق بعض حتى فاضت بهم الشرفة الأرضية الفسيحة ، في هيجان عاصف ، ومن هنا تفرق الجمهور كله في هرب مفاجىء أما أدناهم فكانوا خُرْساً من الفزع ، وأما أقصاهم فكانوا يصيحون صيحات قصيرة تدل على الضيق ، ومعظمهم في الاتجاه المؤدي إلى القرية ، وسائرهم إلى الجدار الصغير . غير أن الطيور في الأشجار ، وطيور الدُّج والقُرْقُف ، كانت في كثير جداً من الأحيان تسيء تأويل الجلبة ، فكانت تغني لمباراة بشدو فيه الهتاف والتهليل ، حتى لقد أوشكت حناجرها أن تنفجر .

وما هو إلاّ أن يعد المرء : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، وإذا كل شيء منسوف كعلبة من إبر الخياطة ، حتى بات كل امرئ في مكان غير الذي كان يحسب نفسه فيه ، حين ثاب القوم إلى أنفسهم من جديد . وأخذ القوم يلملمون أنفسهم ، ويستعلمون ويستهدون ، واكتشف القوم جيراناً جدداً ، وأعقب ذلك غربلة : فأما الشطر المرهف الحس من الضيوف ، وأغلبهم من جمهور المدينة ، وكلهم تقريباً من النساء ، فانسحبوا إلى بيوت أكثر سلاماً وموادعة ، وأمّا الآخرون ، الذي صمدوا ، فاتخذوا منذ الآن فصاعداً ، مكاناً مريحاً ، وكأنهم ينتمون إلى عشيرة صاحب القصر .

ولكن أولئك الذين كانوا في المرج لم يتزحزحوا من أماكنهم . غير أن كونراد انتفض وذراعاه مفتوحتان ، وذلك أنَّ آنا ، التي فوجئت بغريزة حب

البقاء ، كانت قد تخلّت عن أبيها وهو في حالة من الهوس ، وأقبلت الآن نازلة عن الجدار ، فوثبت على منضدة هفّت عليها بخفة ونشاط مثل سنجاب ، إلى النهاية ، وأثوابها مشمرة ملمومة ، ومن دون أن ترتطم بأي أداة ، بفضل قدميها الصغيرتين وعينيها المرهفتين . وحين تلقفها أخوها عند الزاوية المقابلة من المنضدة ، بذراعيه ، نظرت حواليها وضحكت بعصبية . وكان الطبيب ينظر إليها من الأعلى في قلق خائفاً أن تكون لحق بها بعض الأذى .

وفكّر الشيخ ، الذي بات الآن متحرراً من العقبات ، في استغلال حريته ، لكي يوطد ، بطاقة جسده التي طالما أبلت بلاءً حسناً ، سمعته وسلطته ، ولكنه لم يكد يزج بنفسه في المعمعة حتى تدحرج ، وقد طوّحت به موجه ارتطام مرتدة جاءت بطريقة المصادفة ، في سقوط ثقيل ، على الأرض ، ونهض مرتبكاً ، من جديد ، وتوارى مراراً في وسط الزحام ، وانساب عائداً مرة ثانية .

وزعقت آنا : « ياإلهي ، أبي ، ساعدوا أبي! » وكانت قد رأت أمها قد عبرت ، بانتفاضة ، ووثبة ، ولم ير القوم كيف كان ذلك .

وسمع القوم الشيخ يصيح لاهثاً : « بندقيتي! أيها البواب ، عليَّ ببندقية الصيد ، لكي أفرقع فيهم البارود مثل طيور الشمال الألماني » .

وكان كونراد يتفحص رفاقه بعينيه ، وعيناه تتّقدان وهو يقول : « مارأيكم ؟ » .

وكان الجواب المدوّي « هيّا! » واندفعت الجماعة من الشباب جريئة كالعاصفة ، حول الجدار ، في صف منتظم ، ورتل ، مثلما يحدث في العَدْو في رياضة الجمباز .

وألقى كونراد إلى أصحابه ، وهو يستبقهم ، أثناء عَدْوهم ، بتحذيرات وقواعد سلوكية : «احملوا دائماً على واحد على وجه الخصوص من مجموعته وأنتم تحملون على هذه المجموعة ، وافصلوه ، وأخرجوه عن كتلته ، ولا تتصرَّفوا بوحشية ، وليتصرف كل واحد من تلقاء ذاته ، فنحن قادمون لا على أننا أعداء ، بل على أننا محققو سلام متفوّقون ، ومن أجل ذلك نحتاج إلى النظام والتعقل . لا تمسّوا من يرقد على الأرض! ولا تضربوا ، قبل كل شيء ، ضربة ليس لها ضرورة مطلقة» .

وحين مرّوا على قطع من الخشب تناول الرقيب في سلاح الفرسان قطعة منها ، ولكن كاتري سبقته في سرعة محمومة وقالت وهي تتعلّق بذراعه ، وتدفعه : «لا شيء هنا» وكانت تتحدث بسلطان العقل : «الخشب في موضع الخيلاء ، شيء من عمل الشيطان» .

والتفت كونراد نحوه ، وقال معاتباً : «لا هراوات ، أأنت مجنون ؟» .

وتردّد الشعار «لا هراوات» .

ثم ، حين وصلوا إلى الهدف ، قال كونراد : «إلى البيت أولاً ، مع الوالد ، اذهبوا به بعيداً عن الحرب ، إلى البيت ، وأوصدوا الأبواب» .

وبينما كانت القوة الرئيسة تزج بنفسها في القتال بغير إبطاء ، انطلق هو مسرعاً مع طليعته نحو الشيخ .

وألقت آنا بنفسها في طريقه ، تحمي أباها بذراعيها مثل العمدة فينجي ، لأنها أخطأت في تفسير الهجوم العاصف .

وقال كونراد : «ويحك! أوَ تظنين بي أنني يمكن أن أنطوي على أمثال هذه النوايا الشيطانية ؟» .

فأفسحت له الطريق ، خاضعة ، خجلى ، منكسرة .

واستحوذ كونراد في هذه الأثناء على الشيخ ، يحميه ، ولكن بحزم ، وقال له يحذره ويطيِّب خاطره : «تعال إلى البيت ، ياأبي فما عادت أمثال هذه الشواغل تصلح لك» ، وحاول أن يبعده ، ولكن الشيخ حين أحس باليد العنيفة قاوم وتسمّر في الأرض ، كأنما كان يُساق إلى الإعدام .

وقال وهو يزفر من الأعماق : «أهكذا تعاملني! أتراك لا تستطيع أن تنتظر إلى أن أرقد آخر الأمر على التابوت ؟ أتريد أن تدفنني وأنا حيّ ؟» .

وقال كونراد يأمرهم : «على الأكتاف!» فرفعوه ، وحملوه بسرعة ، إلى مدخل المنزل ، وصاح قائلاً : «آنا ، راقبيه ، لكيلا يصدر عنه عبث ما ، وأبعدي بندقية الصيد ، ولا تدعيه يطل من النافذة ، ثم دفع بأخته نحو أبيها ، وصفق الباب ، وتأهّب لإيصاده ، ولكن الباب انقفل من الداخل . فثبّت اثنين حرساً أمامه فأسرع إليهم الطبيب .

وغمغم قائلاً وهو يهز برأسه : «قد تمسّ الحاجة إليّ ، في الداخل أم في الخارج ، وما من أحد يعرف أين ومتى» .

وحين حوّل كونراد بصره نحو رفاقه كان المشهد قد تبدّل ، فبينما كانت هناك معركة ناشبة بقبضات الأيدي ، حاميةَ الوطيس ، كان يسود الآن تناوُش باللسان لا خطر فيه ، وبدلاً من الكتلة الإجمالية ذات الغليان كانت تغلي الآن مجموعات صغيرة كثيرة ، متفرقة يُحْدِق بكلٍّ منها أوانسُ زاعقاتٌ شاتمات أو مدافعات يجهدن أنفسهن من أجل السلام مثلما تجهد الملائكة نفسها من أجل نفس بائسة ، وكان ثمة فرقة احتياطية تقف إلى جانبها ، عاملة ، ولا يعلم إلاّ الله كيف ، ومن أين أتت ، وكانت هذه تكبح جماح من أفلت عقالهم ، وتمسك من يميلون إلى الرجوع ، وتخرج المتشككين من

الميدان . وكان الإطفائيون قد تواروا ، فإلى أين ذهبوا ؟ ما من شك في أنهم في القاعة ، إذ كان القتال يحتدم هناك مثلما يحتدم الشيطان في الماء المقدس .

وكان هذا صحيحاً ، فهنا كان يخرج الفاجنجيون تقذف بهم أيدٍ غير مرئية ، يتطايرون على الدرج الصغير ، واحداً إثر الآخر ، في تتابع سريع ، مثل الطرود الصغيرة في مستودع بريد الشحن ، أما الثلاثة الأوائل فتدحرجوا ونهضوا من جديد ، وتكوَّر الرابع حتى صار أعلاه أسفله ، من دون أن يصاب بأذى ، غير أن الخامس ظل راقداً يئن ويتأوه ، حتى لقد أسرع الطبيب إلى مكانه بوثبات طويلة .

هنالك استحوذ على كونراد الغضب ، الغضب العادل ، غضب الاستياء من الخشونة التي لا ضرورة لها ، وبعد أن قطع المكان طولاً وعرضاً بسرعة البرق ، سمَّر جسده بقوة صاحب الغيظ المكظوم ، كالجدار في وجههم ، ليمسك بالمغلوبين حتى يقفوا على أقدامهم عندما يسقطون ، وكان للمنتصرين مثلَ آلة دكّ الأسوار ، يصدمهم ، ويردُّهم إلى الوراء . وبذلك توقفت الحركة أول الأمر ، إذ بات الفلاحون ، الذين كان يُقْذَف بهم من الداخل ويصطدمون في الخارج بكونراد ، يعانون من قوتين واقعين بينهما ، حتى باتوا كأنما ترفعهم عَتَلة من جراء التصادم جيئة وذهاباً ، ولكن لم يكد كونراد يُوَفَّق إلى الإمساك بقائمة الباب اليمنى ، حتى أصبحت مقاومته تحظى بالغلبة على نحو ثابت ، وحين كان قد أمسك بالقائمة اليسرى أيضاً ، دَحَر ، بدفعة وضغط مفاجئين ، تيّار البشر الجارف ، أمامه ، إلى داخل القاعة ، وكان الرقيب في سلاح الفرسان هو أول من تلقَّفه ، إذ أمسك به من خناقه ، وهزّه ليعلّمه الأدب والأخلاق ، وصبر ذاك على ما يحدث له بوداعة

وهدوء ، وكانت عيناه تدوران في مودة المحبّ المولَع ، وهو يدير وجهه ذا اللحية ، في شكوى صامته نحو النقيب . ومع ذلك فحين مدّ كونراد يده ، على أثر ذلك ، ليمسك بجبّار آخر ، أبصر الهمج المتوحشين الغرباء الذين كانوا يجوسون في قاعة الرقص المزدانة ، كالماشية في الحظيرة ، فيقلبون قطع الأثاث غير آبهين ولا منتبهين ، ويحطمون ألواح الزجاج والمرايا . وفجأة حل محلَّ الاستياء من جور الصديق ، الشعورُ بالمرارة من الدخيل ، شعور المالك بالمرارة تجاه الإخلال بسلام البيت ، إذ كان يشعر هنا ، بين جدران المنزل ، أنه ممثل والده ، مع التساهل النبيل لضروب الشقاق القائم بينهما .

وقال يأمرهم بأقصى طاقة رئتيه وسط الجَلَبة : «الزموا الهدوء! فقصر الطاووس في هيرليسدورف ليس مقصفاً ، وليس مكان التعارك هنا!» وحين اتصلت زوبعة المعركة بلا كلل ولا هوادة ، وكأن الذي زعق آمراً بالهدوء مجرد حارس ليلي من حراس المنطقة ، لا هو ، ابن صاحب قصر «الطاووس» ، نفسه ، استحوذ عليه غضب عارم ، صدرت عنه فيه صرخة لا ألفاظ ولا حروف فيها غابت في خضم الجلبة ، ولكن الجلبة بلغت من الوحشية ، ومن إهانة الأذن والعقل ، ما جعل غضبه يتحول إلى جنون ، فجعل يزمجر مثل حيوان وحشي في وجه كتلة المتعاركين التي اختلط فيها الحابل بالنابل ، أول الأمر ، ليعلو صراخه على صراخها من ناحية ، ولكيلا يختنق ، من ناحية أخرى .

وفي هذه اللحظة دوى رنين الثريّا التي أصيبت ، وتناثرت شظايا ، بالأسلحة الخشبية الغليظة ، وهي الثريا الجديدة النفيسة التي اقتناها الوالد في كانون الأول بمبلغ ضخم ، على شرف الحفلة الراقصة لنادي الضباط ـ

وسرى صوت الزجاج الواضح في أعصابه مثلما يسري الفتيل المُشْعِل في الرمانة اليدوية ، وحفزت الكراهية التي أفلتت من عقالها ، أوصاله إلى هجمة مرنة رشيقة ، فوثب في اتجاه الثريا ، غير آبه بشيء ، وسط المعمعة ، يكتسح الصديق والعدو على السواء . أما الأول ، الذي رآه يلوِّح بساق كرسي فأثبت رجله من ورائه وهو مطأطَأ قفا العنق ، وبينما كان ، في هجمته هذه يضربه ، في الوقت نفسه ، بيده المبسوطة على وجهه ، وإبهامه في فمه وأصابعه في مِحْجَرَيْ عينيه ، مثلما رأى أباه يفعل ذلك في غابر الأيام ، طرحه أرضاً بفعل عنفوان الصدمة المفاجئة ، حتى لقد خرّ هذا ، في سقوطه على الأرض ، مثل شجرة الصنوبر حين يتم اجتزازها ، فجرف معه أصحابه من ورائه ، وانطلق على أثر ذلك ، من دون أن يحفل بهذا بعد ذلك ، على الفور ، إلى الآخر ، الذي كان يلوِّح بمنصة نوطة موسيقية مكسورة وكان يضرب بها الثريا من جديد ، فَيَستَنزِل بها مطراً من شظايا الزجاج . وعمد إليه فأحاط بجسده ، ورفعه عن الأرض ، وضغطه ممسكاً بإحدى يديه صدرَه ، وبالأخرى حزامَ سرواله ، وذراعاه المبسوطتان في الهواء ، حيث جنح به ، في حركة كحركة العجلةِ ، مائلةٍ ، وفي هذه الأثناء باغت عينه نور السماء الأزرق الذي فاض داخلاً من النافذة المفتوحة ، وبخاطرة مفاجئة أخرج خصمه ، ورأسه في المقدمة ، إلى خارج القاعة ، في الخلاء ، هو والإطار الذي كان هذا يتشبَّث به متشنِّجاً .

وانبعث في الخارج صوت حاد يقول : «عليّ بالأثواب ، والأغطية والوسائد!» ، وكان هذا صوت كاتري .

وبجرَّة واحدة أرسل كونراد رجلاً ثانياً من خلال الفتحة ذاتها ، وأخرج بعد ذلك ، بدعم من لويتولف ، والرقيب في سلاح الفرسان ، ثالثاً ، ورابعاً ،

وخامساً . ولكن الانتصار انتهى بعد ذلك إلى تَعَثُّر ، ونشبت معركة مريرة ، ذلك لأن الفاجنجيين ، الذين استعادوا قواهم بعد زوال المفاجأة ، وجاءتهم الصحوة من جراء رؤية أهل ڤالديسهوف ، ومن جراء خطر عمليات القذف الجريئة ، وقفوا جبهة واحدة في وجه الخصم المشترك ، وقفة اليائس ، ما عاد هناك لعنات لا طائل تحتها ، وما عاد هناك سوى لهاث الرئتين ، وتلاطم الأقدام وقرع قبضات الأيدي .

وفجأة انتفض لويتولف بينما كان يغطي كونراد من ضربة جانبية ، انتفاضة عنيفة ، راجعاً إلى الوراء ، وتحسَّس خده . وعلى أثر ذلك مباشرة دوّت طلقتان من مسدس ، واحدة ، فواحدة عبر القاعة ، وهدَرَتا معاً على طول الجدران التي كانت تزمجر ، إلى أن تبدَّد رجع صداهما آخر الأمر في الزوايا .

هنالك سادت حال كحال طاحونة متوقِّفة ، ووحَّد الفزع الذي أدى إلى اصفرار الوجوه بين الصديق والعدو .

وقال قائل من جيش الفلاحين ، أخيراً ، بصوت متردد : «من يطلق النار هنا ؟» .

وقال الرقيب في سلاح الفرسان ، بابتسامة صفراء معترفاً : «أنا» ، وعلى أثر ذلك انتزع منه لويتولف المسدس بلهجة آمرة .

وقال الفاجنجيّون يحتجون : «لا يُطلق الرصاص على الناس مثلما يطلق على الحجل» .

وقال الرقيب في سلاح الفرسان : «ولا يُطعن الناسُ بالسكين»

«نحن لم نطعن» .

وقال الرقيب في سلاح الفرسان مؤكِّداً : «بل طعنتم بالطبع» ، وأشار إلى خدّ لويتولف الذي كان قد ارتسم عليه خط أحمر حاد كالشعرة ، من عينه إلى ذقنه ، وكان ينزف بغزارة .

وقال لويتولف يهدئهم ، ضاحكاً حين نظر كونراد إلى الدم في فزع : «ليس في الأمر شيء ، مجرد حَزٍّ في البشرة ، ولكن الأمر لا يخلو من نية سوء! والحق أنك أنت كنت المقصود» .

ولكن كانت تنطلق من الخارج أصوات حادة متواصلة تنبئ عن الفزع ، بأعلى الدرجات : «من أصيب ؟ هل قتل أحد» .

وكرّرت القول أصوات عديدة في وقت واحد : «من أصيب ؟» .

وكانت كل النظرات تتنقّل متسائلة في دائرة ، وتلتقي في كل الأماكن بنظرات أخرى متسائلة .

وقال قائل آخر الأمر ، على سبيل التجربة ، في وجل : «لم يُصَب أحد» ، وأكد القائلون من كل الجهات : «لم يصب أحد» .

وكان الجواب المؤكّد الموجه إلى الخارج : «لم يصب أحد» . هنالك توقف صراخ الفزع ، وكان صدىً باعثٌ للبهجة ينقل الرسالة الباعثة للاطمئنان إلى المسافة البعيدة . ولكن بعض الرؤوس ظهرت الآن عند النوافذ للإبلاغ عن السير اللاحق لما لم يحدث بعد .

ولبث الجمهور هنيهة بعدُ في القاعة ، في حالة من الذهول . وأخيراً تقدم الناطق بلسان الفاجنجيين أهل فاجنجن العليا إلى وسط القاعة ، مكتنزاً ، وسيماً ، بابتسامة شعبية . وبعد أن فرك إحدى يديه بالأخرى ، في شعور بالحرج ، شرع في الكلام قائلاً بأسلوب معسول : «ما دامت يد الرب

الرحيم قد حفظتنا ههنا من مصيبة لا يمكن تقدير أبعادها ، أفلا ينبغي أن يُعَدّ هذا إشارة إلى وجوب عقد صلح ؟ ثم إننا لا نقاتل السيد ريبر صاحب المقام الرفيع على شيء بيننا وبينه ، وكل ما نرغب فيه هو أن نُتْرَك لنخرج بسلام مثلما أتينا » .

وقال الرقيب في سلاح الفرسان ، وهو يصرّ عل أسنانه : «والسكين ؟ » .

« إن اعتبار مجموع الجمهور مستحقاً للاعتقال من أجل الفعلة الباعثة للأسف التي صدرت عن واحد منه سيكون مطلباً غير عادل » .

« إذاً فسلِّمونا الطاعن بالسكين ، وسوف ندعكم تخرجون بعد ذلك» .

« عند ذلك يمكننا أن نطالبكم ، بحق ، بتسليم الرامي بالمسدس» .

وضحك أهل ڤالديسهوف مستهزئين .

وصاح أحدهم : « فلتجربوا! » وقال آخر : هذا شيء آخر ، فقد كان إطلاق النار مجرد ردّ على الطعنة» .

ولكن كونراد أمر بالتزام الهدوء ، وقال : « لن يمسّه سوء إذا أعلن عن نفسه بملء إرادته» .

نظر المتحدث باسمهم حواليه متسائلاً ، لكن لم ينبس أحد ببنت شفة .

وقال أحد الاطفائيين : « فلنفتش الجيوب» . ولم يكد ينطق بهذه العبارة حتى انزلقت سكاكين جيب كثيرة على الأرض .

وانتفض كونراد نحو الأعلى ، في ضحكة عالية .

وقال وهو يُزبد : «ها أنتم هؤلاء ترونهم ، المنافقين الذي يتظاهرون بالقداسة» ، وكان يشير إلى السكاكين التي تلتمع . «إذاً فهلمّوا! سلاح مقابل سلاح! وليسلّم كلٌّ ما يجد ، ثم تعالوا إلى المواجهة ، وهذه المرة بلا رحمة» .

وارتفع الآن صوت جلبة كبيرة من ضرب أقدام لا تحصى بالأرض على سبيل الاستنكار ، بينما كان الجيشان ينسحبان لِلَمّ صفوفهما ، أما الفلاحون فكانوا يتربصون إلى أن يعقد العزم على الهجوم ، إذ كانوا يشعرون أنهم الجانب الأضعف ، على الرغم من أنهم متساوون تقريباً في العدد ، وأمّا أهل ڤالديسهوف فلكي يتحصّنوا ، ولكي يظفروا بهجوم عاصف كاسح .

هنالك دوىّ من الخارج صوت آنا الرقيق ، العاطفي ، يقول : «ياكونراد ، فكرٌ في أمنا! ولا تُهْرِق دماً ، وحافظ على نفسك» .

وسرت هذه اللهجة في قلب هذه الثورة مثل إيقاع بالأرغن في نفس ممزّقة .

وقالت الأخت تحذر أخاها من جديد : «لتكن طيّباً ، ياكونراد» .

واهتز كونراد من التأثر ، وقال بصوت عميق : «لويتولف ، فلتحكم في هذا أنت ، فأنت الجريح» .

ولكن لويتولف ردّ إليه سلطة الحسم من جديد ، قائلاً : «كانت الطعنة موجهة إليك ، وإليك يرجع الحكم» .

وفكر كونراد ملياً .

وقال يُؤْذِنُهم : «لا بأس ، أنا أعرض السلام ، على أن ينطق كلٌّ على حدة بصوت واضح ومسموع ، بالعبارة التالية : «من يطعن بالسكين فهو وغد جبان» والآن في وسعكم أن تقبلوا هذا أو تتركوه» .

وغمغم الفاجنجيّون وهمهموا ، ولكنهم لم يجدوا اعتراضاً مقنعاً ، ولمّا كان الخوف يتوعدهم بما يقنع فقد قبلوا في نهاية الأمر بالاتفاقية المُعيبة صامتين .

وقال المتحدث بلسانهم يشجعهم : «في وسع كل من يعلم أنه بريء أن يقرّ هذا القول من قلبه» .

وشكل أهل ڤالديسهوف الآن ممراً يتجه نحو الباب ، كذلك الذي يُشَكَّل ليمرّ به امرؤ لكي يتعرَّض للسبّ واللعن ، وكان الڤاجنجيون يمرون منه فرادى نحو المخرج وهم ينطقون بالعبارة المطلوبة متلعثمين ، رافعي أيديهم بموجب أمر صريح ، وكان مَنْ يستعجل يُستَوْقَف ، وكان من يهمس بصوت غير مفهوم يُرْغَم على تكرار الكلمات غير المستحبَّة ، وكانوا ينطقون بالكلام متذمرين كأنما يساقون تحت النِّير ، بينما كان أهل ڤالديسهوف يسمحون لأنفسهم ، على نحو مطرد الزيادة بالتهكم الجريء .

وفجأة دوى ضحك بهيج . وذلك أن بريجيت ، التي سحرها إله الحب ، ظهرت وراء فتى وسيم من الفلاحين ، كانت تتمسك بذيل ثوبه ، لكيلا تفقده .

وقال كونراد مستمتعاً : «عجباً ، انظروا إلى الخائنة!» أمّا هي ، فقد أخرجت له لسانها ، في مثل غضبة الثعلب ، وهي الطريقة الوحيدة التي تستخدمها والتي أتيحت لها .

وحين حشر الخرطون* نفسه ليمر ، آخر القوم قرأ كونراد في نظراته المتهرِّبة الذنب ، وقال يأمره بازدراء :

* دود المطر ، أو دود الأرض ، وهو لقب تشنيع له ـ «المترجم»

« أنظر في عينيّ ، أيها الحقير ، إذا كنت تجرؤ » ، ولكن حين سارع الآخر خطواته المتسللة ، من دون أن يرفع بصره ، تركه يذهب غير مبال .

ولكن الرقيب في سلاح الفرسان أمسك بخناق الخرطون ، وصاح قائلاً : « فليأخذني الشيطان إن لم تكن أنت صاحب السكين الذي حملتُ عليه! » .

ولكن كونراد دافع عنه بقوة ، قائلاً : « إذا كنت قد عرضت السلام على القوم جميعاً فقد ضمنت لكل فرد منهم الأمان » ، ودفع ، مع لويتولف ، الرقيب في سلاح الفرسان إلى الوراء . وبذلك تم إنقاذ الخرطون ، وإن كان قنفذ من القبضات يحدِّق فيه ، بحيث لم يستطع التقدم إلى الأمام إلاّ على مهل ، وهو يتخبَّط ، وكان يصطدم في كل خطوة بعظم قاس ، وكان يضطر إلى النطق بكلمة الإدانة الذاتية ، بالطبع ، مرة بعد أخرى ، من جديد ، كفارة له ، ويتقبل إلى جانب ذلك ، نعوتاً وألقاباً شائنة ، وأوصافاً شخصية ، واستعارات من سيرة حياته .

« إنه ماتيزن ـ ميشيل من أهل فاجنجن الدنيا ، ولا يحتاج المرء إلى أن يقول أكثر من هذا ، لكي يعلم كل امرئ على الفور أنه الكلب الأسوأ من بين كل كلاب السوء »

« إن في عنقه روح إنسان ، ولو لم يكن في تلك الأيام صغيراً لكان الآن يرقد في السجن مدى الحياة » .

« على أن هذا ليس أسوأ ما في الأمر! والنقود التي انتزعها من أمه بالسكين! » .

« ونصيب الإرث الضئيل الذي احتال على أخته الضعيفة العقل فسلبها إياه! » .

وختم كونراد بقوله : «كفى هذا!» ، وشيّع ماتّيزن ـ ميشيل إلى الباب ، إذ أمسك بالرجل المرتعد من تحت ذراعه وغطّاه بجسده .

وبعد ذلك أُعْفِيَ الباقون القلائل من النطق بالعبارة .

وقال كونراد وهو يتطلّع بعينيه هنا وهناك في القاعة : «هل يوجد هنا بعد أحد مختبئاً ؟» .

وإذا معلم المدرسة القصير من ڤاجنجن العليا ، يبرز زاحفاً على ركبتيه من تحت خشبة المسرح ، ويطلق صرخة استغاثة تبعث على الرثاء ، عبر الظلام ، مباشرة .

وقال الموسيقيون يسألونه بدعابة مرة : «ونحن ؟ هل يجب أن نعترف أيضاً ؟» وابتسم كونراد ، وعلى أثر ذلك خرجوا متثاقلين ، على عجل ، بآلاتهم يهمهمون مثل عفاريت المنزل .

وقال لويتولف : «وراءهم ، احملوهم على الوثوب إلى الوادي!» وانطلق رهط المنتصرين مبتهجاً ، في الخلاء .

غير أن كونراد تخلّف عنهم ليتفحص الدمار ، كما كان يقنع نفسه ، ولكن في الحقيقة لأنه لم يكن يحب بعد أن يغادر ميدان المعركة التي خاضها . فهنا كان قد حكم أخيراً ، ومارس هنا ، أول مرة في حياته ، السلطة المنزليّة . والآن انتهت مملكته ، ويالَلأسف ، إنها لخسارة! أبهذا البكور! قبل أن تبدأ حقاً .

ولم يكن قد شبع بعدُ على وجه الإطلاق ، وكانت الضربة الرئيسة ما تزال تنقصه ، وكان القتال قد تسلل زاحفاً إلى السلام ، مثلما يزحف نهر الراين متغلغلاً في الرمل . وكانت أخته تنطوي على مقصد طيب صادق

بالطبع ، وكان هذا أقرب إلى العقل على أية حال ، كلاّ ، بكل التأكيد ، وأكثر صحة ، ولو لم يكن كذلك لكان من الجائز في الوقت الحاضر أن يكون ملطّخاً بالذنب ، وكان الندم ينهش جسده ، وعلى كل حال فقد كان إلحاحه على ذلك مرة أخرى ، بمزيد من الإحكام والضبط ، خليقاً أن يحسِّن وضعه . إذ حلّ عنه تدبيره الشجاع عقدة الغضب ، وغسل مرارته .

ياإلهي ، كيف كانت الأشياء تبدو حواليه! لقد تحطمت خشبة المسرح ، وتقصّفت الدِّكك ، والثريا أصبحت إرباً إرباً ، بل انتهكوا حرمة المدفأة الجدارية! لقد اقتحموا المكان مثل الخنازير البرية! ولم يكن رأى هذا من قبل رؤية جيدة! ومن يدري لعله كان خليقاً ألاّ يجود عليهم برحمته بهذه السهولة!

وأغراه الشوق والأمل بالدُّنُوّ من النافذة ، لعله يدرك بعدُ شيئاً من ذيولهم ، ولكن الهرب والمطاردة كانا يتناوبان في أعماق منحدر حافة الحقل فيتحوّلان في الأسفل إلى مباراة بريئة . وإلى جانب ذلك في الحقول سرب ضئيل من المُجْفِلين الذين يَعْدون في هذا الاتجاه أو ذاك ، في بلادة . وفي الأعلى من تخم الحقل ، تحت شجرة كمثرى ، وكر خبيء يتابع المطاردة بذكاء الأرانب المحنّكة ، مستمتعاً بذلك من ورائهم ـ وعلى الجانب الآخر ، عند الكرم ، كان المتحدث باسم الفاجنجيين ينطلق ، لا يَعْرُض لأحد ، ويحيي الناس مؤانساً وكأن الحكاية لا تعنيه في شيء ، ثم فجأة ، يتوارى بوثبات عملاقة ، كوثبات المدرَّب ، في كرم العنب ـ وفي العشب ينحدر المعلم القزم على أكثر السفوح انحداراً ، بخفة ورشاقة ، مثل كرة من المطاط ، محركاً مرفقيه كأنهما جناحان ، وينفخ في البوق نفخاً هائلاً ، من فَرَحه بحياته الفتية الغضة التي ظفر بها من جديد . هنالك ما عاد ثمة شيء يمكن تداركه .

وبينما كان معتزلاً في القاعة ، مهتاجاً ، لم يروِ غُلّته ، مثل الكلب الدانمركي الكبير إذا أخذ طبق طعامه قبل الأوان ، بلغت مسامعه مسرحية الولولة والعويل التي كان يقدمها والده ، على البعد ، ولكن لا تخطئها الأذن ، وكان ينتفض عالياً كأنما انفجر لغم تحته ، وكان ينتفض مع كل صوت جديد من أصوات أبيه يبلغ مسامعه .

وقال وهو يصرّ على أسنانه : «الآن إمّا كذا وإما كذا» ، الآن لابد أن يكون الحسم ، وكان يلقي بذراعيه إلى الأمام بحماسة ، ويطلق عبارات العنف في الخلاء .

وبهر عينيه ضوء يعبر عن الفرح ، وصيحات استحسان مزغردة ، ولكن تمثال كاتري النصفيّ برز في مثل حدة الشعرة ، كأنما نُقِش على المعدن مع الإفراط في النقش والتزويق ، في وسط هذا التألّق ، وكأنه يقف أمامه مباشرة . وقام بوثبة جانبية وهزَّ ذراعيه ، قائلاً : «هلمَّ صاحبكم هانز ، إذا كان يجرؤ!» .

وهذه المرة هربت ، وعيناها حافلتان بالفزع ، على الرغم من أن جداراً من البشر متعدد الطبقات كان يحميها منه ، على أن هذا لم يكن إلاّ بصورة عابرة ، وانطلق الآن إلى المنزل ، فاغراً فاه ، وقد انطلقت لغته من عقالها ، إذ ما عاد ثمة تفكير يضغط على غطاء الحنجرة .

«والآن ، ياأبي ، لديَّ كلمة صغيرة أقولها لك . لقد سكتُّ طويلاً بما يكفي ، ولكن لابد أن تقال هذه الكلمة الآن ، وأن تنطلق في الحقيقة بحيث يسمعها العالم كله . أقول لك إن الحياة ، الحياة كما تحملتها حتى الآن ، انتهت منذ اليوم فصاعداً . ولا أريد بعدُ أن أقوم بدور الطفل القاصر الذي يُوبَّخ ، ويُزْجَر ، ويُعَنَّف ، والأجير الذي تساء معاملته ، والذي يصبّ المرء

عليه ما في مزاجه السيئ من الكدر . أنا أرغب في مركز في البيت كذلك المركز الذي يليق بالابن ، أريد ركناً في إدارة المنزل أكون فيه حراً أوبِّخ حسب تقديري الخاص ، ولا يتدخل أحد فيما أقول ، ولا أكون مطالباً تجاه أي إنسان بتقديم كشف الحساب ، وباختصار : أريد مكاناً آمُرُ فيه » .

وقال الشيخ بهمة ونشاط : « فلتأمر ، فلتأمر ، فأنت الآن السيد ، كما يبدو ، أمّا أنا فقد عُزِلت » .

« إمّا أن تحتفظ بالعمل التجاري وأتولى أنا الزراعة ، أو أتولى الإدارة المنزلية والزراعة » .

وقال الشيخ مُوَلْوِلاً باكياً : « فلتأخذ ، ولْتتوَلَّ! ما دمت لا تستطيع أن تنتظر إلى أن أموت ، فلتأخذ كل شيء » .

« أنا لا أطالب ، بحال من الأحوال ، بكل شيء ، بل أريد مجرد نصيبي العادل ، لكي يقابلني الناس بالاحترام ، ولكي أتمتع بالسلام ولكي أكون مسروراً بحياتي ، وأستطيع أن أضحك ، ولكيلا أبتلع وجبتي من الطعام وأنا مغيظ فأختنق بها . فإما أن تنتقل مع أمي إلى الدور العلوي ، وأسكن أنا في السفلي ، أو العكس ، بحيث تكون أنت في السفلي وأنا في العلوي » .

« أما من ناحيتي ففي وسعي أن أسكن مع أمك في الحظيرة مع الخيل ، فسوف يكون هذا أكثر إنصافاً بالنسبه إليك . وعلى كل حال فنحن لا نحتاج لشيء سوى حزمة من التبن لكي نموت » .

« هذه العبارات المعيبة الشائنة ، التجديفية لا تجديني شيئاً . فأنا ألتمس جواباً عقلانياً ، مُلْزماً ، وفورياً في الحقيقة . فهل تريد ذلك أم لا ؟ » .

وكانت غمغمة مؤيِّدةً من قبل جمهور الحاضرين تساند هذا المطلب ، بحيث رأى الشيخ نفسه في مواجهة رأي عام مُجْمَع عليه ، فأرسل نظرة سامَّة إلى الجمهور ، وكشّر شفتيه البنفسجيتين وهو يدمدم ، وبصق مراراً ، ثم انسحب من دون جواب إلى داخل الحجرة .

هنالك ذهبت بعقل الفتى عواطف وأهواء جنوبية ، وأطلق وراء أبيه قوله : «لا بأس إذاً ، فسأمضي بعيداً عن البيت ، ولن يراني أحد مرة أخرى ، وذلك في هذه اللحظة ، لمجرد ألاّ أمكث بعد هذا ساعة واحدة في هذا المنزل غير المنصف ، الذي لا محبة فيه» .

واستنكر هذا الجواب لغط ينطوي على التذمُّر . وحاول بعض الحاضرين أن يهدّئوا ثائرته ، ودخل آخرون إلى المنزل لكي يقنعوا الوالد . أما آنا التي كان المشهد المنذر بالخطر قد اجتذبها فقد ارتمت على صدر أخيها باكية ، وقالت ضارعة : « كونراد! » .

وانتزع نفسه منها ، وصاح مهدداً : «الوداع يا أبي ، لن تراني بعدها أبداً ، سلِّم على أمي » .

وثارت ثائرة الحنق من جديد . وكان أينما توجه حيل بينه وبين الرحيل ، وأُحيط به ، ورُدَّ إلى الوراء ، بأسلوب ودي .

وإذا الوالد ينقضُّ مثل الحيوان المتوحش على النافذة ، ويزمجر قائلاً : «أجل ، أجل ، أجل ، هاكُم!» مع حركات ملفتات كما لو كان يقذف بشيء ما .

وسرى تنفس الصعداء ، كأنما جاء الخلاص ، في كل الصفوف ، إذ كانت الأحداث المثيرة قد جمعت كل الحاضرين من العائلة بعضهم إلى بعض .

واقترب كونراد الآن بخطىً ثابتة من والده ، وقال : «هذه إذاً إرادتك الحقيقية ، الجدية ؟ » .

وكرر الشيخ قوله : «أجل ، أجل ، أجل» ، وكان مستثاراً ، يهزُّ قفاه .

وقال قائل من الجمهور صائحاً : «فلتتصافحا!» .

وقال كونراد مصادقاً : «فليكن ذلك ، أعطني يدك على ذلك» وقدم هو يده ، ولكن الشيخ أحجم كأنما يراد منه أن يدخل جحر ثعابين . وأخيراً تخلص بدفعة عنيفة ردَّت اليد اليمنى الممدودة بعد أن لامَسَها ، ولمّا يكدْ .

«الزراعة أم إدارة المشروع ؟» .

وجعل الشيخ يلهث ، وأخيراً تمكّن من الموقف بحركة تشنجية أخيرة فألقى بيديه فوق رأسه .

وقال يضغط أنفاسه ليكون صوته مجلجلاً : «كل شيء!» وتوارى مستنفَذَ الطاقة .

وقال كونراد متجهاً إلى الجمهور : «لقد سمعتم هذا ، وأنتم شهداء» وعلى أثر ذلك استند بذراعيه إلى حافة النافذة ، وقال متجهاً بحديثه إلى داخل الحجرة بصوت احتفالي : «أبتاه ، لن تندم على ذلك ، هذا ما أعاهدك عليه بقسم مقدس ، وسوف تجد فيَّ منذ الآن ابناً مخلصاً ، عارفاً للجميل ، لن أدع شيئاً ينقصك ، أنت والوالدة ، وسوف يسود منذ الآن ، بمشيئة الله ، السلام والبهجة في قصر «الطاووس»» .

وأحسَّ الآن أن أخته تعانقه عناقاً حاراً ، فقبّلها وهو في حالة من التأثر العميق .

وظل فكره مشلولاً بعد ذلك . وذلك أن الفزع اللاحق من جراء تجاسره

كان ما يزال يحول دون ظهور شعوره بالنجاح ، كما أن الواقفين من حوله ران عليهم الذهول والحذر . وكان الشعور بالحرج يسود في كل جهة ، وهو حرج قصور الأفكار حيال لفتة من لفتات القدر مفاجئة حافلة بالنتائج . وبحكم العادة أخذ الخدم يزيلون عن الأرض الأشياء التي لا حاجة إليها ، من فُرش ووسائد ، ومِزَقٍ من الملابس ، وقبعات وشظايا ، وكل ما سوى ذلك مما كان يتناثر هنا وهناك ولا يليق أن يكون ههنا ، في عمل يهدف إلى غاية ومع ذلك فهو عمل لا شعوري . واقترب الموسيقيون ، في خضوع واستكانة ، والشكر والتهنئة في عيونهم ، غير أنهم تركوا ما كانوا يريدون أن يقولوه ، من دون أن ينطقوا به . أما أهل ڤالديسهوف الذين كانوا حتى الآن يسيرون عائدين من المطاردة في صخب ، يغنون ، ويتفاخرون ، فقد ران عليهم الصمت أمام الصمت الحافل بالأسرار .

وقال لويتولف هامساً : «ماذا حدث ، يا كونراد ؟» ولم يحر كونراد جواباً ، وحين رأى الطبيب ينعطف نحو الركن وعليه سيماء الاسترخاء التي يتسم بها من يأخذ في الاستجمام من العمل أسرع نحوه بهمة ونشاط .

وقال مستفسراً في قلق : «كيف كان الحال ، آمل ألاّ يكون هناك إصابات جدية ؟» .

وضيق الطبيب إحدى عينيه وغمز بالأخرى ، قبل أن يجنح إلى الإعراب عمّا في نفسه ، قائلاً : «في وسعك أن تحمد الله على أن الأمور سارت على هذا النحو ، أو تحمد ، بالأخرى ، فتاة برن ، التي أمرت بإحضار الأغطية ، وإلاّ لما جرت الأمور على هذا النحو المنطوي على الرحمة . أما أولئك الذين طاروا إلى النافذة هاربين منها فلم يَعْرُض أحدٌ لأحدٍ منهم . ومن حسن الحظ أن توجد أمثال هذه العجائب في بعض الأحيان . وفي مقابل ذلك يوجد بين

الأوائل الذين نزلوا على السلّم الصغير ، واحد قيد المعالجة» .

ثم قال وهو يُطامِن صوته : «إنه كسر عظم غير خطير» وكان يُرْفِق ذلك بابتسامة وتوكيد متحفظ .

ولم يكن كونراد على جلية من الأمر ليعلم هل ينبغي له أن يقدم التهنئة على «عدم الخطورة» أم ينبغي له أن يغتمّ لكسر عظم الفخذ .

وقال يسأله في هذه الأثناء : «وأين يرقد الآن ؟» .

«لقد ضمدّناه في مخزن الغلال بصورة مؤقتة» .

«ومن يتولى رعايته ؟» .

«الفتاتان : ليزابيت وبريجيت» وعندها ابتعد الطبيب متوجهاً نحو باب المنزل .

وعلى أثر ذلك خيمّ السكون من جديد ، إلى حد جعل دقة الساعة في ناقوس برج الكنيسة التي دوّت الآن ، تحدث أثراً كأنه حدث له أهميته . وجعل كل امرئ يعد الساعات وراء كل دقة : واحد - اثنان وكانت الخاتمة : «الساعة السابعة» وسرى في صفوف الحشد صوت يقول في دهشة : «ماذا ؟ أوَ قد بلغت الساعة السابعة ؟» على الرغم من أن أحداً لم يكن يعرف لماذا تولته الدهشة .

وكان كل امرئ يحسّ أنه لا بدّ أن يحدث فوق ذلك بعُد شيء ما ، سواء لاستكمال النتيجة ، أم لنقضها من جديد .

هنالك دوى صوت صاحب «قصر الطاووس» موبِّخاً من داخل حجرته : «ما لكم تقفون ههنا وتنظرون إلى خدودكم مثل ذكور الخرفان! هلاّ قدمتم ، إلى رهطكم شراباً على الأقل فلقد استحقوا ذلك حقاً» .

وتنفّس كونراد الصعداء ، وقال يسأله بلهجة المطيع : «من أي خمر ؟» .

«ماهذا السؤال الذي تسألنيه أيها البليد ؟يجب عليك أن تتصرف الآن» وطارت في هذه الأثناء حزمة من المفاتيح فحطت أمام قدمي كونراد . وبذلك زال السحر ، وخفت حدة التوتر .

وأقبل القوم كلهم يتزاحمون على كونراد ، لكي يهنئوه بالسيادة التي ظفر بها .

«فأنت إذاً ، منذ الآن فصاعداً ، سيد قصر الطاووس! أتمنى لك الصحة وطول العمر ، وأن تسير أمورك على ما يرام» ـ «وأنا أتمنى لك زوجة طيبة في البيت» ـ «وأنا أبيح لنفسي أيضاً أن أهنئك من كل قلبي» . وكان عدد لا يُحصى من الأيدي يتدافع نحوه ، أيدٍ من كل حجم وطبيعة ، ولم يكن يدري أيَّها يتناول أولاً فكان ثمة يد تهزّ يمينه ، وأخرى تضغط عليها ، وتهصِرها ، وكانت بعض الأيدي تكاد تخلع ، من فرط السرور ، كتفه من مفصلها ، وكان بعضها يكتفي بوضع الأصابع في وجل ، في انتظار لأداء التحية من قبله . غير أن الرقيب كان يضربه ضرباً من فرط الحماسة .

وكانت الخادمات يبتسمن قائلات بصوت بين التهيُّب ورفع الكلفة : «يا معلمنا» ، وعيونهن ترجو منه الصفح عما سلف ، والرويّة فيما يُستَقْبَل .

فماذا فعل كونراد ؟ لقد كان يعانق كل واحدة منهن ، حقَّ المعانقة ، ولم يكن يخجل ، ولم يشعر بالندامة .

أما جوزفين التي كانت توشك أن تمدّ إليه يدها ، مشرقة العينين ،

مبتسمة ، فقد ألقت بنفسها فجأة على كرسي ، وطفقت تبكي وتسيل عيناها كجدول صغيرٍ وكانت تقول مُعْوِلة : «إني لأحب لك ذلك من كل قلبي» ولم يكن ثمة سبيل إلى تهدئتها .

وكان اسمه يتردد في هتاف تهليليّ من كل حدب وصوب ، مثل أنشودة التسبيح لله في القداس الكانتونيّ ، اسمه ، تلك الكلمة الخصوصية التي يتميز وقعها بأحلى جرس على أذن الإنسان ، خاصة من دون كل كلمات اللغة ، عندما يتردّد من فم الأصدقاء ، وكانوا له أصدقاء بالفعل ، جميعاً ، من دون تفريق ، كل أولئك الذين كانوا يُحْدِقون به ، ممن يعرفونه وممن لا يعرفونه ، وكان يقرأ هذا في الوقع الطيب وفي حرارة النَظرة . فمن أين جاءته الحظوة الكبيرة الآن فجأة ، وهو الذي كان بالأمس ما يزال المُنْعَزِل إلى حد بعيد ؟ وأشرق في خاطره إحساس داخليّ مثل الشهاب المتألّق ذي الذنّب المضيء يقول له إن النجاح يعود على صاحبه بالسمعة الحسنة ، وأن المجد ينجب أصدقاء وراء كل حرش من أحراش البتولا .

وكان يردّ كل لفتة من لفتات الإعراب عن الولاء بعينها ، من دون تمييز بين الطبقات أو الأشخاص .

وكان سعيداً ، كما يقال ، بل كان بالغ السعادة وكانت عضلاته تنضح بقوة أكبر ، على غير إرادة منه . وكان ثمة شعور سامٍ بالشباب المتفجّر الفيّاض والصحة يسعده ، شعور لا يختلف عمّا لو كانت الطبيعة الصارمة تداعبه هو بشخصه . ولكن عندما يكون المرء على وفاق مع الطبيعة تكون أحواله على ما يرام . لقد كان في وسعه في هذه اللحظة أن يتحدى الموت والشيطان .

وقال لأخته هامساً ، وهو يناولها حلقة المفاتيح : «أوعزي بإحضار الأفضل على وجه الإطلاق ، شيانتي ، أنتِ تعرفين ، ويجب أن يكون هذا للقوم جميعاً ، وإياكِ أن تضنّي بذلك!» .

وغمغم قائلاً لنفسه ، وهو ينظر حواليه ليتأكَّد من الواقع : «سيد ومعلّم» ولم يكن يقدر على فهم أكثر من ذلك بفكره في هذه الأثناء ، لأن الحركة كانت مفرطة في القوة ، وكانت الدنيا ترقص خارج نفسه وكانت روحه تتواثب في داخلها .

وحين عادت آنا أدراجها ومعها حاشية من الخادمات اللواتي كنّ يحملن البراميل الصغيرة والقوارير انتحى بأخته جانباً ، وقال لها : «أبلغي عني أبي بأكثر العبارات تهذيباً أنني التمس منه أن يتفضل علينا بشرف قرع الأقداح معنا» .

ونزلت آنا على إرادته وفي وجهها أمارات الشك . وفي الحقيقة جاء الجواب رافضاً وإن كان غير متسم بالجفاء ، إذ جاء فيه أن الوالد يشكر له ذلك ، كما أبلغته ، غير أنه يعاني اليوم من فرط التعب والتوعُّك . وأضافت قائلة بجد : «ولكن ما عاد يجوز لك مع ذلك أن تُرى بعدُ في هذه الحال ، أسرعْ بالذهاب ، واغتَسِل ، وبَدِّلْ ثيابك» .

وقال بلا مبالاة : «ويحك! إن ظرف الحرب ظرف من الظروف أيضاً ، ومظهري مماثل على وجه الدقة لمظهر رفاقي ، وما من أحد منا يجد سبباً للخجل أمام الآخرين» . وردَّت قائلة : «لا تؤاخذني ، فمثل هذا المظهر لا يظهر به رفاقك ، بلا ريب» وكانت تشير إلى كمّه الأيمن الذي كان يتدَلْدَل معلّقاً بِمِزْقة .

وضحك قائلاً : «إذاً فأتيني بثوبٍ من ثياب السلاح قديم يغطّي كل النقائص ـ ماذا تصنع أمي ؟ أما عادت إلى البيت بعد ؟ أتراها اطلّعت على شيء ما ؟ ما عساها تقول في هذا ؟ أنا آمل أن تكوني أنتِ أول من تفضي إليها بذلك ، فأنت تعرفين بالطبع كيف تقدمين له بحيث لايُساء فهمه ،

ولتقولي لها إنه لا داعي لأن تكدِّر نفسها ، وأنْ ستكون أحوالها معي على ما يرام ، هي والوالد ، شأنهما في ذلك شأن الملك والملكة في خاتمة الحكاية ، من حيث الظاهر والباطن ، قولي لها هذا » .

وسرعان ما تردّد قرع الكؤوس وارتفع صخب المأدبة ، وقُرِعت الكؤوس بعضها ببعض ، وتبودلت أنخاب الصحة ، ورويت النكات ، وجرى وصف أحداث متفرقة من أحداث قاعة الرقص ، ابتغاء تذوُّق النصرالمجيد من جديد ، وبدت هذه الأحداث مضحكة على وجه الإجمال في إطار الهتاف التهليلي الاحتفالي . وكان كونراد ينقل خطواته ، في سكون ، من واحد إلى آخر ، وينهل من بعض الأقداح ، ويربِّت على بعض الأكتاف ، ويصافح كلاً من أفراد رهطه من بني ڤالديسهوف ، مرة أخرى ، من تلقاء نفسه هذه المرة ، باستثناء لويتولف والرقيب اللذين كانا ينتميان إليه على أية حال ، وكأنهما بضعة منه ، وقال : « هيّا ، أيها الموسيقيون ، اجلسوا إلينا! فمن لم يكن معي اليوم فهو يوجِّه إليَّ إهانة » .

وقالت جوزفين بْجسارة : « ينبغي لكم أن تعزفوا لنا شيئاً ، بلا ريب » . ولقيت خاطرتها مساندة عامة ، إذ أخرج الموسيقيون على أثر ذلك آلات السحب الموسيقية* التي ارتفع مستوى الجوّ الاحتفالي بمجرد رؤيتها بمقدار سلّم موسيقي كامل** في شعور مسبق بالصخب الإيقاعي الذي يفترض توقُّعه .

وكانت تجري على لسان كونراد عبارة « إيه ، ياكاتري ، أين ذهب الشيطان الذي كان متربِّصاً على السطح ؟ » ، بينما كان يتوجه نحو كاتري ،

* آلات السحب هي الكمنجة ، . . . . .

** Oktave ، سلم موسيقي كامل ، أي من الدّو .   « المترجم »

غير أنها لم تكن موجودة في أي مكان بالقرب منه . وهناك فحسب خطر بباله أنها كانت غائبة عن بصره منذ ساعة طويلة ، بل لقد كانت غائبة حتى في التهنئة . وكانت تلتمس نظرته في دوائر تزداد اتساعاً على نحو مطرد ، وقد تولآها العجب . وأخيراً اكتشفها تحت قاعة ساحة لعب الكيجل ، قاعدة بغير حراك ، على مقعد طويل قد اسندت ظهرها إليه ، كأنما تتأهّب لالتقاط صورة لها ، ويداها في حضنها ، وعيناها موجهتان نحوه بإحكام ، مثلما تتوجه الطلقة نحو الهدف . وحين نظر إليها ، هربت بنظرتها جانباً على عجل ، ولكن حين نظر إليها من جديد كانت قد حدَّقت فيه من جديد . وكان يُشيع الروحَ في شخصها شيء لطيف كان يتعارض مع قسوتها الحجرية حتى الآن ، وأدرك أن جانب اللطف موجَّه إليه ، هو على وجه الخصوص ، وحده تماماً . وانطلق ذلك منه كالصاروخ ، من قلبه إلى رأسه . فعمد أولاً إلى إمرار قدح من الخمر في حلقه ، ثم توّجه نحوها لا يلوي على شيء . وكان ثمة نداءات تدعوه في الطريق إليها ، غير أنه لم يسمح لشيء أن يستوقفه .

ولكن البواب تعلّق به في إلحاح ، محنيّ الظهر كالقط ، وقبعته بين أصابعه ، وهو يقول في صوت كالصفير : «سيدي صاحب قصر الطاووس ، إنهم يتجمّعون من جديد ، في الأسفل ، في كرم العنب» .

«من ؟» .

«الواجنجيّون» .

وهزّ كونراد بكتفيه في استهانة ، وتابع سيره ، ولكن البواب تابع قوله ملتصقاً به : «سيدي الملازم ، لقد عقدوا صلحاً بينهم ، واتحدوا ، بشطريْهم الأعلى والأدنى ، وهم يريدون أن يباغِتوكم» .

«ما زال الوقت نهاراً ، وهم لا يكادون يُرَوْن إلاّ بصعوبة» .

«معاذ الله يا سيدي ، إنهم يجمعون الحجارة في الكرم ، ولقد أقسموا على الانتقام منك ، منك أنت على وجه الخصوص تماماً . وليس في وسعي على الإطلاق أن أكرر ما توعَّدوكم به...» .

«لو كانت المسألة موقوفة على إرادة السوء وحدها لأزالوني من الوجود منذ عهد بعيد ، ولكن إذا كنت أنا المقصود بذلك فأنا لهم ، وحسبنا هذا» .

«إذاً فهل لابدّ لي أن أفقد وظيفتي ، على ما يبدو ، في قصر«الطاووس» بعد أن أصبحت أنت سيده ؟ أم تراك تريد أن تجرِّب الحال معي أسبوعاً آخر ؟ ولو فعلتَ لبذلتُ أقصى ما يخطر بالبال من جهد» ، وقال كونراد ملوِّحاً له ، لينصرف :

«ما زال لدينا وقت للحديث في ذلك ، غداً» .

ولبثت كاتري مثل عمود مصوَّر ، بينما كان هو يسرع نحوها بهمة ونشاط ، وقال ممازحاً : «إيهِ ياكاتري ، أين ذهب الشيطان الذي كان يقعد على السطح صباح هذا اليوم ؟ يبدو أنه ذهب إلى الجحيم من جراء مانعة الصواعق ، وذلك مكانه اللائق به . فالجرأة ، والرجولة ، كما ترين ، هما دائماً الدواء الأمثل ضد الشيطان . ومع ذلك فأنا أريد ، لكي أزهِّده في العودة إلى الأبد ، أن أدخل في البيت روحاً طيّبة ، هل تعرفين من أقصد بذلك ؟» . وحين أخذت أنفاسها ترفرف مثل طائر نورس فوق البحيرة العاصفة ، مدّ لها يمناه بقلب طيب .

«مُدّي يدك ، يا كاتري ، فاليوم يوم أحسن زفاف في الدنيا! هلاّ عقدناه على الفور وختمناه ؟» .

والتفتت راكعة وقد احمرّ وجهها ، وقالت متلعثمة ، متحاشية ، وهي تنهض ، معرضة عنه بجهد بالغ : « وما عسى أن تقول فيَّ أختُك وأمك ؟ » .

وردّ قائلاً وهو يضحك : « ما تشائين ، فقد أصبحت الآن مستقلاً ، لا أدين بحساب لإنسان » . وقال وهو يمسك بذراعها في وثبة سريعة : « فكرة حسنة : تعالَيْ ، ما رأيك ، يا كاتري ، سأقدمك ، بلا مقدمات ، إلى الجمهور المحتشد ، عروساً لي ؟ » .

وسرت في جسدها رعدة السعادة حتى لقد نكّست رأسها في ارتباك ، ثم قاومت وهي غير مستيقنة ، قائلة : « ليس هكذا ، ليس الآن ، في أول يوم نتعارف فيه . ما رأيك أنت أيضاً ؟ ربما فيما بعد ، إلاّ هذا اليوم ، فأنت منفعل أكثر مما ينبغي يبدو عليك السكر ، ولا تعرف ما تصنع ، ومن الممكن أن تندم على ذلك غداً » .

« أوَ أندم ؟ أنا ؟ غداً ؟ أأنا الذي لا أعرف ما أصنع ؟ لا بأس إذاً ، فسوف أقول لك ذلك غداً مرة أخرى بأسلوب أكثر رسميةً ، غداً قبل الظهر ، بين العاشرة والحادية عشرة ، في حمام الاستشفاء . هل يناسبك هذا الموعد ؟ أم ترينّ أن من الأفضل أن أتأخر عن ذلك ؟ » وحين تنهدت ولم تنبس ببنت شفة ، مضى قائلاً : « إذاً فنحن باقيان على هذا ، غداً في العاشرة والنصف على أبعد تقدير ، آتي إلى حمام الاستشفاء على صهوة ليسي ، وإلى اللقاء حتى ذلك الموعد » وقال ذلك وهو يرسل إليها نظرة مفعمة بالمودة المُعابِثة ، ودار على عقبيه ، وابتعد في طلاقة ، غير هيّاب ، إذ عادت الأمور إلى نصابها .

وإذا هي تظهر إلى جانبه وتصدِم يده ، وتقول له وهي تمط بوزها مبتسمة ، وعيناها مفعمتان ببريق كالشمس : « أتراك تحبني قليلاً ؟ » .

وقال ممازحاً : «سوف أفضي بالجواب عن هذا إليك غداً . أمّا اليوم فما زال هذا سراً دفيناً» وجذبها من يدها إليه حتى بات جسد كل منهما يعوق الآخر في مشيته .

وكانت المسافة من ساحة لعبة الكيجل إلى الشرفة الأرضية تبلغ ثلاثين خطوة على أقصى تقدير ، ومع ذلك فقد بدت له الآن طويلة إلى حد لا نهائي ، وخصبة مثلما كان يبدو له في تلك الأيام الفضاء الممتد من الجبهة إلى هيئة أركان اللواء حين نادى عليه العقيد ألليجري باسمه ، لكي يثني عليه أمام القوة المحتشدة .

وقال لها مبتسماً وهو يطرف بأهداب عينيه نحو قمة الفندق : «احزري من تراه يقعد على سطحه ؟ إنه كائن أبيض الجناحين له حزام ذهبي ، يمسك بغصن من النخيل في يده ، ويخيَّل إليّ أني أحس به وهو ينشّ بجناحيه . ألا تحسين بشيء ؟ أنا أحسّ بذلك» .

هنالك تنسَّمت الهواء بضع مرات ، في سرعة خاطفة ، في اتجاه شاربَيْه ، الأمر الذي كان يمكن أن يعني ، بأسلوبها العنيف ، قبلة ، كما كان يخمِّن ، ولكنها وقفته فجأة ، ونظرت في عينيه نظرة المتوعِّدة .

وقالت في لهجة الإلحاح والتوكيد : «وفي مقابل ذلك يجب أن يكون مفهوماً جيداً ، أنني أطالبك منذ الآن بالإخلاص . الإخلاص بلا رحمة ولا استثناء . فأنا مثل سرطان البحر ، إذا فتحت قلبي ذات مرة لأحد أمسكت به كما يمسك المرء بشيء بكمّاشة . ولكن لابدّ له في مقابل ذلك أن يتمسّك بي أيضاً كل التمسُّك . ألا ترى ، لو أنني خيِّرتُ بين أن اضطر إلى معرفة أنك أحببت في أي يوم من الأيام امرأة أخرى ، ولو كانت أختك أو أمك ، وأن أعرف أنك مُتَّ ، لفضّلت مائة مرة أن أراك ميتاً . هكذا أنا ، وأقول هذا لك بصراحة ، وفي غير تكتُّم» .

وقال وهو يضحك وقد اقشعرَّ بدنه لهذه النكتة : «ويحك!» والحق أنه كان مما بعث في نفسه شعوراً بالوحشة إلى حد ما أن تضع موته في كفة الميزان بمثل هذه البساطة . وكان يتصوَّر الحبّ عند النساء على نقيض هذه الصورة ، وهو أن يكون كل شيء آخر ، وحتى التضحية بالنفس ، قبل أن يكون موت هذا الذي تحبه المرأة . ولكن هذا لم يكن مع ذلك سوى ظلٍ لفكرة عابرة لم تكد تلامسه حتى ولَّت الأدبار ومرت مرور الكرام . أمّا كاتري فقد وضعت النظرية موضع التطبيق إذ استأنفت التغيير الذي انقطع من جديد ، قائلة : «بل إنني لم أغفر لهانز أبداً أنه كان يفضل عروسه عليّ» . وبذلك رأت أن موقفها قد تمت البرهنة على صحته واختتمت التحذير بابتسامة ظريفة .

وحين وصلا إلى الشرفة الأرضية كانت الموسيقا تصدح في الطابق العلوي يدعمها إنشاد هادر يأتلف من مائة صوت . وكانا يعرفان كلمات الأغنية وأسلوبها ، ولما كان النص لا يتنافى ، بطريق المصادفة ، مع مشاعرهما الخاصة ، فقد دخلا بفميهما وأقدامهما في الإيقاع بطريقة جديدة حرة . «عندما تشتغل الطاقة والجرأة في النفوس الجريئة» . وفي الوقت ذاته طوَّحا بأيديهما المتشابكة في عنفوان مثلما يفعل رعاة الألب في الرقص . وكان كونراد ينظر في هذه الأثناء إلى رفيقته في محيّاها . أمّا كاتري فكانت تنظر أمامها ، مستغرقة كل الاستغراق في الغناء .

ولم يكن يعنيهما أن يفضي بهما الطريق إلى وسط عامة الناس ، إذ كانا يعرفان أن جملة الحاضرين كانوا يقدرون القيمة الكبيرة التي تتمتع بها الفضيلة ، عن طريق الإحساس المشترك ، وكانا يتوجّهان تلقاء قرص الشمس الأحمر حتى لقد باتا لا يميّزان جسداً من آخر من جراء اللهيب والتألّق .

ولكن حين اصطدما بغتة بآنا التي كانت تنتظر أخاها الذي تحمل إليه ثياب السلاح ابتعدا كل منهما عن الآخر بحركة سريعة على الفور ، مثل اثنين يضبطهما المرء متلبسين بخيانة زوجية .

ونظرت آنا إلى الواحد منهما بعد الآخر بالنظرة ذاتها الدالّة على معاناة لا توصف ، ثم ناولت أخاها ثياب السلاح صامتة كالخرساء ، في استسلام ، بينما كان هذا يخلِّص نفسه من السترة القصيرة الضيِّقة الممزَّقة . ومع ذلك فحين تركت الكمّ الأيسر متدلياً إلى الأرض عن طريق السهو ، أمسكت به الآن كاتري في مكر وكأنما كانت تريد بذلك أن تساعد الآنسة ريبر .

وسألت آنا بصوت لا جَرْسَ فيه وهي تعضّ على شفتيها : «من تراه يخدم أخي الآن في الحقيقة ، أنا ، أم فتاة أخرى سواي ؟» .

واستجابت كاتري للسؤال بضحكة مفعمة بالبهجة ، وكأن المسألة تدور حول جدال هزلي لا طائل تحته : «يا سيد ريبر ، فلتَخْتَرْ من يفترض أن يقوم على خدمتك ؟» .

ولكن كلتا النظرتين النسائيّتين اللتين تقاطعتا مثل خنجرين مسمومين كانتا تكشفان له عمّا تنطويان عليه من الكراهية حتى لقد أكره نفسه على التعبير عن الحسم المرغوب في حكمة مستحسنة ، في قفزة تمثَّلت في قوس بعيد المدى ، إذ أجاب قائلاً وهو يقسر نفسه على أن يبتسم ابتسامة الرضى : «كلاكما» ، وبدا في نظر نفسه عجيباً مثل سليمان الحكيم . ومع ذلك فحين دفع بذراعه الأيسر في كم الرداء ، ببراءة ، أرسلت آنا الكمَّ الأيمن وتراجعت وقد أحسَّت بالإهانة ، مفسحة المكان لغريمتها .

وكانت قد جاءت معها أيضاً بربطة عنق وقبعة كانت تتناولهما الآن بيدها بصورة آلية . وتناولت كاتري كلتا هاتين الآن بجراءة لا تصدَّق ، من

يديها ، وعلى نحو لا يختلف عمّا لو كانت كاتري هي السيدة ، وآنا هي الخادم القائمة على خدمتها والحق أن آنا كانت تدع كل شيء يحدث بغير مقاومة ، وكانت تنظر في استسلام إلى تلك الغريبة وهي تعالج أخاها شأن من يتظاهر بمعرفة الكثير ، غير أنها كانت تبدو في أثناء ذلك بالغة الاستخذاء ، والتكدُّر ، مجردة كل التجرُّد من الجرأة والأمل ، كأنما كانت تود لو تندسّ في أقرب كهف من كهوف الغابة لتنتهي فيه . وأخيراً ، وحين ابتعدت كاتري عن المكان وعلى وجهها سيماء المنتصرة ذات النظرة المدمِّرة ، ومحياها ينضح بكبرياء العروس وقد ارتفع كتفاها من جراء الشعور المسبق بالسلطة المنزلية الكاملة الوشيكة في قصر «الطاووس» وقد ردَّت عنقها إلى الوراء في وقار ، كأنما تجرر أذيال عباءة حاكم ، فتحت آنا شفتيها الشاحبتين اللتين كانت تختلج من حولهما رعدةٌ تشنجيّة ، قبل أن تتمكن من صياغة كلمتها ، إذ قالت بلهجة ذات جرس مجرد من اللون : «وأنا ، هل عُزلت ؟» .

وقال يواسيها بلهجة بين الهزل والجد : «أما أنت فلكِ صاحبك الدكتور» .

ولمّا كانت تنظر في عينيه نظرة المحزونة اللائمة ، مثل سائل يرتعد من البرد يتصدق عليه بخيل بقرش من النحاس بدلاً من معطف دافئ ، فقد طوّقها برقة ، وقال مؤنِّباً «لا تكوني كالأطفال» . وكان قد فكرّ في الحقيقة ، من أجلها ، بعبارة تنطوي على المحبة بوجه خصوصي تماماً ، بشيء يكون بلسماً لقلبها المريض ، إذ كانت تبعث في نفسه الشعور بالبؤس مثلما كانت تفعل يوهانا ، زوجة المدرِّس المحتضرة ، حين لفَّت عظامها المهزولة حول عنقه وهمست قائلة : «أما زلت تعرف ، ياكونراد ،

في تلك الأيام ، قبل عشر سنوات ؟ » ـ غير أنه لم يعثر على الكلمة المنشودة ، وكان كلّما طال عنها ازدادت إمعاناً في الهرب . وشدَّها إلى صدره تعويضاً لها عن ذلك .

وتركت المواساة الناجمة عن عناقه تحدث أثرها فيها بضع لحظات وهي صامتة ، حيث استعادت حيويتها بذلك إلى حد ما ، ثم قالت على أثر ذلك وقد ازدادت عزماً وتصميماً : « لقد أرسلت في طلب الوالدة ، وسوف تأتي على الفور » .

« وهل اطلعت على شيء ؟ » .

ولم تجب ، وتفادته بعينيها . فاتخذ سيماء الجدّ ، وأخلد إلى الصمت وقال وهو يفكّر ، سائلاً : « أتُراكِ تعلمين في الحقيقة أن الوالدة كانت كئيبة المزاج في سالف الأيام » .

« أجل ، لماذا ؟ » .

« لا شيء ، إنما هي فكرة لمعت في ذهني » .

وتوقّف الحوار .

وقالت تذكّر نفسها : « يجب عليَّ أن أصعد الآن من جديد إلى حجرة النوم لأتفقّد أبي » وتنهدت في هذه الأثناء وهي تكتم نبأً أوشك أن يزلّ به لسانها من غير إذن منها . وأخيراً طغى صوتها بعد تردُّد متكرِّر بين التنهُّد والإخلاد إلى الصمت ، وقالت شاكية : « إنه يثير قلقي » . وقال مندهشاً : « يثير قلقك ؟ لماذا ؟ » .

وتردّدت في الجواب ، ومع ذلك فبعد أن كشفت طرفاً من الحقيقة لم يكن لها بدٌّ أن تفضي بها أيضاً .

وقالت معترفة : « إن حاله ليست على ما يرام ، وهو نادم من جديد ، في شطر منه ، وهو حانقٌ عليك ، وهو يحمل في وقت لاحق على محمل السوء ما وعدك به ، قائلاً إنك دفعت به إلى الحائط ووضعتَ السكين على حلقومه » .

وصاح يقول وقد ثار ثائره : « هذا غير صحيح » ومع ذلك فقد قال وقد جنح إلى الاعتدال على الفور : « على أنه سوف يتبيّن له عما قريب أن هذا أفضل ما يمكن بالقياس إلينا جميعاً وبالقياس إليه » ، وكان يقول ذلك بغية تهدئة نفسه .

وعلّقت آنا وهي تتجه للانصراف : « فلنأمل ذلك » ، ولكنها دارت على عقبيها فجأة ، وارتمت على صدره وهي تبكي بمرارة ، قائلة : « اغفر لي أنني لا أصنع اليوم شيئاً سوى البكاء أمامك ، وليس هذا أسلوبي حقاً في العادة ، غير أني ما عدت أعرف ما آتي وما أدع ، وإني لعلى وشك أن يتولاني الخوف من أن الأمور ما عاد يمكن أن تستقيم بعد » .

« ولكن الأمور لا بأس بها ، أيتها المجنونة العزيزة » .

وهزت برأسها ، وقالت وهي تضحك بمزيد من المرارة : « كلاّ ، كلاّ ، الأمور ليست على ما يرام ، بل سيئة ، سيئة إلى حد مريع ، وأسوأ مما كانت في أي وقت مضى » .

وبينما كان يحاول عبثاً أن يَحْزِر ما عسى أن يكون كدرَّها إلى هذا المدى اجتذب انتباه عينيه دَوِيٌّ غريب كان يتناهى من حجرة النوم ، في تحدٍّ للمأدبة ذات المجون والبطر ، وكانت ألواح زجاج النوافذ تتساقط ، بفعل يد غير مرئية ، في صليلها ، من الطابق الأوسط إلى الأرض ، لوحاً بعد آخر ، مرسلة مطراً من الشظايا الحادة في الهواء ، ولكن كانت تَنبعث من

داخل الحجرة أصوات بهيمية ، متعفجعة حيناً ، مثل خوار عجل ، غاضبة حيناً آخر ، مثل زمجرة هادرة صادرة عن ثور عندما يخفض قرنيه .

وقال كونراد وهو يقطِّب جبينه وعيناه تدوران ، وتكادان تخرجان من محجريهما : «ما هذا ؟» .

وقالت آنا متفجعّة ، في ألم جامح ، وقد فقدت المقدرة على التفكير : «إنه يلعنك» .

وقال كونراد وقد شحب وجهه ، وهو يرتجف ويطلق صوتاً حاداً كالجليد : «عندما يلعنني ألعنه أنا أيضاً ، فأنا أريد أن أرى ألا تُرعدَ اللعنة العادلة . لولد معذَّب في قبة سماء الجحيم بصوت أعلى من اللعنة الظالمة للوالد القاسي» .

وقالت آنا بلهجة الضارع المتوسل وقد تشنَّجت أصابعها حول كتفيه : «كلا ، لن تفعل هذا ، وسوف تدخل في حسبانك أنه رجل شيخ مريض لا يدري ما يفعل ، ولن تنسى أنه يظل أباك وأبي ، على الرغم من كل شيء» .

وسرت فيه تشنُّجة هزته . واختتم بقوله بصوت غامض : «أنتِ على حق ، لن ألعنه مع ذلك» وأجابته شاكرة ، بقولها : «اعتمد عليّ ، فسوف أرده إلى الحلم والرقّة ، بلا ريب» وأسرعت إلى المنزل بأسرع ما استطاعت .

غير أنه توجه إلى الشاربين الذين لم يسمعوا شيئاً مما كان يدور من صراع بين روح الخير وروح الشر وراء ظهورهم إذ كانوا أسارى استمتاعهم الخصوصي ، قد أصمَّ أسماعهم الضجيج الذي كانوا يحدثونه ، وذهبت الخمر بعقولهم . ومع ذلك فعندما خالط أكثر هذه المجموعات كثافة بدا في نظر نفسه مثل قطعة من رصاص وحيدة ، قاتمة في وسط حديقة صغيرة للأزهار .

ولم يكن يسمع ما كان يقول القوم ، ولم يكن يرى ما كانت تبصر عيناه ، إلاّ أنه كان يرى شيئاً واحداً ، ولكنه كان يرى هذا على الدوام : وهو بقعة سوداء لا تناسق فيها ، كانت تسبح في الهواء تلقاءه ، في الأسفل ، بالقرب من قدميه . وكانت هذه البقعة ترقص وراءه حيثما ولىّ وجهه .

وسرعان ما لفت سلوكه الأنظار .

وصاح لويتولف قائلاً : «ماذا دهاك ياكونراد ، أتُراك مثل امرئ شارد الفكر ؟» .

وسُمِع صوت يقول بلهجة الفهم والتقدير : «إنه يحسّ بأثر الخمر فالشيانتي قوي النكهة» .

وقالت برتا : «أو يفكر في جميلته القادمة من برن» .

وفي هذه الأثناء لم تكن الملاحظة وعلم النفس يتماشيان مع حاجة الساعة الراهنة . وكان القوم يهتفون ويهللون حواليه ، ويصرخون ، وينتزعونه من مائدة إلى أخرى ، ويغدقون عليه توكيدات التبجيل والصداقة .

وقال لويتولف : «أنت البطل ، ولك يعقد اللواء» ، ونزع القبعة عن رأسه ، ونصب خوذته على رأسه . وقلّده الرقيب بوشاح ، وجعلت الخادمات يحلّين ثوبه بالأربطة والأزهار ، أوسمةً ، وأطلقت عليه جوزفين لقب «فارس قصر الطاووس الأزرق» وهي تعلّق عليه زهرة «لا تنسني» ، وقالت برتا مصححة وهي تتقدم منه بباقة من أزهار بنات نعش ، قائلة : «كلاّ ، بل فارس النجمة البيضاء» . وجملة القول أنه كان يبدو مثل خروف مُزَيَّن قبل التضحية به .

وكان يدع كل شيء يحدث له متذرعاً بالصبر ، إذ كان أكثر حزناً من

أن يحمل أي ضرب من ضروب المزاح على محمل السوء . وحين نقرت كاتري ، في مقابل ذلك ، على أصابعه ، مع نظرات دالّةٍ على التفاهم الخفيّ ، حوّل بصره في استياء وتبرُّم ، غير أنه لم يكن يدري لماذا .

وفجأة دوىّ صليل بَرَدٍ من الحجارة ينهمر على أشجار الفاكهة ، يجرِّدها من أوراقها وأزهارها ، ويهشم أغصانها ويتلف هياكلها الخشبية .

وكانت تصدر عن أهل الثورة أصوات تقول وهي تنفخ وتشخر : «أيها الجبناء! أيها الخبثاء!» وانطلق رهط ضئيل يبلغ المائة ، في خفة ورشاقة مثل صيادي الألب ، من الرجال المتعطشين إلى الانتقام ، يستطلعون الغارة ، واستبقهم فلاحو هيرليسدورف الذين كانوا قد تمركزوا ، بعيداً عن المأدبة ، وفي مواقع أقرب إلى بطن الوادي ، على الطريق ، في صورة متفرجين ، وأخذوا الآن ينتهزون الفرصة لاستدراك ما فاتهم في قاعة الرقص .

ونزلوا على المنحدر منطلقين انطلاق القذيفة من المدفع ، ليؤدّبوا عدوّهم الذي انساب مع ذلك في هرب مجنون فوق الحقول بمجرد أن أمسكوا بنصف اثني عشرية من فلولهم الذين طرحوهم أرضاً بلكمات شديدة البأس . وما هو إلاّ واحد ، واثنان ، وثلاثة ، وإذا كل شيء ينتهي . وعلى أثر ذلك عادوا أدراجهم في مسيرة هادئة بعد أن نشروا ، بموجب تدريبهم العسكري ، حفنة من مراكز الحراسة عند سفوح التلال .

وكانت مكافأة أهل فالديسهوف هتاف استحسان مدوّ ، لإنجازهم السريع . وقال لويتولف يمجِّد هذا : «إنه عمل كامل لا شائبة فيه» . وكان القوم يدعون أهل هيرليسدورف إليهم ويستقبلونهم بأقداح مرفوعة وسط ألوان من الثناء القلبيّ . وقال الرقيب ملتمساً : «الموسيقا! ولكن لتكن شيئاً ينطوي على نار وبارود ، لا مثل هذه الولولة البائسة ، المشلولة ، الفاقدة

الأمل!» . هنالك انبعث عدوٌ كالخبب ممتع ، يبعث الكهرباء في الجسد والروح ، حتى باتت كل المسامّ تنضح بحب الحياة والاستمتاع بها .

وكان كونراد قد استعاد نفسه في ساعة متأخرة من الأعماق القصيّة لأفكاره المتجهِّمة وحين ارتدت روحه من جديد إلى الواقع وجد نفسه واقفاً هنا بغير عمل يعمله ، وقد تم الفراغ من المسألة . وفي مقابل ذلك كان يلاحظ الدمار الآن ، وجعل يقدِّر الأضرار على وجه التقريب وقد تولاه الغيظ والحنق . وكان قدر ليس بالكبير ولكنه لا يستهان به ، من محصول الفاكهة ، قد تبدَّد ، وتشوَّهت بعض الأشجار الرائعة وتحطَّمت ، وأصيب سليل من سلالات الدراق إصابة لا يرجى لها شفاء . ولم يكن واقع الحال من الوجهة الحسابية هو ما يغيظ أكثر مما عداه ، بل إلحاق الأذى بالمنظر الباعث للبهجة والسعادة ، وإصابة الكثير من الخمائل الرقيقة اللطيفة ذات الإحساس المرهف ، والإتلاف الخبيث للبركة التي وهبتها الطبيعة للمرء جزاءً على رعايته الصابرة المترفِّقة .

وبينما كان غضبه يتصاعد درجة درجة ، من دون أن يبلغ على نحو كامل درجة التكافؤ في الارتفاع مع الجناية المُرتكَبَة ، أقبل بعد ذلك حجر يطير ، وعلى أثره ، بعد فترة توقف ، حجر ثانٍ ، ثم ثالث . وكان كل حجر يرسم في مساره المسار ذاته تقريباً بحيث كان لابد أن يكون هناك ، على ما يبدو للعين ، رامٍ واحد يسدِّد نحو هدفه من مخبأ ناء كان يرى نفسه فيه محجوباً عن الأنظار .

وكان هو نفسه ، أي كونراد ، يبدو أنه يمثل الهدف الذي كان يتحرك معزولاً ، على حافة الجدار ، إذ كان يرى أمامه خط الطيران دائماً ، في التقصير ذاته ، على الرغم من أن المقذوف كان يطير تحت مكان وقوفه في

انطلاقه ، على نحو له دلالته : وكان من الواضح أن الرامي كانت تعوزه تلك المقدرة على الاستنتاج من التأرجح غير الآمن للحجارة .

ولبث وقتاً طويلاً لا يُوَفَّق إلى اقتفاء أثر الفاعل ، وكان ذلك في المقام الأول لأن شعاع شمس الأصيل المتألّق كان يبهر عينيه . وكان القوم يرون على وجه الإطلاق أن الوقت ما زال نهاراً ، وأن النور ما عاد هو النور الكامل . وكان المنخفَض قد تكدَّر نوره ، واتحدت مجموعات الأشياء متحولة إلى كتل كانت ترسم خطاً حاداً من الشروخ والفجوات ، وكان فأر من فئران الحقول قد ظهر قبل ميعاده يهمس حوله السطوح .

وأخيراً ظفربه بلا ريب ، ولم يكن في الحقيقة تحته ، بل في موقع جانبي ، وراء درب أشجار الكرز ، عند مخزن غلال النجار هانز يورجن ، تحت أشجار الجوز . وإذا أراد المرء أن يمسك به كانت الإمكانية الوحيدة تتمثل في أخذه من الوراء ، من حقل الأرض الزراعية لقطع طريق الهرب عليه . ولكن هل كانت المسألة تستحق هذا ؟ كان الجواب في الحقيقة أن نعم ، إذ كان مما يستحق الإقدام عليه دائماً معاقبة المسيء ، ولكن أعضاءه كانت قد أصابها الإرهاق بعض الشيء من جراء أفعاله ، إذا أراد أن يعترف بصراحة ، وكانت نفسه تنازعه إلى وجهة أخرى ، إلى حرب كانت أقرب إليه ، وكان يتهدده منها وبال باعث للغيظ في صورة أضرار مادية .

هنالك شاءت المصادفة أن تدخل رمية متجدِّدة ، أضعف بعدُ مما سبقها ، في الينبوع . وكان لسقوط الحجر في الماء الضحل وقع مهين كالصفعة ، أمْ كان تلويث الماء الرائق ، الصالح للشرب ، أو تدنيس فوهة الينبوع هو ما أثار ثائرته ؟ وجملة القول أن الشقيّ هو الذي رسم له إرادته ، وبات الآن يحب أن يؤدِّبه .

وجعل يسير الهوينى ، غير لافتٍ للنظر قدر الإمكان ، وقد عقد يديه وراء ظهره ، وكأنه يسير بغية النزهة ، نحو المنزل ، وهو يلتصق التصاقاً شديداً بالجدار ، على طوله ، مثل الصياد الذي يتسلل نحو حيوان برّي .

وكانت رميات الحجارة ما تزال تتابع اتجاهها الأصلي ، وبموجب ذلك كان تواريه قد ظل غير مُلاحَظ من قبل العدو .

وكانت آنا تنظر من حجرة الطعام .

وقال يسألها في استرخاء وتهاون ، لمجرد أن يقول شيئاً ما ، حين كان جرس الكنيسة يدق لتوِّه : « أي ساعة تدق ؟ » .

وردت قائلة : « الساعة الثامنة » .

« أعِدّي لي شيئاً آكله » . وعند ذلك كان قد بات عندها ، ونظرت بمزيد من الارتياح .

وهمست إليه قائلة : « لقد بات الآن أكثر تعقُّلاً » وكانت تبتسم من جديد ، لأول مرة منذ ساعات طويلة ، وقالت : « إنه عندي ، في الأسفل ، في حجرة المعيشة . مع الدكتور » .

وفي هذه اللحظة ، حين همّ بالمرور ، سمع من خلال حجرة الطعام ، ومن حجرة المعيشة ، أباه يبكي وينوح مثل طفل يعذّبه جرّاح ، فأمسك قدمه ونفسه ، وتجهمت نفسه . ما الذي يمكن أن يعنيه هذا الآن ، من جديد ؟ أكان هو المقصود بهذا ؟ ولماذا يا ترى ؟

ولم يكن في وسعه ، بادىء الأمر ، أن يميِّز كلمات معينة ، لأن الطبيب كان يلحّ على الشيخ بالقول في الوقت ذاته بحيث كانت المقاطع الصوتية لكليهما تتداخل في أذنه ، إذ يغطي بعضها على بعض . وأخيراً لبث الشيخ

وحده يُغوِل لحظة ، إذ تناهى إلى سمعه قوله : « وجّه إليّ الطعنة القاتلة » ، ولم يكن ثمة شيء سوى هذه القطعة المجتزأة من جملة ، ومع ذلك فقد أضاءت له ودمرته هذه القطعة من الجملة مثل شعاع من البرق .

وإذاً فقد كان هذا هو المقصود منذ الآن فصاعداً ؟ سيماء الشهداء ، والتنهدات ، والنظرات ، واللفتات ، والإيماءات المنطوية على الشكوى إلى نهاية الأيام ؟ وأخيراً ، شاهد قبر يكتب عليه بخط خالد لا يمَّحي : « أنتَ ، يا ولدي ، أنت قاتلي! » وكيف يُفترَض فيه أن يقابل هذا ؟ إن في وسع المرء أن يصبر على الإساءات أو يثور عليها ، وأن يفنِّد الأقوال ، ولكن لا منجاة من ألوان اللوم الصامتة . وسرت فيه رعدة ، وشاعت الظلمة في روحه من جراء يأس أسود ، وانبعث صوت في داخله يقول : « أنا ألعنه بلا ريب » ، وكانت يداه تنطلقان هنا وهناك ، ولكنهما تصلبتا على الفور ، وسقطتا على طول الجسد مَهيضَتَيْن . وما عاد يعرف ما فعل وما يعتزم أن يفعل ، غير أن الإرادة التي ساقته إلى هنا كانت تدفع به على المسار المرسوم قُدُماً مثل آلة على قضبانها .

وصاحت به أخته من ورائه تقول : « ياكونراد ، حسبُك هذا ، فلقد صنعت في هذا اليوم ما يكفي » وكانت قد حَزِرَت ، من جرّاء سلوكه المتسلِّل ، نيّته الأصلية ، بينما ظل تغيُّر مزاجه خفياً عليها ، لأن وجهه كان غائباً عن نظرها .

ولكن كاتري اتخذت موقفاً معاكساً لها ، وردّت عليها قائلة بلهجة المتطاولة : « سوف يعرف السيد ريبر بنفسه ، على أحسن وجه ، ما يترتب عليه عمله » .

وهكذا سلك طريقه المنحني وتوارى حول ناصية المنزل .

وفي هذه الأثناء كان رجال الإطفاء الذين افتقدوا كونراد قد تمَّ إفهامهم من قبل كاتري فيما يتعلّق بالسبب المحتمل لتواريه ، حتى إنهم مدّوا رؤوسهم ليستمتعوا بمنظر إلحاق العقوبة ، وقد استحوذ عليهم التوتر في شيء من الخفة والطيش كمن يشاهد مسرحية مسلّية ممتعة . ولمّا كان المساء قد خيّم على نحو ملحوظ فقد استعمل لويتولف المنظار ليتمكن من الملاحظة على نحو أفضل . على أنه كان يعلن عن نتائج ملاحظاته لكيلا يستمتع وحده بالمزيّة الناجمة عن شروط الرؤية المفضّلة بأسلوب يتسم بالغلظة والافتقار إلى اللباقة ، قائلاً : «إنه يختبئ هناك ، خلف شجرة الجوز ، عند مخزن الغلال ـ ذراعه مملوءة بالحجارة ، غير أنه غير واثق ، وهو يلتمس الهدف ، إنه شقي ، طويل القامة له بوز مثل قوقعة الحلزون وأذنان كأذني الفيل . من الممكن أن يخونني حدسي إلى حد بعيد ، أم تراه ذلك الوغد ذاته» «الطاعن بالسكين ؟» وقالت أصوات متذمرة : «أهو المدعو ماتّيزنِ ـ ميشيل ؟» .

وقال الرقيب ملتمساً : «أرني ، أعطني المنظار» وانتزع من يده المنظار ، وقال : «أجل ، هذا هو ، على وجه الدقة ، الوغد ذاته ، المستهتر ، الحليق اللحية!» وكان يقول ذلك مُزْبِداً وهو يضرب الأرض بقدميه ، وقال يصرخ في وجه لويتولف وقد استبدّ به الغيظ ، وهو يطرح المنظار جانباً : «ها أنتم أولاءِ ترون الآن نتيجة التهدئة الدبلوماسية التي لجأتم إليها . ماذا جنيتم منها الآن ؟ أمّا لو أن القوم تركوني أبادرُه ـ لما كان الآن واقفاً تحت شجرة الجوز والحجارة في يده ، ولكان يعاني من خلل ما في عظامه يحمله على اللجوء إلى طبيب يعاينه» .

وردّ لويتولف قائلاً بأعصاب مسترخية : «إنه لا يخسر شيئاً من جراء

الانتظار . إن السيد كونراد ريبر سوف يؤديه ما يستحق ، وسوف يدفع الآن ثمن كل شيء مجموعاً بعضه على بعض » .

وألقى الرقيب ذراعيه في غيظ . وقال لائماً : « يا للعجب ، إن كونراد ليس كما يمكن أن يكون ، وكما أودّ لو أراه : عضلات مثل الأسد ، وأعصاب مثل البارود وقلب كقلب العذراء . ففي اللحظة الأولى يَحْسَب المرء أنه يريد أن يُوسع العالم كله ضرباً ، غير أنه لا يكاد يظفر باليد العليا حتى يدعه يفلت من يده . إن مثّال هذا الضبع الحقود ، الخبيث لا يستحق رحمة ، فههنا لا يكون الحلم إلا ضعفاً » .

وعلى أثر ذلك التفت إلى الوراء ، وغادر زملاءه في تذمر مفعم بالاستياء وهو يضرب الأرض بحذائه .

وفي هذه الأثناء كان المنظار يدور دورته بين الحاضرين ، وكانت كاتري وحدها هي التي رفضته في كبرياء ، قائلة إنها لا تحتاج إلى عُكازات لعينيها ، وإنها ترى والحال هذه ، من الدنيا أكثر مما تود أن تراه . وفجأة ابتهجت لرؤية سارة متجدِّدة ، وقالت متبجِّحة باغتباط : « لقد صفعت هذا على شدقه مرتين في قاعة الرقص ، وإني لنادمة من أجل الصابون ، ولو كنت متكهِّنة بذلك لارتديت من أجل ذلك قفازَيَّ » .

وقال صوت هاتف : « مرحى! ها هو ذا كونراد ، قادم ، انظروا إليه ، في الحقل ، كيف يتسلّل من حول مخزن الغلال » .

« إنه يريد أن يمسك به من الخلف » ـ « مرحى ، ياكونراد! » ـ الآن ما عاد يستطيع الإفلات من يديه » ـ اهدَؤوا بربكم! عليكم بالسكينة! بحق الشيطان! اجلسوا! إلى موائدكم! فأنتم تكشفون اللعبة لو لم تفعلوا ذلك! » ـ « الآن ، الآن ، كونراد ، عليكَ به ، أَمْسِكْ به من خناقه! » ـ « ماذا ينتظر

ياترى ؟ » ـ « إنه يتوقف ـ إن أمره غير مفهوم » ـ « إنه يلوّح بذراعيه وكأنه يجادل أحداً ، مع أنه وحده . أتراه فقد عقله فجأة ؟ » ـ «لقد كان هنا رائعاً للغاية» ـ «لا بد أن أحداً من أهل السوء ألقى في أذنه كلاماً سخيفاً يعتمل في نفسه» ، وكان هذا حكم كاتري الذي نطقت به بلهجة حادّة وهي تقطّب جبينها وترسل نظرة عدائية نحو حجرة الطعام .

«أجل ، بالطبع . الآن فات الأوان! فلقد اكتشفه الآخر الآن ـ إنه يرسل الحجر ، إنه لأمر يبعث على الجنون» ـ «لماذا تدسّون رؤوسكم معاً مثل قطيع الخراف ؟» ـ الأمر سيّان! فلن يستطيع الإفلات من يده» ـ «أخيراً ، أخيراً ، الحمد لله! مرحى ، مرحى! لقد أمسك به» ـ «اضربه! اطرحه أرضاً!» ـ رويدكم ، ما هذا ؟ إنه يفقد خوذته» ـ «ولكن الآخر يتدحرج على الأرض مُجَنْدَلاً» ـ «أجل ، ولكنه ينهض واقفاً من جديد» ـ «لماذا يدعه ينهض من جديد ، يا ترى ؟» ـ «الحق أن هذا ليس بالمنظر الذي تسرّ رؤيته! الله أعلم ، إنه يدعه يجري!» ـ «قُضِي الأمر! وانتهى! إنها لعبة خاسرة» .

وقال الرقيب بصوت مُجلْجِلٍ : «ماذا قلت لكم ؟ أَوَ كنتُ على حق ، أم لا ؟» .

وعادوا من جديد إلى الجلوس للشراب ، مَغيظين مُحنَقين ، كأنهم غُبِنوا ، يقرعون الأقداح في جَلَبَة وصخب ، لكي ينسوا ويُعَزّوا أنفسهم .

غير أن كاتري لبثت في مكانها ترقبه في انتباه . وقالت تعلّق بعد هنيهة ، «ثمة شيء لا يعجبني» .

«ولماذا ؟ وفيمَ ذلك ؟ فهو عائد أدراجه! لقد بات في الطريق» .

«أجل ، ولكن تصرفاته غريبة» .

«لقد قلتِ بنفسك إن ثمة شيئاً ما يعذبه من الداخل ؟» .

«إنه ليس هذا . والمأمول ألاّ يكون قد تلقى في النهاية ضربة ماكرة ، أو شيئاً من هذا القبيل!» .

«ولم لا يكون ذلك! فقد كان خليقاً أن تتاح له فرصة أفضل في قاعة الرقص! كونراد ريبر القوي ، وضربة ماكرة! من قبل امرئ وحيد! ومع ذلك فمن قِبَل أي نوع من الرجال! وأخيراً فسوف يشرح لنا هذا كله بنفسه على الفور ، وعلى أفضل الوجوه . انظروا ، ها هو ذا عند ناصية البيت» .

وصاحت كاتري قائلة : «بحق يسوع ، والرب ، والأب ، أين باتت عيونكم ؟ إنه شاحب مثل ملاءة السرير!» وأسرعت نحوه وهي تدفع الواقفين من حولها جانباً ، في قفزات عملاقة .

وفي هذه اللحظة كانت آنا تنظر من حجرة الطعام ، فألقت نظرة على كاتري ، ونظرة ثانية على أخيها ، واعتراها الشحوب ، ووثبت في قفزة واحدة ، على الأرض .

وقالت متفجّعة : «كونراد ، ماذا دهاك ؟» وكانت تطوّقه متشبثة به ، قائلة «قُلْ لي ، قل لي ، أنا أختك» ، وفي الوقت ذاته دفعت بالفتاة القادمة من برن جانباً .

وقال كونراد هامساً وشفتاه ترتعدان : «لقد طُعِنت» .

هنالك ندّت عنها صرخة تزلزل نخاع الإنسان ، أفزعت كل الجمهور ، وتوقف كل شيء باستثناء الموسيقا .

ومضى قائلاً : «لقد فقدت الخوذة ، وهي تحت شجرة الجوز ، وتعود

إلى لويتولف ، ولا أحب أن آكل الآن ، إذ ما عادت لديّ شهية . أين باتت أمي بريكم ؟ فما كنت أعرف أنها مكدّرة النفس . قولوا لها هذا . إن أبي لوحش فظيع ، حيوان متوحش لا قلب له ، هذه حقيقته . فلتأتوا بالخوذة ، فهي ليست خوذتي ، بل تعود إلى لويتولف ، ومما يؤسفني أني لم أستطع أن أرفعها » .

وقالت كاتري تحييه بصوت كالبكاء : « يا سيد ريبر » .

واتجه برأسه نحوها ، ولكن نظرته ضلت طريقها نحوها وكأنها تمرّ بشيء غريب لا حياة فيه ، وتنحَّت جانباً بعد أن دفعتها آنا مراراً ، نحو الجدار ، وهي تشعر بالخجل ، والتكدُّر ، والإهانة .

وفي هذه الأثناء كان جمع من البشر الذين تولاهم الفزع قد أقبل في وَثَبات وفيهم الطبيب الذي كان مبهور الأنفاس ، وقال يسأل كونراد وهو يمرّ بيديه المتلمِّسَتَيْن على جسده : « أين ؟ » . ثم قال وهو يعود إلى الانحناء وهو غاضب : « أوقفوا الموسيقا! » ودوّى صدىً متعدد المراحل .

وقال كونراد شاكياً بصوت خافت : « لماذا تقفونها ؟ ولماذا يوجد هنا كل هؤلاء البشر ؟ ـ لماذا يحملقون جميعاً في وجهي ؟ ـ ماذا يريد القوم مني في الحقيقة ؟ ينبغي للطبيب أن ينصرف ، فهو يؤلمني . تعالي ياآنا ، فنحن نريد أن نذهب معاً إلى البيت ، أريد أن أخلو إلى نفسي » .

ولم يكد ينطق بهذا حتى تولاّه الاصفرار كالطين ، وانهار في ذاته ، بين يدي الطبيب ، مثلما تنهار الخشبة على النار ، وكان ذلك أول الأمر في مفاصله ، ثم انطرح على الأرض .

وألقت آنا بنفسها عليه ، تصيح باسمه بغير انقطاع ، بأحلى الأصوات

التي تتقطع لها نياط القلوب ، بصوت كالقيثارة ، مُتَأَتِيَةً ، كهديل الحمام ، عُلُوّاً وانخفاضاً ، من خلال كل الطبقات الصوتية ، ومن خلال كل حجرات الفؤاد .

وأخلد الجمهور إلى الصمت في خشوع أمام الترنيم الذي يبعث الرعدة في النفوس .

غير أن الطبيب خرّ جاثياً على ركبتية ، وانتزع أدواته من جيبه ، ونثرها على الأرض ، ثم فحص النبض بانتباه ، عند المعصم أولاً ، ثم عند القلب ، وهو يزيح آنا جانباً . وكانت ترتسم على وجهه شيئاً فشيئاً ملامح تبعث على القلق ، وأخيراً نهض واقفاً وهو يدس أدواته ، ببطء . وبينما كانت كل العيون تتعلق بفمه ، غمغم قائلاً بصوت مكتوم ، وكأنه يتحدث إلى نفسه : «ما عاد هنا مجال لإجراء عملية» .

وكانت آنا قد سمعت هذه الكلمة وفهمتها . واسترخى وجهها ، واستغرقت في شرود صامت . ولكن قبل أن يتمكن أحد من مساندتها كانت قد وثبت قائمة من جديد وقد رفعت ناظريها المخيفين ، كناظرَيْ الأشباح ، نحو المنزل .

وقالت بصوت يصكّ الآذان ، وكأنها تريد أن تخرق الجدارن بصوتها : «هل أدركتم الآن ما تريدون ؟ هل رضيتم الآن ؟ الآن ما عاد يسبب لكم همّاً ولا يثير قلقاً! الآن ما عاد يثير عند أحد باعثاً من بواعث الشكوى! الآن ما عاد مفرط النبالة! الآن ما عاد يريد أن يعرف كل شيء على وجه أفضل . الآن ما عاد يضحك في وقت غير مناسب للضحك . صاحبكم كونراد ، المطعون فيه كثيراً ، المسكين ، المسكين» . وارتمت من جديد على الجثمان ، ولكن مع حشرجة جامحة هذه المرة ، مثل نمر أمريكي فتيّ .

وكان مقطع صوتيّ واحد يتردد بلهجة احتفالية بين صفوف الجمهور : «ميت» ، وكان ذلك على نحو هامس في الصفوف الأمامية ، ومُخَفّض في الصفوف الخلفية ، وعلى الجانب الآخر مقترناً بصيحات احتجاج متذمرة تعبِّر عن عدم التصديق .

«ماذا ؟» ـ «أين» ـ «من» «سيد قصر الطاووس ؟» ـ ليس الأب ، بل الابن ، كونراد ، الملازم» ـ «ولم لا!» ـ «هذا غير ممكن ، هذا ما لا يمكن أن يكون» ـ «هذا أمر لا معنى له» .

وامتلأت الشرفة الأرضية بالبشر القادمين مهرولين ، مبهوري الأنفاس ، حتى بلغوا القرية . وكانت الخادمات يقفن ساكنات ، باكيات ، في أوائل الصفوف ، وأيديهن المطويات تلقاء وجوههن ، كأنما كنّ يردن حماية عيونهن ، لكيلا يرين الحقيقة المرعبة . «أي شيء هذا!» ـ «أهذا ممكن أيضاً ؟» ـ «ألا ليتني لم يكتب عليَّ أن أشهد هذا أبداً!» ـ «السيد المسكين! البالغ الطيب! الطيب القلب إلى أقصى الحدود! يايسوع ، يايسوع!» ـ «وماذا لو رأى أبوه وأمه هذا الآن!» .

وكانت كاتري ، التي انتحت جانباً عند الجدار ، تحملق في الفراغ شاردة الفكر ، وقد احمّر وجهها وجعلت شفتاها ترتعدان .

«ويلاه ، هذا البائس ، الشقيّ! ـ الطيب الذي هو الأفضل ، والأطيب قلباً في أرض الله! ـ وعلى يد دنيء حقير كهذا!» .

وبينما كانت تتحدث كانت تضرب بقدمها الجدار في غير انقطاع ، وفي عنف متزايد ، وتذمُّر متصاعد ، وكانت أصابعها تحفر في رباط ردائها إلى أن تقطّع .

وكان يقف على مقربة منها ، على الجدار مثلها ، في عزلة عن سائر الجمهور ، أهل ڤالديسهوف متجمّعين ، والرقيب في وسطهم يتحدث بنشاط ، وبإيقاع مكتوم ، وكان المتوافدون كلما أقبلوا همس أحدهم بشيء ما في آذانهم ، ثم تبادلوا نظرات متجهّمة وتصافحوا بقوة كأنما يؤدّون قَسَماً .

وكان ثمة مؤامرة تتكوّن هنا على ما يبدو .

ونشأت حركة ، وانفتح ممر كان يسده المتأسّفون ، والمحذّرون والمُواسون الذين كانوا يقفون في طريق سيد قصر الطاووس ، ويعوقونه ، ويصدّونه بينما كان يقبل مترنّحاً في اندفاعات متقطّعة ، مثل دودة داهمها النمل فهي تجر معها عبء معذّبيها .

وقال بصوت لاهث : «دعوني اذهب إلى ابني! أريد الذهاب إلى ابني» .

وكان يصدر عنه فيما بين ذلك صخب وجلبة يحتجان على الموت مثلما يحتج امرؤٌ على حكم محكمة عليا ، مؤيداً قضيته العادلة ، مؤكداً طبيعته التصالحية .

«ما عدت أرغب في شيء من أجلي! فقد أصبح عنده الآن كل ما يريد!» ولكن حين أبصر الجثمان من خلال البوابة التي كان يشكلّها البشر حول ابنته ، هزّ برأسه مثل ثور ، وقال مزمجراً : «أتُراه لابدّ أن يسبّب لي سوى الهّم دائماً وإلى الأبد!» .

هنالك التفتت نحوه آنّا رويداً رويداً بمحيّاها المترع بالآلام ، والذي يحفل بالوفاء في الحب الذي يتخلّل الحياة والموت مقترناً بجمال عُلْويّ .

وقالت تتغنى بلهجة الصابرة الحليمة ، بينما كان فمها يختلج اختلاجاً رهيباً : «انظر ، ياأبتاه ، هذا هو كونرادُنا الآن» .

وإذا هو ينتزع نفسه بعنف ، ويسير وهو يعرُج ، نحو الجثمان . وهمّ أن يلقي بنفسه ، ولكن مفاصله المتورِّمة خانت إرادته ، فجعل يرقص الآن أمام الجثمان جيئة وذهاباً ، كفيل أطلقت عليه النار . وفجأة يدفع بيده في صدر الطبيب غاضباً ، ويقول بلهجة المُعَرْبِد : «هلاّ أعدته إلى الحياة! هلاّ أعدته إلى الحياة من جديد!» .

وارتسمت على وجه الطبيب ملامح كهنوتية في مواجهته ، وقال بلهجة احتفالية : «الإعادة إلى الحياة عمل لا يدخل ضمن إطار مقدرتنا ، مع الأسف» .

ولكن كاتري ألقت إليهم القول ، من الجدار ، بلهجة قاطعة : «أجل ، لقد فات أوان الإحياء الآن! فلو أنكم استعملتم هذا في إبّانه!» .

وانتفضت آنا متجهة نحو كاتري ، وهي ترميها بنظرة حادة مثل الرمح .

وبينما كان القوم يحاولون عبثاً إبعاد الشيخ من الخلف تحوّل هياجه فجأة إلى نهنهة متوجِّعة وكان قد لاحظ زوجته ، سيدة قصر الطاووس التي أقبلت تتلمس طريقها من جانب القرية وهي تنعطف حول ناصية المنزل بركبتيها المقوّستين وهي تجر قدميها أكثر مما تمشي . وقالت والخوف ينبعث من عينيها الخامدتين : «أهذا صحيح بالفعل ؟» .

وعلى أثر ذلك ، حين أكَّدَت لها الصورة الحقيقة المُفْزِعة ، وهي صورة احتشاد الناس في الموقع ذاته ، الموقع المشؤوم غير المرئي ، وظل الشؤم الذي كان يبعث التجهُّم من هناك في كل طلعة ، تشنَّجت أصابعها في الحجر ، لكيلا تسقط .

وطارت آنا نحوها ، وتحرَّك على أثرها الشيخ بخطى متثاقلة ، وقد سبقه إليها الخدم والجيران الذي كانوا يرثون لحالها .

وسقطت ، ولكن في أذرع ودّية ، وقالت متفجّعة : « كونراد ، لماذا صنعت بي هذا ؟ » .

وتبادل الواقفون من حولها النظرات في تأثُّر ، والتفتت برتا نحو كاتري وهمست إليها قائلة : « إنها تبدو كأنها تعتقد أنه جنى على نفسه بنفسه » .

وأجابت كاتري ، قائلة بمرارة : « إنه الضمير المؤرَّق » .

وقالت هذا بطريقتها المُطْلَقَةِ العنان ، وبصوت عال . ووجهت آنا نحوها النظر مراراً ، وكانت النظرة تنطوي على التهديد هذه المرة .

غير أن الشيخ كان يعتذر ، بخشوع ، في مواجهة أَلَم الأم .

« لقد كنت أتيح له كل ما يطلب ، ولا أستطيع أن أدرك هذا . لم يكن لديه أدنى سبب على الإطلاق . لا بدّ أن طعنة أصابته أثناء الشجار كما يروون » .

وتلقى الطبيب ، والملازم الإطفائي ، إلى جانب الآخرين الذين ساقتهم الصداقة أو العاطفة ، أو مجرد مصادفة القرب ، سيدة قصر الطاووس ، ونقلوها ، مارّين بها بين الدفع والحمل ، على جثمان ابنها الذي غطوه في هذه المناسبة بأجسامهم ، متوجهين نحو باب المنزل ، وكان الوالد يمشي مشية الأعرج وهو ينوح ويبكي ، وراءها ، وكانت آنا تحرس كليهما ، وهي إلى جانبهما ، وكان هذا مثل موكب جنازة .

وقالت سيدة قصر الطاووس متفجعة : « لا بدّ لي من وداعه ، ولا بدّ لي أن ألتمس منه الصفح » .

وصاحت كاتري ، على غير إرادة منها ، تحت وطأة إلحاح الحقيقة : «أجل ، الآن بات لديها سبب للتفجُّع والتنهُّد» .

هنالك انتفضت آنا واندفعت نحوها ، وصاحت في وجهها : «أيتها الإنسانة بلا وجدان والمرأة بلا قلب ، أيتها الأنانية! الأقسى من الحجر ، والحديد ! أنتِ ، أنتِ ، ولا أحد سواكِ ، يحمل وزره! فبدلاً من أن تصدّيه ، حَفَزْتِهِ واستحثَثْتِهِ!» .

وجعلت كاتري تستعرض غريمتها ، بأعصاب باردة ، في نظرة مفعمة بالكراهية .

وردَّت قائلة : «على أنَّ المصيبة في المنزل تظل أفضل من الجريمة» .

وزعقت آنا قائلة ، وقد خرجت عن طورها : «ماذا تقصدين بهذا» .

وردَّت كاتري قائلة بحزم : «أقصد ، إذا كان لا بد لهذا أن يحدث ، فإن حدوثه من قبل يد أجنبية أفضل من...» وهنا تلَجْلَجت .

وقالت آنا تطالبها : «أفضل من ماذا ؟ ، من ماذا ؟» ثم قالت فجأة ، من دون أن تنتظر التكملة : «أخرجي من هنا ، أيتها المنافقة ، أيتها المتآمرة! أيتها المتزلِّفة! أخرجي! أخرجي في هذه الساعة! أنا آمرك ، بصفتي ابنة سيد هذا المنزل ، وبصفتك خادمة : أخرجي من قصر الطاووس ، وفي هذه اللحظة فوراً!» .

وانتصبت كاتري في شموخ ، وقالت : «أنا أحتج بصراحة على طردي من هنا بجلاجل ، مثلما يطرد المرء خادمة خائنة ، مجلَّلة بالعار والشنار ، وكأنني اقترفت سرقة . وليس من الصحيح أنني كنت أنطوي على أي مقصد يرتبط بمنفعة خصوصية ، وما من أحد يحق له أن يسرِّحني قبل نهاية المدة

المحدَّدة بعد أن بذلت أقصى جهدي في استخدامي . وأخيراً فليس لديّ ، من جانبي ، اعتراض على ذلك ، أجل فأنا ذاهبة ، ولكن ليس لأنك تأمرينني بذلك ، لأنك لا يحق لك ذلك ، بل أذهب بمحض إرادتي ، لأنني أشعر بالاشمئزاز من هذا المنزل الموحش ، منزل الكراهية ، والعربدة لأنني أفضّل الخدمة عند الفقراء المتسوِّلين ، في أدنى كوخ من أكواخ القش ، حيث يسود السلام ، على الخدمة هنا ، تحت سقف القرميد الذي يضاهي عربة المدفع ، مع انعدام السلام ، فلتأكلوا أنفسكم من الندم! وليُلْقِ كل منكم بالمسؤولية على الآخر! أما أنا فذاهبة في طريقي . غير أني أقول لكم هذا : إن الذنب ذنبكم ، إنه ذنبكم ، وذنبكم وحدكم ، لا ذنبي . فلولا أن أحداً أعطاه السمّ الذي يرغمه من الداخل على أن يفعل ما فعل لما كان من الممكن أن يناله أحد بأدنى سوء . وأخيراً فقد نزل به ما لم يكن له بدٌّ أن ينزل ، ولو لم يحدث هذا اليوم لحدث غداً أو بعد غد ، ولو لم يحدث بهذه الطريقة لحدث بتلك ، وربما حدث بطريقة أكثر سوءاً .

وعلى أثر ذلك شمخت بأنفها في عناد ، وسارت تتبختر في المنزل نحو حجرة البواب الصغيرة ، ورمت هناك حقيبة النقود الصغيرة ، واعتمرت قبعة القش ، وسوّت وضعها قُبالة المرآة ، وتوجهت للخروج .

ولكن الطباخة ، ليزابيت العجوز الوفيّة ، اعترضت طريقها .

وقالت تذكرّها بصوت جليدي ، وهي تواجهها بقطعة ذهبية ، بأسلوب مُهين قدر الإمكان : «أجرتك» .

وانتفضت كاتري ثائرة في تذمُّر جليّ ، وقد أوشكت أن تصُدّ يدها وتبعدها ، ولكنها ثابت إلى رشدها على الفور وقالت : «لقد استحققت الأجر بالعمل الجدّي ، ولست في حاجة إلى الشعور بالخجل من أَخْذِهِ ، وليس ما

أقبله بالهدية » . ولذلك أخذت القطعة الذهبية ودسَّتها في جيبها ، ثم مشت منتصبة القامة نحو الباب خارجة إلى الشرفة الأرضية .

وحين وصلت إلى الجمهور أعلنت بصوت عال : « إنني أُشْهد الله وضميري على أن القوم يظلمونني ، وأنني لا أستحق هذه المعاملة الشائنة » .

وفي هذه اللحظة كانوا يحملون جثمان كونراد إلى المنزل ، مارّين بها ، وكان الحَمَلة يغطّون جذعه ، وأعرضت ببصرها أيضاً ، على غير إرادة منها وقد غلبها الألم والرِّعْدة ، ولم يكن بأقلَّ من ذلك أن بصرها لمح ، بصورة عابرة ، جزمة الساق اليسرى التي كانت نهايتها المتدلِّية تمسح الأرض . ولاحت لعينيها لدى هذا المنظر صورة أخيها المسكين حين عادوا به إلى المنزل على المحفّة . هنالك انفجر تماسكها الشديد إذ دهمها ألم مزدوج في وقتٍ معاً حتى بات بؤسها البالغ ينقضّ عليها من قلبها في طوفان من الإيقاع كأنه العُواء . وفي غمرة هذا العواء كانت تخطو وسط الجمهور ، في اتجاهها نحو الكَرْم ، حيث كانت حركة المرور أقل ما تكون ازدحاماً ، منتصبة القامة في كبريائها كأنما هي جذع شجرة ، كشأنها دائماً ، من دون أن تلقي إلى أحد بنظرة أو تحية .

وكان الجمهور يفسح لها وقد هزَّه الحدث ، وغلبته مشاعر مختلطة ، مُعْجَباً بها ومروَّعاً في الوقت ذاته ، مشاركاً في مشاعرها ولاعناً لها في وقت معاً . وكان المنظر كأنه محكمة جنايات ، وكان مع ذلك ، مرة أخرى ، مثل امرئ يمشي على طريق مستقيم ، في براءة متفوّقة ، غير متأثر بحكم البشر .

وكانت جوزفين وبرتا تسرعان في أثرها ، وقالت جوزفين تواسيها : «لا ينبغي لك أن تفهمي هذا بهذا المعنى الحرفيّ ، فإنها لم تقصد إلى مثل هذا المعنى » .

وقالت برتا تذكّرها : «لا ينبغي لك أن تضعي مثل هذا المقياس الصارم ، وينبغي لك أن تدخلي في الحسبان ألم الأخت ، إلى حد ما» .

وكان الخادمات الباقيات ينظرن في برود ، نظرة الغريبات .

وكانت كاتري تمضي قُدُماً ، لا تلوي على شيء . وحين وصلت إلى مخزن الحطب باتت في معزل عن الناس . وكانت العزلة باردة ، باردة بلا عزاء ، وبعيدة ، بعيدة بلا نهاية ، وخاوية ، إلى حد يبعث على اليأس ، وكأنها تلاشت في مكان ما من الأبد .

ولقيها عند ساحةِ لعب الكيجل شخصان غامضان متحدان في زوج ، قد عقدا يديهما ، وهامتاهما الجميلتان جمال الأحلام تشرقان بالسعادة والأمل : هي وكونراد . وذابت روحها بين يَدَيْ هذه الصورة حتى حسبت أن الألم الطافح ، الذي لا يُكبَح جماحه يوشك أن يطرحها أرضاً ، على بقعة الأرض المباركة التي زرعا فيها معاً قبل ساعة قصيرة ، شجرة الاتحاد ، عليها بيارقُ وراياتُ صغيرة ينضحْنَ بالمرح . وكانت كأنما تشدها إلى الأرض مائة من أذرع الطبيعة القوية ، لكي تستفرغ ألمها بالبكاء ، هناك على البقعة المباركة ، خاشعة ، مَشوقة ، مفعمة بالحُمّيا . غير أن الكبرياء كان يمسك عليها قامتها المنتصبة ، وكان العناد يدفعها من خلفها . وكانت تخفي وجهها في ذراعها وتبكي في مرفقها .

وقالت وهي تنشج : «وعلى وجه الخصوص في مثل هذه اللحظة ـ حين يحسب المرء ـ حيث تكون السعادة...» .

ثم غابت في الغسق ، على طول الكرم ، في خطوات مسرعة ، متماثلة ، تملأ المساء بِجَرْس عميق جهوري من عويل حزنها . ولكن سرعان ما انبعث من الألم الغضب . وقالت متمرِّدة : «لماذا يأتي القوم ،

ويزورونني ، ويرجون ، ويبتهلون إلى السماء ، لعلي أتفضّل عليهم ؟ لقد كنت في حمام الاستشفاء أحظى برعاية ممتازة . وهناك يبجّلني الناس ويعرفون كيف يقدّرونني . أجل ، كلّما أردت ، وكلّما أعطيت مجرد أدنى إشارة! ـ أيُقال إني متآمرة! ـ متزلّفة! من ؟ أنا ؟ إني لفي غنىً عن اختلاس السيادة ، ولو أردتها لجاءتني محمولة على طبق ، ولكانت فوق ذلك أكثر نُبْلاً من السيادة على «الطاووس» ، ولما كنت أيضاً في حاجة إلى اختطاف رجل . إنهم ليعرضون أنفسهم عليَّ جميعاً! ولكن هل يعد هذا ذنبي ؟ فأنا في الحقيقة لست بتلك التي تجاملهم وتتزلّف إليهم . إنني لا أرغب إلاّ واحداً أحبه وأستطيع أن أحترمه ، وإني لأتمتع بالحق المقدس في ذلك ، شأن كل امرأة أخرى ـ ومن الصحيح أنها تتمتع بالسلطة الكاملة ، والصلاحية القانونية ، والمشروعية ، وتستطيع أن تمنعني من المنزل ، على الرغم ، على الرغم ـ لم يكن هذا ليكلفني سوى كلمة صغيرة ، لكي يقدمني ، على الملأ ، عروساً له ، فقد كانت لديه هذه الرغبة! إذاً لكان في وسعي أن أرى مَنْ كان خليقاً أن يحول بيني وبين مكاني اللائق عند جثمان عريسي! ألاّ يتاح لي حتى مجرد أن أمسّه بعد! ولا أن أطبع قبلة على شفتيه الشاحبتين! ـ الأولى والأخيرة! ـ ومع ذلك فسواء أكنا مخطوبين أم لا ، فهناك حقيقة ، ووفاء . وتظل الكلمة كلمة ، سواء أَتَمَّ النطق بها علانية أم في خلوة بين نفسين ، وحين يتم تبادل كلمتين ذات مرة ، بين اثنين من البشر ذوي الطبيعة المستقيمة ، يسري مفعولهما ، وإن لم تقترنا بخاتم وشهود ، أو قسّ أو قساوسة مدنيين . لقد بذل لي الوعد ، أي أنه بات لي ، بشرفه ، لي وحدي ، إلى أبد الآبدين ، حياً أو ميتاً ، وليس لامرأة أخرى وإن صنعت منه معبوداً بتلك الطريقة المضحكة إلى هذا الحد! أما أنه لم يتعرّف عليّ في اللحظة الأخيرة فإن ذلك لا يثبت شيئاً ، ولا أدنى شيء ، لأن هذا أمر مفهوم

بلا ريب ، فمن كان عليه أن يصارع الموت سيكون لديه من الشواغل ما يكفيه ، وهو لا يستطيع أن يشغل فكره بما يخرج عن ذلك» .

ثم أقبلت دفعة جديدة من التفجُّع ، حتى لقد تأوَّهت متوجعة بصو عال ، ولكن التأوُّه كانت تخالطه أصوات غضب كالنباح . ثم أمسكت عن ذلك فجأة ، ودارت على عقبيها وقد رفعت وجهها نحو قصر «الطاووس» .

«وأخيراً أتراها ، هي ، مخطوبة ؟» ، وأوصدت شفتيها بعنف ، وكتمت كلمة ماكرة مرتين ، وثلاثاً ، وأخيراً لم تتمكن من مغالبة نفسها ، وندَّت عن لسانها عبارة تقول : «لو أن فلانة عرفت أي نوع من النظرات كان طبيب معين يرسلها نحوي» ـ ثم استأنفت رحيلها ـ واختتمت كلامها بقولها : «إني عائدة ببساطة ، إلى حمّام الاستشفاء ، من جديد» .

وفي الأسفل ، في المنحدر الذي انسحب إليه أهل هِرْليسدورف ، وراء الجدران الصخرية العمودية في روبيستال ، كانت تلاحقها ضحكات سخرية وقهقهة ، من الكرم .

ولا ريب أن هؤلاء كانوا هم الفاجنجيون ، لأن العدو وحده هو الذي ينتصر على الألم فتصدَّت لهم على الفور ، وجعل صوتها يهدر ، وذراعاها يروحان ويجيئان كعامل الحصاد ، مثل القس في الكنيسة حين يلقي موعظة التكفير وموعظة يوم الجمعة الحزينة ، على القوم في الكَرْم : قائلة «اللعنة والعار عليكم أيها القتلة المُبْلِسون! وليأخذْ كلاً منكم ضميره بخناقه ، غداً ، في ساعة الاحتضار ، ولْتُلَظِّيكم الجحيم التي لن تفلتوا منها بلا ريب ، حتى تُحْرِق شعركم الخشن وتفوح منه رائحة الحريق ، حتى في هذه الدنيا . ولست أصلي لكي يقتلكم رعد السماء ، لأن برق ربنا عز وجل ، وهو البرق السليم ، النقي ، أطهر كثيراً من أن يليق بغربان قذرة من نوعكم . وذلك أنَّ

البرق سيظل طوال عمره تفوح منه رائحة النتن إذا ماسَّكم! ـ أوَ هؤلاء رجال ؟ أتكون رجالاً تلك الذرية العوجاء التي رُبِّيَت تربية الأنْغال ، والتي ولدت ولادة شائهة ، هؤلاء الخصيان السُقَماء العاجزين الذين لا جرأة عندهم ، ولا قوة ، ولا عضلات ، ولا صوت ؟ ولكن هناك ما يعزّيني ، فلقد رأيت بأم عينيَّ كيف طعنه ، ومعي مائة من الأخرين . إن القوم يعرفونه ، وفي وسعهم أن يُسَمّوه . إنه المدعو ماتّيزن ـ ميشيل من أهل ڤاجنجن الدنيا ، ولا أحد سواه . لقد ضربته بيدي على شدقه في قاعة الرقص ، ولسوف أدس سبابتي في عينيه في قاعة المحكمة ، وأقول : «لقد كنت أنت الفاعل ، وإني لآخذة على نفسي العهد أن استدعيه وأقسم عليه اليمين ، وإذا لم تشأ أسرته أن ترفع الدعوى فسأرفع الدعوى أنا ، وأذهب إلى النيابة العامة ، ولا أتراجع ، وأطالب بالحق ، والعقوبة ، وإذا أبى أرغمته بحكم واجبه ومهنته ، وعن طريق المستشار ، والجريدة ، إلى أن يرضخ» .

وحين مرّت بها الآن ، على سبيل الإنذار قطعة صغيرة من الحصى ، تتراقص وثبت على خطين من حجر البناء في الجدار الصغير ، انتزعت قضيباً من أشجار الكرمة ، ولوّحت به مهدِّدة ، مثلما يهدِّد المرء كلباً . وصاحت قائلة : «أجل ، ما أنا إلا آنسة ضعيفة ، ولكني خليقة أن أتصدّى ، في حالة الضرورة لنصف اثني عشرية من غَوْغائكم» ، ثم رمت القضيب جانباً في لفتة ازدراء بعد أن لبثت هنيهة في وضع المتحدّي ، ثم مضت في طريقها نحو منحدر الخط الحديدي ، باتجاه المحطة .

وكانت خطوات امرئ يجر ساقيه تسرع على أثرها ، وربَّت امرؤٌ على كتفها . وعلى الرغم من الظلام عرفت الوسيط الذي ينتمي إلى الڤاجنجيين من أهل ڤاجنجن العليا .

وقال هامساً : «أنت ، ياكاتري ، أو كما يسمّونك ، تقدّرين المسؤولية أيضاً ، وما يعني أن يحمّل المرء ضميره وِزْرَ قَسَم ؟» .

وأجابت ساخرة : «أجل ، بلا ريب » ، ولم تقصّر خطواتها ، وكان الوسيط يتعلق بثوبها .

« إن لك أيضاً لقلباً يحسّ ، ولن تجلبي مصيبة لا ضرورة لها ، بلا ريب ، على إنسان ربما فعل ذلك صادراً فيه عن مجرد غرور الشباب» ـ وفي الوقت ذاته ترك قطعة كبيرة بيضاء من فئة الخمسة فرنكات يلوح بريقها ، وإذا هي تسدِّد نحوه ضربة بمرفقها في معدته ، جعلت القطعة النقدية تعزف لحناً نشازاً على حجارة الطريق ، فتوقف الوسيط عندها ، ليقتنصها وهو يرسل الشتائم .

وعند معبر المحطة عبرت الحاجز المغلق بلا تردد ، وصاح الحارس يدافع منفعلاً : «أنتِ ياهذه! رويدَك ، رويدَك! فثمة قطار قادم» .

وردَّت باقتضاب وقد باتت فوق القضبان : «لابأس عليك من جانبي» .

وكان جمهور كبير قد تجمّع قبالة المحطة ، في موقف احتفالي ، مثلما يفعل من أجل جنازة ، والناس يتحدثون بصوت مكتوم ، وهم يقشعرّون لذكرى الحدث ، في تعطُّش للأخبارالجديدة . وعلى الرغم من أن «الطاووس» لم يكن يُرى من هنا إلاّ بصورة جزئية وكانت القطعة المرئية ، فوق هذا ، غارقة في الغسق ، فقد كان الناس جميعاً يرفعون أبصارهم نحو الفندق ، واقفين على الطرف الأقصى لقاعة الانتظار ، يتبادلون المعلومات حول العلاقات بين الأماكن التي حدث فيها الحادث . وأثار وصول كاتري همساً ، وبينما كانت كل الأنظار تتوجّه نحوها ، أفسح القوم لها مكاناً ، في تقدير وإجلال .

ورفع عضو مجلس الإدارة قبعته في تحية مهذَّبة ، وتجرأ على السؤال ، مُدارِياً : «أصحيح هذا بالفعل ؟» .

وصاحت كاتري وهي ترفع صوتها : «الصحيح أن أفضل الناس ينهزمون في هذا العالم ، وأن أسوأهم يتبوأ مكان الصدارة» .

وأمسكت صاحبة المقصف ، بذراعها ، قائلة : «ألا تفضّلين أن تخرجي من الزحام هنيهة إلى أن يأتي قطارك ؟ فسوف يستغرق ذلك ربع ساعة أو أكثر بعد» .

واستدرك عضو مجلس الإدارة قائلاً بلهجة المتلطِّف : «ثم إن القطار رقم /١٢/ متأخر فوق هذا بمقدار اثنتين وعشرين دقيقة» .

وقالت صاحبة المقصف في إلحاح : «تعالي ، واقعدي قليلاً ، فأنتِ في حاجة إلى الراحة» .

وإذا هي تدعها تبتعد بها ، عبر الشارع لتدخل الحديقة الصغيرة ، فالخميلة . وقالت صاحبة المقصف تدعوها بلهجة مُواسية : «هنا ستكونين في مأمن من الإزعاج تماماً» وقالت في لهجة المعتذر : «لابدّ لك ، بالطبع ، من الرضى الكامل ، التام ، بالقضاء والقدر ، والأمور عندنا باعثة على الفزع في كل شيء ، إلى حد بعيد ، ببساطة ، بالقياس إليك في حمام الاستشفاء النبيلة» .

ولكن كاتري دُهِشَت ، وشمخت بأنفها . كانت صورة امرأة غير محترمة ، في ثوب مهلهل ملفَّق ، ذات شعر غير ممشَّط ، تجثو في الداخل على ركبتيها ، وقد وضعت ذراعيها على المقعد الطويل ، وأخفت رأسها الأشعث بين ذراعيها ، وهي تنشج ، وكأنها ضيَّعت سعادة الخلد . وكانت

صاحبة المقصف تَلْكِزُ ، وتهزُّ ، وتَرُجُّ الراقدة يميناً وشمالاً ، وتطأها مستدركة أيضاً بقدمها ، وتعنِّفها بقولها بغيظ : «ياجوكوندا ، أما آن لك أن تفيقي أخيراً ، فإنك لن تبعثي فيه الحياة من جديد بسلوكك الأحمق» .

وكانت جوكوندا تتركها تهزُّها حتى يترجرج جذعها جيئة وذهاباً ، ولم تكن تصدر عنها مع ذلك علامة أخرى من علامات الحياة سوى أن نشيجها كان يتحوّل إلى صراخ مفعم بالألم .

ولما تبيَّن لصاحبة المقصف عجزُها وإعياؤها أمسكت عن المزيد من المحاولات .

وقال ترجوها وهي تتنهد : «لا ينبغي لك أن تكترثي بذلك ، فإن هذه جوكوندا ، على اسم الله ، ولا سبيل لها غير ذلك ، وأن البهيمة التي لا عقل لها لتنطوي على عقل أكثر من عقلها» .

هنالك استقرت كاتري على النهاية القصوى من المقعد الطويل وهي تلقي نظرة إلى جوكوندا تنطوي على سوء الظن ، وكأنها تخشى أن تلوّث عينيها بمرآها .

وقالت صاحبة المقصف تجاملها : «هل تأذني لي أن أقدم لك قدحاً صغيراً من الخمر ؟» .

«كلاّ ، شكراً» .

«أو شمعة ، مثلاً ؟ فالليل يخيّم على نحو ملحوظ» .

وأجابت كاتري بالنفي .

غير أن صاحبة المقصف لبثت في مكانها معقودة الذراعين ، صامتة ، لا يصدر عنها سوى تنهُّدة من حين إلى آخر .

وقالت في أنين : «هذا يوم أحد مشؤوم ، ولسوف يظل الناس يتحدثون عنه سنين طوالاً ، لا في هيرليسدورف وحدها ، بل في المنطقة بأسرها» .

ثم أخذت في تقصيّ الأمور : «كيف حدث هذا في الحقيقة ؟» وقالت هذا بجسارة وبصوت مكتوم ينمّ عن الألفة .

وردت كاتري بخشونة : «سوف يتبيَّن هذا أمام المحكمة!» وكانت تقصد إلى قطع الطريق على الجرأة على طرح الأسئلة .

وكانت صاحبة المقصف تحك جلدها لكسب الوقت . ثم أضافت إلى ذلك قولها : «تُرى ماذا قال أبوه ، سيد «الطاووس» الشيخ ، في ذلك ؟ وسيدة «الطاووس» أولاً! وهي التي ترى كل شيء بمنظار أسود على أية حال ؟ وأخته ، آنا الجميلة ، التي لم تكن تقسم قسماً أعلى من قَسَمِها بكونراد ، أخيها! ـ وسيكون هذا الآن ، بلا ريب في الميدان الواسع ، سيكون الحال كذلك مع الدكتور إندر ڤيلر ، وخطبته .

ولمّا لم تعضّ كاتري على أيٍّ من هذه الصنارات ، فقد التفتت إلى الوراء قليلاً ، وكأنها تهمّ بالابتعاد عنها ، غير أنها لم تحتمل مفارقة هذا المركز المفعم بالمعلومات ، وحين أخذ الصغير كونراد ، الصبيّ يمشي متأرجحاً كالنواس على ساقين غير مطمئنتين ، في الحديقة الصغيرة دعته إلى ذراعها ، وأشارت إلى قصر الطاووس ، قائلة في أسى : «فكِّرْ ، أيها الصبيّ الصغير ، في الفارس الجميل الذي وثب ظهر اليوم فوق الحاجز الخشبي ـ أما زلت تعرفه ؟ ـ لقد أصبح اليوم في عداد الموتى» .

وعند هذه الكلمات صرخت جوكوندا بأعلى الأصوات ، مثل ولد الخنزير حين تذبحه الطّباخة ، بينما كانت كاتري ترميها بنظرة عدائية تثقب

قفاها ، غير أن الصبيّ الصغير انتفض على ذراعها ، وصاح بصوته الطفولي : «هوْ ، هوْ» .

وأخيراً انسحبت صاحبة المقصف ، وإن كان ذلك على مضض ، وقالت : «سأعود من بعدُ لأذكِّرك عندما يدخل قطارك المحطة» .

ولم تكد جوكوندا تحسّ بأنها مع كاتري وحدهما حتى مدَّت يدها بأصابعها المتباعدة ، من دون أن ترفع رأسها ، تلتمس ذراع كاتري الذي ضغطت عليه ضغط المتشنِّج ، وكانت تفعل ذلك مثلما دأب الأقرباء على فعله عند جثمان قريب من ذويهم ، إظهاراً للألم المشترك عندما تعجز الكلمات ، غير أن أصابع جوكوندا كانت مبلَّلة من جراء المخاط والدموع ، فتخلصت منها كاتري في امتعاض ، ونهضت قائمة ، وقالت في تذمُّر وهي تمسح تلك المواضع التي لوَّثتها أصابع جوكوندا بمنديل جيبها : «أنا لا أقبل أمثال هذه التصرُّفات!» .

ثم عادت إلى القعود وهي تزداد ابتعاداً لتصل إلى أقصى حافة للمقعد الطويل حتى ما عادت تستقر إلا على فخذها الأيسر . ولكنها قالت معلِّقةً ، لكي تتَّقي أمثال مظاهر رفع الكلفة هذه ، بصرامة ، وبتوكيد شديد : «أنا لا أحب أشكال التطفُّل من جانب الغرباء» .

ولم تحمِلْ جوكوندا ذلك الإبعاد المُكَدِّر ، منها على محمل السوء ، بل قالت تعبر عن إعجابها بها بلهجة تنمّ عن الاستكانة المنطوية على التبجيل الأقصى : «إذاً فقد كان يحبُّك» .

وقالت كاتري بلهجة الآمرة المسيطرة : «هذا أمر لا يعنيك!» .

وتركت جوكوندا رأسها يسقط من جديد على ذراعها .

وقالت تروي في غمرة البكاء الذي يقطِّع نياط القلوب : « هناك ، إلى تلك المائدة جلس » . ثم كشفت عن يدها المجروحة ، غير أنها لم تكن على استعداد لكي تضيف إلى ذلك الشرح ، من فرط الدموع .

وقالت تنشج : « أوّاه ، ياليتني لم أدعه يخرج! لماذا كنت على هذا القدر من البرود! وعلى هذا القدر من التورُّع! والتحفُّظ! ولماذا لم أجْرِ وراءه ، وألحق به ، وأرمي بنفسي في طريقة ، وأتمسك به من ركبتيه متشبثة! إذاً لكان الآن هنا في الحديقة ، حيّاً ، ينعم بالصحة والعافية - ومن دون وداع ، ولا تحية! أوّاه! - وصدمت رأسها بذراعيها . ودار على عقبيه لينظر إليّ بعدُ ، ولم أظهر له! أوّاه! » وجعلت تشدُّ شعرها ، وتصنع صنيع المجانين .

وما عادت تنطق بشيء منذ الآن فصاعداً ، بل طفقت تبكي على الدوام . وكان يبدو أن من غير الممكن أن يبكي مخلوق بكاءً أدعى إلى الرثاء منها . ومع ذلك فعندما كانت توجه نظرتها المذهولة ، من حين إلى آخر ، نحو دار « الطاووس » التي كانت جدرانه البيض ما تزال تلتمع من خلال الغسق المتأخر ، كانت تنفجر ، المرة بعد المرة ، دفقات جديدة من ألمها حتى لقد كانت الدموع وأشكال النشيج يتضاعفن فجأة . وكانت أصابعها العريضة الغليظة ما تفتأ تنزع ، المرة بعد الأخرى ، إلى ذراع كاتري ، مثل حيوان صغير مبتور يمدُّ بقية عضوه المبتور ، ولكنه يعود فيسحبه من جديد ، على خوف ، لأنه أدرك أن ثمة ما يسبب الألم هناك ، في الخارج .

وأقبلت صاحبة المقصف مسرعة وعليها سيماء الأهمية ، وأعلنت إليها بأنفاس مبهورة ، قائلة : « هل سمعت بهذا ؟ لقد اشتبكوا مرة أخرى ،

الڤاجنجيون وأهل ڤالديسهوف ، وراء أشجار الكرامة ، عند الجدران الصخرية العمودية . ويقال إن أهل ڤالديسهوف دخلوا الغابة وقطعوا الطريق عليهم ، وأنهم عاثوا في الأرض فساداً بطريقة بعيدة كل البعد عن التعقُّل ، هؤلاء ، أهل ڤالديسهوف ، كالحيوانات المتوحشة ، لا كالبشر ، ولا سيما كريستيان ، الرقيب . ولا ريب أن هذا لا يصح حقاً ، فهؤلاء أيضاً بشر في نهاية الأمر ، أعني الڤاجنجيين ، وإن كانوا مولعين بالمرح والمجون . إنهم على أية حال شباب . ونحن على الأقل لم نجد ما نشكوه منهم أبداً كلما عرَّجوا علينا ـ ويقال إن نفراً منهم ظلوا راقدين في الكرم ، وقد أعادوا وسيط أهل ڤاجنجن العليا في العربة ، أما ذلك المدعو ماتيزن ـ ميشيل فقد اضطر القوم إلى حمله إلى هرليسدورف ومن الصعب أن يتماثل للشفاء من بعدها » .

وعلقت كاتري بقولها : « هذا حق ، وإنه ليسرُّني » .

هنالك ارتعد الهواء وارتَجَّت الأرض ، ودَنْدَنَت إشارات كهربائية ، وأقبلت تدرج خلال الظلام ، في غمرة الصفير والهدير ، كتلة سوداء لا شكل لها ، ذات عينين حمراوين ، وتنامت فجأة إلى أبعاد عملاقيّة ، وكأنها تصعد من بطن الأرض .

وقالت صاحبة المقصف تذكُّرها : « ها هو ذا قطارك الآن » . وانطلقت كاتري مسرعة وهي تَرْجِع إليها كلمة شكر وجيزة .

وقالت جوكوندا متفجّعة : « إذاً فأنتِ أيضاً تريدين أن تفارقيني! وبذلك لا يعود لديَّ أحد في العالم كله يفهمني قليلاً ، ويواسيني بعض المواساة! » .

وفي اللحظة التي كانت كاتري تسرع فيها عبر الشارع كانت تُقْبل عربة ذات مقاعد مظلَّلة بخفة ورشاقة ، على عجلات هادئة ، تقرع أجراسها ، وفيها حصان صغير يخطو خطوات قصيرة .

وناداها بينيدكت ، هانئ البال : «أما زال كونراد في المقصف ، أم عاد إلى البيت ؟» .

ولم تنتظر أثناء ذلك ، لكي تردّ بجواب ، بل أدركت المحطة حيث كان القطار قد أحكم كوابحه لتوه .

ولم تكد العجلات تهدأ تماماً حتى جعلت صيحات منفعلة تتطاير هنا وهناك .

«هل عرفتم ؟» - «ماذا ؟» - «أين ؟» - «متى ؟» - «مستحيل!» .

ولكن عضو مجلس الإدارة قال بصوت عاصف : «ليس لدينا الآن وقت من أجل الأخبار المتنوعة ، فالقطار متأخر أكثر من نصف ساعة . فليخرج من يريد الخروج ، وليدخل من ينبغي أن يدخل!» وكان فوق ذلك يفرط في قرع جرس المحطة ، كالمخبول .

وتلا ذلك اختلاط فوضوي من أناس عاصفين يموج بعضهم ببعض ، ذات اليمين وذات الشمال .

وقالت كاتري : «الدرجة الثالثة» .

وقال الجابي يحوّلها ، بخشونة : «الصعود إلى الدرجة الثالثة من الوراء ، ولكن بأسرع من هذا قليلاً!» .

وقالت تكرر حين وصلت بأنفاس متهدّجة ، إلى الوراء : «الدرجة الثالثة» .

وقال الجابي يزمجر صارخاً في وجهها : «الصعود إلى الدرجة الثالثة من الأمام» .

وصاحت كاتري في انفعال : «حظيرة الخنازير يسودها من النظام وحسن السلوك أكثر مما يوجد منهما هنا» .

وعلى أثر ذلك نشب نزاع بالشتائم بين كلا الجابيَيْن بينما كانت كاتري تطلب سائق القطار بلهجة آمرة .

وأسرع عضو مجلس الإدارة إليها وقد خرج عن صوابه من جراء التأخير ، وحين عرف كاتري حيّاها متلطِّفاً ، وأوصلها بنفسه إلى قسم من أقسام الدرجة الأولى .

وقال بصوت كالصرير : «انتهينا ، فلننطلق!» .

وقالت صفارة سائق القطار مؤكدة : «هوهْ!» .

وفي دَغْسَة جبارة تحرك القطار الثقيل يواكبه صرير الجنادب وبريق النجوم ، ماراً بليِيستي مروراً قاسياً ، إذ كانت هذه تدفع مناخيرها فوق الحاجز الخشبي نافذة الصبر ، وبالمقصف حيث كانت جوكوندا تواصل نواحها الذي لا عزاء فيه ، والذي كان يتردد مرتعداً عبر الليل المدلهم ـ نحو حمام الاستشفاء .

ايماغو

أو الصورة المبجَّلة

عودة القاضي إلى موطنه

«ترَّيثوا في الخروج! ترَّيثوا إلى أن يتوقَّف القطار!» ـ «عتّال من فضلك ؟ عتّال ؟» هكذا ، فهذا إذاً هو الموطن الذي كان قلب المرء يتوق إليه حتى ليكاد يخرج من جسده! أما الدَّرَكيّ الذي يتسكَّع هناك في القاعة فما كان المرء ليتوسَّم ذلك فيه ، بل إني لأعتقد أنه يتثاءب ، الموطن والتثاؤب!

«هل يوجد معك قطع أمتعة كبيرة بعد ؟» .

إنه ميدان محطة مثل الميادين الأخرى . منازل جامدة ، قاسية ، كئيبة ، مثلما هي في كل مكان ، ولا شيء من البريق الأرجوانيّ ، والتماع الذهب . أوَ كانت الحواري من قبلُ في الحقيقة أيضاً خاوية يخُبُّ فيها الهواء إلى هذا الحد ؟ أُفٍّ لهذه السحائب من الغبار! ويالها من ريح باردة كالجليد ، في مستهل أيلول! وعلى كل حال فأنت ، يافيكتور في مأمن من شيء واحد ، في هذه الحالة من الصحو الحجري : ألا وهو غوايات الحب ، أجل ، فليس عليك من خطر في هذا الصدد!

غير أن العتال المفتقر إلى اللباقة ، لم يكن يدع ، بثرثرته المتطفّلة ، مجالاً للتفكير . وقال فيكتور ملتمساً : «هل تتفضل بإسداء معروف كبير إليّ ؟ إذاً فلتمض ببطء ، ببطء من فضلك ، ولكن ببطء حقيقي ، حول هذا السهم ، وعليك بتعداد الخطوات بدقة ـ كم خطوة ؟ ست ؟ لا بأس ، شكراً ، والآن ، إذا كنت موافقاً ، مضينا في طريقنا » . وإذا الرجل الضئيل يسقط فكه الأسفل من فرط الذهول ، حتى إنه ما عاد ينبس ببنت شفة في الطريق كله .

ولم يكد فيكتور يصل إلى الفندق حتى طلب كتاب العناوين . ما عسى أن يكون في الوقت الحاضر اسم تلك العديمة الوفاء ، أي اسمها بعد الزواج ؟ ڤيس ، فيما أعتقد ، السيدة زوجة المدير ڤيس ، ولكن مدير ماذا ؟ فهناك مدراء للخط الحديدي ، أو للمصرف ، أو الغاز ، أو الاسمنت ، أو المطاط ، أو كل المدراء الممكنين وغير الممكنين . لا بأس ، فسوف نقرأ هذا كله على الفور . صحيح ، ها هي ذي ، مختفية بالطبع ، في حذر ، وراء زوجها ، الدكتور ترويجوت ڤيس ، الأستاذ ، مدير المتحف البلدي ومدرسة الفن ، وعضو مجلس إدارة دار الكتب الإقليمية ، وعضو لجنة دار الأيتام ، جادة منستر ، ٦ .

يالهذه الحكمة ، ما أكثرها! ويا لها من كومة طافحة بالمراتب! لقد كان مدير المصرف على وجه الخصوص خليقاً أن يكون أحبَّ إليّ تقريباً ، والحق أنه يظل على أية حال سيداً ذا ثقافة عالية . وعلى الرغم من ذلك ـ ولست أدري لماذا ، فهو ليس ذنبي ـ فأنا لا أستطيع أن أتصور أمير السلام الزوجيّ هذا في صورة أخرى سوى أنه امرؤٌ غيرذي شأن ، وليس له سمعة ، وأنه يفتقر إلى شيء من البراعة والحيلة ، ولا أريد أن أقول على وجه الخصوص إنه مضحك .

إذاً غداً ، قبل الظهر ، في جادة منستر ، في الساعة السادسة . أليس كذلك ، أيتها السيدة الجميلة . أوَ لا تنبئك أيضاً إصبعك الصغرى ، أن قاضيك يقترب في الغد ؟

وفي الصباح التالي ، وفي ساعة الزيارة ، كان في طريقه إلى جادة منستر .

كيف ستصمد لرؤيتي ، يا تُرى ؟ ثمة أمران ممكنان . فإما أن يعتريها الشحوب وتفقد تماسكها وتخرج من الغرفة ، أو تحمَر خجلاً ، وتتماسك ، وتعاندني ، وتنظر في وجهي بجسارة . وفي هذه الحالة سوف أشحن نظرتي بالذكرى وأرغمها على أن تغضّ طرفها في مواجهتي . ثم ألتفت إليه ، إلى فريدريش ، قائلاً : «سيدي الموقَّر ، إن التمثيلية الإيمائية الحافلة بالألغاز ، والتي عرضناها لتوِّنا أمام عينيك المندهشتين ، أنا وزوجتك ، تحتاج إلى تفسير . ومن البدهي أنني على استعداد لتقديمه إليك ، غير أني أرى ، أن ما هو أكثر مروءة أن أدع الكلمة لزوجتك ، ذلك لأنني لا أريد ، على الرغم من كوني دائناً لها ، أن ألعب دور المُدَّعي عليها . وعلى هذا ففي وسعك أن تدعها تقصّ عليك لماذا أُعَدّ أنا المالك الشرعي لزوجتك ، وأنت ، يا سيدي ، مجرد الممثل والوكيل الأمين ، بسبب إذني . ولْتَنْفُض عن نفسك في هذه الأثناء كل الهموم ، وبعد أن اعترفتُ بك ، وأنا صامت ، وكيلاً زوجياً لي ، أصبحت أشعر أنني نهضت بالعبء الذي يفرضه واجب اللياقة الذي يقتضي ألاّ أكدِّر صفو زواجك ، وسلامك ، وسعادتك ، بطريقة من الطرق ، فدارك مقدسة عندي ، وواجبي الواضح هو أن أوجّه التحية ، وأتوارى ، وسوف تتعلم ، من خلالي ، ياسيدي المدير ، تقدير فضيلة التواري . أما الكيفية التي عبرت بها عتبة دارك أول مرة وآخر مرة ، ومتى

ظهرت اليوم ، فقد حدث ذلك لمجرد أن أعبِّر لزوجتك السيدة الموقرة ، من كل قلبي ، عن قلة احترامي وتقديري لها . فهناك يكمن الاعتراف بالذنب ، وهو الاعتراف المتحوِّل إلى جسد . وهذا يكفيني ، وإذا كان هذا لا يكفيك أقمتُ هنا أو هناك ، وكنتُ تحت تصرفك في كل وقت ، من الصباح إلى المساء » . هكذا ، على وجه التقريب ، سيكون حديثي إليه . ـ رقم المنزل أربعة عشر ، وها أنذا أنتقل إلى الأفكار ، وفي اتجاه الإياب : الرقم اثنا عشر ، عشرة ، والآن يدنو المنزل ، ثمانية ، إذاً فهو المنزل التالي . إنه منزل لا بأس به ، هذا المنزل الصغير . لكم هو مريح بستائره الموشّاة بالدانتيل ، وخارجة البناء البالغة البروز . من عساه يرى ، من الخارج ، مايخفيه من مكر وزَيْف ؟ ثمة طائر كُنار يُسْمَع هنا أيضاً ، وضحك أطفال . طفل ؟ وكيف يتهّيأ أن يدخل هنا طفل ؟ أتراني أخطأت في رقم المنزل ؟ كلاّ ، بل الرقم ستة رقم صحيح . ثم إن من الممكن أن يقطن المنزل الواحد عدد من الأسر .

وحين قرأ على الباب اسم ڤيس بدأت نبضات قلبه في سباق الخبب على نحو مفاجئ كل المفاجأة . وقال بلجهة آمرة : «الهدوء الهدوء ، هناك في الداخل ، إنما يليق الخوف وضيق الصدر بها ، لا بي ، أنا القاضي! » ، وسحب حبل الجرس ، وأسرع يرتقي درجات السلالم ، وهو يتخطى بعض الدرجات .

وقالت الخادم وقد ارتسمت عليها ملامح حلوة ، بصوت كالقيثارة : « من المؤسف أن السيد المدير وزوجته قد خرجا » .

هنالك انبعث تأفُّفه في صوت كالصرير ، إذ كان مستعداً لكل استقبال سوى ألاّ يُستقبَل على الإطلاق . ولم يكن يطيق على الإطلاق ألاّ يكون من

أراد زيارته موجوداً في المنزل . «خرجا!» . فهي تخرج إذاً في وضح النهارالساطع مع ذلك الرجل ؟ وهي تتمتع بالطبع بالحق في هذا . ولكن لا يوجد هناك مجرد الحق وحده ، بل يوجد أيضاً خجل . «ها هي ذي بطاقتي ، وسوف أعود في الثالثة بعد الظهر» .

وقالت الخادم بجرأة : «من الصعب أن تكون السيدة زوجة المدير بعد ظهر اليوم في البيت» . وقال بلهجة الأمر : «ستكون في البيت!» ، ودار على عقبيه ، وخرج . يا لها من شخصية خبيثة ، هذه الخادم! وما أشدّ السم الذي تؤكد به كلمة «السيدة زوجة المدير» ، بأسلوب يكاد يكون تهكمُياً . ولقيه على السلّم ساعي البريد ، وقال يتجه بصوت إلى الأعلى : «بطاقة بريدية إلى السيدة زوجة المدير» . وهذا أيضاً! شعب جبان! عبيد الوقائع! ولو أنني تزوجتها لسمّوْها اليوم ، على ما يبدو ، باسمي .

وفي الشارع أخرج ساعته : «الحادية عشرة والنصف» الوقت ما زال يكفي ، في حالة الحاجة ، على وجه الخصوص ، للذهاب إلى السيدة شتاينباخ قبل وقت الغداء . والطريق بعيد إلى حد ما ، من جادة منستر ، إلى روزنتال ، ولكن عندما يتخفّف المرء من بعض ثيابه...» ـ وكانت الحديقة الصغيرة الكئيبة تضيء في ذاكرته بما فيها من أزهار النجمة . ومضى في طريقه بهمة ونشاط ، يبتسم في سعادة من جراء تصوُّره رؤية الصديقة من جديد . وكانت الرغبة تزداد تسارعاً مع الزمن . ومع ذلك فقد تولته الدهشة أمام باب الحديقة الصغير ، وقال : «من المحتمل ، بالطبع ، ألاّ تكون في البيت ، لأن هذا إذا بدأ ذات مرة سرى مثل وباء» .

ومع ذلك فلم يكن الأمر كذلك! وياللعجب! فقد تردَّدت صيحة سرور من النافذة في الأعلى ، وأقبلت نحوه مسرعة ، يشرق وجهها بالبشرِ ، نازلة على

الدرج ، ولم يبق إلاّ القليل لكي يعانق كلٌّ منهما الآخر . وكانت تجره معها من كلتا يديه ، قائلة : «أأنت هو بالفعل أيضاً ؟ ـ والآن فلتقعد ولتحدثني! قبل كل شيء ، أيها الصديق العزيز ، كيف تسير أحوالك ؟» .

«وأنىّ لي أن أعرف هذا ؟» .

وضحكت بصوت عال من فرط السرور وهي تقول : «من هذا أعرفك من جديد! فلتتكلم ، ولتتحدث ، مهما يكن حديثك! فالمهم أن يسمع المرء صوتك! ولكي يعلم المرء علم اليقين تماماً أنك أنت بدمك ولحمك ، لا مجرد أسطورة جميلة ، مثلاً ، ذلك لأن الخيال والواقع يتداخلان عندك بطريقة لا يعجب المرء معها إذا تواريت من جديد فجأة أمام العيون» .

وقال ممازحاً : «لقد خرج خطّ الأفكار قليلاً عن مساره ، ولم يكن ينسجم انسجاماً خالياً من أية شائبة . فهل تأمرين آخر الأمر أن أدور على عَقِبيَّ لأتيح لك أن تتأكدي من وجودي بلحمي ودمي ؟» .

«كلاّ ، بل أوثِر أن تصافحني مرة أخرى ـ هكذا! الآن أمسك بك على نحو مُحْكَم ـ كلاّ ، بل هي هذه المفاجأة! متى وصلت في الحقيقة ؟» .

«مساء الأمس ـ ولكن هل تعلمين أيضاً أنك كلما تقدَّمت بك الأيام زادتك شباباً وجمالاً ؟ و ـ بالطبع ، هذا ما لا ينقصك ، فأنت ترفلين دائماً في أكثر الأثواب تميُّزاً بالذوق البالغ الإرهاف!» .

«كلاّ ، كلاّ ، دَعْ عنك هذا! فأنا أرملة عجوز في الثالثة والثلاثين! وأنت ـ أكثر قوة ورجولة إلى حد ما ، كما يبدو لي ، مما كنتَ عليه قبل أربعة أعوام . كيف ينبغي لي أن أقول ـ أكثر ثقة واطمئناناً ، وجرأة!» .

«بل أنا ماجن مغرور ، ومغامر ، مولع بالهجوم!» .

«فلتبق هذه الخصال على ما هي عليه . وعندئذ يحق للمرء أن يتوقع من جانبك ، عما قريب ، شيئاً عظيماً ، جميلاً ؟ وأنت تعلم كيف اعتدُ بذلك» .

وتنهَّد وهو يقول في نفسه متفكِّراً مهموماً : «أمّا هذا ففيه ما يبعث على العجب كل العجب» .

وضحكت قائلة : «ومهما يبدُ على وجهك من الهمّ والقلق فأنا لا أرثي لحالك ، ولا بأدنى مقدار . إنما هي آلام الاكتمال وهموم النصر!» .

وإذا ناقوس الدير المقابل يطنّ بنشيده العميق في ساعة الظهيرة وقالت تجامله وهي تنهض : «أتدري شيئاً . هل تأتي بعد ظهر هذا اليوم إلى فنجان من الشاي ، وحدنا تماماً ؟» .

وهمَّ أن يوافق بسرور ، وإذا هو يتذكّر ، وقال آسفاً وقد تكدَّر مزاجه : «أنا ملتزم في مكان آخر ، مع الأسف» .

«ويحك ، انظر! أنت لم تصل إلاّ مساء الأمس ، وقد أنفقت يومك هذا ؟ وفي هذا الصدد لا أريد أن ألحّ على أسرارك» .

واعترف على مضض ، ومع ذلك فقد كان يفعل من أجل ذلك على وجه الخصوص لأنه لم يكن يبيح لنفسه تصرفات تنطوي على الجبن ، وقال : «ليس سرّاً على أحد ، فضلاً عن أن يكون سرّاً عليكِ . وذلك أنني أبلغت عن زيارتي في الساعة الثالثة بعد الظهر للمدير ڤيس» .

ونظرت إليه في استغراب ، وقالت : «أي شيء على الإطلاق فقدتَه في معبد الفضيلة الديمقراطي ؟ أتراك تعرف السيد المدير ؟» .

«لا أعرفه هو ، بل أعرفها» .

وتبدّل الآن وجهها واتخذ تعبيراً بارداً ، وقالت وهي معرضة عنه :

«أعرف ، أعرف ، لقد لقيتها قبل أربع سنوات مرة ، لقاءً عابراً ، في مربع للاستشفاء ، يوماً أو يومين على ما أعتقد» .

وصاح متذمراً : «لقاءً عابراً! ، عابراً ؟ أهذا ما تقولينه أنتِ التي تعرف هذا على وجه أفضل ؟ يوماً أو يومين ؟ وماذا يعني قولنا : [يومين ؟] . وهل يقيس المرء قيمة الحياة بالتقويم ؟ إني لأحسب أن هناك ساعات لها من الوزن أكثر مما يكون لثلاثين عاماً في الزمن المعتاد ، ساعات تعيش أبداً ، وعلى نحو أكيد ، مثل أي عمل فني ، بل أوكد من ذلك ، لأن الفنان الذي أبدعها هو روح القدس المُوَكَّل بالجمال!» .

«الأمر الذي لا يحميها ، مع الأسف ، من التلاشي ، والنسيان» .

«أنا لا أعرف نسياناً ، ولا أطيق مُضيّاً أو انصراماً» .

«أنت لا تطيق ذلك ، بما تنطوي عليه من خيال ، أما الآخرون فيطيقونه ، وأقصد بذلك ، عندما يرضي الحاضر كل رغائبهم . أتعتقد بالفعل أن السيدة ڤيس تنتظر زيارتك أو أنها خليقة أن تفتقدها على وجه الخصوص إذا لم تحظَ بها ؟» .

«لا أعتقد هذا ، بلا ريب ، على أنني لا أقصد بزيارتي أيضاً ، بحال من الأحوال ، إلى سرورها» .

وأخلدت السيدة شتاينباخ هنيهة إلى الصمت ، ثم قالت كالمتحدثة إلى نفسها ، ولكن بصوت عال ، وبلهجة التوكيد : «إن الجميلة تويْدا نويْكوم هي الآن امرأة ناجحة في زواجها ، معتزلة للعالم ، راضية بزواجها السعيد . وثمة زوج مثقف ، حسن السمعة جدير بالاحترام والتقدير ، تحبه وهو أيضاً يستحق حبها ، وطفل فاتن (ملاك حقيقي في صورة صبي ، هذا ما أقوله لك ،

عنيد ، جسور ، له خصلات من الشعر الأسود ، مثل أمه ، بل لقد أخذ يتكلم ـ أجل ، فليظهر على وجهك مايعدِل هز الكتف على سبيل الاستخفاف ، فقد يكون هذا مسألة ثانوية بالقياس إليك ، غير أنه ليس كذلك بالقياس إلى الأم!) ـ ويضاف إلى ذلك بركة واسعة من رهط الأصدقاء وذوي القربى تسبح سعادتها في محيطهم ، وفي طليعة هؤلاء أخوها كورت ، النابغة ، والعبقري الكبير ، ومعبودها » . وهنا قاطعت نفسها ، وابتسمت لنفسها قليلاً . وقالت : « وأخيراً فقد خطر ببالي الآن أنها غير موجودة اليوم بعد الظهر في البيت على الإطلاق ، إذ إنها تقوم بجولة في الريف مع اتحاد المطربين » .

« استميح عفوك ، فسوف تكون في البيت! » .

« يا للعجب! إذا كنت تعرف هذا بهذا القدر من اليقين فأنا أسلِّم لك بذلك ، بالطبع » . ثم قالت فجأة ، وهي تنظر إليه نظرة الجد : « أيها الصديق العزيز ، قل لي بصدق ، ماذا تبتغي من زوجة المدير ڤيس ؟ » .

وقاطعها متأففاً : « لا شيء! » .

« هذا ما يجعل للمسألة وجهاً أفضل ، وإلاّ لواجهتك خيبة أمل تجرح الإحساس ـ إذاً إلى مرة قادمة . كلما أردت . أمّا عندي فأنت تعلم أنك موضع الترحيب في كل يوم ، وفي كل ساعة » ـ وقالت وهي تصحبه إلى الباب مرة أخرى بلهجة التوكيد : « الجميلة تويْدا هي الآن امرأة ناجحة في زواجها راضية به » .

لكم كانت الطريقة التي كرَّرت بها القول المأثور عن النجاح في الزواج والقناعة به لافتة للنظر! أتُراها تعتقد ، مثلاً... ؟ كلاّ ، ياعزيزتي الغالية ، فإن زوج إيماغو ، الصورة المبجَّلة العليا في مَأْمَن من السيدة المدعوة بزوجة المدير ڤيس ـ إذاً فقد أصبحت هذه الآن أحدث رياضاتها : أن تنجب

الأطفال ؟ أرجوك ، ياسيدتي الموقرة ، لا تسمحي لشيء أن يكدِّر صفوك ، ولتنجبي مثنى ، وثلاث ، ولا بأس عندي في أن تنجبي اثني عشريّات ، ولتتصرفي كما لو لم أكن حاضراً هنا ـ ولكن رويدك ، لكي أجيب ، فأنا لم أكن أبتغي شيئاً منها ، ولم أكن دقيق التعبير ، ولا بدّ لنا أن نصحّح هذا ، وأوعز إلى قزم المصعد أن يحمل إلى السيدة شتاينباخ رقعة من الورق .

« أيتها الصديقة العزيزة . إليكِ هذا التصحيح . إن ما ابتغيه منها ليس « لا شيء » بل أريد أن تغضَّ الطرف في مواجهتي . هذا هو ما ابتغيه منها . المخلص ڤيكتور .

وكان الضيوف يروحون ويجيئون في قاعة الطعام وقد بدا عليهم الملل ، على طول الجدران ، متوجهين إلى النافذة حيناً ، ومتأملين لوحات الصور بفكر شارد حيناً آخر ، إلى أن يجيء الغداء أخيراً .

ولبث ڤيكتور واقفاً أمام صورة الرأس التي تحف بها حاشية ، لسياسيّ (كان اسمه غير مقروء بالطبع) . وكان وجهاً ينمّ عن قوة الشكيمة ، فيه ملامح تنطوي على الفجاجة ، والقوة ، كأنه مولود تبعاً لأنموذج منقوش على الخشب . ولم يكن معتاداً على التخليّ عن المنفعة الخاصة ، والوعي بالهدف في التعبير ، وموقف الاعتقاد الناري ، وعيون الاتحاد التي لا تنظر إلى شيء ، ومواجهة الرجل للرجل ، بل كان معتاداً أن يمّر بالحشد من الناس مرور المُنْسَرِب من دون أن يكون له غرض معين . وتمكّن من تهجئة القول المأثور الأساسي للرجل : « كل شيء عن طريق المدرسة الابتدائية! » . أجل هذا ما كان يدلّ عليه مظهر السيد المثبَّت على الوضع المستقيم . العالم حين يتم إدراكه في صورة منشأة تربوية . تعلُّم هدف الحياة ، والتعليم بموجب ذلك ، وليس ثمة حقيقة ، لأن لها مذاقاً كمذاق الحكمة ، وليس ثمة

حكمة ، أو أنها تفوح منها رائحة التحذير . إنه الوبال الذي كان هذا خليقاً أن يسبِّبه بما ينطوي عليه من مربع القناعات المرسوم على السبورة الجدارية لو أن القدر وضعه عند دفة قيادة تاريخ العالم بدلاً من أن يضعه في علبة التصويت التي لا ضرر منها!

وبينما كان يغمز بعينيه على هذا النحو مع السياسيّ ، كان قد انضمّ إليه إنسان جانبي على نحو غير ملحوظ ، وكان هذا يتأمّل الصورة ، على النحو ذاته من فوق كتفه . وقال الإنسان غير المعروف يصدر حكمه على نحو ينطوي على الإعجاب : «إنه رأس شخصية متألّقة ، أليس كذلك ؟» وأقبل عليه ضيوف آخرون يتجمعون حوله ، مثلما يتجمّع الذباب حول قطعة من السكر ، وصدر عن المجموعة ، مرة ثانية ، الحكم المتهيِّب : «إنه رأس شخصية متألّقة ، ولا بدّ أنه كان سيداً له شأنه ، محبوباً من قبل الشعب» ثم ظل الحوار معلّقاً عليه بعد أن كان مضى على القوم وقت طويل وهم جلوس إلى المائدة . وكان اسمها يتردّد على الألسن بصورة عارضة أيضاً ـ نويْكوم . رويدَك ، هل سمعت ؟ نويْكوم ؟ لقد كان هذا هو الاسم الذي تسمَّى به أيضاً . أتراه واحداً من ذوي قرابتها الأبعدين ؟

وقال سؤال هامس : «هل خلّف أولاداً في الحقيقة ؟» ، وكان الجواب : «اثنان ، ولد وبنت . أما الولد فليس بذي شأن ، إذ يقرض الشعر . وأما ابنته فقد تزوجت السيد ڤيس ، المدير المعروف . وإنها لزوجة متألّقة ، فيما أرى . والناس جميعاً يلتفتون في الشارع نحوها . طويلة ، معتدة بنفسها ، داكنة اللون كواحدة من أهل الجنوب (كانت جدتها إيطالية) ، حادة المزاج ، شيطانة مدهشة! وأخيراً فهي طيبة من كل نواحيها وذات خلق كريم ، وما من إنسان يستطيع أن يجد فيها أدنى مَغْمَز ، وهي وطنية

متحمسة عن عقيدة واقتناع كأبيها الراحل» ـ الشخصية صاحبة هذا الرأس ، أبوها! ألا فلتستيقظ بربك ، ياعقلي ، ولتنهض من سباتك ، فمن هذا يمكن استخلاص طائفة كبيرة من الملاحظات الهامة . وجعل عقله يتحرك في فتور وتثاقل ، ورفع رأسه قليلاً ، ثم أخلد إلى الراحة من جديد ، بلا مبالاة ، مثل كلب المزرعة الرابض في الشارع عندما يمرّ به بائع اللبن . وقال عقله : «إن الحقيقة الواقعة لتنطوي على غباء مفرط بالقياس إليّ» .

وبعد الطعام سأل ڤيكتور رئيس الخدم : «إلى أين أذهب الآن لقراءة الصحف ؟» .

«أفضل ما تذهب إليه مقهى شيرتس ، عند المحطة ، وكل طفل يستطيع أن يدلّك» .

ووجد في القاعة الممتلئة منضدة صغيرة عند النافذة ذات مقعدين خاليين . وكان أناس يجيؤون وأناس يروحون ، وأناس ينظرون حواليهم ، ولكن أحداً لم يقعد قبالته «هنا مثلما أنت في كل مكان! الأمر محسوم ، ياڤيكتور ، ليس فيك شيء يغري ، وما أنتَ بالمُريح ـ فكرة تبعث على السرور : لو أن وكيلي الأمين كان يقعد الآن وسط كل هذا الجمهور ؟ ولِمَ لا ؟ فمن المحتمل ألاّ يضن عليه بجرائد أيضاً ، أن يكون مثلاً مثل هذا القاعد هناك في الخلف ، ذي الحضلات الشُّقْرِ الفاتحة ، والنظارة المزدوجة في وجه كوجه الخروف ؟ على أنه ليس بالفائق الحسن على وجه الخصوص ، فهذا أمر ما كان المرء ليزعمه مهما بلغ من حسن مقصده ، كما أنه لا يبدو أنه يتمتع بقدر من الفكر أكثر مما هو ضروري ضرورة مطلقة بالقياس إلى أستاذ جامعي . أيها الوكيل ، أيها الوكيل ، لو جاز لي أن أنصح لك ، فعليك ألاّ تفرط في الاعتماد على ثقافتك واطلاعك ، وإلاّ عَمَدّتك صاحبتك الجميلة

جونو التي كنت تنسج حولها الكثير من الأوهام ، ذات صباح عَكِر ، باسم «الدكتور قَرَف» . والحق أنه ينبغي للمرء أن ينتقل إليه ، وأن يمازحه بعض الممازحة . ألا ليتني كنت على يقين أنه هو ذاته! على أننا سنتحقق من هذا عمّا قريب . الساعة الآن الثانية والدقيقة العاشرة ، ما زال هناك ثلاثة أرباع الساعة . لكم يسير الزمن ببطء السلحفاة! ـ ها! يالهذا الرجل الفخم الذي يتهادى الآن مقبلاً! إنه بطل أحلام البنات . شيء يُستَنَد إليه ، أو يُرتَقى عليه ، و«عِماد للحياة»! ولو كان في وسعي أن أغني لغنَّيْت : «إنه الأكثر روعة وجلالاً بين الناس قاطبة!» ، وإن له لخصلات جوبيتر أيضاً! بِمَنْ يذكِّرني هذا الهرقل المولع بالحب ؟ ـ صحيح ، بصورة الملك في ورق اللعب ـ وَيْلٌ لكنُّ أيتها العذارى ، ولتبكين! ولتنظرن إلى خاتم زواجه! بل لقد أصبح أباً ، إذ لا يخطو بمثل هذه الخطوات إلاّ من كان ينطوي على المشاعر الأبوية ـ ما أكثر العناية التي يرتِّب بها ثنيات معطفه الخارجي! ثم الملابس الداخلية التي تظهر الآن للعيان! وما بعدها! إني أعتقد أنه يتوجه نحوي . ألا مرحباً بك أيهذا الأروع بين الناس قاطبة!» .

واستقر الملك (في ورق اللعب) في مقعد بانحناءة تعبّر عن اللياقة والتهذيب ثم أخرج محفظة سيجار ، وقال : «هل تأذن لي في أن أسمح لنفسي أن أتقدم إليك بهذا ؟» .

وردّ ڤيكتور بقوله وهو يشكره : «أنا لا أدخن» . ولكن هل رأيت محفظة السيجار المطَّرزة تطريزاً فنياً ؟ إنها من لَدُنْ زوجته على أية حال .

وتناول ملك ورق اللعب الآن جريدة مصورة ، وهو يقول : «هل تأذن لي ؟» ـ وجعل ينظر فيها بعين الرضى ، وبنظرة المتعطِّف تقريباً ، وبانتباه جزئي ، وكان ينقر ، فوق ذلك ، على المنضدة نقرات موسيقية . يا لها من أظافر معتنىً بها!

ومع ذلك فقد كان يبدو على ملك ورق اللعب أنه ليس مهتماً بالقراءة على وجه الخصوص ، بل كان أقرب إلى الاهتمام بالثرثرة . وكان يبدو عليه أن الغداء قد طاب له ، وشرع في الحديث قائلاً بصوت تمهيدي ، متردِّد ، حين بات صوت حنجرته يُسمع على نحو أقوى في قربه منه : «لعلّ الحديث بلهجتنا المحلية المتسمة بشيء من الخشونة لن يواتيك أنت على وجه الخصوص بحكم كونك غريباً ؟» .

وقال ڤيكتور مصححاً ، ورافضاً ، بإيجاز : «لست غريباً ، فقد ولدت هنا وترعرعت ، إلاّ أنني أقمت في الغربة كثيراً من السنين» .

«إذاً فهذا خير لنا ، ويسرُّني عندها أن أحييَ فيك مواطناً من أهل بلدي» .

وعلى أثر ذلك استكَنَّ من جديد وراء الجريدة ، وأخذ يبتسم لنفسه ابتسامة الرضى . وقال ڤيكتور في نفسه : «إنه يمتصّ سعادته مثلما يمتص المرء عرق السوس» .

وحين فرغ ملك ورق اللعب من عرق السوس أشار على صورة لڤِرْتر* في جريدته ، وبدأ بقوله بعد شيء من التردُّد : «مارأيك ؟ هل تعتقد أن مثل هذا الحب الحماسيّ ، ذي العاطفة الجامحة يمكن أن يكون له وجود في هذه الأيام ؟» .

وردّ ڤيكتور قائلاً : «الطبيعة واردة أبداً» .

وابتسم ملك ورق اللعب ابتسامة الرضى . «ليس بالأمر السيئ ، وإنما يتوقف كل شيء على مدى ضيق نطاق فهم المرء لمفهوم الطبيعة أو اتساعه . فأنتَ إذاً تؤمن إيماناً جاداً كل الجد بعصرنا الواقعي...» .

---

* هو بطل الرواية المشهورة لجوته «آلام ڤرتر» .

«لا وجود لعصور واقعية» .

«إذا كنت تقصد إلى هذا ، فلا وجود لها بلا ريب ، وعلى كل حال فلا ريب في أن هناك عصوراً تسودها أمزجة نفسية مختلفة ، وسوف تسلِّم بهذا ، ومثال ذلك تلك العصور التي لا يمكن أن يتصور فيها المرء أحوالاً نفسية معيَّنة كانت تلاحظ فيما سلف ، أم هل تستطيع مثلاً أن تتصور رجلاً كيوحنا المعمدان ، أو رجلاً مثل فرانتس فون أسّيسي ، أو رجلاً مثل ڤرتر ، بياقة قميصه الصلبة العالية ، إذا أردنا أن نظل عند مثالنا ؟ ـ وأرجو عفوك ، فأنا لم أقل هذا مقترناً بأدنى هدف للتعريض أو الغمز ، بالفعل ، وأرجوك أن تصدقني ، إذ كان قصدي بريئاً كل البراءة» .

وقال ڤيكتور يطيِّب خاطره وهو يبتسم : «لست أدعي الحق في لقب كلقب يوحنا المعمدان ، أو لقب قديس ـ فأنا أشك في مجيء روح القدس الخاص بالجراد ، أو الوجد المتعلق بياقة القميص . وأخيراً فقد دأب مبدع «ڤِرتَر» ، إذا صحت الرواية التي سمعت بها ، على ارتداء الثياب الرشيقة ، بل حتى المتكَلَّفة» .

وحين حلَّت لحظة طويلة من التوقف خطرت ببال ڤيكتور فكرة كان يزداد عجزاً عن التخلُّص منها مع الزمن ، وأخيراً تجرأ على الحديث بغير مقدمات ، بصوت يشيع فيه الخوف : «أتراك تعرف ، من طريق المصادفة ، هنا ، في المدينة رجلاً معيناً يقال له المدير ڤيس ؟» ـ ولم يكد ينطق بهذه الجملة حتى أحسّ أنه احمرّ احمراراً شديداً .

ورفع ملك ورق اللعب ناظريه وقد بوغت ، وقال : «أجل ، بلا ريب ، ولماذا ؟» .

«من أي نوع يعد من البشر ؟ أقصد : كيف يبدو ؟ طويلاً أم قصيراً ؟

شاباً أم كبيراً في السن ؟ دميم الخلقة أم وسيماً ؟ وعلى كل حال فهو رجل يتمتع بثقافة عالية ، أليس كذلك ؟ كما يستنتج ذلك من ألقابه ووظائفه ؟ » .

وارتسمت على وجه ملك ورق اللعب أمارات المكر الفائق ، وابتسم لنفسه مستمتعاً . «إنه رجل له ، مثل كل امرئ ، نقائصه التي لا تحصى ، وربما كانت له ، إلى جانب ذلك أيضاً ، على قدر ما يرضي غرور نفسي أنا على الأقل ، بعض الصفات التي يمكن احتمالها ـ ومع ذلك فلتسمح لي أن أقدّم لك نفسي : المدير ڤيس هو اسمي أنا » .

وجاء هذا مقترناً بقدر بالغ من الظُرْف والسخرية المستعذبة إلى حد بلغ منه أن ڤيكتور الذي لم يكن يقدِّر شيئاً أكثر مما كان يقدر رقة الشعور استحوذ عليه التعاطف فجأة ، فوثب قائماً ومدَّ إليه يده مصافحاً فأمسك بها الآخر بحماسة وهزَّها ، ونشأ ما يشبه رابطة الصداقة بين كليهما .

وبعد أن ذكر ڤيكتور اسمه أيضاً صاح المدير قائلاً وقد سُرَّ سروراً بالغاً : «فأنتَ إذاً ، على ما يبدو ، السيد الذي فكَرَّ صباح اليوم بتشريفنا بزيارته ، ونحن نأسف مخلصين ، ولا سيما زوجتي التي التقيت وإياها ذات مرة في حمام بحري ، فيما أعتقد ، إذا لم أكن مخطئاً » .

وقال فيكتورمصححاً وقد تكدَّر : «ليس في حمام بحري ، بل في مَرْبَع جبلي للاستشفاء » .

«من المؤسف أنها ستضطر عصر هذا اليوم أيضاً إلى التخلّي عن هذه المتعة ، إذ أنها اتفقت مع سيدات اتحاد الغناء على رحلة ، وأنا عائد لتوّي من المحطة ، وأرجو ألاّ ينتابك الخوف من جراء ذلك ، وإذا كنت لا تفسر هذا على أنه تطفُّل مني فأنا أودُّ أن أقترح عليك أن تأتي إلى نادي الإيديانيا ، ولا يحتاج الأمر إلى شكليات ، فسوف تظهر ببساطة على أنك

مبعوث من قِبَلي ، ويضاف إلى ذلك أن زوجتي هي الرئيسة الفخرية» .

«الإيدياليا ؟» .

«وَيْحٌ لي ، لقد نسيت ، فأنا شارد الفكر ـ إذ لا يمكن لك أن تعرف بالطبع...» وعلى أثر ذلك شرع في الحديث عن الإيدياليا ، بادئاً بمقدمة مستفيضة : فهي منشأة أسسها حموه الراحل ، لعقد اجتماعات متواضعة ، لا تكلُّف فيها ولا احتفالّية ـ ولا أبهّة ملابس ، ولا مآكل ـ لمجرد رعاية مجالس أنس أكثر حفولاً بالمضمون ، يتماشى فيها البحث والدرس ، يداً بيد ، مع الاستجمام (إذا لا يستبعد كلٌّ منهما الآخر) ، وتوصي بالموسيقى في المقام الأول من أجل هذا الغرض ـ وما هو أكثر ، من هذا القبيل ، مع ذكر أسماء الأعضاء وتواريخ الاجتماعات ، وكيف تتم الدورة ، ويكون ذلك في العادة أيام الأربعاء ، والجمعة والسبت . وكان ڤيكتور يعطي الحديث أذناً صاغية ، أما فكره فكان يتسلّل ، ماراً بالسمع ، إلى العينين : هذا هو الوكيل! الملك في ورق اللعب! الأكثر روعة بين الناس قاطبة! أما هو فكان ذلك الذي اتخذ موقف آدونيس في مقابل الوكيل! فلماذا كان قد افترض أن الوكيل لا بد أن يكون إنساناً مضحكاً ، قليل الحيلة على الأقل ؟ ويلاه ، إنه ليس بالمضحك على الإطلاق ، هذا الملك في ورق اللعب! ليس كذلك على الإطلاق! ـ وحملق فيه بنظرة ثابتة لا تتحوّل ، وهو مذهول ، يكاد يستحوذ عليه الفزع ـ إذاً فلتَقَرَّ عيناً ، بربِّك يا ڤيكتور! فإن مما يخدم كبرياءك أيضاً ، بلا ريب ، أن يكون وكيلك شخصية طيبة ، وهذا أيضاً أجده على ما يرام تماماً ، وهو أنها تحبه على ما يبدو ، أم تراني كنت أرغب ، في أي يوم من الأيام ، في شيء آخر ؟ أعوذ بالله ، بل على النقيض ، إذ كان لا بدّ أن يتولاّني الهمّ والقلق لو لم تكن الحال كذلك ـ وفي مقابل ذلك ، هي ، مرة أخرى! هذا التحدي!

تتقلَّب في البلاد ، والأرياف ، مع اتحاد للغناء ، بعد أن أبلغتُ عن زيارتي! لا ريب في أن هذه السيدة تفتقر إلى الشعور بالحياء .

وتردد في مسمعه صوت الوكيل يقول : « لا ريب أنك من أهل الموسيقى أيضاً ، على ما يبدو ؟ أو تحبها على الأقل ؟ » .

«اعتقد أني أحبها ، أجل أقصد أنني لا أعرف حق المعرفة ، فالمسألة تتوقف عليها » .

وهنا كان برج الكنيسة يدق الساعة الثالثة ، فذُعِر الوكيل ، ووثب قائماً وقد تولاه الفزع ، وقال : « لقد ضيَّعت وقتي في الثرثرة ، ولا بدّ لي أن أذهب إلي المتحف بأقصى سرعة ممكنه ، إذاً ، أليس كذلك ، سوف أضع في حسباني أن يتاح لي أن أسلِّم عليك في نادي الإيديااليا ؟ » ومدَّ إليه يده مصافحاً على عجل ، وتولى مسرعاً .

غير أن ڤيكتور انطلق يجوب الأزقة ، مذهولاً ، وربما قال في نفسه بعدُ مراراً : « فلتَقَرَّ عيناً ، ياڤيكتور » ، ولم يُجْدِهِ ذلك فتيلاً ، إذ كان مهموماً ، كسير الفؤاد ، مثبَّط الهمة ، فما عسى أن يكون أصابه من مكروه ؟ لم يكن هناك أدنى شيء من هذا القبيل ، ومع ذلك فقد كان كسير الفؤاد ، إلى أن أضناه المسير في الخارج ، قبالة المدينة ، وحين بلغ منزله بعد ذلك ، ومدَّ أعضاءه على سرير الاستراحة ، خفَّ عنه العبء من جديد ، وقال جسده يهنئه : «في صحتك» .

وردَّ قائلاً بمودة : « شكراً ، يا كونراد » ، وذلك أنه دأب على تسمية جسده ومخاطبته كما يخاطب المرء رفيقاً له ، إذ كان على جانب كبير من حُسْنِ التوافق معه .

وبعد أن شبع من التمدد لاحظ وجود رسالة صغيرة على المنضدة كان من الممكن أن يتكهّن المرء ، تبعاً لقوانين الطبيعة ، بأنها لبثت هناك أمداً بعيداً من الزمن من السيدة شتاينباخ .

«أيها الإنسان الماكر! السيدة زوجة المدير ڤيس ليست مضطرة إلى أن تغضَّ الطرف أمام أحد ، فلتأتني في الحال لكي أُنحيَ عليك باللائمة» .

وامتثل للطلب متماسكاً ، في مزاج المعاند .

وقالت تهاجمه : «لم أكن أعرف أبداً أن من الممكن أن تكون مثل هذا الانسان المزعج! ألا فلتجلس ههنا ، على منصة الاتهام ، ولتسمح لي أن استجوبك . ماذا لديك مما تأخذه على السيدة زوجة المدير ڤيس ؟» .

«الخيانة الزوجية»

«ماذا يعني هذا إذا ترجمناه إلى لغة المعقول ؟» .

«هذا يعني ، بلغة المعقول ـ مع أنه لا يحتاج إلى ترجمة ـ أنها خانت عقد الزواج» .

«ولكن لا بدّ لي ، يا سيدي ، أن أتحدث إليك حديث الجد ، وبأسلوب حاد ، لأن المسألة تمسّ شرف سيدة لا شائبة فيه ، وأنا أُعَوِّل على صدقك واستقامتك اللتين أثق بهما ثقة بالغة ، وأسألك محتكِمةً إلى ضميرك : هل كان يوجد بينك وبين تويْدا نويْكوم خطوبة ؟» .

وقال مدافعاً بعنف : «إلى أين يذهب بك التفكير!» .

«إذاً فعلى الأقل شيء كان بمثابة الخِطْبة ، يؤهّلك لهذا الافتراض ـ اعتراف بالحب ؟ كلمة شرف مُلْزِمة ، أو إشارة ؟ أو قبلة ؟ مايدريني ؟» .

وعاد إلى الاحتجاج من جديد ، بحماسة : « كلاّ ، كلاّ ، كلاّ! فأنت تقتفين أثراً زائفاً كل الزيف ، إذ لم نتبادل إلاّ كلمات قلائل ، لا دلالة لها البّتة . كنت أجلس إلى المائدة ، بجانبها وقمنا ببضع جولات معاً في الحديقة ، ثم غنت لي أغنية في القاعة ، ولا شيء بعد ذلك » .

« فهل كان ثمة رسائل إذاً ؟ » .

« وكيف يمكن أن يكون ذلك! لقد كنت مفرط التهيُّب في هذا الصدد ، كما كنت أيضاً مفرط الالتزام بحكم الضمير ، وكانت هي بدورها بالغة الحذر . والنساء لا ينسَيْن أنفسهن في مجال الكتابة ، وهذا ما تعرفينه بلا ريب » .

« إذاً فما عسى أن يكون ذلك ، هلاّ أسعفت عقلي المتواضع » .

هنالك تبّدل وجهه فجأة ، متحوّلاً إلى تعبير غريب ، ينطوي على الجدّ العميق ، وكأنه يبصر شبحاً ، وقال بصوت مرتجف : « لقاء شخصي في المدينة البعيدة » .

« استميح عفوك إذا عارضتك إلى حد ما : فأنا أعرف عن السيدة زوجة المدير نقيض ذلك ، والسيدة زوجة المدير ڤيس لا تكذب » .

« وأنا لا أكذب أيضاً! ولذلك فعندما أقول : « لقاء شخصي ، لا أعني بالطبع لقاءً جسدياً » .

وتقدمت بكرسيها ، على غير إرادة منها ، وحملقت فيه « تقول : ليس لقاءً جسدياً ؟ أرجو ألاّ تقول ، بربك ، مثلاً ـ أَمْ كيف ينبغي لي أن أفهم هذا ؟ » .

« أنتِ تفهمين الفهم الصحيح ، فالمسألة تتعلق بلقاء روح مع روح . هَدِّئي

من روعك ، فأنا امرؤ سليم العقل ، وأحسّ بأشياء العالم الخارجي إحساساً يبلغ من الحدة والإرهاف ما لا يقل عن أي امرئ آخر . مالك تتخذين سيماء عدم التصديق هكذا ؟ أتُراك تحسبين أن المرء يرى من منزل مؤثَّث رؤيةِ أقل وضوحاً مما يراه من منزل خاو ؟ ولذلك فعندما أتحدث عن ظهور... » .

وقالت تتهمه : «أنت تعتقد بحالات الظهور ؟» .

«مثلما يعتقد كل الناس ، مثلما تعتقدين أنتِ أيضاً ، على سبيل المثال ، أو مثل حلم ، أو ذكرى ، أو البريق المتخلّف لمحيّا محبوب ، أو إشراق رؤيا في روح فنان ، أو ليست هذه ، مثلاً ، حالات ظهور ؟» .

«لا تقدم لي ، أرجوك ، بهلوانيّات صوفية! ولنتحدث بجدّ ، لأن المرء يظل في حالة الظهور ، وفي حالة التجلّي الفني ، واعياً أن المسألة تتعلق بمجرد صورة من صور الخيال» .

«وأنا أظل واعياً بذلك أيضاً» .

«الحمد لله ، فقد شفيتني . وها أنذا أتنفس الصعداء . وذلك أنك عبَّرت عما في نفسك من قبل بصورة جعلتني أعتقد لحظة من الزمان أنك تريد أن تُرَتِّب على ظهورها المزعوم أثراً يتحكَّم في حياتها الواقعية ، أي في تصرفاتها» .

«وهذا ما أفعله أيضاً ، في الواقع» .

وصاحت بلهجة آمرة : «كلاّ ، لن تفعل هذا ، هذا ما لا تستطيع أن تفعله!» .

وانحنى وهو يقول : «استميح عفوك إذ أبيح لنفسي أن أفعل هذا أيضاً» .

وصرخت قائلة : «ولكن هذا جنون ، بلا ريب!» .

وابتسم قائلاً : «وماذا يفترض أن يكون الجنون ، أرجوك ، ماذا ؟ أن أُعْلِيَ من قدر التجاريب الباطنية مثلما أفعل بالتجاريب الظاهرية ؟ أو أجعل لها ، بالأحرى ، قدراً أعلى من تلك إلى حد لا نهاية له ؟ أو أدعها تتحكم في أموري ؟ ـ والضمير ؟ والرب ؟ هل يعد من الجنون أيضاً ، مثلاً ، أن يدع أحد نفسه تتأثر في تصرفاتها بضميره أو بربه ؟» .

وترددت لحظة ، إذ اعتراها التأثُّر ، وباتت في حرج من أمرها حيال الجواب .

أمّا هو فقد مضى قائلاً : «الفرق الوحيد هو أن الآخرين يكتفون بحالات الظهور الغامضة ، بينما أضطر أنا إلى رؤيتها بوضوح ، مثلما يرى المصور عروج مريم إلى السماء ، [إصبع الرب] ، [عين الرب] ، [صوت الطبيعة] ، [إيماءة القدر] ـ فماذا أصنع بهذا المتحف التشريحيّ ؟ إنما أريد ، على الدوام ، أن أرى الوجه بأكمله» .

وتنهّدت قائلة وقد زايلتها الجرأة : «أمّا في التفكير المراوغ ، السفسطائي فأنت تتفوّق بالطبع على دماغي النسائي الضعيف مئات المرات ، وأنا لا أريد على الإطلاق أن أخوض في هذا المضمار ، ولا يعود أمامي سوى أن آسف وأن يتولاّني الحزن» .

هنالك وضع يده على كتفها ، وقال : «أيتها الصديقة النبيلة ، الأمر ليس كذلك ، فأنت لم تدركي قط لماذا لم أحفل بإيماءتك ذات المقصد الحسن التي تنطوي على ضمان أن تكون تويدا لي عن طريق خطبة مُلْزِمة ؟ فاعترفي أنك كنتِ وما زلتِ ، ترين أنني ضيَّعت على نفسي سعادة العمر بطريقة حمقاء ، بدافع الخوف الوضيع ، من الزواج . ألا ترين ، إنك تومئين إيماءة الموافقة» .

وقالت تخفِّف من حدة الوصف : «فلنقُل بدافع التردُّد» .

«كلاّ ، فلنقل إنه الجبن ، ذلك لأن التردد هو جبن أيضاً ، جبن الإرادة ، غير أني ما عدت أحتمل حكمك عليَّ في ضوء غير صحيح ، ولذلك فأنا أريد أن أفضي إليكِ بأسبابي ، فهل أنت على استعداد للسماع ؟» .

وقالت هامسة وهي تخفض رأسها : «أنا مستعدة لكل شيء ، على الرغم من أنني لا أخفي عليك أن هذا الموضوع ينطوي على العذاب بالقياس إليّ ، وأنني لا أتبيَّن ما يفترض أن يجدي نبش الحكايات المتقادمة . ولكن إذا كنت تريد...» .

وقال مصححاً : «ليس عندما أريد ، بل عندما لا يكون لي بدٌّ من ذلك!» وشرع يقول بصوت متغيِّر ، وبلهجة مرتفعة : «كلاّ ، لم يكن إحجامي عن المبادرة بدافع التردُّد المتسم بالجبن ، ولا بدافع الغباء الأحمق ، حينما اقتربت مني السعادة المباركة بخطى متطامنة ، تنظر إليَّ بعينيها الصافيتين هامسة : [فلتأخذني!] ، بل كنت أعلم ما كنت أفعل ، وأقدِّر ما كنت أصدُّه ، ولقد فصلتُ في الأمر بموجب اختيار صعب ، متسم بالنضج ، وبتصميم رجوليّ . وأريد الآن أن أتحدث إليك عن ساعة الحسم هذه» .

وأمسك عن الكلام هنيهة بعد هذه الكلمات ، كأنما ليلتقط أنفاسه ، ومع ذلك فحين أبت فترة الإمساك أن تنتهي رفعت طرفها ، وإذا هو يقف بين يديها يرتجف وقد هزّته العواصف التي تعتمل في داخله ، وهو يوصد شفتيه بعنف ، وقال وهو ينطق بالكلمات بجهد بالغ : «لست بقادر على الحديث في هذا ، مع ذلك ، فإنه ينتهي بنا إلى عمق سحيق» ـ وكان يعتمد بجذعه على البيانو .

ووثبت قائمة لكي تسنده في حالة الضرورة .

ولكنه كان قد نهض قائماً من جديد ، وصاح قائلاً : «لقد حسمت المسألة على الوجه الصحيح! وإني لأعلم أنني فصلت في الأمر على الوجه الصحيح! ولو واجهت هذا الخيار مرة أخرى لما فصلت في الأمر على غير هذا الوجه! » ثم أخذ قبعته ، وانحنى ، وقبّل يدها ، وقال : «سوف أدوّنها لك» .

وصحبته إلى باب المنزل وقد تأثّرت تأثُراً عميقاً ، وقالت : «لا بأس» ، لمجرد أن تقول شيئاً ، وقسَرت صوتها ليخرج بلهجة خالية من الارتباك ، قائلة : «خيراً ، فلتدوّنها لي ، فأنت تعلم أن كل ما يعتمل في نفسك يهمني أنا أيضاً ، ولتصدقني ، فلئن كنت لا أفهمك في كل حين ، ولا أفهمك الآن أيضاً ، فأنا لم أرتّب قطُّ ، ولا لحظة واحدة في نقائك ونبل الأسباب الدافعة لديك» .

وصاح قائلاً بعاطفة جامحة : «شكراً! أيتها الصديقة الوفيّة! » وكان يمسك بها بكلتا يديه ، بأسلوب عاصف ، وقال : « إنك تشفيني ، فإن مما يؤلمني ألماً بالغاً ، لا يطاق ، أن يرتاب أحد في نبل شخصيّتي » .

وصاحت قائلة بعنف ، وهي غاضبة تقريباً : «ومن فعل هذا في أي يوم من الأيام ؟ » .

وتولته الدهشة ، وأجاب قائلاً في تردد : « كل الناس ، أعني ليس هنالك امرؤٌ على وجه التحديد » .

وفي هذه الأثناء كانت قد تملّصت منه ، وانسحبت هاربة بضع درجات إلى الأعلى . « وثمة شيء واحد بعد : أليس كذلك ، أنت لست بالظالم ؟ ولا تفعل شيئاً يؤلمها ؟ » .

وقال وهو يبتسم : «لا أفعل ما يسيء إلى إنسان سوى ما يمكن أن يسببه وجودي ذاته على أقصى تقدير» ، وبذلك غادر المنزل .

وقالت في أثره وهي تتنهَّد : «يا لك من إنسان خطير ، محرَّم!» وألقت بنفسها ، منهكة القوى ، في الكرسي ذي المساند ، لكي تستجمّ من الإجهاد .

غير أنه أسرع إلى حجرته ، لكي يدوِّن الاعتراف الذي ظل مديناً لها به شفهياً . وإذا هو الذي كانت الكتابة في العادة تثير اشمئزازه كما يشمئز المرء من المرأة المشاغبة ، يحسّ الآن ، بعد أن أفضى الاستجواب إلى نبش ذكرياته ، برغبة عارمة في تسجيل ساعة الحسم في حياته تسجيلاً مقروءاً ذات مرة لكي يظل سره السامي ماثلاً خارج ذاته أيضاً ، وعلى نحو مستقل عن ذاكرته ، في صورة حقيقة ثابتة .

وهكذا جعل يكتب ، وكان يصرّ في الحقيقة ويزبد في مجانبة للقسر المرتبط بقوانين التفكير الموضوعية ، ولكن دفعةً واحدة ، في سرعة المحمول :

إلى السيدة مارتا شتاينباخ

ألا فلتحلّ اللعنة والعار على النثر العاري ، بصورة مسبقة

لأنه يُدَنِّس الحرمة! وهكذا أروي وأدنِّس الحرمة :

ساعتي

لقد وصل كتابك ، مع صورة تويْدا ، في الصباح ، وهو ذلك الكتاب الذي ألمحتِ فيه إلى أن ثمة كلمة واضحة مني هي قيد الانتظار ، وأن الجواب الطيب على هذه الكلمة أمر مؤكَّد ، وأن التردُّد الطويل خليق أن يتمّ

تأويله على أنه عُدول . وقد فهمت : انه تحذير مدعوم بإنذار ، وأدركت : ان هذا اليوم يوم الجدّ ، وأنه يوم الحسم ، ولقد تأمّلت الصورة ، وكانت تُطِلُّ عليَّ منها آلاف من القيم البهيجة : نقاء عذراء مصطفاة ، متميِّزة بالجمال والفضيلة والتربية ـ وذكرى الساعات التي قضيناها معاً ، وهي في الحقيقة ذات مضمون لا يذكر ، ومع ذلك فهي تنطوي على قيم شاعرية خالدة ، (وأنا أسمي هذه الساعات ، فيما بيني وبين نفسي ، ساعات الظهور) ـ والنظرة الباطنية العميقة للعينين المفعمتين بالروح ، اللتين كانتا تقولان لي : «إن أملي ليفكِّر فيك» ـ والوعد بقدر هائل من ألوان السعادة لذلك الذي سوف يعرف كيف يحظى بها . وقد كُتِبَ تحت الصورة ، بخط غير مرئيّ : «هذه هي الجائزة العليا» وكانت كلمات رسالتك تهمس قائلة : «الجائزة لك» .

وكنت أحفظ الصورة في مُستَكَنِّها ما دامت جلبة النهار تشغل حواسّي ، ولم أكن أتذوّقها إلاّ بصورة عابرة ، سواء لأغوص على الألغاز العجيبة الكامنة في العينين العميقتَيْ الدلالة ، أم لأتذوّق عجائب الجمال الأنثويّ التي لا ينضب معينها ، وهكذا كنت أدع قلبي يرتع خلسة في الصورة المحبوبة .

ومع ذلك ففي ساعات المساء المتأخرة ، عندما كنت أقعد وحيداً في الحجرة المظلمة ، كنت أضع الصورة قبالتي على المنضدة ، ناظراً إليها مطرقاً بخشوع ، لعلي أستطيع أن أراها حتى في الظلمة . وكانت تتردّد من خلال الصمت في المسكن الفسيح الذي كانت كل أبوابه تظل مفتوحة ، أصوات ، متناغمة : فمنها الهديل الرقيق لزوج من الأُطرُغُلاّت ، يتناهى من حجرة الطعام ، وفي الجانب المقابل ، كانت تتناهى من القاعة الساطعة بأضواء الثريات ، الزغردة الحالمة لطائر الكنار ، من ذلك النوع الذي يشدو في الضوء الصناعي .

هنالك قعدت وأخذت أقدِّر مصيري ، وكان ينهمر عليَّ رذاذ مثل نَفَسَيْن من إقليمين متقابلين من أقاليم العالم ، ولكن كان في الوسط سؤال يهدِّدني : «هل يجوز لك ؟» وهل ينبت للعَظَمة ، مع السعادة نظير أو شبيه ؟ » ـ وتلقيت السؤال وأنا محزون ، إذ كان قلبي يحدثني أن الجواب لابدّ أن يكون بالنفي ، غير أن قلبي ، الذي كان يحس بالخطر ، أخذ في الوجيب ، وصرخ قائلاً : «وعظمتك التي تريد أن تضحي بها من أجلي ، أين باتت ؟ هلاّ أظهرتها ، وبرهنت على أعمالك! ـ عظمة المستقبل ؟ ـ ويحك ، ومن تراه يضمن لك أنْ سوف تشهدها فحسب ، المستقبل ؟ هناك أمراض ، وهناك الموت ، أم تراك تحسب أنك بمعزل عن محن الطبيعة ؟ ومع ذلك فإذا افترضنا أنك ستظل على قيد الحياة ، فمن أين تستمد أسطورة عظمتك المستقبلية ؟ أرجوك ، قل لي ، من أين ؟ أمن اعتدادك بنفسك ؟ ويلاه! يا ليلة المرفع! لا تحملَنَّ هذا مني على محمل السوء ، ولتدعني أضحك . فإن المرء يعدُّ بعشرات الآلاف أولئك الفتيان الذين يحلمون ، في تعاظمهم ، بالأعمال المجيدة ، باعتداد بالنفس يبلغ من حجمه العملاق أنهم يتورَّمون إلى أن يبلغوا حجم كوكب سماوي . ثم ماذا يكون من أمرهم بعد ذلك ؟ انظر إليهم : أدنياء ، حُقَراء لا نفع لهم ، وأصفار مفعمون بالمرارة ، مَوْصومون بمحاربة الذات ، أم تراك تحسَب ، مثلاً ، أن اعتدادك بنفسك يمتاز بمَعْدِن أفضل ؟ ولأي سبب ؟ ومن أين ؟ لأنه أكبر ؟ ذلك أحرى أن يزيد الأمر سوءاً ، وتكون حماقتك أكثر ثبوتاً ويقيناً! إنه جنون العظمة ، ياعزيزي! جنون العظمة عند تلاميذ المدارس الجرمانيين الوُضَعاء ، إلاّ أن الآخرين ، الأقل حظاً من البعد عن التواضع ، والأقل معاندة منك ، يدأبون على اطراح الشقاء الصبياني عندما يقدمون امتحان الشهادة العليا . ياڤيكتور ، أقول لك إن «مهنتك» المزعومة ، هي وعظمتك المستقبلية

المُتَوَهَّمة ، إنما هما أمنية قائمة على الباطل والغرور ، وقبض الريح . وفي مقابل ذلك فإن الهدية الممتعة التي تجود بها عليك حظوة القدر اليوم هي السعادة الواقعية الدنيوية الباقية على الزمن . فأنت تدع سعادتك في الحب وسعادة حياتك تفلتان من يدك من أجل سراب الغرور الذي يلعب لعبة الشعوذة والتخييل ، مخلِّفاً وراءك الهزء والسخرية منك والندم ، الندم الجهنمي ، على مدى الحياة بطولها . ولن يتفضَّل عليك الناس حتى بالرثاء عندما تنتهي إلى تلك النهاية البائسة ، بل سيكون على قبرك ، بدلاً من ذلك ، كلمة تذكارية تحذر الناس قائلة : [هنا انفجرت فقاعة] » .

هنالك تعلمت الشك أول مرة في حياتي . ورَدَدْتُ بالقول وأنا على غير يقين : «أنت تعلم ، بلا ريب ، يا قلبي ، أنني لا أتخذ مهنتي ، ولا استمد عقيدتي ، واعتدادي بنفسي ، من نفسي ذاتها ، بل...» ـ وقال القلب ساخراً : «بل مِمَّنْ ؟ ، أليس كذلك ، أنت لا تحير جواباً ؟ أليس كذلك ، أنت تخجل وأنت في مواجهة عقلك ، من التعبير عن حماقتك بكلمات واضحة ؟ لأنك تحسّ ، وإن كنت لا تعترف بذلك حتى فيما بينك وبين نفسك ، بأنك تمارس عبادة طفولية للأوثان ، وتصلي لشبح لا جوهر له ، أبدعته من نفسك ، بدلاً من أن تعبد رباً منزّهاً ، كبيراً ، خالقاً للكون ، أي أنك تعبد صورة وهمية تمثل انعكاساً لنفسك ذاتها التي تضعها خارج ذاتك عن طريق الأثر الخيالي ـ الفنيّ ، على أمل سخيف وهو أن تتخذ هذا الأثر وسيلة للتسلق والصعود فوق نفسك ذاتها ، مثلما فعل منشهاوزن بضفيرته . وأنت لا تجرؤ حتى على الإقرار باسم معبودك من دون أن تحمرَّ خجلاً . فما هذه ، التي تشير إليها باسم «سيدة حياتك» المُبْهَمة ، و«السيدة الصارمة» التي تعبدها بتفانٍ متعصب مثلما يفعل نبيّ بصاحبه يَهْوَه ؟ . أمّا أنا فأريد أن

أقول لك من تكون «سيدتك الصارمة»! إن كل طالب ليعرفها ، وكل مهمل مقصّر في عمله ، وكل شاعر جَعْجاع ، وكل حُلْوانيّ : فعروس الشعر ذكرى متقادمة ، إنها ابنة الاستعارات الممجوجة ، وإشبينة الخلْوّ من الحياة ، وراعية العجز . أَوَ مثلَ هذا المفهوم التعليمي الذي علاه الغبار ، واختير من أرض الطريق الترابي ، ينبغي لي أن ادعك تبيعني ؟ وبسبب سقط المتاع هذا المتخلّف في حجرة من حجرات المدرسة ، تجرؤ ، وتريد أن تهدر سعادتي ؟ ما بالك تزبد ويتولاّك الغضب ؟ ألأنني أسمّي [سيدتك الصارمة] ، بصفة عامة ، عروس الشعر! ـ غير أنها لا تبلغ حتى هذا! وذلك أن عروس الشعر تعلّم طالب الثانوية كيف ينظم بيتين من الشعر ، شاء أم أبى . فهل تقدر على هذا ؟ وماذا تستطيع سوى ذلك يا ترى ، وأنت ابن الثلاثين ؟ إنك لا تقدر على شيء أبداً ، ولا حتى أن تكتب جملة سليمة على قطعة من الورق! لقد كنتَ صفراً ، وما زلت صفراً ، وسوف تظل صفراً ، مثل الآخرين تقريباً ، إلاّ أنك أدنى منهم بدرجة ، غير أن الآخرين يتواضعون ، ويحق لهم ، جزاءً على ذلك ، أن يكونوا سعداء ، فتواضعْ يحقّ لك ذلك على النحو ذاته!» .

وفي غمرة هذه المحنة فَزِعتُ إليها ذاتها ، إلى سيدة حياتي ، إلى السيدة الصارمة : «انظري ، إن فؤادي يغويني ، أنا ابن آدم الضعيف ، ويهددني بالندم ، متنكّراً لأصلك المقدس ، ناظراً إليك في اشمئزاز ، على أنك عروس شعر مبتذلة ، ولذلك فلتسمعي : أنا الذي ضحيت ، بين يديك ، بكل جوانب انعدام الكرامة في قلبي ، لكي تخنقيها ، من دون تذمُّر ، التمس منكِ اليوم ، قبل أن أقدم لك القربان الأخير ، الأثقل ، علامة تدل على أنك لست صورة خادعة زائفة ، ومستنداً إلى أنك تتمتعين بالقوة

والسلطان ، يصلح لإيصالي إلى الهدف . فأعطيني المستند ، وهبي لي العلامة ، وسوف أطيع ، وإن لم تفعلي فلا تطالبي إنساناً ضعيفاً أن يقايض سعادة مباركة بهمسة خالية من التوقيع» .

وجاء الجواب الصارم : «أنا لا أقدم مستنداً ولا علامة ، وإذا كنت تريد أن تخدمني فاخدمني خدمة قائمة على الإيمان الأعمى حتى النهاية!» .

«إذاً فهبي لي على الأقل أمراً واضحاً . مُريني بقولك : [فلتَزْهَدْ!] وسأزهد ، ولكن ما عليك إلاّ أن تأمري بوضوح وتخلصيني من الشك» .

وجاء الجواب الصارم : «أنا أرفض الأمر . فالشك لك والخيار لك! ذلك لأن الاختيار الصحيح عند مفترق طرق المصير يثبت صدق العظمة ، ولكن عليك بحسن الموازنة ، لأنك إذا أخطأت الاختيار استحققت لعنتي!» .

الندامة عن الشمال ، واللعنة عن اليمين! كان شكّي يحملق مهموماً في لسان الميزان الصغير الماكر . هنالك انبعثت في أعماق روحي الوَجِلة ، وتنامت من محنة الحاضر ، ذكرى الساعة الرهيبة ، عندما سمعت ، أول مرة ، من السيدة الصارمة أنفاس الهمس ، وطالعتني صور مقولتها العلوية ذات المضمون الثقيل : مطلب المخلوق المريض ، إذ يتخذ سيماء الأسد ، صاعداً من خلال الهوة بين الصخور ، من وادي الأرض ، فيفزع أهل السماء - وكل من ينتقل ، عدا ذلك ، في مملكة السماء ، مع الأسد ، هذه الساعة ، فأخذت استعرضها من جديد ، وكان الشوق يعضِّد إيماني . «دونَك هذا ، وليكن ما تريدين! ولتأخذي أيضاً هذا القربان الأخير ، الأعظم . وسأكون متسوِّلاً على الأرض ، وما من شيء يخصُّني إلاّك وإلاّ أمرك الذي يهمس بأنفاسك» . وصِحْتُ بذلك ودعوت إرادة الحزم والتصميم على الزهد ، بجرأة مفعمة بالحزن والكمد .

وإذا قلبي يثب في مبادرة أخيرة ، يائسة : «وهي ، ذاتها ، التي تعقد آمالها عليك وتنتظرك ؟ هل تريد أن تضحي بها ، على النحو ذاته ؟ وهل يجوز لإنسانيتك هذا ، أو تقدر عليه ؟ وهل يسمح ضميرك بهذا ؟» وشدَدْت على إرادتي من جديد ، بعزيمة فاترة ، ولكن القلب مضى قائلاً بجدّ وحماسة : «بماذا سوف تشعر ؟ وماذا يجب أن تظنّ بك ؟ وما هو الحكم الذي ستصدره عليك عندما ترفضها أو تزدريها ؟ سوف تنظر إليك نظرتها إلى امرئ واهن متردِّد ، وفي الوقت نفسه نظرتها إلى أحمق بليد ، غير قادر على إدراك قيمتها . هذا ما لا بدّ لها أن تظنه بك ، وإذا ظنت بك ذلك فسوف تزدريك» .

تصوُّر لا يحتمل! أما التضحية ففي وسعي أن احتملها ، غير أني لا أستطيع أن احتمل سوء التفسير المعيب عند الضحية ، ولا أن أحمل وزر إزدرائها على كاهلي . والآن بتُّ لا أعرف ما آتي وما أدع ، لأن فكري المتعب أعجزه الوصول إلى الفكرة القادرة على تسوية المسألة إذْ استُنْفِدَت طاقته .

هنالك حدث لي الظهور . فقد تجلّت لي ، هي ذاتها ، تويُدا ، روحها ، مثلما ظهرت لي فيما سلف ، في الظهور من جديد ، بجسدها ، إلاّ أنها أكثر نضجاً ، وجِدِّية ، وعيناها تنطويان على معان عميقة ، على النحو الذي كانت تنظر به من صورتها الجديدة . وقد ظهرت من ظلمة حجرة الطعام ، من هناك ، حيث كانت الأُطْرُغُلاّت يُقَرْقِرْن ، ولبثت واقفة عند العتبة وهي تنظر إليّ بعينين يشيع فيهما الحزن ، لائمةً ، وقالت : «لماذا تقدّرني دون قدري ؟» .

وصرخت قائلاً : «أنا! أقدّرك دون قدرك ، ألا ليتك عرفتِ!» .

وقالت : «أجل ، أنت تقدرني دون قدري ، إذ لا تثق لي إلاّ بنفس لا تهمها إلاّ صغائر الأمور ، وترى أنني مؤهَّلة لإرادة الدخول عائقاً بينك وبين مهنتك السامية ، أَفَتُراك تحسب إذاً أنك أنت وحدك الذي يستطيع أن يكابد المشاعر العظيمة ؟ وأنك أنت وحدك النبيل بما يكفي لكي تقدم القرابين إلى قلبك ؟ أَوَ تعتقد أنني لا أحس إحساساً جيداً ، مثلك ، بأنفاس سيدتك الصارمة ؟ وأنني غير قادرة على تقديرالامتياز الفخور المتمثل في ترقيتك من قبل نقيبك المختار إلى رمز ؟ وأنني لم أكن أدرك ولم أكن أشعر أن مما يعد أشرف إلى حد لا نهاية له ، وأكثر إسعاداً ، أن أكون رفيقتك المؤمنة على طريق المجد الجبليّ الجريء ، حين أكون زوجتك المجدّة النشيطة وأمَّ بنيك ؟ هَلُمَّ ، فلنبسطْ معاً رغائب قلبَيْنا عند قدمي [السيدة الصارمة] ، ونعقد تلقاء محياها رابطة أكثر نبلاً من رابطة الجنسين المبتذلة ، أمام هيكل البشر ، رابطة الجمال مع العظمة! أمّا أنا فأريد أن أكون إيمانك ، وحبَّك وعزاءك ، وأمّا أنت فينبغي لك أن تكون كبريائي ومجدي الذي ينقّي صورتي ، أنا المخلوقة البائسة الفانية فيحوِّلها إلى رمز ، ويستنقذها إلى الخلود» ـ هكذا تكلَّمَتْ ، وحيَّيتُ نبل عظمتها وأنا مفعم بالشكر المغتبط .

وعلى أثر ذلك فعلنا كما قررنا . فبسطنا رغائب قلبَيْنا عند قدمينا ثم رفعت إكليل العروس عن هامتها ، ثم نزعت الخاتم من إصبعي ، ووضعناه مع سائر الأشياء . وحين بِتْنا الآن واقفين مجرَّدَيْن خاليَيْ الوِفاض ، مثل شجرتين جردتا نفسيهما بنفسَيْهما من الأوراق ، من دون أية حلية أخرى سوى سمو الروح ، صِحْتُ قائلاً : «يا سيدة حياتي ، أيتها السيدة الصارمة : لقد حدث هذا! ألا فانظري ، لقد تمّت التضحية التي تطلبين» .

وتجلّى نَفَسُها ، وخَرّت حبيبتي على ركبتيها أمام رغْدة ظلها ، ودفنت وجهها في يديَّ متهيِّبة .

وشرعت السيدة الصارمة تتحدث قائلة : «بوركت يا نقيبي الوفيّ إذ فَصَلْت في الأمر على الوجه الصحيح ، وإليك بركتي جزاءً على ذلك . هذه بَرَكتي : أنت الآن مطبوع على الرأفة ومختوم بخاتم العظمة ، متميِّز من كل أولئك الذين يبدِّدون أيامهم من دون أن يحظَوْا بالخاتم الأسود المرتبط بندائي . أوصيك باعتداد بالنفس لا يفارقك في حالة الخطأ والجنون ، وعند التعرُّض للمهانة والازدراء ، وأنهاك أن تكون تعيساً في أي يوم كان من أيام حياتك . ذلك لأن ما تشعر به في نفسك منذ الآن فصاعداً ليس نفسك أنت ، بل هو أنا فيك ، أي أنك إذا لم تشعر بالزُهُوْ والكبرياء فأنت تهينني - ومع ذلك فمن تكون تلك التي تجثو إلى جانبك ؟» .

وأجبت قائلاً : «هذه صديقتي النبيلة ، خادمتك المؤمنة التي ضحَّت لتوِّها ، من أجلي ، برغائب قلبها . فاقبليها إذا قَبِلتِني أنا» .

وقالت السيدة الصارمة تأمر صديقتي : «انهضي ، وأريني محيّاك! أما إن محيّاك لجميل وأصيل ، تفضلي ، فقد قبلتك ، لا خادمةً لي ، بل ابنة لي ، نكِّسي هامتك ، يابنيّتي لكي أعمِّدك!» .

هنالك نكَّست صديقتي هامتها ، وعمَّدتها سيدتي باسم «إيماغو» أو الصورة المبجَّلة .

وختمت السيدة الوقورة بقولها : «والآن ، فلتتصافحا لكي أبارك الارتباط بينكما» وبعد أن مدّ كلٌّ منا يده للآخر نطقت بعبارة المباركة ، قائلة : «باسم الروح الذي هو أعلى هنا من نظام الطبيعة ، وباسم الأبدية التي هي أقدس من شريعة البشر الفانية ، أعلن بذلك أنكما عروس وعريس مرتبطان ، على مدى الحياة ، لا ينفصلان ، في السرّاء والضراء ، مقيمان معاً بالروح في عرس دائم . أما أنت فينبغي لك أن تكون لها مجداً وروعة ، وأمّا

هي فينبغي لها أن تكون لك بهجة وحلاوة» ـ وعلى أثر هذه الكلمات تلاشت السيدة الصارمة ، وعدنا من جديد اثنين وحدنا .

وقالت إيماغو ، الصورة المبجَّلة ، وهي تبتسم : «أَوَ كانت التضحية صعبة عليك ؟» .

وهتفت مغتبطاً : «ياتاج حياتي ، يافيض الرحمة!» .

ثم ألقت إيماغو تحية الوداع ، قائلة : «أنت الآن متعب ، وأمامي طريق طويل ، ولكني عائدة في الغد ، لأننا سنمكث الآن معاً في كل يوم ، في عرس أبديّ» .

وعلى أثر هذه الكلمات افترقنا في سموّ وسعادة ، غير أني لبثت بعد ذلك وقتاً طويلاً ، أصغي إلى صدى الحدث مشدوهاً ، عند منصة الكتابة ، إذ كان صخب ذلك يتردد في خاطري مثل بحر محيط ، وكان يُخدِق بي إنشادٌ احتفاليٌّ مثلما يحدث ذلك بعد قدّاس .

وفي الصباح التالي بدأ في الحقيقة ، كما تم تبشيرنا ، التئام شملنا الدائم ، زفاف تم تدبيره على عجل ، وثنائيّ مهلِّل تم إنشاده بفم النصر الموحَّد ، ولكن صوتها كان يتردد بطبقة أعلى من صوتي ، حتى لقد طالما توقفت لكي أصغي إلى إنشادها . وكنت كلما وثبت ، إلى جانبها ، من فوق مرتفع الأرض ، إلى مملكة سيدتي الصارمة التي هي أنقى من مملكة الواقع ، غير أنها أكثر جوهرية من مملكة الأحلام ، أي أن علاقة الواقع بها تكون مثل علاقة الحيوانات بالإنسان ، ولكن علاقة الحلم بها مثل علاقة الرائحة بالزهرة ، وتمتد إلى حقول الذكريات ، والشعور الداخلي ، هتفت إيماغو مهلِّلة : «ياحبيبي ، إلى أية عوالم جديدة رحبة تفضي بي ، على هذا الطريق ؟ أمّا عيني التي بوغتت فتسميها غريبة ، ولكن قلبي الذي حظي بالسعادة يحييها منادياً

إياها باسم «الدار» ـ وكانت جموع من خيار الناس ، أكثر وُدّاً من جماهير البشر ، ترحب بنا ترحيب الأُخُوَّة عند أبواب الوديان .

وكنت إذا أخلدت إلى الراحة المرة بعد الأخرى ، في غمرة العمل المثقل بالهموم الذي كانت في أثنائه تخفي حضورها عني ، في تواضعها ، ورفعت ناظري متنهِّداً ، قابلتني نظرة إيماغو الخاشعة ، وكانت نظرتها تجيب قائلة : «لم يسعدني الزهوُّ بالنفس المتمثل في معرفتي أنني محبوبة من قبلُ كما أسعدني هذا» . وكنت إذا هبطت معها ، بعد حق الراحة الذي أحظى به بصدقي وأمانتي ، إلى العالم الخارجي ، ومازحتها مثلما يفعل المرء مع زوجة من البشر ، وأطلقت عليها أسماء الدعابة الخرقاء ، وقدمت إليها عند الأكل طبقاً وسكيناً وشوكة ، وكأنها جالسة إلى جانبي بجسدها ، ضحكت إيماغو مسرورة وهي تقول : «يالنا من أطفال! ولكن كيفَ تَهيأ لك ، أنت العميق ، معجزة حملي على الضحك بسرور لم يسبق لي أن شهدته من قبل أبداً ؟» .

وجعلني ذلك غنياً وودوداً ، حتى لقد بات الناس يقولون لي متعجبين : «هذا أمر مستعذب ، لكم تبدّلتَ تبُدلاً طيّباً» ، وكنت كشجرة في وسط مرج مكشوف ، مشمس ، أتيح لها أن تنشر ذؤابتها في كل الاتجاهات ونضجت ثمارها جميعاً .

ولبث هذا الحال ، ماضياً في مسيرته ، في صورة سعادة لا نهاية لها ، خارج الزمان والمكان ، إلى أن جاء اليوم الذي داخل فيه لسانُ الخيانة السعادةَ الذهبية مثلما يطأ خنزير بري بساطاً . وكان إعلاناً مطبوعاً عن خطبة من قبل غريب . ولم يكن ثمة كلمة تعبّر عن الصداقة ، ولا إشارة إلى ذكرى ، ولا شيء سوى الحقيقة الواقعة . وكانت المسألة برمّتها وقاحة صامتة!

ورميت بالورقة في الركن بازدراء . ولم يكن هناك أدنى ألم ، وإنما هو

مجرد التذمُّر من الخيانة ، مختلطاً بالحزن لما تجلى من وضاعة لم أكن أقدِّرها ، وكان ذلك ، مثلاً ، كما لو أن امرءاً كان يعزف قطعة رائعة على البيانو ، وإذا هو يرى ، بغتة ، في مكان النوطات ضفدعة ضخمة . وإذاً فإن مما يدخل في إطار طاقة الإنسان أن تفضل مخلوقة أنثوية أتاح لها القدر نعمة استرواح أنفاس الخلود بحكم كونها رفيقة حب امرئ يتمتع بالكفاءة والاستعداد ، أن تخوض ، مع أول ذي لحية يعرُض لها ، في المستنقع الأُسَري . وجعلتُ أتابع ببصري ظاهرة الوضاعة العجيبة وأنا مذهول ، مثلما كنت فيما سلف ، أيام الطفولة ، حينما كنت أتأمَّل سرطاناً . وقد صحت في تلك الأيام قائلاً : « كيف يستطيع امرؤٌ أن يكون سرطاناً! » . أمّا اليوم فقد صحت قائلاً : « كيف يستطيع امرؤٌ ألاّ يكون عظيماً! » .

أَوَ يُفْتَرَض الآن أن تتعفَّن سعادتي الجميلة على هذا النحو البائس من جراء ارتدادها الباعث للازدراء ؟ ـ وفجأة أطلقت ضحكة عالية . كرنفال وخرافة! هذا ما نسبته إليها ، كله ، من طريق الشعر والخيال : ساعة القدر الخاصة بالخِطبة ، وسُمُوَّها ، وعظمتها ، ونبل نفسها ، وحبُّها ، وصداقتها . فايماغو لا تعيش فيكَ وحدها ، غير أن تويْدا ، المخلوقة البشرية ، بجسدها ، مختلفة ، غريبة ، اسمها (س) ، والحق أنها طائر صغير غير ذي أهمية ، مثلما يُرى منه في المدينة يزقزق بالمئات ، ورفعت البطاقة التي لا تستحي ، من جديد ، وجعلت أشمُّها . لا ريب ، الأمر واضح كل الوضوح ، كانت رائحتها رائحة الشيء العاديّ ، كالأخريات تماماً : كانت قد عقدت العزم على الزواج على وجه الإطلاق (والراجح أن ذلك كان بعد حب غير سعيد ـ فالطريق إلى الهيكل يمرّ عند النساء في معظم الأحيان من فوق ضريح القلب) ، وتجد فيّ ، وقد ألحّ عليها رهط من الخُطّاب ، وأنا الغريب الجديد ، مُنْقِذاً ، وتجدني مقبولاً ـ فيما أعتقد ـ وإذا لم تحصل عليّ كان

ذلك أكثر سوءاً ، ولذلك تأخذ ، على اسم الله ، خاطباً آخر . وهكذا تسير الأمور في العادة ، وهكذا سارت الأمور معها أيضاً ، وهي المرأة العادية . ألا بُعداً لها! الآنسة س ، أما اسمك فهو : «غير موجودة!» ولإثبات ذلك انظري ماذا أصنع بك ، هذا ما أصنع بك! ومزّقت البطاقة وألقيت بالمِزَق في سلة الأوراق . والآن نريد أن نتصرف بِيَرَقه أكاذيبك الصغيرة الجميلة . واستخرجت الصورة ، لأمزّقها إرباً . وأحببت أن أنظر فيها مرة أخرى للوداع . إذاً فهاتان العينان المنطويتان على الكآبة الثقيلة والمعاني العميقة تخدعان . ومجمل النبالة في ربيع الجمال هذا إنما هو من متاع الشباب الغث! وإذا الصورة تأخذ في بكاء مرير ، وقالت وهي تبكي : «كلاً ، أنا لا أكذب ، لأن روحي كانت في تلك الأيام ، حين كانت هذه الصورة تعكسني ، متعطّشةٍ إلى السموّ حقاً ، وكانت هاتان العينان اللتان تبصرانك ، تنظران إليك فيما مضى ، وكانت رغبتي تدور حولك ، وكان أملي يتوق إليك ، أما التي خانتك فتلك امرأة أخرى ، لاحقة ، لا تجمعني معها سمة مشتركة ، ومع ذلك فلم يكن ذلك عن غرور وضعف ووضاعة . ومن يدري ، فربما جاءت فيما بعدُ ، ذات مرة ، ساعة تثوب فيها إلى رشدها ، وتتذكّر ، ويتولاّها الخجل من ارتدادها وتعود أدراجها إليك ، مزيلةً الدنس عن محيّاي ، لكيلا أرسل بصري في الدينا بجمال موصوم مجلّل بالمهانة مثل ملاك ساقط» .

هنالك أدركتني الرحمة بالصورة ورفعتها بخشوع ، مثل صورة امرأة متوفاة . أما الأخرى ، الجديدة ، العديمة الوفاء ، فأنكرت عليها الاسم العزيز ، تويْدا ، وأخذت أسميها منذ الآن فصاعداً ، بْسويْدا ، أي : الزائفة .

وفي ذلك المساء ، حين خرجت للنزهة راكباً كما كانت عادتي (ومن المفهوم جيداً ، على جواد حقيقي ، بلحمه ودمه) سمعت حركة امرئ راكب

خلفي . وعرفت من كانت هذه ، لأنني كنت انتظرها . وقلت أذكرها : «إيماغو ، ما لك تجرين وراني ؟ ولا تأتين إلى جانبي ؟» .

وأجابت قائلة : «لأنني غير جديرة بك الآن ، إذ أنني أحمل ملامح امرأة غادرة» . وقلت : «ايماغو ، يا عروسي ، أنت لا تحملين ملامحها . بل تلك المرأة تحمل ملامحك على نحو زائف . ولذلك تعالي إلى جانبي ، وليتبارَكْ محيّاك عندي!» .

هنالك تقدمت إلى جانبي ، ومع ذلك فقد كانت تخفي وجهها بيديها ، غير أني نحيَّتْ يديها عن وجهها برفق ، قائلاً : «ألا ترين كم أنت جميلة وعظيمة ، ورقيقة العاطفة! ولذلك فلتنظري إليّ بحرية وعلانية ، غير عابئة بصورتك الأصلية غير اللائقة ، مثلما لا أعبأ بها أنا أيضاً» . وإذا هي تنظر إليّ بحريّة ، شاكرة لي بعينيها ، وأخذنا في الغناء من جديد كما كنا نفعل من قبل ، وكان وقع صوتها أجمل من قبل ، ولكنه ينطوي على جرس كئيب مثلما يكون حين يعاني امرؤٌ بريء ، حتى لقد كان من الممكن أن يستدرّ هذا دموع المرء من الرحمة . ومع ذلك فقد أمسكت عن الغناء وهي في غمرته ، مع صرخة مُغَرْغِرة ، وضغطت شفتيها إحداهما على الأخرى كملاك يحتضر وجعلت تترنّح على السرج . وقالت تشكو : «ويلاه ، لقد سدَّد امرؤٌ إليّ طعنة نكراء حتى أصابني المرض وما عاد صوتي يحلِّق . ولذلك فلتدعني ، يا ڤيكتور ، ولتبحث لنفسك عن إيماغو جديدة ، إيماغو تتمتع بالصحة والقوة ولها وجه لا شائبة فيه لكي تزغرد لك وتغني ، لحلاوتك ، وجزاءً وِفاقاً لك» .

وصحت قائلاً : «يا إيماغو ، ياعروسي المخطوبة ، ما كان المرء ليهجر صديقته لأن مرضاً أَلَمَّ بها ، ذلك لأنني ارتبطت بك أمام أنفاس سيدتي الصارمة ، على أن يكون محيّاك الرمزَ لكل ما هو نبيل وسامٍ . ولذلك

فاسمعي ما أعلن إليك : إن مرضك وحزنك يجعلان حبي لك يزداد أضعافاً عما كان من قبل ، عندما كنت تهللين وتزغردين إلى جانبي وأنت في غمرة السرور والسعادة» .

وقالت : «الويل لك يا ڤيكتور إذا لم تتركني! لأنني لا أستطيع أن أجيئك منذ الآن فصاعداً إلاّ بمتاعب القلب» .

ورددت قائلاً : «إذاً فأتيني بمتاعب القلب ، يا إيماغو ، يا عروسي النبيلة ، فلن أدعك» .

وهكذا جدَّدت ارتباطي بإيماغو المريضة ، وعاد كل شيء كما كان من قبل ، إلاّ أن صوتها كان أخرس ، وكانت عيناها تنظران نظرة المتألمة .

ولبث الحال على هذا إلى اليوم الحالي ، وهي عروسي ، وأنا لا أتخلى عنها ، وهي أكثر عزاء لي من كل ثروات الدنيا على الرغم من كونها خرساء ومريضة ـ أنتَ يا هذا! تذرَّعْ بالشجاعة ، والعناد ، والحرية! فالسيدة الصارمة لي ، وإيماغو لي ، أمّا تلك فلعملي ، ولمهنتي ، ولعظمتي ، وأمّا هذه فلحبي الجميل ، وما عدا ذلك فلغو وهذر . أمّا نساء الأرض فأمازحهن ، جرعة على الطريق ، استمتع بهن ، وأشكرهن ، وأنساهن ، وأنظر في بعضهن ، من بيضاوات وسمراوات ، فيا لَحُسْن البيضاوات ، ويالمتعة السمراوات! ومع ذلك فلست أميّز أسماءهن ، ولم أكن أذكر في نفسي سوى اسم واحد : وذلك هو : زائفة ، اسمها (س) ، الصغيرة ، المرتّدة ، التي كدَّرت عليَّ صفو تويُدا ، وأزعجت إيماغو . وليس الانتقام من شيمتي! ولست أرغب إلاّ في شيء واحد منها تعويضاً عليّ ، ألا وهو أن أراها ذات مرة من جديد ، مرة واحدة فحسب ، لأرى كيف تنظر امرأة عديمة الوفاء في وضح النهار ، ولكي أشهدها وهي تغضّ الطرف بين يديّ ، وهذا حقي المشروع ، وعقابها الذي

تستحقه ، وكفى هذا ، وهنيئاً لها المستنقع ، وليبارك الرب زواجها . وبهذا أصل إلى النهاية ، وعندها أُمْسِك .

المخلص : ڤيكتور

ودفع بهذا الاعتراف في الليلة ذاتها ، بيده ، في صندوق البريد ، وفي الصباح التالي ، تلقى مع بريد إلفور ، جواب الصديقة :

صديقي الموقَّر!

لقد قرأت اعترافك الباعث للدهشة ، والذي أدين بالإفضاء به إليك ، بحكم كونه برهاناً على الثقة ، قراءة مقترنة بالتدبُّر والتفكر اللائقين بها . ولكن قبل أن أدخل في المضمون دعني أَطْرحُ أولاً شيئاً مكدِّراً للصفو ، وهو شيء يلحُّ قوله على لساني ، ولذلك فأنا أريد أن أفرغ منه على الفور : أليس كذلك ، أنت لا تقصد على سبيل الجد ، أنك تعتقد أنك ربطت امرأة بك عن طريق حدثٍ ما ، لا تعرف هي شيئاً عنه ، ولا تستطيع أيضاً أن تعرف شيئاً . فهو حدث لم يحدث إلاّ في خيالك : عن طريق خِطْبة رأيتَها في المنام ، بعبارة مختصرة . وهذا أمر لا تُقْدِم عليه ، ولا تستطيع فعله ، لأنه غيرمعقول ، مثلما أنه غير جائز . أما الاسم القبيح ، وهو : الزائفة ، فهو اسم لا تستحقه السيدة زوجة المدير ڤيس ، يا صديقي العزيز ، ذلك لأنه إذا كان يوجد على وجه الأرض سيدة صريحة وأصيلة فهي هذه السيدة . أوَ كنتَ تريد أن تُلْزِمَها بالعظمة ؟ لست أدري هل النساء مؤهَّلات للعظمة على وجه الإطلاق ـ فنحن نتمتع بصفات أخرى ـ ، ولكن إذا افترضنا أنهن مؤهَّلات لها فمن عساه يكون ملتزماً بالعظمة التزاماً ؟ إن البشرية لخليقة أن تكون أهلاً للرثاء لو كانت العظمة واجباً إلزامياً! وقد رُبِّيت السيدة زوجة المدير ڤيس ، مثل كل امرأة أخرى ، ومثلي ، ومثلنا

جميعاً ، لتكون رفيقةَ حياةٍ مخلصة لرجل طيب . وهي تؤدي واجب هذه المهنة على أفضل وجه ، وتلتزم بالموادعة ، وإسعاد من يليها وتنوير الآخرين ، ولست أعرف ، في المدينة كلها ، زوجة أكثر تحلّياً بالفضيلة ، وإخلاصاً ، وإيثاراً ، ولا أماً أفضل . ولذلك فلا بدّ لي أن أحتجّ مرة أخرى على أن يرتضيَ لها امرؤٌ أن تغضّ طرفها من الشعور بالهوان ، فليس عليها أن تفعل هذا ، وألاحظ ، بهذه المناسبة ، أنها لن تفعل هذا أيضاً ، وفي وسعك أن تطمئن إلى ذلك . ولو سلّمنا بأن أمرأة أخرى ربما شاركت في الشعور بسحر الحضور ، أو الظهور* ولم يكن من واجبها أيضاً ، بحال من الأحوال ، أن تشعر بذلك . وبعد أن قدّمت بهذا أعود إلى البداية مرة أخرى .

أجل لقد قرأت اعترافك بتدبرّ حقيقي ، واستحوذ عليّ ، وشوّشنَي ، وأفزعني ، وسَما بنفسي . ولست أملك الموهبة اللازمة ، من صفاء الذهن ، ولاالمقياس الضروري الخاص بالقصور عن الفهم ، لأضيق ذَرْعاً بالخلط الهائل بين الخيال والواقع . ومع ذلك! فما عسى أن تكون هذه الأشياء . «تويْدا» ، «الزائفة : Pseuda» ، « إيماغو ، أو الصورة المبجّلة : Ima-go» ، «الآنسة (س) ، مما أريد أن أقدّم إليك بعد ، فهذه ثلاث شخصيات بوجه واحد! أما إحداهن فلا وجود لها ، وأمّا الأخرى فميتة ، وأمّا الثالثة «فغير متوافرة» ، وتلك التي لاتوجد ، مريضة! وكل ما آمله ألاّ يكون قلبك يمارس الَهرس والسحق! وإن أنفاسي لتتعثّر ، ببساطة ، ولا أعرف حق المعرفة ، هل عسى أن يكون ذلك من الخوف أم من الرهبة . فأنت . واغفر لي ، فأنا أعرف ، تكره الاسم ولكنني لاأستطيع أن أسميك

* Parusie (الظهور من جديد ، أو عودة المسيح) . المترجم

حاخاماً - أنتَ شاعر ، وأن كنت تعارض في ذلك كل المعارضة . وإذا كنت تفضل آخر الأمر أن تسمى متنبئاً ، أو نبياً... لقد قرأت نشيد أنشادك عن إيماغو وأنا متعجّبة ، مع السرور ، مثلما يصغي امرؤ إلى عمل كبير من الأعمال الأدبية في الشعر ، وإني لعلى يقين ، في قرارة نفسي ، أن الشيطان الذي استحوذ عليك ، مهما سميته ، سواء أكان «إيماغو» أو «السيدة الصارمة» ، أو سوى ذلك من الأسماء (وسوف يكون بلا ريب ممن يمتّ بصلة القربى إلى الملاك الحارس) من أصل مقدس . ذلك لأن ذلك ثابت عندي : إنه شيء يضحي ، رجل بالغ ، بمثل هذا القدر من التفوق في البراعة والفهم ، مثلك ، بسعادة حبه ، وليس بالأهوج الطائش ، وجملة القول أنني أومن بـ «سيدتك الصارمة» وبك أيضاً ، ياصديقي العزيز ، وبعملك ، وبعظمتك المستقبلية التي كنت حتى الآن آمل أن تكون ، مجرد أمل ، وكنت أتكّهن بها على أساس الإحساس الداخلي . وإن إيماني بذلك ليبلغ منه أن قصتك خليقة أن تملأ قلبي بسعادة روحية بحته ، مثلما يحدث في حالة معاناة عمل فني خالد ، لو لم أكن في الوقت ذاته صديقتك ، ولو لم أكن مُرْغَمةً ، من جراء اهتمامي القلبّي ، على التفكير في شفائك البشري أو عدم شفائك . غير أن الفزع يتولاّني من جراء الفكرة المتعلقة بما سوف تعاني عندما تصطدم ، مع عالمك الخيالي الجميل (ولتغفر لامرأة هذا التعبير الروائي) بالواقع القاسي (وَيْحُ لي ، فأنا لاأجد كلمة أخرى) ، وثمة شيء واحد فحسب يثير عجبي ، وهو أن الصدمة القاسية لم تحدث منذ وقت بعيد . أوَليس هناك بدٌّ أن يكون هؤلاء أناساً يتميَّزون برقة النفس اللطيفة ، وأُتيحَ لك أن تقيم بين ظهرانيهم في الغربة ، حتى تَهَّيأ لك أن توغل في أحلامك في عالم مثالي ، دونما عائق ، وبغير عقوبة ، إلى هذا المدى ، ولاسيما في زحام مدينة كبرى! ومن

الصعب أن يخطىء حدسي : أنها كانت امرأة ، وعلى وجه الخصوص امرأة من معدن كريم ، تتميز بصفات فائقة ، وكان اهتمامها ينصب على السهر على طريقك . وماكنت لأحسب أن وجود مثل هذه السعادة الخيالية الدائمة بين ظهراني البشر ممكنةً على وجه الإطلاق لو لم يشهد لي على ذلك وصفُك .

وإني لمعجبة بقوة الإرادة ، ودقة الإصابة اللذين تجد بهما طريق حياتك تحت قيادة «السيدة الصارمة» ، وسط أشد الأدغال إثارة للبلبلة والحيرة ، ولكن ، استميحك العفو ، فثمة خطأ يواكب هذا ، بلا ريب . فأنت هنا ، وكان يفترض ألاّ تكون هنا (أليس كذلك ، أوَ لا تسيء فهمي ؟ وأنا لا أفكر في نفسي على أية حال ، بل فيك) واسمح لي ألاّ أدع نفسي تتعرَّض للتضليل من جراء مناورات قلبك : فأنت تريد ببساطة أن ترى زوجة المدير ڤيس من جديد . ولماذا تريد رؤيتها من جديد ؟ لأنك لاتستطيع نسيانها . وهذا مدعاة للأسف ، ولقد وددت لو استطعتَ ذلك ، لأن تطلُّع المرء ببصره إلى شيء تخلّى عنه نهائياً ـ وأنت ترى أنني أؤكد كلمة «نهائياً» ـ لا يعود إلاّ بآلام في العين غير ذات طائل . غير أنه ليس مما يدخل ضمن دور امرأة حقاً أن تلومك من أجل ذلك ، ومن عساه يعرف معرفة أفضل مما نعرف ، أن المرء لايستطيع أن يملي أوامره على قلبه ؟ إلاّ أنني أود أن أحذرك من أنك تجرّ على نفسك ، من جراء الآمال اللامجدية ، خيبات أمل قاسية . هل تريد أن تتقبل من صديقة قديمة تحذيراً حَسَن المقاصد ؟ ـ والحق أنه لن يجدي فتيلاً ، ولكن لا بدّ لي من توجيهه على الرغم من ذلك لأنني ماكنت لأغفر لنفسي ألاّ أكونَ فعلتُ ذلك : لاتعودَنَّ إلى رؤيتها ، ولتغادر هذه الأرض الخطرة بأسرع مايمكن ، ولتتابع إنشاد معزوفتها الثنائية الرائعة مع إيماغو ، ولكن على

مسافة آمنة ، ولسوف تبرأ إيماغو مع الزمن ، وسيعود إليها صوتها ، ولست أخاف عليها في هذا الصدد ، أمّا أنت فلا يوجد شيء تخرج به سوى انعدام السلام . ولتلاحظ جيداً ماأقوله لك ، أنا التي تعرف السيدة زوجة المدير ڤيس ـ فقد كانت ، بمعنى معين ، تلميذتي إن صح التعبير (وإن كان ذلك بصورة عابرة أيضاً ، وظلت ردحاً من الزمن تشرِّفني بثقتها ـ ولْتَذْكُرْ جيداً ماأقوله لك : إن كل جوانب قلبها مشغولة ، ولاتلتمسَنَّ الحب لديها ، أليس كذلك ؟ فأنت ، فيما يتصل بهذا ، أنقى ضميراً من أن تفعله ، على أنك لن تحصل على الصداقة ، لأنك تأتي متأخراً جداً بالقياس إلى الحفلة الموسيقية العامة والصداقة المنزلية ، وسابقاً للأوان إلى حد بعيد بالقياس إلى صداقة الروح العليا ، كما تحسَب ، وهي بالقياس إلى ذلك أكثر شباباً وفتوَّة إلى حد بعيد ، وأكثر سعادة . وإياك أن تُعَوِّل ، مثلاً ، على سجاياك الفكرية! فإنها لا تأكل من هذه الحَلْوى . ومن لم يشعر بأنفاس الحضور ، أو الظهور فلن يشعر أيضاً بأنفاس «السيدة الصارمة» وخطوات الأسد الذي يقتحم السماء عاصفاً . وأقول هذا من دون أن استخف أدنى استخفاف بقيمة السيدة التي أقدرها التقدير العالي حقاً ، إذا كنت أعتقد أنها مؤهلة لتكون زوجاً لك . ولكن إذا كنت أراها جديرة بأن تكون زوجاً لك فأنا لا أراها ، من أجل ذلك ، مؤهلَة لأن تكون صديقتك ، فكلا الأمرين يقتضي صفات مختلفة . ولذلك أقول مرة أخرى : غَادِرْ هذه الأرض الخطرة ، لأنك تبدو لي ، بقوة ، كأنك تزمع أن ترتكب حماقات كبرى ، تُثْقِل بها على الآخرين وتعود عليك أنت بخيبة أمل مريرة .

وهكذا أنقذت نفسي الآن . والآن فلتفعل ما تشاء ، أو بالأحرى ، ما لا بدّ لك من فعله ، لأن القدر سيعلم قريباً ماينتوي عمله معك . أمّا أنا ،

الانسانة الضعيفة فلست بقادرة إلاّ على أن أزوِّدك ، في طريقك ، بمنية قلبي : أتمنى لك أن تبلغ هدف حياتك السامي ، الذي لا ريب أنك ستبلغه ، من دون أن تضطر إلى دفع ثمنه جراحاً مفرطة في القسوة . وعلى هذا فأنا آمل ألا أراك من جديد ، وأبلغ سلامي إلى صاحبتك الرائعة إيماغو .

المتفانية في صداقتك وتقديرك

مارتا شتاينباخ

تذييل : ولتكن على حذر ، لكيلا «تعابثك» نساء الدينا!

وقال ڤيكتور مكرِّراً : «لن يجدي فتيلاً ؟» ، بعد أن قرأ الكتاب . «لماذا لايجدي فتيلاً ؟ مامن شك في أن مايتميز به الإنسان عن البغل هو أن الإنسان يتقبل النصيحة العاقلة أيتها الصديقة العزيزة ، أنت على حق ، ببساطة ماذا أصنع هنا ؟ وماذا تعنيني السيدة التافهة ، الفاسدة المتزوجة ، بمجملها ، على وجه الإطلاق ؟ انتهينا! وقَّررنا! وسأظل مقيماً على ذلك : سوف أتجنَّبها ، وسوف أرحل ، وهذا يعني بالطبع ، بمجرد أن أكون قد أديت ، تجاه الأصدقاء ، ورفاق المدرسة القدامى ، التحية الواجبة . ذلك لأن إرادتي تجنُّب هذه السيدة لاتعني الهرب منها ، الهرب مع الخوف ، مثلما يهرب فتى مسيحي من الإغواء ، هذا مالايكون بلا ريب ، فليس لديَّ سبب يحملني على ذلك حقاً . وإذا شاءت المصادفة أن التقي بها ، من دون تكلُّفٍ لذلك مني ، كان ذلك أسوأ بالقياس إليها » .

وكانت أمنيةٌ ضئيلة ، مُحدَوْدِبة ، تعتمل في أعمق أعماق نفسه ، مؤدّاها : ألا ليت المصادفة تشاء ذلك .

خيبة أمل نكراء

ياللكيفيّة التي دبّرَ بها رفاق مدرسته القدامى جميعاً لأنفسهم مكاناً صغيراً مريحاً في الدولة! كان أولهم أستاذاً في الجامعة ، والآخر نقيباً في الأركان العامة ، والثالث صاحب مصنع لأنابيب الغاز ، ثم خفيراً للغابات مرة أخرى ، وهكذا دواليك ، وكان معظمهم قد تزوّج ، فوق ذلك مخلداً إلى الراحة ، مكتفياً راضياً ، وكانوا جميعاً ، بلا استثناء ، مفيدين يتمتعون بالسمعة الحسنة . أمّا هو فكان ، بسنيِّه الأربع والثلاثين ، لامهنة له ولا مركز ، ولا اسم ولا مسكن ، ولااستحقاق ولا أعمال ، لاشيء . ثم كانت هناك الوخزات القاسية ، عندما كانت تذكّره بالثروات الضائعة المرتبطة بمواهبه الطبيعية! «أمازلت تستطيع الرسم الجميل كالعهد بك في تلك الأيام ؟» ـ «وكيف حالك مع الموسيقا ؟ » ـ عجباً ، يالبؤس مواهبة! وياله من مهموم ، صادٍ في خدمة سيدته الصارمة! وفي سبيل ماذا ؟ من أجل تبديلٍ محال على المستقبل . المستقبل دائماً ولا شيء سواه ، ولا حاضر أبداً! وكان يبدو له أنْ قد أزِف الوقت الذي يحل فيه المستقبل ، آخر الأمر ، وقد بات في الرابعة والثلاثين!.

وقال فيتال ، الملازم في الشرطة ، يسأله : «أمازلت تذكر أستاذنا الطيب ، في اللغة الألمانية ، فريتسلي ؟ إنهم يحوكون حوله الآن قصة هائلة في الصحف ، بسبب كتبه ، فليرحمه الله ، إذ ماعاد هذا يجديه إلاّ قليلاً ، هذا البائس المضُام ، شيخاً ومريضاً!» وكان ڤيكتور يدين بالشكر لفريتسلي لأن هذا كان قد أنقذه من الطرد من المدرسة في مجلس المدرسين ـ

«بسبب سوء السلوك» ، وكان هذا يعني : بسبب العصيان أو التمرد . وكان قلبه يذكره بوجوب زيارته .

ولقيه مُحْدَوْدِباً راقداً في سريره ، مخلوقاً محطَّماً يئنّ ويتأوَّه .

وأدار المريض رأسه بشقّ النفس نحو زائره في نظرة لامبالية مغلولة بالمعاناة ، غير أنه أخذ ينظر ، شيئاً فشيئاً ، إلى فيكتور ، نظرة المنتبه ، ويتفحّص ملامحه ، زمناً طويلاً ، وكانت نظرته ، آخر الأمر ، لاتخلو من المودة ، إلاّ أنها مغلولة ، مندهشة ، وكانت تحاكي ، على وجه التقريب ، نظرة الباحث في الطبيعة حين يتأمل دودة نادرة . وحين كان ڤيكتور يزجي بعدها آيات الشكر ـ في كلمات متلعثمة ، إذ كان متحدثاً سيئاً ـ لم يكن فريتسلي يصغي إليه البتة ، بل كان يواصل قراءة وجهه المرة بعد المرة ، فحسب ، وأخيراً شرع في الكلام ، بكآبة ، قائلاً : «هاأنتذا أيضاً! ولست أدري هل ينبغي لي أن أهنئك على ذلك أم أرثي لحالك ؟ ماهو اسمك الذي قلته لي آنفاً ؟ هذا الاسم سوف يتعلم المرء كيف ينطق به» وعلى أثر ذلك أهدى إليه ، بصوت مرتفع ، كلمة تذكارية حافلة بالألغاز : «لاالكبار ، الذين لايصدقون ذلك ، ولا المعاصرون ، الذين لايعانون منه ، ولاالنساء اللواتي يجرين وراء الناجحين ، بل النخبة المصطفاة وحدها من الناس في جيل قادم ـ انصرف الآن أيها الصديق العزيز ، فمكانك ليس إلى جانب جثة شيخ طاعن في السن شائه الخلقة ، ولديك من شواغل المحن الخاصة مايكفيك ، وليصرفها الله عنك برحمته . وأخيراً شكراً لمجيئك ، فقد كان لي فيه عزاء كبير : لقد قلت لك هذا : النخبة المصطفاة من الناس في جيل أكثر فتوة وشباباً ، فحسب . ولكن فلتذهب الآن ، اذهب ، فأنا أرجو منك ذلك» . وحين أراد ڤيكتور أن يجدد زياراته ماعاد يُسْمَح له .

ولم يكن قد لقي بسويْدا (الزائفة) حتى الآن ، في أي مكان ، ولم يكن قد بقي أمامه سوى إنجاز مسيرة واحدة : إلى السيدة زوجة المستشار الإداري كيلر ، وكان في وسعه أن يسافر بعد ذلك ـ «لنقل يوم الاثنين ، أو الثلاثاء على أبعد تقدير» .وكان قد ذهب إليها مرتين ولم يجدها في المنزل ، وحاول الآن مرة ثالثة ، ولم يجدها في بيتها ، مرة أخرى . وبدا أن هذا لم يكن مقسوماً له! «لابأس ، إذاً فسأرحل يوم الاثنين» . وإذا هو يتلقى منها دعوة خطية ، إلى الشاي ، بعد ظهر الأربعاء القادم ، وقالت : «لديّ اجتماع بعد ظهر الأربعاء في نادي الإيدياليا ، وسوف تلقى أناساً لهم شأنهم ، ومن المحتمل أن تكون هناك موسيقا» ـ وقال مكرراً :« حتى الموسيقا ، الموسيقا من حيث هي ذروة التسلية! أناس ممتعون ، الإيدياليا!» ـ ولم يكن البرنامج ينطوي على شيء مغرٍ ، وكان قد أزمع الرحيل يوم الثلاثاء على أبعد تقدير ، ولم يكن ، من الناحية الأخرى ، قد ردّ على السيدة الموقرة التي كان ملتزماً بواجب الشكر تجاهها ، بجواب رافض . «فليكن هذا من أجل ذلك! وماذا لديّ من شيء أفوّته ؟ » ووافق على الرغم من أن هذا كان برغبة جزئية منه .

واستقبلته زوجة المستشار الإداري بحرارة الصداقة القديمة ، وإن كان ذلك مشوباً بالسطحية والشرود . وأبلغته قائلة وقد أشرق وجهها بالسعادة : «نحن في انتظار كورت» ، وكان صوتها مكتوماً ، وكأنها تكشف له عن بيضة عيد الفصح الملّونة .

كورت ؟ أين كان قد سمع هذا الاسم ؟

وقال متحمساً : إنه ليس من الممكن أن يكون لايعرف كورت وما من شك في أن من الممكن أن يُعْذّر في ذلك امرؤ قادم من الغربة

حديثاً ، وشرعت في تحسين الثناء على كورت على قَدْرَ ما تستطيع ذلك امرأة عندما تحكم بقلبها . وكانت كل الفضائل والمواهب التي يمكن تصوُّرها ، وفي صدرها كان يضيء وسام عقد اللآلىء ذو الوجوه السبعة الذي كان يضم المجموع كله : «إنه عبقريّ ، باختصار العبارة! والحق أنه عبقريّ إلى هذا المدى ، وهكذا دواليك» . «وهو يتميَّز ، مع ذلك ، بتواضع مؤثر» . «وهو لطيف ، وجدير بالمحبة! » وهكذا دواليك . وكان ڤيكتور يبتسم . إنها مازالت هي ذاتها ، زوجة المستشار الإداري ، وهي دائماً في أحسن حالات مزاجها كلما أحبت أحداً . وقد حَدَس بالطبع الآن أيضاً أنه يفترض أن لا يعني هنا سوى حفنة من الناس المجتمعين من أجل النابغة كورت ، الأمر الذي كدَّر مزاجه إلى حد ما ، حتى لقد أوشك أن يشعر بالندم لمجيئه . وأضافت قائلة بلهجة فاترة ، وبنبرة متغِّيرة ، مثلما يحدث حين تصطنع مغنية في الأوبرا طريقة معينة في الحديث : «وأخته حاضرة أيضاً ، واعتقد أن قد سبقت لك رؤيتها ذات مرة ، إنها زوجة المدير ڤيس »

آه ،الآن إذاً! وأعد انتقامه بنَفَس عميق . وقال مُمَيِّزاً : «فلتحاذر الخلط! فهي ليست إيماغو ، ولا حتى تويْدا ، بل هي مجرد بْسويْدا (الزائفة) ، الخائنة! وإيّاكِ أن تتسببّي بارتفاع شدة نبضي حتى يغدو كضرب المطارق ، من جديد ، أنت الساكنة هناك في داخلي! » ودخل على هذا النحو من الاستعداد للمقاومة .

صحيح ، حقاً! هناك كانت تقعد ، الزائفة! عاكفةً على كراسة نوته ، في أُبَّهة جمالها المختَلس ، جمال تويْدا ، تحدق بها زغاريد شعر الذكريات التي تمّ البوح بها . ولكن كم كانت تبدو مشابهة لإيماغو!

أتراها تستطيع ذلك . وعلى أثر هذه النظرة جعل دمه يجري خافقاً هنا وهنالك ، مثل سنجاب في قفص التعذيب الدوّار ، وكانت تدّوي في أذنيه جلبة كأنما انفلت جرس ساعة منبه سقطت على الأرض من منضدة السرير .وقال متوسّلاً وهو مفعم بالخوف : «ياكلّ الأرواح الذكية ، هَلُمَّ إلى مساعدتي ، الويل لهنّ ، أين يكُنَّ ؟ ولم يأت شيء يتسم بالذكاء» .

وتجاوز التصُورات ، شأن المتعامي ، وفرغ من الانحناءات . كيف ستحييه ياترى ؟ هاهي ذي نظرتها تمُر به! نظرة لامبالية كأنما تنظر إلى امرىء غريب ، وهي تنهض قليلاً ، استكمالاً للشكل ثم تعود ، في استرخاء ، إلى النظر في كراسة نوطتها .

وقال يسائل نفسه متجمِّداً : «أوَ هذا كل شيء ؟ »

كلا ، لم يكن كل شيء . كانت تنتصب تلقاءها صحفة مملوءة بالقشدة ، وكانت تغمز لها بعينيها برقة معغمة بالحب ، وكانت تنظر حواليها بضع مرات في وجل ، لعلّ أحداً يلاحظها ، ثم تجود على نفسها بنصف ملعقة صغيرة منها ، على استحياء ، وأخيراً بملء اثنتين ، وثالثة ، بمزيد من الجرأة .

ياله من استقبال! له! منها! ويااللعار والاستياء! وجعل يغرس نظراته اللاعنة في جبينها كالمثقب إلى أن بات عقله يشدُّه من كُمِّه ، قائلاً : «انظر ، ياڤيكتور ، إذا كنت تتوهَّم أنها تلاحظ تقطيباتك السامية فأنت تخدع نفسك» . وإذا هو يظل على ذلك ، وجعل يحملق فيها حملقة لاطائل تحتها ، ذاهلاً عَما حوله ، كأنما هو في مقعد للعمليات الجراحية ، في توقُّع لما سيأتي في المرحلة الثانية ، من مقّصٍ أو مشرط .

وبينما كان قاعداً هنا ، على هذه الصورة ، كالمخدَّر تغلغل في أذنيه صخب الأحاديث على غير إرادة منه ، وكانت نُتَفاً لارابط بينها : «الطرق الزراعية البروتستانتية تلقى رعاية أفضل من الطرق الزراعية الكاثوليكية» - «وفي الفصل الثالث يغدو البطل مذنباً من دون أن يكون مستحقاً لذلك» - «وهل كان الفتى كورت حاضراً ؟ » - «العبقرية تشق طريقها دائماً» - «هل حظي الفتى كورت بيوم سعيد ؟ »

ومع ذلك فأي كلمة سوف تنطق بها بادئ ذي بدء ؟ باللهجة الروحانية في صوتها الأليف في تلك الأيام ، ألا فلتُمْسِك ، هدوءاً! الآن تصغي إلى الحديث ، وهي تقطب جاجبيها ، وتبرق عيناها السوداوان ، وتفتح شفتيها ، وصاحت قائلة : «ياللعجب ، إن السادة المحترمين جميعاً على خطأ ، بدرجة تزداد أو تنقص! »

هنالك حدث ، بطريقة مفاجئة للغاية ، أنه لم يكن له بدٌّ أن يضحك ضحكة مجلجلة . وإذا هي تدير رأسها ببطء في اتجاهه ، وتنظر إليه نظرة جانبية ، تقول له : «أمّا أنت ، ياهذا ، فقد فرغت منك! » وبينما كانت تعرض عنه برأسها من جديد أعطته بعدُ ، عن طريق الفكر بضع جمل تعقيبية بحروف صنئيلة استطاع أن يقرأها بوضوح أكبر مما كان يحب . «ياسيدي ، ماذا تبتغي مني ؟ ولماذا توليني هذه السيماء الهامة المرتبطة بالذكرى ، والحافلة بالمضمون ؟ إذا كان ثمة شيء يعتمل في نفسك ، من الماضي ، مثلاً ، فذلك أسوأ بالقياس إليك ، ولْتُنْحِ على نفسك باللائمة ، أمّا أنا فأرجو أن تدعني في سلام ، وإلاّ فلا شيء لك عندي! اليوم يوم الحاضر ، والغد للمستقبل ، وزوجي وولدي هما كل شيء عندي ، أمّا أنت فلست بشيء عندي»

ولم يكن هذا مِشْرطاً ، ولامقصاً ، بل كان منشاراً رهيباً . وكان الألم والغضب يعصفان ، مجتمَعَين بتجلُّده الذي كان يدافع عنه بشّق النفس «إنها تتجاسر على هذا! فتريد ، بأذيال زواجها الذي لايجديها فتيلاً ـ من زوج وولد وما إلى ذلك من متاع ـ أن تمحو لوحة الظهور الخالدة ؟!» .

وعادت شَذَراتُ الأحاديث تطنُّ في أذنيه من جديد . وكان يسمع عن شماله : «أو تعتقد بالفعل أن الفتى كورت سيأتي بعدُ ؟» ـ «لقد دقت الساعة الرابعة! قضي الأمر! هاهو ذا يتخلَّف مرة أخرى!» ـ «وأنا أقول : إنه سيأتي» ، وعن يمنيه : «رجال القصر الناعمون» ـ «الحياة العائلية الخالية من البهجة عند أهل المدن الكبرى» ـ «التسلية التي لاطعم لها فيما يسمى بالعالم النبيل» ـ «الرسمّيات المتكلّفة الباردة ، المضحكة في قصور الكبار» ـ وكان يخيَّل إليه أنه لم يسمع . من السخافات في عشر سنوات مثلما سمع في ربع الساعة هذا . وكان يجتمع على إلحاق العار به الاستياء الذي كان يزداد على نحو مطرد ـ لماذا لايحفل بي أحد يا ترى ؟ وكم من الوقت ينبغي لي أن أظل قاعداً وحدي على مقعدي مثلما كان روبنسون على حافة الشاطىء الصخري ؟» .

وإذا انفعال بهيج يسري دفعة واحدة خلال الحشد مقترناً بالهمسات وصيحات التهليل المكبوتة ، وكأن موكباً احتفالياً يقترب . وبينما كان يلتفت ، خامل الفكر ـ وماذا كانت تعني هذه البيئة بالقياس إليه ؟ ـ نحو علة السعادة المفاجئة ، اندفع إلى الحجرة شخص رجل ، بلا سلام ولا تقديم ، ومسّ في اندفاعه كُمْ ڤيكتور من دون أن يعتذر إليه ، واستقر قبالة البيانو بدون مقدمات ، وأعدّ دفتر نوطات ـ أتُراه سوف ... ؟ كلاً ، الله

يعلم ، فهو يشرع في الغناء ، في وسط الاجتماع ، من دون مطالبة ، ولا إذن ، مثل أحد الشاربين في الحانة وما هو إلا واحد ، واثنان ، ثلاثة ، وإذا ڤيكتور إلى جانبه ، يَصْفِق كراسة النوطات ويرمي بها على ركبته ، فيندفع المُقْتَحَم على أثر ذلك خارجاً من الغرفة من جديد ، من دون هرير ولا دمدمة ، وكأن خفاشاً دخل الغرفة من النافذة مرفرفاً بجناحيه ثم خرج منها ، من جديد .

وقال ڤيكتور مستمتعاً ، وهو يتجه نحو زوجة المستشار الإداري : «أي فرد هذا ؟ »وكان يحسب أنه سيتلقى شكرها على طرده بلا تردد .

وإذا هَرَجٌ ومَرَجٌ يسود حواليه ـ واندهاش وذهول على كل الوجوه .

وانفجرت بْسويْدا قائلة ووجهها يحمّر غضباً ، وهي ترمي بنار معادية كنار المسدس الآلي من عينيها المتوهجتين : «ليس هذا بفرد على الإطلاق» . غير أن زوجة المستشار الإداري همست له بصوت كالصفير في أذنه ، والدموع في عينيها ، قائلة : «لقد كان هذا أخاها ، كورت! »

وانحنى ڤيكتور الآن في تبجيل تهكّمي ، أمام بْسويدا ، قائلاً : «سيدتي الموقرة ، أقدم تعزيتي المخلصة ، الصادرة عن شعور عميق! »

وقالت بلهجة المُسَيطرة : «أخي لايحتاج إلى تعزية! وأنا فخورة به وهذا من حقي! »وعلى أثر ذلك غادرت الحجرة في صخب واستعد القوم جميعاً للانطلاق .

وقالت زوجة المستشار الإداري متفجعة وعلى وجهها سيماء المرأة التي لاعزاء لها : « ويلاه ، ياالأمسيتي الموسيقية الجميلة! وحين اعتذر ڤيكتور لها في هذه المناسبة ، وهو يؤكد لها مدى استحالة قدرته على أن يحس بصورة مسبقة ، كيف أن إنساناً غير مهَذب يندفع داخلاً على اجتماع ويصدم الحاضرين بمرفقه ـ قاطعته هذه بمرارة ، قائلة : « يالك من أستاذ في المراسم! ـ إنه إنسان أصيل ، عبقري » وانسلت خارجة ، متكدِّرة .

ولكن ليْهَمن ، خفير الغابات ورفيق المدرسة ، ربَّت ، وهو يضحك ، على كتفه ، قائلاً : « ڤيكتور ، ڤيكتور ، لقد كانت هذه هفوة سيئة! »

« استميح عفوك ، ياصديقي العزيز ، لم تكن هذه هفوة ، بل كانت تأديباً »

« سَمِّها كما شئت ، وعلى كل حال فقد أفسدت الآن العلاقة مع السيدة زوجة المدير ڤيس إلى الأبد » وقال ڤيكتور بعناد ، غير متهِّيب : « سوف نرى هذا! »

وكان يخيَّل إليه ، في الخارج ، وهو في الشارع ، كأنما يخرج من مقلب من مقالب المجانين . كان هذا إذاً هو الفتى كورت الذي يُثْنون عليه! « لطيف ، جدير بالمحبة ، متواضع! » أيكون لكلمات اللعنة الألمانية هنا معنى آخر سوى معانيها العادية المعروفة على وجه الأرض كلها ؟ أوَ هذا هو ، ويقال عبقري ؟! أجل إنه واحد من عشرات الآلاف من العباقرة الذين لاينتهون إلى شيء ، والذين يوجد واحد من كلٍ منهم في مهاد كل أسرة ، ملبَّساً بالسُّكَر ، يغدق عليه إخوته وأخواته آيات الإعجاب ، مزخرفاً بإكليل من أبناء العم والخال وبناتهما ، من المتهافتين عليه ـ وفي أي حفرة وقع ،

على وجه الإطلاق! وأيٍّ أحاديث هذه! إنما هي أشياء مبتذلة عفنة ماعاد أحد في أي مكان آخر يجرؤ على أن يمسَّها بعود . إنه وليد مشوَّه من جرّاء أحكامهم ، جدير أن يحفظ في الكحول «ورسميات متكلّفة ، مضحكة في قصور الكبار!» إن هؤلاء ليعتقدون ، كما يبدو ، أن الأمور تجري على النحو الاحتفالي الشبيه بما يحدث لدى افتتاح معرض لثيران التربية . «رجال القصر الناعمون!» ماعسى أن يكون تصوُّر هؤلاء لما يفهم من كلمة رجل القصر ؟ إنه ، على الأرجح مدبِّر مكائد تمت معايرته بالمعايير الحكومية يزحف حول العرش من الصباح إلى المساء ، مثلما يزحف شرير المسارح حول صندوق الملقّن . «الحياة العائلية الخالية من البهجة والسرور عند أهل المدن الكبرى!» . الأرجح أن هذا يحدث لأنهم لايؤدِّبون صبيانهم!» ، «التسلية التي لاطعم لها فيما يسمى بالعالم النبيل!» ولاشك أن القوم لايتحدثون هناك عن «المذنب من غير ذنب» ـ وبالطبع فإن مايتعلق بالأفق الفكري يبدو أنه لايعنيهم على وجه الخصوص أيضاً... والآن فلا عجب في قوم كهؤلاء!فيهم مثل هذا الرأس أباً ومثل هذا العبقري أخاً! «الناس المهذبون هم جميعاً زائفون بدرجة تزيد أو تنقص» ـ من أيِّ دَلْوٍ من دلاء الديمقراطيين التقطوا قولهم المأثور البائس ؟ ولكنها أعلنت ذلك بطريقة حلوة ، في ثقة وفي اعتداد بالإعجاب الذي تجده ، مثل درجة من درجات امتحان نهاية السنة . «الموقعة عند سلاميس ؟ ـ أنا أعرف» ، منتصرة ، ترفع سبابتها إلى الأعلى . هل ينبغي لي أن أقول لك ماهي ، ياڤيكتور ؟ إنها طفلة غير ناضجة ، تزوّجت على المغسلة السريعة ، وما زالت دميتها على ذراعها ، وما هي إلاّ هنيهة ، وإذا طفل صغير في حضنها ، من دون أن تدري من أين جاء . ويكون هذا عندئذ بالقياس إليها بمثابة نوع من الدمية التكميلية . ألم تركيف تلعق القشدة المضروبة في وَلَعٍ بها وغرام ؟ ومن أجل قدر يسير(ومن

المؤسف أن هذا لايليق بالكبار) ، وهكذا كانت خليقة أن تداعب معدتها مثلما يفعل المهرِّج في السيرك . ولكن هل كانت جميلة! لقد كان المرء خليقاً أن يتعرض لإغراء إعطاء درجة أفضل للخَلْق ، بالقياس إليها ، بل كانت أجمل مما كانت عليه في تلك الأيام ، في الظهور ، حيثما أمكن ذلك . وذلك أنها لم تخسر شيئاً ، كما نضجت من جوانب عِدّة فوق ذلك : وجملة القول أنها «تفتَّحت» مثلما يقول كُتاب الروايات ، ثم ماأكبرالشجاعة التي دافعت بها عن أخيها المهرِّج! أما إنك لتروقين لي يابسويدا . والحق أنها تجنح إلى الشُموس بعدُ قليلاً مثل حصان جامح ، مما يجعلها أفضل ، وهو برهان على أنها تنتمي إلى عرق أصيل ، وأنا لا أنظر إلى ذلك أبداً نظرة المستاء عندما يتولاها الغضب ، على النقيض ، إذ إن ذلك يليق بها ، ويتلاءم مع مزاجها الموسوم بسمة الشعر الأسود . أيْ بسويْدا ، لسوف نغدو بعدُ أصدقاء طيبين - وكان ينقل خطواته في الشارع مسروراً وهو يترنمّ بأغنية .

غير أن الدُعابة كلها لم تكن لعبة أطفال إلاّ في الظاهر ، أما في الأسفل ، داخل القَمْرة ، فكان رجل مطعون يتوجَّع ويتأوَّه ، وكان هذا هو الريّان . فلم يكد ڤيكتور يعود إلى الفندق حتى نضا عن نفسه إهاب المرح المفتعل ، واستغرق في الغم والاكتئاب «ياڤيكتور ، ها هي ذي حقيقة من الحقائق قد أفصحت عن نفسها ، ولا ينبغي للمرء أن ينزع إلى الجدال في شيء من القول الذي تنطق به الحقيقة . والحقيقة هي : على طريقة القياصرة ، لم تَسِرْ الأمور على مايرام بمجرد الظهور بهذا المظهر ، وبالسحق ، والتحطيم . لقد انتهى ظهورك ، ونظرتك ، وتذمُّرك العادل ، إلى العجز والإخفاق ، بل انتهى في الحقيقة نهاية تدعو إلى الرثاء . فماذا كان سبب الإخفاق ، وكيف الحال ، بعد هذا كله ، بينك وبين بْسويدا ؟ فكِّر ملياً ، ثم أجب» .

وفكّر ڤيكتور ملياً ، ثم أجاب قائلاً : «إن سبب الإخفاق هو التالي : «هذه السيدة الشابة سعيدة ، راضية بما هي فيه ، ولذلك فهي لا تحتاج إلى شيء ، ولا ترغب ، من أجل ذلك ، في شيء ، ولا سيمّا مني . فأنا امرؤ لاحاجة بها إليه ، على أنها دفنت الماضي ، وكان ذلك في الحقيقة من دون نصب تذكاري . هذا إذاً هو السبب في أن ظهوري أخفق . غير أن الوضع المتعلق بالعلاقة المستقبلية بيني وبينها هو على هذه الصورة : إن تفوقي الفكري لايجديني هنا أدنى جدوى ، لأنها لاتقدر على سبره على الإطلاق ، بل يعد هذا مؤذياً لي ، لأنني أقع ، من خلال فكري ، في تناقض مع قناعاتها التي لايزيدها استمدادها لها من عقول الآخرين من الناس إلاّعناداً وجموحاً وبعبارة موجزة : إنها لاتأكل من هذا الطُّعْم ، على حد تعبير السيدة شتاينباخ . ومن كان يبجّل دماغ شخصية من الشخصيات ، ويُعْجَب بفتى مثل كورت ، فلن يقدِّر أبداً رجلاً مثل ڤيكتور ، التقدير الكبير ، فهذا مخالف لحكم الطبيعة ، لأن كلاً من هذين يستبعد الآخر : فأمّا الدماغ الذي يمثل الشخصية فأبوها ، وأما الفتى كورت فأخوها . وبناءً على ذلك فقد كان لابّد لي أن أشرع في قتال ضد دمها الخاص وضد أجمل فضائلها ، وهي نزعة الخير والإحسان . ونتيجة ذلك...» . ومع ذلك فقد تعثَّرت فكرته ههنا ، إذ كان يقاوم الاستنتاجات .

وبدلاً من صوته استكمل الجملة صوت خافت من أكثر قيعان شعوره ظلمة ، إذ غمغم هذا الصوت قائلاً : «لا أمل» . وارتفعت الآن ، فجأة ، من كل حدب وصوب ، مئات من الأصوات التي كانت تنطق جميعاً بكلمة «لا أمل» ، وكأن هذه الكلمة مادة معجمية ، في تكرار أبديّ ، وفي خطأ حادة الوقع ، وبارتفاع مطرد الزيادة والقوة ، مثل كتل الجليد المنهارة ، وكانت الأصوات تتورّم وتتفاقم ، مثل المتفرجين في الفترة بين الفصلين عندما يتأخر الستار في الارتفاع .

هنالك ترك ڤيكتور رأسه يتدلىّ ، مقتنعاً ولكنه فاقد الإرادة .

وكان عقله ينقر نقرات على كتفه ، قائلاً : « ڤيكتور . أنت تسمع حكم الجمهور ، وهو يوافق حكمي ، ويتوافق في الأساس أيضاً مع حكمك الخاص ، وجملة القول إن هذا المناخ لايلائمك» .

« إذاً فما العمل ؟ » .

«احزم حقائبك وارحل» .

« كلا ، إذا كنت تحسب أنه يطيب لاعتدادي بنفسي أن أنسلّ من هنا ، خانعاً ذليلاً بعد أن رحلت إلى هنا في صورة أوديسويس الغاضب ، فقد أخطأت الظن » .

« أيروق لاعتدادك بنفسك ، يا تُرى ، على نحو أفضل ، أن تنسحب ذات يوم ، مثلاً ، مهيناً ، مهيض الجناح ، مجّللاً بالعار ، مثخناً بالجراح المتقرّحة ، وقلبك مترع بمرارة العلقم ؟ » .

« إن القدر مدين لي بأي نوع من الترضية ، أو بأي نوع من الانتصار على الخائنة ، بلاريب » .

«القدر لايعبأ بحساباتك ، هُلّم ، ولتكن ذكياً حصيفاً ، ولا تناطح الجدار برأسك» .

وتنهد ڤيكتور وأخلد إلى الصمت هنيهة ، ثم ردّ قائلاً : «ربما كنت على حق ، على أنني لم أقل أيضاً أنني لن أستسلم لحكمك في نهاية الأمر ، غير أني أودّ أول الأمر أن أرسل حماقتي بعدُ على سجّيتها قليلاً ، فهذا يحسّن حالة المرء ، كما أنني في حاجة أيضاً إلى بعض العزاء ، بلا ريب . وفي صباح الغد الباكر أُبْلِغُك ، ولكن دعني أول الأمر أفكّر في ذلك ملياً .

وحين رقد بعد ذلك في السرير اللين ، وقد بات يشعر ، مع افتراض الرحيل الوشيك ، أنه نصف غائب ، يستعرض في رقة وألم ، موكب انتقام القاضي الذي انتهى إلى الإخفاق ، استخدم القلب المزاج اللين السمح ، وانبعث صوت كالصفير يقول : «ياللخسارة ، لقد كان من المفترض أن أقدم إليكَ بلاغاً أفضل ، فلا تُسِيء فهمي ، أنا لاأتطاول إلى التأثير على قرارك ، بحال من الأحوال ، وليس عليك إلاّ أن تمتثل لحكم العقل ، فهو أكثر براعة منا جميعاً إلى حد بعيد ـ إلاّ أن من دواعي الأسف على أيّة حال أن تضطر إلى الرحيل عنها هكذا مع انعدام السلام ، وأن تظل الذاكرة عالقة مدى الحياة بامرأة معادية تدعىَ بسوِيْدا ، ذلك لأنك على بيّنةْ من أنك ، فيما أرى ، لن تراها بعد مرة أخرى طوال حياتك ، وأنت ماعدت تستطيع ، مع ذلك ، أن تغيّر الصورة المرتبطة بالذكرى ، كما نظرت إليها اليوم آخر مرة : في صورة امرأة غريبة عنك ومُغْضَبة ، هكذا يترتَّب عليك أن تراها نصب عينيك ، منذ الآن فصاعداً ، وإلى الأبد ، لقد كنت أتمنى لك شيئاً تصالحياً على سبيل الوداع ، نظرة طيبة ، كلمة تنم عن عاطفة قلبية ، وما يدريني ، وعلى الإجمال أي شيء جميل كان في وسع المرء أن يتقبله ، وكان من الممكن أن يستهدي به المرء في الغربة . لقد كان هذا خليقاً أن يحسِّن حالتك (وأنا لا أتحدث عن نفسي ، فإنما وجدت في هذه الدنيا ، على مايبدو ، لمجرد الاستغناء) وقد كان هذا خليقاً أن يكون دواءً لإيماغو المريضة» .

ومضى الحديث على هذا المنوال في هَمْس إغرائيّ ناعس ، إلى أن أغفى نائماً عليه .

ولكنه ، رأى فيما يرى النائم ، عند الصباح ، أسطورة .

فقد أبصر ، على الجزيرة في بحيرة ، بسوِيْدا في صورة أميرة ملعونة ،

قاعدة بين الضفادع والسَّمَنْدرات ، اللواتي كان الفتى كورت يقفز بينهن وهو ينطق بجمل تعبِّر عن المغامرة ، في صورة ملك الضفادع . وكانت تقول بصوت متفجِّع : «ألا يوجد على وجه الأرض نبيل يخلِّصني من الضفادع ؟» وعلى الضفة ، في حرش من أحراش الصفصاف ، كان الوكيل يقعد القرفصاء ، وهو يحرك ذراعيه تلقاء زوجته في حركة إيقاعية ، وكأنه يحصد . وكانت ملامح وجهه تلوِّح قائلة بضراعة وهو يدير مقلتية : «ساعِدْها» . أمّا هو نفسه ، أي ڤيكتور ، فلم يكن قادراً ، بالطبع ، على أن يحرِّك ساكناً ، إذ كان هذا حلماً .

وحين استيقظ بعد ذلك في الصباح ، صحيحاً معافى ، مرحاً ، منتعش الذهن ، وقد استمد جسده القوة بالجرأة والاعتداد بالنفس ، وثب من سريره وثبة المحارب ، وقال يأخذ على نفسه العهد : «لك العزاء ، يابسويدا ، فلسوف أخلِّصك من الضفادع» ، وارتدى ثيابه ، وفتح النافذة ، وحلّق بروحه فوق الجبال ، ونظر بعينيه نظرة خاطفة ، وضرب الأرض بقدمه : «لماذا أفقد الأمل ؟ ومن قال إني فقدت الأمل ؟ فهي ليست خاوية من الداخل ، بلا ريب ، بل تنطوي على نفس ، مثل كل إنسان ، وفي النفس تغفو نواة ، وفي النواة يحلُم ـ فربما كانت لاتدري هي نفسها ـ شوقٌ ، والشوق يتعطَّش إلى أسمى ، وأنبل ، وأجمل ، مما يمكن أن تتيحه لها بيئتها في الحياة اليومية اللامجدية ، إلاّ أنها محاطة بقشرة كالحراشف ، فإذا ظللتُ في هذه الأثناء بالقرب منها ، فلا بّد ، عاجلاً ، أو آجلاً ، أن تنتقل شرارة سحر شخصيتي ، أو بالأحرى ، إذا أردنا التعبير الأفضل ، شرارة النظرة المتوهِّجة للشخصيات الأجنبية السامية ، التي استهدي بها ـ من نفسي إلى نفسها ، مخترقة القشرة ، بحيث تستيقظ من سباتها ، وتزول الغشاوة عن بصرها ، وتعرف قيمتي ، وتتعلق بنفسي . فالنفس في مقابل

الاعتياد ، والفكر في مقابل الخمول والشخص في مقابل العشيرة ، هكذا تكون الحرب الآن ، والسحر هو سلاحي ، والسيدة الصارمة هي قائدي الجبّار . فلْنَر حقاً من عساه يكون الأقوى! » .

وفي الصباح ذاته بحث عن مسكن خاص على أساس التنبؤ التكهُّني بأن الشفاء السحري يمكن أن يتطلب وقتاً أطول .

وصاح العقل قائلاً : «هنيئاً لك! »حين انتقل بمتاعه في ساعة متأخرة من المساء ، وكانت فكرتان تعبران في خاطره ، وتتهامسان بحماسة ، إلى أقصى الحدود .

كانت أقرب الفكرتين تقول : «رجل آخر أيضاً ، يريد أن يُبْتَر له ساق قبل أن يتقبل العقل» .

ولكن الفكرة الأخرى كانت تنتظر في حذر إلى أن أصبح خارج المضمار ، ثم قال ساخراً ، في نظرة إلى الوراء ، في تعليق وقح : «لأنه متيمّ ، ببساطة ، على أية حال» ومع ذلك فقد هربت مندفعة يسابق رأسُها رجليها ، إذ انهال عليها ڤيكتور بالسباب والشتائم في فورة غضبه .

ولكن الخيال لوَّح لڤيكتور في ألفة وثقة ، يدعوه لينتحي جانباً : «دعهم يثرثرون ، وهلمَّ ، فإني أريد أن أعرض عليك شيئاً ما » ، وباعد ، شيئاً فشيئاً ، بين ستارتين ، بمقدار ثلاثة أصابع فحسب ، أو على وجه الخصوص بمقدار ما يمكن للمرء أن يرى من خلال الشق ، وإذا هناك ، على خشبة مسرح ، بسويْدا واقفة ، وهو نفسه ، ڤيكتور . كانا يقفان ويد كل منهما في يد الآخر ، وهما ينظران أحدهما إلى الآخر نظرة حميمة . ثم قالت له : «أنت الأعلى ، والطيب ، والمُؤْثِر على نفسه ، وكل ما يحق لي أن أهبه لك من دون خطيئة فهو لك ، سَمِّ ذلك صداقة ، أو سَمِّه حبّاً » .

وقال الخيال يبتسم ابتسامة الرضى ، وهو يغلق الستار من جديد : «لم يكن هذا إلاّ تجربة صغيرة ، لكي أعطيك تصوُّراً ما ، وسوف أعرض عليك فيما بعدُ الكثير أيضاً ، والأجمل كثيراً» .

في جحيم الدَّعة

ولكي يعرض للسيدة الجامحة الشامسة شخصيته ، لم يكن له بدٌّ أن يتمكن من اللقاء بها قبل كل شيء ، وعلى نحو كثير التواتر في الحقيقة ، على أن يكون ذلك منتظماً قدر الإمكان ، وذلك لأن المزايا الشخصية ليست بالأسلحة البعيدة المدى . ولكن أين ؟ يالهذا السؤال! وأي سؤال أبسط منه ؟ في البيت ، بالطبع! ولماذا يتخذ المرء في العادة وكيلاً ؟ على أن هذا كان قد دعاه بلا ريب!

واستقبله الوكيل في لقاء بالغ الحرارة ، ولبث ساعة طويلة يتباحث معه في مسائل علمية ، على أن زوجته ، التي كانت هي المقصودة بالزيارة ، ظلت متوارية ، وحين لقيها عند انصرافه ، جادت عليه بتحية باردة كالجليد فهم منها أنها تحظر على نفسها زياراته .

وإذاً فلم تستقم الأمور على هذا الطريق ، ولم يكن له بدٌّ أن يدركها في مكان ثالث .

وأخذ يتحرى عن المكان الذي دأبت على الوجود فيه ومَنْ تخالط ، واتفقت الأخبار على أن مجال مخالطتها في المجتمع يكاد يقتصر حصراً على نادي الإيدْياليا ، وتنهّد ڤيكتور من أعمق أعماق قلبه : «الإيدياليا!» ، لقد سبق أن تذوّق الإيدياليا ، في تلك الأيام ، مع السيدة كيلر . وقال يشجِّع نفسه ـ «ويحك ، إنهم في الأساس أناس جديرون بالمحبة ، ومن أهل

الفضل ، بل يتميّزون بالتهذيب القلبي النادر ، على الرغم مما ينطوون عليه من الإفراط في المذهبية التي تستند إلى الكتب المدرسية ، وهو ما يتبجّحون به ، وحَسْبُهم أنه ما من إنسان منهم تركني أشعر باستيائه من الحادث العابر مع كورت! ـ إذاً ، مع شيء من الإرادة الطيبة...» . وانضم إلى اجتماعات الإيدياليا ، في كراهية للدعوات الأخرى ، وإهمال للسيدة شتاينباخ ، وقد عقد العزم على الصبر على أسوأ المغامرات المتصلة بعالم الدَّعَة .

على أنهم قابلوا ، هم أيضاً ، الإرادة الطيبّة بمثلها ، ومع ذلك فسرعان ما باتت تمارس التهكُّم قوةُ التناقضات في لعبة الانسجام المتكلَّف .

وكان هناك قبل كل شيء ولعه الفطري (أو المكتسب ؟) بالانعزال ، الذي كان يسبِّب له القشعريرة في مواجهة أي تجمُّع من البشر مهما كان اسمه ، فضلاً عن أن يكون الآن «رابطة»! ، وتحمل فوق ذلك أيضاً اسم الإيدياليا! وكان هؤلاء ، بدورهم ، يفترضون بصورة مسبقة ، في حالة كل إنسان ، خصلتين رئيسيتن لم تكونا متحققتين فيه . وهما : ظمأ أبدي إلى الثقافة ، وجوع لا يشبع ، إلى الموسيقا . كان هؤلاء القوم ، من دون الموسيقا ، يقعون في حَيْصَ بَيْص ، شأن البدو الذين أَضَلّوا بعيرهم . وكان من الممكن أن يسائل كلٌّ منهم الآخر : «هل تعتزم أن تعزف لنا شيئاً ما ؟» وكان هذا «الشيء» يستفزه من كرسيه . وهل كان القوم يقولون أيضاً : هل تريد أن تحدثنا «بشيء» ما ؟» .

أما فيما يتصل بالثقافة فقد كان التعارض أشد وضوحاً : كانوا يهتمون بكل شيء ، أما هو فلم يكن يهتمّ بشيء . (وكان سبب عدم اهتمامه بشيء أن نفسه المترعة إلى الحد الذي يطفح عنده الكيل ، بالأخيلة والقصائد ، كانت ترفض كل تقبُّل من الخارج على وجه الإطلاق) .

غير أن المسألة الرئيسة كانت تكمن في أنه كان يفتقر إلى الشروط الأولية لأسلوبهم المتواضع في المؤانسة : وهي المهنة بمعناها الصارم ، مع ما يتصل بها من الواجبات والجهود ، والحياة العائلية بهمومها ، وبعبارة موجزة : الحاجة إلى الاستجمام والاسترخاء ، وعلى وجه الإجمال ، ذلك التعارض العريق في الحياة بين غجري الفكر وبين صاحب العائلة المحمود . ثم إن الظرف المتمثل في أنه كان ينتظر شيئاً ، دونما عمل (وهو إدخال بْسيِوِيْدا في حظيرة فكره) لم يكن له بدٌّ ، وحده ، من أن يكدِّر مزاج حياته ، لأن وضع التسكُّع ليس من الحالات التي فُطِر عليها فكر البشر .

وهكذا نشأ ، بدلاً من التكيُّف المأمول عدم ارتياح من قبل كلا الجانبين . فقد كان امرءاً «غير مريح» بالقياس إليهم ، وأصبحوا بالقياس إليه أناساً يبعثون على الغثيان . وما من شك في أنه كان يبذل جهداً مخلصاً لإخفاء شعوره بالغثيان ، لكيلا يمثل في نظرهم صورة بيتر الأسود* في لعبة الورق ، ولكن فلتجرِّب ذلك ، ولتُخْفِه ، عندما تشعر بالغثيان! «إلى أيّ حدّ طاب لك الوجود بيننا ؟ هل تأقلمت شيئاً فشيئاً ؟ » ـ وكان يقول مؤكِّداً بحماسة وهو يئن ويتأوَّه مثل حوت أصيب بحربة .

هنالك أخذوا يواسونه ، على الطريقة المألوفة في الريف ، وبموجب الأغنية الشعبية «على نفسِك جنيت» . وكان يرد بعد كل كلمة عزاء تحذير يتقاطر ، مثلما يخرج من تلك الأطباق المزدوجة الخاصة بحساء اللحم ، حيث يسيل من الفم الأعلى الدهن ومن الفم السفلي مادة اللحم . وكان ثمة انحناءة لا تتوقف ، لشخصية ، مع الأفعال المساعدة : «يجب عليك ، ينبغي

* لعبة ورق للأطفال من يخسر فيها يؤشَّر على وجهه بخط أسود ، فإذا كثر ذلك فوق وجههُ سمي بيتر الأسود .
«المترجم»

لك» ، أو في جذب عكسي : «لا يجب عليك ، لا ينبغي لك» . فلنَرَ ماذا كان ينبغي له في الحقيقة ، تبعاً لرأيك ؟ وأي شيء ما كان ينبغي له أن يفعله ؟ ما كان ينبغي له «أن يُحْمَل على الانصراف» ، «ولا أن يدع الناس يلعبون بعقله» ، «ولا أن يعتزل الدنيا» ، «وكان ينبغي له أن يتغلب على نفسه» ، و«أن يخرج من قوقعة نفسه» ، و«أن ينفُضَ عن نفسه إهاب السُباتِ والتبلُّد» (ڤيكتور ، تذكّر الدرجة التي حصلت عليها : أنت مصاب بالسُبات والتبلُّد) ، وأن يتزوج ، شيئاً فشيئاً ، ربما مع الزمن ، ولِمَ لا يكون ذلك يا تُرى ؟ وأن يكون ذلك في الحقيقة ، من امرأة ذات مزاج هجومي ، فجّة ، لكي تنتزعه بالقوة من تبلُّده وسباته (لقد حُسِم الأمر ، وباتت الكلمة لائقة بك) . وقد يحسن به في هذه الأثناء ، بلا ريب ، أن ينتهز الفرص المتعددة الجوانب التي يمكن أن تتاح للمرء في المدينة هنا ، أم تراه لا يفكر في شيء أسمى ؟ ففي يوم الخميس ، مثلاً ، قد تكون هناك محاضرة ممتعة عن الحب عند الجرمان القدماء ، وفي يوم الأحد عازف كمنجة في السابعة . ومن المفهوم جيداً أنه ليس على الإطلاق مجرد نابغة من الأطفال غير طبيعي ، يستحق الرثاء ، بل كانوا بالأحرى آخر من يحيّون مثل هذا المخلوق المدلَّل المصطنع ، ، كنبات البيت الزجاجيّ ، بل هو هذه المرة فنان أصيل موهوب من الله ، ثم ألا يغني بالفعل أيضاً أبداً ، أو يعزف ، على الأقل ، على أية آلة ؟ هناك خاطرة ، أو اقتراح : في الرابع من كانون الأول ، بمناسبة ذكرى تأسيس الإيدياليا ، يتم تقديم عزف احتفالي من قبل كورت : «ألا تستطيع هنا أن تلعب دوراً ما ، وعلى سبيل المثال ، دور شيخ البحر ، أو جنّي الجبل ؟» ولماذا لا تسجّل نفسك ، ببساطة ، عضواً في الإيدياليا ؟ ثم ألن يكون من الطبيعي بدرجة أكبر ، والأدعى إلى الراحة ، أن يتباسط مع الرجال في الأحاديث ، شأن الآخرين ؟

أو كانوا يحاولون أن «يفتحوا نفسه للمرح والبشاشة»... فإذا وُجِدت رقصة قصيرة أو لعبة من ألعاب المجتمع ، أو لعبة البحث عن الحلقة ، أو تدوير الطبق ، ونحو ذلك ، انتزعوه من ذراعه ، بحرارة : «هَلُمَّ ، ولا تدع اليأس يرتسم على وجهك ، وأدْلِ بدلوك في مساعدة! فإن المرء ليس بمضطر دائماً إلى أن يحافظ على كل هذا المظهر الاحتفالي» . وعندما تكشَّف ، على نحو مطرد الزيادة مع مرور الزمن عن «أنانيّ» عُرِف باسم صاحب الصوت الشديد الانخفاض ، بينما كان الآخرون يبدؤون الغناء بالصوت الحاد ، وكان فوق هذا يمثل «الواقعي» المتعثِّر ، الذي لا يهتم بشيء ، ولكنه يرفض الاهتمام بأي شيء على الإطلاق ، مع كونه ، فوق ذلك ، ينطوي على جهل يبعث على التبرُّم ويقف له شعر الرأس (وكان من أمثلة ذلك أنه لم يقرأ «تاسّو*»!) ، زادوا من حدة لهجتهم ، وأضيف إلى النصائح ، والتحذيرات ، اللَّوْم . وكان هذا بالطبع ، دائماً ، في إطار من الصداقة الكاملة ، أوَ لا يكون اللوم في حد ذاته برهان الصداقة الأكثر بعداً عن الغش ؟ وإذاً فقد كانوا يحسِّنون فيه مع اقتران ذلك بأحسن المقاصد . لمجرد أن يكيِّفوه مع الإيديااليا ، وذلك ، على وجه التقريب ، مثلما يتولى مجلس عائلي معالجة حلة الفراك قبل رحلة من الرحلات بحيث يمكن إدخالها في الحقيبة : إذ يرى واحد منهم أنه لا بدّ من طيّ الكُمَّيْن بطريقة ما بينما يرى الآخر طريقة ثانية أوْلى ، ويوجه طرف ثالث الياقة نحو الأعلى ، ويعمد رابع إلى طيّ الذيل وشَمْرِه نحو الأعلى ، ويضغط اثنان منهم ، في حركة اتقاء ، بالقبضات على الرداء المحضَّر ، ثم يوضع فوق ذلك البيانو القديم .

واتفق في هذا الصدد ، على نحو يفتقر إلى البراعة ، أن ڤيكتور كان

---

* توركفاتو تاسو (١٥٤٤ ـ ١٥٩٥) ، شاعر إيطالي ، كتب ملحمة «القدس المحررة» . «المترجم»

يحسّ ، حيال ذلك على وجه الخصوص بكراهية قاطعة لترك الآخرين يحسِّنون من شأنه ، وذلك لأنه كان يتولى هذا الأمر بنفسه وكان صبره أكثر ما يكون نفاداً حيال ألوان الشكوى والتذمُّر من مظهره الجسدي . فقد كان هذا انتقاداً لمظهره الخارجي وتهكُّماً عليه متواصلاً . فلم يكن ثمة شيء فيه يظهر في صورة صحيحة ، من رأسه إلى قدمه ، لا شعره ولا قصَّة لحيته ، ولا ثوبه ، ولا حذاؤه ، ولم يكن في وسعهم البتة أن يعزّوا أنفسهم بياقات قمصانه . ولم تجد المحاولات الوجلة للرد بنقد مضاد ، أذناً صاغية .

ثم كانت تجيء آلاف الحالات من الحَمْل على محمل السوء مما يحدث في المدن الصغرى! وكان يردُّ عليها بحساسيته التي لاتُصدَّق ، حساسية الإنسان الخيالي (التي تمثل الجانب المقابل لإرهاف الشعور) ، والتي تُحَوِّل ، بفعل النبش المتواصل الذي لايهدأ ، وخزة إبرة ، إلى جرح متقرِّح ، وتضخِّم تصرفاً متهوِّراً ضئيلاً إلى حجم إهانة قاتلة! وهكذا كان كلٌّ من الجانبين يسهم بدوره في إيجاد تلك الحالة التعذيبية التي دأب الناس على تجميلها بالكلمة اللطيفة «سوء الفهم » . على أن حالات سوء الفهم لاتنطوي على الكثير في حد ذاتها ، من حيث مفهومها . فياسبحان الله! في هذه الايدياليا المُسالمِة ، حيث يتشاجر في مطلع كل عام أو منتهاه ، هذا مع الآخر ، ويتشاجر كل الناس بعضهم مع بعض في أيام الاحتفالات ، ماذا كانت تفيد هنا كلمة حالات «سوء التفاهم» ! لقد كان كلٌّ منهم يحمل لصاحبه كل شيء على محمل السوء ، ولكن لم يكن أحد منهم يؤاخذ الآخر فيما بعد . أمّا هو فكان يدخل ، شيئاً فشيئاً ، بما ينطوي عليه من الحساسية المفرطة وحب التضخيم ، وبذاكرته الهائلة التي لاترسل شيئاً ، مهما صغر شأنه ، على الإطلاق ، إلى عالم النسيان الشافي ، وبشعوره المتيافيزيقي في الحياة ، وهو الشعور الذي كان يُثْقِل أدنى حدث من الأحداث بالتوكيد الرهيب ، وبفن

حسابه الخيالي الإجمالي الذي كان يحفظ دائماً بالجملة ماكان يتعرض له في حالات فردية متفرقة (وإنما تكون المسألة على هذا النحوفي أبسط حالاتها) ، في حالة كحالة دب داهمه النحل . ولاريب في أنه كان يسرُّه أن يسلِّم بأن كل شيء إنما كان يحدث له بدافع الصداقة البحته ، ولكن كان يبدو له أن الصداقة لها في هذا البلد شَبَهٌ ملعون بألم الأسنان . وفجأة كان النحل الذي أغدق عليه خياله التغذية السخيّة ، قد تنامى إلى درجة الغيلان التي كانت تترصَّده بنظراتها الغادرة .

وأصبح ، من جّراء ذلك ، الآن سيىء الظن مثل كلب مقيد بالسلاسل في الغسق ، يتشمَّم النية السيئة في كل مكان ، ويلتمس التفسيرات يميناً وشمالاً ، ويطالب بردّ الاعتبار والاعتذارات مما أوقعه في المستوى الصبيانيّ . وكانت السيدة زوجة القس فيهر نفيلز قد صافحته بيدها اليسرى : «هل حدث ذلك عن قصد وتصميم ، لإذلالي ؟ » ، حتى لقد طالبها بتفسير لذلك بعد ليلة مُسَهَّدة ، وعليه سيماء ضابط مهان . وصاحت زوجة الدكتور ريتشارد في غيظ : «أنت امروٌ لايمكن التفاهم معه على الإطلاق» ، وذلك بعد ماصدر منه من التصرُّفات الصبيانية السخيفة . وعاد اللوم يعذِّب الآن نفسه ذات الضمير الحي التي كان يحب أن يجعل صفحتها بيضاء نقية في كل لحظة ، وعلى أهبة الاستعداد كما يستعد المرء للمسير الاستعراضي في يوم الحساب ، مع مايخالجها من الهواجس والهموم ، «لوكانت على حق ؟ ولِمَ لا تكون على حق أيضاً ؟ هذا ممكن بلا ريب . ولكن كيف يمكن تدارك ذلك ؟ في وسعي أن أُحَسِّن نفسي ، ولكن لاأستطيع تغييرها» وكتب إلى صديقة الخارج ، في تضاؤل وذُلٍّ كاملين : «إذا تحدثتِ بصدق ، وإخلاص ، ومن دون أدنى مراعاة : ألا يمكن التفاهم معي ؟» . وكان جوابها : «إني لأضحك من سؤالك .فهذا سؤال سهل كأسئلة الأطفال ،

وكما يفعل المرء مع أرنب صغير . وكل ما في الأمر أنه لابد للمرء أن يحبك ببراعة ، كما ينبغي ، وأن يقول لك ذلك من حين إلى آخر أيضاً » .

وكان أكثر ما في الأمر سذاجة أنه لم يلقَ أولئك الذين كان يلتمسهم في الأيديااليا والذين جرّ على نفسه ، من أجلهم كل ألوان الأذى المتصلة بالصداقة ، إلاّ في أحوال استثنائية . وكان تفسيرهم يقول : « إن السيدة زوجة المدير ڤيس ممن يلازمن البيت إلى حد غير عادي ، فهي تعيش لزوجها وطفلها على سبيل الحصر تماماً » . وكان في هذه الأثناء يخالجه إحساس داخلي بأن هذا لم يكن السبب الوحيد ، بل كانت تتخلّف في المقام الأول لكيلا تلتقي به . غير أن هذا كان أسوأ ماكان يمكن أن يحدث له ، إلى حد بعيد ، وكان إذا ظهر مِنْ بَعْدُ ولم يعثر عليها جعل يحملق شارد الذهن في الكرسيّ الذي كان يُرَجِّح أن تقعد عليه لو أنها حضرت ، ولم يكن ينبس ببنت شفة ، أو يسمع ماكان يُقال له . وكان يتلقى بذلك ، فوق تعاسة الانتظار ، مَغَبّة التوقُّع الخائب .

وكان يهيم على وجهه في كل مرة ، في اليوم التالي بعد مثل هذه الخيبة ، ذاهلاً عمّا حوله في المدينة ، مثل شبح ضلّ طريق العودة إلى مقبرته .

أمّا في الحالات الاستثنائية التي تكون فيها بسويْدا حاضرة : فكانت تكيل له الصاع صاعين ، بأمانة وصدق ، مقابل إساءته إلى أخيها ، مرفوعة الهامة ، بعزم وتصميم وشجاعة ، وتستخدمه مَعَرّةً فترميه بكل التعليقات الممجوجة ، مهما كان السبب ، إذ لم تكن ترى نفسها ملتزمه بالدقة ، وكان لايكاد يفتح فمه حتى تبادره بالهجوم على ذلك . وكان يتعرّض في هذا الصدد لجروح بليغة في شعوره المرهف بالشرف . وقالت ذات مرة تطعنه

بلهجة المتحكّم الجبّار ، حين زلّ لسانه فصاح قائلاً : «أما إنك لجميلة حقاً!» ، : «أنا لا أحب المتملّقين» ، وفي مرة أخرى ، حين جادلها في المقولة القائلة إن نبلاء أوروبا مجانين متشنّجون ، قالت توبخه : «أنت متعاظم» . وكان المقصود بهذا بالطبع مجرد الموسيقا المزاجية الأنثوية ، غيرأنه أدرك الكلمة بمعناها الحرفي على نحو ما يكون عند الشباب الطائشين ، ولم يكن له بدٌّ ، إذ فهمها بمعناها الحرفي ، أن يأخذها مأخذاً جدّياً وثقيلاً ، ولبث ثلاث ليال يختنق بالمَسَبَّة المزعومة . وكان كمن وضع عصا ، أو ناراً ، أو عقرباً ، إلى جانبه ، وجعل يختبر نفسه في أكثر زواياها خفاءً ليكفِّر عن خطاياه بلا هوادة ، في حالة الضرورة ، إلى أن ظفر آخر الأمر باليقين المنطوي على العزاء ، وهو أن الوصمة المعيبة غير موجهة إليه . كلاً ، فمن يرفع قبعته أمام السائل وهو يناوله الصدقة ، ومن لايرفض أن يصافح اللص الذي ثبتت إدانته مثلما يصافح قساً إنجيلياً ، ومن يجرؤ على السلام على عاهرة في رابعة النهار ، ليس بالمتعاظم ، ومن كان يشمئز طوال حياته من الحركة البهلوانية المتمثلة في الظفر بالحظوة عند امرأة عن طريق الاستخفاف بعدوتها ، فليس بالمتملّق . وصاح تذمُّره قائلاً : «إذاً فلماذا يقُال هذا لي!» ، وجعل ، منذ الآن فصاعداً يقعد في مواجهة بُسويْدا وعليه سيماءُ كما لو أنها قلعت إحدى عينيه ثم غفر لها ذلك . ولم يكن في وسع زوجة المستشار الإداري أن تتفرّج على ذلك مزيداً من الوقت ، لأن طبيعتها المسالمة لم تكن تحتمل الشقاق الذي يجعل النفس موزَّعة ، ضمن محيطها ، ولمّا كانت تنطوي على محبة قلبية تجاه كلٍّ من ڤيكتور والسيدة زوجة المدير على حد سواء ، فقد استنتجت ، بموجب الأسلوب اللامنطقيّ المحبَّب إلى قلوب النساء ، والذي يقول في هذا الصدد ، إذا كنت أحب فلاناً وفلانة فلا بدّ أن يكون هذان الفُلانان متحابَّيْن ، مجرَّدَ وجود «سوء

تفاهم »بين كليهما . وبناءً على ذلك قامت الآن بدور الوساطة ، إذ وصفت لڤيكتور فضائل السيدة زوجة المدير ، ولهذه ، من جديد ، مزايا ڤيكتور . وأعلنت السيدة زوجة المدير ، في شهامة ، وبموجب طبيعتها النقّية البسيطة ، حيث تم تصوير الفضائل بخطوط رسم قوية ، مثلما يحدث في نقوش الفريسكو ، استعدادها لنسيان حكايته مع كورت ، واشترطت ، بحكم بدهي ، أن يجتهد ڤيكتور في المستقبل في أن يكون دَمِثاً حَسَن المعاشرة ، وأصغت ، في مقابل ذلك ، إلى ألوان الثناء على ڤيكتور وعليها سيماء عدم التصديق ، وفي الوقت الذي كانت السيدة كيلر فيه تبذل جهدها في حديث متحمس لمصلحة الرجل الذي وضعته تحت حمايتها ، كانت هذه تستجمع انطباعاتها لنفسها ، رويداً رويداً ، حتى شكلّت منها صورة لشخصية ڤيكتور ، وكانت تفعل ذلك على مضض في الحقيقة ، إذ كان مما يثير امتعاضها أن تشغل أفكارها به .

أمّا أن هذا الإنسان كان بغيضاً إليها ، وأنه كلما طال به الزمن زاد ذلك في كراهتيها له (بصرف النظر تماماً عن أهانته لأخيها) ، فذلك أمر لم تكن في حاجة أبداً إلى أن تسائل نفسها عنه ، إذ كانت تحس به إحساساً واضحاً . وكان يكفيها من أجل ذلك تبدُّل حياته المتسمّ بالميوعة والتقلُّقل ، والذي لم يكن يفكر في إخفائه! «ومع ذلك فلا ينبغي لنا أن نكون غير منصفين ، ولنحاول أن نستخلص منه جانباً طيباً » ولكنها كانت مهما قلّبته على وجوهه لم يظهر للعيان منه جانب طيب ، من أي ناحية . وكان سجلّ سجاياه يبدو ليس بالبعيد الشبه بسجل من سجلات الخطايا .

وكان سلوكه اللارجوليّ ، المفرط في الرقة ، الذي يكاد يكون زائف الحلاوة ، والخالي من القوة والبأس ، والمفتقر إلى الشخصية ، بصوته

الخافت ، وتهذيبه المبالغ فيه ، وثيابه المفرطة في التأنُّق ، ولغته الغريبة المتكلفة ، وطبيعته غير الشفافة ، التي تتخذ الكثير من الأشكال وتدل على الكثير ، والمستغلقة والسيئة النّية ، حيث لا يعرف المرء أبداً موقعه منه ، وهو يتخذ في كل يوم وجهاً مختلفاً (أنا أحب البشر البسطاء ، الصُّرَحاء ، ذوي القلب السليم) ـ ونفسه الساخرة ، التجديفية ، التي تتهكّم على كل شيء ، حتى أقدس المقدسات ، من ديار ، ووطن ، وأخلاق ودين ، وشعر وفن ، بمعارضات رخيصة ـ من دون جدية ولا عمق ، ولا مبادئ ، ولا مُثُل ـ فليس هناك روح متوثبة ، ولا حرارة ، ولا شعور (كيف يمكن لامرئ ، مثلاً ، ألاّ يحب الموسيقا ؟ إلاّ أَنْ يكونَ امرءاً لاقلب له!) أما المشاعر فهو يخلو منها على أية حال ، وإلاّ فإلى من انضمّ خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة ؟ لا إلى أحد » ـ ثم هناك معارضاته المنطوية على التطاول ، وتصرّفاته السخيفة الخالية من اللباقة ، وحماقاته التي تصل ، فيما تصل ، إلى حد الإهانة! أَلَم يبذل القوم ، على سبيل المثال ، أقصى الجهود لحمله على الإقلاع عن عادة مخاطبتها بلقب « الآنسة » .

كلاّ ، لم تكن كراهيتها له بعيدة عن الإنصاف مهما تقل السيدة كيلر وزوجها في صالحه ، وقد كان أبوها أيضاً خليقاً أن يدينه ، بل كان خليقاً أن يلعنه ، بكلمة واحدة : « إنه ليس بالواضح » . وسمعت صوته الوقور الجليل على نحو ما كان خليقاً أن يصيح به ، ولمّا كانت السيدة كيلر قد أشادت بمواهب ڤيكتور ، فقد صاحت قائلةً : « وأين مواهبه ، ياتُرى ؟ أرجوك أن تريني فيه موهبة واحدة! وأي شيء يستطيع ياترى ؟ أم ماذا يعرف ؟ إنني لا أرى من المواهب إلاّ غيابها »

وقالت السيدة كيلر تذكّرها : « سوف تضطرين على الأقل إلى التسليم

بوجود الفكر عنده »وهنا عيل صَبْرُ السيدة زوجة المدير وقالت بصوت هادر ينم عن الامتعاض : « الفكر! وأنا أيضاً أحب الفكر! وأقدره ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه : أي فكر هذا . فالفكر ، فيما أرى ينمّي ماهو حق ، أو خير ، أو جمال ، في صورة أفعال أو أعمال أدبية . والفكر يقدِّر ماهو جدير بالتقدير ، وينحني إجلالاً للمآثر ، ويتحمّس لما هو سامٍ ونبيل ، والفكر يتكلّم بوجه خاص عندما تدور المسألة حول أمور جدية . أمّا هذه الألوان من العبث الواهي بالألفاظ ، والباعث للضحك ، فأنا أعترف ، إذا كان هذا هو الفكر فأنا لا أعتد به البتة ، ولا أُوليه أدنى اعتبار ، هذا النوع من الفكر أكرهه وماذا يجديني أن أقول [مدام حصان بخاري] ، بدلاً من [الطبيعة] ؟ وعلماء النفس ـ أسوأ علماء النفس قاطبة ، ماذا يفترض أن يكون هذا ؟ إذا كان هذا هو الفكر فأنا أطالب بأن أوصم بوصمة الغباء . وهذا كورت يتمّيز بالفكر بلا ريب ، أليس كذلك ، ولكنه يبدو امرءاً مختلفاً! »وحين وافقت السيدة كيلر على ذلك بحماسة تحوّل ما كانت تقصده من إعلاء شأن ڤيكتور إلى نشيد في الثناء على كورت .

وبعد أن نقعت كلتاهما غُلَّتيهما في الثناء على كورت أعلنت السيدة زوجة المدير آخر الأمر استعدادها لتغيير أسلوب تعاملها مع هذا الإنسان المزعج ، بحيث يكون أرقَّ وألطف ـ إذ ان الدماثة وحسن المعاشرة لا يمكن أن تكونا ضارتين أبداً ، كما أنها لن تخسر من وراء ذلك شيئاً .

أمّا الذي رفض ، في تصُّلب وعناد ، قبول المصالحة المعروضة ، فكان ڤيكتور . ولم يكن ، بالطبع ، يدع بسويْدا ، أي السيدة زوجة المدير ، بلحمها ودمها ، أبداً ، تتخذ صورة المرأة الموجودة حقاً وفعلاً ، إذ لم يكن يوجد بالقياس إليه ، تفاوض معها قبل أن تتحوَّل بفكرها » ، أي تعود من جديد إلى الانسلال في روح العذراء تويْدا .

وحين لقيتَ زوجة المستشار الإداري الصدود والإعراض هنا أخذت تلتمس الصلح من وجهة أخرى ، ألا وهي المصالحة بين كورت وڤيكتور . «إنه لأمر غير ممكن البتة ، عندما يكون كلا الرجلين لم يتعارفا إلا منذ حين ، وهكذا دواليك» . ثم أفضى هذا إلى ذلك العرض الخائب للانسجام ، الذى يزيد المسألة سوءاً إلى حد بعيد ، عمّا كانت عليه من قبل وكان فيكتور هو الذي لعب دور الجمّوح المعاند ، من جديد . والحق أنه رضي ، بعد لأي ، أن يجتمع به ، وامتنع ، على قدما استطاع أن يجشّم نفسه ، عن التفوُّه بكلمة معادية ، وللتعويض عن ذلك عامل كورت ، مع ذلك ، معاملة بلغ ما فيها من الاستكبار أنها جاءت معادلة لأسوأ الإهانات ولكن لم يكن في هذه المرة اعتذار ، وكانت نية الإهانة ظاهرة جلّية . وقال يسائل نفسه بعد ذلك متعجّباً : «لماذا ، ياتُرى ، أُضْطَرُّ إلى إذلال هذا الإنسان ، على وجه الإطلاق على الرغم من أنه لم يَنَلْني بسوء ، وعلى الرغم من أنني أعلم أن ذلك ليس من الذكاء ، وأنني قد أظفر بالحظوة عند بسويْدا عن طريق سلوك يتسم باللباقة والدماثة ؟ »ولم يُحِرْ جواباً ، وكان هذا قد حدث له مثلما يحدث للكلب عندما يرى قطة ، فإذا سمح لنفسه بالامتناع عن مهاجمتها فسيكون أقل ما في الأمر أن يلتهمها بعينيه .

وقال في حيرة : «إنها من حكايات الطبيعة ، فرط حساسية لاتفسير له ، ولا سبيل إلى التغلب عليه!» وكان يغالط نفسه ، إذ كانت هذه من قبيل خصام أهل المهنة الواحدة : غضب النبي الأصيل على النبي الزائف ، ورفض الوريث لصائد المواريث ، وبعبارة مختصرة : كانت تثير ثائرته ضد هذا العبقري المزَّيف الأنفاس الحارة الصادرة عن السيدة الصارمة . وعندئذ تخلَّت زوجة المستشار الإداري عن وساطتها . غير أن المسألة الخاصة ببسويْدا

كانت قد انتهت بالطبع على نحو حاسم . وكان حكمها عليه منذ الآن فصاعداً يتمثل في قولها : «وهو فوق هذا كله إنسان خبيث يحاول الاحتكاك بأخي وافتعال المشادات معه بدافع الحسد المنطوي على الغرور» وكانت تحرص على ألاّ يظل على غير بيِّنة فيما يتعلق بحكمها هذا . وفيمَ يلجأ المرء ياترى إلى التعليقات الجانبية والتلميحات ، في العادة ؟

ثم عاد إلى التذمُّر من هذا «الظلم» الجديد ، تذمُّراً يخالطه الاندهاش «ما الذي يعنيها من أمر أخيها على وجه الإطلاق ؟ فهذا امرؤ لا يمت إلى المسألة بسبب على الإطلاق بل إنّ مجرد وجوده يعني خطأ في هذه الحكاية» . ثم إن ماطرأ على علاقته مع بسويدا من خطوات التراجع بدلاً من خطوات التقدم ، آخر الأمر ، كان يتعارض عنده مع كل عقل . ولطالما كان يسائل نفسه وهو مغيظ مُخْنَق : «مالها تتردد ؟ ومتى تريد أن تصحو آخر الأمر ؟ أتراها تحسَب ، مثلاً ، أنني أهوى الانتظار عقوداً من السنين إلى أن تعود إلى رشدها ؟ » ثم يُقَدِّر الآن أن تعود القهقري بعدُ أيضاً ؟

إنه تصوُّر لايُطاق . ولكن كيف يمكن توجيه دقّة هذه المسألة ؟ لم يكن يعرف وسيلة أخرى سوى «سحره» ، وهو السحر ذاته الذي عجز حتى الآن عجزاً يدعو إلى الرثاء . وكيف وصل الأمر إلى أن عجز هذا السحر ؟ وأنَّ ألوان سيطرته المشرقة لم تنتقل شرارتها خارجة منه إلى نفسها ؟ إن أحد التكُّهنات هو أن من المحتمل أن تكون الشرارة لاتنتقل إلاّ في حالة الوجد ، وعلى هذا لم يتخلَّف التأثير المنشود إلاّ لأنه لم يكن يواجه السيدة ، دائماً ، حتى الآن إلاّ بجرأة مشلولة ، وبطاقة أدركها الوهن والتعب ؟ ولذلك فحين شعر ، ذات مساء ، بعد عمل من أعمال الخيال الإبداعية ، أن روحه باتت

تغصّ بالشخصيّات النبيلة إلى درجة جعلته يحسب أنه يحس حواليه بدائرة من السديم مؤلّفة من هؤلاء ، استجمع شجاعته وزارها في المنزل تحدوه رغبة كان يعيها في سرّه ، وهي أن يدع سحره يحدث مفعوله فيها مركّزاً هذه المرة ، على نحو ما يحدث في حالة الماس الكهربائي ، وإذاً فهو ضرب من التجربة السيكولوجية ، ولكنها ليست على الإطلاق بالتجربة الطائشة ، إذ كانت المسألة تتعلّق بخلاصه .

وشاءت المصادفة أن تكون عندها في ذلك المساء صديقة من صديقاتها أيام المدرسة كانت تتذوّق معها السعادة البريئة التي تنطوي عليها التصرفات الطفولية ذات البهجة والمرح ، إذ تتمثلان الماضي وتستعيدانه ، وتنفض هي عن نفسها ، سُوَيْعة من الزمان ، مكانة الأم التي حظيت بها حديثاً ، فإن مما يحسّن حالة المرء كثيراً ، بلا ريب أليس كذلك ، أن يكون ذات مرة ، على سبيل التغيير ، مُتَبالِهاً حقاً من كل قلبه . وكانت إحداهما قد نصبت على رأسها قَلَنْسُوةَ أطفال ووضعت الأخرى قبعة أسطوانية ، وكانت السعادة تقتضي أن تتواثبا بهما في الحجرة هنا وهناك ولكن ڤيكتور بلغ من هوان شأنه أنهما لم تريا فيه امرءاً جديراً بأن تعرّضا نفسيهما من أجله للإخلال بمسار لعبة الشّيْطنة ، وإذا هو يقعد ويُباح له أن يتفرّج على المسرحية المضحكة . وبعد أن لبث ربع ساعة يفعل هذا ، عرف منذ الآن فصاعداً ، وإلى آخر عمره ما كان عليه حال سحره الروحي! وولّى ، كما جاء ، من دون أن يلتفت إليه أحد ، وتسلّل إلى بيته في اكتئاب وقنوط .

وإذا ثقته بنفسه تضيع منه الآن لأول مرة . وكان فزع يزلزل أوصاله وكأنما تحطّمت العجلات الخلفية في عربة نصره وباتت عربته تجرّر محورها

الذي يدُق الأرض دقّات قاسية ، وحين وجّه فكره لالتماس العزاء اكتشف أمام ناظرية ستاراً أسود ، وكان في الحقيقة مازال مرفوعاً ، وفيه مع ذلك حركات مخيفة ، وكأنّ في وسعه أن ينسدل ذات مرة على غير توقُّع ، من دون إشارة بجرس .

وبعد أن ثبت أن سحره من غير طائل ، ماذا بقي أمامه ؟ كان الخوف يشلُّه . وفي غمرة خوفه لجأ ، قبل الأوان ، إلى ورقته الرابحة الأخيرة التي كان يدّخرها إلى وقت لاحق . إذا كان قلبها قد تعرَّض للزلزلة من قبل ، فإعادتها إلى الجادّة عن طريق صورتها هي ، من أيام العذرية السابقة ، النبيلة . وذلك أن النظرة إلى مظهرها الغابر ، العذري ، لا بدّ له أن يوقظ الذكرى من سباتها ، فيما يقدِّر ، وسوف تقوم تويْدا بمعاقبة بْسويْدا ، وذلك ، مثلاً ، على نحو ما يكون حينما ينفجر مجرم بالدموع فجأة عندما يضع امرؤٌ في مواجهته ، من دون تحضير ولا تمهيد ، صورته من أيام طفولته قبل أن يتطرَّق إليه الفساد ، ويندم على فعلته النكراء ويقسم على أن يغدو ، منذ الآن فصاعداً إنساناً مستقيماً كما كان فيما سلف . ولذلك استخرج ، بيد مرتجفة ، صورة تويْدا تلك (صورة قدّيسته) التي كانت السيدة شتاينباخ قد بعثت بها إليه قبل ثلاث سنين ، وهو يتحاشى النظر إليها ، في خوف ، إذ لم يكن يثق لنفسه بالمقدرة على الصمود لزحف الذكريات العاصف . وبعد أن تسلّح بهذه الصورة مثلما يتسلّح المرء بمسدس مشحون ، حجَّ في اليوم التالي إليها مرة أخرى ، في عمل من أعمال المخاطرة ، حتى لقد أوشك أن يحس بهواجس الرثاء لنفسه من استعماله مثل هذا السلاح الرهيب . ثم وضع الصورة ، قبل أن يدخل ، على البيانو ، وانتظر مفعولها وقلبه يدق .

ولم تكد تظهر تحت قنطرة الباب حتى لاحظت عيناها الحديدتا النظر

الصورة أيضاً ، وقالت تسأله بلهجة حادة ، شأن قاضٍ من قضاة التحقيق : «من أعطاكَ هذا ؟ ومن أين تستمد السيدة شتاينباخ الحق في متابعة إرسال صورتي إليك ؟» . ثم هزت كتفيها ، وقالت : «هذه آخر الأمر صورة رديئة ، وأنا لم أُحْبِبْها أبداً» . وكان هذا هو مفعول صورة القديسة .

وأصبح وضعه الآن جدياً ، إذ ما عاد في يده الآن ورقة رابحة . والحق أنه مازال يتشبَّث بأمله لضرورته بالقياس إليه ، ولكن بقبضة متشنِّجة ، وكان هذا الأمل يفتقر إلى التبرير المعقول ، إذ لم يكن له بدٌّ من أن يعترف لنفسه أن ما كان يأمله بات بعيد الاحتمال ، وأنه لا بدّ أن يأتي لنجدته شيء ما ، من الخارج ، لا سبيل إلى التنبؤ به ، للتثبت من صحة أمله وعلى أثر ذلك تجمع الحزن في قيعان روحه . وخرج هذا الحزن ذات يوم صاعداً ونشأ عنه الألم .

وكان ذلك بمناسبة حوار حول «تاسّو»* . إذا كان الحديث يتناول قوة جاذبية العبقري حيال النساء . وقالت بسويْدا إن قلب الأنثى يشعر بوحي الغريزة المعصومة ، بالانجذاب إلى الرجل غير العادي حقاً ، وذي الشأن والخطر ، وبعد أن قالت هذا تنهدت وهي مُطْرِقة تفكر .

وتجرأ على الاعتراض بقوله : «أأنت واثقة من صحة جملتك هذه ؟» .

وقالت تعانده : «مثل ثقتي بالحقيقة الأخرى ، وهي أننا نحس إحساساً قائماً على اليقين بمن لا يُعَدّ على أية حال إنساناً ذا شأن ، أو غير عادي» ، ولكيلا يفوته الانتباه إلى اللهجة المقذعة أهدت إليه إيماءة ونظرة مفعمتين بالتهكّم فوق ذلك . هناك أخذ يمزّقه ألم عميق ، ثم جعل التذمُّر يطلق الدم

(*) انظر الحاشية السابقة ، (ص ٢٦١) .

في جبهته ، وقال صوت السيدة الصارمة يأمره : «فلتقل مالديك من كلام» .

وامتثل لها على مضض ، إذ كان شعوره بالخجل ، وتواضعه يأبَيان ذلك إباءً هائلاً ، ومع ذلك فقد أطاع . وهكذا تكلم ، فقال : «ومن يضمن لك أنني لست بالرجل غير العادي ، أو الانسان ذي الشأن والخطر ؟» وكان لهذا القول الذي تم التفوُّه به بصوته المتردد ، طنين في الجدران الأربعة بلغ من قبحه الذي لايطاق أنه شعر هو نفسه بالخجل من جرّائه ، وأنّ كل الحاضرين غضّوا أبصارهم من الحرج وكأنما حدث أمر خارج عن حدود الأدب واللياقة .

ووجد القس فيهر نيفلز الكلمة المنقذة ، إذ قال وهو يتجه نحو ڤيكتور ، يذكره تذكيراً لطيفاً : «لا ريب أنه لايضير المرء أن يكون قرأ [تاسّو] أولاً قبل أن يدلي بدلوه في هذه المسأله» .

وانطلق من كل العيون هتاف يقول : «لقد أحسنت القول!» .

وكان يخالط حزنه على أمله الهارب اختلال عام ملحوظ كان يبدو أنه مستقل عن الإيدياليا ، ولم يكن يدري أكان هذا من النوع الجسدي أم النفسي ، أم من كليهما معاً . كان شعوراً بالبؤس كان قد أحس ببوادره الأولى بعد وصوله ، على الفور ولم يفارقه بعدُ أبداً بصورة كاملة ، وانفجرت الآن ، وهو في حالة انكساره المتبقيّ ، العلة الزاحفة . فما عسى أن يكون هذا ياترى ؟ إنه شعور فظيع بالفراغ ، وإحساس موحش ذو مذاق ممقوت ، وكأنه ابتلع صحراء من الطين . أهو الحنين إلى الوطن ؟ أجل ، إنه شيء من هذا القبيل ، وهو مع ذلك فقدان للعزاء يتسم بالخاصة النابذة ، وألم طرّيق . وذات مساء ، حين عاد إلى بيته من الإيدياليا ، يجتاز الأزقة المظلمة ، وما من مكان فيه نور وحياة سوى حجرات الحانات التي كانت تصفعه منها

الزمجرة والزعيق والخمر ، أدرك نوع معاناته : إنه بؤسُ ساكنِ المدينة الكبرى الذي زُجَّ به في البلدة الصغيرة . وكان كلب منبوذ ينبح على سلَّم كنيسة . وكان الكلب مفهوماً عنده ، وقد كان خليقاً أن يشاركه في النباح .

وعلى الرغم من كل شيء ظلت علاقته بالإيديااليا علاقة ودية حتى الآن . والحق أنهم كانوا يجدون فيه بعض مايلومونه عليه ، وبعبارة أدق : كل شيء ، ومع ذلك فقد كانوا ينظرون إليه دائماً نظرتهم إلى واحد منهم ، وكان هو يخلد إلى السكون بشجاعة ، متربصاً ، حتى لقد بات يبدو في نظر نفسه مثل الصابر من أهل التقوى ، وهو ذاته متأثر كل التأثر بما يراه من حُلْمه الذي لا يُصَدَّق . وإذا حديثٌ بسيط بدأ بداية بريئة كل البراءة ، بل ممتعة ، يضرم نار عداوة عميقة ، لاعند الآخرين ، إذ كان الجمهور المطمئن الوادع غير قادر على العدواة على الإطلاق ، بل كان ذلك بلا ريب ، عنده ، هو رجل الأفكار المتحِّمس ، والشديد اللاذع فيما يتصل بالحقيقة . وحدث هذا من خلال مشهد شانه أطلق عليه فيما بعد اسم «موقعة الامازونيات» الخاصة به . وذلك أنه اتفق أن قعد ، في منزل السيدة زوجة الدكتور ريتشارد ، وهو الرجل الوحيد ، تلقاء اثني عشرية ضئيلة من السيدات الجميلات بينهن بسويدا ، وشرع ، إذ أثار لديه المنظر المحَّبب إلى النفس نزعة المرح ، في ممازحة السيدات على النحو المسموح به والواجب ، مقدِّماً أنواعاً شتى من الغمز واللَّمز حول النساء كان في جعبته عدد كبير منها ، بدافع بعض الولع بالجنس المؤنث . وإذا عالم النساء هنا ، ممن لم يكن يعرفهن أو نسيهنَّ في الغربة ، يتغنّى ويشيد بالعقيدة الخاصة بسرّ المرأة الجرمانية ، حتى لقد أخذنَ يلعَنَّ أدنى مايثار من شكوك حول علوّ شأن الجنس المقدس على أنه واحدة من فظائع الهيكل ، مع صفحهن في الحقيقة عن ألوان الخشونة الشخصية ، خلافاً للتقليد الأوروبي العام .

وسرعان ما دخل في خضم صراخ غاضب كثير الأصوات (صيحة المعركة عند الأمازونيات) لم يستطع مغالبته . وفي حُمَيّا الجدل ، عندما تجاسر على تبرير تدخين السجائر عند النساء ، سمحن لهذه الُحَمّيا أن تجترفهن إلى إعلان الانتصار بهتاف عال ، في صدد النهاية الحافلة بالعذاب ، لطالبة روسية ، احترقت في الأسبوع الماضي احتراقاً فاجعاً أثناء تدخين السيجارة . «إني لمسرورة بذلك» ـ «حدث لها ماتستحق» ـ «ألا ليت كًل من تدخن هنا يحدث لها شيء من هذا القبيل» . هنالك أخذ شعور العدالة عنده يزيد فجأة متّحولاً إلى غضب جامح . وكان غضباً يحاكي غضب الأنبياء كان خليقاً معه أن يستنزل اللعنة ، بالنار والكبريت على كاهنات اللياقة والتهذيب المتعطّشات إلى الدماء . وذلك أنه رأى بأم عينيه ، بوضوح وجلاء ، الطالبة المسكينة في ثيابها المشتعلة ، تصرخ وتتلوى ، وتقفز قفزات عالية من الألم حيناً ، وتخر على الأرض حيناً آخر ، ومن حولها الفريسيّات ذوات الابتسامات الصُفر يصفقن في استحسان ، وكانت نظراته المفعمة بالكراهية تصرخ قائلة : «قاتلات! » . وفي هذه المناسبة فهم فجأة سر العداوة القاتلة بين الأنبياء والنساء .

ومع ذلك ، ففي الوقت الذي كانت المناوئات له من ذوات الحُسْن ينفضن عن أنفسهن آثار النزاع العنيف على عجل ، بمجرد أن نهضن من الجلسة العاصفة ـ وعلى أثر ذلك فنجان من الشاي ، ورغيف من فخذ الخنزيرالمملّح ، ثم لايعود المرء يحسّ بشيء من ذلك ـ ظلت الصورة الرهيبة لراقصة الموت في وسط الفريسيّات الهاتفات عالقة بذاكرته . وحصلت كل من السيدات الآثمات الاثنتي عشر ، اللواتي لم يكنّ في الواقع قادرات على إلحاق الأذى ببعوضة (باستثناء العُثّ) على وصمة قابيل مطبوعة على جبينها ، من خياله ، وباتت الإيديااليا على إجمالها تبدو له منذ الآن

فصاعداً قادرة على الانتقام ، إذ كانت مسؤولة مسؤولية تضامنية عن كل عضو من أعضائها ، وكانت تبدو له في ضوء أترويسيّ* مكفهرّ . «على الرغم من أن الشرطة والمحكمة ليستا بقادرتين على الإمساك بكن ، ومهما تُقْبْلِنَ في خطواتكن القصيرة ، بتهذيبكن البالغ ، متلّهفات على أغاني شومان ، في قداسة ظاهرية ، فأنتن في ناظري مجرمات : قاتلات ، وتظلَلْن كذلك . وكان يحس بضغينة المنتقم المتجهّمة ، لأن الطالبة المحترمة كانت ماتفتأ تشير بأصابعها المتفحِّمة نحو الإيدياليا ، تحذّره مثلما كان الشبح يحِّذر هاملت .

وكانت عداوته ماتزال تستعر تحت الغطاء ، وكانت تهدر ولكنها لم تكن تبرق . وكانت نفسه تصبو إلى هجوم غير أنه لمّا يعتزم ذلك . وإذا هو يتلقى بعد أيام خلت ، «من موقعة الأمازونيات» الرسائل الأولى من الُبْعد ، متأخرة . فياله من نَفَس متأخر! «أيها المحتفى به والُمَبَّجل في وسط أصحابه الأعزاء ، نأمل ألاّ تكون نسيت صديقك القديم ، البعيد...» المحتفى به والمبجَّل ، يالها من سخرية! أصحابي الأعزاء ، ياللمصيبة! «سجاياك الفائقة ، معارفك ، وطيب قلبك ، لن تُفتَقد...» يالها من أمور جديدة! ويالها من أشياء طواها النسيان! أهو الذي ينطوي على السجايا الفائقة! والمعارف! لقد كانت هذه ماتزال أياماً جميلة ، حين كان مايزال هناك امرؤٌ لايعيب عليه شيئاً ، بل كان يجد فيه ما يثني عليه . وكان لهذه الرسائل فعل كفعل المُنَبِّه . وذلك أنّ اعتداده بنفسه كان انتهى ، شيئاً فشيئاً إلى التبلُّد ، إذ كان يضنيه الكثير من الناس في كل يوم حتى لقد أخذ آخر الأمر يتقبل ماكان أول الأمر يثير ثائرته ، على أنه أمر بدهي : وهو افتراض أنه الحصان

---

* نسبة إلى البطل الأسطوري أترويس «المترجم»

المعيب الذى يحق لكل امرىء أن يحسِّن فيه شيئاً ما ، هنا أو هناك . أمّا الآن فقد استيقظ ، وتوارى من حوله الأفق الضيق ، وعادت الذكرى إلى اعتداده بنفسه ، وبات فكره يوازن ويقارن . فياله من تعارض! ويالها من سخرية في هذا التعارض . ففي الخارج ، في الغربة : أذرع مفتوحة ، وتقبُّل حار ، وصبر بنية طيبة على خصوصيّته وتسامح تجاه عيوبه . وهنا ، في الوطن : تنقيب عن العيوب ينمّ عن ضيق الصدر ، واعتزاز بالنفس ينطوي على الاعتقاد بالعصمة ، وإنكار لمجمل شخصيته . وبهذه المقارنة استُثيرت كل المرارة التي كان قد تجرّعها منذ ستة أسابيع طوال ، ولمّا كانت السرعة من طبعه فقد بات يستعر من غضبة الحرب اللاهبة . لاصبرَ بعد الآن مع الصمت! إلى الهجوم! فأنا أريد أن أدخل بينكم ، وأميط عن وجوهكم لثام الفريسيين ، وأُقْلِب قاموس النفاق عندكم رأساً على عقب . فلتتوقفوا ولتنتبهوا إلى ماأريد أن أقوله لكم ، لأنني أريد أن أرسمكم . فهل أنتم مستعدون ؟ لابأس ، إذاً فسأبدأ . هذا ما ينبغي لي أن أقول لكم : أما فضيلتكم فحِلْية لفظية تتشدّقون بها لترموا بالسوء الإنسان الذي يحاوركم ، وأما «الصراحة» فامتياز تدّعون لأنفسكم الحق فيه لترموا سواكم بالإساءات والدناءات من دون أن تتحملوا ، أنتم ، أدنى لوم ، وأمّا «استقامتكم» فهي قسيمة إذن لكي تبعثوا من وراء ظهر المرء بأشياء أسوأ كثيراً بعد مما تقولون له في وجهه . وأما صدقكم وأصالتكم فهما يشتريان لكم ، عن طريق التحذلق باسم الحقيقة ، في أمور ثانوية ، الترخيص بالكذب ، على سبيل الاستثناء ، في الحالات الحاسمة . ولو أنني عقدت صفقة مع مثل صاحب الحقيقة هذا لكان لابّد لهذا الوغد أن يسلمني إياها خطياً بحضور أربعة من الشهود! وأما «وسطكم المريح» فهو أنانية مصبوبة في قالب القطيع ، وتدفئة للبشرة الخارجية بصوف الخروف وإذا شمّ المرء في الجوّ رائحة مصيبة

لم يكن ثمة أحد يسعف الآخر ، وأمّا سعادتكم العائلية ، وحبكم لذوي القربى فلتلقوا فيما بينهم ميراثاً ضئيلاً ثم لتنظروا إلى ذلك الحب! وأما موسيقاكم أيْ كيزان الجليد الهاتفة! لو أن امرءاً فتح عن يمينكم الباب إلى الفردوس ، وأعلن عن يساركم عن محاضرة عن الفردوس ، لمررتم جميعاً بباب الفردوس مرور الكرام ، تجرون إلى المحاضرة قائلين : « إنها لممتعة ، ممتعة! » .

هكذا سوف أتحدث معكم ، فلتتحلوا بالرزانة والصبر ولتكونوا على أهبة الاستعداد . وخطر بباله ، مع الأسف ، أنه لاوجود لمنابر في حجرات الاستقبال عند أهل الإيديااليا يستطيع المرء منها أن ينهال على الناس جميعاً بالتقريع ، مثلما يحدث لمجتمع المؤمنين التائبين في أيام الصوم . ألا فلتقرّوا عيناً ، فسوف أحدثكم عن ورطتكم كلاً على حدة . وسوف يتلقى أول من يرسم لي على وجهه سيماء الفضيلة ، القسط الكامل ، فمن يروق له هذا ؟ » ، وخفض رأسه مثلما يفعل الثور حين يخفض قرنية في انتظار العدو ، ولكن حين نظر حواليه متحمساً للنضال لم يكن من الممكن أن يتبيّن المرء عدوّاً في أي مكان . كانوا جميعاً يتصدّون له ، ومع ذلك فلم يكن ثمة أحد ولئن لم يكن أحد يحبه على وجه الخصوص فإن أحداً لم يكن يظهر له سوء المقصد . أجل لقد حدث أن القوم جميعاً بَدَوا كأنما أعطوا عهدهم ، عن خبث متعَّمد ، وفي هذا الوقت بالذات حين بات متأهِّبا للنضال ، على أن يعرضوا عليه المَودة وبذلك جرّدوه مِنْ بعدُ بالطبع ، على الفور ، من سلاحه . إنها الإمكانية المتمثلة في الإمساك بامرىء من قرونه وهو يلقى امرءاً آخر بتحية من قلب مخلص وفّي! « كيف حالك ، بعد ؟ آمل أنك لم تصب بالبرد ، أيضاً ، بسبب الطقس غير الطبيعي ، مثلاً ؟ » وكان راغباً ، ولكن عبثاً كان يتوق إلى لقاء عدوّ ، الفتى كورت ؟ إنه إنسان من العزّل لاذ بالفرار بمجرد

أن وقع بصره على قبعة ڤكتور في حجرة الانتظار ، ويضاف إلى ذلك أن كورت كانت له عينان جميلتان تحسننان النظر ، وكان هذا أمراً لاينكر . فماذا يستطيع المرء أن يفعل حيال هذا ؟ وهكذا لم يكن غيظه الذي يَحْرق الأُرَّم عرف من يُنْصَب على السفّود .

وفي هذه الأثناء تجليّ سخطه العاجز من خلال مزاج يحاكي مزاج القتلة . وأصبحت نظرته تهديدية ، وتعبير وجهه ساخراً ، ولهجة صوته متحدِّية ونصّ ادعاءاته استبدادياً ، إذ بات يحظر كل اعتراض بصورة مسبقة . على أنه كان ، على أية حال يحتمل بصبر نافد ، بحكم كونه مفكراً ينزع إلى الحقيقة ، تناقض الحكمة المُكْتَسَبة (« لا أحب أن يلوِّح المرء بشَوْكات الأفكار المستعارة في وجه الحقيقة ») . وأضيف مع ذلك الآن إلى صوته الإنذار بصريح العبارة : « فلتتجاسر أيها الحقير ولتخالف! » ولم يكن ينقصه سوى حرسه الشخصي من المرتزقة لكي يوعز بالإمساك بخناق الخصم . ومع ذلك فلم يصل بحال من الأحوال إلى النضال الذي تاق إليه ، إذ كان كل امرىء يتحاشاه في الطريق منذ الآن فصاعداً ، مثل بهيمة لا يمكن تقدير حالتها ، وهي غير قادرة على التمييز ، أمّا القس فكان إذا دار الحديث عن ڤيكتور سمّاه الآن نيبوموك* المصاب بالجنون وكان الطبيب يشبهه براهبة موسومة ، وكان خفير الغابات يشبهه بفيل يتميّز في العادة بطيب المعدن من كل وجه ، ووداعة كوداعة الحمل ، غير أنه أصبح جامحاً فجأة بسبب مجهول . وما من شك في أنه كان في وسعه أن يقعد في المكان أحياناً طوال أمسية ، متواضعاً ، لاينبس ببنت شفة ، محملقاً في المكان أمامه ، متكدِّراً محزوناً . ومع ذلك فلم يكن القوم أبداً على يقين فيما يتصل بنوع العاصفة التي يحتمل أن تهب ، ولكن لمّا لم

---

* القديس الحارس لبوهيميا ، رُميَ به من جسر كارل في براغ بأمر من الملك فينشيل . «المترجم»

يكن هناك أحد يلتزم بتعريض نفسه للمفاجآت غير المستحبة فقد تركه القوم وحده مع غضبه الساكن .

ومثال ذلك أنَّ الدكتور ريتشارد كان قد قرظ كتاباً جديداً في الاقتصاد ، واختتم بقوله وهو يلتفت نحو ڤيكتور القاعد من دون اهتمام «هذا الكتاب لابدَّ لك أن تقرأه ولا مندوحة لك عن ذلك» . ووثب هذا وثبة عالية وهو يزبد ، قائلاً : «كيف تجرؤ على توجيه الأوامر إليَّ ؟ » ومضى الأمر على هذا المنوال طوال الأمسية : «سيدي الدكتور ، لا مندوحة لك عن إدخال هذا القلم الرصاص في فمك» ـ «سيدي الدكتور ، يجب عليك ، حتماً ، أن تأتيني بمنديل الجيب من معطفي» ـ « سيدي الدكتور ، يجب عليك أن تنصرف إلى البيت ، حتماً ، على الفور» . كلاّ ، لقد كان كل امرؤ يَحْمَدُ اللقاء بمثل هذا الإنسان .

وحين أقام المدير وزوجته مأدبة عشاء صغيرة لم يكن بدٌّ أن يدعى إليها ڤيكتور أيضاً بموجب الإرادة المتصلِّبة من قبل الوكيل** ، وصلت في الساعة الأخيرة اعتذارات في أثر اعتذارات حتى لم يتبَّق لربة المنزل التي تعَّرضت لخيبة أمل قاسية ، آخر الأمر ، سوى شيخ اللؤم ڤيكتور ، ضيفاً وحيداً جعلت تتأمله الآن كأنها تتأمل زُرّاً في كيس صدقات الكنيسة . وقال هو يعزّي نفسه :«أهذا كل مافي الأمر ، ليس بضائري أن أزداد بللاً على بلل» ، غير أن زوجة المدير ڤيس جعلت تسميه منذ ذلك الوقت إنساناً «فظيعاً» بصريح العبارة .

وكان الحكم العام أن ڤيكتور ماعاد يطاق ، وكان الاعتذار الإجماعي

** الوكيل هو اللقب الذي يطلقه ڤيكتور على مدير المكتبة ، زوج بسويدا ، اعتقاداً منه بأنه وكيل من قبله على هذه الأخيرة . «المترجم»

يجيب قائلاً : «إن ڤيكتور لمريض . وكان الاعتذار صحيحاً ، إذ كان الثور واقفاً في وضع المقاتل ، ودمه يسيل على أنفه . وصاحت السيدة شتاينباخ وقد تولاّها الفزع حين اصطدمت به ذات مرة عند ناصية الشارع ، قائلة : «ياإلهي ، أي مظهر هذا الذي تبدو به . وفي اليوم ذاته تلقى منها طلباً ملّحاً بوجه خاص ، لزيارتها . ولكن عبثاً ، إذ كان يجفل من صديقته متخوّفا ، كأنها العقل المتجسّد .

ڤيكتور في مبارزة مع بسويدا

لقد كان قد قال : «ليس يضائري أن أزداد بللاً على بلل . وهذا خطأ! كان أول ما جاء الدفقة الرئيسة . وذلك أنه حدث ذات يوم أن زوجة المدير ڤيس تحمست في حضوره ضد الكياسة مع النساء (وكانت الكياسة أيضاً كالبومة بالقياس إلى الإيدياليا) . وقال ڤيكتور وهو يبتسم : «رويدك ، ياسيدتي ، عقيلة المدير أتراك لن تمتعضي إذا مارفض رجل بالفعل أن يعاملك بأسلوب الكياسة» ، وحين جادلت في هذه العبارة وهي تؤكد أنها لاتطالب بالكياسة مع النساء ولاترغب فيها ، وأنها أحرى أن تكون ممتنّة لو أعفاها الناس من ذلك ، استفزه روح الحقيقة حتى قرر أن يلّقنها درساً . ولهذا الغرض وقف بعد ذلك ، عند الوداع في حجرة الانتظار ، أمامها على نحو يلفت النظر ، وذراعاه معقودتان وراء ظهره ، وتركها تأخذ سترة الفرو وحدها عن المشجب وترتديها . وكان الكُمّان مفرطين في الضيق حتى لقد اقتضى ذلك ممارسة مرهقة للجمباز الحر . وكانت نظراته تتهكّم عليها في تلّذُذ : «هل لاحظتِ الآن ، ياآنسة ، فائدة الكياسة مع النساء ؟ » . ولكن انظر ، هذا مستحيل ، إنها لا تلاحظ شيئاً ، فالدحض عن طريق الكناية

بالصورة ، وإحالة حدث على أحاديث سابقة ، أسلوب تعليمي لم تكن تفهمه . وكان من الواضح أن أمثال هذه الأشياء لم تحدث لها بعُد أبداً . وكانت تشعر في مقابل ذلك ، بالطبع ، وبلا ريب ، بجانب القصد والتعُمد في رفضه المساعدة ، إذ كان يفعل ذلك على نحو يلفت النظر ، ولأنه كان ، فوق ذلك ، معروفاً بسمعته السيئة من حيث كونه أستاذ المراسم المفرط في الحفاظ على الرسميات . وكانت النتيجة أنها لم يكن لها بدٌّ أن تفسّر تقاعسه على أنه إهانة تنمّ عن سوء القصد . ويالها من نظرة تلك التي رمته بها! إذ ما عادت العين عيناً ، بل مجرد هلام أبيض فيه بقعة من الحبرـ ما العمل ؟ أأوضّح لها ؟ لافائدة ، فإنها لم تكن تصدقه ، بلا ريب . أيعتذر ؟ أن المخلوق الأنثوي لا يتقبل الاعتذار أبداً . فلنضف هذا إلى سابقاته . فإنه ليس بالمُظلمة الأولى التي تعاني منها ، ومن يدري ، فقد لاتكون من السوء بالقدر الذي تبدو به» .

ومع ذلك فقد كان المظهر الذي بدت به بالغ السوء . وكانت كلما أبصرته ، منذ الآن فصاعداً ندَّ عنها صوت طبيعي من أصوات الكراهية ، شيء مثل نفخة ينفخها فهد فتيّ : «رْها! تْشا! » ، وأدارت له ظهرها في اندفاعة رشيقة .

أمّا في المرة الأولى والثانية فقد تلقى ذلك متفوّقاً ، بل وجد من الحرية مايكفي ليمّتع ناظريه باندفاعة الظهر الّلدن ، ولكن في المرة الثالثة ثار ثائر الجنون في رأسه فجأة فصاح صوت في داخله : «عجباً لك ياسحنة القرد الأهبل في سروال المقاتلة الرّحالة! ، لو شئت ، ولم أكن أراعيك! ماذا يهمني ، لقد رددت لو أحَوِّل شهقتك هذه ، في مثل لمح البصر ، إلى نشيج كنشيج المعذَّب الملهوف . [الآن لا بّد لك أن تزدريني (تنهد) ،] كيف

أستطيع منذ الآن فصاعداً أن أواجه زوجي وطفلي (دموع) ، [ولكن هل ستكون لي دائماً أيضاً] (عناق) ، وهكذا دواليك ، إلى آخر المعزوفة المألوفة ـ ولكن مهلاً! انفض يديك من هذا ، إذا كنت استحققته بتصنُّعك السخيف . إنها خيانة زوجية بشرف ، ولكن لابد أن تكون على الأقل خيانة زوجية سليمة ، مستقيمة ، الحب من أجل الحب ، الحب أو المتعة مقابل المتعة ، وفي مقابل ذلك مباغتة امرأة بالحيلة عن طريق الفن والتفكير والحساب وإبادة أسرة بريئة بدافع غرور الرجل المتكدر المزاج ، الوضيع ، لأن هذه تنتحر غرقاً إذا مازلّت ، وهذا أمر لا شك فيه ـ ياهذا! أنا لست بالذي يفعل هذا ، أوّلاً ، لأنني لاأفعله ، وثانياً : لأنني في حاجة ، من أجل مهنة حياتي ، إلى روح نظيفة . ثم زوجها الذي هو صديقي! ومن أجل ذلك : لا ، ولا ، ومرة أخرى : لا! فلْتَجري بعيداً ولْتَشكري ، يابنيّة! ولكن إذا كنت تريدين تركي فافعلي ذلك على وجهه الصحيح أيضاً والأمر المؤكد هو أنني أريد أن أعلمك كيف تكرهينني حتى تقفزي على الجدران من شدة الغضب . أمّا أنا فسوف آكل على ذلك فجلة وأنا مرتاح البال . وكلما أمْعَنتِ في كراهيتي ازداد سروري عمقاً وحرارة . أتُراكِ لاتصدقين هذا ؟ فلتطمئني ، فسوف أبرهن لك على ذلك على الفور» .

ثم بدأت ـ والحق أن ذلك كان دائماً في حدود المباح ولكن على شفا حفرة من غير المباح ـ في الإثارة والإغاظة بكل طاقة جسدها ، وهو الهدف الذي كان يدفعها إليه من دون أن يحسب لشيء حساباً ، ملتصقاً بجانبها في غير مراعاة . وكان يخدمها بالتهكُّم والسخرية ، تبعاً لمزاجه ، بطريق مستقيم أو بطريق ملتوية .

وإذا كان مزاجه مطبوعاً بطابع السخرية استرسل في حديث طويل

يعرض أقدس مشاعرها من كل جوانبها . أتُراها لم يلفت نظرها أنه كثيراً مايظهر في النساء نفسية خشنة تبعث على الدهشة ؟ أو لم تلاحظ أيضاً أن المرء لا يجد في أي مكان نقصاً في الوجدان والعاطفة القلبية أكثر إثارة للفزع مما هو عند أهل الموسيقى ؟ أو كان يُعْجَب بالغريزة ذات الإصابة المحكمة في القلب النسائي الذي يستخرج بإصابة عبقرية حقيقية ، من بين مائة من الرجال الحمار الأكبر لكي يقع في غرامه ، أو يؤيّد الخيانة الزوجية من حيث هي وسيلة تربوية للزوج لكي يتصرف بمزيد من التهذيب واللياقة حيال زوجته ، أو يشكو من مصيره الذي يستحق الرحمة والذي ينطوي على الحكم عليه «بالالتزام بالسلوك الأخلاقي» في هذا العش البائس . ولماذا يعُده الناس ياتُرى ، هو وأشباهه ، فُساقاً ، وهم أحرى أن يعدوه امرءاً ظريفاً مادام يجتذبه جمال الجسد النسائي . وعلى وجه الإطلاق ، ماهذا التقريع المستمر ، الكاذب ، الفَريسيّ ، للشهوانية : «إذا رأيت واحدة من النساء غير مثيرة للشهوة شعرت أنها تعَرضت من جراء ذلك للإهانة ، أليس كذلك ، وينتج عن ذلك أنني عندما أشعر بالشهوة تجاهها فإنما أظهر بذلك ولاءً لها ، وهذا واضح بلا ريب ، أليس كذلك ، هذا شيء يلَذّك مذاقه ، كما لو كنت مضطرة إلى ابتلاع دودة أو ثعبان غير سام ؟ فهنيئاً مريئاً ، ولذلك دعينا نواصل هذا . «إن ما لم أستطع إدراكه أبداً هو أن القرصان يتكلّف وهو مع عذراء مخطوفة ، وهي لاتستطيع أن تنظر إليه نظرة الكراهية إلاّ بوجهها ، لا بساقيها . غير أن الوجه في أمثال هذه الحالات مسألة ثانوية» . هل تريدين مزيداً بهذا الأسلوب ؟ كلاّ ؟ إذا فلنواصل : «كل رجل يرغب ، في كل لحظة في كل امرأة جميلة ، وإذا كان أحد يماري في هذا فإمّا ألاّ يكون رجلاً ، وأما أن يكون كذّاباً» .

ولم تكن تحب أن توليه شرف الجدال معه ، إلاّ أن نظرتها كانت تُؤذِيه

قائلة : « إذا قُدِّر لك ، ياسيدي ، أن تصاب بالوقوع تحت عربة من عربات القطار فسوف آسف لذلك في الحقيقة ، مخلصة ، غير أني لن أشكو منه بحال من الأحوال » .

وردّت على ذلك نظرته الوقحة ، ساخرة ، بقولها : « سيدتي الموقرة ، إذا تكرَّمت بالرغبة في الانفجار فأرجو منك أن تقولي ذلك لي سلفاً لكي أؤمن لنفسي قطعة منك مصطفاة » .

وإذا كان مزاجه أكثر لطفاً اكتفى بالتعرُّض لقناعاتها والمبادىء التي تعلمتها في المدرسة ، ولوطنيتها الملَّونة بلون ورود الألب ، وحماستها الشعبية السعيدة سعادة الرعاة ، ونحو ذلك .

وكانت تحب أن تتغنى ، في نزهاتها ، بالأغنية الشعبية : «في الصباح الباكر ، نحلب البقرات» وقال يسألها بلهجة تنم عن الإعجاب « أتراك تستطيعين أن تحلبي البقرات ، ياعقيلة المدير ؟ » ـ وحين أخذت تتغنى بأغنية أخرى : « إني أخاطب كل امرىء بلهجة رفع الكلفة ، ببساطة » ، صفق باستحسان متحمّسَ . «لقد كانت رغبتي الصامته منذ عهد بعيد أن نتخاطب بصيغة رفع الكلفة » ـ وكانت أبَّهتها الخصوصية ، إلى جانب أخيها ، تتمثل في ابن عمّ لها يدعى لودفيغ طويل الساقين ، يقتحم قمة من القمم في كل عام ، وكان يطلق على لودفيغ هذا ، المقتحِم ، اسم : «البطران» ـ وعلى وجه الإطلاق ، لماذا كان أبناء إقليمه الأعزاء يتخّيلون أنفسهم على جبال الألب بهذه الكثرة الهائلة ؟ «أنت لم تتسلّقها ، بلا ريب ، ولو أنك اضطررت إلى تسلُّقها لكان من المرجَّح أن يكون شذوذك وغرابة أطوارك خليقين أن يكونا أقل عمقاً » . وعلى كل حال ، وبصرف النظر تماماً عن الألب ، فإن الطبيعة الخالية من الحياة تُقدَّر فوق قدرها في الوقت الحاضر إلى حد لا نهاية

له . وإن أصغر إصبع في قدم امرأة جميلة لخليق أن يكون في نظر الرب أكبر قيمة من أكثر كتل الجُمودّيات حُفولاً بجوانب الأهمية ، وهو يقرّ صراحة بأن القبعة الأسطوانية التي تستقر على الرأس على نحو لا شائبة فيه يمكن أن يكْتَشَفَ فيها من الروح والفكر أكثر مما في شروق الشمس . «ذلك لأن شروق الشمس أمر يمكن أن يدركه الماموت ، أما القبعة الأسطونية فلا يستطيع أن يدرك شأنها إلا إنسان متحضِّر يتميّز بذوق مرهف» أو كان يتقدّم إليها بنصائح لم تلتمسها منه . فإذا شكت من التخريب الڤاندالي للآثار المحلية أو الوطنية قال ينصح لها : «هلا حضَّرتم المدافع ونصبتموها ، وأطلقتم نيرانها على الناهب السَّمج! » وإذا أسفت للتَّواري التدريجي للأزياء واللهجات المحلية أوصاها بأن على الناس أن يحشروا أجساد المجرمين في الأزياء الشعبية عقاباً لهم ، وأن يقصروا اللهجة المحلية على الأسر المثقلة بالديون المتوارثة .

وفي أمثال هذه الحالات المزآجية كان تبديل أسماء التعميد يمثل متعته المفضّلة ، فكان يطلق على مسقط رأسهما المشترك الذي كانتْ مزهّوة به ، اسم موهايم ، وعلى السياسة المحلية اسم الإثارة الدورية المتعلقة بمسألة هل ينبغي للمرء أن ينتخب فرانتس أم فريتس . وكان يقول «الوطنية» بدلاً من «الفجاجة» ، و«النزعة الجرمانية» بدلاً من «الخشونه» وكان يطلق على انعدام اللباقة اسم «أخطاء لهجة الروح المحلية»!

وكان يغيظها في بعض الأحيان في طرقات بعيدة بملامح وجه بريء يتسم بالقداسة الظاهرية . وكان يفعل ذلك ، مثلاً عن طريق الطرائف والمذكرات التي كان يخترعها من دون أي تردد ، من أجل هذا الغرض الطيب ـ فكان يستطيع أن يبدأ بقوله ببراءة : «هل تعرفين ، ياسيدتي ،

عقيلة المدير ، الطرفة التي تُروى عن الكونتيسة ستيبانسكي وبيتهوفن ، وقائد الفرقة الموسيقية بفوشيني ؟ »

وكانت تجيب بصوت كالقرقرة ، قائلة وهي تتشمَّم رائحة مكر : «لاأريد أن أعرفها على الأطلاق» « أنتِ هنا مجانبة للصواب ، كل المجانبة ، إذا أن هذه حافلة بالعبر مثلما هي ممتعة . فعندما سئلت الكونتيسة ستيبانسكي التي كان بيتهوفن وبفوشيني على مائدتها في الوقت ذاته ، مَنْ من الرجلين تراه الأعظم شأناً ، بيتهوفن أم بفوشيني ، ارتسمت على وجهها سيماء الذكاء المتفِّوق ، وقالت : هذه المقارنه غير ممكنة ، فلكل أسلوبه ، وهما يكمُّل كل منهما الآخر» .

« إنها الموسيقى والنساء ، على وجه الإطلاق! هل نقوم بتجربة ، ياسيدتي الموقَّرة ؟ دعي أكثر فتيات الموسيقى عبقرية تتعلم في المعهد الموسيقي ، ثم احفظيها بعيداً عن أي حافز يتصل بعالم الرجولة ، وانظري في حالها بعد عشر سنوات : لقد أقفلت البيانو الكبير واقتنت قطة . أمّا إقفال البيانو الكبير فلأنها لاتجد الوقت من أجله ، وأما القطة فلأنها لاتعلم ماذا تصنع بالوقت الكثير الذي يتوافر لها » .

وحين عادت ذات مرة من جديد إلى إثبات تفُوق المرأة على الرجل في حديثها ، قال لها : «سوف يسرني أن أجاريك لولا أن النساء أنفسهن يقُلْن ، في اللحظات التي لانلاحظها ، بتفوُق الرجل»

« ؟ »

«هذا أمر طبيعي . ذلك لأن الأم حين تُوَفَّق ، بعد ستة من حوادث الإجهاض الأنثوية ، آخر الأمر ، إلى غلام ، يرتفع لسانها بالثرثرة عن النصر ، وكأنها ولدت السيد المسيح ، وينثال إليها كل النساء مسرعات ،

بمحض إرادتهن ، ليخدمن الوليد العجيب المتفوق على البنت ، خدمة الخاشع المستكين ، ويرددن أسماءه : «الصبي ، الغلام ، الولد!» وكأن الغلام أعجوبة الدنيا ، ومن هذا المسيح يخرج بعدئذ مستشار لمقاطعة ، إذا كان له شأن» .

وبهذا كله وصل في الواقع ، دونما جهد ، إلى ماكان يتوقعه ، ألا وهو اشمئزازها المتناهي في العمق ، والأساسّي والصادر عن أعمق ما في القلب . وماعادت تصيح عند مرآه صيحة الكراهية ، بل باتت تصيح صيحة الاشمئزاز ، مثلما يفعل المرء عندما يرى امرءاً قذراً سمجاً . وكان يبتهج لذلك وكأنه أحرز نصراً عليها لايعلم كنهه إلاّ الله . وكان يضحك في قرارة نفسه ، قائلاً : «ألا ترين الآن مدى قلة اكتراثي بحكمك!» وكان يعقد مقارنة على سبيل التفكُّه : «لقد أردتِ أن تخلصيهم من الضفادع ، وها أنتذي أصبحت الضفدع» .

«ياڤيكتور ، الآن أبدأ أنا في الاعتقاد بأنك مجنون بالفعل ـ وضحك قائلاً : وهذا سبب إضافيّ يحمل على التصّرف بأسلوب المجانين» .

وإذا هو يسمع في عصر يوم من الأيام حين همّ أن ينعطف حول ناصية ، وراءه ، قائلاً بصوت مرتفع : «أيها اللاّما!»* وحين دار على عقبيه في غضبة سريعة نحو المنادي مضى الصوت قائلاً : «لست في حاجة إلى أن تدور على عقبيك ، فأنا المنادي ، أنا عقلك الذي يسميك باللآما» .

«وبأي حق تسميني لاما ؟» .

«لأنك تعمل ، بقوة الشيطان ، من أجل نقيض ما تهدف إليه» .

---

* راهب بوذي في التيبت . «المترجم»

«أنا لا أهدف إلى شيء على الإطلاق» .

«بلى أنت تهدف إلى شيء ما ، وأريد أن أقول لك ما هو . أنت تُبيِّت خطة من دون أن تعترف بها لنفسك ، وهي خطة إغاظة السيدة الصغيرة غير المحنَّكة إلى أن تبعث في نفسها البلبلة والاضطراب ، فتضل عن وجهتها وتطير إلى عنقك ذات يوم فجأة من جراء انفعال كانفعال الدبّور ، كذبابة النّعَرة* .

«وإذا افترضنا أن الحساب والتقدير كانا خاطئين فقد طالما انقلبت كراهية المرأة إلى حب» .

وردّ العقل قائلاً : «إنما هي أقاصيص وحكايات ، ومع ذلك فلتفعل ماتشاء فأنا لست مربيتك!» ولكن ڤيكتور دُهش وقد تأثر من الشك ، وحين عاد إلى البيت على غير يقين ، مشوَّش الذهن ، وعاد يتفّحص وضعه بفكر رزين ، تولاه الفزع ، واستحوذ عليه الدوار . لقد كان يسلك الطريق الخاطىء ، وقد أفرط وبالغ . ولاجدال في أن العقل كان على صواب ، ولم تكن الكراهَية عند بسويدا من الطراز الذي يتبَّدل إلى حب . إنه اكتشاف يبعث الغيظ . وما عاد الآن يستطيع المضيَ قدماً ، فبعد أن سُرِق منه الأمل في تغيُّر مفاجىء ماعاد يجديه أن يزيد من شدة الكراهية عند بسويْدا ، إذ كان هذا خليقاً أن لايعني سوى توسيع زاوية البعاد بينه وبينها . أجل ولكن ماذا بعد ذلك ؟ أيعود على أعقابه إلى الأصل ويبدأ من جديد تماماً ؟ أيَعمد أولاً ، بالأسلوب المهذَّب ، والرقة واللطف ، إلى التخفيف من حدة كراهيتها ، ثم يتغلَّب على اشمئزازها ، ثم يشفيها من النفور ، ثم يخطب ودّها السامي متذِّرعاً بالصبر ، خطوة ، فخطوة ، ومرحلة فمرحلة ؟ «ولِمَ يكون ذلك على

* ذبابة الخيل والماشية

وجه الإطلاق هذا لايخطر ببالي! عندئذ سوف اضطر إلى التخلي عن كل اعتدادي بنفسي ، ثم إن الوقت لايتوافر لي أيضاً على الإطلاق من أجل هذا . ثم إننا لم نقطع شوطاً بعيداً إلى هذا المدى ، والحمد لله! » ـ أجل ، ولكن إذا لم يكن هذا فماذا يكون غيره ؟ وكان مهما ينظر حواليه ببصره الثاقب لايجد مخرجاً . وفجأة قال وهو يضرب الأرض بقدمه : «ومن يُلْزمني أن أهتمَّ بها ؟ فلَتُثْب أو لا تتوب ، ولتخض في مستنقع أو في نُقْرة ماء ، كلما شاءت ، فما الذي يعنيني من هذا ؟ فأنا لست كاهن اعترافها ولا راعي روحها ، أم تراها تحسب ، مثلاً ، أنني أعطي دروساً خصوصية في علم النفس ؟ لقد أسبغت عليها الكثير جداً من الشرف ، لكي أغيظها ولكن قبل أن أجهد نفسي من أجلها مرة أخرى ، في أي يوم من الأيام ، سيكون لزاماً عليها ، أولاً ، أن تلتمس ذلك مني بجدّ واجتهاد . وفي غضون ذلك فلترحَلي ، أنا لاأعرفك ، من تكون هذه ـ زوجة المدير ڤيس ؟ أتعيش في الماء أم تبني عشها على الأشجار ؟ أتلتقط الحبوب أم تفترس الحشرات ؟ سيدتي الموقرة هل رأيت في أي يوم من الأيام برغوثاً يقفز من داخل ظفر ؟ فبهذه الطريقة على وجه الدقة اقفزي خارجة من ذاكرتي . واحد ـ اثنان ـ ثلاثة! قضي الأمر ، وماعاد ثمة شيء . بسويدا! ما عاد لك وجود » .

ولم يكد ينطق بذلك حتى دار على عقبيه ، ورسم خطه موجزة . ربّاه ، لكم سُرِّيَ عنه الآن منذ أن نسي هذا المخلوق الضار! سنّ منخور تخلّص منها! ماذا يصنع الآن بالحرية الجديدة الناشئة ؟ كانت آلاف من الإمكانات الممتعة تلوح له « كيف لو وقعت مثلاً ، على سبيل التغير ، ذات مرة في غرام واحدة ؟ خاطرة مستحسنة! ذلك لأنه لم يكن قد تذوَّق بعدُ هذا الشراب الضئيل منذ عهود لا تحيط بها الذاكرة . وهذا أمر غير طبيعي بلا ريب! وهو في الحقيقة ، حيثما أمكن ذلك ، في مخلوق منحط المرتبه كل الانحطاط

وغير مثقَّف ، لكي تشعر بالاستياء والغيظ والمهانة عندما تطَّلع على ذلك (ومن المؤكد أنها تطَّلع عليه في غمرة هذا اللغط) . وعلى هذا فليكن الغرام مثلاً في خادم . ومن أجل هذا الهدف توجهَ وهو يغالب كراهيته للكحول وفاتناته ، إلى أقرب حانة . كانت التي تقوم على خدمته تدعى باميلا ، واضطرَّها إلى القعود بجانبه وجعل يخاطبها بمعسول الكلام ، وهو يُفَصِّل القولَ ، بموجب قاعدة ثبت له نجاحها ، في ملامح وجهها . ولبثت باميلا هنيهة من الزمان تصغي إليه وعلى وجهها ابتسامة الرضى ، ملتصقة به في ارتياح مثل الحلزون تحت مطر أيار الفاتر ، إلى أن أخذت فجأة تقرقر وهي تنفخ وتَصنفِر وراء منضدة الجبن ، كالقطة إذا ما داس المرء على ذيلها ، وكانت تحيتها زعيقاً .

قالت فيه : «أيها الغبي ، الشيخ ، العديم الثقافة!» . ويلاه ، لقد أطرى أسنانها التي تضاهي اللؤلؤ وقد باتت وليس في فمها أسنان على الإطلاق ، وذلك أنه لم يجشم نفسه مشقة النظر إليها .

وفي اليوم الثالث التالي أسرعت إليه زوجة المديرڤيس مقبلة عليه عبر الشارع وقد أشرق وجهها بالمودة . فياله من تبدُّل مفاجئ! وماذا يفترض أن يعني هذا ؟ وقالت في رياء :« يبدو أنْ قد آن الأوان لنتمنى لك السعادة! فمتى يكون الزفاف إلى باميلا ؟ » .

« يالك من خبيثة ماكرة! » ـ لم يكن هذا هو ما قصد إليه .

كلاّ ، لم يستقم الأمر بالحب . ومثلما كان حدسه الصحيح بمجرد وصوله : على هذه الأرضية الكلسية لاينبت حب . فلنجرب ذلك بالصداقة . وكان هناك رجل يدعى أندرياس فيكْسِل ، يعمل أميناً للمحفوظات ، قد أوصيَ به على وجه الخصوص ، وذلك لأن زوجة المدير ڤيس لم تكن تطيقه ،

وقد دأبت على تسميته بأندرياس ذي الغشاوة . وشعر تجاه هذا المدعو أندرياس ، بطريقة غير معروفة ، وفجأة ، برقة عاصفة ، فأسرع إليه يزوره ، وصادقه ، متأثراً كل التأثر بمظهر الغشاوة على عينية . وكان الفتى فيْكِسل ، بدوره ، متأثراً كل التأثر بصداقة ڤيكتور المفاجئة ، ولكي يدشن كلاهما رابطة الصداقة اتفقا على نزهة في جوجيسڤايد في عصر يوم الأحد التالي . ومن هناك توجّها ، طوال عصر الأحد اللانهائي ، المثير للرعدة نازلين نحو المدينة ، بين نادٍ للعبة الكيجل والموسيقى النحاسية البكائية . أما ڤيكتور فكان صامتاً كقطعة من الجماد ، وناظراه معلّقان بحارة منستر ، وأما ڤيكسل ، العنيد ، فكان يتحدث عن الفرق بين جوته وشيلر بأسلوب فج لا يرحم بحيث يشفق المرء من أن يؤدي ذلك إلى القيء . ولم يكن في الأمر حيلة ، و لتقل بسويدا في ذلك ماتشاء ، فقد كان ڤيكسل هو بالفعل أندرياس ذو الغشاوة .

وإذاً فقد أفضت صداقة الرجل إلى لا شيء إذاً فليلتمس شيئاً آخر . أهو المسرح ؟ أفٍّ للمسرح ؟ أي مسرح في هذه المدينة! على أنه لم يكن يحب المسرح على الإطلاق ، أتراه يريد حفلة موسيقية ؟ لابأس ، فلنجرب ذلك بحفلة موسيقية . ولكن ويلاه ، ها هي ذي تقعد في الصف الثاني من الأمام ، وصدحت كل الآلات بطريقة خاطئة دفعة واحدة ، وحتى الزيارات باتت بغيضة إليه ، إذ كان القوم يتحدثون في كل مكان عن امرأة معينة تدعى زوجة المدير فيس . «ألاتعرف شيئاً جديداً عن زوجة المدير ؟» - «متى رأيتها آخر مرة ؟» وأشياء من هذا القبيل . ثم جعل ينقّب بجهد في سقف حجرة ذاكراته . «زوجة المدير ڤيس ؟ أين سمعت هذا الاسم من قبل ذات مرة ؟ وحتى في الشارع كانوا يبتدرونه بالكلام ليروي لهم عن حالة امرأة تدعى زوجة المدير ڤيس خبراً لم يكن بالطبع متوافراً على الأطلاق . كلا ،

لقد كان يعرف في الحقيقة أن هناك نساءً فضولّيات ، غير أنه ما كان ليرى أن من الممكن أن توجد امرأة عديمة الحياء تلتصق بالمرء كالنبات الشائك ، الراتنجيّ ، التصاق الغراء ، مثل هذه السيدة التي يقال لها زوجة المدير ڤيس . فيالهذه المدينة الصغيرة التي تظل قدم المرء فيها تعثر أبداً بالأفراد ذاتهم من الناس ، أو بأسمائهم ، إذا لم يكن ذلك بذواتهم! إلى أين يذهب المرء لينقذ نفسه من زوجة المدير هذه المنحوسة ، التي لامندوحة عنها ؟ لابد للمرء أن يخرج بعيداً ، وأن يكون في وسعه أن يهرب في الأرض العريضة ، حيث لا يدرى به أحد من الفضوليين .

ولمِ َلا يكون ذلك ؟ ولماذا إذاً وجدت الخطوط الحديدية ؟ وتذكرّ أنه سمع ذات مرة من فمها صيحة تقول : «من الغريب أنني لم أذهب بعدُ في حياتي كلها إلى لينجندورف أبداً» وعلى هذا فقد كانت هذه البلدة خالية من الذكريات ، طاهرة من بسويدا . ولذلك سافر بالخط الحديدي إلى لينجندورف . وحين وصل إلى هناك أباح لنفسه ، ليتذوّق الوعي بعدم وجودها تذوُّقاً عميقاً ، لعبة ممتعة صغيرة من ألعاب الحيلة : فلم يكد ينزل من القطار حتى توجه إلى عضو مجلس الإدارة في المحطة ، ورجا منه بأسلوب بالغ التهذيب أن يتفضّل عليه بمعلومات تتصل بالإقامة ، وذلك أنه قدم إلى لينجندورف لزيارة امرأة معينة هي زوجة الدكتور ڤيس ، وسأله هل يمكن أن يتكرَّم عليه بأن يدلّه على الطريق إلى مسكنها . وانتابت عضو مجلس الإدارة الدهشة ، وهز برأسه ، ونادى الخازن يستعين به ، ونادى هذا على البوّاب ، ونادى البّواب على الأجير في محل «الأيِّل» والحوذى التابع لمحل «اللقلق» ، فكان اسم زوجة المدير ڤيس مجهولاً عند كل هؤلاء ، وتدخل في هذه المسألة خادم الشرطة ، ثم بعض الواقفين حواليهم ، وكانت المعلومات الباعثة للأسف بالإجماع أنه مامن امرأة تحمل اسم زوجة المدير

ڤيس تقطن في لينجندورف» . وجعلوا يتأملون ڤيكتور وعليهم أمارات الرثاء له . غير أن هذا كان مبتهجاً في قرارة نفسه : «ألا ترين الآن يامدعية الفضل ، المتطفِّلة أن الناس لايعرفون حتى تفاهة وجودك ، وبناء على ذلك ، ماالذي يجعلك تظهرين في نظر نفسك ذات أهمية تتخطى كل الحدود ؟ » . لقد فعل ذلك له أهل لينجندورف الذين لم يعرفوا من زوجة المدير ڤيس حتى اسمها . وفي استئناس بالناس يرد الروح إلى القلب ، جعل ينفث ، بلطفه وظرفه ، السحر في كل ماهو حي مما كان يعرض له في الطريق مثل أمير نزل من القطار باسم مستعار . ولبث النهار بطوله يلعب دور الامبراطور جوزيف ، على أن ذلك لم يكن من الوجهة الظاهرية فحسب ، كلا ، بل كان يحبهم بالفعل من قلبه ، هؤلاء الطيبون ، الأخيار ، الجديرون بالاحترام الكبير من أهل ليجندورف ، الذين لم يعرفوا من زوجة المدير ڤيس حتى اسمها . والربوع الساحرة التي لم تطأها قدم لها أبداً! وهذه الذوائب الودودة من روابي الغابات التي لم تلق عليها نظرة أبداً! إن المرء ليتنفس على الوجه الصحيح في هذا الجو! ألاتحسّون بهذا بأنفسكم ؟ وطفق يمتدح المناخ في لينجندورف بإفراط بلغ منه أن المضيف في فندق« اللقلق» الذي نزل فيه عرض عليه ، بصوت هامس ، وقد خَلقت به الآمال المعقودة على أرباب الصناعة الأجانب ، تخفيضات في الأسعار إذا طاب له أن يقضي فترة علاجية في الهواء الطلق في الصيف القادم في ليجندورف ، بل بذل جهداً ليس بالقليل ليسمح له بتسديد المستحق عليه من أجل طعام الغداء . وحين ارتحل في المساء كانت القرية كلها قد أصبحت أصدقاء له ، من الدكتور والقس إلى أجير الفندق وكلب الساحة . وعاد إلى بيته متأثّراً ، قرير العين ، إذ لم يعش إلا فيما ندر ساعات خالية من الكدر . وكان حتى الآن يقدر أهل الريف دون قدرهم على نحو حاسم .

وكان مايزال سادراً في أحلامه ، يستعرض بفكره النهار الَرَعوي ، حين زجَ بنفسه ، لدى عودته إلى المدينة في وسط جموع البشر في المحطة . ألا سحقاً لهذا من باعث للغيظ . فهاهي ذي بنفسها ، واقفة تحادث الأستاذ بفينيجر ، وإذا السعادة الناجمة عن عدم وجودها تتلاشى .

والآن ، أرجوكم ، أين قوانين الطبيعة ؟ وماقول المنطق في ذلك ياترى ؟ إذا لم يكن لها وجود فمن المستحيل أن أتمكَّن من رؤيتها ، وعندما أراها فلا بدّ أن تكون موجودة ، ولكن لاشك في أنها لاتوجد ، فكيف أستطيع رؤيتها مع ذلك ؟ هذا أمر لا يستطيع أن يفهمه حتى السفسطائي! ـ أما أنا فما عدت أعرف إلا وسيلة واحدة : سوف أغلق حجرتي على نفسي ، وسيكون من العسير عليها أن تجد الطريق من خلال ثقب المفتاح! » وأغلق الباب ، وسحب المزلاج إلى الأمام ، واضطجع على الأريكة ، وأخلد إلى السكون . وبعد أن رقد على هذا النحو هنيهة ظهر في الحجرة شيء كالضباب في الضوء ، وتكاثف الضباب شيئاً فشيئاً ، وانبثق منه ضوء في صورة محيّا بشري ، وكان يزداد وضوحاً وجمالاً على نحو مطرد ، وإذا هو محيّاها وقال متذرعاً بالحُلم ، ولكن بجّد : «الآن ، يابسويْدا ، الآن أناشد فيك روح الإنصاف والعدالة . لاأريد أن أعترض على نفورك ، وكراهيتك بشيء ، فأنا أدع لك الشوارع ، والمدينة ، والعالم الخارجي بأسره ، غير أني أقدر السلام المنزلي ، فلا ينبغي لك أن تقتحمي حجرتي » .

وقال العقل يعلِّمه : «ولكن ، ولكن ياڤيكتور! إنها ليست موجودة هنا بذاتها ، بل كانت الأخت أنا ستازيا فانتازيا* وحدها هي التي تلوِّح لك بشيء ما » .

* هذه العبارة التي يستخدمها الكاتب كما لو كانت اسم علم تعبر عن مصطلح طبي مرضي يدل على التخدير عن طريق الخيال أو التخيُّل

وقال في غيظ : «ربما تستطيع هذه أيضاً أن تلوِّح بشيء أكثر براعة وذكاءً» .

وقال الخيال متذمِّراً : «أنا أُلوِّح بما أشاء ، ورأس بسويْدا يعجبني الآن ، وإذا كان لك رأي آخر ، فلست مضطراً إلى النظر ، ومامن أحد يرغمك على ذلك» . وظلت الأخت تمارس لعبتها حتى بات ڤيكتور الآن يرى في حجرته رأس بسويْداً يحوم حوله على الدوام باستثناء حالات نادرة من الانقطاع ، وذلك في المساء عندما كان الغسق يملأ الحجرة . فما الذي كان من الممكن عمله مع هذا ؟ يبدو أنه بات الآن محكوماً عليه أن يضطر إلى أن يرى نصب عينيه ، دائماً ، وفي كل مكان ، هذه التفاهة المتغطرسة ، المتطفِّلة . وأخيراً فإن تفكير الصفو بعيد عن أن يكون مصيبة . فثمة آخرون في حجراتهم بعوض ، أما هو فكان في حجرته بسويْدا ، وإنما تتمثل الفطنة كلها في أن لاينفعل من جرّاء ذلك . ورضي بحقيقة وجودها في كل مكان ، بحكمة .

وفجأة ضربه الخبر على أذنية ، مثلما تضرب قنبلة منزلاً ، إذ قيل إنها مريضة . وكان هذا في المساء ، حوالي الساعة السابعة ، وكان الذي جاء بالخبر هو الخادم . وبعد أن أفاق من ذهوله الأول أحس بانفعال جامح وبلبلة ، كأن في داخله كومة من النمل وهو راقد في وسطها . فكيف كان ينبغي أن يكون موقفه الآن من هذه الحقيقة ؟ أما الاهتمام القلبي فأمر ما كان يمكن الحديث عنه بالطبع ، ألا بُعْداً لذلك وسحقاً! فهي عدوته الماكرة! خائنة الظهور والحضور! ومُسَمِّمة إيماغو . ومن الناحية الأخرى لم يكن يجد بداً ، مرة أخرى ، من الأسف عليها مخلصاً ، إذ كانت ، على الرغم من كل شيء ، مخلوقاً يتألّم . فأين يرتسم هنا الخط الفاصل الحاد . وماهو الوسط

الدقيق ، الصحيح ؟ إنها مهمة صعبة بالقياس إلى الشعور ، وهي فوق ذلك مهمة خطرة ، لأنه إذا شعر بالأسف على بسويدا أكثر مما ينبغي ولو قليلاً فسوف يبدو ذلك من بعد كما لو كان قلبه بعيداً عن أن يكون لامبالياً بها ، ولكن إذا شعر بقدر أقل مما ينبغي من الأسف عليها كان موقفه هنا كأنه إنسان عديم الوجدان ، جدير بالكراهية . وقد بلغ من صعوبة هذه المهمة أنه ظل حتى منتصف الليل يرهق دماغه في هذا المسألة ، ولم تكن المسألة في منتصف الليل أكثر وضوحاً وجلاء مما كانت عليه في بدايته ، بل كانت على النقيض . والويل له! فثمة إمكانية وخيمة! لو كانت العلة الآن علة جدية! وإذا وصل الأمر في النهاية حتى إلى...! كلاّ ، كلاّ ، فهذا خليق أن يكون على وجه الخصوص مقلباً شيطانياً من مقالب المصير ، يهدف إلى إرغامه ، عن طريق مثل هذه الحركة البهلوانية الدنيئة ، على اتخاذ موقف قلبّي طيّب تجاه الخائنة ، أما الشطر الثاني من الليل فأنفقه في صلاة إلى القدر مفعمة بالخوف يرجوه أن تستعيد عافيتها ، لكيلا يضطر إلى أن يكون طيباً تجاهها . وكان من أثر هذا الجهد الوجدانّي العنيف أنه بلغ من ذهوله في الصباح أنه خرج هو من سريره نصف مريض .

وأسرع ، في اشمئزاز من طعام الإفطار ، إلى حارة منستر ، وصاح بزوجها من مدخل المنزل ، في خوف : «أيها الوكيل ، كيف حال زوجك ، آمل ألا يكون شيئاً ذا خطر ؟» .

وقال الوكيل مندهشاً : «ولِمَ ذاك ؟ إنها ليست مريضة أبداً ، وأقصى ما في الأمر شيء من ألم الأسنان ـ ولكن لماذا تسميني وكيلاً ، ياترُى ؟» .

وقال هاتفاً وهو يولّي مسرعاً وقد سُري عنه : «لاشيء ، لاشيء» ، وإذاً فقد استجاب القدر لدعائه . ولكن آلام الأسنان تؤلم على الرغم من أنها

ليست بذات خطر .«مهلاً ، هناك شيء جميل ، جميل جداً! أتعلم - من دون المساس بحالة الحرب التي وجد فيها مع بسويدا - وشكراً لها على أنها لم تَمْرَض عليّ ، أريد الآن أن أردّ عليها بشيء ظريف (فإنّ في وسع المرء أيضاً أن يخوض حرباً بأسلوب فروسي يتسم بالشهامة) . إذاً فانتبه : في الوقت الذي تعاني فيه الآلام - ألا ترى ذلك ؟ - أريد أن أعاني من الآلام مثلها ، وفي الحقيقة ، في الموضع ذاته على وجه الدقة ، أي في الأسنان . أليس كذلك ، هذا جميل ؟ أهذا حسن ؟ أهذا أسلوب مهّذب في خوض الحرب» . وانطلق خارجاً وقرع الجرس على طبيب الأسنان إيفْرِنجْرَ الذي كان يعرف مسكنه من قبل مع الأسف ، وقال إنه يرغب في قلع هذا السن وذاك .

«هذا السن سليم تماماً! ربما تقصد الضرس النَّخرِ إلى جانبه ؟ فهذا الضرس ليس فيه أذى على الإطلاق» .

وكان ڤيكتور في صراع مع ضميره : أمِن اللائق أيضاً أن يربط المرء بالألم منفعة في الوقت ذاته ؟ وأخيراً فضّل قلع الضرس الَنِخر على قلع السليم .

وحين تقدم الطبيب إفْرِنجَر بغازه المضحك* ، أعلن الضمير عن قدومه مرة ثانية ، قائلاً : «هلاّ استحيت ، ياڤيكتور! وهل أتيت لتشاطرها معاناة الآلام ، وأنت تريد الآن أن تساوم على الآلام في جُبْن» .

وما من شك في أن ڤيكتور أحسّ بالخجل ، ولكن بالنظر إلى الكمّاشة الرهيبة وجد أن ماهو أكثر نفعاً له ألاّ يرفض الآلة الباعثة للعزاء ، التي لم

(*) أوكسيدول الآزوت N2O غاز لا لون له ، ذو رائحة مستحبة ، وهو مادة مخدرة خفيفة ، يحدث رغبة تشجية في الضحك . «المترجم»

يكن قد طلبها في الحقيقة حين وصل بمحض إرادته . ولكي يصالح ضميره في هذه الأثناء إلى حدٍّ ما طلب قلع ضرس ثان ، وكان مثل ذلك ، ضرساً مُسَوَّساً ، وكان ذلك بالغاز المضحك ، مرة أخرى .

وبعد ذلك ، على طريق العودة إلى البيت ، لم يصل إلى سلام مع نفسه فيما يتعلق بمسألة هل أتى في الحقيقة أمراً جليلاً أم لا . فمن الناحية الأولى لايعد من الأمور اليومية ، بلا ريب ، أن يطلب المرء قلع سِنَّينْ ، لمجرد أن إنساناً آخر يعاني من آلام الأسنان ، ومن الناحية الثانية لا يعد السِنّان النخران تضحية لا شائبة فيها على وجه الخصوص ، ثم إن الصبر على الآلام بوساطة مادة مهَّدئة للألم من الأعمال الاستشهادية التي ماكان أحد من البابوات ليكرِّسة قديساً من أجلها . غير أنه شعر فجأة ببعض الاعتدال والوهن في صحته حتى لقد ودَّ لو يقعد في أي مكان . ولكن لمّا لم يكن من البشر الاجتماعيين ، ولم يكن يتردَّد على المقاهي والحانات أبداً ، فإنه لم يهتِد إلى هذا المخرج الأقرب ، بل لم يجد وسيلة أخرى سوى الاستفادة من الضيافة لدى واحد من معارفه ، على الرغم من الساعة غير المألوفة (إذ كانت الساعة تتجاوز التاسعة قليلاً) . وكانت زوجة الدكتور ريتشارد تقيم في منزل على الطريق ، وقال إنه يرجو أن تعذُره ببالغ فضلها ، إذ أنه لا يشعر بأن حالته على مايرام تماماً . واتخذت المرأة أهبتها ، وقد أقلقها حاله ، للقيام على خدمته ، بحماسة ، واضطرته إلى القعود على الأريكة ، وأرغمته على شرب قدح صغير من المالاقا* حسَّن حالته بالفعل ، وحين همّ بالانصراف شاكراً ، أقنعته بالبقاء «أنت مازلت على شيء من الشحوب ، وأنا أوكد لك أنك لا تزعجني أدنى إزعاج» ـ وحين مضى على قعوده على هذا النحو نحو

(*) خمر حلو ناريّ ، من مالقة .

نصف ساعة ضئيلة دخلت آنسة في قبعتها ومعطفها ، مفعمة بالحيوية تتدفق بالمرح ، وقالت السيدة ريتشارد : «هذه الآنسة الجميلة لا بّد أن تبدو لك جديرة بالودّ على وجه الخصوص ـ بغض النظر عن كونها تبدو جديرة بالودّ لكل الناس على أية حال ـ أم لعلك لا ترى ذلك ؟ ـ وأنا أقصد إنها جديرة بالودّ بوجه خاص لأن السيدة زوجة المدير ڤيس أنقذت حياتها ذات مرة ، في سالف الأيام» ، ثم قالت تقدمها : «الآنسة ماري ليونا بلانتيا ، أفضل عازفة للبيانو في المدينة ، وهي في الوقت ذاته ، كما ترى ، أَفْتَنُ مخلوق أدار رؤوس الرجال في أي يوم من الأيام» .

وقالت الآنسه بلانيتا تؤكّد ذلك ، وفي عينيها نظرة شكر متأجّجة : «أجل ، لولا زوجة المدير ڤيس لما كنت هنا ، ولما ارتكبت كل هذا القدر من الحماقات في الحياة ، والأخطاء في مشاوير الصف الثامن من مدرستي» ، وقالت وهي تضحك : «أجل ، لقد كانت هي التي عمّدتني» .

وقالت زوجة الدكتور ريتشارد توضح له جليّة الأمر ، بعبارتين :

كان ذلك في أيام المدرسة ، إذ وصلت ماري ليونا ، أثناء الاستحمام ، إلى موضع عميق ، واستخرجتها تويْدا الجميلة ، كما كانوا يسمونها في تلك الأيام ، على نطاق عام) .

وقالت الآنسه بلانيتا تكّمل ذلك : «ماهي إلاّ واحد ، اثنان ، وإذا أنا واثبة في الماء ، بثيابي ، وكأن هذا أكثر الأشياء طبيعة في هذه الدينا . ومازلت أرى نظرتها أمامي ، حين لقيتني ، عندما كنت أضرب الماء بيديّ هنا وهناك ، ولم أستطيع أن أصرخ ، لأن فمي كان مملوءاً بالماء ، ولم يكن لدي حتى وقت لأموت ، فعدت إلى الحياة من جديد ، ولكن أحوالي ساءت فيما بعد ، ساءت! وهذا ماأستطيع أن أقوله لك! .

أجل ، هناك الكثير من الجمال في الموسيقى ، وإني لعلى يقين أنني أول من تعترف بهذا في إعجاب ينطوي على الامتنان ، ولكن الموسيقى كلها مجتمعة لاتبلغ بجمالها ، بلا ريب ، جمال النظرة الواحدة التي صاحت بي : [اطمئني ، ياماري ليونا ، فسأنجدك] . وكان نصف اثني عشرية من البنات يستحممن على مقربة مباشرة مني ، ولم يكن عليهن سوى أن تمدَّ الواحدة منهن يدها إليّ ، ولكن لم تلاحظ أيٌّ منهن شيئاً ، وكنَّ جميعاً خليقاتٍ أن يَدَعْنَني أغرق - ولم تكن واحدة منا ، نحن الاثنتين ، تحسن السباحة ، لا أنا ، ولا تويْدا . ومازلت حتى اليوم لاأدرك كيف لم نغرق كلتانا معاً » .

وعند هذه الحكاية رسم قلب ڤيكتور على وجهه سيماء الفلاّح عندما يسقط نيزك أمام محراثه . فكيف يتهّيأ لمثل هذه المرأة الماكرة ، زوجة المدير ڤيس أن تكون مؤهّلة لمثل هذه التضحية النبيلة ؟ أم تراها ادخرت كل مكرها وخبثها له وحده ؟ ولكن لماذا له وحده على الخصوص ؟ كانت مئات الأفكار تقرع باب فكره قرعاً عنيفاً طالبة الإذن بالدخول ، غير أنه لم يكن قادراً في الوقت الراهن على الاستماع إلى أية فكرة ، وكان عليه أن يظل على الدوام ينظر إلى هذه الآنسة الجديدة المفعمة بالحيوية ، التي كانت خليقة أن تتعفن في قبرها لولا زوجة المدير ڤيس . وحين نهضت الآنسه بلانيتا عرض عليها صحبته ليتمكن من النظر إلى تلك الموسومة بأعجوبة ، وقتاً أطول بعد . وقال يسألها : « هل تأذنين لي بمرافقتك إلى البيت ، أيتها الآنسة عازار ؟ » .

وقالت وهي تضحك : « أجل الآنسة عازار ، هكذا يمكن أن يكون اسمي على الوجه الصحيح »

وقالت السيدة ريتشارد تمازحهما : « آه ، الآن ماعدت أخاف على صاحبنا ڤيكتور ، لأنه إذا أتيح له أن يصحب آنسه جميلة إلى بيتها فقد برىء من مرضه على الفور »

وبعد أن ودّع فيكتور الآنسة عازار واصل المسير في غمار أفكاره «لو كنت على وشك الغرق لَما مَّدت إلي يداً! كلاً ، بل كانت خليقة أن ترمي رأسي بالحجارة! ولكن مهلاً : من هذه القادمة هناك ؟ لقد أوشكت أن أصدق ذلك ـ الأرجح أنها هي ، بسويْدا بلحمها ودمها! ومن الواضح أنها في تمام الصحة ، والسرور ، وليس على وجنتيها حتى القطن الطبي الدالّ على ما يسوء » وهذا أمر يلفت النظر ويبعث على التفكير ، فهل أدت التضحية بِسِنِّيْه ، ياتُرى إلى تهدئه ثائرة مُعَذِّبيها ، هذا في الحقيقة جنون ، وعلى كل حال فليس هذا بالأمر المستحيل كل الاستحالة . وفي وعيٍ منه بتضحيتة المجيدة ، تقدَّم منها في شيء من الثقة أكثر مما كان العهد به ، وهو يكاد ينتظر منها كلمة شكر ضئيلة ، وإذا هي تحملق فيه شأن الغريب وكأنها لاتعرفه ، مُعْرِضةً عنه جانباً ، وظلت تتأمل بانتباه ، وقد أحنت قامتها ، إلى أن تجاوزها ، قبعةً في واجهة عرض في متجر للأزياء .

«لاشيء جميل! فلتواصل مسيرك! الآن ماعادت تلقي عليَّ حتى السلام! هذا ما كان ينقصني بعدُ أيضاً! » وقال في نفسه وهو يمّد ذراعه في ازدراء ملكّي : «ها أنتذا ترى هذا ، هذا هو شأن البشر! في الوقت الذي تنغِّص على نفسك فيه الليالي من أجلها ، وتحرم نفسك من النوم ، ترفض تحّيتك! »وبدا له سلوكها من الدناءة بحيث طرحه من ذهنه بلا مبالاة سامية ، ولكنه كان باعثاً على التذمر بلا ريب ، وكان التذمُّر يعتمل الآن ، بصورة لاحقة ، في نفسه ، فيزداد عنفاً مع كل خطوة ، مصحوباً بأفكار مريرة بلغ منها أنها باتت آخر الأمر تؤلمه على وجه الخصوص ، وكأن أحداً أدار سكّينه في داخل غضبه ، وكان الأمر بصورة حاسمة على النحو التالي : كل شَرّ مُوَجَّه نحوه ، والخير للأخرين . وعلى كل حال ، فإذا فكَّر المرء في ذلك : فالمسألة تحتاج بلا ريب إلى نزعة سوء عميقة لا قرار لها ، فوق ذلك ، لكي يقذف المرء

بالحجارة على امرىء آخذ في الغرق! وكان يغص أبداً باللقمة الجافة الخبيثة . غير أن ما كان شيطانياً على وجه الخصوص هو أنه كانت تبدو ، في هذا اليوم على وجه الخصوص ، من حيث المظهر الخارجي ، أجمل كثيراً مما كانت عليه في أي وقت مضى ، منذ أن أطلَّع على حكايتها مع الآنسة عازار .

وفجأة ظهرت في صورة الذكرى نقطة تثير التساؤل : « أتراها لم تبتسم من وراءعينيها ، ابتسامة مختلسة ماكرة حينما حملقت فيك كأنما ترى غريباً لاتعرفه ؟ لقد كانت نظرتها تبدو لي مثيرة للشبهة » .

ولم ينته طوال النهار إلى رأي محدد في هذا الصدد . ولكن حين ظهر له رأس بسويدا من جديد ، كالعادة ، في الحجرة المظلمة ، وكان ذلك في الحقيقة أكثر إشراقاً مما كان عليه فيما عدا ذلك ، إذا الشك ينجلي ، إذ رأى ذلك الآن بكل وضوح : كانت تبتسم ابتسامة مختلسة ماكرة ، من وراء نظرتها .

وثار لذلك ثائره . وصاح يهدِّدها : «ماذا تعني هذه الابتسامة ، الابتسامة لغة ملتبسة متعددة المعاني ، وأنا أطالب ببيان صريح مستقيم . يابسويدا ، أنا آمرك أن تقولي لي ، لأي سبب تبتسمين مني ابتسامة الماكرة» .

وبدلاً من الجواب ظهرت الآن ، في وسط الابتسامة المختلسة الماكرة نقطة تهكمية كانت تتضخَّم شيئاً فشيئاً .

وعلى أثر ذلك نَّدت عنه صرخة غضب : «أيتها المرأة ، الخبيثة! لاتتهكمي! وحسبُك أنك تلاحقينني بكراهيتك السامّة ، في كل ساعة وفي كل يوم ، جاريةً ورائي لا يقر لك قرار ، ولا تكُفّين ، ترمينني بالحجارة عندما أغرق ، ولكن لاتتهكمي ، أتفهمين ، لاتتهكمي ، هذا أمر أحظره عليك»

ولكن النقطة التهكمّية ظلت باقية كأنْ لم يقل شيئاً ، وإذا هي تظهر الآن ، تحركها يد غير مرئية ، وعلى وجهها التهكمْي المشرق راية نصر صغيرة تعلن انتصارها .

وصرخ قائلاً :« بم تنتصرين ؟ وأي نصر أحرزته عليّ ياتُرى ؟ ماكنت لأعرف أي نصر هذا! فأرجوك ، باسم الذوق الرفيع ، أن تسدي إليّ معروفاً ، وتكُفّي عن رفع منديل التهكُّم السخيف! » .

ومع ذلك فقد ظل ذلك وكأنه لم يقل شيئاً . وظلت راية النصر الصغيرة قائمة لاتريم ، وإذا هو المكر الجديد : فقد تحّولت الابتسامة التهكمية في عينيها إلى الأسفل ، حول زاويتي الفم ، اللتين تشوهتا الآن بفعل ابتسامة صفراء ساخرة وقحة ، وكانت هذه الابتسامة الصفراء تتخذ ، على نحو مطرد الزيادة ، تعبيراً جهنمياً ، وأخيراً تحوّل الوجه البشري إلى وجه شيطاني مخيف له قرنان ومنقار ، إلى نوع من طائر تهكمي جهنمي كان يشير مع ذلك إلى الملامح الجميلة لبسويدا .

وكان هذا ، بلا ريب ، كثيراًجداً بالقياس إلى فيكتور الصافي ، وصاح قائلاً : « أغربْ عني ، أيها الشبح! » ، وكان يضرب بيده نحو الشبح ، وإذا الشبح ينفجر هارباً في كل الاتجاهات ، ولكن الأجزاء المتفرّقة عادت أدراجها ، رويداً رويداً ، فجاء من أحد الزوايا راية النصر الصغيرة ، ومن زاوية أخرى الطائر التهكمي الشيطاني ذو القرنين والمنقار ، ومن الزاوية الثالثة وجه بسويْدا البشري الجميل ، وظلت الأجزاء بمجموعها ، منذ الآن فصاعداً ، منفصلة بفرجة مكانية . وبات أمامه الآن ، ثلاثة أشباح بدلاً من شبح واحد . هنالك دهمه خوف اصفرَّ له وجهه .« ڤيكتور ، ماهذا الآن ؟ أأنت مجنون ياترى ؟ » وجعل يختبر صحته بفكر ثاقب « ماهي السمة

المميزة للجنون ؟ أنْ لايرى المرء في الأشباح أشكالاً من صنع الخيال ، بل يخلط بينها وبين الواقع . أوَ تفعل هذا أنت ؟ » ـ «هذا لايخطر ببالي ، بل أعلم حق العلم أنني أرى أمامي مجرد شبح من صنع الخيال ، غير أني لا أُوَّفق على أية حال إلى التخلُّص من الشبح بإرادتي ، لأنني موسوم بوسمة خيال فائق السلطان » .

« إذا فلا بأس ، ولتدع الخيال ينسج أشباحه ، ولا تحفِل بذلك» ، ورقد للنوم وقد أَفْرَخَ رَوْعُه .

وفي الصباح التالي ، حين فتح عينيه في الحجرة المظلمة كالليل ، وعادت الذكرى تنبعث مع التيقُّظ التدريجيّ للوعي ، من خلال سديم الأفكار ، لاحظ الشبح الكامل من جديد ، وراية النصر الصغيرة والطائر الشيطاني بابتسامته الصفراء ، وبسويْدا ، الإنسانة الجميلة .

« ياللعجب ، أوَ يستمر هذا الآن على هذا المنوال ؟ » واتصل هذا على هذه الصورة . وأصبح مجمل محتوى حياته . ثانية فثانية ، هو الكفاح ضد الخيال ، وتصحيح الشبح ، والقلق المشوب بالخوف ، من الخلط بين الشبح والواقع ، مثلاً ، وكان هذا عملاً مجهداً رهيباً ماعاد يدع مجالاً لفكرة أخرى ، وكان أشد مافي ذلك إثارة لليأس هو أن هذا العمل كان في الوقت ذاته ضرورياً ، وكان عبثاً لاطائل تحته ، كان ضرورياً للإفلات من قبضة الجنون ، وكان عبثاً ، لأن ما حصّلته ساعة بجهد لا نهاية له كانت تبدده الساعة التالية من جديد ، كَأَنْ لم يكن ثمة شيء ، وكان الثلاثي الجهنمي يحوم حواليه من الصباح إلى المساء ، فلا يرحمه ، ولا يدع له فرصة لالتقاط أنفاسه . وبدلاً من أن يتلاشى كان يتنامى متحولاً إلى أبعاد عملاقية ، هائلة . وكان يبتسم له في الظلمة ابتسامة صفراء ساخرة ، من زوايا

الحجرة ، وفي النهار من النافذة ، ومن أسقف المنازل ، ومن التلال ، ومن كل مكان .

ولم يصب بالجنون ، ولكن خرج عن صوابه ، وكان يحدث أنه كان يركض في الغابات صارخاً من الغضب ، وأنه كان يكشّر فجأة عن أسنانه لإنسان كان يحادثه بسلام ، لأنه كان يبصر الشبح الجهّنمي بينه وبين ذلك الإنسان . وكان يفيض في داخله نهر أسود على نحو لا انقطاع فيه ، يُحْدِق بوعيه ، وفيه بقع حُمْر كأنما كان حبر دموي ينبجس من جرح .

وذات مساء استسلم للتعب : «ماعدت أستطيع ، ببساطة ، ولا أعرف ماآتي وما أدع » .

هنالك خُيِّل إليه كأنه يبصر رجلاً وسيماً إلى جانبه ، وكان يضع يده على كتفه . وقال الرجل الوسيم : «ڤيكتور» ، ولم يَزِدْ على ذلك شيئاً .

ونظر ڤيكتور إلى الرجل الوسيم وقلبه مفعم بالهم ، ثم نكُس جبينه الذي كان يسنده بيديه وغمغم آخر الأمر قائلاً : «أريد أن أكون طيِّباً هذا هو الشيء الوحيد الذي مازلتُ أفهمه»

وقال الرجل الوسيم يواسيه : «أجل ، فلتكن طيباً ، وكل شيء آخر ، سواء أكان جنوناً أم لم يكن جنوناً ، فهو عَرَض ثانوي آخر الأمر» .

وبعد هذه الكلمات نضب النهر الأسود الكبير ، ذو المداد الدموي ، النازف من جرحه .غير أن الأشباح ظلت من بعدُ قائمة لاتريم كما كانت من قبل .

وكان هذا في يوم من أيام الخميس . وفي صباح السبت لاحظها ، بلحمها ودمها ، في الشارع ، على بُعْدِ مرمى حجر أمامه ، مقبلة عليه ،

يفصلها عنه أناس آخرون ، وتنهّد قائلاً وهو يسرع نحوها في خَطْوِ الراكض ، في مثل رغبة الذئب : «ربأه ، هل ظفرت بك آخر الأمر!» ، وحين رأى عيني الرجل الوسيم موجهتين نحوه : «لاتقلق! فليس هناك كلمة قاسية ، ولا ملاحظة غير لائقة . لا شيء سوى العدو الغادر الذي يطاردني من جهة غير مرئية ، وينظر في عينيّ» .

وحين لحق بها تجمَّد ، لا ينبس ببنت شفة من الذهول ، «أمَا من شيء سوى هذا ؟ » كانت تخطو مقبلة عليه متقلصةً في حدود تبعث على الرثاء ، مضحكة ضئيلةً ، لايكاد مجموعها يبلغ المتر والثمانين طولاً ، ولاشيء منها سوى جلدها ، ولا أشباح حولها ، ولامبارزة أمام المرآة ، ولا أشياء مهولة ثم هذه القبعة الخالية من الذوق التي كانت تعتمرها! ياله من انكشاف يدعو إلى الرثاء!

وبذلك كان قد عثر على الطِلَّسم ضد شَعْوَذاتها ، ولم يكن يحتاج إلاّ إلى أن تكون أمامه بجسدها وعند ذلك تذهب فنون سحرها أدراج الرياح . وكان من الواضح أنها كانت تخشاه ـ وفي معظم الأحيان يقترن سوء القصد بالجبن ولذلك كان يختلف إليها في زيارات متواترة قدر الإمكان ، ويسحرها بنظراته المتوعِّدة ، متربصاً بين يدي وجهها كالقطة أمام ثقب الفأر« أنت لاتثقين بنفسك ، أليس كذلك ؟ » وكان يمتِّع ناظريه بمرأى عَجْزِها . والحق أن هذا كان يدهشه بلا ريب ، وود لو أنه شارك ذات مرة في مشاهدة الكيفية التي تعمل بها على ظهور الشبح ، فإن المرء لا يرى في كل يوم كيف يتبدّل الرأس النسائي فجأة فيكون رأس طائر . ومن أجل هذا الغرض ، أي من أجل المفاجأة في تبديل الوجوه ، كان ينظر إليها في بعض الأحيان عندما تكون أقلَّ ماتكون توقُّعاً لذلك ، في مثل سرعة البرق ، ولكن عبثاً ، فقد كانت أسرع منه .

غير أن الأشباح التي رأت نفسها مكشوفة وأدركت أنها عثرت على معلّمها ، تخلّت عن اللعبة ، وظهرت بضع مرات نادرة أيضاً ، ولكن من دون اقتناع ، لمجرد إنقاذ ماء الوجه ، وأخيراً تخلّفت وغابت تماماً .

وقد كان من الممكن أن يستمر هذا زمناً لايُعَرف مداه على هذا النحو .

وهنا حدث ذات مساء ، في حضور ضيف آخر ، ولكن في غياب الوكيل ، أنها همَّت ، بعد أن أنشدت أغاني مختلفة ، غير ذات شأن ، ولاقيمة ، أن تغني للآخر أيضاً تلك الأغنية التي غنّتها فيما مضى له ، أي ڤيكتور ، عند الظهور . وفعلت هذا من دون قصد سيئ ، إذ إن تلك الأغنية تعني بالقياس إليها ، ببساطة ، قطعة موسيقية مثل أي قطعة أخرى أمّا هو فقد أحسّ ، في مواجهة الانتهاك الوشيك لحرمة أقدس ملكياته ، بألم جنوني يعصف به «إنه تدنيس ذهب أبدية الظهور عن طريق الطلاء السطحي المبتذل! وعَرْضٌ لضريح تويْدا ، أختِها ، وعروسي ، على نحو غريب! على نحوٍ خالٍ من الشعور ، ولمجرد اللهو والتسلية ، وفوق ذلك في حضوري! فهل يُعُد هذا الآن خبثاً شيطانياً أم بهيمّية ؟ » ولما كان على كل حال ضعيف المقدرة على الكلام فقد كان يفقد صوته في أمثال هذه الأحوال من الانفعال الأقصى . وفي فزع صامت ، جعل يتابع كيف أخرجت كراسة النوطات ، كراسة الأمس ذاتها ، ولم تكن قد أصابها الاصفرار إلا في هذه الأثناء ، قليلاً ، على هوامشها ، وتنشرها بلا مبالاة فوق منصة البيانو ، ومع ذلك فحين قعدت من جديد للغناء ، قَسَر نفسه ، في وثبة إلى الأمام ، على الكلام ، بعنف ، وقال يمنعها : «هذه الأغنية لن تغنيها! » وكان يريد أن يلتمس ذلك بلهجة الضارع المتوسِّل ، ولكن الألم والتذمُّر بدّلا ، في طريقهما من القلب إلى الصوت ، الرجاءَ إلى أمر فظّ .

وخضَّب الامتعاض العنيف جبينها بالحمرة وقالت تعانده : «وددت لو أعرف بحق الإله ، من يسمح لنفسه أن يرغب في منعي من غناء تلك الأغنية التي أريدها» .

وقال وهو يتأوّه متوجِّعاً : «أنا» .

وازدادت الآن إصراراً على غناء هذه الأغنية ، تحدياً لِحَظْره المتطاول ، وفتحت فاها ، وغنت بالفعل أغنية الظهور ، غنتها حقاً ، من دون رحمة ، زمناً لا نهاية له ، من النوطة الأولى إلى الأخيرة ، ولم يكن له بدٌّ أن يظل قاعداً ويسكت على ذلك صابراً . ووجد الطاقة التي تمكّنه من التماسك وعدم التحُرك . ولكن لم تكد تفرغ من ذلك حتى شحن نظرته بإهانة بالغة ، ونهض واقفاً ، وتقدَّم منها ، وقذف من عينيه الازدراءَ في محيّاها .

وقالت عينُها تردُّ عليه في تهديد : «على رسْلك ياهذا! إذا زَلّ لسانك في أي وقت من الأوقات بكلمة واحدة غير لائقة...» .

كلا ، لم يكن من الممكن أن يستمر هذا على هذا المنوال ، ولم يكن هناك بدّ من شيء يحسُمه ، وأخذ يسائل إحساسه الداخلي : ماعسى أن يكون هذا ، في فضول ، على الرغم من عبثيته .

ڤيكتور يستسلم

كانت الإيدياليا قد نظمت رحلة للتزلج ، تحية للثلج المبكر الذي لم يكن مأمولاً . إذ كان الوقت مايزال في تشرين الأول ، وفي طريق العودة عرَّجوا على فندق في الغابة . وحين أدخل ڤيكتور ، بعد الاستمتاع بالشاي ،

شأن الآخرين ، زلاّقته السابقة من جديد ، أشار الحوذي الذي قادها به مع بسويْدا وسَيّدَيْن آخرَيْن ، بسوطه إلى الأمام ، قائلاً

«زوجتك تقعد الآن في الزلاّقة الأمامية» وكان هذا قد حَسِب ، لسبب لايعلمه أحد ، وربما لأن فيكتور وبُسويْدا كانا يتشاجران أبداً ، أنهما زوجان وصاح ڤيكتور بحماسة ، وهو يخرج كيس نقوده على عجل : «انتظر لحظة» ، ودسّ في يده قطعة من النقد الذهبي .

وعكَسَ الحوذي قطعة النقد في ضوء المصباح ، وقال متعجّباً ، بصوت كاد يعبر عن اللّوم : «هذه قطعة ذهبية ياهذا» .

«أنا أعرف هذا . فاحتفظ بها ، بالله عليك» .

«ولكن فيمَ ذاك ، ياتُرى ؟ »

«لأنك كنت ، بين الألوف المؤلّفة ، الإنسان الوحيد الراجح العقل في المدينة» وبعد هذه الكلمات قعد في مكانه ولم ينبس ببنت شفة طوال رحلة العودة .

ومع ذلك فلم يكد يبلغ منزله حتى استدعى عقله ، وقال : «لقد أهملتك إهمالاً كثيراً إلى حد ما في الأيام الأخيرة ، فلا تحملْ ذلك مني محمل السوء ، أرجوك ، وساعِدْني» . ورد العقل قائلاً :

«أنا لاأحمل أبداً شيئاً على محمل السوء ، فبأي شيء أستطيع خدمتك ؟ » .

«لقد غابت عن ذهني ، في غمرة الانفعال ، هذه المسألة وتلك ، والأمور تبدو لي مثيرة للشبهة قليلاً ، فقلْ لي بصراحة ، ماذا يعني هذا ؟ » وروى له واقعة القطعة الذهبية .

«لبَّيك ، هل تريد أن تسمع الحقيقة فعلاً ؟ » .

«الحقيقةَ على كل حال ، وإياك وكَذِبَ المرءِ على نفسه ، إياك وهذا فحسب» .

«أحسنت ، فاقعد إذاً وأَصْغِ إليّ ، ولكن لِتَكُنْ دقيقاً في الحساب لترى هل أرتكبُ خطأً ، مثلاً ، ها أنذا أبدأ : لقد أردتَ ، حين أهديت الرجل قطعة النقد الذهبي ، أن تكافئه على أنه حَسِب أن بسويدا زوجتك ، أليس كذلك ؟» .

«هذا أمر بَدَهيّ» .

«وعندما أردت أن تكافئه على ذلك أثبت هذا أن خطأه كان له جَرْسٌ مستحب في أذنك» .

«ربما» .

«ليس «ربما» ، أنا أطالب بجواب محدد . نعم ، أو لا ؟» .

«فليكن قولي : نعم» .

«ليس فليكن» ، بل أريد جواباً قطعياًحاسماً : نعم أم لا ؟

«نعم» .

«لا بأس ، الآن أتابع . ولكن عندما يستحق عندك أيها الصعلوك المسكين ، مجرَّدُ التصور الخاطى من قبل طرف ثالث ، وهو فوق ذلك إنسان لاشأن له بالأمر وغريب عن المحيط بأسره ، تصُوُر حوذيّ ، أنَّ بسويدا هي زوجتك ، قطعةً نقديةً ذهبيةً ، فإنما يشي هذا بأنك ستكون سعيداً سعادةً لايمكن تصوُرها لو كانت بسويدا زوجتك في الحقيقة» . وحين وثب ڤيكتور الآن وهو يشتم ، ويَصْخَب في غضبة جنوبية من جَراء هذا الكلام ، علَّق العقل على ذلك قائلاً برزانة : «أجل ، إذا كنت لا تريد أن تسمع إلا ما تحب ، فاشتَرِ خادماً لك ، وداعاً ، إني ذاهب» .

«كلاّ ، أرجوك أن تبقى ، فإني لم أقصد بذلك سوءاً ، إذاً فأنتَ ترى

ذلك ممكناً بالفعل ؟ هذا هراء! فإن المرء لايستطيع أن يحب عندما ينظر نظرة الازدراء » .

« كلاّ ، كلاّ! فما من شيء عادي بدرجة أكبر من هذا! فوجوب وجود الحب عندما ينظر المرء نظرة الازدراء هو الجريدة اليومية للحب عند الرجال ، ثم إنه ليس من الصحيح أنك تزدريها . لاريب أنك تودّ لو تزدريها ، ولكنك لاتُوَفَّق إلى هذا ، ولايمكن أن توفَّق إليه ، وذلك لأنك معجَب بها في سِرِّك ، ولا بد لك أن تُعْجَب بها ، لأنك لست أعمى القلب والبصيرة ، ولا غيرَ منصف بما يكفي لكيلا تلاحظ سجاياها الجديرة بالإعجاب . ومع ذلك ففيمَ هذا الحديث ؟ هلاّ دلَلْتني على أي خطأ في حسابي » .

هنالك كان شعور ڤيكتور كمن يكتشف ، وهو في صحة جيدة ، بثرةً صغيرة غريبة في شفته السفلى ، وكانت فكرة شيطانية توسوس له قائلة : «آمل يارب ألاّ تكون سرطاناً!» ـ «عجباً ، ولِمَ لا تكون كذلك ؟» ، ويفضل الذهاب فوراً إلى الطبيب ليدعه يتضاحك منه كثيراً ، ولكن الطبيب ترتسم على وجهه ملامح تنطوي على لغز ، ويقول : «لقد أحسنت إذ جئت في الوقت المناسب . فالأن مازالت العملية الصغيرة شيئاً ضئيلاً إلى درجة مضحكة» .

وقام ، وهو متكدِّر الذهن ، بمحاولة يائسة لتفنيد هذا التشخيص « إن شيئاً كهذا لا ينجم فجأة ، بلا ريب ، ولا بدّ في هذه الحالة من وجود علائم أخرى ترجع إلى وقت أسبق» .

وردّ العقل قائلاً : «وهذه متوافرة أيضاً ، ومنها ، مثلاً ، تلك الأمسية عند أسرة الدكتور ، حين تسلَّلت عائداً إلى حجرة الطعام ، لكي تأكل بقية برتقالة عضتها أسنانها » .

«تصرُّفات صبيانيّة» .

«موافق ، ولكن إقدامك على تصرفات صبيانية بسببها يعني بالقياس إليّ ، على أية حال ، علاقة ما . أو عند أسرة المدير ، حين توقفت أمام حجرة نومها المفتوحة - أتذكر ؟ - وسألتك الخادم : هل تشكو من علة فإني أراك تتنهّد ؟ هل تأذن لي أن آتيك بقدح من الماء ؟ » .

«ماذا ؟ أتراني تنهّدت ؟ لاعلم لي بشيء » .

«يسرني أن أصدق ، فالتنهدات تحدث على الأغلب بصورة لاشعورية ، غير أني أظن أن من الصعب أن تكون الخادم قد اخترعت ذلك - ومرة أخرى ، في تلك الأيام ، عندما خاطبت منظِّف المداخن باسم [بْسويدا] ، وأجابك قائلاً : [لا بد أن يكون هذا خلطاً ، فإني لا أدعى بسويدا ، بل أوغست هورليمن] » .

«هذا لايثبت ، بلا ريب ، سوى حالة شرود » .

«إنه يثبت أنك ماعدت قادراً على فكرة أخرى سوى بْسويدا - ومنديل الجيب الذي سرقته منها ثم ساعدتها في البحث عنه ، مرائياً ، لماذا تحمله أبداً في جيبك ، رائحاً به وغادياً ؟ أنا أراهن أنه معك ، حتى في هذه اللحظة ، أليس كذلك ، أنت تحمرّ خجلاً ؟ - ثم حكاية اللصوص مع آلام الأسنان! - وعلى وجه الإطلاق ، لماذا باتت حالتك النفسية تدعو إلى العطف والرثاء ياترى ؟ وأين ذهب ابتهاجك وسرورك ؟ ولماذا يبدو وجهك مثل سمكة على الصنارة يجرُّها المرء على اليابسة ؟ ولماذا تتشاجر مع كل امرئ وتزمجر في وجه الناس جميعاً مثل رائد مصاب بالروماتيزم ؟ هذا يأتي من أن شيئاً ما ينقصك ، ولكن ماينقصك يمكن التعبير عنه بكلمة واحدة : بسويدا . وها أنتذا تصل الآن إلى الحقيقة التي سألت عنها » .

وبعد هذا الحديث لبث ڤيكتور قاعداً طوال ساعات ، بلا أفكار ، مصعوقاً من الاكتشاف الذي سحقه . ثم تشجَّع فجأة ، وقال كأنما يوجه أمراً إلى داخل نفسه : « فليأتِ الفارس الفخور» .

وظهر هذا ، في صليل سلاحه ، ووراءه أسد «ها أنذا ، فَبِمَ تأمر ؟ » .

« إنه خطر! فبيننا هارب إلى العدو ، بائس يغمز بعينيه لامرأة غير لائقة به ، في خيانة لخدمة إيماغو المقدسة ، وهي مخلوقة عادية ، فعليك بالحراسة المشدَّدة ، ولْتَأْتِنِي بأول من تضبطه متلبِّساً بالتجاسر على التودُّد إلى امرأة معينة تدعى بسويْدا ، وهي في الحقيقة زوجة المدير ڤيس » .

وصاح الفارس الفخور : «سمعاً وطاعة ، ودقّ الأرض بقدميه مُصَلْصِلاً بسلاحه ، مع الأسد ، وعلى أثر ذلك ظهر الأسد ، وفي خَطْمِه أرنب صغير لا حول له ، وقال يهّر هرِيراً : «هذا هو الخاطىء » ورمى الأرنب الصغير على الأرض ، ودار على عقبيه ، ومضى .

وقال ڤيكتور غاضباً : «هذا ماكنت أفكر فيه حقاً ، إنه القلب ، مرة أخرى ، بالطبع ، فهو الذي يسبّب لي كل هذا الوبال . وألقى على الأرنب الصغير ، وهو يرفعه من أذنيه ، موعظة تكفيرية : «ألم يتبّين لك ، ياترى ، أيها المخلوق الساذج ، الذي لاعقل له ، أنك تُسَعِّر لنفسك بنفسك جحيماً ؟ أَصغ إلى وتعلَّم البنود الخمس في الحب عند المجانين : وهي قواعد يبلغ من بساطتها أن دودة الخرطون يمكن أن تفهمها .

البند الأول : ما من امرأة في العالم كله تحتمل أن يبادرها المرء بالحب ، بل لابدّ أن تحبك هي أولاً ، وأن تتطلّع إلى حبك المقابل على أنه نعمة لا مثيل لها [أنا لاأستطيع أن أدرك ذلك ، ولا أصدقه] تبعاً لهذا الإيقاع . وإلاّ عذَّبَتْك . على أنك تريد الآن أن تكون معذَّباً ، وإذا لم تعذِّبها

عذَّبتك . وهي لاتحتاج من أجل ذلك إلى أن تكون خبيثة أو ماكرة ، بحال من الأحوال ، فهي لاتقدر على غير ذلك ، ببساطة . إنه قانون طبيعي ، أتدري ما القانون الطبيعي ؟ إنه شيء لا يستطيع المرء أن يغيره ، لا بقرونه ، ولا بمخالبه ، هل فهمت هذا ؟ أَجِبْ» .

وندَّت عن الأرنب الصغير صيحة كالصرير .

«أجل ، فلتُصرّ ، لقد كان من الأكثر حكمة وذكاءً أن تتصرف بموجب هذا . والبند الثاني : أن قلب المرأة المتزوجة يقضي أن يكون غزوه من الأسفل إلى الأعلى ، عن طريق الخيانة الزوجية . وهذا ما لا أحبه ، ولا تحبه أنت ، فإلامَ يفضي هذا ؟ أَجِبْ» .

وكان الجواب صوتاً كالصرير .

والبند الثالث : إذا أتيح لك أن تتزوج مخلوقاً أنثوياً وأعرضت عن ذلك ، مهما كان السبب ، ولو كان ذلك راجعاً إلى السماء السابعة ، فسوف تزدريك طول حياتها - رابعاً : يستحيل أن تثير الحب في قلب زوجة راضية وأم سعيدة مثلما لاتستطيع أن تثير الإحساس بالجوع في مَعِدَة شَبْعى . فَلْتَصِرْ» .

وصَرَّ الأرنب .

خامساً : «إذا كانت المرأة لاتستطيع أن تطيقك...» .

وصَرَّ الأرنب

هلاّ ترَّبصت بصريرك السخيف إلى أن أكون نطقت بجملتي إلى نهايتها» .

وإذا الأرنب الصغير يَنْسَرِب من يده ، ويهرب متدحرجاً صائحاً من

الخوف . وصاح في أثره : واعجباً لك . ولكن لِتَكُنْ على حذر ، لأنك إذا أصبحت متّيماً ولهان لاتبدي حراكا...! » .

وضحك وهو يقول مسروراً : «لقد بيّنت له المسألة ، ولن ينبس الأرنب الصغير في المستقبل ببنت شفة» .

ومع ذلك فلِكَيْ يكون على يقين كامل ، قام بما تبقىّ عليه ، وهو جولة في سفينة نوح العائدة إلى نفسه ، من الطابق الأعلى إلى قبّة قبو اللاشعور ، يوزّع التحذيرات والحكمه في كل الاتجاهات . أما الحيوان النبيل فكان يأتيه من جانب اعتداده بنفسه ، إذ كان يحدثه عن المجد والنصر في المستقبل ، على النقيض من الدور البائس الذي سيلعبه مُحِبّاً تعيساً لامرأة تدعى زوجة المدير ڤيس . وأما الحيوان الصغير فكان يلقي إليه بطعم من الحلوى ، مذكّراً إياه بمتع الحب السالفة ، وواضعاً نصب عينيه متعاً ألذ إلى حد بعيد إذا أحسن التصرف هنيهة ضئيلة من الزمان فحسب ، وأخيراً ، ومن أجل خاتمه طيّبة ، أوعز إلى الأسد أن يزمجر في اتجاه السلم النازل .

«هل اقتنعتم الآن جميعاً ؟ » .

«اقتنعنا» .

«أحسنتم ، فتصرّفوا إذاً بموجب ذلك ، ولينتبه كلٌّ منكم إلى صاحبه» .

وبهذا التفقُّد والفحص حظي بالراحة ، ولكنها كانت راحة التوتر العنيف ، حيث يرفرف الخوف على التوازن الذي تم الوصول إليه بشق النفس ، ومثل عملاق يدعم قبةً بظهره المتشنِّج ولكن ألَم الإجهاد يبلغ منه

أنه يرتاب في مسألة هل ينبغي له أن يتمنى لو انهارت القبة فوقه على الفور ، لكي تصل المحنه إلى نهاية لها .

وعلى أثر ذلك ، أي بعد الساعات الأربع والعشرين الأولى ، ونتيجة لتعاقب النهار والليل ، والإرهاق والاستجمام ، اعتاد ذلك بعض الاعتياد ، وتبلّد ألَم التوتر ، وباتت المحنة أكثر قابلية للتحملُ ، والوعي المخدّر أقل حساسية ، وما عاد هناك سوى انزعاج أساسي كان ينذر بوبال وشيك ، وذلك ، مثلاً ، كما لو أن أحداً يسأل :« هل أنا مصاب بالتيفوس أم أن هذا مجرد شعور ؟ »

ذلك لأن الأيام الثلاثة الأولى لم تأت أيضاً بشيء باعث للقلق ، بل على النقيض من ذلك ، إذ استطاع أن يعالج موضوع الفرق بين الحب في العصر القديم والحب في العصر الحديث المتسم بالحساسية ، وأسباب هذا الفرق ، مع الوكيل ، إذ أخذه هذا من الطريق ، وجرّه إلى الحانة ، بموضوعية ورزانة تامّتَيْن ، وكأن المسألة لا تعنية في شيء . كلا ، فمن يستطيع ذلك ليس مريضاً بالحب . وتذكّر وهو يبتسم كيف أفلتت من لسان الوكيل ، في غمرة حماسة الحوار هذه الجملة :« الحقيقة التي أستطيع أن أسلِّم لك بها ، أن الامتلاك ، أي في حالة الزواج مثلاً ، يؤدي إلى نهاية الحب الحقيقي ، الأصيل ، بالمعنى الشعري» بخٍ ، بخ ، أيها الوكيل! ـ لقد بات أكثر من باشا ذوّاقة شبع من الأرائك! وقد حاول هذا بالطبع ، وهو يتفكّر ، وقد ساوره الخوف ، أن يستدرك على القول الذي لم يتَرَّو فيه ، وقال يصحجة : « وهذا يعني ، إذا أُحْسِنَ فهمه ، الحب غير الأصيل فحسب أما الحب الأصيل ، الحقيقي ، بالمعنى الشعري ، فيظل موجوداً في الزواج ، بل هو على النقيض من ذلك ، إذا لا يبدأ بدايته الحقيقة إلاّ مع الزواج » . ولكن ماأقل ماكان

يحفل الآن ، آخر الأمر ، بالكيفية التي كان الوكيل يحّب بها ، ومن يحب ، وماذا يحب ، أو لا يحب! على نحو يلفت النظر! لقد قضي الأمر ، وكان العقل قد روّعه بدون سبب ولا علة ، إلا أن مايؤسف له أنه اضطر أن يَعِد الوكيل في هذه المناسبة بالمجيء مساء يوم الجمعة للعشاء ، وحده ، مثلما يقبل المرء على هذا النحو دعوات في الموقف الحرج ، مُكْرَها بنسبة ثلاثة أرباع ومرغماً بنسبة الربع الأخير .

ولكن في ليلة الخميس إلى الجمعة ، ومن دون أن يحدث شيء خصوصيّ ، وكان قد عمل طوال النهار ، وخرج من البيت بعد العشاء قليلاً ـ كشف عنه حُلم .

فقد رأى في المنام بُسويدا تقفز في حجرة نومه ، هنا وهناك ، وأحد ساقيها في الجورب ، والآخر عار . وصاحت في غيظ : «أين جوربي ؟ هلاّ ساعدتني في البحث عنه ، أيها الكسلان! ويلاه ، بُعْداً لك ، فليلحق كل منكما بصاحبه» ، وقعدت على الأرض وخلعت الجراب ، وقذفت به نحو الأعلى وإذا الجوربان يتطايران مثل طاحونة الهواء تحت السقف ، ثم سادت البلبلة والاضطراب هنيهة وفجأة وقفت إلى جانب سريره ، في قميص أطفال صغير قصير ، وقالت تأمره ، أَفْسِحْ لي مكاناً هنا! أيها البليد! ودفعت به نحو الجدار ، ورقدت إلى جانبه ، وقال يسألها متعجباً وقد فتح عينيه إلى أقصى مداهما : «ماذا ، ألستِ متزوجة من الوكيل ؟» ـ «أنا ؟ من الوكيل ؟ كيف خطرت ببالك هذه الخاطرة العجيبة ؟ يالها من حكاية حلوة نجَمَت لي! ويُفْتَرَض هنا أن أرقد معه في السرير! ويلاه!ويلاه! » وإذا هو يُخْرج من أعمق أعماق قلبه تنُهده كمن صدر العفو عنه وهو في الطريق إلى سقالة الإعدام «أيكون الأمر ممكناً على هذا النحو ؟ أأنتِ زوجتي بالفعل ، وفي

الحق ، ولستِ زوجة الوكيل ؟ ياإلهي! أنا مازلت لا أجرؤ على تصديق ذلك حقاً ، وإذا كان ذلك في النهاية مجرد حلم ؟ » ـ وقالت توبخني في استياء : «ماذا دهاك اليوم بربك ؟ لو كان هذامجرد حلم لما كان طفلنا نائماً هناك في المهد ، بل كان طفل الوكيل وهذا واضح بلا ريب! » ـ « يابسويْدا ، يابسويْدا ، لو عرفتِ كم كنت شقياً إلى حد لا يوصف ولا يعبِّر عنه اسم ، حين رأيت في المنام أنك زوجة للوكيل! » ـ وقالت تشتمني : «ولكن كيف يمكن للمرء أن يحلم أحلاماً على هذا الجانب من السذاجة! وعلى نحو مجانب للتهذيب واللياقة إلى هذا الحد ، فوق ذلك! تبّاً لك ، هلاّ استحَيْيت! » ودفعته بساقها ، ولطمته بيدها على فمه .

وحين استيقظ بعد ، وجعل يتلمس البُسُط بإصبعه ، عرف أن كل شيء كان على نقيض ذلك على وجه الخصوص : فهو راقد في السرير وحيداً ، وبسويدا هناك ، عند الوكيل ، وأدرك كيف كانت حاله ، ذلك لأن هذا الحلم لم يأته اعتباطاً ولا مصادفة ، وهذا ماكان يحسّه من خلال كآبته : فقد كان هذا الحلم من نَسْج أشواق روحه . ولكيلا يعود إلى الابتعاد عن الواقع بخداع نفسه : لقد كان مريضاً بالحب ، مريضاً حتى أعمق أعماقه ، وحتى أعمق الخيوط في نسيج نفسه . ومن هو ذلك الذي كتب عليه أن يحبه! ـ فيا للعار والمهانة! امرأة دأب على التعامل معها من موقف المتعالي ، غريبة لاتهمه ولا تعنيه ، اسمها (س) ، امرأة تكرهه ، أما هو فزوج إيماغو العليا . الآن ما عاد يستطيع أن يجد سروراً في نفسه ، وكان أحب الأمور إلى نفسه ألاّ يعيش بعدُ على الإطلاق . وأدار رأسه في اكتئاب ، نحو الجدار ، وحاول أن ينسى الشعور والوعي وكان كلما ألمّت به فكرة أخنى عليه العار من جديد ، وكأنه يرزح تحت ثقل سحابة محملة بأحجار البناء . وأخيراً فقد كان لا بدّ له أن يعيش بلا ريب ، على أية حال ، ولما كان نفاد صبر جسده ينبىء عن

الصحة فإنه لم يتبق لديه سوى أن يرفعه عن السرير ، ، وينصبه على الساقين . فليكن ذلك ، فإن الخدمة ذاتها تُؤدّى ، سواء أَشعر المرء بالعار منتصب القامة أم راقداً .

هنالك جعل يقعد النهار بطوله ، فاقد الجرأة والإرادة ، محملقاً في مذلته وهوانه بفكر متبّلد . وفجأة ، وفي ساعة قريبة من المساء ، داهمته ذكرى ممقوته : اليوم يوم الجمعة ، وهو الذي كان وعد الوكيل بالمجيء إلى العشاء عنده مساء الجمعة! الآن ، وفي هذه الحال ، إلى هناك! إليها! فكرة مُستكرَهة ، ولكن وعده كان ما يفتأ يدفعه بخطمه ، مثلما يفعل كلب الجزّار بالعجل ، ولم يكن ثمة شيء يجدي ، وهكذا قَسَر نفسه على الذهاب إلى أسرة المدير .

أوَ كان هذا مساءً لاعزاء فيه ، هجرته كل الأرواح الطيبة! لم يكن قدومه منتظراً على الإطلاق ، وهذا ما لاحظه على الفور عند دخوله ، وكان دخوله مجرد إزعاج .

أما هو فكان وجوده ، في أي مكان آخر أحبَّ إليه من وجوده هنا على وجه الخصوص ، وهو في مثل حالة النفس التي يكون عليها المرء في القبر . وكان هذا ما كان يحسه الآخرون ، من جانبهم ، وكان ذلك مما حال دون الإسهام في بعث روح المرح والبشاشة . وكان عليه فوق هذا كله أن يحتمل معاناة العزف الموسيقي ، خلافاً لإرادته بصورة كاملة في الحقيقة ، إذ كان اليومَ ليس بأقل من رجل مولع بالهجوم ، ولكن كان في كآبته الآن شيء ما من الفضول والتطفُّل مما كان خليقاً بأيّ امرىء كان أن يحمله ذلك على أن يحتمل ويصبر ، كلاّ ، بل كان يفتقر من أجل ذلك إلى القوة .

وحين كان ينظر بعد ذلك بالطبع ، إلى بسويدا تنظر أمامها نظرة

جامدة ، بغير عزاء ، وهي تفكر في أمسيتها الموسيقية التي تكدَّرت ، وكانت تفتقر إلى العزاء افتقاراً بلغ منه أنها نسيت أن تغضبه من جراء ذلك ، آلمه المنظر ، وجرحه الشعور بالرثاء جرحاً عميقاً . وقال بينه وبين نفسه ، يأخذ العهد على نفسه : «هل تعرفين يابسويدْا المسكينة ، لقد كنت خليقاً أن أجَنِّبَك هذا ، ولكن اليوم ، أنت تفهمين ذلك ، أليس كذلك ، لا بدَّ لك أن تغفري لي هذا ، لأنني محزون إلى حد مفرط بالفعل» .

وافترقت الجماعة قبل الأوان ، مخيَّبة الأمل ، قليلة الرضى .

وكان فيكتور قد نسي مظلته ، وعاد أدراجه ليأخذها ، وقالت الخادم تذكِّره بعد أن ناولته المظلة : «انتظر ، لقد فتحنا الغاز للتو ، وسآتي حالاً بالنور» .

وقال يصدُّها : «لاضرورة لذلك» ، وكان قد وصل إلى مدخل المنزل .

وإذا صوتُ بسويْدا يحذِّره من الأعلى : «انتبه ، فقبل باب المنزل تأتي ثلاث درجات أخرى» ووقع التحذير من نفسه موقعاً كما لو أنَّ نافذة في السماء انفتحت وانطلق منها برقٌ ، وطار شعاع من الشمس فولج قلبه ، وقد شغله ألفٌ من الملائك ضاحكين ، يتواثبون في الوقت ذاته يميناً وشمالاً . كيف ؟ هو ، الذي كانت تكرهه ، ومعها الحق كل الحق في الحقيقة ، هو الذي كان مايفتأ يُثْقِل عليها ، ويستفزُّها ، ويلاحقها ، وهو الذي أفسد أمسيتها البائسة ، المَضيافة إفساداً بالغاً ، تحذِّره ، لكيلا يمسَّه سوء! يالَنُبْل الشهامة! ويالَطيب القلب! الذي لايقدر! وأنت المحمق المأفون ، الأعمى ، أنتَ استطعت أن تزدري هذه المرأة النبيلة ، فلو كان هنا واحد جدير بالازدراء فمن عساه يكون ، أنتَ أم هي ؟ إنه أنتَ ، أيها البائس ، لأنك خبيث ، أما هي فطيّبة . «انتبه» هل سمعت ؟ لقد قالت هذا لك ، لك أنت ،

بصوتها ، وكان قولها يتردد صداه ، في قلبه مثل نشيد الجُنُك وجوقة الأجراس ، وانقضَّ من هناك سكرانَ من الإعجاب ، قد انتابته الحُمىَّ ، في عَدْوٍ مترنِّح .

وعند البيتِ ، وقبل باب المنزل ، دار على عقبيه في اتجاه مسكنها ، ونشر ذراعيه ، وصاح باسمها : « إيماغو ، كلاًّ ، بل أكثر من إيماغو ، لأن سموّك اكتسب النبل من جراء حُمَيّا الجسديّة . أنت تويْدا وإيماغو مجمعتين في شخص واحد » . ثم جمع كل سكان نفسه وهو يندفع في حجرته ، قائلاً : « ياأبنائي! خبر ممتع . الآن فَأَحِبّوها ، أحبوها بلا شروط ولا تحفُّظ ، وبلا حدود ولا قيود ، وكلما ازداد حبكم قوة ، وحرارة ، كان ذلك أفضل ، لأنها نبيلة ، وطيبة » .

وكان الشكر على الإذْن بذلك أنْ َزْغرَد هتاف تهليلي مُدَوّ يعبر عن الفرح ، فكانت سفينة نوح بأسرها ترقص من حوله ، وكان يتناهى إليه أصوات هتافات جماعات جديدة أبداً لم يكن يعرف شيئاً عن وجودها ، من الخلفية ، وكُنَّ يحملن المشاعل في أيديهن ، ويحملن الأكاليل على الهامات . وكان ينظر إلى الاحتفال وهو يبتسم ، وهو نفسه مغتبط بإذنه ، مثل ملك جاد بدستور آخر الأمر بعد سنين طوال من المقاومة العنيفة وهو يستحوذ على شكرٍ من الجمهور لا عهد له به ، وإذا وفدٌ يُقْبِل بين الجمهور ، في خطوات مهيبة ، يقوده الفارس الفخور في حلة السلام البيضاء وهو يجر الأسد في القيد . «اسمحوا لي ، ياصاحب الجلالة ، أن أهنئكم باسم كل طبقة الفرسان ، بالتفضُّل الكريم . لقد كنّا نرى هذا الحَّل منذ وقت بعيد ضرورياً ومشروعاً » .

« إذا فلماذا لم تقل لي ذلك من قبل ؟ » .

«وكيف يمكن أن أتجاسر على معارضة أمر جلالتكم الصارم ؟» .

وعلى هذا فلم يكن لدى طبقة الفرسان الفخورة ما تعترض به على حبه . وبات الآن آمناً في وضع مكين بصورة كاملة ، وتماثلت جرأته للشفاء حرة مستبشرة ، فليعش هذا الحل ، وهو أن يباح الحب حين لايكون للمرء بد من أن يحب .

التائب

ومنذ اللحظة التي تحولت بسويدا فيها في نظره إلى إيماغو لم يكن لها بدٌّ أن تتجلىّ له في ضوء ربانيّ . ذلك لأن إيماغو كانت كائناً متعالياً عن الحواس ، من أصل رمزيّ ، فهي الابنة الشريفة لسيدته الصارمة ، والمغنية المقدسة في أكثر ساعات حياته قدسية . وولد حب ڤيكتور في صورة ديانة . وياللعجب! لقد كانت ربّته تقطن بالقرب منه ، مرئيّة ، يمكن الوصول إليها .

وبالطبع فقد كان الضحك الخبيث يشمئز من عقيدته «إنه جنون! وسخف! وعار! المرأة العادية ، زوجة المدير ڤيس ، الرئيسة الفخرية للإيدياليا ، تتجلى فجأة ، بين عشية وضحاها ، في ضوء رباني! فلتسرع إلى الطبيب ، ياڤيكتور! ولتطلب لنفسك في الوقت المناسب سريراً في مستشفى المجانين!» . وكانت الآلاف من التجاريب ترفع ضده عقيرتها بصراخ يصم الآذان : «على رسْلك! حذارِ! انتظر! نحن نأتيك ببراهين قاطعة لا تُرد!» ولكن هل سبق لمؤمن ، في أي يوم من الأيام ، أن سمح لصراخ البراهين أن يضلّله ؟ «انتبه ، فقبل باب الدار تأتي ثلاث درجات بعد» ، كذلك كان قلبه يهتف مزغرداً ، وكان طوفان عارم من صلاة الحب الحارة ذات الحُمّيا يجرف

كل الغوغاء من وعيه : من التجاريب ، والشكوك ، والهواجس و
والزمرة الشامته بأسرها . طارداً كل اعتراض بالتهليل ، من هذ
يُطَرد الكلب من الكنيسة .

القرب منها! الجبال والغابات ، والأفق كله من حولي يصف
نظرتها ، وكل الشوارع والطرقات في هذه المدينة تتقدس
والمحيط يتبدّل بإمكانية تبدُّلها ، وكان شعوره بالحياة يحوم فوق
وكان كل نفس من أنفاسه يتنسَّم أنفاس الوحي ، والبراعم والأز
حواليه ، وكانت عينه تلتقط رسوماً ملوَّنة من الزخارف العربية ، و
أذنه صخب الأرغن ، وكان أدنى حدث ظاهري ، مثل مطرقة الحدا
طفل ، أو غراب على سور ، يحدث أثراً كأنه قصيدة كونية . وك
قربها وتصوُّر وجودها المرئي يسكنان داخله بدرجة يبلغ من خص
أنه لم يكن يشعر على الاطلاق بالحاجة إلى رؤيتها ، بل كان
النقيض ، فقد كان يفَّضل أن يصلي لها من موقع المترِّبص الكامن
ولكن وراء ركن من الأركان .

ومع ذلك فقد كان ثمة فكرة ثقيلة الظل تخطر في صلاته
حكمها يُشقيه من بعدُ كما كان يشقيه من قبل ، إذ لم يكن في
تحس بشيءمن توبته ، وهذه الفكرة ماعاد يحتملها أما الإبلاغ
لزوجه المدير قيس شفهياً أو خطياً فلن يكون أبداً! وإلاّ لكا
يعترف لها في الوقت ذاته بحبه ، غير أنه كان أكثر زُهُوّاً بنفسه م
ذلك ، كما كان أكثر ذكاءً من ذلك ، لأنها مادامت لاتحبه ، بلا
لاشيء أقل من أن تحبه! ـ فإن الاعتراف بالحب خليق أن ينزل ب
البائس لعاشق متلَّهف ولهان أما هو فكان يريد في الحقيقة أن ;

الرب المتهجّد ، لاعاشقها الذي يرثى لحاله . وكان من حسن حظه أنه لم يكن أيضاً في حاجة إلى الإفضاء المبتذل ، إذ كان يعرف ارتباطاً بها أفضل ، وأكثر استقامة وأوفر كرامة في الوقت ذاته : ألا وهو طريق الرؤيا ، من روح إلى روح .

وهكذا أَمَر الآن روحه : «اذهبي إلى روح تويْدا التي هي إيماغو هنا ، وأخبريها : إن الرجل الذي لايستحق شيئاً ، والذي ضُرِبَ على قلبه بالعمى فصار جديراً بالاشمئزاز ، والذي ناصبك العداء ، ولاحقك ، قد مات . وثمة رجل جديد أمامكِ ، تائب ، يعترف ، في تواضع وخشوع ، بسموّك وفضلك ، ويحييك باسم إيماغو ، ويبجّل محياك الجميل في خشوع ، من حيث هو رمز الربوبية] . أخبريها ، وعودي إليّ بتوجيهاتها » .

وجاءت التوجيهات : «لقد لقيت روحك مستندة إلى النافذة ، تتعبّد شامخة في صفاء السماء ذات النجوم . وفي نظرة إلى الماضي أدلت إليّ بالجواب التالي : [إنما أنا امرأة ، والتربية والتهذيب فخري ، والبقاء شرفي ، فأَغْرِبْ عني أيها الدنيء الذي يهين المرأة في كل حين بالتهكُّم الوقح . وقبل أن أومن بتوبتك كفِّرْ عن سيئاتك واعترف بقيمة المرأة المهذبة» .

وعلى أثر هذه التوجيهات أرسل روحه إليها مراراً : «لقد كفّرت عن سيئاتي كما طالبتني ، لأنني نظرت في عينيك ، وكانتا تعاقبانني ، ونظرت إلى سمو محياك : فكان يلعنني ألا فاسمعي اعترافي : لقد انفتح معبد ، وبرزت كاهنة ملكية ، ووراءها نساء الأرض ، سواء منهن الحاضرات والراحلات ، وسواء منهن الحقيقيات واللواتي صنعتهن الرغبة . أمّا أنا فنظرتُ ، وآمنتُ وشَهِدْت : [أنا أومن بامرأة طاهرة تقيّة . فكرتها نشيد

وأعمالها التفاني والتضحية ، وعلى محيّاها ينعكس بريق الربوبية ، وعلى آثار أقدامها ينبت السمّو والنبل ، وترفع يدها : والمتبذل يهرب متسرِّباً إلى الظلمة ، وتتحرك : وتهتف الشمس مهلّلة : أيتها المرأة ، ماأجملك! وإذا هي تنحني على مريض تواسيه ، وكان يرقد في الطريق ، وصِحْتُ قائلاً : [أيتها الحكمة ، احجبي هامتك ، ولْتَرْكَعْنَ ، أيتها الفضائل جميعاً ، لأن الرحمة هي الملكة] . فاذهبي وقدِّمي إليها هذا الاعتراف» .

وجاءت التوجيهات : «لقد لقيت روحك عاكفة على مهد طفل . وأدلت إلي ، وهي ترفع ناظريها ، بالجواب الصارم :[إنما أنا ابنه وفيّة ، متفانية في محبه أهلي وتوقيرهم ، فأَغْرِب عني ، أيها الدنيء الذي يزدري أبي ويهين أخي! تعلّم ، قبل أن أصَدق توبتك ، كيف توقِّر أبي ، وتَصالَحْ مع أخي» .

وعلى أثر هذه التوجيهات أخذ ڤيكتور يتنهد ويتجهّم : «لا أريد أن أوقِّر أباها ، ولا أريد أن أصالح أخاها ، لأنهما من أعداء الفكر ، ومحاربي الحقيقة . أما أنا فأتربّع على عرش حقّي ، متفوّقاً عليهما بمدى بعيد» ، وجعل يدمدم ويقرقر حانقاً . وإذا العقل يتكلم : «هل تأذن لي أن أقول شيئاً أيضاً ؟» .

«تكلم!» .

«إن المرء لايتفَّوق على إنسان تفوقاً كبيراً إلا بعد أن يقدره تبعاً لقيمته ، ومهما يكن كورت غير أهل للثقة ، ففي وسعك أن تجعله في مكانة فوق مكانتك مادام يمكن أن يغفر لك شيئاً ما . بادر المسألة في وقتها! ههنا ريشة ، وحبر ، وورق ، فاكتب إلى كورت كلمة تعبر عن الأسف ، ويستغرقُ في التأمّل ، وتكون قد تخلّصت من عبء مستنكَر» .

وقال القلب متملّقاً : «إنه يظلُّ أخاها ، على الرغم من كل شيء» .

وقال الفارس الفخور يذكّره : « لن يضير النقيب الملكي للسيدة الصارمة أن يعترف بمحض إرادته بخطأ ما ويصلحه من جديد » .

وقال غضبه بصوت كالصرير : « لا أستطيع ، لا أريد » وإذا بقعةٌ في مثل زرقة السماء تظهر في الحجرة ، وتضخمت البقعة ، ودوى صخب الجنك ، وصاح من خلال الجُنُك صوت ، هو صوتها يقول : «انتبه ، فقبل باب المنزل توجد ثلاث درجات بعد » .

وصرخ حبه قائلاً : « إيماغو ، أيتها السامية ، أيتها الفاضلة ، أيتها النبيلة! لقد صدّقت » وكتب في سرعة المحموم اعتذاراً إلى كورت ، موجزاً ، ينطوي على اعتداد بالنفس ، ولكن في استقامة وإخلاص ، كما ينبغي للمرء أن يكون ، من دون أن يتجنّب الكلمة الواجبة .

وفي اليوم التالي تلقى بطاقة بريدية مكتوبة بقلم الرصاص من دون توقيع :

طيران الحماسة الذي يضاهي طيران الطيور الصاخب!

الفلاسفة مهرِّجو الجامعات!!

ودخلت الحمامة في أعلاهن! عظيم !!!

وتوّلت السيدة كيلر التي عرض عليها الورقة ، حَل اللغز : كانت هذه بخطّ كورت ، وكانت الجمل الغريبة شواهد من أقوال فيكتور في القوة ، يبدو أنها كانت مبعث سرور فائق عند كورت ، وكان المجموع يعني نوعاً من وثيقة مصالحة .

وقالت بحماسة : «أليس كذلك ، أليس أصيلاً ؟ عبقرياً ؟» .

وقال العقل يمتدحه : «ألا ترى الآن يافيكتور ، ألم تشعر بمزيد من

الحرية وزوال العبء ؟ أرجو منك جواباً » . وأجاب ڤيكتور قائلاً : « لا أشعر بمزيد من الحرية وزوال العبء فحسب ، بل أشعر بمزيد من السموّ والنبل أيضاً » .

« إذاً فلتمضِ في هذا . لقد أنجزت الشطر الأول ، فأنجز الثاني أيضاً ، تعلّم توقير أبيها »

هنالك قال ڤيكتور لنفسه : « لقد كان أباها ، ولذلك تعد لغة وجهه وثيقة الصلة باللغة المأخوذة من وجه تويْدا . لابأس ، من الممكن أن أتعلّم الخشوع بين يدي وجهه » ، ومضى فاشترى من المكتبة صورة رأس السياسي نويْكوم ، ليلصقها على الجدار أنموذجاً ، ولكن حين تأمّل الآن رأس الشخصية المطمئنة ذات الإيْمان والعقيدة ، المُتَّخذ من خشبُ الزان ، بما فيه من النظرة النارية الخالية من المضمون ، عن كثب ، غلبت عليه فجأة النزعة القديمة إلى السخرية ، حتى لقد أخفى الصورة على عجل تحت طبقة من الورق ، مع ثقالة ضخمة للرسائل فوقها ، لكيلا يتسلل رأس الشخصية ويخرج غدراً ، مثلاً .

وقال قلبه في توسُّل : « على كل حال فهو يظل أباها ، على الرغم من كل شيء » وقال العقل يقنعه « ومن الصعب أن يكون عديم المنجزات ونصبه التذكاري من المرمر قائم أمام مبنى البلدية » . وإذا هو يرفع ثقالة الرسائل ويستخرج السياسي صاحب الحظوة من جديد ، ويلصقها بالفعل على الجدار ، ولكن مقلوبة ، بحيث يكون جانب الصورة نحو الداخل ، باتجاه البساط ، وجانب الظهر الفارغ نحو الخارج ، لأنه كان كلما حاول قَلْبَ الورقة ، هتف له التهكُّم من ذلك المكان .

وقال ڤيكتور يتمتم نفسه ، مهموماً : « ولكني أودّ الامتثال لوصية

تويدا ، لأن تويدا هي إيماغو ، انظر ، أبوها يرقد في قبره ، والقبر جِدّ ، هَلُمَّ إذاً ، فسوف أقلع عن عادة السخرية عند قبره » وأَرَوْه قبر السياسي نويكوم وحين وصل إلى القبر حيّاه صوت ينبعث من الأرض :

«عمَّن تبحث ؟» .

«عن روح السياسيّ نويكوم» .

وردّ الصوت قائلاً : «لايوجد هنا سياسيون ، ولا أرواح تحمل أسماء . لقد كنتُ ، حين كنت ماأزال أسعى على وجه الأرض ، إنساناً لاحيلة له ، شأن كل البشر ، مخلوقاً لاحول له ، ولد هنا وتنهَّد ، وسعى في الأرض ، ومات ، مثل سائر المخلوقات . فليغفر الله لأولئك الذين سَّببوا لي الألم . وليبارك أولئك الذين أحبوني . وكان هناك إنسانان وَفيّان ، هما صورتان منيّ ، ولدايَ الاثنان ، يخطوان باكيَيْن وراء تابوتي ، يقدسان ذكراي بحزنهما ، فليبارك الله من يريد بهما خيراً . وإذا كنت إنساناً تتمتع بطاقة الحياة ، وتسعى على وجه الأرض ، فَحَدْثني بأخبار ولديّ» .

هنالك تكلم ڤيكتور ، فقال : «ولداك بخير ، وهما محبوبان محترمان بين الناس ، وهذا الذي يقف أمام قبرك يريد أن يكون صديقاً طيباً لكليهما» . وعند هذه الكلمة تغيرت الصورة التذكارية لكورت وأصبحت جميلة ظريفة .

هنالك تنهد الصوت قائلاً : «سوف أجزيك على ماجئتني به من خبر عن ولديَّ ، بأن أعقد معك آصرة الشكر ، وعلى أنك تريد أن تكون لولديَّ صديقاً طيباً ، بآصرة البركة» .

وبعد أن وصل ڤيكتور إلى بيته من جديد استطاع أن يقلب الصورة .

وأرسل ڤيكتور من جديد روحه إلى روح تويْدا يقول لها :«لقد نفذت وصيتك ، فقد تصالحت مع أخيك ، وعقدت مع والدك آصِرةً . فهل تصدقين الآن توبتي ؟ » .

وجاءه التوجيه : «لقد لقيت روحها واقفةً على سور منزلها ، تعّدد أبراج المدينة ومُسَنّناتها ، وحين نظرت إلى ماتحتها أدلت إليّ بالجواب الصارم : [أنا مواطنة طيبة ، أتفانى في حب وطني بحماسة . فأَغْرِبْ عني أيها الدنيء الذي استهزأ بعادات وطنه وتقاليدها ، ولا بد ، قبل أن أصدق توبتك ، أن تؤدي الكفارة وتتعلم كيف تتآلف مع شعبك] » .

وعلى أثر هذه التوجيهات تعالى زبد غضبه في موجة عارمة . وصاح قائلاً : «أيتها المرأة أنت مقدسة حقاً ، ولكنك فقيرة في الروح ، وأنت تصلحين أن تكوني ربة ولكنك لاتصلحين لتكوني رباً . لاتسرفي في التشديد! قلبي لك ، تقبلي صلاتي ، وطَهِّري روحي ، ولكن لاتفسدي عليَّ إيماني ، ياصورة المرأة! ـ اذهبي ، ياروحي ، وقولي لها هذا » .

وجاءه التوجيه : «مادمتُ أنا تويْدا التي تُدْعى هنا إيماغو : لن أُلقي بالاً إلى توبتك قبل أن تعقد مع شعبك أواصر السلام والصداقة » .

هنالك أخذ ڤيكتور يهدر وجنّ جنونه وجعل يشتم ربَّتَهُ ويلعنها ويسبها مخاطباً أياها بأسماء ذواتِ الجناحين وذواتِ القرنين مثلما يفعل قاطع الطريق بالسيدة العذراء حين يخفق في السطو على عربة البريد .

وقال العقل معلقاً : «عندما يعتريك التعب من العبث والمجون ، أريد أن أقول أيضاً شيئاً ما ، وهو أن مطلبك مطلب عادل على الاطلاق ، وهذا الحديث فيما بيننا ، لأنك جبار من جبابرة السياسة »

«أهذا رأيك ؟» .

«لا أقول هذا مجرد قول وإنما يعد هذا ثابتاً بلا ريب . فمن ساقي الطفل كان إنسان الغابة ، ثم استوحشت في النهاية من جراء الإقامة في الخارج ، ثم ها أنتذا تتسكع في شوارع مسقط رأسك كواحد من الهنود الحمر على الأرض المعشوشبة في تشرين الأول حين يكون لديه عصر يوم خال من العمل . فهل هذا طبيعي ؟ وهل يمكن احتمال هذا ؟ هَلُمَّ إليّ! ولتقعد على مقعد الدراسة ، إن شيئاً من الوطنية لا يمكن أن يؤذيك ، يعلم الله ـ ، ولكن لاتخف ، إنما هو مجرد الشيء الضروري إلى أقصى الحدود ، فما من إنسانٍ يطالبك أن تكون خطيباً في حفلة الرماة» ولم يَكَدْ ينطق بذلك حتى ألجأ ڤيكتور إلى القعود على مقعد الدراسة وحدثه عن «الشعب» ، كيف يشعر ، وكيف يعمل ، وكيف يتدبر أموره ، ويعنى بشؤونه ، ووصف له آلية التكُّون الحر وأثبت له علاقتها السببية بتطور الطبع الشخصي والشخصية الرجولية ، وعَلَّمه آخر الأمر كيف يفهم السياسة من حيث هي فرعٌ من فروع المثالية «مثاليةٌ جافة منشورة على تعريشة كرمة ، هذا أمر مسَّلم به ولكنها مثالية على أية حال» .

وأصغى ڤيكتور إلى توجيهه بخشوع ، وكان يتأوَّه أول الأمر ، ثم بات أكثر استعداداً بعد ذلك ، وفجأة وثب قائماً وعيناه تضيئان ، وقال : «أريد أن أدرس قانون المداينات» .

«ها نحن قد وصلنا : الآن تقفز بالطبع ، على الفور من جديد إلى مقبرة المدينة المقابلة ؟ إن في وسع المرء أن يكون مواطناً صالحاً أيضاً من دون قانون المداينات على أية حال» ولكن ڤيكتور تصلَّب وأصر على عناده ، قائلاً : «مادمتُ مواطناً صالحاً فأنا أريد أن أدرس قانون المداينات» وتخلى

عن العقل ، ومضى لسبيله ، ودبّر لنفسه قانون المداينات ، واستعار من هنا ومن هناك وثائق دستورية ، وكتباً في تاريخ المدينة ، وكانت الكتب كلما كانت أكثر جفافاً كانت أحبَّ إليه ، وطلب الجريدة الرسمية ، وجعل يتابع في الجريدة كلمات أعضاء المجلس البلدي (« إنها مبهرجة إلى حدٍ ما ، ياسادتي! وهذا مايجعلها أفضل فأنا أعد ذلك من باب التقشف ») وجعل يدس نفسه في المؤتمرات الخاصه بالعصر القديم ، ووقف كثيراً أمام الجدران المتداعية وأخشاب الأسقف ليدع روح الآباء تُحْدِث أثرها فيه ، وكان يتأمل كل فلاح مسكين ممن كان يغبنهم حقهم ، يسوق عجلاً صغيراً إلى السوق ، مهموماً متفكراً ، بتأثرٍ ، على أنه واحدٌ من إخوانه في الدولة .

ولكن حين أرسل اليها بعد ذلك ، وهو راضٍ عن نفسه ، ليقدم إليها تقريراً عن الإنسان الديمقراطي ، تلقى منها توجيهاً لارحمة فيه . وقالت تأمره بفظاظة :« فلتعمل بهمة ونشاط »وقال استياؤه مكرراً : « فلتعمل بهمة ونشاط! ما أشد خشونة ما قالت وفظاظته ، إنه يكاد يحاكي صدمة بالمرفق ، وهي تنسى على وجه الإطلاق أن توبتي تقوم على محض إرادتي ، وما هي إلاّ انتفاضة كتف ، وتطير ساقطة على الأرض ، ويبدو أنها تريد أن تدرِّبني بالسوط! » .

ولكن الّضبُع التي وثبت من خلال ثلاثة أطواق تثب أيضاً من خلال الرابع بمجرد أن تكون مكشِّرة عن أنيابها . وهكذا قدّم في أول فرصة للانتخاب ، بطاقة .

« أنت ، ياخفير الغابات ، أَشرِ عليّ مشورة حسنه . أنا أود الوفاء بواجب المواطن - أوَ لا يقول الناس كذلك ؟ - ، لاأعرف ، مع الأسف ، في العالم كله ، واحداً من أهل السياسة . فمن تنصحني أن أنتخب ؟ » .

« ولكن لا بدّ لك أن تقول لي قبل كل شيء هل أنت محافظ أم ليبرالي » .

« وما الفرق ؟ » .

« هذا شيء لايمكن شرحه هكذا ، بهذه السرعة » .

« المحافظون أقرب إلى ذلك » .

« إذاً فأنا ليبرالي » وانتخب بناء على ذلك .

ومع ذلك فقد ظلت روح تويدا تأبى أن ترضى . وردت قائلة إن التوبه لا تصدر من صميم النفس .

وقال يهدر في جنون : « ليست من صميم النفس! سوف أُريك ما يصدر من صميم النفس » ودبَّر ثورة رهيبةً على ربته حتى بات الجو في داخله مثلما يكون في قفص للوحوش قبل إطعامها ـ « تريدين أن تلعبي دور الإلهة هاوا ؟ لابأس ، فتحملي إقدامي على فتح حلقي ، وأستأذنك في ذلك » .

إلى أن حدث له ذات يوم ـ ولم يكن ينتوي ذلك على الإطلاق ، بل جاءه من تلقاء نفسه ، مثلما يأتي الشعاع من الجبل الذي يغلي ـ أنه أمر بالسكوت غريبين متأنّقين تهكّما على قوة مارة بهما من الجند ، وقد انتفخت أوداجه من الغضب . وبينما كان واقفاً هناك ، ومازال مذهولاً كل الذهول ، يتردد ، هل ينبغي له أن يتولاه الخجل من هذه الزلة التي هي أقرب إلى سلوك الإنسان البدائي ، أو ماذا ينبغي له في الحقيقة ، حيّاهُ روحها تحية ظريفة وهو يبتسم من وراء كتفه : « هذا الآن ، هذا الآن في مقابل ذلك ، يسرني ، ياڤيكتور » وبات يسبح في بحر من السماء اللازورديه التي تحتوي

على اعدادٍ لاتحصى من رؤوس تويدْا الصغيرة التي كانت كلها تومىء له إيماءةً ظريفة .

وبذلك وجد تكفيره الشاق أُذناً صاغية واكتفاءً آخر الأمر .

وحين تم تطهيره وحَظِيَ بالمغفرة وبات كأنما ولد من جديد ، شعر بسرور كسرور المرء في الصباح ، ناجمٍ عن التطهير البالغ ، وفتح ڤيكتور لقلبه الباب على مصراعيه : «مرحى! مرحى! ياقلبي! أنا الذي قلت إنني حكيم وأنك أرنبُ صغير مغفل! هذا خطأ وعالم مقلوب! لقد كنتُ أنا اضحوكة بين الحمقى وكنت الأذكى بيننا جميعاً ذلك لأنك لم تكن أنت الوحيد الذي أدرك منذ البداية أنها إيماغو فحسب ، بل أنا مدين لك أيضاً بالشكر على تكفيري وتوبتي . ومن أجل ذلك لا ينبغي أن تكون منذ الآن فصاعداً كلبي الصغير المزدرى ، والمنبوذ والذي تساء معاملته ، بل ينبغي أن تكون قائدنا ، وعقيدَنا ، جميعاً ، فهلم يا جلالة القلب ، ومُرْ ، يَكُنْ ما تريد ، وارغب تكن رغبتك ناجزة» .

وقال القلب مبتهجاً وهو يهتف مزغرداً : «أيتها الحرية! انظري ، لقد ربطوا فمي مثلما يفعلون بحَسّونٍ مسروق ، ولذلك سوف أحب الآن وأُحب ، تعويضاً عما سلف إلى أن استنفد النسمة الأخيرة من أنفاسي» .

وقال ڤيكتور موافقاً : «الأمر متروك لك ، ولكن لتعلم ، أن تويْدا هي إيماغو ، أي أنها رفيعة المقام وسامية . فإذا تلطّخ حبك برغبة ما ، فإياك أن تجرؤ على أن تمس الطاهرة بحبٍ غير طاهر» .

وردّ عليه القلب قائلاً : «ها أنذا واقف بين يديك ، مكشوف أمامك ، فخذ شمعداناً وأوْقِدْه في أكثر الممرات خفاءً ، لكي تختبرَني» .

وفعل ڤيكتور ذلك وأوقد في أكثر الممرات خفاءً من قلبه ، وحين فرغ من الاختبار صاح قائلاً : «ألا إن حبك لمتواضع ومجرد من الرغبة ، فَلْتُحِبَّها إذاً ، ولتحبَّها ، إلى أن تستنفد النسمه الأخيرة من أنفاسك» .

هنالك تنفس قلبه وأخذ يتلهف متعطشاً : «وَدِدْتُ لو أذهب إليها في الخفاء ، وأن أُقيم عندها من دون أن أُرى وأن أعيش معها على الدوام ، ما عاشت ، هي ذاتها ، كائناً ذلك ما كان ، في كل ساعة ، وفي كل ثانية ، من تحية الصباح عندما تفتح مصاريع النوافذ ، إلى تحية [تصبحين على خير] ، في ساعات المساء المتأخرة» .

وقال ڤيكتور يسمح له : «أجل فلتفعل هذا . وفعل القلب كما قال ، وعاش معها ، غير مَرْئيّ ، من الصباح حتى المساء ، من تحية الصباح ، عندما كانت تفتح مصاريع النوافذ ، إلى تحية (تصبحين على خير) في ساعات المساء التي يحلّ فيها الإرهاق . وكانت إذا جلست للغذاء أوْمَأ لها قائلاً : «فلتأكلي ولْتَقرّي عيناً» ، وإذا اتخذت أُهبتها للخروج همس لها قائلاً : «لا تأخذي ثوب كل يوم ، بل الجديد ، المشرق ، البهيج ، لأنك جميلة وظريفة ، وهذا يعني : حيثما كنتِ يَكُنِ العيدُ في كل يوم» .

وواصل القلب تنفسه وتَلَهُّفَهُ : «وددتُ لو أغوص في قلبها هي ، غوصاً عميقاً إلى ينبوع شعورها ، وأُحِبَّ ، من قلبها ، كل ما تَحِبُّهُ هي ، بدءاً من زوجها وطفلها ، حتى عودِ الأزهار أمام نافذتها» .

وقال ڤيكتور يأذن له : «أجل ، فلتفعل هذا» ، وفعل القلب كما قال ، وغاص في قلب تويْدا حتى ينبوع شعورها ، وأحب ، من قلبها ، كلَّ ما كانت هي تحب ، وقال لزوجها : «يا أخي ، إن لك صديقاً لا تدري به ، ومُعِيناً لا يخطر ببالك ، فلتكن مطمئناً ، مهما يأتِك به المستقبل ، فأنا هنا ، وسوف

أكون إلى جانبك» . وقال لطفلها : «إن قدماك الصغيرتان لتترنَّحان في اللاّيقين ، وعيناك الصغيرتان تبتسمان في الضباب والمدى البعيد ، غير أنني أعرف وجه التصرُّف في هذا : أنا أريد أن أحميك من المزالق والأذى» ، وقال لعود الأزهار الصغير أمام النافذة : «يجب عليك أن تكون نشيطاً ، لكي تضيء لها بألوانك إضاءة ممتعة ، وتنعش روحها بنفحتك ، لأن عليك أن تدخل في حسبانك أن فروعك تمتد إلى حجرة صغيرة خصوصية» .

وعاد القلب يتنفس من جديد ويتلهف ، قائلاً : «وَدِدْتُ لو أتبدَّل متحولاً إلى بركة ، وأحومَ حول خطواتها مثل روحٍ طيبٍ من الله ، أشدُّ أزرها ، عندما تفقد الشجاعة ، وأرُدُّ عنها كل سوء يزحف حول عتبتها في الليالي» .

وقال ڤيكتور يأذن له : «هذا حقٌ وجائز ، فلتفعل هذا» وفعل القلب مثلما قال ، وتبدَّل بركةً . وعند ضوء الصباح الشاحب التالي قَبَّلَ عينَيْ توِيْدا ، قائلاً : «لقد استيقظ الديك ، فانهضي ولا تخافي ، لأن هذا اليوم يومٌ بهيج» . وإذا كانت متكدِّرةً قال لها : «هذا خطأ! لا يجوز لك أن تَحْزَني ، لأنك متعة البشر وسعادتهم» وكان يصدُّ السوء الذي يتسلل في الليالي من حول عتبتها ، قائلاً : «قف! من أنت ؟ هذا خطأ! هذا البيت آمن فهنا تقيم توِيْدا ـ إيماغو» .

وصاح ڤيكتور قائلاً : «والآن يا قلبي ، لقد حققت لك كلَّ ما كان حبك يتعطش إليه . فهل بلغت ما يكفيك الآن ؟ أم ترغب في أكثر من ذلك بعد ؟» .

وأجابه القلب قائلاً : «ما كنت لأكتفي أبداً ، لأن حبي يلدُ حباً ، فكلما زِدْتُ الوحيدةَ حباً ازدادت رغبتي في حبها . انظر ، لقد نسجت حول

صورتها في هذه الأيام نسيجاً بصلاتي ، والآن أريد أن أفعل هذا أيضاً بصورتها في تلك الأيام ، وسأحيّي ظهورها الراحل بإحساسي الداخلي ، مثلما كانت في غابر الأيام قبل أن توجد ، في رجعة إلى الوراء ، مروراً بسنوات فتوّتها إلى أيام طفولتها ، ومن طفولتها صعوداً إلى أصلها فوق العالم ، حيث نشأت روحها قبل أن يطرأ عليها التحول إلى الأرض . غير أني لا أقدر على هذا من نفسي ، فَمُرْ خيالك أن يحملني إلى تلك الأعالي » .

وقال ڤيكتور يُؤْذِنُهُ : « أجل ، فليكن هذا لك» وأمر خياله ، قائلاً : « أيها الطائر الصغير ، الشارد ، المطبوع على الحماقة ، والذي كان يبذر لي ، على نحوٍ لا ينقطع بذور العبث والمجون والحماقة والغباء ، إذ يضلّلني بوجوه كاذبة ، فأرْتَكِبُ حماقات لا تحصى ، هيّا ، أثبت ذات مرة أنك ذو نفع . ألم تسمع ما يلتمسه منك قلبي ؟ فجهِّز أكثر أجنحتك جسارة ، واذهب بإحساسي الداخلي ، عبر العالم ، إلى مرتع الأرواح » .

وردّ عليه الخيال وهو يشرق بضحكة متألقة ، قائلاً : « هذا هو بالذات ما كنت أتوق إليه على الدوام ، لأنني أكون هناك ، في الأعالي ، في بيتي » . وقال هذا وانطلق بإحساسه الداخلي ، في طيرانٍ جريء . خارجاً فوق العالم كله إلى مَنْبِتِ الأرواح الذي تغشاه ظلمة الأحلام . وفي هذا المكان بالذات حاول ڤيكتور ، وهو يحزِرُ بِمجَسّات الحب ، الطريق الذي سلكته روحُها إلى الأرض فيما سلف ، محاولاً أن يعيش حياته مقتفياً آثار حياتها الغابرة ، مستعيداً بالفكر الشاعريّ سنواتها الأولى على الأرض ، مستقرِئاً انعكاس بريق صورتها ، وهي فتاة ، على الغابات في موطنها ، يحيي الصخور التي ربما كانت أوّل ما نظرت إليه عينُها الطفولية . وعلى أثر هذا الجهد تجلّت له أقاليم الخلق الجديد بنظرات ثاقبة على العوالم الأخرى ، بما فيها من بوارق

النور وسلاسل السحب من نوع آخر ، كانت روحه ترتعد منه . وتقلّص الواقع ، وانحدر الزمان نازلاً أمام قدميه .

ولكن دماغه البشري الضعيف الذي استنفده فيض الأعاجيب النائية أصابه العجز ، وانتاب الإنهاك فكره الذي أتعبه السفر . وقال : « كفى! الرحمة! هذا كثير! » ولكن الخيال هز بجناحيه غاضباً ، وقال : « أنا لم أُحلِّق إلى هذه الأعالي عبثاً ، فههنا جوُّ حياتي وهنا أريد أن أروح وأجيء . لقد أردت أن تتلمس منبت روحك ، فتحمل أيضاً تتويج روحك» . وجلا الخيال ، غير عابىء بتضرعه ومقاومته ، وهو يحوم في مستوى أعلى ، للراجف وجهاً مستقبلياً ، غير مرغوب فيه ، ومفروضاً ، ولكن لاتمحوه الأيام .

وكان يرى فتى إلى جانب عذراء كانت روحهما المزدوجة قد امتصت كل أرواح العالم ، أي أنه لم يكن باستثناء هذين الزوجين ، شيء حيّ يتحرك في الفضاء اللانهائي . وكان هذا الفتى وهذه العذراء يروحان ويجيئان معاً فوق مروج السماء ، ويتهامسان وينظر كلٌّ منهما في عين الآخر بحرارة مستعذبة لم يكن الحب الفرديّ المجزَّأ على الأرض يمثّل ، في مقابلها سوى مجرد لعبة مضحكة لا تساوي شيئاً .

وقال قلب فيكتور مقاطعاً ، في غيظ : « وماذا أصنع بهذا الفتى وهذه العذراء ؟ » ، وإذا عذراء الأرواح كلها لها طلعة إيماغو .

وهكذا قرَّ فيكتور عيناً بحبه الذي وُلِدَ من جديد . وكان قلبه يحاور تبدُّل توئِد الجسدي ، وكان خياله يأتيه بصورة إيماغو النورانية ، من الأعالي فوق السحب . وكان يطلق على عمله اسم الحب ، وعلى استجمامه اسم المباركة . ولكن لمّا كان يستشعر حبه بهذا القدر من النقاء والجمال ، متجرِّداً من الرغبة في عبادة خاشعة للرب ، وكان الخيال يحمل إليه ، على

نحو لا ينقطع ، إيحاءات جديدة ، ملء الذراعين ، وفي باقات مكدَّسة ، فقد فاضت سعادته في النهاية ، حتى ما عاد النَّفَس يكفيه ، بل لم يكن له بدّ أن يغني بالصوت ، في هتافات مزغردة متلعثمة حيناً ، وفي ترنُّم خافت لنفسه حيناً آخر ، وكان يغني في بعض الأحيان في إيقاعات ذوّابة ممطوطة . وكان من الممكن أيضاً أن يخطّ خطوطاً على قطعة من الورق ، مائلة ومنحنية ، بيد غير متمرِّسة . وكانت هتافاته وزغرداته تتشابك فيما بين ذلك في صورة سلاسل من النوطات . أما الكلمات فلم تكن سعادته في حاجة إليها .

وقال صوت الوكيل الأبوي صادحاً : «هل تراني أسبِّب شيئاً من الإزعاج ؟» وبعد بعض جمل تمهيدية لا تفيد شيئاً ، كان يفتتح حواراً علمياً ، هنا حيناً ، وهناك حيناً آخر ، ولكنه كان غير ثابت ، وعليه سيماء الحرج ، كمن يمسك شيئاً وراء حديثه ، وأخيراً تقدم على وجل وتردد ، وقال : «في الرابع من كانون الأول ، كما تعلم منذ عهد بعيد على أية حال ، تحتفل الإيديااليا بعيد تأسيسها . ومن أجل هذه المناسبة كتبت أنا أيضاً... ماذا ينبغي أن أقول ؟ يستطيع المرء أن يسمي ذلك مقدمة ـ بضعة أبيات متواضعة (خمسة أبيات من البحر اليمبيّ ، لكل منها أَنْبَسْط) في صورة حوار يضع الحضارة القديمة والحضارة الجديدة إحداهما في مقابل الأخرى... وإذا لم يكن من المحتمل بالقياس إليكم هنا لقد فكرت فيك لأنني أحتاج إلى متحدثٍ مقابلٍ يكون رجلاً ذا ثقافة جامعية (وسترد ، بحكم البدهية أيضاً ، شواهد يونانية ولاتينية) ـ وسوف أتحدث في هذه الحالة ، وأعني بالطبع ، عندما توافق ، باسم الحضارة القديمة ، وتتحدث أنت باسم الحضارة الحديثة ـ وهذا بلا ريب ، وكما قلت ، يتوقف تماماً على اختيارك الخاص ، إذا افترضنا أن لديك الرغبة والوقت اللازم لذلك...» ولما كان فيكتور يسره أن يعلن استعداده لكل ثقافة كانت ، فقد تنفس الوكيل الصعداء ، وقال :

«أجل ، ولكيلا أنسى هذا : لقد سُرَّت زوجتي سروراً بالغاً بتصالحك مع حَميَّ ، ولماذا ما عدنا نراك بعد أبداً ؟» .

حقاً ، لقد خطر هذا بباله الآن فحسب . لقد نسي من جراء حماسته لخدمة الربة ، الربوبية لنفسها كل النسيان . وكانت الحاجة إلى مرآها لم تتجلَّ على أية حال . أما الآن ، وقد تمّ تذكيره من قِبلها ، فلم يكن له بدٌّ ، بالطبع أن يرتاح إلى ذلك ، ولما كان ذلك واجباً فقد أحبّه أيضاً .

وعندما حجَّ ، بعد بضعة أيام ، إلى حارة مُنْشَر فعل ذلك وهو في الحالة النفسية لوثنيّ تم تعميده يخطو إلى تناول القربان الأول ، فكانت خطوة من خطواته تتسم بالخوف ، وخطوة تتسم بالحزم والعزم ، وما من شك في أنه لم يكن يستطيع أن يخفي ذلك عن نفسه . إذ كانت ما تزال تعشّش بعض حشرات الغشّ في فراء عدالته ، ولكن توبته كانت صادقة بلا ريب ، وكان تكفيره عميقاً ، وحبه طاهراً ، والآلهة رحيمة . ويضاف إلى هذا أن كورت بات الآن في جانبه .

واستقبلته برقة ولطف (تأثير كورت ؟ أم تراها قرأت الصلاة من وجهه ؟) ومن دون أدنى صدى للعداوة القديمة . رائعة . قد محت ذكرى الشقاق السابقة بجرة واحدة من فرشاتها وحدثته عن واقعة وفاة واحد من ذوي قرباها الأبعدين ، رحل في الليلة المنصرمة على غير توقع ، هكذا في لحظة عابرة ، مثل جملة فرعية ، في وسط التحضيرات لعيد التأسيس . وانهمرت ، أثناء الحديث ، بعض الدموع على وجنتيها . فالتقط هذه الدموع بيد ممدودة ، في غفلة منها ، كأنها ماء مقدس ثم تحول الحديث إلى هذه المسألة وتلك ، وأخيراً ، عند الوداع ، مدت إليه يدها بمودة . لأول مرة منذ الظهور .

وحمله الاهتمام بالمقدمة (الحضارتان ، القديمة والجديدة) بالتالي على الذهاب بعدُ مراراً إلى الوكيل ، وكان إذا تم الفراغ من تصفية شأن العمل ، أمكنه تزجية ربع ساعة قصير في المنزل ، حيث كان يقعد هنا صامتاً بعينين حلوتين لعمّ وضع الأسرة في عهدته بصورة مختلسة . وكان في هذه الأثناء يبيح لحبه مأدبة فاخرة تتمثل في متابعة حركة تويدا ولفتاتها التي كانت تبدو للتائب الآن مثل أشياء جديدة . ولمّا بات الآن يتاح له أن يلاحظها في صورتها الطبيعية ، مثلما كان شأنها في العادة ، على حين لم يكن يراها من قبل أبداً في صورة أخرى سوى الصورة المرتبطة بالوضع الدفاعي ، فقد اكتشف وقلبه طافح بالسعادة ، إلى جانب المزايا التي لاحظها من قبل قدراً كبيراً من المزايا الجديدة . أما إتراع قلبه بالسعادة فذلك لأن كل فضيلة من فضائلها كانت تعني تبريراً لحبّه الذي يصل إلى حد العبادة ، وتفنيداً للاعتراضات المتربِّصة . والآن ما عاد في حاجة إلى إبعاد الشكوك ، بل كان ، على النقيض من ذلك ، يدعوها ليتمتّع بإلحاق الخجل بها .

«ألا فلتأتوا ، أيها العيّابون ، ولتتطلّعوا بأكبر قدر من إرهاف النظر ، ولابأس عندي في أن تضعوا النظارات : انظروا كيف تتعامل بمودة مع خدمها ؟ ألم تقولوا دائماً ، أنتم أنفسكم أن المرء يستطيع ، من خلال معاملة المرؤوسين ، أن يعرف ، بأكبر قدر من الثقة ، هل يُعَد معدن إنسان ما طيباً أم خبيثاً ؟ ومن أجل ذلك فلتعترفوا : إنها طيبة» .

«لابأس ، بلا ريب ، إنها لكذلك» .

«والآن ، مرة أخرى ، مع السائل ، كيف تناوله الصدقة ، لافعِلَ المتفضِّلة المتعجرفة ، بل شأن النّد مع الند ، ولذلك فَلْتَعْترفوا : إنها رحيمة» .

« إنها لرحيمة ، اعترفنا » .

صبراً ، فسوف يترتّب عليكم بعدُ أن تعترفوا بما هو أكثر . هل لاحظتم كيف أن محيّاها لم يتشوّه قطّ بمسحة تنم عن حسد عندما يُشاد بجمال امرأة أخرى ؟ وكيف لا يجد الأثر العُجْب مكاناً في نفسها ، وكيف أنها لا تحسّ على الإطلاق بمغازلات الغرباء من الرجال ، بما في ذلك مغازلاتي ، مجرد إحساس ، أو عندما تحس بها لا تحفل بها ، بل تكون أقرب إلى أن تحس بها على أنها إزعاج . ألم يلفت نظركم أنه ما من واحد من بين كل البشر الذين أولَئهم شرف التعامل معها لم يتميّز بنقاء الطبع ؟ وتواضعها ، وولاؤها للواجب ، وتقديرها للحياة العائلية ، وتفانيها الهادىء في طفلها ؟ أرجوكم ، جادلوني في هذا كله إذا استطعتم» .

«ما من أحد يجادل أدنى مجادلة في القدر الكبير من مزاياها الفائقة ، سوى أنك تنظر إليها نظرتك إلى إلهة...» .

« كفى! ولا كلمة واحدة فوق هذا! من كان يشك الآن بعدُ فهو يكشف عن مقصد خبيث »

وعلى الرغم من ذلك ـ وكان من الممكن أن يقنع نفسه بحماسة بالغة بعدُ بكمالها ـ فقد كان حضورها الجسدي أقرب إلى أن يكدِّر عليه صفوه منه إلى أن يرضيه ، ولم يكن ذلك يرجع إلى نقاط ضعفها البشرية ـ فقد كان يعرف أنها بشر ، ويحب أن تكون على ما هي عليه ـ وكان في جلستها ووقفتها قدر من الاسترخاء لم يكن يتوافق دائماً مع رغائبه وحاجاته ، وذلك أنها كانت تتصرف بحيث تؤخذ عليها في بعض الأحيان ملامح وجه خالية من التعبير ، وموقف لا يُحمَد ، ولا يُعد نموذجياً كما يكون في التصاوير ، ونظرة باهتة . وجملة القول إنها لم تكن هي ذاتها تماماً في كل دقيقة ، ولم

تكن هي إيماغو على نحو لا ينقطع ، من الصباح إلى المساء ، حتى لقد كان من جملة الممكن ، على وجه التقريب ، أن تثور لديه شبهة مفادها أنها لا تعي على الإطلاق حتى مهمتها المتمثلة في أن تقوم رمزاً للخيال . وكانت فوق ذلك من المهولات التي لا يحتملها البصر ، فقد ثُبّتت على ثوبها المنزلي بالخياطة أشرطة سود صغيرة من المخمل ، منها سلسلة مزدوجة ، في الأسفل قريباً من الحاشية ، ثم سلسلة في الأعلى عند العنق ، وحوالي فتحة الصدر . كلاً ، إنها إيماغو في زيّ فتاة في جوقة في مسرحية «الصياد المتحالف مع الشيطان» ، وكأنها كانت تريد أن تغني «إكليل العذارى» ، وكانت عينه يتولاها الفزع من هذا ، وكانت صلاته تتعثر بذلك . وقد أدى هذا وأشباهه إلى تذبذب مضطرب في مشاعره فكان يؤثر عليه الخلوة معها في خياله .

وكان في مقابل ذلك يزور أصدقاءها ومعارفها ، أي أهل الإيدياليا ، لكي يقرأ من وجوههم ذات المؤانسة انعكاس بريق تويدا وكلما ورد اسمها العزيز تألّق في وسط الحديث الكئيب وكأن عود ثقاب سحري صغيراً أومض وتطاير شرره وفي ناره نجمة صغيرة ملّونة . أما النطق باسمها بفمه هو فأمرٌ لم يكن يجرؤ عليه ، لأنه كان يحمرُّ خجلاً إذا ما ذكر مجرد كلمة «حارة منستر» .

وفي هذه الأثناء التقى ذات مرة أيضاً بكورت ، فأسرع هذا إليه يتلقاه وقد بدت نواجذه من الفرح : «عاهرات كل الفنون اللواتي تمارس نفوسهن الدعارة مع كل وغد حقير من أوغاد روائعُ الفن! فظيع ، مثير للاشمئزاز ، ولكنه عظيم!» ، وبعد نصف ساعة ، حين قال فيكتور ضد الكهانة الأخلاقية المتحدة للقس والوكيل ، الجملة التالية : الديانة التي تعنى بالأخلاق لا

تستحق أن يضيّع إنسان شريف فكرة فيها » ، أقبل عليه كورت وسأله بحرارة وتواضع : «متى نستطيع ذات مرة أن نتحادث وحدنا ؟ » . ومنذ ذلك الوقت أخذ كلٌّ من فيكتور وكورت يجلس إلى الآخر كلما التقيا في مجتمع .

ولم يكن من الممكن ألاّ يحدث أن يُلاحظَ تبدُّل روح فيكتور الذي يشرح القلب ، إذ كان التحوُّل لافتاً للنظر إلى حد بالغ ، إذْ بات ، وهو الذي كان يخرج على الناس فيما مضى بمظهر المتطاول إلى حد بعيد ، والذي كان يمعن في إيذاء كل امرىء إلى حدّ السمّاجة ، والذي كان يفزع إلى الهرب بمجرد أن يبدو على جناح البيانو ، من بعيد ، أنه يوشك أن ينفتح ، والذي يخلد إلى الصمت عند كل حديث بابتسامته الساخرة المنطوية على الشعور بالتفوُّق . وقد بات الآن يسمع وعيناه مفتوحتان على أوسع مدى ، لا مجرد أطول المقطوعات الموسيقية الحميمة ، بل بات يصيح فيما بين ذلك ، من حين إلى آخر ، قائلاً : «ماذا تقول!» ـ «يا لهول ما تقول!» ـ «أحق هذا ؟ » ، وبات يستفسر عن أوجه التقدم التي يحققها الأولاد في المدرسة ، ويسأل هل أصيبت جرترود بالحصبة ، وميمي بالوباء ، أجل ، لقد كان يتوسَّل بدافع من نفسه ، لكي يُغَنّى له «شيء ما» بحق السماء ، وجملة القول إنه أصبح مرتاحاً دفعة واحدة ، وكأنما حدث ذلك بفعل أعجوبة . ولكن وجهات نظره التي باتت الآن أكثر عقلانية حول الجنس الأنثوي المقدس هي التي لفتت الأنظار قبل كل شيء على نحو باعث للسرور . أو كان هذا بالفعل هو فيكتور ذاته الذي يطلب سماع أقوال كهذا القول : «لا تعد النساء الطائشات بحال من الأحوال نساء شاعرات ، وإنما الشاعراتُ المصونات الطاهرات ، لأن شعر المرأة يعني التفاني ، أما اسم المرأة المهملة القاصرة فهي الأنانية» أو : «إن أكثر شيطانات الأخلاق طموحاً تتفوق عليها المرأة ذات الرجال الكُثُر في برود قلبها وقساوته» آه ، هذا شيء يعجبني!

لقد اختلفت اللهجة الآن! وكان من المؤسف أن جواباً يبعث على الأسى كان مما أفسد من جديد السرور الذي حققه شعره المتسم بالورع . فبعد أن أثنى على المرأة الفاضلة ، مثلاً ، في تحليق شعري كان خليقاً أن يضعه المرء لجوقة مؤلفة من خمسة أصوات مع الأوركسترا ، استطاع أن يضيف إلى ذلك قوله : «ولكن أرجوكم أن تقولوا لي أي شيء على الإطلاق أصنع بامرأة فاضلة ؟ » وإذاً فلم تكن المسألة قد اكتملت على تلك الصورة بعد ، إذ كان ثمة نقائص وعيوب إلى حد ما في توبته . وعلى كل حال فقد كانت الإرادة المستعدة للتكفير شيئاً لا تخطئه العين ، ولا يجوز للمرء بوجه معقول أن يتوقع الكمال كله دفعة واحدة ، أليس كذلك . وهكذا كان يلوح الأمل في أن يُتَّخذ منه بعدُ ، مع الزمن نغم صادح في الجوقة .

ولكن ما الذي كان يقصد إليه فيكتور في هذه الحقبة الهامة ، مما يقصد إليه الفرد على وجه الإطلاق! كان عيد تأسيس الإيدياليا يقترب ، وكان جوّ عيد البشارة قد استحوذ على النفوس . وأخيراً أصبح الأسبوع الكبير ، الذي لا يُصدَّق ، حاضراً ولا ينكر .

وفي اليوم السابق على العيد نشأ نوع من الاحتفال التمهيدي ، بصورة تلقائية إن صح التعبير ، وذلك من جراء عدم المقدرة على الاشتغال بشيء آخر ، مع اقتران ذلك بالطقس اللطيف بدرجة غير مألوفة (١٠ درجات مئوية في الظل!) ، إذ اتفق قسم من الأعضاء ، بينهم فيكتور ضيفاً (وكانوا في العادة من النساء جميعاً) على الاجتماع بعد الظهر خارج المدينة في فالديج ، وكانوا ، مع الأسف ، من دون السيدة زوجة المدير التي حبستها الاستعدادات عن الحضور . وبعد الاستمتاع بالكاتو استمتع الفريق المرح بالألعاب الجسدية الحرة ، ولا سيما «تبديل المكان» ، واحد ، اثنان ،

ثلاثة ـ صَهْ ، من شجرة إلى أخرى . وكان فيكتور المروَّض يقفز بين الإيديالييانيات بشهامة كالذئب بين الحملان في الفردوس . وكان يقعد أيضاً بين الجمع الغفير الذي أغراه النهار المشمس بالمجيء إلى فالديج السيدة شتاينباخ التي كانت تنظر إلى الحدث الطريف نظرات غريبة وكأنها تلاحظ أعجوبة من أعاجيب ثلاثاء المرفع ، ولم يكن شعور فيكتور بالخجل منها قليلاً ، وكان يسعى إلى تجنُّب نظرتها المُلاحِظة بأن يجعل بينها وبينه جذوعاً من الأشجار ضخمة قدر الإمكان . ولكن المسألة لم تكن تتوقف على الشعور بالخجل آخر الأمر ما دام المرء يرتاح إلى المسألة التي يتولاه الخجل منها ، وهكذا كان يزداد جسارة شيئاً فشيئاً ، غير عابىء بعيني الصديقة الذكيتين ، قافزاً بين الصفوف الأولى من الأشجار .

وفي اليوم الرئيسي ، في الساعة الثامنة مساءً ، نفَّذ البرنامج المرتَّب بعناية والمدروس بجدّ ، على نحو مُرْضٍ . ففي البداية كانت المقدمة بين الوكيل وفيكتور (الحضارتان القديمة والجديدة) حيث تبيّن ، كما لاحظ القسّ ، على سبيل النكتة ، أن الحضارة القديمة تتفوّق على الحضارة الحديثة تفوّقاً حاسماً ، وذلك أن فيكتور لم يقدر طوال حياته على حفظ عشرة أبيات غيباً بنصِّها الصحيح . وعلى أثر ذلك ، وبعد بضع ترتيلات من الأناشيد جاء دور العزف الاحتفالي الكبير لكورت . ولكن ويلاه! يا له من ذهول . كان يفترض أن يسير دبّ بين عرائس البحر وشيوخه . وأرسل الصيدلي روتيلين حقاً ، في اللحظة الأخيرة ، فراء الدب الثمين ، على ما كان يؤلمه ، ولكن مرضاً مفاجئاً لوالده ـ وقال إنه لا بد له أن يسافر في أول قطار ـ . وكان انفعال عام . ولكن كورت نفسه ، الذي كان الأمر يعنيه في المقام الأول ، ظل هادئاً هدوءاً جديراً بالإعجاب . وقال يواسي رهطه : «إن من الممكن أن يستقيم الأمر من دون الرب ، على الرغم من كون

ذلك متكلفاً إلى حد ما ، إذ كان ذلك النقص مزعجاً له . هنالك أقبل عليه فيكتور يضحك ، وقال : «لن يكون هذا فناً صعباً ، يا سيد نويكوم «شيء من الدمدمة ، إذا استطعت أن أساعد...» ، وتدثّر في فراء الدب ، يواكبه الإعجاب ، ولم تكن دمدمته سيئة في الواقع على الإطلاق ، إذ دمدم على قدر ما كان يسمح به صوته الواهن .

وفي الختام جاء دور فقرة ذات ألغاز : فحين انفتح الستار كان يُرى على خشبة المسرح غابة من النباتات فيها خادرة فراشة متألّقة في مثل طول رجل ، مصنوعة من ورق الزينة ، بين الأوراق ، وغنّت زوجة المديرفيس ، رئيسة الشرف للإيدياليا ثلاثة أبيات كان نصُّها يشير إلى التحوُّل ، ثم نقرت على الخادرة بعصا سحرية ، فسقط الإهاب وخرج منه ، بدلاً من الفراشة ، «ولد الإيدياليا» وعليه قرنا استشعار صغيران يترَجْرَجان ، وقد زُيِّن تزييناً ظريفاً بالأزهار والأكاليل . وكان ما أُطْلِق عليه اسم «ولد الإيدياليا» فتاة يتيمة موهوبة حلوة ، كانت زوجة المدير فيس وزوجة المستشار الإداري كيلر قد أدخلتاها في حمايتهما ، وأنفقتا على تربيتها . وفي إيماءة هزلية إلى الإيدياليا ، ثم تعميدها باسم «الطفلة المثالية» ، كما شرَّفت آخر الأمر اسمها المثالي أيضاً كل التشريف بالشهادات المدرسية الممتازة . وأنشدت الطفلة المثالية الآن بلهجة تشوبها اللثغة . وهي تهزّ قرون الاستشعار ، بضعة أبيات تعبِّر عن الشكر ، ثم أدّت بضع انحناءات رشيقة ، ثم جيء بها من خشبة المسرح ، وجعلت السيدات يتسابقن على تقبيلها بالمراهنات ويُغْرِقْنها بالهدايا في الزوايا . وبذلك كان الجزء الاحتفاليّ من العيد قد وصل إلى نهايته ، وبدأ رقص لا نهاية له هو رقص الخلاص وفيه الطفلة المثالية ، فتاة الحفل الأثيرة ، وهي المخلوقة المثالية التي كانت آخر الأمر ، تغمز بعينها لكورت ، على الرغم من فتوّتها التي تحاكي براعم الربيع ، بأسلوب لا

شائبة فيه . ولكن فيكتور استمتع أيضاً بالحظوة ، جزاء على مشاركته ومساعدته الكريمة . وكان لا يكاد يمرّ به زوج من الراقصين مُنْسَرِباً من دون أن يبدي نحوه لفتة من لفتات الظرف أو يومىء إيماءة مُزاح أو دُعابة إلى دُبّه أو حضارته* ، في درجات متباينة من درجات الفكر ، ولكن في لهجة مستحبة إلى أقصى الحدود ، دائماً . بل وُفّق أبْرَعُهم في النكتة إلى الربط البارع بين الحضارة والدبّ ، عن طريق فكرة قذف بها بجرأة لتقوم بدور الخيط الجامع ، في صورة حبل رعاة البقر : « إني لأَحْسَب أن الدب يلائم الحضارة القديمة أكثر مما يلائم الحديثة » . أو : « هل كنت تريد أن تربط ، آخر الأمر ، دباً بحضارتك الحديثة ؟ » وكان تيار دافق من المقاصد الحسنة يفيض مقبلاً عليه ، حتى لقد تولاّه الخجل الشديد من المحبة التي لم يكن مستحقّاً لها . وانبثق ، فجأة من شعوره بالخجل ، تأثر وامتنان جعلا يفيضان الآن ، من جديد ، عائدين الى الجمهور الطيب ، وأغرقاه هو نفسه اخر االأمر ، في ارتداده الثالث ، بسعادة من نوع جديد لم يسبق له أن أحسّ بها من قبلُ أبداً ، وهي السعادة التي تقوم على الشعور الأساسي ، الجسدي . لقد تعلّم اليوم ، وهو المعتزل المفرط في الاعتزال ، وصاحب السلوك الغريب ، عن طريق الحظوة لدى عامة الناس . كيف يقدر بركة التعاون . ألا فلتتهكميّ ما شئت بأسلوبك الخفيّ البارع ، يا مدام شتاينباخ ، بعينيك الذكيتين! فما هؤلاء بثريّا تاريخ العالم ، هذا أمر مسلّم به ، ولكنهم أناس لطفاء طيبون وتلك هي المسألة الرئيسية .

ولمّا حظي بالسلام في داخل نفسه ، وخارجها ، وتصالح مع نفسه ، ومع

---

* إشارة إلى دور فيكتور الذي مثّله مع المدير فيس ، في المقابلة بين الحضارتين القديمة والحديثة .
« المترجم »

العالم كله ، لم يكن يعرف على الإطلاق ما كان يحدث له ، وكيف كان يحتمل الانسجام المركّب من ألف صوت . وحين تلقى الآن ، حتى في الصباح التالي ، رسالة موجزة ـ هل هذا ممكن ؟ منها! ـ الأولى في حياته ، بلغ منه فيضُ السعادة حدّ الإيلام حقاً . والحق أن الرسالة الوجيزة لم تتضمن في الحقيقة إلاّ ما يعد في حكم اللاشيء ، أو على الأقل ، لا شيء مما يتصل بالنفس والوجدان . كانت تلتمس منه ببساطة ، أن يتكرّم فيسأل ، في المتحف ، هل عثر القوم على مروحتها هناك ، ولكنها كانت ، بلا ريب ، سطوراً بخط يدها ، وقد قالت ، فوق ذلك : « السيد الموقّر » ، وتحتها « صاحبتك ، تويْدا ڤيس » . ولئن كان قال في نفسه سلفاً إنها مجرد صيغ ثابتة فارغة فقد كان مما يعلي من شأنه ويُسْكِرهُ ، على الرغم من ذلك أنها لم تره غير أهل لأن يخاطب بلقب السيد الموقّر . ولكنه مارس ، فيما يتصل بالتوقيع ، حركة بهلوانية ماكرة : فقد احتزَّ بمقص الأظافر ، من الكلمات الثلاث « صاحبتك تويدا ڤيس » ، في حركة دائرية ، الكلمتين الأوليَيْن ، في قصّ نظيف ، مستبعداً الثالثة . ألا ترى الآن : إنها توقع باسم « صاحبتك تويدا » ، أي أنها فتاتي ، أنا ، وهي تقر ، بموجب ذلك ، بأنها لي ، وتَزوّد بالاعتراف المزوّر في المحفظة الدقيقة المعلّقة في سلسلة ساعته . وهتف قلبه مزغرداً : « الآن باتت في حوزتي ، إن صح التعبير » .

والآن فاضت به السعادة متصاعدة إلى أعصابه حتى لقد كان خليقاً أن يشرع ، من جراء فرحه في الإقدام على شيء جنوني حقاً ، غير أنه لم يكن يعرف ما عساه يكون . وكان في أثناء ذلك يقف أمام المرآة ويقلص عضلات وجهه ، أو يقلد أصوات حيوانات ولهجات محلية بشرية ، الأمر الذي كان يعني عنده ذروة الابتهاج . كلا ، لم يكن يعرف بعد ، على سبيل الجد ، وبالفعل ، هل كانت حالته على ما يرام في الحقيقة أم كانت مؤلمة ، إذ كان سعيداً سعادةً لا تحتمل .

آلام القلب

وذات يوم عَرَفَ مع ذلك هل كانت حالته على ما يرام أم كانت مؤلمة .

فقد لَقيها في ضحى يوم من الأيام حين كان في زيارة لزوجة الدكتور ريتشارد ، في حالةٍ من المرح والمزاح البريء ، كما كان هو نفسه ، وجملة القول إنهما كانا « متفاهمين » في هذا اليوم . وهكذا لبث الرهط قاعدين في حديثٍ أليف وطال بهم المقام أكثر مما كانوا يقصدون ، وكأنما سُمِّروا في مكانهم من سحر روح المودة في هذه الساعة .

وحين بلغ من نفسه سحر صدى الإنسجام نَدَّ عنه حين نزلا إلى الشارع ومدت يدها إليه للوداع مصحوبة بنظرة طيبة ، السؤال الطفولي : « وعلى هذا فلن تأتي معي الآن إلى البيت ؟ » .

وأجابت قائلة في مرح : « كلاّ بالطبع ، آمل أن لا آتي ؟ » .

« وإلى أين إذاً ؟ »

« ما هذا السؤال! إلى زوجي وولدي اللذين ينتظرانني على مائدة الغداء ، جائعين » .

« وأنا ؟ أنا مستبعَد إذاً ؟ » .

« رباه ، لست مستبعداً على الإطلاق هلا أتيت معي ، فسوف يبتهج زوجي لذلك» .

إذاً فلم تكن له! ، وهرب إلى البيت مثل قطةٍ أصابتها طلقة . لم تكن له! وهو الذي قال إن حبه مجردٌ من الرغبة! وكان من الممكن ، بحكم طبيعة البشر أن يحب المرء أحداً من دون أن يرغب أدنى رغبةٍ في حضوره الدائم . لم تكن له! والأسوأ من هذا بعدُ : أنها كانت تابعة لآخر ، لغريب! أجل لقد كان يعرف هذا بالطبع منذ عهد بعيد ، غير أنه أحس بهذا اليوم لأول مرة ، حين غادرته ، لتلحق بآخر ، وأطلقت على هذا اسم «العودة إلى البيت»!

ومن شأن القطة إذا ما أصابها طلقٌ ناري أن تزحف ، غير أنها تأخذ معها الرصاصة ، ويبدأ الجرح الذي كان في البداية يفزعها أكثر مما يؤلمها ، يعمل عمله ، في ركن هادىء . يا له من امتياز لم يُسمَع بمثله! ويا له من انعدام للمساواة باعثٍ على التذمر! إذ يفترض أن يباح للآخر أن يسكن معها يوماً بعد يوم ، وعاماً بعد عام إلى النهاية ، أما هو فلا يباح له شيء أبداً ، لا صيف ، ولا شهر ولا يجوز له أن يقضي معها حتى يوماً على سبيل الاستثناء . ولذاك كل شيء ، أما هو فليس له شيء ، ولا حتى مجرد السكن معها ، بل ـ أغربي عني يا هذه الأفكار! ذلك لأنه بينما يحوز ذلك الموجود هناك على الكثير الكثير على أية حال تهب هي له في حضورها فوق ذلك الحب والصداقة . وإذا كان ذاك حزيناً واسَتْه ، وإذا كان مريضاً رحمته وتفجعت له ، وإذا مات تبعه شوقها إليه حتى القبر ، وإذا كان هناك بعثٌ فإن نظرتها المنبعثة تبحث عن ذاك ، فما هي القيمة الفريدة من نوعها الذي يتميز بها ذاك المتطاول ، بصورة مسبقة ، فيحوز على ذلك الجزاء الذي يبعث الدوار؟ أوَليس هو أيضاً إنساناً مثلاً؟ أم يحوز ذاك وحده على قدرٍ من المزايا والأفضال يربو على ما تحوزُهُ البشرية كلها مجتمعة؟

ليس هناك من أمل! وما من شيء يمكن تغييره ، ولا سبيل إلى اتباع وسيلة بالذكاء ولا لفرضها بالعناد . وعلى الإجمال ليس هناك إمكانية في أي مكان . بل على النقيض : فكل ساعة تمضي ، سواءً في الليل أو النهار ، وسواءً في المطر أم في ضوء الشمس ، ومهما كان مضمونها فثمة شيء واحد يجمع بين كل منها بلا ريب ، فكل ساعة منها مثل الأخرى : إنها تزيد الهوة بينه وبينها عمقاً وتضيِّق الخُناق عليه بدرجة أشد . أما التكيف والفهم والذكريات المشتركة والتزامات الامتنان المتبادلة ، فلا تنقص بلا ريب ، بل على النقيض ، إذ يزداد هذا ويتراكم ، وأما الطفل الذي يجمع كليهما فسوف يقتضي ، على نحو مطَّرِد الزيادة مع الزمن ، مزيداً من رعايتهما واهتمامهما ، وتزداد الصداقة بين الوالدين عمقاً مع ذلك على أنني لم أقل أيضاً أن هذا الطفل سيظل هو الوحيد ، إذ يمكن أن يتلقى أخاً صغيراً أو أختاً صغيرة! ، ولِمَ لا ، ومن عساه يحول بينهما وبين هذا ؟

ويلاه ، هل قدَّر سلطان الزواج دون قدره حين نظر إليه على أنه نوعٌ من الوكالة ، وهو يحسب أن من الممكن تقسيمه بسهولة : فلذاك ، أي الوكيل ، الجسد ، وله النفس! ومهما يكن من حدة نظره فقد كان يغفل ، بالنظر إلى قلة خبرته ، بلا ريب ، عن المسألة الرئيسة : وذلك أن سر الجسد ، والسلطان البهيمي للدافع الطبيعي ، الذي يضطر الأم إلى التنازل عن السماء والأرض من أجل حساء من اللحم لطفلها والذي يُرغم المرأة على الاستهانة بالقلب من أجل الجسد ، تابعة بكل الأواصر والخيوط للرجل الذي يطبعها بطابعه جسدياً ، ويحولها من حالة العذراء إلى المرأة والأم ، يحكم عليها أن تحب هذا الواحد ، وإن كانت تزدريه . الدمية العروس ، والطفل الرضيع وبابا ، هذه الكلمات الثلاث تستغرق مضمون الحياة عند المرأة ، أيها الحمقى الذين يساوركم الهم والقلق متسائلين هل تحبكم تلك الفتاة التي

ترغبون في اتخاذها زوجة! سوف تحبكم من أعماق قلبها ، فلتضحكوا من نفورها واشمئزازها ولتجرّوها إلى الهيكل ، لأن الزواج أقوى من الكراهية وأكثر ديمومة من الحب .

إن العذراء لتترنح وهي تسير مع الزوج المكروه إلى الكنيسة وكأنها تسير إلى المذبح ، شاحبة كالجثة ، والموت في قلبها ، على أنها تابعة لامرىء آخر . اسألها بعد عشرين عاماً : «يا أولادي ، لتقرّوا عيناً ، غداً يعود أبوكم» ـ «ألا ليت أبوكم لا يمسه سوء!» أما الآخر ، الذي كان فيما مضى محبوباً بحرارة ، فعندما يموت يتلقى عند وصول نبأ وفاته حسرة ضئيلة ، وإذا وصل الأمر إلى مستوى عالٍ فدمعة صغيرة ، يتم اقتناصها بشق النفس ويعود الكلام بعد ذلك : بابا . هذا هو سلطان الزواج . كلاً ، ما من أمل ، أيحارب دافعاً طبيعياً ؟ جنون! أيقاتل ضد شرائع العالم ؟ جنون! كانت الحقيقة تقول له : «أنت ملعون إلى الأبد» وكأن غمُّه يعترف قائلاً : «الأمر هكذا» .

هنالك أدرك أن من يجعل من إنسانٍ رباً له يزرع لنفسه لعنة . ألا إن أولئك الذين لهم إلهٌ يتعالى على الكون لجديرون أن يحسدوا عليه ، كائناً ما كان ، سواءٌ أكان رب الغضب مثل يهوه ، أم غولاً هائلاً مثل مولوخ ، إذ لا يوجد ربٌ في أي دين ، لا يرحم ، وما من إلهٍ يزج في الجحيم بمن يتقرب إليه في الحب ، وما منهم من يقول لليائس : «أنا لا أعرفك» ولو كان واحدٌ من مملكة السماء عديم الإحساس كالحجر ، فثمة خصلة واحدة لا تكون فيه على كل حال : وهي الاهتمام بصغائر الأمور . ولن يقع المرء على واحدٍ مثل المدير فيس ، بينه وبين الإله ، ولن يتوقف أمره على محبة واحدٍ مثل كورت . والسيدة العذراء عند المسيحيين لا تلد قطيعاً من الأولاد تنسى

السماء والأرض من أجلهم . وذلك أن عبادة واحدٍ من البشر ليست بأكثر ذكاءً بكثير من عبادة دودة . وتبين له هذا بذهنٍ صافٍ ، ولكن النظرة المتبصرة لا تشفي التهاباً . إذ يتبين لك أن السم الذي يُحّلل دمك إلى قيح ليس إلاّ ذرة صغيرة مزدراة من الوسخ ، ولكن الحريق يتابع الالتهام على الرغم من هذا .

ولكن لأن حبه كان ديناً ، ولأنّ محيّا تويدا ـ إيماغو الرمزي كانت تلوح معه كل حياة العالم مثلما يلوح الوطن في محيّا الأم ، كان يحسّ بمعاناته ، أكثر ما تكون إيلاماً ، في أكثر أجزاء النفس نبلاً . وكانت كل الإيماءات والدلالات ، وبوجه خاص كل الأضواء والوجوه والأشياء الجميلة التي تأتي هنا على الجسر متحوّلة ، والتي تربط الواقع بعالم الفكر ، كانت تصل جريحة ، فيها طعنة دامية . وكان كل إحساسه بالحياة يعتلّ متحولاً إلى حنين إلى وطن يحدوه الشوق . حنين إليها ، حنين إلى وطن مشترك لكل المخلوقات ، حنين إلى نفسه ذاتها ، إذ كان هو يتمثّل فيها ، ولكن يالعجائب المستحيل! الجحيمية! إذ لم تكن هي تتمثّل فيه (لم تكن هي هو) .

ولما كان هو إنسانَ فكر ، يضطر إذا ما تعرَّض للَّدغ ، إلى أن يرغب في معرفة أي نوع من الأفاعي لدغه ، فقد كان من الممكن أن يتسلى ، بعقله ، بالتفكير في أعجوبة الخلوّ من الحب وكان ذلك عديم الجدوى ، إذ كان يعلم حق العلم أن المعرفة لن تجديه فتيلاً ، وإنما كان يفعل ذلك لمجرد أنه لم يكن في وسعه ، بحكم كونه مفكراً ، أن يفعل شيئاً آخر سوى أن يفكر . غير أن آلام القلب لا تحمل التفكير على التوقُّف ، بل يكون أثرها على النقيض من ذلك ، إذ تدفع الأفكار إلى أن تنخر في الذهن . «هل أنت

يقظان ، ألديك وقت ؟ هل تستطيع أن تحلّ لي هذا اللغز : كيف يكون من الممكن في عالم النفس أن لا يقابل إنسانٌ وهبَ له المرءُ أعلى متاع ، وهو العزاء الوحيد على الأرض ، أي الحب ، بحب مقابل ؟ » .

وأجاب العقل قائلاً : « هلاّ جَمَّعت وقارنت : إذا أحببت الله عز وجل ، هل يحبك بدوره ؟ » ـ « لا ريب في ذلك » ـ « إذا أحببت البابا ، هل يحبك بدوره ؟ » ـ « بعض الحب » ـ « إذا أحببت دوقة أراغون وقشتالة ، هل تحبك بدورها ؟ » ـ « سيكون من الصعب أن يخطر هذا ببالها » ـ « عندما تحب قوقعة ، هل تحبك بدورها ؟ » ـ « ماكانت لتستطيع ذلك على الإطلاق ؟ » ـ « ها أنتذا تصل إلى الحلّ : كلما أوغلت في النزول بالنفس إلى الدركات السفلى قلَّ ما تجد من الحب . فالحب يشترط غنى النفس ، والخلوُّ من الحب يكشف عن التبُّلد ، أو العته ، والسلام » .

« أما معرفة هذا بوضوح ، وتَبَيُّنهُ بإرهاف بالغ ، فليس ذلك إلا بيضة خيالك الخاص ، التي تُطل عليك من قدح هذه المرأة ، وكونك مع ذلك محكوماً عليك بأن ترغب في هذه المرأة الصغيرة التي تنظر إليها نظرة فائقة المبالغة في التقدير ، وتحس بها إحساساً فائق المبالغة ، وتفكر فيها تفكيراً فائق المبالغة ، شأن الرغبة في الكأس المقدس ، وتتلّهف عليها تَلُّهفَ المشرف على الموت من العطش على الينبوع المنقذ! فكيف تفسِّر هذا ؟ »

وضحك العقل قائلاً : « هذه حماقة ، حماقة يا عزيزي! ولكن فلتتابع ممارسة حماقاتك بهدوء ، وهذا يبشِّرني بأنك ستغدو ذات يوم مخلوقاً متعقلاً » .

وهكذا كان يحادث العقل حول حالته ، ومن أجل ذلك لم تتحسن حالته بأدنى درجة ، بل على النقيض ، إذ سارت الأمور معه مثلما يحدث في حالة

آلام الأسنان : فكلما ازداد المرء تفكيراً فيها ازداد استياءً منها ، وعندما يحاول المرء ألاّ يفكر فيها يرغمه الألم على التفكير في الألم . ولكن إلى أين كان ينبغي له أن يذهب بأفكاره لينقذها بحيث لا تعثر على الألم ؟ وسواء أهرب إلى ما وراء السماء ذات النجوم ، في الدين ، أم إلى أثير الخلق المشرق ، حيث الشعر ، فقد كان يصطدم دائماً بلَعْنهِ ، وكان يظل أبداً يلقى هذا الوجه البشري الواحد ، العزيز ، المنحوس ، الذي كان يطارده في كل مكان لكي يقضي عليه بنظرته الجميلة الباردة .

فيا أيها الشاردو العقل الذين تضحكون من آلام الحب الذي لا يُقابَل بمثله! لتفترضوا أن أمّاً رأت ولدها المتوفى ، وحيدها ، يخرج من القبر ، ظريفاً جميلاً ، مجُلّواً بالبريق السماويّ ، وأنها ارتمت عليه صارخة من الشوق ، ولكن الولد يعرض عنها مع ذلك ، في نظرة غريبة ، ويشمخ بأنفه ازدراءً ، وهو يقول : «ماذا تبتغي مني هذه المرأة ، هناك ؟ أتُراكم سوف تبتسمون ؟ وهذا على وجه الدقة ما كان يشعر به ، إذ انتزعت منه أغلى قطعة من ذاته ، وهي تنتقل هنا وهناك ، مفصولة عنه ، مُنكِرةً له . وكان يبلغ من ألم هذا وقسوته وصعوبته احتماله أنه كان يَحْسَبُ في بعض الأحيان أنه لا يمكن أن يكون موجوداً لأنه لم يكن يستطيع احتماله .

ولكنه لم يكن ضعيفاً ولا عاجزاً ، بل كان أقرب إلى الصمود والصلابة . ولذلك نادى عقله يبتغي المعونة «أنت يا هذا! هذا واقع حالي ، ولا بدّ لي أن أعيش ، ولا قدرة لي على الاحتمال ، فما العمل إذاً ؟» .

وأجابه العقل قائلاً : «تعال ، فأنا أريد أن أعرض عليك شيئاً» وقاده إلى مذبح . وقال : «الآن ، فيما أرى ، تستطيع أن تحتمل» . ثم مضى قائلاً ، بعد أن وصلا إلى البيت من جديد : «ألا ترى أن الفن كله يكمن في

عدم الإقدام على شيء يلحق الأذى أو يفضي إلى كارثة ، وإنه لخير لك ألاّ تفعل أي شيء على الإطلاق ، ولتعضُض على نواجدك ، متحملاً على نفسك ، أو فلتصرخ ، فلا ضير في ذلك عندي ، إذا لم يكن ثمة سبيل آخر . ولكن لا تصرخ بيديك . والانتصار على الساعة هو كل شيء ، فمن ينتصر على الساعة ينتصر على اليوم ، ومن ينتصر على اليوم ينتصر على العام . وكل ما يهمّ دائماً هو ألاّ يُقْدِم المرء الآن ، على وجه الخصوص ، على شيء مُهْلك . غير أن الرجل ينتصر على الساعة ـ وأنت رجل ـ إذا افترضنا أنه سليم معافى ـ وأنت سليم معافى ـ بالعمل . ولذلك فلتدع الآلام وشأنها ، فهذا شأنها ، فهي تُحْسن ذلك وحدها ، وأنت تعمل ، وأنت تعرف ماذا تعمل» .

وكان يعرف ماذا يعمل . ولمّا كان العمل يحدث في خدمة سيدته الصارمة التي هي هنا ربة جبارة ، فقد هربت من أنفاسها أشباح العذاب وراء الستار الذي كانت تنطلق بارزة من ورائه من حين إلى آخر في خبث وغدر ، لتسدد إليه طعنة مفاجئة ، وكانت تعود مع ذلك إلى الاستخفاء بالسرعة ذاتها .

على أن أشدّ الأعمال حدّة يعود بفترات استراحة أو توقُّف . أو يتوقَّف ببساطة أيضاً ، مساءً في حالة الإرهاق . وفي أمثال هذه الساعات كانت الهجمات تأتي أكثر عدداً وخطورة . وكانت تنتصب في المكتبة العامة مجموعات سنوية كاملة من مجلة شهرية ، مرتبة في صفوف نظامية . وبينما كانت يقلِّب فيها ارتدّ فجأة في فزع كمن لدغته أفعى . وذلك أن أحد المجلدات كان يحمل تاريخ سنة الظهور حتى لقد بات يتجنَّب في المستقبل كل مجموعة مجلات ، بقوس واسع بعيداً عنها .

ومرّ بمتجر للملابس النسائية . وكان يتألّق في واجهة العرض ثوب

أبيض ذو أزرار خضر . فيا لوخز شمس الذكرى المحرقة! كانت ترتدي عند الظهور ثوباً أبيض ونطاقاً أبيض مطرزاً بخيوط خضر وخيوط ذهبية .

وكان ثمة أمور مشابهة . فكان بين الأشياء التي لم يكن لها أذى في الظاهر عقارب تترصد له . فهذا المشط يبدو بريئاً بلا ريب ، أليس كذلك ؟ وسكين الورق هذا أيضاً ؟ إنما هي ألوان من المكر والنفاق الباطلين! ذلك لأنه كان قد اشترى هذا المشط قبل الظهور بأسبوعين! أما سكين الورق ففي السنة التي أعقبت ذلك أثناء «الزفاف الطائر» . وفي كل مرة كان القلب الجريح يصرخ : «هذا لا يمكن ، ولا يجوز أن يكون ، فإنه مستحيل كل الاستحالة وعلى وجه الإطلاق» ــ وقال العقل يذكره : «حذار! ، إياك والشّعوذات! فالمسألة هي أن هذا سيكون ممكناً بالنتيجة» ودفن الأمل المستعطف الباكي على عجل .

وعلى كل حال فقد كان يحتمل الأيام صابراً على حدٍّ بَيْنَ بَيْن ، وكان يخرج منتصراً في معظم الأحيان ، وفي بعض الأحيان بنتيجة غير حاسمة ، ولم يكن ينتهي إلى هزيمة أبداً .

ولكن في الليالي! حيث كانت لوعة غربة روحه المكبوتة خلال النهار ، والتي لم يُقْضَ عليها بحال من الأحوال ، تتصاعد ، في الحلم ، في حرية مطلقة ، كعمود البخار الخارج من مرجلٍ يغلي ، بعد أن رُفِعَ عنه الغطاء! ولم يكن ثمة ليلة من دون حلم ولم يكن هناك حلمٌ من دونها . وكان الحلم يُزَوِّجه بها على نحوٍ لا سبيل إلى تجنبه ، قائلاً له : «إنما أنا الحقيقة ونقيضي هو الخداع والغش» ولم يكن من الأشياء القليلة التواتر أن تحول الأحلام ، إذ يمثل كلٌ لذاته كلاً خصوصياً مكتملاً ، فاليوم هذا الحلم ، وغداً حلمٌ آخر ، كلاً ، بل كان حلم ليلة من الليالي يعود على أحلام الليالي التي

تقدمت عليه ، في رجعةٍ إلى الوراء ، مثلما يعود سَرْدُ رواية على الفصول السابقة . وكانت أحلامه تشكل سلسلة حتى لقد بات يعيش حياةً مزدوجة متكلفة . أما في الليل فكان متوحداً معها في قلبه ، يغشاه نور ابتسامتها ، وشمس نظرتها المفعمة بالحب ، يحادثها ويلاطفها ، وكانت حياته مترعةً بالسعادة الذهبية الحلوة ، وأما في النهار فحياة الآلام التي لا أمل فيها ، في كآبة هلاكٍ لا ضفاف له . رباه ، فيمَ الاستيقاظ! ألا ليت خيبة الأمل لا تنبعث أبداً! ألا ليت جنون الحلم السعيد يواسي النهار أيضاً!

وقال الخيال : «لو كانت المسألة تتمثل في هذا فحسب ، إذاً لأمكن علاجه عما قريب» . وما هي إلا واحد ، واثنان ، وثلاثة ، وإذا هي قد نصبت صندوق الدنيا وبدأ العرض : استحالات واقفة على أقدام الأكاذيب ، على أنها استحالات يمكن تصورها على أية حال ما دام المرء يغض النظر على أقدام الأكاذيب .

وكانت عجوزٌ تقف على عتبة بابه ، قد ولى جمالها وتفرق أصدقاؤها وعُبّادُها وعينُها الخامدة تسأل صدقة حب . وقالت نظرتها شاكيةً : «وأنت أيضاً بالطبع ما عدت تعرفني بعد أن أصبحت طاعنة في السن ودميمة» .

غير أنه صاح : «تويْدا ، يا عروسي ، عبثاً تجتهدين في إخفاء الشباب الخالد لجمالك تحت قناع الشيخوخة المستعار ، لأنه يكشف عن أُبَّهة الظهور الذي ينتشر شعاعه من حولك . ولكن لماذا تقفين على العتبة في نظرةٍ ذليلة ؟ أنظري ، إني أجثو على ركبتَيَّ بين يدي سُمَوكِ في خشوع» .

وأجابته تويْدا قائلة : «يا لأُعجوبة الرحمة! اليوم وقد أصبحت مسنةً ودميمة يتهيّأُ لي من الحب الصادر عن قلب واحد أكثر مما تهيّأ لي من قِبَلِ كل البشر مجتمعين في حياتي كلها» .

وضحك الخيال قائلاً : «أترين ذلك ، أهذا يُعجبُكِ ؟ » وواصل عبثه . ووجدها راقدةً في سرير المرضى وقد شوهتها الحبوب ، وغادرها أقرب الناس إليها إذ باتت مصدر اشمئزاز للناس . أما هو فقد تقدم منها في خشوع مثلما يتقدم المرء نحو هيكل .

وقال يلوم الخيال : «وبالمقابل فإن هذه لا تُعدُّ صورة جميلة»

«على أنها لا يفترض أيضاً أن تكون جميلة ، لأن هذا هو الجميل فيها على أية حال ، وهو أن حبك يتفوق حتى على الاشمئزاز . ومع ذلك فلْتنتظِرْ ، فلَديَّ شيءٌ آخر» وواصل عبثه . ورأى امرأة فاسقة ، قد أدانها العالم ونبذها ، وبصق عليها ، متهالكةً على الشراب ، تتقلب على الأرض في سِكْرها . وقال فيكتور يشتم غاضباً : «بُعْداً لكم وسحقاً ، تحاملي على نفسك! يا له من عرض جنوني مُعيب! أنتِ المهذَّبة ، الطاهرة ، السامية!» . وقال الخيال بصوت كالصغير :

«ولكن ، إذا كان ذلك ؟ قل لي بصدق ، هل كنتَ خليقاً أن تركلها بقدمك ؟ هل ستتقدم على هذا ؟ أتلوذ بالصمت ؟ لابأس ، لقد بتُّ أعرف الآن ما يكفي . وأخيراً فإن لديّ أيضاً أشياء شتى أيضاً بأسلوب آخر . هل يعجبك ، يا ترى ، لعبة ورق شفافة ؟ كلاّ ؟ يا للأسف ، أنت الآن على غير حق ، ففي هذا أشياء صغيرة جميلة كالأعاجيب . إذاً فأنت تفضل ، على ما أظن ، شيئاً جدّياً ؟ نعم ؟ حالاً» .

وعرضها عليه أرملة في ثياب الحداد .

وإذا هو يطرح في غضب مفاجىء ، صندوق الدنيا على رأسها . أكان لا بد له في هذه الأثناء أن يحبها حبّاً جنونياً حتى جرؤ خياله على أن يقدِّم إليه هذه الصور الفظيعة! وكانت ذكرى أنه كان فيما مضى تُتْرَك له الحرية في

اتخاذ القرار ، وفي مقايضة الجحيم الحاضر بالسماء ، وأن السعادة ظلت تروح وتغدو على بابه طوال ستة أشهر طوال ، في انتظار إذنه ، والتقدير المتضمن أنه لم يكن يستطيع أن يحظى بمجرّد ميلها الكريم الذي كان يبدو له الآن ذروة الرحمة التي لا يوصَل إليها ، بل كان يستطيع أن ينال مجمل شخصها ، جسداً ، وحبّاً ، وحياة ، بكلمة واحدة ، تطبع عذابه بطابع مأساوي . وكانت هذه الذكرى تعبر به فتمر بالتوبة على مقربة بالغة منها ، ومع ذلك فلم تكن تلامسها ، ولا لحظة واحدة . فطوبى له! لأنه لو ندم لما أنقذه شيء من اليأس ، كلاّ ، لم يكن يندم ، على الرغم من أن الشوق كان يمزق قلبه كما يمكن أن تفعل به كمّاشة . ومن أجل ذلك لم يكن يشعر ، حتى في حالة أشد صراخ قلبه إثارة للتفجع أنه امرؤ تعيس أو حتى غير سعيد . وكان ثمة شيء كالمجد يتألق حول ألمه ، يحاكي مجد الشهيد الذي كان فمه يصرخ باكياً في الحقيقة أثناء التعذيب ، وكانت أعضاؤه تقاوم الجلاّد ، ولكنه كان هو نفسه يؤمن بربه ، في الوقت ذاته ، وهو مسرور . وبذلك ارتفع شعوره إلى مستوى الهوى الجارف . وكانت روحه كأنما تخطو بحذاء سميك النعل للغاية ، وكان فكره يموج في إيقاع منتظم ، وأصبحت نظرة عينه التي كان الألم المأساوي يأبى عليها ، بأية دمعة كانت ، نظرة وَجْديّة ، إلى درجةٍ بلغ منها أن طبيباً للعيون استوقفه ذات يوم في شارع مفتوح يلتمس منه أن يأذن له في توثيق الظاهرة الغريبة المدهشة .

ولكن حيثما يزدهر الوجد يتنامى الإغواء أيضاً ، وقد عَرَضَت له ، هو أيضاً ، ساعة الإغواء .

كانت أسرة المدير تحتفل في هذه الأيام بعيد ميلاد طفلها الصغير كورت ، وكان فيكتور ، على الرغم من أنه كان في العادة لا يمكن

تحريكه من أجل إنسان سواه (وهو إنسان مضحك! فلم يكد القوم يقولون إن كل شيء على ما يرام حتى عاد من جديد يلعب دور المعتزل! ») يرى أن من الملائم أن لا يكون غائباً في هذه المناسبة ، وتمّ عرض تمثيلية رمزية ، تفتّق عنها ذهن كورت الآخر ، الخال والعرّاب للطفل المحتفى به في عيد الميلاد (وذلك أن هذا الإنسان العبقري كان يبتدع الأشياء كأنما يخرجها من كمه ، على حين يحتاج الآخرون من أجلها إلى أسابيع وشهور) حيث أسند إلى الأم ، أي زوجة المدير ، دور جنّية فنطقت بأبياتها التي لا تجدي شيئاً ، وهي في ثوب أبيض وقد عُلِّق عليها جناحان قويّان ، وحُلِّت خصلتا شعرها السوداوان وعلى جمجمتها تاج صغير من الرقائق المذهبة واستخرج قلبه ، حتى أثناء العرض ، بالنظر إلى الظهور العلوي بالثوب السماوي ، ملاحظات متمردة : « ها أنت ترى ، أيها المسكين ، الذي يخاف من الزواج ، ما ضيّعتَ بهزلك » . وعندما لبثت تويْدا بعد ذلك في ثياب الجنية ، بعد الفراغ من التمثيلية ، فبات يختلط بذلك دور الربة والزوجة البشرية ، أي الدور المسرحي والواقع ، وبات الطفل يُدارُ به حولها وكان السلام المبارك يشرق من جبهة الأم التي كانت تتلقى التهاني ، فتبارك المكان والساعة وكل وجود باللطف والفضيلة ، هنالك أخذ قلبه في ثورانٍ سخيف عابثٍ ، غير معقول ، لا يُكبح جماحه ، لم يسبق له مثيل من قبلُ أبداً في كل حياته فقال : « ولو أن كل آلهة السماء ، وكل ديانات الأرض ، وكل الواجبات ، وألوان السمو ، والحكمة صرخن بي مجتمعاتٍ ، لقلت في وجوههن : لا يوجد في الكون قيمة ترجح امتلاك الحبيبة ، ولا أجر في السماء ، ولا في الأرض يعوّض خسارة هذه الجوهرة النفيسة . ومن أتيح له أن ينال هذه الجائزة وأعرض عنها في ازدراء ، ولو كان ذلك بأمر الرب القادر على كل

شيء شخصياً ، فليس بشهيد ، ولا بطل ، بل هو مجنون ، ببساطة ، بحكم العقل والحق . ألا فَلْتَسْحقك اللعنة» .

وإذا هو يسرع عائداً إلى حجرته ، وينادي ، في محنته ، سيدته الصارمة ، على نحو لا يختلف عن الكيفية التي ينادي بها المؤمن ربه .

وقال متنهِّداً : «النجدة! ، ما عدتُ أقدر على ذلك وحدي . فالصديقة التي عقدتِ خطبتها عليّ ، ابنتك ، التي زوَّجْتِنيها ، فربطت بيننا إلى الأبد بكلمتك المجيدة ، إيماغو ، عروسي ، وزوجتي ، لا تعرفني ، إيماغو تمرّ بي ناظرة إليّ وتتجاوزني ، أيْ سيدتي ، لا تسيئي فهم صرخة قلبي المعذَّب ، فما من ندامة تلطِّخ الرغبة التي تختلج في نفسي الدامية . رُدّي مسيرة الزمان إلى الوراء ، واطرحي عند قدميّ للمرة الثانية ، خيار الفصل . فسوف أُحجم وأزهد مرة ثانية ، أجل ، هذا ما سوف أفعله . وسوف يسرّني أيضاً أن أعاني واستغني ، في كآبة ، ولكن بإيمان وسرور . ولكن لماذا يكون هذا بهذه الفظاعة ، يا تُرى ، ولماذا يكون لا إنسانياً إلى هذا الحد . أوَ يكون من قبيل الجريمة التي لا مثيل لها ، يا ترى ، أن يكون المرء عظيماً ، وهل أُعاقب على ذلك بعقوبة فوق طاقة احتمال البشر ؟ إذا جاز أن يكون ذلك فخفِّفي الكلمة الصادرة في لعنتي ، ولتفتحي عينَيْ ابنتك لكيلا تنكرني كل الإنكار ، وأوصيها بأن تسميني صديقها النبيل ، وأن توليني على الأقل نظرة الذكرى ، نظرة واحدة ، ولتضعي ذلك في قلبها ، ولتأمريها بذلك وإذا لم يكن من الجائز أن يكون هذا فهبي لي عونك وتأييدك لكيلا أنهزم» .

وإذا هو يخيَّل إليه كأن ظلّ السيدة الصارمة يحوم في الحجرة ، ونهض قائماً وقد أحسّ بالقوة ، وعانى ما كان عليه أن يعاني .

تَشَنُّجات وأوهام

وفي هذه الأثناء كانت قد حلت أيام احتفالات الشتاء ، وعيد الميلاد بوثبته السريعة وبعده اليوم الأخير من السنة الذي يزحف مقبلاً على مهل . وكان من البدهي أنه كان ينأى بنفسه عن الناس في كل مكان ، إذ لم يكن هناك ، على أية حال صديق يمت بصلة إلى حكايات عائلية تفجرّ الدموع ، والحكايات التي تبعث على التفكير (« حيث يمر الناس بعضهم ببعض طوال العام كله ، وهم يخورون كخوار البقر ، ويتجوّلون في الأسواق في ليلة عيد الميلاد ، إخوة ظرفاء ») ، ولم يكن يحتاج في الوقت الحاضر إلى شموع من الشمع حقاً ، ليعلم كيف تكون الكآبة .

وفي مقابل ذلك ، لم يكن يجوز له أن يُخجم عن زيارات المجاملة المألوفة في صباح رأس السنة الجديدة ، من باب اللياقة . وهكذا قام بالجولة على النحو اللائق ، حيث أجّل أصعب الجولات ، وهي مسيره إلى السيدة شتاينباخ وإلى المدير وزوجه ، إلى النهاية .

ولم يكن يشعر بالارتياح وهو يرتقي الدرجات إلى بيت السيدة شتاينباخ ذي الحديقة الذي كان يألفه . ولم يكن له بدٌّ أن يقول لنفسه : « سيكون من الصعب أن أخرج من ذلك دون عبارات تعريض وإيذاء ، أو على الأقل أسارير وجه تعبرّ عن اللّوْم » . غير أنها استقبلته من دون شيء من هذا كله ، بمودة لا ارتباك فيها ، وكأنه قَدِمَ إلى هنا بالأمس ولم يمض

على مُكْثِهِ بعيداً ربع عام ، وكان أقصى ما في الأمر أن استقبالها كان أكثر تحفُّظا .

وقالت تروي له وهي تبتسم : «لقد استطلعت شيئاً من أمر مستقبلك في ليلة اليوم الأخير من السنة ، وأنت تعلم ذلك ، بالرصاص المنصهر في الماء ، ولكنني أعتقد على كل حال أننا إذا سلّمنا بأن النبوءة كانت في صالحك ، ففي وسع المرء أن يضفي عليها المصداقية وهو مسرور . وما روته النبوءة عنك فأنا أصدّقه فعلاً ، وهو أنك ستحظى ذات مرة بزوجة ظريفة ، وفيّة ، متواضعة قليلة المطاليب تُؤْثر على نفسها ، وستكون صبيّة وجميلة ، تتوجه عواطفها نحوك من كل قلبها ، وتحول حياتك إلى بهجة وسرور ، وسيكون لك فوق ذلك أطفال ظرفاء ، طيبون يشتهي المرء أن يتشمّمهم ويقبّلهم ـ وجملة القول أنك ستكون سعيداً .

وقال مكرِّراً ، في حزن عميق : «أنا ؟ أكون سعيداً ؟» .

«أجل ، ستكون سعيداً ، بل ستبلغ في الحقيقة ، من السعادة كل ما يمكن أن يبلغه إنسان على وجه الأرض ، وعلى الرغم من أنك ربما كنت لا تصدِّق هذا في هذه اللحظة ، فإنني أشعر به وأعلمه . سوف تكون سعيداً ، لأنك تنطوي على الموهبة المؤدية إلى السعادة . وهل تعلم ما أنا فاعلة ؟ إنني أحب زوجتك المستقبلية منذ الآن من دون أن أعرفها ، ولست أدري هل أشهد ذلك ، ولكنني آمُله ، ولو شهدته لكانت أجمل ساعات حياتي ، وإذا لم يُقدَّر لي هذا ، فأبلغ عروسك العزيزة تحياتي القلبية ، وقل لها إنني أباركها من أجل كل الرقة وطيب القلب اللذين ستعاملك بهما» .

«زوجته ، وعروسه» أي كلمات هذه ، وأية تصوُّرات! وتابع سيرته ، وقد أغرقه الحزن ، مذهولاً ، إلى المدير وزوجه .

وقابلها في حجرة الاستقبال ، وطفلها في حضنها ، وقد استثارها السرور من أيام الأعياد ، والهدايا والزوّار . ومدّت إليه يدها ، في مودة صادقة ، وعلى شيء من الاسترخاء ، مصحوبة بتحية العام الجديد المألوفة ، قائلة : «أتمنى لك الكثير الكثير من السعادة ، والصحة ، في العام الجديد ، وكل ما يروق ويطيب» .

هذا شيء قالته «هي»! و«هي» تمنّت له السعادة ، واستحوذت عليه نوبة مفاجئة من ألم لا عزاء معه ، فغادر الحجرة من دون أن يردّ التحية ومن دون وداع («إن فيكتور لإنسان مضحك على نحو واضح جليّ) ، واندفع منطلقاً في الأزقة الجانبية ، ثم في ضواحي المدينة ـ يا للمدينة التي لا نهاية لها ، ويا للبشر الذين لا يحصى لهم عدد ، ويا للنظرات الفضولية! ـ إلى الغابة المُنْقذة ، ومع ذلك فلم يصل إلى الغابة ، لأنه لم يكد يلاحظ حوافَّ أشجار الصنوبر المضيافة حتى خرّ على الأرض ، في وسط الثلج ، فريسة لانتحاب جنونيّ . هنالك لم يكن ثمة تمالك ، ولا مغالبة ، ولا خجل أو عار ، كمن سرى زرنيخ في جسده ، فانهار في وسط أكثر حشود الناس ازدحاماً ، وبات يتلوّى في تشنّجاته ، وعلى الرغم من أنه يعرف أن هذا أمر لا يليق فلم يكن له بدٌّ أن يرخي العنان لانتحابه . وردّ جسده قائلاً : «ذلك لأنني ما زلت حاضراً أيضاً» . وسمع امرأة عابرة من نساء الفلاحين تقول في رثاء له : «لقد مات لهذا واحدٌ من ذويه» .

منذ هذه اللحظة بات الحال كأن نهراً كبيراً اكتشف ثقباً في سد وبات يرسل أمواجه منذ الآن فصاعداً عبر هذه الثغرة . وبات ألم حنينه كله يفيض عنه الآن من خلال عينيه ، وبات لا يعيش من بَعدُ إلاّ في الدموع ، أو في ظل الخوف من الدموع . وذلك أنه كان يصارع الدموع في نوبات مفاجئة ، من

دون أي انذار وكانت أدنى إثارة تكفيه ، كرنين جرس ، أو لحن موسيقي ، أو النظر إلى طريق سارت فيه ذات مرة ، ومسير سحابة كانت تتحدث عن طفولته ودياره ، مثلما يكفي مجرد طنين ذبابة لإحداث تشنج العضلات عند مريض الكزاز ، ربّاه! هل من موضع يهرب إليه الإنسان ، ليبكي من دون أن يلاحظه أحد أو يواسيه ؟ ولماذا لا تُسَوِّرُ الدولة أماكن مقدسة للمحزونين لا يجوز لأهل الفضول أن يقتربوا منها ؟ إن المرء ليتمتع بالكثير من الحقوق غير ذات الجدوى ، فلماذا لا يتمتع بحق ذرف الدموع ؟

وكان يشعر في أوقات تَوَقُّف النوبات بليونةٍ ورقة مثل ناقه من مرض ، وبرغبة في وجوه البشر الطيبين ، ولكن على أن يكونوا غرباء لم يُلحقوا به أي لونٍ من الأذى ، ويشعر بالامتنان لتحية ، ولكلمةٍ غير ذات أهمية ، بل يشعر بالامتنان لمجرد أن امرءاً مر به من دون أن يسبب له ألماً . من أجل ذلك كان يجتنب معارفه ، وكان يلتمس في مقابل ذلك أماكن اجتماع الناس ، كالحانات مثلاً ، لأن رؤية الحركة ذات السمة الشعبية التي لم تكن تحفل به ، وصخب أحاديث الناس التي لم تكن تتوجه إليه ، كانت تُريحُه .

وكان بالطبع يخطىء في حسابه في هذا الصدد ، في شيء ما ، إذ كان يصطدم بواحدٍ من معارفه في الأماكن التي كان يلتمس فيها أهل القرى البعيدة . وكان من ذلك أن الوكيل ظهر فجأةً أمامه في حانة «قاعة دريهر للبيرة» ، وحمله على الجلوس إلى جانبه وقدم إليه رجلاً غريباً وهو يقول : «الدكتور ادوارد فيبر ، باحث في الأخلاق» ولم يكد الوكيل ينطق بكلمة «باحث في الأخلاق» حتى انتابت فيكتور مفاجأة جديدة في أعصابه : تشنج ضاحك ، وبلغ من عنف هذا التشنج واستحالة مقاومته أنه لم يكن له بدٌ ، من جراء ضحكه أن يصيح مهللاً بصوتٍ عالٍ ، في وسط الكثيرين من الناس ،

وبدلاً من أن يهدىء نفسه كانت دفعات الضحك تزداد عنفاً على نحوٍ مطرد ، وكان يقول : «واسمه ادوارد فوق ذلك أيضاً» - «وهل رأيت وجه تهدئة ثائرة العالم ، المتناسق ؟» ولم يبق أمامه سوى أن يهرب إلى الشارع وهو يصرخ من الضحك بينما كان القوم جميعاً ترتسم على وجوههم ، في أثره ، ملامح البِشْر ، وقد أخذتهم عدوى الضحك ، قائلين : «أما إن هذا الرجلُ مضحك» وحين ذهب في اليوم التالي نادماً ، ليُعرب للرجل عن أسفه الصادق ، وهمَّ أن يسحب حبل الجرس ، انتابته تلك النوبة من جديد ، لمجرد أن كلمة النوبة التعيسة «باحث في الأخلاق» صاحت به هاتفة من جديد ، وهرب ثلاث مرات ، وأرغم نفسه ثلاث مرات على العودة في جدٍ وتصميم ، فلم يُجْدِهِ ذلك فتيلاً ، إذ كانت الكلمة السحرية الخطيرة لا تدعه يجاوز العتبة .

وكانت النوبة إذا بدأت استحوذ عليه التشنج الضاحك مثلما كان يفعل التشنج الذي يحدث ذرف الدموع ، إذ تكون النوبات قد شقت طريقها ولذلك تأخذ في استغلاله وكانت أدنى الذرائع جدوى تمثل سبباً وجيهاً عندها . كان يرى دجاجة تشرب الماء وكانت الدجاجة ترفع في أثناء ذلك جفنيها السفليين إلى الأعلى ، وتَرُدُّ رأسها إلى الوراء ، فتكون النتيجة ضحكاً مُدوياً مع التأوه . وقرأ في كتاب أن ثلاثة من الطحانين كانوا يجلسون إلى مائدةٍ في حانة ، فنشأ عن ذلك انتحاب ضاحك صاخب ، وليتصور المرء فحسب : ثلاثة من الطحانين البيض ، بعضهم إلى جانب بعض!

«واعجباً ، يا كونراد ، لكم تغيرت مع صاحبك فيكتور!»

«أجل ولكن ماذا كنتم تظنون بي أيضاً ، في صدد هذا كله ، منذ أربعة أشهر» .

وذات صباح ، إذ كانت الساعة قبل الحادية عشرة بقليل ، انبثقت فكرةٌ مضيئة تلقاء عينيه ، في إتجاه قائمٍ مثل صاروخ : «ما دام الفضل يبعث الراحة في قلبك ، فلماذا لا تتوجه ببساطة ، إليها ، إلى ينبوع الفضل ؟ إن الطبيب الذي سبب لك الألم ، سوف يشفيك ـ فلا تكن عنيداً شامساً! ففيمَ قلقك ؟ ومن عساك تخاف ؟ منها ؟ إن المرء لا ينتابه سوءٌ من أناس طيبين . أم من نفسك ؟ رباه! لقد أصبحت الآن ضئيل الشأن بالغ التواضع والقناعة! فلتحاول ذلك ، فليس من قبيل التجاسر الخطير ، أن يزور المرء سيدة هو على صداقة معها ، فلقد طالما ترددت عليها ، هناك ، من دون أن تقطع رأسك ، ولماذا لا يكون الإقدام على ذلك اليوم مثل الإقدام عليه غداً! أم أن لديك سبباً يحملك على تفضيل الغد ؟ »

«أما هذا فلا . وسواء أكان ذلك اليوم أم غداً ، فهو خليق أن ينتهي إلى الشيء ذاته ، تماماً »

«إذا كنت مع ذلك تزمع الذهاب اليوم ، فلا يحسن بك أن تفوِّت الوقت ، فإنه وقت الزيارة الصحيح على وجه الخصوص» .

«أنتِ فكرةٌ بارعة . ولكن دعيني أفكر في أمري تفكيراً عميقاً ، لأرى هل يُعدُ كل شيءٍ متوازناً في الداخل أيضاً ، لكيلا يهيىء لي كونراد مفاجأة بفنونه التي تثير الأعصاب» وجعل يختبر نفسه ، كان الهدوء يسود هنا وهناك ، في دمه وفي أعصابه ، وما من شيء يثير الشبهة في أي مكان . وهكذا ذهب إليها ببساطة وبغير مبالاة .

كانت تجلس وحدها في الحجرة ، إلى منصة الخياطة . ولم يكد بصرها يقع عليه حتى تألقت كل الأشياء كأنما باتت ينظر إليها من خلال البلور الكريستالي ، ثم أخذت تتذبذب وتدور ، بسرعة مطردة الزيادة ، ثم ما عاد

يعرف شيئاً سوى أنه خر راكعاً عند قدميها ، في طوفان عاصفٍ من الدموع ، يقبل يدها في اندفاعٍ شديد . ثم انتابه الفزع من جراء ذلك فانتفض قائماً وقد تولاه خجل عميق ، وهمَّ أن يندفع خارجاً من المكان .

غير أنها أمسكت بذراعه ، في تفضُّلٍ رحيم ، وقالت : «إلى أين تسرع ؟ وبماذا تريد أن تبدأ ؟»

وتنهد قائلاً : «وما يدريني ؟ سوف أقتل نفسي خجلاً حتى الموت ، في كهفٍ ما من كهوف الغابة» .

«إذاً فلا يحسن بك أن تذهب ، تعال ، فإني أريد أن أغسل عينيك» وقادته إلى حجرة النوم وقال صوتها يطيب خاطره : «لم أكن أعرف من ذلك شيئاً ، ولم تكن لديّ فكرة عن هذا ، لم أكن أعرف على الأقل أن المسألة تبلغ هذا المدى من العمق ، أتُراني ارتكبت ذنباً ما ؟»

وهزّ برأسه ، غير قادرٍ على الكلام ، واحتمل غسيل العينين فاقد الإرادة ، مثلما يحتمل المرء عمليةً جراحية . وكان يقول من حينٍ إلى آخر ، متنهداً : «يا للعار ، يا للشنار!»

وقالت تواسيه : «ليس من العار ، بلا ريب أن يحب المرء امرءاً آخر! فليس للمرء حيلة في ذلك أبداً . أم تراني بلغت من السوء ما يجعل حب امرىءٍ لي عاراً وشناراً ؟»

هنالك عض على شفتيه حتى نزف منهما الدم .

وكان الطفل في مهده قد أفاق من جراء ذلك ونهض قائماً ، وجعل ينظر بفضول . وأخرجته أمه من سريره ، وقالت له : «ألا ترى! ههنا رجل مسكين يؤلمه شيء ما ألماً رهيباً ، ولكن ما من أحدٍ أساء إليه إساءة ما ، وما من

أحدٍ يريد به سوءاً ، وإنما يسبب هو لنفسه الآلام ، لأنه يرسم لنفسه ، في مخيلته أشياء ليس لها وجود » ـ وقالت تذكره مودِّعة : « أليس كذلك ، سوف تعدني بأن لا تقدم على شيءٍ متهور ، إذا كنت تحبني حقاً فلا بد لك أن تعدني بهذا ، فإني أريده ، وأطالب به . وأفضل أن تأتي إلينا مرة أخرى فنحن نريد أن نشفيك ، وعندما تتعرّف عليّ بمزيد من الدقة ، سوف ترى بنفسك عما قريب ، بما فيه الكفاية ، أنني لست على الإطلاق شيئاً نفيساً ، أو لا يعوض ، كما تتخيل» .

وقال شاكياً في طريق العودة إلى البيت : « أأبوح لها بحبي! هذا يعني أن أسلم لها نفسي بغير دفاع! وجملة القول أنني خسرت كل شيء فقد تصرَّفت مثل مساعد صيدليّ شاعر ، أو مثل شقي من الأشقياء في الروايات . دموع وتقبيل يد ، وجُثُوٌّ على الركبتين ، ولم ينقصني نوعٌ من الأفعال التي تعرض المرء للضحك . أَوَ كنت أنا هذا ؟ ياكونراد! وهذا الرثاء! هذه المواساة الرحيمة! أي شيء أصنع الآن في هذه الدنيا ؟ »

ورد عقله قائلاً : « لا شيء ، المهم أن تظل سليماً معافى ، وكل ما تبقى يستقيم أمرهُ فيما بعد من جديد » .

« ولكن الإذلال وتعريض النفس للمهانة! »

« إذا لم يكن هناك تعريض للمهانة أكبر من الخضوع للحب! »

وربما كان العقل على حق . ثم إن المسألة كانت قد حدثت الآن وقضي الأمر . وهكذا ترك الأمور تجري على أعنتها كما يطيب له . ألم تقل : « نريد أن نشفيك ، تعال إلينا مرة أخرى فحسب » ؟ .

أما أنه كان ينبغي له أن يستجيب إلى طلبها بالعودة إليها فذلك أمر لم

يكن فيه شك ، بالقياس إليه . أم هل يتساءل مريض تناول ، بعد ألوان من العذاب لا تحتمل ، وسيلة مُسَكِّنة للألم آخر الأمر ، هل يريد أن يعود إلى تناول الدواء أم لا ؟ على أن للألم على أية حال درجات ، لا يكفي عندها الزُّهُوّ بالنفس والشعور بالخجل ، ولا يعود هناك محلٌّ إلاّ للفكرة الوحيدة : «النجدة» مهما تكن الوسيلة ، ومهما يكن صاحبها ، أو من تتم عن طريقه . لقد أحسّ بالصوت الحبيب ، والكلمة الطيبة في حديثها المفعم بالرحمة . فيا له من صوت! ويا له من حديث! لقد لامست بيدها هي ، محيّاه ، ومرّت بذراعها على وجنته ، فأي حاجة بعد ذلك إلى التفكير ؟ هناك العزاء ، والخلاص ، والحياة ، وما عدا ذلك من الدنيا فهو سَقَط المتاع .

وهكذا انطلق إليها منذ الصباح التالي ، مرة أخرى ، وفي الصباح الذي تلاه ، من جديد ، وهكذا دواليك ، في صباح كل يوم . وفي كل مرة كان يجدها عند منصة الخياطة وحدها ، وكان يباح له دائماً أن يقول لها إنه يحبها . فيا لها من تَسْرِيَةٍ! لقد بات يتاح له ، بدلاً من أن يبكي آلامه بعيداً عنها ، في غابة الصنوبر الباردة ، أن يعترف بها لإنسانة دافئة المشاعر ، لها هي ، وأن يدع آلامه ينسكب عليها ضياءُ عينيها الجميلتين ، وأن يستبدل بها كلمات تعبِّر عن الاهتمام والمشاركة ، ونظراتٍ تنمُّ عن المودّة! ومثلما يهدّىء المرء ذَرْف دموع الطفل عن طريق النفخ عليه والكلمات التي لا تعني شيئاً ، كانت أقل كلماتها دلالة ومعنى تعود عليه بالمواساة والتخفيف من جَراء مجرد جَرْس الصوت الذي كان يتوق إليه ، حتى لقد تخلَّص ، منذ الزيارة الثانية من محنة الدموع ، ولم يكن ذلك يختلف في شيء عمّا لو كانت الشوكة قد سُحبت من جُرْحه . وكان الالتهاب يتناقص مع كل مرة جديدة . لقد قالت له : «نريد أن نشفيك» ، ولقد تبيَّن أن الأمر كذلك بالفعل .

بل سرعان ما أصاب نجاحاً ـ وكان في الواقع يتمتع بموهبة السعادة ـ في الوصول إلى الارتياح والرضى والاغتراف من معين السعادة عن هذا الطريق ، بالاستناد إلى الامتياز المتمثل في المُكْثِ معها وحدها كل صباح ، والإفضاء إليها بحبه ، ذلك لأنه يتمتع بالسعادة على الدوام حين لا يكون ثمة شيء يؤلمه ألماً لا يُطاق . وما له لا يكون راضياً مسروراً ؟ فهو يتمتع في كل يوم بساعة من حضورها ، في جَوٍ من الصداقة والوئام ، إنه نوع من الظهور الجديد ، على مستوى أعلى ، وهذا يتم فوق ذلك من خلال سرّ مشترك ، هو سِرُّ حبه ، مرتبطاً معها ـ ومن تُراه كان يتمتع بمثل هذا القدر الكبير من بين سائر الخلق ، باستثناء الوكيل وحده ، وهو الذي لم يقصد قطُّ إلى تضييق نطاق حقوقه ؟ ولم يكن يهمه كونها تحبه أو لا تحبه ، بل لم يكن يهمه ذلك ، ما دام ، وهو الناضج في مرحلة مبكِّرة ، قد وَطَّن نفسه منذ أيام موغلة في البُعْد ، على قناعة مفادها أن خلاص الإنسان أو عدم خلاصه لا يأتيان من الخارج ، بل من الداخل ، وأن المظهر يؤدي من العمل مثل الذي تؤديه الحقيقة ، بل يؤدي المظهر على الأغلب إداءً أفضل . ولم يكن يحتاج إلى حبها ، بل إلى حضورها ، لكي يرتوي قلبه الظمآن من مرآها ، ومن صوتها ، ولفتاتها وحركاتها . ذلك لأنه مثلما كان يتقبل منذ عهد بعيد حتى الآن ، بسرور ، كراهيتها واشمئزازها عندما كان يباح له ، في مقابل ذلك ، أن يصحبها إلى البيت ، ويحبسها ، ويحجزها لدى الجدار . «فلتضربي بيديك ورجليك بعصبية ، ولْتُوَبِّخي ، ولتلعني ولكن ظلّيّ معي» .

وبات يحظى الآن من هذا الحضور ، من دون أن يستعمل العنف ، ومن دون أن يضطر إلى خطفها ، وشدِّها إلى الجدار ، وبموافقتها المبنية على الموادعة : بجزء قيمٍ مؤمَّن كانت هي تدخِّره له بعناية واهتمام ، وتحميه بأن تتجنب كل تكدير للصَّفْو بفظاظة ، وتصرف كل مُتَدَخِّل من طريق مختصر ،

ولم يكن يسمح بالدخول حتى لأخيها ، حتى لقد بات يشعر ، كأنما هو متزوّج منها ، زواجاً سرياً في الحقيقة ، إلاّ أن ذلك يزيده حلاوة .

وعن طريق السُوَيْعة الخصوصية ازدهرت بينهما من ثّمَ علاقة رفيقين . ولم يكن حبه ، الذي بات الآن يفترض بحكم البَدَهية ، في حاجة إلى التعبير عنه على الدوام ، من جديد . إذ تَنَزَّل إلى خط المحن السفلي من أجل المواكبة الانسجامية ، وكان يهيمن على الحالة النفسية في الحقيقة ، غير أنه كان يفسح مجالاً للأحاديث وضروب التسلية الأخرى التي كانت تتحوّل بعدئذ إلى المستوى الأعلى ، المسهب الحماسيّ ، مثل النوطات الناشزة ، تبعاً للمزاج . وكان في وسعهما أن يتحادثا مثلما يتحادث الأخ مع أخته ، وأن يتأملا المجلات الفنية ، وأن يعزفا على البيانو بأيديهما الأربع («لقد كنت أحسَب أنك امرؤ لا تحفل بالموسيقى ») ، أو كانت تحدثه عن سنوات فُتُوَّتها ، وتناقش معه مستقبل طفلها ، وتعرض عليه حجرات مسكنها وتجهيزاته ، بل كانا يجدان الأسلوب البسيط الذي يمكنهما من ممارسة ألوان المُزاح والمعابثة .

وقال مبتسماً : «هذه إذاً هي المرأة الخبيثة التي كانت تسبب لي الألم بقسوة بالغة» .

وقالت مهدِّدة وهي تتخذ سيماء العُبوس وتنشب أصابعها كالمخالب : « هووووه! »

وقال ، في مرة أخرى ، يمازحها : «دعيني أرى ، أنظري إليّ ، أرجوك ، مرة من جديد ، نظرة تنطوي على مثل ما كنت تكنّين لي من العداء فيما مضى» ، وقالت رافضة ، ببساطة ، وصدق وحسن طوية : «هذا شيء ما عدت قادرة عليه الآن» .

وحين رفع لها عن الأرض ، ذات مرة ، إبرة سقطت من يدها ، بسرعة البرق ، أطلقت عليه اسم «السيد فون فولتسوجن»* ـ وردّ قائلاً وهو ينحني أمامها : «مدام فون شتاين»** .

وحين لامس إصبعها الصغرى عن غير قصدٍ أثناء العزف على البيانو ، خلسةً ، لطمته على يده ، وحين تلفَّظ أثناء حديثه بمثلٍ فجٍ غير مستحب ، لطمته على ذراعه . وذات صباح انقضت عليه بوثبة كوثبة الفهد من الخلف وأمسكت بخُناقه ، بحرارة ، وقالت له وهو مذهول : «عيد القديس الذي تحمل اسمه» .

ولم يكن هناك إلاّ هاجس واحد يسبب له شيئاً من عدم الارتياح بين حين وآخر : أين يتخلَّف ، مع هذا كله ، صديقُه الوكيل ؟ ولماذا لا يُرى أبداً ؟ ولماذا تُوفِّق إلى الخُلوة في جوٍ من الألفة يوماً بعد يوم ، على الرغم من أنه كان يُسمع في الطابق الأعلى أحياناً وقع أقدام تنتعل خُفَّاً ، ويُرى دخان تبغٍ يتسرب من خلال الشقوق ، مثل نبوءةٍ تنطوي على إنذار ؟ كان التكتُّم الذي كان حلو المذاق بالقياس إلى قلبه ، لا يَلَذّ لضميره حقاً ، وإن لم يكن يحدث ما يسوء . ولم يكن يستطيع ، من ناحية أخرى ، أن يقرع الباب على حجرة الدراسة في الدور العلوي ويعلن عن مجيئه : «سيدي المدير ، هل تعلم أحدث الأخبار ؟ يشرِّفني أن أحب السيدة زوجتك وأتفانى في حبها ، على أن في وسعك ، بالمناسبة ، أن تنام قرير العين ، على أي جَنْب شئت ، لأننا بريئان مثل حَمَلَيْن من حِمْلان عيد الفصح ، أحدهما أبيض ، والآخر أسود» . كلا ، فقد كان ذوقه يتذمَّر من مثل هذه الاستقامة . فهناك على أية

---

* E Von Wolzogen (١٨٥٥ ـ ١٩٣٤) . منشد ، ومؤلف موسيقي ومخرج ، كتب أقاصيص فكاهية ومسرحيات هزلية .

** شارلوته فون شتاين ، صديقة جوته (١٧٤٢ ـ ١٨٢٧) . «المترجم»

حال أمور تعدُ ، على الرغم من كونها بعيدة عن الخبث ، بل هي أحرى أن تتسم بالسمو والنبل ، من الأمور التي تقتضي الكتمان وذلك لأنها تتجرد من قدسيتها من جراء مجرد اطلاع طرفٍ ثالث . «وأخيراً فهذا أمر يعنيها ولا يعنيني أنا ، إذ أنه زوجها هي لا زوجي . أي إذا كان ضميرها يحتمل ذلك... » .

وبعد أن دام هذا نحو أسبوعين ، تغير سلوكها ، وذلك أنه بات غير واضح ، أو متقلباً ، ومتعارضاً ، وما عاد يجدها أبداً مرةً أخرى على النحو الذي غادرها عليه في اليوم الذي سلف . وفاجأته انتكاسات عادت بها إلى سوء ظنها القديم . وكان من الجلّي أن ثمة ألوان من الوسوسات قد نشطت ، وهي على الأرجح من قِبَلِ صديقات وربما كانت أيضاً من قِبَلِ حاسدين وغيورين .

وقالت ذات مرة تلقي إليه بكلامها من دون أي باعث على سبيل التعريض ، مصحوباً بنظرة ذكية بارعة : «إذا لم يصب المرء نجاحاً باللهجة القاسية حاول ذلك باللهجة اللينة» . وكانت تميل بناءً على ذلك إلى أن تعُدّ ، في هذه اللحظة على الأقل آلام القلب الجنونية التي رمته على قدميها ، ضرباً من التمثيل ، ومناورة ماكرة في لعبة شطرنج!

وفي مرة أخرى ، حين حدّثها عن لقائهما الأول ، أي عن الظهور ، جرى الحديث التالي : قال يسألها : «قولي لي بصدق هل أحببتني في تلك الأيام حقاً أم لم تحبيني ؟ » .

وهزّت برأسها وقالت : «كنت أعدُّك امرءاً غير مخلص» .

«وكيف وصلت إلى هذه الفكرة الجُزافية ؟ » .

«لأنك تملقتني بقدرٍ كبير من ضروب التملق المنطوي على المبالغة» .

«لم أقل لك أبداً كلمة واحدة من كلمات التملُّق ، وكل ما قلته إنك جميلة جمالاً لا يوصف ، وإنني أمجِّدك مثلما يُمَجِّد رمز للألوهية» .

«وهذا هو ما أعنيه : أي مثل هذا اللغو الحلو الممجوج ، فهذا شيء يمكن أن تكون له جدواه عند نساء الزيّ السائد المغرورات الفارغات ، أما أنا فلا» .

وضحك قائلاً : «والآن ؟ أما زلتِ ترينني ، مثلاً ، غير مخلص ، ما دمت ما زلت أجدك ، من قبلُ ومن بعدُ ، على حد سواء ، جميلة جمالاً لا يوصف ، ولم أمجدّك اليوم أكثر من أي يوم مضى ، رمزاً للألوهية ؟»

وقالت تعبّر عن شكِّها بنظرة تنمّ عن سوء الظن :«أقول لا حيناً ، ونعم حيناً آخر»

وأدرك ، وعَذَر : جرمانيا التي لا يريد أن تدخل في ذهنه . وإن الفاسق الداعر لخليق أن يكون مؤهّلا لحبّ صادق أصيل . أجل ، إنها ما زالت لا تؤمن بحقيقة حبه ونقائه . وهذا ما كان يكشف له عن بعض سمات سلوكها . ومِنْ ذلك أنه كان من الممكن ، مثلاً ، أن تأتي بالطفل من مهده ، في وسط الحديث ، وتجعله في حضنها كالدرع الوقائي ، أو كانت تقف عند وصوله ، كأنها تصدُّه ، تحت إطار الباب ، ذراعاها مبسوطتان كأنها تقطع طريق المرور . وكان عيناها تهددانه كأنما تقولان : «أيها الذئب ، لا تقتحم حَرَمي الصغير» على أنها كانت تدعه يدخل آخر الأمر .

وفي مرات أخرى كانت حواء تتحرّك في داخلها من جديد . فإذا تخلَّف يوماً طالبته بالأسباب ، والتمست منه التبرير ، وإذا عرضت له في الطريق

سيدة أخرى فخاض معها في حديث ، عيَّرته بذلك ، في معنى هزليّ في الظاهر ، ولكنه مصحوب بلهجة تنم عن الحساسية ، وكان تقول له بلهجة من يلومه ويأخذ عليه مأخذاً : «سوف تتزوّج أنت أيضاً مثل كل امرىء آخر» . وكانت تقول ذلك بجرْس ينمّ عن المرارة ، ويكاد يشي بالازدراء ، وكأنه يرتكب بذلك عملاً دنيئاً ينطوي على الإساءة .

وكان من الممكن أن تعذبه حواء أحياناً . ولِمَ لا ؟ استغليّ أيام الصبا الجميلة ، فما هي إلآ سنوات ضئيلة ، قصيرة عابرة ، وها أنتذي ما عُدْتِ تستطيعين أن تعذّبي أحداً .

وكانت تتحدث ، في إطار هذا المقصد المتعفف الوَرِع ، في مرات متواترة قدر الإمكان عن زوجها ، وكان ذلك ، بالطبع ، بلهجة البراءة ، إذ عرضت عليه أحدث صورة ضوئية لها ، مكتوباً عليها : «إلى زوجي ، في عيد ميلاده» ، أو تتخيل مستقبل «ولدنا» عندما نغدو «كلانا» طاعنين في السن .

وقال يسألها : «ماذا تقصدين بقولك «كلانا» ؟

«أنا وزوجي ، بالطبع ، ومن عساه يكون سواه ؟»

ومع ذلك فقد انضم إلى رابطتهما الخصوصية طرف ثالث ، على نحو لا يلفت النظر ، وهو صبيُّها الصغير ، كورت الصغير . أكان ذلك لأن فيكتور كان يسترسل في الحديث الطيّب الرقيق معه المرة بعد الأخرى ، تعبيراً عن حبه لأمه ؟ أم كان ذلك على النقيض ، أيْ لأنه كان في البداية لا يحفل أبداً بهذا المخلوق الذي لا حاجة به إليه ؟ ومهما يكن من أمر فقد تعلّق قلب المخلوق الصغير فيكتور ، فبات يلوّح له بيديه كمن يلوّح لأبيه ، على أنه كان أباً لا يتميّز بالحيل التربوية ، فلا يحظر عليه قطُّ شيئاً ، ولا يستاء منه

أبداً ، ويظل أبداً يحدُب عليه . وعندما كان الاثنان يلعبان أحدهما مع الآخر ، أي فيكتور والصغير كورت ، كانت الأم تحجم عن المشاركة في ذلك عن قصد ، عاكفة على إطار التطريز ، مُخْلدةً إلى الصمت طوال ربع ساعة ، كأنما كانت تستكنّ عمداً في إهاب من النسيان ، وتنظر من حين إلى آخر وهي تسحب نفساً عميقاً ، وكانت كلّما رفعت طرفها تألّقت عيناها بنور داخلي روحي . وكان ثمة شيء كالصلاة يخيِّم على الحضور ، كالبركة على الأَناسيِّ الثلاثة .

وفجأة ، ومن دون أدنى باعث ، استقبلته ذات صباح استقبالاً عدائياً ، بل فظّاً على وجه الخصوص ، وكانت تحيتها الفظّة : «متى ترحل من جديد ؟ »

«لماذا ؟ هل سيكون رحيلي مرغوباً لديك ؟ »

« أجل »

« أنتِ تؤلمينني »

« وأنت تؤلمني أيضاً »

« أنا ؟ ـ أولمك أنتِ ؟ »

«أجل ، إذ تقول لي أشياء لا يجوز لي أن أسمعها ، ولا ينبغي لك أن تقولها »

«أشياء ما كنت أريد أن أقولها ، ولكنني اضطررت إلى قولها »

«لا يضطر المرء أبداً إلى الإقدام على مالا ينبغي له »

«الطبيعة لا تعرف فعل « ينبغي » ، وإنما يرجع هذا إلى قواعد اللغة

الاجتماعية عند البشر . وبالمناسبة ، إذا كنت ترغبين أن أرحل ، فسوف يحدث ذلك . وتكفي كلمة منك . فأرجوك ، ما هو أمرك ؟ هل تريدين أن أرحل ؟ غداً ؟ أم حتى في هذا اليوم ؟ »

ولبثت هنيهة تنظر إليه متجهّمة ، ثم اعتراها الاضطراب ، واستندت إلى النافذة ، وولّته ظهرها . أمّا هو فتقدم إلى الوراء إلى جانبها ، وكأن مغنطيساً يجتذبه ، ولامس ، برفق ، وهدوء ، إصبعاً من يدها المُدلاّة في استرخاء ، والتي لم تسحبها بعيداً عند الملامسة . وبذلك بات الجسدان مرتبطين ، وسرى ما يشبه التيار منه إليها وإليها منه ، فاهتزّت واختلجت . ولئن كان لا يوجد سحر روحي فقد كان هناك سحر جسدي بلا ريب .

وداهمته فكرة مصحوبة بأبواق ورنين أجراس . وقالت الفكرة تستحثه : « الآن! الآن! وإلاّ أصبحت مضحكاً ، مضحكاً إلى الأبد » .

وردّ قائلاً بحزم : « لا بأس ، فلنكن مضحكين » ، وأرسل يدها .

وإذا ضحكة ساحرة رنّانة تنفجر في داخله ، قائلة : « بطل الفضيلة! بطل الفضيلة! »

وردّ قائلاً وهو ينظر نظرة المُعْرِض المزدري : « بل متحذلق الخيانة الزوجية » .

يا لها من أرض خطرة! ويا لها من دروب لا تفضي إلى هدف! إلى أين يمكن أن تنتهي مسيرة السعادة الفتيّة يا ترى في تَرَنُّحها ؟ وهل تدوم ، على وجه الإطلاق ؟ أسئلة لا تحتاج إلى جواب . وعلى كل حال فلم تكن مهمته أن يُرَكِّب للسعادة ساقاً تسعى بها .

نهائية مفاجئة

وفي صباح عيد تطهير مريم العذراء ، حيث دأب الناس على تحية البراعم الأولى التي ما زالت غير موجودة ، توجّه ، كالعادة ، إليها : وقالت له : «زوجي في حجرة الدراسة ، هل تريد أن تجالسه في هذه الأثناء إلى أن أفرغ من ترتيب البيت ؟»

وتولاّه الذهول . أي لغة جديدة هذه! ترسلني إلى زوجها! أتراها اعترفت له ؟ أهو إيضاح ؟ فليكن ، ولنسمع ، فأنا أحسب حسابي دائماً على أساس أنني امرؤ يحق له في كل وقت أن ينظر في عيني كل إنسان .

على أن دخول الحجرة الصغيرة المشبعة بالدخان هدأ ثائرة دمه . ليس من شأن القاضي أن يدخّن هكذا . واستقبله صوت يرن في أذنيه ينم عن قلب وفيّ ، قائلاً : «مرحباً بك ، هذا أنت ، انظر ، لقد أرسل إليّ تاجر الكتب للتوّ ، من جديد ، فيلسوفاً من أكلة لحوم النساء . أنت لا تشارك في هذا على الأرجح ، أيضاً ؟ أم ما هو رأيك الآن في النساء ، في الحقيقة ؟»

سؤال صعب! وموضوع مُحْرِج! وعلى كل حال فالتزام جانب النظرية خير من الحديث الذي يعبِّر عن الوجهة الشخصية ، لأن هذا امرؤٌ بعيد كل البعد عن الحساسية . ثم إن المحادثة المتعلقة بالنساء اتخذت أيضاً مساراً وديعاً مسالماً ، وتميّزت بخطوات أصولية في التفكير ، وأحكام متَّزنة ، وتنازلات طوعية من قبل كلا الجانبين . ومع ذلك فعندما زلّ لسان فيكتور ، في غمرة حماسته في الثناء على النساء ، بجملة : «ما كنت لأرغب في

الحياة على الإطلاق من دون المرأة» ، علّق الوكيل على ذلك قائلاً بجفاف : «ولكن كل امرىء وزوجته ، أليس كذلك ؟ »

ماذا كان يقصد بهذا ؟ أهو لَفْتُ نظر ؟

وبعد ذلك ، في بعض سلاسل الحديث ، حين كان يتم تحديد حدود الأفق الأنثوي ، أشار فيكتور إلى نوعية الحكم الذي يجلب العار ، والذي يكمن في الحقيقة القائلة إن الناس جميعاً ، ومنهم النساء أيضاً يرون أن من البدهي أن دور المرأة الشابة في المسرحية لا يمكن أن يكون إلاّ دور الحب وحده ، فتحت زوجة المدير الباب بحذر ، وقالت بصوت هامس ، مترددة : «أرجو المعذرة ، يا سادتي ، إذا كنت أكدِّر صفوكما ، في حديثكما الثقافيّ . وأخيراً إيّاكما والفزع ، فسوف أتوارى خلال لحظة» . وعلى أثر هذه الكلمات سارت ، في خطواتٍ متقاربة ، إلى خزانة الكتب ، وقعدت القرفصاء على الأرض في وضع ظريف ، واستخرجت ، وهي تردّ إلى الوراء خصلات شعرها غير المنسجمة ، من بين الكتب ذات القطع الكبير وهي تنتفض بعد ذلك قائمة ، كتاباً بيدها ، في اندفاع مَرن شيق وقالت تواسيهما : «الآن تخلصتما» ، بينما كانت تهرب خارجة إلى الباب في وثبات خائفة على رؤوس أصابع قدميها .

وقال الوكيل مبتسماً : «وعلى كل حال فهن يلعبن دورهن الوحيد على نحو جيد سواء في الحياة أم على خشبة المسرح» .

وعلى أثر ذلك صدحت ضربة بيانو رَخيّة فأحدث صوتها صفاءً في جوّ المنزل . وفاض من جرّاء ذلك قلب فيكتور . وقال متنهّداً : «أوّاه يا قلبي! ما أجمل هذا وما أنقاه! وما أنبله!» وانهمرت الدموع على وجنتيه فجأة ، حتى لقد وثب قائماً على عجل ، وتوجه نحو خزانة الكتب .

وردّ الوكيل قائلاً : «هذا شيء لا أستطيع العثور عليه الآن على وجه الخصوص . أمّا أن هذا نقي وجميل ، كما تغنيه ، فما ينبغي للمرء أن يجرؤ على الإطلاق على قطعة لا يُحْسِنُها ، وتقع من قدرته موقعاً مفرطاً في الغُلُوّ» .

وهمّ بعد ذلك أن يعود بالحديث إلى ما كان عليه ، ولكن فيكتور كان مسحوراً بالغناء غير المرئي إلى حد ما عاد عنده يحسّ بشيء آخر «ألا ليتها أمسكت عن هذا أخيراً ، فإنها تغني غناءً يستخرج القلب من الجسد» .

وأخيراً أمسكت وأتيح له أن يودّع خارجاً من البيت رابط الجأش .

وقالت وهي تدع يدها تستقر في يده ، راغبةً ، في رجاء ملح : «تعال مساء الغد إلى الشاي ، وحدنا فحسب ، ولا أحد سواك وزوجي ، باستثناء شخصي الضئيل الذي سوف تضطر إلى احتماله فيما تحتمل»وأضافت قائلة بصوت هامس له دلالته : «سيكون هناك قشدة مضروبة» ، وقالت هذا بلهجة كما كان يفترض أن القشدة المضروبة تمثل السبب الرئيس للانجذاب . وكررت قولها وهي تتوعده بإصبعها : «إذاً إلى مساء الغد ، فإني أبني حسابي على ذلك»

وماذا الآن ؟ هل لاحظ الوكيل شيئاً أم لم يلاحظ شيئاً ؟ إنه لم يتعلّم من درسه في التعامل مع هذا الباشا الميّال إلى الراحة والدعة . وبهذه المناسبة سيكون من الأفضل أن يكون لاحظ شيئاً (وليس من الضروري أن يكون ما لاحظ مفرطاً في كثرته) وبذلك تخلّص من التكتّم المُمِضّ الثقيل وزال عن كاهله ، في الوقت ذاته عبء الاعتراف الممجوج . لقد جاء هذا الآن في صالحه ، وكان هذا على وجه الدقة هو ما حَسَب له الحساب منذ

الأيام الأولى : زواج منسجم متوافق ، قائم على أطراف ثلاثة ، حيث يدع هو لوكيله المخلص الوفي جسد إيماغو ، ويدع ذاك له ، على سبيل الشكر ، قلبَ إيماغو وروحها . وبذلك لا يلحق أحد منهما ضرراً بالآخر . أمّا هو فله ساعات ما قبل الظهر ، وللوكيل سائر الوقت ، على أن هذا ما كان يحق له أن يشكو من شيء حقاً ، وكان هو خليقاً أن يكون مغبوناً في القسمة غبناً فاحشاً . وعلى هذا فقد كان من المفترض أن تنعقد آصرة الرابطة الثلاثية في مساء الغد . وخطرت فكرة تهكُّمية : «على طبق مملوء بالقشدة المضروبة» . «ولماذا لا تكون القشدة المضروبة مثل الخمر» أم هل يحتاج المرء من أجل اتفاقية صادقة إلى السمّ ؟ . وفي سعادة داخلية قارن هذه القشدة المضروبة بتلك الأخرى التي لقيها عليها فيما سلف من الأيام أول مرة من جديد ، في تلك الأيام ، قبل شهور ، عند زوجة المستشار الإداري كيلر . لقد قطعت مسافة لا يستهان بها ، يا فيكتور ، ألا ترى ذلك ؟ من اللامبالاة المنطوية على الازدراء في البداية ، إلى الحرارة القلبية الراهنة! وما زلنا في البداية فحسب . فيالسعادة النظرة البعيدة!

ثم أخذ يزجي الوقت بالتجوال في شوارع المدينة مسروراً ، يغني لنفسه بصوت خافت ، ويقود بيديه أوركسترا سماوية .

وهنا لقيته السيدة شتاينباخ . وقالت تطلب إليه بعبارة موجزة ، وهي تمرّ به ، بصوت غريب : «تعالَ إليّ بعد ظهر اليوم ، فلديّ حديث معك»

ومضى في طريقه ، متكدِّر المزاج ، كأنما بوغت بوابل من مطر بارد ، ولم يكن مسيره الآن مصحوباً بالموسيقى . «لديّ حديث معك» . ولئن لم يحدس ، على البعد ما يمكن أن يثيره الحديث من شجون ، فقد كان يحس

بذلك إحساساً داخلياً بشيء باعث للضيق والانزعاج . فمن النادر أن يكون في الأمر شيء باعث للسرور عندما يكون لدى امرىءٍ «حديث مع امرىءٍ آخر» . فليكن ذلك ، فسوف أنفضه عن نفسي مثلما تنفض البطة عن نفسها الماء . وتويدا ـ إيماغو هي وحدها التي تقرر خلاصي أو ضياعي ، وكل شيءٍ معها الآن في أروع صورة .

واستقبلته السيدة شتاينباخ بوجهٍ صارم وبارد ، وقالت ، من دون أن تنظر إليه : «يا سيدي إنك لَتُعرِّض نفسك لضحك الناس» وتجهم وجهه من الامتعاض ، وقال : «بماذا» .

«أرجوك لا تمثل ولا تداور ، فأنت تعلم حق العلم ما أعنيه»

«استميحك العذر لأنني أعارضك . أنا لا أُمثل أبداً ، وليس لديَّ فكرة عما تقصدين» .

«إذاً فسوف أقول لك ذلك : إنه يتصلُ بتصرفك الآخرق واللامسؤول على حدٍ سواء ، حيال أسرة المدير» .

«هل تأذنين لي أن ألتمس منك إفادةً عما يبرر لك أن تصفي سلوكي بأنه أخرقٌ ولا مسؤول ؟»

«أليس من قبيل السلوك الأخرق أن تزعج سيدةً متزوجة بإغداق الحب عليها ، وهي التي لا تحتاج إلى حبك ، وهي لا تحفل به أبداً ، ولا تستطيع أنت في أقصى الأحوال سوى أن تستجدي فُتات الرثاء ؟ أوَ لا يفترض أن يكون هذا من السلوك الأخرق! أما قولي إنه سلوك لا مسؤول ، أو إنه سلوك لا يحق لك أن تسلكه ، إذا كان ذلك التعبير يبدو لك مفرطاً في القسوة ، فلابد لي أن أسميه بهذه التسمية لأنك تحاول أن تحشر نفسك بين زوجين

من معدنٍ كريم ، يتميزان بالإخلاص لواجبهما ، ومن حسن الحظ أن محاولاتك ذهبت سُدى» .

واحمر الآن وقد انتابه فوران دمٍ عنيف ، وكان ذلك من جراء شعوره بالخجل ، ومن تذمره في الوقت ذاته . ما أشد ما يبعث ذلك على الشعور بالحرقة ، عندما يطلع امرؤٌ ثالث على ما جرى بين نفسَيْن في خُلوة! وردَّ بقوله ساخطاً : «أما ما يمكن أن أكون مسؤولاً عنه أو غير مسؤول فأنا مستعدٌ لمناقشة الحساب عن ذلك مع السيد المدير فيس ، عندما يرغب في ذلك ، غير أني مسؤول تجاهه فحسب ، لا تجاه أي امرىءٍ سواه . أما ما أُشْتَمُ به من كوني أخرق ومضحكاً ، فأني أُبيح لنفسي أن أُعلق بأنني أجد في ذاكرتي من الأسباب ما يبرر لي الإيمان بأن السيدة زوجة المدير فيس تهب لي ، بلا ريب ما هو أكثر قليلاً من فتات رثائها ، وأنني لست على الإطلاق امرءاً لا تحفل به البتة كما يطيب لك أن تفترضي بطريقةٍ تنطوي على قدرٍ كبيرٍ من الرياء» .

هنالك التفتت إليه بوجهها وتقدمت منه خطوة أخرى ، وقالت : «واعجباً لك ، يا سيدي المسكين ، الفتى ، الساذج! أجل أنت ساذج على الرغم من فكرك المتفوق ، ومعرفتك بالدنيا وبالبشر . أتراك تظن بالفعل ، أيها البائس المتناهي في بؤسه ، أن المرأة إذا صبرت على مفاتحاتك بحبك لها وأصغت إليها من دون مضض ، فذلك يثبت أدنى قدرٍ من ميل قلبها ؟ إنها تصغي إلى ذلك بسرور ، وهذا أمرٌ بدهي! فهو انتصارٌ صغير بالقياس إليها وما كانت لتدع لعبةً بقدرٍ بالغ الضآلة من لُعب الأزهار ، في إطار حدود المباح تُفلتُ من يدها بلا ريب ، وربما ذهبت في هذا الصدد إلى مدىً أبعد قليلاً مما ينبغي ، وهذا أمر لا أستطيع أن أحيط به علماً . وبهذه المناسبة

ماذا يعني هنا الذهاب إلى مدىً أبعد مما ينبغي ؟ وأي قاعدة من قواعد الأخلاق يمنعها أن تعابث امرءاً يُثقل عليها بطريقةٍ غير لائقة ، كما تريد ؟ فأنت لست من ذوي قرباها بلا ريب ، وهي لا تشعر بأدنى التزام بمراعاتك ، ومن يضع سيدةً في وضع محرج فلابد له أن يتحمل ذلك عندما تسير الأمور سيراً فيه شيء من الاعوجاج ، وهذا خطؤه لا خطؤها . ومع ذلك فإذا افترضنا أنك أحدثت بعض التأثير على قلبها ، وهذا يبدو ، إذا استنتجت من كلماتك ، هو الحال في الواقع ـ فلن يكون هذا بالأمر المستغرب أيضاً ، فأنت لست أول من يفعل ذلك ـ فماذا جنيت بذلك ؟ شعوراً ضئيلاً ، سطحياً ، عابراً ، يتبدد لدى أول نداء من نداءات القدر وإذا انتاب طفلها غداً ، أو زوجها فحسب ، المرض ، فماذا تكون أنت عندئذٍ ؟ ومن أنت بالقياس إليها ؟ مجرد صفر ، كلا بل أقل من صفر ، إذ أنت شيءٌ مثير للاشمئزاز ، لا تحتمل حتى مجرد رؤيته . فالسيدة زوجة المدير فيس ، كما قلت لك من قبل ، امرأة بسيطة ، طيبةٌ ، مستقيمة لا تنطوي على فكرة أخرى سوى ولدها وزوجها وكل ما يمكنك أن تبلغه منها هو أنك تعَرّي نفسك وتشقيها ومن الممكن أيضاً ، إذا ما استمرت اللعبة التي تستحق العقوبة ، أن تجر عليها الأقاويل ، فإن لها صاحبات أيضاً . والآن تستطيع أن تتصرف كما تشاء وكما يمكن أن يتلاءم مع ضميرك ، فأنا لا أجرؤ على أن أُملي عليك واجبك ، أما الكيفية التي يتحمل بها ، في هذه الأثناء ، إنسانٌ من أهل الفكر اللامعين ، معتدٌ بنفسه ، ومؤهل للاعتداد بالنفس ، مثلك ، أن يغتذي من حلم زوجها الكريم ، فأمرٌ يستعصي على الفهم عندي ، فهل ترتضي لنفسك هذا الدور ؟ »

« ولكن هل يعلم هو بذلك يا تُرى ؟ »

«تسألني هل يعرف ؟ أتسأل هذا السؤال! بل يعرف بالطبع ، ومن البدهي أنها أبلغته ، بأمانة وصدق ، بكل كلمة ، وكل دمعة ، وكل جُثُوٍّ على ركبتيك ، ولم يكن هذا حقها فحسب بل كان واجبها ، ولو تقاعست عنه لحاسبها ضميرها على ذلك» .

هنالك عض على شفتيه ونكس جبينه . وفجأةً خطرت بباله فكرة كانت قد لبثت منذ زمنٍ طويل نصب عينيه . «وأنتِ ، أنت نفسك ، يا سيدتي الموقرة ، من أين ، إذا جاز لي أن أطرح هذا السؤال ، من أين تعلمين هذا كله ، بهذا القدر من الدقة ؟ »

«من لَدُنْها بالطبع ، فأنت تعلم بلا ريب أنني أقرب صديقاتها إليها . وعلى هذا فقد كانت على يقين أنها تسبب لي الألم بما ترويه عن مهانتك ، وما كانت لتضن على نفسها بهذه المتعة بلا ريب ، وهذا هو التقليد الشائع بيننا معشر النساء . ولقد أحسنت التسديد إلى الهدف! فاضطرار المرء إلى أن يسمع كيف تنسى كرامتك ، واعتدادك بنفسك ، وكيف يَعْمدُ رجلٌ من أهل الجِدِ والأهمية ، يود المرء لو يصدقه ، إلى الإقدام على تصرفات غير لائقة ، ويَحُطُّ قدر نفسه بالنزول إلى مستوى السقوط جاثياً على ركبتيه مثل الفتى العاشق الملهوف ، أمرٌ مرٌّ المذاق . ولقد وصلت أكثر من مرة إلى النقطة التي يجب عندها أن أذكِّرك ، غير أني لم أكن أجد الرغبة في اقتحام مساكن الآخرين ، مثل مُجَنَّدةٍ في جيش الخلاص ، وأنا لا أريد أن أفرض نفسي على من يتجنَّبني عن قصدٍ ، ويضِّن عليَّ بشرف زياراته ، وكان يلوح لي أيضاً على الدوام أمل ضئيل بعد ، وهو أن تفكر آخر الأمر ، من تلقاء نفسك في قيمتك . إلى أن لقيتك بعد ذلك هذا اليوم بطريق المصادفة» .

«وعلى هذا فالسيدة زوجة المدير فيس ، باختصار هي التي أنبأتك ، بكل ما جرى بيننا ، نحن الاثنين ، وبما قيل ، بأدق تفاصيله ؟ »

«على الإجمال : أجل»

« وبكل شيء دفعةً واحدة ؟ أم في مراتٍ متكررة ؟ وفي كل مرة بأحدث الأخبار ؟ أنت تصمتين ؟ إذاً فلست في حاجة إلى جواب آخر »

وكان يشعر كأنه يموت غرقاً في حمأة العار مثلما تغرق فأرة في نونيّة* . ها هي ذي قصة حبه من قبل الحبيبة ، القائم على نكران الذات والاستغراق ، تنتشر وتذيع مثل رواية في ركن الأدب والفن في جريدة المدينة ، في كل يوم عدد ، «والبقية في العدد القادم»! والدموع التي اعتصرتها من عينيه آلام القلب التي لا تطاق ، آلام قلب مقدسة ، كانت تضرب بجذورها بعيداً ، عبر الدنيا ، في موطن كل الأرواح ، تُعَرض للحكم البارد من قبل أناس غير عابئين ولا مبالين ، وتقدَّم للتمحيص العقليّ .

غير أن السيدة شتاينباخ حين رأته مَهيضَ الجناح إلى هذا المدى ، فكَّرت في استغلال ندمه ، وشعوره بالذنب لتستخرج منه تصميمَ إرادةٍ ينقذه ، وقالت : «وعلى هذا فماذا تريد ؟ وماذا تأمل ؟ وماذا تنتظر ؟ »

وأجاب قائلاً بلهجة عدائية : «أنا أنتظر لأعرف هل تعتقدين أنك أذللتني الآن بما يكفيك آخر الأمر ، أم يطيب لك أن تسيئي معاملتي مدة أطول من ذلك» .

ونظرت إليه مذهولة . كان قد تغيَّر كل التغيُّر ، فبات كغريب ، وكان شيطان متجهِّم مكفهرٌ يحدق في وجهها .

---

* القصرية في اللهجة المصرية ، وهي وعاء لتبوُّل الأطفال .

وصاحت قائلة وهي تتألم : «ربّاه! لا تنظر إليّ هذه النظرة ، ولا تكن ظالماً بربك! فأنا لا أريد بك إلاّ خيراً ، وأنت تعلم بلا ريب أن هذا إنما يصدر عن مودّة خالصة» .

ولكن عينيه كانتا تدوران وقد تشوّه وجهه . وفجأة وثب قائماً ، ورفع ذراعه وصاح بصوت عال ، مرتجف ، وكأنه يحدّث امرءاً على البعد : «لئن كنت أشهد هذه الساعة الشنيعة ، ولئن كنت أقف ههنا عُرْضة للمَعْيَرة ، كولد من أولاد المدرسة يتعرَّض للعقوبة ، يُصَّبُ عليه الضحك والسخرية صباً ، ومثل عاشق مخدوع في نهاية مقلب ، وكرة لعب في أيدي أُناس لا قلب لهم ، فإنما أعاني هذا لأنني أضع قدمي على الطريق إلى العظمة . لقد كان في وسعي أن أصل إلى حالٍ غير هذه : إذ كان المجد والشرف ، والسمعة الحسنة والغنى ، والسعادة والحب عند قدمي ، ورأيت هذا يتألّق ، ولم أكن في حاجة إلاّ إلى أن ألتقطه ، ولو قد فعلتُ ذلك ، لو أنني تصرفت تصرف الوغد الشقي ، وآثرت الأرض السهلة لكنت أتقلب اليوم في أحضان السعادة والهناء ، محبوباً يخطب الناس ودّي ، ولما تهكّم أحدُ عليّ ، ولما جرؤ أحدُ على الطعن فيَّ أو تأنيبي ، ولكنتم خليقين اليوم أن تقتربوا مني بإجلال مشوبٍ بالوجل ، ولكان الرجال أحرياء أن يَعُدّوا صداقتي نوعاً من الامتياز ، ولكان جنس النساء العديم النبل خليقاً أن يخطب وديّ . أُناسٌ لا قلب لهم ، متبلدو الحس والشعور ، كالبهائم! انظري ههنا ، هذه نفسي المسكينة يغشاها فيضٌ من الحب المقدس الطاهر ، كبحرٍ مشتعل . ولست أرغب ، تعويضاً عن التضحية بشبابي ، وسعادة عمري ، سوى قطرةٍ ضئيلةٍ شحيحة من الحب ، لقلبي الظامىء ـ ماذا أقول ، (الحب) ربّاه ، إنه ليس الحب ، ليس شيئاً آخر سوى أن يسمح لي بأن أُحب وأُعاني ، من دون أن أتعرّض للعقوبة .

وماذا تعطونني مقابل ذلك؟ التهكُّم والضحك . لا بأس ، فلتُذلوني ولتأخذوا الدلاء والأباريق ، ولتصبّوا ، بالدلاء على جمجمتي كل قاذورات العار ، ولسوف أعرف كيف أتحمل هذا أيضاً . غير أني أقول لكم هذا : سوف يأتي زمانٌ يتقدم فيه أُناس من نوع آخر ، من شخصيتي ، بحكمهم ، أناسٌ عندهم قلب ووجدان ، ولسوف يغسلون بالمجد وجنتيَّ الملطختين بالأوساخ ، وعندما يلاحظون جراحي ، سوف يقولون : (لم يكن هذا مجنوناً ، بل كان صابراً) . أما حبي البائس ، الذي تُساء معاملته ، والذي يفسَّر ليَ اليوم بأنه جريمة ، والذي تعدُّني ، من أجله ، امرأة لا قلب لها ، مجنوناً ، وتتهكم عليَّ بسببه امرأة ثانية لا قلب لها ، فسوف يأتي أُناسٌ ، كما أقول لكم ، في مستقبل الأيام ، عندما أكون ميتاً ، يتمنون من أعماق قلوبهم أن يكونوا محبوبين على هذه الصورة ، التي أحببت فيها أنا ، ويحسدون تلك التي أحبَّها مثلُ ذلك العاشق بمثل هذا الحب» .

ولم يكد يهتف بهذا الكلام حتى عاد إلى يقظته من جديد وأصبح كما كان من قبل ، وقال يرجوها ، متكدراً : «أستميحك العذر فلم أكن أنا الذي قال هذا ، بل صدر عن فرط الألم» . وهنا خطا نحو البيانو وتناول قبعته .

وقالت شاكية : «ولكن ما من إنسانٍ يتهكم عليك! وما من أحدٍ يذكر اسمك إلا مقترناً بالمقصد الحسن والاحترام والتقدير ، أما ما يتصل على وجه الخصوص بزوجة المدير فيس فإن مشاعرها مخلصة لك ومتسمة بالتعاطف الحار ، وهي متكدرةٌ بدرجة عميقة لكونها السبب البريء في أنك سببت لنفسك ، من أجلها هذا القدر الكبير من المعاناة اللامجديّة والتي لا طائل تحتها ـ أما أنا ، أنا الذي ترميني بأنني امرأة لا قلب لي ، فكيف

تستطيع ، أيها الصديق العزيز أن تسيء إليّ بهذا! لا تقل لي (لا قلب لك) لا تقل لي هذا ، لا تقل هذا لي! » وكان صوتها خافتاً ولكنه كان يُحدث مع ذلك وقعاً كأنه صُراخ .

ولكن حواسه كانت مستغلقة ، وكانت عيناه تنظران نظرة الشارد الغائب . وخطا بضع خطوات نحو الباب وهو يتحاشاها دائراً حولها ، ثم تذكر شيئاً ما ودار على عقبيه وانحنى وشرع في الحديث قائلاً : « سيدتي الموقرة بقي لديّ أن أعبر لك عن شكري . وأنا لا أجد الكلمات المناسبة وكل ما أستطيع أن أقول : أيتها الصديقة النبيلة الوفية أتقدم بالشكر ، بالشكر العميق ، لكل شيء ، ولتحفظي لامرىء لقي الكثير من العقاب ، وربما غاب عن ذهنه بعض الأمور ، غير أنه لم يرد بإنسان سوءاً ، ذكرى متسامحة » وقالت تسأله بصوت لا جَرْسَ فيه : « أراحلٌ أنت ؟ »

وأومأ بالإيجاب : « في ساعة مبكرة من صباح الغد ، في ساعة مبكرةٍ قدر الإمكان ، في أبكر ساعة يقلعُ فيها قطار » .

وصاحت قائلة : « يا إلهي! وإلى أين ؟ »

وهز كتفيه قائلاً : « وما يدريني ؟ الأمر سيان »

وقالت بصوت متفجع : « واعجباً يا صديقي العزيز ، العزيز . وفي هذه اللحظة قبّلت يده ، إذ رفع يدها ليقبلها

ثم فتحت مصراعَيْ النافذة بقوة ، وتطلّعت ببصرها في الليل . وحين استبانت ظل شخصه عند باب الحديقة الصغير صاحت وراءه بصوت مرتفع : « أنا أومن بك ، وبعظمتك ، وبسعادتك » .

وفي ساعة مبكرة من الصباح التالي ، في ظلمة الغسق المبلّل بالضباب ،

كان يسير ، كما كان مقرراً ، إلى محطة القطار ، مجهّزاً للسفر ، ولم يكن مستيقظاً بعدُ كلّ الاستيقاظ ، إذ كان يتابع حلماً رآه وقد تولته الدهشة ، وكانت ألوانه السعيدة تتابع زحف ازدهارها حتى الواقع المقفر .

ويا للعار! فقد كانت هي التي رآها في المنام من جديد ، على الرغم من كل شيء . وكان فكره الناعس ينظر حواليه نظرة الخمول ، على ميدان المحطة أولاً . في هذا اليوم ذاته ، وهو اليوم الذي يخيم غسق بدايته الآن ، سوف تنتظره في مسائه! « مساء اليوم » ما أقدم هذا! لقد انقضى قبل أن يحدث مجرد حدوث . وبالمناسبة لم يكن من الممكن أن يشعر أدنى شعور أثناء التفكير فيها : فلم يكن هناك على الإطلاق أي نوعٍ من الحالة النفسية المرتبطة بالوداع ، فلا تأثر ولا ضغينة . وكان أقصى ما في الأمر مذاق باهت للاشمئزاز في حلقه ، وغادر الموطن المفعم بالمرارة لا مبالياً ، شأن الغريب .

وكان ثمة شبّاكٌ للصرف مُضاء وفي الإطار المفتوح وجه موظف . إذاً ففي وسعنا أن ننطلق على الفور . وبعد أن قرأ فوق شباك الصرف الاتجاه ، طلب اسم أي مدينة بعيدة في الخارج .

ورن في أذنه سؤال يقول : « درجة ثانية ؟ » .

وأجاب قائلاً : « بل ثالثة » . وكان يتابع حاجة غامضة ، سواء أكان ذلك لحماية نفسه من اللقاء ببعض المعارف (إذ لم يكن عدم رجحان الالتقاء بهم في هذه الساعة من الصباح يكفيه ، إذ كان يريد أن يكون في مأمن كامل) أم كان رمزاً لإذلاله ، فقد كان هذا أكثر ملاءمة لهربه المعيب : الدرجة الثالثة .

وعند دخوله لاحظ في العربة على أول مقعدٍ ، إلى جانب الباب تماماً

رجلاً قَصير القامة ودوداً ، متواضع المظهر . وقال في نفسه : «إنسان متواضع ، إنسان طيب ، هذا جاري» . ومع ذلك فعندما همَّ بإيواء متاعه القليل ردَّه الرجل الضئيل بحماسة ، قائلاً على رسلك ، يا سيدي! فهناك في الأعلى يوجد ساقاي . ولما كان في مزاجٍ لا يمكنه معه أن يحلَّ في هذا اليوم ألغاز فكاهات فيها مضيعةٌ للوقت ، فقد انتقل إلى مكان آخر ، واتخذ مكاناً في غير مبالاة ، وهو ينتحي جانباً ، لكيلا يحتك بركبة من يقعد قُبالتَهُ . ولكن الرجل الضئيل نظر إليه نظرة ماكرة وهو يغمز بطرف عينه ، قائلاً : «سيدي! ما كنت في حاجة إلى أن تتكلف كل هذا من أجل ركبتي ، فإنها لا تحس بذلك عندما يصطدم بها المرء» ، وعلى أثر هذا الكلام فتح غطاءً وإذا هو رجل ليس له ساقان على الإطلاق! وقال يشرح ذلك وهو يبتسم ابتسامة الرضى ، وبما يقارب الزهو بنفسه : «لقد بَتَروهما لي في المستشفى . وعلى أثر ذلك شرع في الحديث عن قصة آلامه بأسلوب فصيح . وكانت اللازمة التي يرددها : «إنّ ما صمدت له شيء لا يصدقه إنسان» . هنالك تحوَّل فيكتور إلى داخل نفسه : «لقد احتمل هذا من الآلام أكثر مما احتملتُ بعد!» ، وكانت خاتمة الحكاية قوله : «أما اسمي فهو بورجيِّسر ، ليونارد بورجيسَّر فون أوتلنجن ، أو لينرت ، كما يقولون عندنا ، ويضاف إلى ذلك أنني نجار» وبعد الإدلاء بهذه المعلومات أخلد إلى الصمت في ارتياح .

وكانت آلة القطار تحدث صدمات نظامية ، حتى لقد أغفى فيكتور من دون أن يلتفت إلى ذلك أحد ، إذ لم يكن قد نام في الليل كثيراً . وإذا جاره ينقر على ركبته حتى انتبه مذعوراً . وقال الكسيح بصوتٍ كالصفير : «انظر بربك ، باقة الأزهار هذه الهائلة ، في وسط الشتاء ، تلك التي تتجول بها الآنسة النبيلة الرقيقة هناك ، في الأمام ، عند الدرجة الثانية! إنها لتحب أيضاً

ذلك الذي اشترت له كل هذه الأزهار الممتعة ، انظر ، إنها تضطر على الدوام إلى وضع منديل أنفها على عينيها ـ ولكن إذا لم يأتِ عما قريب ، فسيكون متأخراً كثيراً ، بل كان من المفروض أن يكون القطار أقلع في الحقيقة ـ صه! هدوء! الآن تعود أدراجها ، متجهة نحونا ، انتبه وفيها أيضاً ازهار السوسن الصغيرة ، بل إن المرء ليشم ذلك من هنا ـ واحسرتاه ، أيتها الآنسة المسكينة! انظر الآن ، في الدرجة الثالثة ، حيث تعلم أنه ما من إنسان يعرفها تأخذ في النشيج » . أما فيكتور فقد أطل ببصره على الخارج آخر الأمر بعد أن كان لا يحفل بهذا اللغط أول الأمر وقد ضاق ذرعاً به ، وكانت إطلالته آليةً ، وعلى غير إرادةٍ منه . وكانت سيدةٌ ناحلة حسنة التكوين على نحوٍ استثنائي ، على قدر ما استطاع أن يميز في القاعة المعتمة ، تخطو في الخارج مارةً بالقطار تحمل باقة من الأزهار ، وقد أخفت وجهها في منديل جيبها ، وكتفاها يهتزان من البكاء . وخطرت بباله في هذه المناسبة مضاهاة مؤلمة : « أما أنا ـ ويلاه! ما من خطر! ـ ما من أحد يأتيني بباقة من الأزهار . كلا! بل الأحرى أن تأتيني حفنة من الشوك لو علم القوم برحيلي » وعلى أثر ذلك أعرض بوجهه ، وابتعد عن النافذة وذهنه مفعمٌ بالأفكار المريرة .

وسُمِعَت فجأة صيحات الجابي تقول : « اركبوا » ، وصدح من كل النوافذ الجواب الساخر : « أخيراً! » وأغلقت أبواب العربات بعنف ، ثم خيم السكون هنيهةً من الزمن وسُمع صوت يقول « انتهينا! » وتلا ذلك صفيرٌ حاد ـ وإذا باب العربة يُفتح وراءه بعنف ، وسَرَت نفحة من عبير الأزهار داخلة بين هَبّات الهواء البارد ـ ولكن ذلك لم يدم سوى لحظة ، ثم انصفق الباب من جديد . وقال النجار وهو يضحك ، وراء السيدة المتوارية : « كلا ، يا آنسة ، فإن الذي تبحثين عنه لا يقعد في الدرجة الثالثة ، ولكن إذا لم تقفزي نازلةً

بسرعة أخذك القطار معه ـ أتسمعين الجباة ، كيف يستشيطون غضباً ؟ غير أنهم على الحق كل الحق ، ذلك لأنه عندما يقال (انتهينا!) ، لا يعود لأي امرىء من بعدُ حقٌ في وقف الإقلاع ، سواء أكان نبيلاً أم لا » .

وسمعت صَفْرةً مكرَّرة ، آمرة ، لسائق القطار ، ثم درجت العجلات من بقعتها ، ثقيلة الوقع . وتنهد فيكتور وقد سُرِّيَ عنه وقال في نفسه كمن يَنْذُر نذْراً : «فراقٌ إلى غير لقاء!» بينما كانت نظرته إلى الأعمدة في قاعة المحطة تستطلع حركة الانطلاق المُخَلِّصة ، في لهفة ـ «ولكن مهلاً! انتظر! أليست هذه السيدة شتاينباخ ، تلك التي تسرع عائدةً إلى المحطة هناك عبر القضبان ، وفي يدها باقة من الأزهار ؟ إنها خليقةٌ أن تكون هذه خطواتها على الأقل . ألاّ ليتها أرتني وجهها مرة فحسب! »

وقال الجابي مطالباً وهو يمد يده إلى فيكتور : «أبْرزوا كل تذاكر السفر ، جميعاً! ـ تذاكر السفر من فضلكم» وبعد إنجاز العملية المزعجة توارت المحطة عن الأنظار أخذت شوارع شتى تركض مقبلةً على القطار عن اليمين وعن الشمال . وكانت المنازل تصيح في عَدْوِها العابر : «والآن ، ألا تحيينا يا فيكتور تحيةً وجيزةً ، مودعاً لنا ؟ »

ورد قائلاً بعناد : «كلا ، أرجوكم ، أسدوا إليَّ معروفاً : إياكنَّ والفصل الختامي المنطوي على المشهد المؤثر المبني على النفاق! أتحسبْنَ أني لا أرى على أسطُحكنَّ قردة السخرية تتواثب وأشواك التهكم تنظر إليَّ نظرة صفراء ساخرة من أشجارِكن ؟» . وشيئاً فشيئاً كانت الظلمة تنجلي ، وكانت منازل الريف والحدائق ، وسلاسل الأشجار تنسربُ هاربةً ، فمنها من ينطلق إلى الوراء ومنها من ينطلق جانباً ، وأخيراً وثب من الحقل الخالي ضوء النهار إلى العربة .

والآن فحسب استيقظ ذهنه كل الاستيقاظ ، ومعه الذكرى ومع الذكرى الضغينة : ألا فلتبتهجوا! فقد انتصرتم ، ها أنذا أهرب ، مغلوباً ، مجلَّلاً بالعار ، ولكن من ذا الذي غلبه ؟ غلبه التقليد المألوف ، والعشيرة وتبلُّدُ القلب الذي كأنما قُدَّ من خشب» وتجمعت ضغينته متحولة إلى سحابةٍ مدلهمة ، وتكورت السحابة متحولة إلى سخط ، وكان السخط يبعث الغليان في اللعنة .

وإذا هو يلقاه صوتٌ تولاه الفزع منه ، وكان صوت السيدة الصارمة . وقال الصوت يسأله : «ماذا تحمل مُخَبّأ في جيبك ، شيئاً سرياً تأخذه معك ؟ »

«أحمل رسالة لا يدري بها أحدٌ سوى أنتِ وأنا وحدنا »

«وعمَّن تَنُم هذه الرسالة ؟ »

«إنها تَنم عَنكِ أيتها السيدة الصارمة»

«ومتى كتبت شهادتي هذه ؟ »

«كتبت السطر الأول في ذلك المساء الذي دخلت فيه هذه المدينة غير المباركة ، وكتبت السطر الأخير في هذه الليلة المنصرمة»

«وماذا قلتُ لك ، في الليلة الفائتة بعد أن كتبت السطر الأخير ؟ »

«قلتِ لي : (أنا أقبل شهادتك ولأنك قدمت شهادةً مني بصدق وأمانة ، فلمْ تضل ولم تتلوث على الرغم من الألم والهوى والحماقة ، أريد أنا أيضاً أن أقدم شهادةً عنك : انظر! أنا أريد أن أبَوِّئك مكاناً رفيعاً على قمة الحياة وأُرغم مجد البشر الجامحين على النزول إلى القرون ، عند قدميك) هذا ما قُلتِه لي»

«أجل هذا ما قلته لك ، والأن تريد ، أيها الناكر للجميل ، أن تدنس شرف الفترة المقدسة من الوقت التي أحرزت فيها مثل هذا ، بلعنتك ؟ انتبه إلى ما آمرك به : اضبط أوتار نفسك وغنِّ ، وابتهج ، وبارك هذه المدينة بكل ما فيها ، وكل ساعة ، وكل حدثٍ ، وكل أَلَمٍ أَلَمَّ بِك ، بدءاً من البشر الذين آلموك ، إلى الكلب الذي نبح وراءك»

وامتثل للأمر وهو حزين ، وضبط بجهدٍ وقوةٍ أوتار الجُنكِ في نفسه ، وغنى وابتهج ، من جراحه وبارك غَمَّه ، وهو يتنهد ، كلَّ ما بات وراءه ، من البشر الذين ظلموه إلى الكلب الذي نبح وراءه «وقال الصوت : «أحسنت ، فتلقَّ جزاء طاعتك ، ارفع طرفك وانظر حواليك»

وإذا هو يرى في الخارج أمام النافذة ، إلى جانب العربة ، في خطوٍ متناسق مع القطار المبتعد ، إيماغو واثبةً على جوادٍ أبيض ، ولم تكن إيماغو البشرية غير الأصيلة ، التي تدعى تويدا ، زوجة الوكيل ، بل إيماغو الحقيقية ، المزهوةُ بنفسها ، أي فتاته . وكانت قد برئت من مرضها منذ عهدٍ قريب ، وفي شعرها إكليل نصرٍ بهيج . وقالت وهي ترسل ضحكةً إلى النافذة : «لقد كنت في انتظارك» .

وصاح قائلاً وقد أخذته الدهشة : «ايماغو ، يا عروسي ، كيف أمكن أن تحدث المعجزة ، بأن تبرئي من حزنك ؟ ومن أجل أي احتفال بنصر تحملين التاج الصغير في شعرك ؟ »

وأعطته الجواب الذي يبعث السرور : «لقد رأيت وفاءك الثابت خلال الهم والحَزَن والألم ، وبذلك برئت وكنت أراك من خلال زوابع العاطفة الجامحة ، وأنت تخرج منها ولا شائبة فيك ، فوضعت من فرط سروري تاجاً صغيراً في شعري» .

«وهل تستطيعين أن تغفري لي أيضاً ، يا إيماغو ، يا عروسي العليا ، أنني ، أنا الإنسان المجنون الأعمى ، خلطت صورةً خادعةً لإنسانة فانية بِسُمُوِّكِ ؟ »

وضحكت قائلة : «لقد غسلت دُموعُك ألوان جنونك» وعلى أثر هذه الكلمات وثبت تستبق القطار وهي تهتف هتافاً كالزغردة وقد استخفَّها الفرح .

وقال الصوت الخفي في لهفة : «فلتحكم الآن ، أما زلت تسميني السيدة الصارمة ؟ »

وقالت نفسهُ تتلو دعاء الشكر في تأثر : «أيْ سيدة حياتي المقدسة ، إن اسمك هو (العزاء والرحمة) . والويل لي إن لم تكوني عندي ، وطوبى لي إذ أنت معي» .

كلمة الختام

قال كارل شبتلر يشكو لصديقه جوزيف فيكتور فيدمَن بينما كان يعمل جاهداً على إعطاء قصته « كونواد ، الملازم » صيغتها الأخيرة : « ومع ذلك فإن النثر يعد عملاً من أعمال العفاريت » وأضاف قائلاً : « إنه عمل متعرِّج يضاهي مِشْية الحلزون ، إلهةُ الشعرِ مُكِبَّةٌ على وجهها ، مُستَخْذِية » .

وما كان ، في الواقع ، ليكتب أياً من النصوص المعروضة في هذا المجَّلد لَوْ أنَّ كل شيء سار وفقاً لرغباته ومخططاته . فقد كان قد عقد العزم ، منذ عام ١٨٦١ ، إذ كان في السادسة عشرة ، في نهاية تلك المرحلة من تطوره المبكِّر ، التي يشير إليها هو ذاته بأنها «السنة الحاسمة» ، على «أن يغدو أديباً» . وقد كان خليقاً ، بالنظر إلى أحلام طفولته الساذجة في الأصل ، أن يغدو ضابطاً ، وعلى كل حال فقد كان من الممكن أن يختار مهنة تنسجم مع تفكير والده ، وهو سياسي من ذوي النفوذ ، ذو نزعة ديمقراطية راديكالية ، في مقاطعة بازل الفتية . ثم انفتح أمامه ، في وسط الحيِّز الضيق للحياة في المدن الصغيرة ، في منزل عمته صوفي برودبيك في فِنْتَرْتور أولاً ، ثم في منزل القس فيدْمَن في ليزتال ، عالم الموسيقى الكبرى ، ولا سيما عالم الموسيقيين السمفونيين في ڤينا . وكانت تواكب الصراع الأساسي المتميز

مع والده منذ البداية مكوناتٌ دينية ميتافيزيقية . وقد وضعت الشكوك المكثفة في العقيدة نهاية للشعور بالأمان في عالمٍ أنشأه إلهٌ أبويٌ طيب . وكانت تنفتح وراء واجهاته أمام الشاب الناشيء هُوَةٌ من هُوَى معاناة الألم .

وكان مما يلفت النظر أن الأديب الناشيء لم يُقْبِل ، مثل صديقه الحميم جوزيف فييكتور فيدمّن ، على محاكاة النماذج الأدبية التي كانت سائدةً في الستينات من القرن التاسع عشر ، إذ كان صديقه هذا يكتب القصائد بأسلوب بلاتن أو روكرت أو إيمانويل غايبل ، أو يجرّب نفسه بمسرحيةٍ بأسلوب خلفاء شيلر . والحق أن شيئاً ما مسرحياً كان يلوح في ذهنه أول الأمر في الواقع ، وسرعان ما رسخ الموضوع أيضاً : إذ كان يفترض أن يكون ذلك عملاً أدبياً يتناول شاؤول ، أول ملوك اليهود ، وهو الشخصية التي كان رفضُها للحق الثيوقراطي للكاهن صامويل ، يبدو للكاتب الشاب رمزاً لنزعة التمرد . غير أن ما تبقى من المشروعات الموضوعة من أجل مسرحيته التي يقال إنها وضعت من أجل مسرحية شاؤول ، بعيدٌ بُعداً شاسعاً عن أي فن مسرحيٍ ملموس .

وقد حذر ياكوب بوركهارت ، أستاذ شبيتلر في التاريخ في المعهد التربوي التمهيدي في بازل ، آخر الأمر ، من كل المشروعات المسرحية ، لأن نجاحها يتوقف بوجهٍ خاص ، على شروطٍ خارجية ، ولفت نظره إلى كتّاب الملاحم الإيطاليين في عصر النهضة . وقد أحدثت مطالعة « رولاند المجنون » لأريوست ، التي أكب عليها شبيتلر ، في نفسه من الأثر ما يشبه الوحي ، إذ بات يرى الآن في الأسلوب الملحمي الرفيع ، ماراً بقيعان النثر ونزعة التقليد الرومانسية ـ الكلاسيكية ، ذلك العالم الشعري الذي كان يرى نفسه منجذباً إليه ويشعر أنه مندوبٌ له . أما أنه كان ، بتصميمه على التوجه

إلى الملحمة ، يتخذ وجهةً بعيدة عن الحركة الأدبية الحديثة ، فذلك أمرُ كان قلما يعيه وعياً واضحاً . وكان ما يلوح في ذهنه لا يمت بصلةٍ إلى الأعمال الملحمية الشعرية التي تصل بنا إلى مسرحية جوته «هيرمان ودوروتيا» أو مسرحية هاينريش هاينه «أتا ترول» . وكانت هذه الأعمال منذ البداية الأولى أعمالاً أدبية ذات مضمون أسطوري . بينما كان طابعها من حيث القالب واللغة لم يتخذ شكله الثابت بعد . وهكذا كانت تتكرر المغامرات التي شهدها شبيتلر منذ عمله في المسرحية ، وكانت رؤيا تأتي في أثر رؤيا ، وكانت حُجُراتُ الخيال تمتلىء بشخصيات ، ومواقف ، وألوان من الصراع ، وأحداث ، ومشاعر ، وأوراق ، وكراريس حافلة بالملاحظات المكتوبة بلغةِ الاختزال . وما من شك في أن كل شيءٍ كان يدور آخر الأمر في فلك موضوعٍ واحد ، وحول شخصية مركزية ، هي شخصية بروميثيوس - وكان هذا أيضاً رمزاً للمقاومة والرفض للسلطات والمؤسسات . ولكن «طاحونة المتغيرات» ، كما سمى بذلك الكاتب ، فيما بعد مشروعات هذه الحقبة ، ظلت تواصل دورانها بغير انقطاع خلال عقدٍ كامل من الزمان .

وفي هذه الأثناء كان شبيتلر قد اختتم دراسته لِلاهوت التي شرع فيها ناظراً إليها على أنها «اللاهوت المضاد» ، وأنفق ثماني سنوات في خدمات التعليم المنزلي الخاص في روسيا ليتفادى الصعوبات التي كان من الممكن التنبؤ بها والتي كانت تواجه إمكانية حصوله على وظيفة قس ومن يدري ماذا يمكن أن يحدث لو لم يدفعه موت والده غير المنتظر إلى العودة إلى الوطن ولو لم يكن الفشل الوشيك لتوجهه الأدبي يلوح لناظريه كالمعروض عرضاً . غير أنه قَسَر نفسه ، وهو في الخامسة الثلاثين ، على تدوين إحدى صياغاته لمشروعات بروموثيوس ، ونشرها تحت عنوان «بروموثيوس وإيبيمثيوس» (١٨٨٠/ ٨١) .

وعندما كان الكاتب يؤمل في الواقع أن يحقق ، بعمله الشعري الملحمي المتسم بالعناد وصعوبة المراس ، نجاحاً كاسحاً عند أفضل أهل عصره ، سرعان ما علّمه الغياب الكامل تقريباً لأي صدى ، شيئاً آخر ، وكانت ملحمة « بروموثيوس وإيبيمثيوس » تقف ، بوزنها العروضي اليمبيّ الفريد في نوعها وشحنتها الرمزية الثقيلة ، وحيدةً كل الوحدة على أرض الأدب الألماني في الثمانينيات الميال إلى النثر القصصي الواقعي الحديث الذي كان يزداد اكتساباً لسمة الحسم على نحو مطّرد . ولولا أن جوتفريد كيلر عَبَّر ، على الأقل في رسالته الخاصة إلى فيدمن ، عن اعترافه المقترن بالاندهاش ، بالظاهرة الشعرية الغريبة من نوعها ـ وجاء في اعترافه هو أن شبيتلر كان خليقاً أن « يتخلى عن كتابة الشعر » . غير أنه حقق في هذه الأثناء بهذه الطريقة ، التلاؤم مع الشروط العصرية للإبداع الأدبي . وبينما كان يكسب معيشته معلماً ، ثم صحفياً ، عَوّض هذا عن طريق الكتابة الأدبية ، الأمر الذي كان حتى الآن يقاومه ، إذ كان أسيراً لمثله الشعري الأعلى ، وكتب مسرحية تاريخية بأسلوب موافق لعصره ، وعدداً من المسرحيات الهزلية ، وكتب قصائد يحذو فيها حذو كونراد وفرديناند ماير ، وجرَّب نفسه آخر الأمر في مضمار القصة النثرية التي ظل يتحاشاها بإصرار على مدى عشرين عاماً . وحاول في هذه الحقبة من تاريخ إبداعه أن يطعّم كل ميدان من ميادين الأدب بحجر من عمله .

وكانت هذه الأعمال القصصية العابرة والتعليمية هي التي عادت على شبيتلر بأول اعتراف عمومي بمكانته ، وأتاحت له ، إلى جانب إنتاج قلمه الناقد المرهف ـ وظيفة محرر ركن الأدب والفن في « جريدة زوريخ الجديدة »* . ولكن عندما حققت له تركة والدَيْ زوجته الهولنديين الموسرين

* Neue Zureher Zierung

التحرُّر من الهمّ المادّي في عام ١٨٩٢ عاد به طموحه إلى أهدافه الأدبية الأصلية . وكان يقول حقاً إنه إنما أراد ، بالنظر إلى عمره المتقدم ، مجرّد أن يكشف ، في هذا المضمار ، عمّا كان خليقاً أن يتقنه فيبرع فيه إذا ما أتيح له العمل فيه . وعلى الرغم من ذلك فقد آل الكثير مما كان ينظر إليه في أيامه ، بحكم كونه كاتباً ملحمياً ناشئاً ، إلى عمله الرئيسي الذي نشأ على مرّ العقد ونصف العقد التاليين ، وهو «الربيع الأوليمبي» (١٩٠٥/١٩٠٩) ، وارتبط بما أضيف إليه مما اكتسب بالتعلُّم والتجربة ، وتحوّل إلى شعر ملحمي عالمي يتميز بنطاق فريد في نوعه وطاقة كشف وتنوير لغوية كبرى . ولهذا الشعر الملحمي العالمي يدين شبيتلر بمكانته من حيث كونه الأول بين الكتاب السويسريين الباقين على قيد الحياة في مستهل القرن الجديد ، وبجائزة نوبل في الأدب (١٩١٩/ ٢٠) . وهي الوحيدة التي أعطيت حتى الآن لكاتب سويسري المولد .

وترجع «روائع القصص» السبع في هذا المجلد ، كلها ، إلى الحقبة الواقعة بين نشر «بروميثيوس وإيبيميثيوس» والفراغ من «الربيع الأوليمبي» . وقد نشأت بين عامي ١٨٨٧ و ١٩٠٦ . وعلى هذا فهي تقدِّم شاهداً على فن القصص النثري عند شبيتلر قبل نهاية القرن الماضي وفي مستهل القرن الجديد ، وهي حقبة ظهرت فيها الأعمال الأخيرة لجوتفريد كيلر وكونراد فرديناند ماير ، بينما كانت تزدهر نزعة طبيعية جذرية بتأثير زولا وآخرين ، قبل أن يخرج جيل جديد من القصاصين ـ هاينريش وتوماس مان ، وهرمان هيسه ـ برواياته الأولى .

وقد نشرت أقاصيص «إكزافر تسجيلجن» و«مُقَدِّم التحية» و «فريدلي المشاكس» ، بين عامي ١٨٨٨ و ١٨٩١ ، في الصحف

والمجلات ، قبل أن يجمعها شبيتلر ، مع نصوص أخرى ترجع إلى حقبة النشوء ذاتها ، في كتاب صغير تحت عنوان «فريدلي المشاكس» . وفي تحليل لاحق للخصائص المميّزة يقول الكاتب إنه أراد في هذه المجموعة أن يقدم «تجاريب لأكثر الأساليب النثرية تبايناً» : «أسلوب السرد القصصي بهدف التسلية ، والأساطير الألمانية ، والمذهب الطبيعي الروسي» . أمّا ماهية القالب الأسلوبي التي يمكن أن تُرَدّ إليها هذه أو تلك من الأقاصيص المذكورة ، فمسألة يمكن أن تظل مفتوحة للمناقشة . على أن القاسم المشترك بينها هو الجوّ السويسري ، حيث يتم ، في «إكزافر تسجيلجن» ، إسقاط هذا في الحوليّ - التاريخي وفقاً لطريقة مفضَّلة ، فيما يسمّى «الواقعية الشعرية» في أواخر القرن التاسع عشر ، وهي الواقعية التي جرَّبَها جوتفريد كيلر وتيودور شتورم وكونراد فرديناند ماير ، بينما يظهر الحاضر المتعلق بالمدن الصغرى في «مقدِّم التحية» ، والحاضر الريفي في «فريدلي المشاكس» . وكان تصوير نفاد الصبر الملوَّن باللون الديني ، تجاه كل ما هو غريب وجديد ، هو أول ما يرد في تفكير المناوىء السابق للاهوت بوجه خاص . وفي «مقدِّم التحية» تنعكس مناقشات تتصل بقضايا الساعة حول الظهور الأول لجيش الخلاص في غربي سويسرا . وقد استطاع شبتلر أن يلاحظ أمثال هذا في مطلع الثمانينيات ، حين كان معلماً في المدرسة الثانوية التمهيدية في لانوفيل عند بحيرة بيل ، عن كثب . ثم إن الممثلة الغاضبة للحركة التقَويّة الأنجلو سكسونية التي يجوز للمرء أن يتكهن أنها هي الشابة كاترين بوث التي تولّت ، في أيامه ، غزو سويسرا بجيش الخلاص انطلاقاً من جنيف ، لا ترد في مكان آخر على نحو أفضل كثيراً مما هي عليه عند صانع الساعات المحلي المحدود الأفق الذي ينتهي إلى الافتتان بها ، عند الكاتب الذي كان يسرّه أن يضع علامات الاستفهام على ظاهرات

أخرى ترتبط بالبروتستانتية البريطانية . وخلافاً للميل السائد إلى التصوير الذي يمثل الانسجام والتناسق في الأحوال السويسرية ، يُبْرِز شبتلر على وجه الخصوص ما فيها من العنف الظاهر الجليّ ، والكامن . وهذا ما يميّز الأفراد والجماعات على حد سواء . وهذا ما يَردِ له مجال للعمل في متغيّرٍ متحفِّظٍ على وجه الخصوص أيضاً في القصة ذات الطابع الرعوي «فريدلي المشاكس» ، حيث يدع كلا الأجيرَيْن الفلاحَيْن السائح الألماني الذي لا يتعاطفان معه بالطبع تعاطفاً خصوصياً ، ينساق إلى حتفه ، بدافع الكراهية البحتة ، والنفور الغريزيّ من كل ما هو غير مألوف ، ولا يكاد الحدث يؤثر في نفسيهما تأثيراً يذكر ، ويعودان أدراجهما إلى عالمهما الضيق ، وينتقلان إلى نظام الحياة اليومية . وبذلك تعلن القصة عن الكشف الذي لا هوادة فيه ولا مراعاة ، للواقع السويسري ، على النحو الذي سيقوم به كتّاب جيل متأخر عنها كثيراً .

أما قصتا «غابت المدينة» و«قصف آبو» فتنتميان إلى عقدة بالغة الاتساع يتألف جزء منها من نصوص تنطوي على ترجمة ذاتية ونصوص صحفية ، كما ينطوي جزء آخر على نصوص قصصية يفترض أن تفضي بنا إلى أيام شبتلر في روسيا التي أتيحت لهذا أثناءها لا ملاحظة الحياة الروسية في بطرسبورج وجنوب روسيا فحسب ، بل أتيحت له فيها أيضاً فرصة التعرف على الإقليم الفنلندي والحياة الشعبية في فنلندة بمناسبة إقامته فيها . ومن نصوصه النثرية الأولى «قصص قصيرة روسية» ، وهي تشير بحد ذاتها إلى بوادر الصياغة القصصية . وتكشف كلتا القصتان اللتين بين أيدينا عن وجهة النظر التي كان شبتلر يلاحظ العالم الغريب عنه انطلاقاً منها . فقد كانت هذه منازل النبلاء السويديين ـ الفنلنديين وألمان البلطيق في خدمة المصالح الروسية ، حيث كان الناس يعرفون كيف يقدرون المتغيِّر الروسي في طراز

الحياة الارستقراطية حقاً ، غير أنهم كان يسرهم أن يرموها بالطيش والخفة وعدم إمكان وضع الثقة فيها . ومن الواضح أن الاستقامة الفلندية وكانت تشكل نقيض هذا ، على رأي المثل ، حيث كان المرء يتحمَّل ، من أجل ذلك ، ما يرتبط بها من قلة الكلام والبلادة والثُقَل . ولئن كانت أمثال هذه الأنواع من الرَّواسم* تتباين في تجربة شبتلر الشخصية فقد كانت موضع الترحيب عنده بالقياس إلى حاجاته القصصية ، بل كان يصعِّدها ليصل بها إلى مستوى الكاريكاتير . وهذا ينطبق على قصة « غابت المدينة » مثلما ينطبق على « قصف آبو » ، حيث يرتبط الكاريكاتير بملامح كوميدية صريحة . وفي الواقع تمثل هذه القصة ، التي ترجع مادتها إلى حكاية من حكايات حرب القرم ، عندما قصف الأسطول الإنكليزي مدينة شفيبورج في آب ١٨٥٥ (سوومينلينا) ، لأسباب تتعلق بالمكانة الدولية بصورة خالصة . وهي تمثل ، إذا نظرنا إليها في الأساس ، نتاجاً ثانوياً لجهود شبتلر من أجل الكوميديا . أمّا الصياغة المسرحية للموضوعات التي عولجت في « قصف آبو » ، بعنوان « الرسول » فقد تمّ عرضها أول مرة في الثاني من تشرين الثاني ، في المسرح البلدي في مدينة بازل ، وهو العرض الوحيد الذي جرى لمسرحية للكاتب في أيام حياته بصرف النظر عن مسرحيته الاحتفالية بمناسبة افتتاح المسرح البلدي الجديد في زوريخ ، وبالنظر إلى الإخفاق الواضح الدلالة شُطبت المسرحية ، التي كانت تذكر ، في قالبها المسرحي أكثر مما تفعل ذلك في قصتها ، بـ « مراجع الحسابات » لجوجول ، من جدول التمثيل .

أما في روايتَيْ الملازم كونراد و« إيماغو » فلا نجد ، خلافاً لسائر

* الكليشهات

النصوص ، ما يمت بصلة إلى تجاريب الصياغة عند الكاتب الذي كان يكافح ، من دون كبير عناء ، من أجل الظفر بالاعتراف به ، في الثمانينيات . وكلتاهما تضرب بجذورها في خضّم ظروف نشوء أكثر جوهرية وأهمية . وهما تنتميان ، فوق ذلك ، إلى حقبة إبداعية متأخرة نوعاً ما : وقد تم الفراغ من «الملازم كونراد» قبيل كتابة «إيماغو» ، وبصورة مباشرة بعد فترة النشوء الحاسمة لعمل شبتلر الملحمي الرئيس ، «الربيع الأوليمبي» . وتعدّ هاتان ، بصرف النظر عن تعديل «أعداء البنات» ، آخر الأعمال النثرية القصصية التي سبقت الكتابات الوصفية اللاحقة ، في السيرة الذاتية ، وكلتاهما مطبوعة بطابع السيرة الذاتية انطباعاً شديداً .

ويعدّ الموضوع المركزي في «الملازم كونراد» ، وهو الصراع بين الأب والابن ، ذا أهمية تأسيسية فريدة من نوعها (Konstitutive) بالنسبة لعمل شبتلر ، مثلما هو بالنسبة لعمل الكثيرين من الكتّاب الآخرين . وذلك أن كونراد ، تلميذ الثانوية ، حاول أن يرسم حدوداً بينه وبين والده ، حتى في «السنة الحاسمة» من عمره ، خلافاً لإرادة والده . وحين ما عاد يتمكن من شق طريقه في هذا الصدد ، هيّأ لنفسه ، عن طريق هرب دراميّ من بيت والديه ، استراحة لالتقاط الأنفاس . بل كان تصميم اللاهوتي ابن السادسة والعشرين ، الغضّ العود ، على التوجه للعمل معلماً خصوصياً في روسيا ، متأثراً في شطر منه بالمشادّات المنزلية التي لا تطاق . على أن مرض الوالد ووفاته وضعا في الحقيقة نهاية للنزاع من حيث الظاهر . غير أن أشكال التوتر كانت تتابع إحداث آثارها . وتؤثّر ، لا على شعر شبيتلر في بروميثيوس ـ إذ يدافع بروميثيوس عن حقه في الامتثال لسيدته وحدها ، وهي نفسه ، أمام ملاك الرب المزوّد بالسلطة الإلهية فحسب ، بل كان يتم التعبير عنها المرة بعد الأخرى ، على الدوام ، مع ارتباطها في بعض الأحيان

بمشاعر الذنب ، في القصائد والأقاصيص العائدة إلى السنوات التالية . ففي «الملازم كونراد» انتزع هذا الموضوع صياغته النهائية التي لا ريب أنها ذات المدى الأبعد على وجه الإطلاق .

وفي هذا السياق يستحوذ الصراع المركزي بين صاحب قصر الطاووس ، فون هوليسدورف وابنه على ما يبدو مثل قصة من أقاصيص القرى ، عائدة إلى مجال يضاهي مجال قصة جوتفريد كيلر «أهل سيلدفيلا» ، بصورة كاملة . ونجد ، في مقابل الشخصية ذات السلطان أمّاً مكتئبة متفجعة على الدوام ، بحيث يؤخذ الابن ، من جانب كلا الطرفين ، بين فكّيْ كمّاشة . ويتبيّن أنه لمّا يبلغ بعدُ ما يجعله أهلاً لمواجهة هذا الضغط المزدوج . وبعد بضع ساعات حافلة بآمال خادعة ترتبط بالسعادة والحرية ، يضع النهاية لكل شيء الموتُ بطريق العنف ، للبطل الشاب ، وهو الموت الذي يتميَّز بأنه يشبه عملاً من أعمال العقوبة ينفذه وكيل عنه . وتتجلّى ، مرة أخرى ، صورة لسويسرا تنزع إلى عنف لا يردعه رادع ، تكمِّلها الملامح القاسية لمجتمع ذي تَراتُب هَرَمي ، مع ما يتماشى مع ذلك من سلَّم القيم الذي يمكن أن يثير التعبير عنه استغراب القارىء بين حين وآخر في هذه الأيام . وكان مما يسرّ الكاتب أن يبرز التحديد الشكليّ لهدف العمل الأدبي على أنه حوار مثمر مع النزعة الطبيعية في الأدب ، إذ قال : «لقد أردت ، بين يَدَيْ ملحمة مستقبلية ، أن أثبت لنفسي أن في وسعي ، أنا أيضاً ، أن أكتب بالأسلوب الطبيعي ، عندما أريد» . ولن يماري أحدٌ في أنَّ «الملازم كونراد» تقدم هذا الاثبات . أمّا ما يتعلق ببسط الفكرة الرئيسة المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالسيرة الذاتية فتبدو أمثال هذه الادّعاءات مع ذلك محاولات لتحويل الانتباه عن الموضوع .

على أن العلاقة بالسيرة الذاتية تتجلىّ على نحو أكثر وضوحاً بعدُ في «إيماغو» ، إذ يؤكدها الكاتب ، خلافاً لما يحدث في «الملازم كونراد» ، إذ أصدر حكمه بعد ظهور العمل مباشرة ، فقال : «يحقّ للمرء ، وينبغي له ، أن يكتب قصة حبه ، على أنها حالة استثنائية ، ولا يحق له أن يكتب قصة حب امرىء آخر» . وقال يعترف لصديقة له : «ليس هذا مجرد عمل فني ، بل هو دم نازف من القلب ، ولذلك فسوف يكون أكثر الوثائق أهمية من أجل قصة حياتي ، ومن أجل كاتب سيرتي . فأنا أظهر في كل أعمالي الأخرى مستتراً ومقنّعاً ، أما هنا فأكشف عن أدق الخيوط في نسيج نفسي» .

وقد يكون تقدير المرء للأشياء خلافاً لما يفعل الكاتب هنا . ولكن إيماغو تعكس في الواقع أحداثاً وأحوالاً كانت تعود في الحقيقة ، في اللحظة التي ظهرت فيها الرواية ، إلى جيل بشري من الماضي ، ولكنها طبعت ، مع ذلك ، حياة الكاتب في مرحلة من أصعب مراحلها بطابع بلغ من عمقه أن صياغتها لم تتحقق إلاّ بعد ذلك بوقت بعيد .

ففي صيف ١٨٧٦ ، التقى كارل شبتلر ، الذي كان يتولى عمل المعلم الخصوصي منذ خمسة أعوام في بطرسبرج ، وما زال يكرر محاولاته لصياغة عمله الأدبي الأول ، بمناسبة زيارة للوطن ، بابنة عمه التي تصغره كثيراً ، وهي إيلين برودبِك التي كان يعرفها منذ طفولتها الأولى ، والتي كانت قد كبرت في هذه الأثناء حتى أصبحت صبيّة . وكان الميل يبدو متبادلاً ، وقد كان الأمر ، على الرغم من الهواجس الجديّة للوالدين بالنظر إلى توقعات الحياة المستقبلية غير المؤكدة بعد بالنسبة للعاشق ، في حاجة إلى مجرد خطبة مقررّة لتوجيه العلاقة نحو المسار المرسوم سلفاً من أجل زواج مدني

أصوليّ . ومن المحتمل أن تكون علاقة القربى القائمة ، والظرف المتمثل في أن إيلين كانت ، منذ عشر سنوات ، ابنة زوجة أقرب أصدقاء شبتلر إليه ، وهو جوزيف فيكتور فيدمن قد أثّرت ، بالإضافة إلى ما يرتبط بذلك من تسلسل أبعاد المشاعر المختلفة وتداخلها ، في تعقيد المسألة . فقد كان شبتلر يتحفَّظ ، ولم يُبحِ لنفسه حتى قبلة وداع على رصيف المحطة . غير أنه اعترف لزوج الوالدة وصديقه ، وكان قد عاد أدراجه إلى بطرسبرج ، بدون مواربة ، بأن الزواج ليس وارداً في مخطط حياته . على أن النقد المتسم بالخشونة ، والذي ربما كان مرتبطاً بالعلاقة الإشكالية بابنة زوجة فيدمن ، وصديقه ، لإحدى صياغات شبتلر لنص بروميثيوس الشعري لم يكن من شأنه إزالة العائق الداخلي . غير أن إيلين ، التي كانت في الحقيقة خليقة أن يسرها أن ترى ابن عمها زوجاً لها ، بلا ريب ، ولكنها كانت لا تكاد تتعاطف معه بعاطفة بالغة العمق ، قررت ، بالنظر إلى طول مدى توقعات المستقبل المتعلقة بآمالها ، ببساطة ، أن تعطي أذناً صاغية للجهود المقترنة بالعزم والتصميم من قبل خاطب آخر . ومنذ عام ١٨٧٧ انعقدت خطبتها إلى فرديناند فيتَّر ، الذي كان يبدو أنه يقدم كل الضمانات لمستقبل مزدهر بحكم كونه أستاذ علوم اللغة الألمانية وآدابها ، ويتمتع بوظيفة ثابتة ، وفي السنة التالية تم الزفاف .

وحين عاد شبتلر بعد ذلك ، في شباط ١٨٧٩ إلى الوطن ، بعد موت والده ، وجد إيلين من جديد ، زوجةً وأماً لطفل . وهنالك تفجَّرت المشاعر التي تشكّل محور رواية إيماغو . «هوى إيماغو يُعاش» : هكذا يعبِّر الكاتب ، في قصة قصيرة متأخرة ، متعلقة بالسيرة الذاتية عن خلاصة جوهر ذلك العصر . وما كان أشدّ سرور شبتلر إذ عرض عليه فيدمن تدريس بضع ساعات في مدرسة البنات التي كان هذا يديرها في تلك الأيام ، والاستقرار

مع أمه المترمّلة في بِرْن . وكان من أثر علاقات الصداقة والقربى مع بيت فيدمن أن الزميل الجديد لم يكن يدخل ويخرج هنا فحسب ، بل في منزل الأستاذ فيتّر ، وكان يجد قبولاً على وجه الإطلاق في الأوساط المعنية بالثقافة التي كان فيدمن وزوجته يمثلان روحها . وكان التعارض بين الوسط السائد في بطرسبرج ، المطبوع بطابع البلاط والبورجوازية الكبيرة ، والذي كان شبتلر قد أخذ بأشكال التعامل فيه ، وبين الأحوال البسيطة الأقرب إلى الضيق ، في محيطه الجديد ، كبيراً بما فيه الكفاية ، وإن لم يكن بالغ الفظاظة كما تصوره الرواية في البداية . وما كان من الجائز أن يظهر شبتلر في صورة «القاضي» لدى ابنة عمه ، وربما نظر إلى زوجها نظرته إلى منافس سعيد فحسده ، ولكن لم ينظر إليه نظرته إلى «وكيل» . ولا بدّ أن تكون «التشنُّجات والأوهام» قد حدثت في هذه الأثناء ، من جانب واحد على الأقل ، على النحو الذي تصفه الرواية . أمّا من حيث حدّة الشعور فلم يكن واقع الحياة يستجيب للصياغة الشعرية في شيء ، كما تكشف عن ذلك بعض مسوّدات الرسائل المتبقّية . أمّا التحويل الشكليّ لمتحدٍّ كان يظهر متغطرساً أول الأمر ، إلى عابد مستكين ، فلم يكن من الممكن أن يرد الحديث عنه . وبدلاً من السرد المتسلسل بعضه وراء بعض يترتّب على المرء أن يتصوّر تداخلاً واختلاطاً مصحوبين بقفزات جانبية وأقوال متناقضة شتى لم يكن كاتب الرواية يستطيع أن يحسب لها حساباً ، ولا يريدها .

وكان ما جاء بالخاتمة بدرجة أقلّ هو تصميمه ، في ربيع عام ١٨٨١ ، على قبول وظيفة جديدة في لانوفيل ، وبذلك غادر البيئة الخطيرة ، وكان هذا في صورة مشهد مؤلم على نحو واضح خَرَّ في أثنائه شبتلر ، تبعاً لذاكرة إيلين المأخوذة من جانب واحد بالطبع ، والتي تساندها مسودّات رسائل الكاتب إلى حد ما ، على ركبتي ابنة عمه متوسلاً إليها أن تكون له في

مستقبل الأيام على الأقل ، بعد وفاة زوجها . وجعلت الزوجة الشابة تتجنّب ، بطبيعة الحال ، منذ الآن فصاعداً ، الخلوة مع حبيبها السابق . غير أن هذا راجع «مخطط حياته» بطريقة غير متوقعة ، إذ تزوّج في خريف عام ١٨٨٣ ، ماري أوب دِنْ هوف ، وهي إحدى تلميذاته السابقات في مدرسة البنات العائدة لفيدمن في برن ، وكانت أصغر منه بثمانية عشر عاماً .

ولئن كانت علاقات شبتلر بابنة عمه قد انتهت شيئاً فشيئاً ، وعلى نحو ظاهر ، إلى الاعتدال في صورة تردُّد وديّ من منزل إلى منزل ـ وهو الأمر الذي توثِّقه رزمة من الرسائل التي لا تفيد شيئاً ، والمطَّهرة من كل ألوان العواطف الجامحة ـ فإن «الهوى» الذي جرَّبه بهذه الحدة ظل يحدث آثاره زمناً طويلاً بعد ذلك . ولمّا كان هذا الهوى يرتبط ، في أصوله ، بوعي شبتلر لرسالته الشعرية ، فقد ظل ، هو وكل آثاره اللاحقة مرتبطاً على الدوام بمصيره الأدبي . ومن الأمور ذات الدلالة أن المسودّات الأولى لرواية إيماغو تبدأ مع الأبيات الأولى من «الربيع الأوليمبي» في وقت واحد تقريباً ، وتواكب العمل الملحمي على مدى السنين ، في بوادر جديدة دائماً . وقد أدى اكتمال العمل الرئيس وبدء الاعتراف العام بإنجازات شبتلر الشعرية ، إلى فتح الطريق أمامه بصورة نهائية .

ولعل مما يلفت النظر في تاريخ التأثير الذي أحدثه هذا الكاتب الذي لم يكن يكتم أبداً نفوره من سيكولوجيا الرواية السائدة في عصره ، أن روايته «إيماغو» لفتت ، هي من دون سائر ما عداها ، الأنظار في مدرسة زيجموند فرويد المسماة علم نفس الأعماق . ومثلما كان الحال في أعمال شبتلر الملحمية ، كان يفضّل هنا أيضاً تحويل أحوال النفس الباطنية وأحداثها إلى صور ، تبعاً لأنموذج كتّاب الملاحم والأساطير القدماء ، بدلاً من تحليل مضامين

الوعي تحليلاً متكلّفاً . ويتمثل الحسم الذي يُطالَب به فيكتور من قبل وعيه لرسالته الشعرية ، له ولنا ، في صورة حوار مع شخصية نسائية يتم تمييزها بأنها « السيدة الصارمة » ، كما يتم تحقيق رؤية الحبيبة المُضَيَّعة في داخل البطل عن طريق شخصية إيماغو ، وتظهر ألوان الصراع الداخلي عند فيكتور في صورة حوار جدلي مع نوع من معرض الحيوانات لا تتحكَّم فيه « أناه » إلاّ بصورة غير كاملة . ويتحول تغيير التناقض إلى تلاؤم ، إلى طقس توبة مقسّم إلى أجزاء مثلما يحدث في حالة تصميم الرقص وإخراجه .

وفي أمثال هذه الجوانب على وجه الخصوص وجد علم النفس التحليلي الطامح بعضاً من ألوان معرفته الجوهرية ، من جديد ، وتجلىَ هذا على وجه الخصوص في تصميم فرويد وبعض تلاميذه ، على إصدار مجلتهم التي تم تأسيسها عام ١٩١٢ ، وهي « مجلة تطبيق علم النفس التحليلي على العلوم الإنسانية » ، باسم « إيماغو » ، ولا يكتفي واحد من محرري المجلة الجديدة ، وهو هانز زاكس ، بأن يعدّ « إيماغو » شبتلر « مأثرة الرواية السيكولوجية التي علمتنا الكثير ودلّتنا على الكثير... » ، بل يعتقد أن شبتلر أغنى علم نفس الأعماق « بمصطلح فني أصبح مصطلحاً لا يستغنى عنه ـ وهو كلمة (إيماغو) » حتى إنه كان يستحيل اختيار كلمة أخرى ، حين بادَرْنا إلى إعطاء هذه المجلة اسمها » على أن الكاتب لم يسمح لنفسه أن تنفعل ولا أن تتأثر ، بهذه الألوان من الإطراء . وكان لا يكاد يحيط بها علماً . ولم تكن الأحوال السيكولوجية الموصوفة من قبله تتخذ مكانها في نقطة الاهتمام المركزية عنده ، بحال من الأحوال . وبغضّ النظر عن العلاقات الخاصة بالسيرة الذاتية وما ينجم عنها من الاضطرار إلى الصياغة اللغوية ، كان مدار اهتمامه الجوهري هو مكانة الفنان في المجتمع . « تاسّو بين الديمقراطيين »* ـ هكذا حاول شبتلر أن يصوغ موضوع روايته في نظرة عامة لاحقة ، على إبداعه . وقد كان في وسعه أن يسمي بطله

فيكتور « طونيو كروجر »* رُميَ به في سويسرا . ولكن على قدر ما يقلّ التشابه بين فيكتور وتاستو ، بطل جوته ، يكون وضوح تميُّزه عن بطل قصة توماس مان الشاب التي ظهرت قبل « إيماغو » بما لا يكاد يبلغ الثلاث السنوات . وذلك أن العالم المدني الذي يلقي عليه طونيو نظراته المفعمة بالشوق والاستسلام للمصير ، يبدو عند شبتلر في صورة « جحيم الدَّعة » . أمّا العنف الذي يميّز أقاصيص « إكزافر تسجيلجنِ ، ومقدم التحية ، وفريدلي المشاكس وكونراد » فلا يُرى منه في هذا الإطار إلاّ القليل . وفي مقابل ذلك تكشف تجاريب فيكتور مع « جحيم » الوطن ، على نحو لا يمكن أن يُساء فهمه ، عن الصورة التي سوف يصممها ، بعد نصف قرن من الزمان ، ماكس فريش في روايته الكبيرة « شْتِلَّر » من سويسرا ، في أعقاب الحرب العالمية الثانية . ويجري لأناتول شْتِلَّر العائد إلى وطنه مثلُ الذي جرى لفيكتور العائد إلى وطنه ، مع وجود جيل جديد من مواطني بلده . وتخرج المعالم النقدية عند فريش بحدّة أكثر إلى حد ما ، وذلك في الحقيقة عند كلا الطرفين اللذين يخوضان في الحوار . ولكنْ ضاع من بطله ، قبل كل شيء ، الشطر الأكبر من ذلك التوجُّه الأساس الذي يستمتع به فيكتور بحكم كونه خادماً لسيدته الصارمة .وقد حُرِّم على فيكتور الانسحاب إلى مملكة الخيال الشعري الذي يبادر إليه في الختام بصحبة إيماغو . أمّا ما ينتظر المثَّال السابق شْتِلَّر في النهاية فهو طريق الوحدة القاتلة .

ڤيرنر شتاوففاخَر

محمد جديد

حلب ـ ١٨/٣/١٩٩٩

---

* Tasso : أنظر الحاشية الواردة في الصفحة :

* Tonio Kroger : (من أعمال توماس مان) .

الفهرس